قطوف العواصم شرح السنة

لابن أبي عاصم

جميع حقوق الطبع محفوظة ©

١٤٤٥هـ-٢٠٢٤م

الطبعة الأولى

للتواصل مع الموزع

+962780944046

قُطوف العَوَاصِم شرح السنة لابن أبي عاصم

الدكتور: محمد حسن عبدالغفار

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الكتاب

الحمد لله نحمده ونستعينه، ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ۝١﴾ [النساء: ١]. ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ۝١٠٢﴾ [آل عمران: ١٠٢]. ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا ۝٧٠ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ۝٧١﴾ [الأحزاب: ٧٠ – ٧١].

أما بعد:

فإن أصدق الحديث كتاب الله، وإن أفضل الهدي هدي محمد، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة ، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار، أرسل الله رسوله محمداً صلى الله عليه وسلم على أرض مقت أهلها عربها وعجمها، إلا باقياً اصطفاهم لصحبة نبيه وحمل لدينه من بعده فحمل الأمانة وبلغ الرسالة وترك أمته على المحاجة البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك، فشرب منه أصحابه المصطفون الدين، أنقى ما يكون حتى كأنه مخالطاً للحمهم ودمائهم، وألزمهم العليم الحكيم كلمة التقوى وشهد له بالأحقية والأهلية وكفى بالله شهيداً فكانوا ميزاناً لفهم هذا الدين.

ويضرب رسول الله ظلام الغيب بمصباح الوحي، ويخبر عن افتراق أمته على ثلاث وسبعين فرقة فحكم على المفترقين بالهلاك إلا واحدة ما زالت مع الجماعة الأولى، جماعة الصحب الكرام وإن نئت بهم الأمكنة وتباعدت بهم الأزمنة، لكن القلوب متفقة فقالوا

ليس لنا هداية إلا بقوله تعالى: ﴿فَإِنْ ءَامَنُواْ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَواْ﴾ [البقرة: ١٣٧] مُستنين بقوله عليه الصلاة والسلام (خير الناس قرني) متفق عليه.

فأطلق الخيرية فشملت الفهم والاتباع والاعتقاد والتفسير والأدب، فكان الصحابة رضي الله عنهم الميزان لهذا الدين فما لم يكن يومئذ ديناً فلن يكون ديناً، وجفا قوم وجعلوا الميزان أهواءهم وإن سموها براهين عقلية ودلالات قطعية فالله سبحانه جعل كل ما خالف الكتاب والسنة هوي، قال تعالى: (ثم جعلناك على شريعة من الأمر فاتبعها ولا تتبع أهواء الذين لا يعلمون) ولكن مصداقاً لقوله عليه الصلاة والسلام (لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق، لا يضُرُهم من خذلهم، حتى يأتي أمر الله وفي رواية: وهُم كذلك. رواه مسلم.

انطلق نفر من ورثة الأنبياء يقاتلون باللسان نشراً للعقيدة السلفية الصحيحة، وذباً عن هذا الدين القويم وكان من هؤلاء (ابن أبي عاصم)، صاحب هذا الكتاب العظيم، وهو من القرون الثلاثة المفضلة في قوله (خير الناس قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم) حيث توفي سنة (٢٨٧هـ) رحمه الله تعالى وجزاه عن ما قدم للأمة خيرا.

فكان كتابة السنة حافلاً بالعقيدة الصافية النقية الخالية من ترهات المتكلفين وسفاهة عقل المتجرئين على الكتاب والسنة، فكان الشرح لهذا الكتاب من باب السير على نهج هؤلاء الكرام عملاً بقوله تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٠٠﴾﴾ [التوبة: ١٠٠].

والله أسأل أن ينفع بهذا الشرح ويجعله خالصاً لوجهه الكريم ويجزي الشارح وكل من ساهم في إخراجه الفردوس الأعلى ورفقة النبي صلى الله عليه وسلم أنه ولي ذلك والقادر عليه.

وختاماً أسأل الله أن يرزقنا حسن الاعتقاد فيه ويجنبنا البدع ومدثات الأمور ويثبت

قلوبنا على توحيده حتى نلقاه.

وصل اللهم وسلم وبارك على نبينا محمد والحمد لله رب العالمين.

بقلم الأستاذ الدكتور

محمد حسن عبدالغفار (أبا عبدالله)

حفظه الله تعالى

ترجمة الشيخ

ترجمة فضيلة الشيخ الدكتور: محمد حسن عبد الغفار

[١] مولده:

ولد بالإسكندرية في ٢٩ من ربيع أول سنة ١٣٨٦ هجرية الموافق ١٧ يوليو ١٩٦٦ م

[٢] طلبه للعلم:

بدأت شرارة طلبه للعلم عندما ذهب مع صديق له إلى مكتبة لشراء الكتب، فهنالك تلاحا شخصان في صحة حديث، ثم تعالت الأصوات، فأوزع الله في قلبه أن يطلب العلم حتى يهدم هذا التنازع بالعلم، فثَمَّ بدأت الرحلة؛ حيث طلّق الدنيا طلاقًا باتًّا، ثم اشتعلت عزائمه في تحضيل العلم، فكان يدور مع كل مشايخ في اليوم الواحد -ولا يترك أحدا-، وكل ذلك والله يدبر له ترتيب مواعيد المشايخ، وكل مكان يبعد عن الآخر كيلوات من الأمتار، فرزقه الله قوة يدور بها على المشايخ سائرا على قدميه.

من سماته أنه كان لا يلتفت كثيرا بل لا ينظر سوى لرب العالمين باكيا متضرعا أن يعلمه الله، فقد كان ينعزل عن البشر يحاول أن يجاهد قلبه ألا يلتفت إلا لله وحده -سبحانه-، فيحضر المجالس فإذا انتهى المجلس يخرج في هدوء، وفي مرة كان العالم النبيل الدكتور: محمد إسماعيل المقدم -حفظه الله- يقود سيارته، فوجده يسير على جنبات الطريق، فقال له: (اركب). فركب في صمت تام، وانتبه أن شيخه يقرأ في كتاب الله -الذي كان لا يتركه-، فصمت؛ كي لا يشغله عن كتاب الله، فلما وصلوا إلى مكان الدرس، نزل وشكر الشيخ ثم ذهب.

كان طلاب العالم النبيل يكتظون حوله سائلين فكان يبتعد -مع إنه يريد أن يسأل- ولا يلتف بل يجلس متأدبا، فأتى الله له بالعالم النبيل حيث ناداه قائلا: (هل عندك أسئلة؟).

كان ارتباطه بربه ارتباطا يعجب منه كل من رآه، فما رآه أحدا إلا وفهم معنى الصدق

مع الله، فإذا امتحنهم المشايخ يذهب كي يحل الامتحان ثم يذهب دون كتابة اسمه، فإذا نادى الشيخ متسائلا عن صاحب الورقة -ليشكره على مجهوده-، فيصمت.

وكان منعزلاً عن الناس، ولكنهم كانوا يحبون الجلوس معه؛ حيث يفهمون مسألة، أو يمزحون مخففين على أنفسهم.

كان أكبر إخوته، وبعد موت الأب والأم رحمهما الله صار هو ولي الأمر لإخوته، فترك ذلك يدبرها الله، متوكلا على ربه: أنه ترك الدنيا كلها ثم أقبل على الله بكلية قلبه لا يريد أن يلتفت عن الله، فكان لله كما يريد، فجعل الله له فوق ما يريد؛ حيث كان لا يترك الكتاب، بل دائما بيده يقرأه حاملا حقيبته حيثما ذهب. ومن العجائب أنه كان يذهب إلى المدرسة بالقميص الأبيض القصير والقلنسوة، فلما رآه المدير وبخه، فما كان منه إلا أن أوقفه عند حده بقوة، فأراد المدير أن يعزله عن عمله، فرد عليه بقوة قائلا: (أنت لا تملك، بل خزائن السماوات والأرض بيد الله، فاصنع ما تريد)، ثم تركه وذهب ناظرا إلى السماء، فما هو إلا وقت يسير حتى جاءته ورقة يعتذر له المدير، ويسأله الدعاء. وذات مرة قال له فضيلة الشيخ: أحمد السيسي -حفظه الله-: تخصص، فمستحيل أن تستوعب كل شيء. فقال له: الممكن والصعب والمستحيل عند الله شيء واحد. ففتح فضيلة الشيخ أحمد السيسي له مكتبة المسجد خاصة له. ثم سافر إلى الإمارات مع إنه كان يريد أن يذهب إلى طلب العلم في السعودية، ولكن جعل الله له الخير في علماء الإمارات، بل وأتى له بعلماء من مصر كالمحدث أبي إسحاق الحويني -حفظه الله- وغيرهم.

[٣] حاصل على:

- بكالوريوس علوم وتربية (جامعة الإسكندرية).
- بكالوريوس في الشريعة.
- ماجستير في الشريعة.

- عمل مدرس للعلوم الشرعية منذ سنة ١٩٩٨ م.

- حاصل على شهادة الدكتوراة في الشريعة الإسلامية بتقدير عام مرتبة الشرف الأولى، وعنوان الرسالة: (الليث بن سعد وأثره في الفقه الإسلامي).

- حاصل على شهادة الدكتوراة في الشريعة، وعنوان الرسالة: (مراسيل الحسن البصري عن عائشة).

[٤] أساتذته ومشايخه -رحم الله ميتهم، وحفظ حيهم-:

١- فضيلة الشيخ الدكتور/ محمد إسماعيل.

٢- فضيلة الشيخ الدكتور/ ياسر برهامي.

٣- فضيلة الشيخ الدكتور/ احمد فريد.

٤- فضيلة الشيخ/ أبو إسحاق الحويني.

٥- فضيلة الدكتور/ مسفر بن غرم الله الدمينى.

٦- فضيلة الشيخ الدكتور/ عبد الله الزايدى.

٧- فضيلة الشيخ الدكتور/ عبد القيوم شفيع.

٨- فضيلة الشيخ/ محمود عطية.

٩- فضيلة الشيخ الدكتور/ محفوظ الرحمن.

١٠- فضيلة الشيخ/ القاضي حسين المهلاوي.

١١- حضر مجالس لفضيلة العالم ابن عثيمين.

[٥] الإجازات العامة:

- القرآن بإسناد لحفص.

- إجازة في مصطلح الحديث كتاب (إرشاد طلاب الحقائق).

- إجازة في مسند البزار.

- إجازة في الكتب الستة.

- إجازة في كتاب نخبة الفكر.

[٦] إجازة المشايخ عامة:

- فضيلة الشيخ الدكتور: محمد إسماعيل المقدم.

- فضيلة الشيخ: محمود عطية.

[٧] مصنفاته، وتحقيقاته، وتخريجاته:

- أشراط الساعة منتقي من كتاب ابن كثير (تصنيف).

- جامع باب العلم وفضله لابن البر (تخريج).

- كتب في التوحيد (تخريج).

- السترة وبيانات أحكامها.

- رسالة لكل امرأة.

- تيسير أحكام الحيض.

- مسائل في البيوع مهمة تهم الأمة.

- تيسير فقه الطلاق.

-التبصرة بالاعتقادات الباطلة.

- فقه المعاملات من سورة البقرة (رسالة ماجستير).

- مراسيل الحسن البصري عن عائشة (رسالة دكتوراه في الحديث).

- الليث بن سعد وأثره في الفقه الإسلامي (رسالة دكتوراه في الفقه).

[٨] ثناء العلماء عليه:

(١) المحدث أبو إسحاق الحويني:

- سيصير شأنه في الأمة كبيرا إن لم يصبه الغرور.
- إنما هي شمس تغرب، وشمس تشرق، وقد أشرقت شمسك، فاغتنمها.

(٢) فضيلة العالم النبيل محمد إسماعيل المقدم:

- إنه الشيخ الموسوعي، إذا تكلم في علم ظننت أنه لا يتقن غيره.

(٣) فضيلة العالم عبد المحسن العباد البدر لما علم بانتهائه من شرح كتاب المهذب قال:

- هذا عندي أوثق أهل مصر.

(٤) فضيلة للشيخ صالح العصيمي لما علم بمحاربة أهل البدع له، فأبلغه السلام ثم قال:

- اصبر؛ فإن الطريق هكذا، والحرب على السنة وأهلها قائمة.

(٥) دكتور بدران العياري -أستاذ الحديث وعلومه بجامعة الأزهر-:

- ما أراه إلا ابن تيمية العصر.

(٦) الدكتور محمد الزحيلي-عميد كلية الشريعة والدراسات الإسلامية بجامعة الشارقة:

- إن من نوادر الفقهاء في هذا الزمان الدكتور محمد حسن عبد الغفار.

(٧) فضيلة الشيخ مشهور بن حسن آل سلمان:

- أنت نادر الوجود في أيامنا، اثبت، وثبِّت مَن حولك.

[٩] الكتب المشروحة:

الْعَقِيدَةُ:

[١] مَتْنُ لُمْعَةِ الْاعْتِقَادِ || ابْنُ قُدَامَةَ الْمَقْدِسِيُّ.

[٢] مَتْنُ الْأُصُولِ السِّتَّةِ || مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الْوَهَّابِ.

[٣] مَتْنُ أُصُولِ السُّنَّةِ || أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ.

[٤] مَتْنُ أُصُولِ السُّنَّةِ || الْحُمَيْدِيُّ.

[٥] مَتْنُ صَرِيحِ السُّنَّةِ || الطَّبَرِيُّ.

[٦] مَتْنُ تَجْرِيدِ التَّوْحِيدِ الْمُفِيدِ || الْمَقْرِيزِيُّ.

[٧] الدُّرَرُ النَّضِيدُ || الشَّوْكَانِيُّ.

[٨] أَفْعَالُ الرَّسُولِ ﷺ || مُحَمَّدُ الْأَشْقَرُ.

[٩] الشِّرْكُ فِي الْقَدِيمِ وَالْحَدِيثِ || مُحَمَّدُ زَكَرِيَّا.

[١٠] كِتَابُ التَّوْحِيدِ || مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الْوَهَّابِ.

[١١] قَاعِدَةٌ عَظِيمَةٌ || ابْنُ تَيْمِيَةَ.

[١٢] الْقَصِيدَةُ اللَّامِيَّةُ || ابْنُ تَيْمِيَةَ.

[١٣] مَتْنُ عَقِيدَةِ الرَّازِيَيْنِ.

[١٤] مَعَارِجُ الْقَبُولِ || حَافِظُ الْحَكَمِيُّ.

[١٥] الْإِيمَانُ || ابْنُ مَنْدَه.

[١٦] اعْتِقَادُ أَئِمَّةِ أَهْلِ الْحَدِيثِ || الْإِسْمَاعِيلِيُّ.

[١٧] التَّوْحِيدُ || ابْنُ خُزَيْمَةَ.

[١٨] الْعَقِيدَةُ الْوَاسِطِيَّةُ || ابْنُ تَيْمِيَةَ.

[١٩] الْاعْتِقَادُ || ابْنُ أَبِي يَعْلَىٰ.

[٢٠] أُصُولُ الْاعْتِقَادِ || اللَّالَكَائِيُّ.

[٢١] شَرْحُ السُّنَّةِ [الشَّرْحُ الْأَوَّلُ] || الْمُزَنِيُّ.

[٢٢] شَرْحُ السُّنَّةِ [الشَّرْحُ الثَّانِي] || الْمُزَنِيُّ.

[٢٣] نَوَاقِضُ الْإِسْلَامِ [الثَّانِي] || مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الْوَهَّابِ.

[٢٤] الْأُصُولُ الْفَارِقَةُ [أَهْلُ السُّنَّةِ || الْأَشَاعِرَةِ].

[٢٥] الْأُصُولُ الْفَارِقَةُ [أَهْلُ السُّنَّةِ || الصُّوفِيَّةِ].

[٢٦] الْأُصُولُ الْفَارِقَةُ [أَهْلُ السُّنَّةِ || الشِّيعَةِ].

[٢٧] الْأُصُولُ الْفَارِقَةُ [أَهْلُ السُّنَّةِ || الْخَوَارِجِ].

[٢٨] الْأُصُولُ الْفَارِقَةُ [أَهْلُ السُّنَّةِ || الْمُعْتَزِلَةِ].

[٢٩] صِفَاتُ اللهِ وَآثَارُهَا فِي إِيمَانِ الْعَبْدِ.

[٣٠] الْفَتْوَى الْحَمَوِيَّةُ الْكُبْرَىٰ || ابْنُ تَيْمِيَةَ.

[٣١] مُخْتَصَرُ الصَّارِمِ الْمَسْلُولِ || ابْنُ اللَّحَّامِ.

[٣٢] الْإِبَانَةُ الْكُبْرَىٰ || ابْنُ بَطَّةَ.

[٣٣] السُّنَّةُ || ابْنُ أَبِي عَاصِمٍ.

[٣٤] الْعَقِيدَةُ السَّفَّارِينِيَّةُ || السَّفَّارِينِيُّ.

[٣٥] قَاعِدَةٌ جَلِيلَةٌ فِي التَّوَسُّلِ || ابْنُ تَيْمِيَةَ.

[٣٦] الرِّسَالَةُ التَّدْمُرِيَّةُ || ابْنُ تَيْمِيَةَ.

[٣٧] كَشْفُ الشُّبُهَاتِ || مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الْوَهَّابِ.

[٣٨] الشَّرِيعَةُ || الْآجُرِّيُّ.

[٣٩] عَقِيدَةُ السَّلَفِ || الصَّابُونِيُّ.

[٤٠] رِسَالَةُ ابْنِ أَبِي زَيْدٍ الْقَيْرَوَانِيِّ.

[٤١] الْمَنْظُومَةُ الْحَائِيَّةُ || ابْنُ أَبِي دَاوُدَ.

[٤٢] الرَّدُّ عَلَى كِتَابِ الْبَيَانِ الْقَوِيمِ || عَلِي جُمُعَة.

[٤٣] دَفْعُ إِيهَامِ التَّشْبِيهِ عَنْ أَحَادِيثِ الصِّفَاتِ.

[٤٤] مَسَائِلُ الْجَاهِلِيَّةِ || مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الْوَهَّابِ.

[٤٥] ضَوَابِطُ التَّكْفِيرِ عِنْدَ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ.

[٤٦] مُهِمَّاتٌ فِي الْقَضَاءِ وَالْقَدَرِ || سِلْسِلَةٌ.

[٤٧] فَصْلُ الْخِطَابِ فِي مَسْأَلَةِ الْعُذْرِ بِالْجَهْلِ.

[٤٨] الْقَوَاعِدُ الْمُثْلَىٰ || ابْنُ الْعُثَيْمِينَ.

[٤٩] دَلَائِلُ النُّبُوَّةِ || ابْنُ تَيْمِيَةَ.

[٥٠] رَدُّ تَقْسِيمِ الْبِدْعَةِ وَشُبُهَاتِ الْمُبْتَدِعَةِ.

[٥١] الْإِبَانَةِ الصُّغْرَىٰ || ابْنُ بَطَّةَ.

[٥٢] النُّونِيَّةُ [الْكَافِيَةُ الشَّافِيَةُ] || ابْنُ الْقَيِّمِ.

[٥٣] شُعَبُ الْإِيمَانِ || الْبَيْهَقِيُّ.

[٥٤] أُصُولُ الْإِيمَانِ || مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الْوَهَّابِ.

[٥٥] الْعَقِيدَةُ الطَّحَاوِيَّةُ || الطَّحَاوِيُّ.

[٥٦] أُصُولُ السَّلَفِ وَأُصُولُ الْخَلَفِ || سِلْسِلَةٌ.

[٥٧] رِسَالَةُ الْعُبُودِيَّةِ || ابْنُ تَيْمِيَةَ.

[٥٨] شَرْحُ أَسْمَاءِ اللهِ الْحُسْنَىٰ || سِلْسِلَةٌ.

[٥٩] قَوَاعِدُ فِي الرَّدِّ عَلَى مَنْ يُكَفِّرُونَ النَّاسَ.

[٦٠] الْاحْتِجَاجُ بِالْقَدَرِ || ابْنُ تَيْمِيَةَ.

[٦١] كِتَابُ التَّوْحِيدِ || الْبُخَارِيُّ.

[٦٢] نَوَاقِضُ الْإِسْلَامِ [الْقَدِيمُ] || مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الْوَهَّابِ.

[٦٣] مُنَاظَرَةُ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ || صَالُونُ السُّكَّرِيِّ.

[٦٤] شَرْحُ أَسْمَاءِ اللهِ الْحُسْنَىٰ || جَامِعُ التِّرْمِذِيِّ.

[٦٥] ثَلَاثَةُ الْأُصُولِ وَأَدِلَّتُهَا || مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الْوَهَّابِ.

[٦٦] شُبُهَاتُ الْمُبْتَدِعَةِ || عَبْدُ اللهِ الْهُذَيْلِ.

[٦٧] مُخْتَصَرُ مِنْهَاجِ السُّنَّةِ || ابْنُ تَيْمِيَةَ.

[٦٨] دَرْءُ التَّعَارُضِ الْعَقْلِ وَالنَّقْلِ || ابْنُ تَيْمِيَةَ.

[٦٩] رَدُّ شُبُهَاتِ الصُّوفِيَّةِ الْقُبُورِيَّةِ.

[٧٠] نَحْنُ أَوْلَىٰ بِالشَّافِعِيِّ مِنْكُمْ.

[٧١] حَرْبُ بْنُ إِسْمَاعِيلَ الْكِرْمَانِيُّ.

[٧٢] اعْتِقَادُ الْإِمَامِ الْمُنَبَّلِ أَحْمَدَ بْنِ حَنْبَلٍ

[٧٣] تَطْهِيرُ الْاعْتِقَادِ عَنْ أَدْرَانِ الْإِلْحَادِ.

[٧٤] الْبِدْعَةُ وَالْمَصْلَحَةُ الْمُرْسَلَةُ.

[٧٥] الدِّفَاعُ عَنِ الْإِمَامِ أَبِي حَنِيفَةَ.

[٧٦] السُّنَّةُ || أَبُو بَكْرِ بْنِ الْخَلَّالِ.

[٧٧] شُبُهَاتِ الرَّوَافِضِ حَوْلَ عَائِشَةَ -رَضِيَ اللهُ عَنْهَا-

[٧٨] سُلَّمُ الْوُصُولِ || حَافِظُ الْحَكَمِيُّ.

[٧٨] الْعَقِيدَةُ الْإِسْلَامِيَّةُ.

تَرَاجِمُ، وَفَضَائِلُ، وَآدَابٌ، وَرَقَائِقُ:

(أ)آدَابٌ:

[١] حِلْيَةُ طَالِبِ الْعِلْمِ.

[٢] سُنَنُ الصَّالِحِينَ || الْبَاجِيُّ.

[٣] آدَابُ طَالِبِ الْحَدِيثِ.

[٤] الْأَدَبُ مَعَ الْعُلَمَاءِ || ابْنُ عَبْدِ الْغَفَّارِ.

[٥] آدَابُ طَالِبِ الْعِلْمِ || أَكَادِيمِيَّةُ الرَّشِيدُ الْعَالَمِيَّةُ.

[٦] الْأَدَبُ الْمُفْرَدُ || الْبُخَارِيُّ - رَحِمَهُ اللهُ -.

(ب)رَقَائِقُ:

[١] رَقَائِقُ مِنْ كِتَابِ مَعَارِجِ الْقَبُولِ.

[٢] بَرْنَامَجُ: قُلُوبٌ أَثْمَرَتْ - النَّدَىٰ -.

[٣] بَرْنَامَجُ: فِقْهُ التَّعَامُلِ مَعَ اللهِ - الرَّحْمَةُ -.

[٤] الْمَعَانِي الْإِيمَانِيَّةُ || أَكَادِيمِيَّةُ الرَّشِيدُ الْعَالَمِيَّةُ.

(ج) فَضَائِلُ:

[١] فَضَائِلُ الصَّحَابَةِ.

(د) تَرَاجِمُ:

[١] تَرَاجِمُ فُقَهَاءِ الْمُحَدِّثِينَ.

[٢] مِنْ أَعْلَامِ السَّلَفِ.

[٣] بِيُوتُ النَّبِيِّ ﷺ - الْحَافِظُ -.

[٤] صِفَاتُ الْعَالِمِ الَّذِي يُرْجَعُ إِلَيْهِ فِي عُضَلِ الْمَسَائِلِ.

[٥] فَضْلَ عِلْمِ السَّلَفِ || ابْنُ رَجَبٍ الْحَنْبَلِيُّ.

اللُّغَةُ:

[١] مَتْنُ الْآجُرُّومِيَّةِ || ابْنُ آجُرُّومِ.

[٢] كِتَابُ التَّطْبِيقِ النَّحْوِيِّ || عَبْدُهُ الرَّاجِحِيُّ.

[٣] الْفُرُوقُ الدَّلَالِيَّةُ || مُحَمَّدُ دَاوُد.

الْحَدِيثُ:

[١] مَتْنُ الْبَيْقُونِيَّةِ || الْبَيْقُونِيُّ.

[٢] الْمُوقِظَةُ || الذَّهَبِيُّ.

[٣] الْبَاعِثُ الْحَثِيثُ || ابْنُ كَثِيرٍ.

[٤] عُلُومُ الْحَدِيثِ || مُقَدِّمَةُ ابْنِ الصَّلَاحِ.

[٥] تَرَاجِمُ فُقَهَاءِ الْمُحَدِّثِينَ.

[٦] التَّدْلِيسُ فِي الْحَدِيثِ || مُسْفِرُ الدُّمِينِيُّ.

[٧] التَّطْبِيقَاتُ الْعَمَلِيَّةُ عَلَى أَسَانِيدِ مُسْلِمٍ.

[٨] الْعِلَلُ || الدَّارَقُطْنِيُّ.

[٩] التَّنْكِيلُ || الْمُعَلِّمِي الْيَمَانِيُّ.

[١٠] مَنْهَجُ ابْنِ حَزْمٍ فِي تَعْلِيلِ الْأَخْبَارِ.

[١١] لَفَتَاتٌ فِي عِلْمِ الْجَرْحِ وَالتَّعْدِيلِ.

[١٢] التَّأْصِيلُ فِي عِلْمِ الْجَرْحِ وَالتَّعْدِيلِ.

[١٣] ضَوَابِطُ نَقْدُ مُتُونِ السُّنَّةِ عِنْدَ النُّبَلَاءِ.

[١٤] مَنْهَجُ الْإِمَامِ أَحْمَدَ فِي التَّعْلِيلِ.

[١٥] مَعْنَى "إِذَا صَحَّ الحِدِيثُ فَهُوَ مَذْهَبِي".

[١٦] آدَابُ طَالِبِ الْحَدِيثِ.

[١٧] تَأْوِيلُ مُخْتَلَفِ الْحَدِيثِ || ابْنُ قُتَيْبَةَ.

[١٨] الرِّجَالُ الْمُتَكَلَّمُ فِيهِمْ وَرَوَى عَنْهُمُ الْبُخَارِيُّ.

[١٩] النَّظَرُ فِيمَا عَلَّقَ الشَّافِعِيُّ الْقَوْلَ بِهِ.

[٢٠] قَوَاعِدُ التَّحْدِيثِ مِنْ فُنُونِ مُصْطَلَحِ الْحَدِيثِ.

[٢١] الرَّدُّ عَلَى كِتَابِ التَّعْرِيفِ.

[٢٢] التَّطْبِيقُ الْعَمَلِيُّ لِكِتَابِ التَّعْرِيفِ بِأَوْهَامِ مَنْ قَسَّمَ السُّنَنِ إِلَى صَحِيحٍ وَضَعِيفٍ.

[٢٣] الْعِلَلُ || ابْنُ الْمَدِينِيِّ.

[٢٤] دِرَاسَةٌ تَطْبِيقِيَّةٌ فِي كُتُبِ الْعِلَلِ. [الْجَامِعَةِ]

[٢٥] الشَّمَائِلُ الْمُحَمَّدِيَّةُ || التِّرْمِذِيُّ.

[٢٦] رِوَايَةُ الْمُدَلِّسِينَ فِي الْبُخَارِيِّ.

[٢٧] التَّطْبِيقَاتُ الْعَمَلِيَّةُ عَلَى قَوَاعِدِ الْجَرْحِ وَالتَّعْدِيلِ.

[٢٨] نُزْهَةُ النَّظَرِ || ابْنُ حَجَرٍ الْعَسْقَلَانِيُّ.

[٢٩] أَصْحَابُ الْكُتُبِ الصِّحَاحِ فِي الْحَدِيثِ.

[٣٠] شَرْحُ عِلَلِ الْحَدِيثِ || ابْنُ رَجَبٍ الْحَنْبَلِيُّ.

[٣١] تَأْوِيلُ مُخْتَلَفِ الْحَدِيثِ.

[٣٢] مُتُونٌ وَأَسَانِيدُ.

[٣٣] الْمُخْتَلَفُ فِيهِمْ لِابْنِ شَاهِينَ.

[٣٤] مِيزَانُ الْاعْتِدَالِ فِي نَقْدِ الرِّجَالِ.

أُصُولُ وَقَوَاعِدُ الْفِقْهِ:

[١] تَسْهِيلُ التَّعْلِيقَاتِ عَلَى مَتْنِ الْوَرَقَاتِ.

[٢] مَتْنُ الْوَرَقَاتِ || الْجُوَيْنِيُّ [الشَّرْحُ الْمُوسَّعُ].

[٣] تَيْسِيرُ أُصُولِ الْفِقْهِ لِلْمُبْتَدِئِينَ.

[٤] أَثَرُ الْاخْتِلَافِ فِي الْقَوَاعِدِ الْأُصُولِيَّةِ || [الْجَامِعَةِ]

[٥] قَوَاعِدُ الْاتِّفَاقِ وَالْاخْتِلَافِ || [الْجَامِعَةِ]

[٦] أَدِلَّةُ الْقَوَاعِدِ الْأُصُولِيَّةِ مِنَ السُّنَّةِ النَّبَوِيَّةِ.

[٧] تَيْسِيرُ الْوُصُولِ || الْبَيْضَاوِيُّ.

[٨] قَوَاعِدُ الْأُصُولِ وَمَعَاقِدُ الْفُصُولِ.

[٩] رَفْعُ الْمَلَامِ عَنْ أَئِمَّةِ الْأَعْلَامِ || ابْنُ تَيْمِيَةَ.

[١٠] جَمْعُ الْجَوَامِعِ || السُّبْكِيُّ.

[١١] الْقَوَاعِدُ || الْعِزُّ ابْنِ عَبْدِ السَّلَامِ.

[١٢] التَّعَارُضُ وَالتَّرْجِيحُ || [الْجَامِعَةِ]

[١٣] الْقَوَاعِدُ الْأُصُولِيَّةُ وَأَثَرُهَا || [الْجَامِعَةِ]

[١٤] تَيْسِيرُ الْوُصُولِ إِلَى قَوَاعِدِ الْأُصُولِ || [الْجَامِعَةِ]

[١٥] التَّمهِيدُ الْوَاضِحُ || مُصْطَفَىٰ مَخْدُوم.

[١٦] مَبَاحِثُ فِي الْعَامِ وَالْخَاصِ.

[١٧] قَاعِدَةٌ أُصُولِيَّةٌ بَيْنَ الْحَاظِرِ وَالْمُبِيحِ.

[١٨] سَدُّ الذَّرَائِعِ عِنْدِ ابْنِ تَيْمِيَةَ.

[١٩] إِرْشَادُ الْفُحُولِ || الشَّوْكَانِيُّ.

[٢٠] الْاجْتِهَادُ بَيْنَ مُسَوّغَاتِ الْانْقِطَاعِ وَضَوَابِطِ الْاسْتِمْرَارِ.

[٢١] الرِّسَالَةُ || الشَّافِعِيُّ [الشَّرْحُ الْأَوَّلُ].

[٢٢] الرِّسَالَةُ || الشَّافِعِيُّ [الشَّرْحُ الثَّانِي].

[٢٣] الْقَوَاعِدُ الْفِقْهِيَّةُ || مُحَمَّدُ بَكْر إِسْمَاعِيل.

[٢٤] مَقَاصِدُ الشَّرِيعَةِ وَتَيْسِيرُ الْفَتْوَىٰ.

[٢٥] الْمُوَافَقَاتُ [مُتَوَقِّفٌ] || أَبُو إِسْحَاقَ الشَّاطِبِيُّ.

[٢٦] الْقَوَاطِعُ فِي أُصُولِ الْفِقْهِ || أَبُو الْمُظَفَّرِ السَّمْعَانِيُّ.

[٢٧] شَرْحُ أُصُولِ الْفِقْهِ || مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الْوَهَّابِ.

[٢٨] دِرَاسَاتٌ فِي الْتُّرَاثَيْنِ الْفِقْهِيِّ وَالْأُصُولِيِّ.

[٢٩] مَنَاهِجُ الْاسْتِنْبَاطِ عِنْدَ الْفُقَهَاءِ.

[٣٠] الْقَوَاعِدُ وَالضَّوَابِطُ الْفِقْهِيَّةُ.

[٣١] الْقَوَاعِدُ الْفِقْهِيَّةُ.

[٣٢] مَقَاصِدُ الشَّرِيعَةِ.

[٣٣] الِاجْتِهَادُ وَالتَّقْلِيدُ.

[٢٤] قَوَاعِدُ فَتَاوَىٰ ابْنِ تَيْمِيَةَ.

فِقْهُ الْكُتُبِ وَالْمُتُونِ الْفِقْهِيَّةِ:

[١] قَانُونُ الْأَسْوَاقِ الْمَالِيَّةِ. [الْجَامِعَةِ]

[٢] الْقَضَاءُ وَالْفَتْوَى. [الْجَامِعَةِ]

[٣] الْانْفِرَادَاتُ وَالْاخْتِيَارَاتُ الْفِقْهِيَّةُ. [الْجَامِعَةِ]

[٤] فِقْهُ الْمُعَامَلَاتِ الْمَالِيَّةِ. [الْجَامِعَةِ]

[٥] نَظَرِيَّةُ الْعَقْدِ فِي الشَّرِيعَةِ وَالْقَانُونِ. [الْجَامِعَةِ]

[٦] مَعَايِيرُ الْاقْتِصَادِ الْإِسْلَامِيِّ.

[٧] الطُّرُقُ الْحُكْمِيَّةُ فِي السِّيَاسَةِ الشَّرْعِيَّةِ.

[٨] مَدْخَلٌ لِلْمُعَامَلَاتِ الْمَصْرِفِيَّةِ.

[٩] أَقْيِسَةُ الصَّحَابَةِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ.

[١٠] الْفُرُوقُ الْفِقْهِيَّةُ. (ج١) [الْجَامِعَةِ]

[١١] الْفُرُوقُ الْفِقْهِيَّةُ. (ج٢) [الْجَامِعَةِ]

[١٢] السِّيرَةُ النَّبَوِيَّةُ.

[١٣] تَخْرِيجُ الْفُرُوعِ عَلَى الْأُصُولِ. [الْجَامِعَةُ]

[١٤] تَخْرِيجُ الْفُرُوعِ عَلَى الْأُصُولِ. [الزَّنْجَانِيُّ]

[١٥] فِقْهُ الْمُعَامَلَاتِ فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ. [الْجَامِعَةُ].

[١٦] النَّظَرِيَّاتُ الْعَامَّةُ فِي الْفِقْهِ الْإِسْلَامِيِّ (شرحان).

[١٧] التَّمْوِيلُ وَالْمَصَارِفُ الْإِسْلَامِيَّةُ.

[١٨] الْعُقُودُ الشَّرْعِيَّةِ.

[الْمَذْهَبُ الشَّافِعِيِّ]

[١٩] مَتْنُ أَبِي شُجَاعٍ (شرحان: الشَّرْحُ الْقَدِيمُ - الشَّرْحُ الْجَدِيدُ).

[٢٠] التَّنْبِيهُ || الشِّيرَازِيُّ.

[٢١] كَفَايَةُ الْأَخْيَارِ || [الْجَامِعَةِ]

[٢٢] مَتْنُ مِنْهَاجِ الطَّالِبِينَ.

[٢٣] أُصُولُ الشَّافِعِيَّةِ || [مُتَوَقِّفٌ]

[٢٤] الْمُقَدِّمَةُ الْحَضْرَمِيَّةُ || مَعْهَدُ السُّنَّةِ.

[الْمَذْهَبُ الْحَنْبَلِيُّ]

[٢٥] الْعُدَّةُ شَرْحُ الْعُمْدَةِ.

[الْمَذْهَبُ الْمَالِكِيّ]

[٢٦] أُصُولُ الْمَذْهَبِ الْمَالِكِيِّ.

[الْفِقْهُ الْمُقَارَنُ]

[٢٧] الْإِفْصَاحُ عَنْ مَعَانِي الصِّحَاحِ.

[٢٨] الْمُهَذَّبُ فِي فِقْهِ الْإِمَامِ الشَّافِعِيِّ.

[٢٩] الْمُغْنِي شَرْحُ مُخْتَصَرِ الْخِرَقِيِّ.

[٣٠] بِدَايَةُ الْمُجْتَهِدِ وَنِهَايَةُ الْمُقْتَصِدِ.

[٣١] الْمَذَاهِبُ الْفِقْهِيَّةُ || مَعْهَدُ السُّنَّةِ.

[٣٢] أُصُولُ التَّشْرِيعِ.

[٣٣] مَوَاقِفُ النَّبِيِّ ﷺ مَعَ الصَّحَابَةِ.

بَرَامِجُ الْمَرْئِيَّاتِ:

[١] فِقْهُ التَّعَامُلِ مَعَ اللهِ || الرَّحْمَةُ.

[٢] خَطَرُ الْانْحِرَافِ الْعَقَدِيِّ || الصَّفَا.

[٣] الْوَفَاءُ || الْحِكْمَةُ.

[٤] عَقِيدَةُ الصَّحَابَةِ || الصَّفَا.

[٥] عَلَامَاتُ الْمَحَبَّةِ || النَّدَىٰ.

[٦] وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ || الرَّحْمَةُ.

[٧] هَذِهِ سَبِيلِي || النَّدَىٰ.

[٨] الْجِيلُ الْفَرِيدُ || النَّدَىٰ.

[٩] مَجْلِسُ الْفِقْهِ || النَّدَىٰ. [الْفِقْهُ الْمُيَسَّرُ]

[١٠] قُلُوبٌ أَثْمَرَتْ || النَّدَىٰ.

[١١] فِقْهُ الصِّيَامِ || السَّلَامُ.

[١٢] سِرُّ الْإِخَاءِ || السَّلَامُ.

[١٣] وَصَايَا حَجَّةِ الْوَدَاعِ || السَّلَامُ.

[١٤] عَقِيدَةُ السَّلَفِ نَجَاةٌ || الْمَحَبَّةُ.

[١٥] سَبِيلُ النَّجَاةِ || الرَّحْمَةُ.

[١٦] ستوديو صَفَا || الصَّفَا.

[١٧] بَيْتُ النُّبُوَّةِ || الْحَافِظُ.

[١٨] فَتَاوَىٰ السَّلَامِ || السَّلَامُ.

[١٩] حَجُّ النَّبِيِّ ﷺ || الرَّحْمَةُ.

[٢٠] اللَّيْثُ بْنُ سَعْدٍ || السَّلَامُ.

[٢١] فِقْهُ الْمَرْأَةِ || النَّدَىٰ.

[٢٢] أُمَّهَاتُ الْمُؤْمِنِينَ || مَوَدَّةٌ.

[٢٣] صَبَاحُ النَّدَىٰ || النَّدَىٰ.

[٢٤] السَّابِقُونَ الْأَوَّلُون || [النَّدَىٰ].

فِقْهُ الْمُنَاسَبَاتِ وَالسَّلَاسِلُ الْفِقْهِيَّةُ:

[١] تَسْهِيلُ أَحْكَامِ الْحَيْضِ لِلنِّسَاءِ.

[٢] أَحْكَامٌ انْفَرَدَتْ بِهَا النِّسَاءُ عَنِ الرِّجَالِ.

[٣] فَتَاوَى الْحَجِّ وَالْعُمْرَةِ.

[٤] فَتَاوَى النِّسَاءِ.

[٥] فَتَاوَى الصِّيَامِ.

[٦] فَتَاوَى الْأُضْحِيَةِ.

[٧] حَجُّ النَّبِيِّ ﷺ || الرَّحْمَةُ.

[٨] مُخَالَفَاتٌ تَقَعُ فِيهَا النِّسَاءُ.

[٩] فِقْهُ الْمَرْأَةِ فِي رَمَضَانَ.

[١٠] الْمُنْتَقَى مِنَ الْقَضَايَا الْفِقْهِيَّةِ الْمُعَاصِرَةِ.

[١١] الضَّرُورَةُ الشَّرْعِيَّةُ || [الْجَامِعَةُ].

[١٢] بَيْنَ الْأَلْبَانِيِّ وَالْفُقَهَاءِ.

[١٣] تَيْسِيرُ الْعَلَّامِ فِي أَحْكَامِ الصِّيَامِ.

[١٤] صِفَاتُ الْعَالِمِ الَّذِي يُرْجَعُ إِلَيْهِ فِي عُضَلِ الْمَسَائِلِ.

[١٥] مَنَاسِكُ الْحَجِّ || دُرُوسُ النِّسَاءِ.

[١٦] فِقْهُ الْبُيُوعِ || ابْنُ عَبْدِ الْغَفَّارِ.

[١٧] الْأَدِلَّةُ الْمَرْوِيَّةُ عَلَىٰ الْقَوَاعِدِ الْأُصُولِيَّةِ.

أَحَادِيثُ الْأَحْكَامِ:

[١] الْمُبْتَدِئُ: الْأَرْبَعُونَ فِي مَبَانِي الْإِسْلَامِ وَقَوَاعِدِ الْأَحْكَامِ || النَّوَوِيُّ.

[٢] الْمُتَوَسِّطُ: عُمْدَةُ الْأَحْكَامِ مِنْ كَلَامِ خَيْرِ الْأَنَامِ || ابْنُ قُدَامَةَ.

[٣] الْمُتَقَدِّمُ: بُلُوغُ الْمَرَامِ مِنْ أَدِلَّةِ الْأَحْكَامِ || ابْنُ حَجَرٍ. (شرحان)

[٤] الْمُتَوَسِّعُ: نَيْلُ الْأَوْطَارِ شَرْحُ مُنْتَقَىٰ الْأَخْبَارِ || الشَّوْكَانِيُّ.

[جَامِعُ شُرُوحَاتِ كُتُبِ السُّنَّةِ]:

- ☐ صَحِيحُ الْإِمَامِ الْبُخَارِيِّ - رَحِمَهُ اللهُ -.
- ☐ صَحِيحُ الْإِمَامِ مُسْلِمٍ - رَحِمَهُ اللهُ -.
- ☐ جَامِعُ الْإِمَامِ التِّرْمِذِيِّ - رَحِمَهُ اللهُ -.
- ☐ سُنَنُ الْإِمَامِ أَبِي دَاوُدَ - رَحِمَهُ اللهُ -.
- ☐ سُنَنُ الْإِمَامِ النَّسَائِيِّ - رَحِمَهُ اللهُ -.
- ☐ سُنَنُ الْإِمَامِ ابْنِ مَاجَه - رَحِمَهُ اللهُ -.
- ☐ مُوَطَّأُ الْإِمَامِ مَالِكٍ - رَحِمَهُ اللهُ -.
- ☐ مُسْنَدُ الْإِمَامِ أَحْمَدِ بنِ حَنْبَلٍ - رَحِمَهُ اللهُ -.

- مُصَنَّفُ الْإِمَامِ عَبْدِ الرَّزَّاقِ - رَحِمَهُ اللهُ -.
- سُنَنُ الدَّارِمِيُّ.
- مُسْنَدُ الْإِمَامِ الشَّافِعِيِّ - رَحِمَهُ اللهُ -.

التَّفْسِيرُ وَعُلُومُهُ:

[١] مُحَاضَرَاتٌ فِي عُلُومِ الْقُرْآنِ || [الشَّرْحُ الْأَوَّلُ]

[٢] مُحَاضَرَاتٌ فِي عُلُومِ الْقُرْآنِ || [الشَّرْحُ الثَّانِي]

[٣] مُحَاضَرَاتٌ فِي عُلُومِ الْقُرْآنِ || [الشَّرْحُ الثَّالِثُ]

[٤] مَبَاحِثٌ فِي عُلُومِ الْقُرْآنِ || مَنَّاعُ الْقَطَّانُ.

[٥] مَنَاهِجُ الْمُسْتَشْرِقِينَ || الْجَامِعَةِ.

[٦] الدَّخِيلُ فِي التَّفْسِيرِ || سِلْسِلَةٌ.

[٧] مُقَدِّمَةُ أُصُولِ التَّفْسِيرِ || ابْنُ تَيْمِيَةَ.

[٨] مُقَدِّمَةُ تَفْسِيرِ ابْنِ كَثِيرٍ || ابْنُ كَثِيرٍ.

[٩] تَفْسِيرُ آيَاتِ الْأَحْكَامِ || [التَّفْسِيرُ]

[١٠] مَشْرُوعُ تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ || تَفْسِيرُ الْقُرْآنِ.

[١١] دَفْعُ إِيهَامِ الْاضْطِرَابِ عَنْ آيَاتِ الْكِتَابِ || الشِّنْقِيطِيُّ.

[١٢] الْفُرُوقُ الدَّلَالِيَّةُ || مُحَمَّدُ دَاوُد.

[١٣] آيَاتٌ أُشْكِلَتْ || ابْنُ تَيْمِيَةَ.

[١٤] أُصُولُ التَّفْسِيرِ || مَعْهَدُ الْهِدَايَةِ.

قَائِمَةُ الدَّوْرَاتِ الْعِلْمِيَّةِ:

[١] الدَّوْرَةُ الْعِلْمِيَّةُ الْأُوَلَى.

[٢] الدَّوْرَةُ الْعِلْمِيَّةُ الثَّانِيَةُ.

[٣] الدَّوْرَةُ الْعِلْمِيَّةُ الثَّالِثَةُ.

[٤] الدَّوْرَةُ الْعِلْمِيَّةُ الرَّابِعَةُ.

[٥] الدَّوْرَةُ الْعِلْمِيَّةُ الْخَامِسَةُ.

[٦] الدَّوْرَةُ الْعِلْمِيَّةُ السَّادِسَةُ.

[٧] الدَّوْرَةُ الْعِلْمِيَّةُ السَّابِعَةُ.

[٨] الدَّوْرَةُ الْعِلْمِيَّةُ الْثَّامِنَةُ.

[٩] الدَّوْرَةُ الْعِلْمِيَّةُ الْتَّاسِعَةُ.

[١٠] الدَّوْرَةُ الْعِلْمِيَّةُ الْعَاشِرَةُ.

[١١] دَوْرَاتُ الْيَوْمِ الْوَاحِدِ.

الدُّرُوسِ الْمُسْتَمِرَّةِ:

[قِسْمُ الْحَدِيثِ]

[١] بُلُوغُ الْمَرَامِ || ابْنُ حَجَرٍ الْعَسْقَلَانِيُّ.

[٢] الْمُصَنَّفُ || عَبْدُ الرَّزَّاقِ الصَّنْعَانِيُّ.

[٣] التَّمْهِيدُ لِابْنِ عَبْدِ الْبَرّ.

[٤] تَأْوِيلُ مُخْتَلَفِ الْحَدِيثِ.

[٥] مَجْمُوعُ الرَّسَائِلِ الحَدِيثِيَّةِ.

[قِسْمُ الْفِقْهِ]

[٧] المُغْنِي || ابْنُ قُدَامَةَ.

[٨] الْإِفْصَاحُ || ابْنُ هُبَيْرَةَ.

[٩] بِدَايَةُ المُجْتَهِدِ || ابْنُ رُشْدٍ.

[١٠] مَتْنُ أَبِي شُجَاعٍ [الشَّرْحُ الثَّانِي] || ابْنُ عَبْدِ الْغَفَّارِ.

[١١] أُصُولُ الْحَنَفِيَّةِ || ابْنُ عَبْدِ الْغَفَّارِ.

[١٢] أُصُولُ الشَّافِعِيَّةِ || ابْنُ عَبْدِ الْغَفَّارِ [مُتَوَقِّفٌ]

[١٣] التَّنْبِيهُ.

[١٤] المُقَدِّمَةُ الْحَضْرَمِيَّةُ || مَعْهَدُ السُّنَّةِ.

[١٥] مَوَاقِفُ النَّبِيِّ ﷺ مَعَ الصَّحَابَةِ.

[قِسْمُ أُصُولُ الْفِقْهِ]

[١٦] الْقَوَاعِدُ || ابْنُ عَبْدِ السَّلَام.

[١٧] الرِّسَالَةُ [الشَّرْحُ الثَّانِي] || الشَّافِعِيُّ.

[١٨] الْقَوَاطِعُ فِي أُصُولِ الْفِقْهِ || أَبُو الْمُظَفَّرِ السَّمْعَانِيُّ.

[١٩] المُوَافَقَاتُ || أَبُو إِسْحَاقَ الشَّاطِبِيُّ. [مُتَوَقِّفٌ]

[٢٠] قَوَاعِدٌ وَضَوَابِطٌ فِقْهِيَّةٌ.

[٢١] قَوَاعِدُ فَتَاوَىٰ ابْنِ تَيْمِيَةَ.

[٢٢] الِاجْتِهَادُ وَالتَّقْلِيدُ.

[٢٣] مَقَاصِدُ الشَّرِيعَةِ.

[٢٤] قَوَاعِدُ فَتَاوَىٰ ابْنِ تَيْمِيَةَ.

[قِسْمُ الْعَقِيدَةِ]

[٢١] النُّونِيَّةُ || ابْنُ الْقَيِّمِ.

[٢٢] شُعَبُ الْإِيمَانِ || الْبَيْهَقِيُّ.

[٢٣] السُّنَّةُ || الْخَلَّالُ.

[٢٤] أُصُولُ السَّلَفِ وَأُصُولُ الْخَلَفِ.

[٢٥] شُبُهَاتِ الْمُبْتَدِعُةُ || عَبْدُ اللهِ الْهُذَيْلِ.

[٢٦] ثَلَاثَةُ الْأُصُولِ وَأَدِلَّتُهَا || مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الْوَهَّابِ.

[٢٧] مُخْتَصَرُ مِنْهَاجِ السُّنَّةِ || ابْنُ تَيْمِيَةَ.

[٢٨] دَرْءُ تَعَارُضِ الْعَقْلِ وَالنَّقْلِ || ابْنُ تَيْمِيَةَ.

[٢٩] رَدُّ شُبُهَاتِ الصُّوفِيَّةِ الْقُبُورِيَّةِ.

[٣٠] نَحْنُ أَوْلَىٰ بِالشَّافِعِيِّ مِنْكُمْ.

[٣١] حَرْبُ بْنُ إِسْمَاعِيلَ الْكِرْمَانِيُّ.

[٣٢] اعْتِقَادُ الْإِمَامِ الْمُنَبَّلِ أَحْمَدَ بْنِ حَنْبَلٍ.

[٣٣] الْبِدْعَةُ وَالْمُصْلَحَةُ الْمُرْسَلَةُ.

[٣٤] الدِّفَاعُ عَنِ الْإِمَامِ أَبِي حَنِيفَةَ.

[٣٥] شُبُهَاتِ الرَّوَافِضِ حَوْلَ عَائِشَةَ -رَضِيَ اللهُ عَنْهَا-

[٣٦] سُلَّمُ الْوُصُولِ.

[٣٧] الْعَقِيدَةُ الْإِسْلَامِيَّةُ.

[قِسْمُ مُحَاضَرَاتِ الْجَامِعَةِ]

[٣٨] الْمُسْنَدُ || أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ.

[٣٩] مُتُونٌ وَأَسَانِيدُ.

[قِسْمُ حَلَقَاتِ الْمَرْئِيَّاتِ (تلفزيون)]:

[٤٠] فَتَاوَىٰ السَّلَامِ || [السَّلَامُ].

[٤١] أُولُو الْعِلْمِ || [صَفَا].

[٤٢] ستوديو صَفَا || [صَفَا].

[٤٣] صَبَاحُ النَّدَىٰ || [النَّدَىٰ].

[٤٤] السَّابِقُونَ الْأَوَّلُون || [النَّدَىٰ].

[قِسْمُ تَرَاجِمُ، وَفَضَائِلُ، وَآدَابٌ، وَرَقَائِقُ]:

[٤٥] آدَابُ طَالِبِ الْعِلْمِ || أَكَادِيمِيَّةُ الرَّشِيدُ الْعَالَمِيَّةُ.

[قِسْمُ التَّفْسِيرِ وَعُلُومِهِ]:

[٤٦] آيَاتٌ أُشْكِلَتْ || ابْنُ تَيْمِيَةَ.

[٤٧] أُصُولُ التَّفْسِيرِ || مَعْهَدُ الْهِدَايَةِ.

[قِسْمُ فَتَاوَىٰ ابْنِ عَبْدِ الْغَفَّارِ]:

[٤٨] فَتَاوَىٰ [طَرِيقُ التَّوْبَةِ].

[٤٩] فَتَاوَىٰ الصَّفْحَةِ الرَّسْمِيَّةِ.

[قِسْمُ الدَّوْرَاتِ الْعِلْمِيَّةِ]:

[٥٠] دَوْرَةُ فِقْهِ الدَّلِيلِ. [مُتَوَقِّفُ]

[٥١] دَوْرَةُ بِنَاءِ الْمُعَلِّمَةِ الشَّرْعِيَّةِ.

[جَامِعُ شُرُوحَاتِ كُتُبِ السُّنَّةِ]:

[٥٢] مُوَطَّأُ الْإِمَامِ مَالِكٍ.

[٥٣] سُنَنُ الدَّارِمِيُّ.

[٥٤] مُسْنَدُ الْإِمَامِ الشَّافِعِيِّ – رَحِمَهُ اللهُ –.

تم بحمد الله تعالى

السنة لابن أبي عاصم

افتتاح الكتاب

أهمية كتاب السنة لأبن ابي عاصم، وترجمته رحمه الله..

باب الكلام عن الايمان بالقدر خيره وشره وذم الهوىٰ

قطوف العواصم شرح السنة
لابن أبي عاصم
افتتاح الكتاب
أهمية كتاب السنة لأبن ابي عاصم، وترجمته رحمه الله..
باب الكلام عن الايمان بالقدر خيره وشره وذم الهوى

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهدِ الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله،

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ١٠٢﴾ [آل عمران: ١٠٢]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا ١﴾ [النساء: ١]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ٧٠ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا ٧١﴾ [الأحزاب: ٧٠ – ٧١].

أمّا بعد:

فإن أصدق الحديث كتاب الله، وأحسن الهدي هدي محمدٍ -صلى الله عليه وسلم-، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثةٍ بدعة، وكل بدعةٍ ضلالة، وكل ضلالة في النار، ثم أّما بعد إخوتي الكرام:

بفضلٍ من ربنا ونعمةٍ وكرمٍ نبتدئ ونستهل كتاباً مباركاً أيضاً في باب العقائد، التي لا بد للإنسان أن يعض عليها بالنواجذ، لأنه لا نجاة عند الله في الآخرة إلّا بالعقيدة السليمة

السديدة، لأنك ستُسأل يوم القيامة أمام ربك عن هذه العقيدة هل هي عقيدة محمد -صلى الله عليه وسلم-؟ عقيدة صحابة محمد -صلى الله عليه وسلم- رضوان الله عليهم أم لا؟

وأمّا الذين تركوا العقائد أو قالوا ما لنا إلّا ربنا، نحن بنوايانا الطيبة وبما نعلم عن ربنا نقابل ربنا، هؤلاء وإن كان فيهم الخير فهم في ذيل القائمة، وإن الله جل في علاه يحب علو الهمة ويحب معالي الأمور.

الغرض المقصود قبل أن ابدأ في أي شيء من باب إنزال الناس منازلهم، وأيضاً من باب الشكر والتقدير لقول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (من لم يشكر الناس لا يشكر الله جلَّ في علاه). العجب كل العجب من هذه البلدة؛ أهل هذه البلدة قومٌ خيار، حقاً ما رأينا مثلهم في مكان، فنسأل الله جل في علاه أن يديم عليهم الخير، وأن يجعل الوازع في قلوبهم لله، ويكونوا مع الله وبالله، وما يتقدموا خطوة ولا يتأخروا خطوة إلّا لله.

إخوة علموا أنا سنشرح كتاب الصارم المسلول ما وجدوه، ذهبوا فحصوا ومحصوا جميع الأماكن ما وجدوه، فاتصلوا بالسعودية وجهزوا النسخ لتشحن من السعودية. هؤلاء الناس جعلونا نحتقر أنفسنا أمام الله جلَّ في علاه، والله الذي لا إله إلّا هو. هؤلاء القوم ما رأيت مثلهم، والله ما أقولها إلّا إخلاصا لله، أسأل ربي ذلك. فإني وجدت في هذه البلدة أناس أفئدتهم حقاً كأفئدة الطير، زادهم الله خيراً، وزادهم الله همةً لفعل الخير، وجعلهم ممن يتنافس على الخير يرضون بذلك عند ربهم جلَّ في علاه.

من باب شكران النعمة أن الله أنعم عليهم بالنعائم فشكروها، فأسأل الله أن يثبت عليهم هذه النعائم بشكرهم لهذه النعمة. لكن فاجأت أنا الأخ الكريم أننا حولنا الدراسة من كتاب الصارم المسلول لكتاب السنة لابن أبي عاصم، قال ما فيها شيء نأتيهم به أيضاً، فيعني الخير فيهم كثير.

فإن شاء الله نشرح السنة لابن أبي عاصم، لأن فيه فوائد جمة، لا سيما وبعض العلماء الأفاضل عندما سمع ذلك قالها وكأن أحشاءه تخرج: أصبت، أصبت. يعني هذا الكتاب

كتابٌ جليل، فلا بد أن تبتدئ به، ولذلك قلنا بعد الاستخارة والاستشارة أن هذا الكتاب أنفع بكثير في مسائل العقيدة، لأنه يلم شعث باب العقائد، والآخر سيُشرح ضمناً بإذن الله لا انفراداً.

نتكلم إن شاء الله اليوم في هذا الكتاب العظيم "كتاب السنة لابن ابي عاصم"، في الكلام على أهل الأهواء، قبلها يقرأ علينا الأخ الكريم بعض أو جزءً من ترجمة اعترافاً بالجميل لهذا العالم: أبو بكر عمرو بن أبي عاصم الضحاك، رضي الله عنه ورحمه وجعله مع النبي -صلى الله عليه وسلم- في الفردوس الأعلى.

بسم الله والحمد لله، والصلاة والسلام على خير خلق الله محمد بن عبد الله، وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً مزيداً وبعد:

ترجمةً عن المؤلف -رحمه الله-

اسمه ومولده: هو أحمد بن عمرو بن الضحاك بن مخلد الشيباني البصري ثم الكوفي، من أهل السنة والجماعة والحديث والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، الظاهري المذهب، المجود للقرآن الكريم، وكان أفقه أهل البصرة، الزاهد الورع، الثقة النبيل، وكان من أهل الوعي واليقظة.

ولد -رحمه الله- في شوال، سنة مئتين وستٍ للهجرة. سمع من والده وجده، وسمع أيضاً من جده لأمه الحافظ موسى بن إسماعيل التبوذكي، وكانت عائلته من كبار العلماء. وقد توفي -رحمه الله- بخمسٍ خلون من ربيع الآخر ذات مئتين وسبعةٍ وثمانين للهجرة، وشهد جنازته خلق كثير.

روى -رحمه الله- الحديث عن عددٍ كبيرٍ من علماء الأمة منهم: أبو الوليد الطيالسي، وأبو بكر بن أبي شيبة، ومحمد بن كثير، ودحيم، وهشام بن عمار، وأبو حاتمٍ الرازي، والبخاري، والحوضي.

وكان -رحمه الله- نبيلاً كريماً، قال: وصل إليّ منذ دخلت إلى أصفهان من القضاء زيادة على أربع مئة ألف درهم، لا يحاسبني الله يوم القيامة أني شربت منها شربة ماء أو أكلت منها أو لبست.

وفي ترجمته حكاية مع صاحب له طوال عمره اسمه علي بن مستويه؛ وصاحب ابن مستويه أصحاب من اهل الفساد، فذكروا ابن أبي عاصمٍ عنده بالسوء، وصدّقهم لقلة عقله، ناسياً ما كان يعرفه من أخيه الدهر الطويل، فقال: ابن أبي عاصم لا يحسن قراءة سورة الحمد. فبلغ الخبر ابن أبي عاصم فتغافل عنه، إلى أن حضر الشهود عنده، فقرأ عليهم سورة الحمد فقوّمها، ثم ذكر ما فيها من التفسير والمعاني ووجوه القراءات، ثم أقبل عليهم فقال: هل ارتضيتم؟ قالوا: بلى، قال: فمن زعم أني لا أحسن تقويم الفاتحة كيف هو عندكم؟ قالوا: كذاب، فحجر على ابن مستويه.

وجمع ابن أبي عاصم جزءاً في أسماء تصانيفه فيه زيادةٌ على ثلاث مئة مصنف، رواها عنه أبو بكرٍ القباب؛ من ذلك:

- المسند الكبير: نحو خمسين ألف حديث.
- الآحاد والمثاني: نحو عشرين ألف حديث في الأصناف.
- والمختصر من المسند: نيفاً وعشرون ألفاً.

فذكر نحواً من هذا إلى أن عد مئة وأربعين ألفاً ونيفاً.

ويكثر في تصانيفه عن ابن أبي شيبة وابن كاسب وهشام بن عمار.

لا بد ملاحظة قولهم "وهو ظاهري المذهب"؛ هو كغيره من العلماء المجدين المجتهدين، تأثر على هذا المذهب لكنه لا يقلّد، فكان يخالف كثيراً داوود الظاهري كابن حزم وغيره. المجتهدون العلماء النبلاء الخلصاء الذين هم أنبل الناس، هؤلاء لا يقلدون، هم يجتهدون، يتأصلون على مذهب، ثم بعد ذلك يرتقون بعلمهم.

الأمر الثاني كفاه فخراً بأن شيخه البخاري جبل الحفظ، وأيضاً الثقة الثبت النبيل أبو بكر ابن أبي شيبة ودحيم، فكفاه فخراً بأن هؤلاء هم شيوخه.

هذا الكتاب من أجلّ الكتب في العقائد، جمع فيه كل شتات مسائل العقيدة: من الغيبيات وغير الغيبيات، والقدر، والإيمان بالأسماء وبالصفات، وتوحيد الإلهية. ما كان من شتات أمور التوحيد كله موجود هنا، والتمسك بالعقائد السديدة الصحيحة.

يبدأ ويستهل كتابه بأمرٍ جد خطير، ألا هو ذم الأهواء، والبدع، وأهل الآراء لا أهل الآثار، وهذا الذي نتكلم عنه اليوم إن شاء الله.

قال المصنف -رحمه الله تعالى-: وعن معاوية بن أبي سفيان -رضي الله تعالى عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: (يكون أقوامٌ تتجارى بهم تلك الأهواء كما

يتجارى الكلب بصاحبه، فلا يبقى منه مفصل إلّا دخله).

الفوائد الحديثية في كل حديث سيكون بعد الحديث إن شاء الله، يعني بعد الحديث وبعد شرحه سنتكلم. كفانا الشيخ -رحمه الله-، جبل التحديث ومحدث الشام ومفخرة أهل الشام "الشيخ الألباني"، في كتاب التحقيق في ظلال الجنة على هذا الكتاب، يعني أكثر من نصف قد أنهانا وكفانا الشيخ بذلك. لكن سنتكلم حديثياً في المسائل المهمة التي فيها الخلاف وفيها النزاع؛ هل هذا حديث صحيح؟ أم هذا حديث ضعيف؟ مثل حديث: (افترقت الأمة على ثلاثة وسبعين فرقة). لأن هذا فيه حروب طاحنة سنبينها الآن، وكيف أن كثير من المتكلمين في هذه العصور ردوا الحديث وضعفوه تضعيفاً وتوهيناً إمّا إسناداً أو متناً.

وعن أبي عامرٍ الهوازني أنه حج مع معاوية بن أبي سفيان -رضي الله تعالى عنهما- فسمعه يقول: قام فينا رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يوماً فذكر: (إن أهل الكتاب قبلكم تفرّقوا على اثنتين وسبعين فرقة في الأهواء، ألا وأن هذه الأمة ستفترق على ثلاثٍ وسبعين فرقةً في الأهواء كلها في النار إلّا واحدة وهي الجماعة، ألا وأنه يخرج في أمتي قومٌ يهوون هوى، يتجارى بهم ذلك الهوى كما يتجار الكلب بصاحبه، فلا يدع منه عرقاً ولا مفصلاً إلّا دخله).

وعن أبي أمامه -رضي الله تعالى عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: (ما تحت ظل السماء إلهٌ يعبد من دون الله أعظم عند الله من هوىً متبع).

كل شيءٍ سوى الكتاب والسنة والأثر وفعل الصحابة فهو هوى، الهوى خطرٌ عظيم، داءٌ عضال مفسدة ليس بعدها مفسدة، دحض مزلة. الأهواء لعبت بكثير من الناس، بل بأكثر الناس، بل بأغلب الناس، وأودت بهم إلى الردى والهلاك. هذه الأهواء التي عظّموها وقدّموها على كتاب ربهم وعلى سنة نبيهم -صلى الله عليه وسلم-. الهوى إلهٌ يعبد من دون الله، هذا قول ابن عباس حبر الأمة، قال: الهوى إلهٌ يعبد من دون الله. من

الآلهة التي تعبد من دون الله، صنم يعبد من دون الله جلَّ في علاه، ونعوذ بالله من هذه الأوثان ومن هذه الشركيات. قال: الهوى إلهٌ يعبد من دون الله؛ قال الله تعالى: ﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴿٤٣﴾﴾ [الفرقان: ٤٣]، الله جلَّ وعلا يصرِّح أنه أخذ الهوى إلهاً.

والهوى -كما قلت- دحض مزلة، والهوى يضلك عن سبيل الله. الهوى وكتاب الله وسنة النبي طريقان مفترقان متضادان لا يجتمعان بحال من الأحوال، أناط الله الضلال بالهوى، وأناط الهدى بالكتاب والسنة؛ قال الله تعالى: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ﴾ [ص: ٢٦]، النتيجة: ﴿فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [ص: ٢٦]، أناط الضلال في اتباع الهوى. والله جلَّ في علاه بين أن أكثر من ضل في هذه الأراضي هو باتباع الهوى.

الهوى أكثر أهله أصحاب الكلام، الذين تركوا السنن والآثار وأخذوا بالآراء والأهواء هم أهل الهوى. قال فيهم الشافعي كما ورد عنه بسندٍ صحيح: حكمي في أهل الكلام أن يضربوا بالجريد والنعال ويطاف عليهم في المدائن فيقال: هذا جزاء من ترك الكتاب والسنة واتبع الهوى. وقال أيضاً الإمام مالك: أهل الهوى هم قوم سوء لا يسلّم عليهم. وقال الشافعي: لو لقي العبد ربه بجميع الآثام والمعاصي خلا الشرك (إلّا الهوى) رجوت له الخير؛ إن قابل الله بزنا وشرب خمر وسرقة ولو زنا بمحارم، خلا الشرك ما عدا الهوى فإن الهوى يتردى صاحبه. ولذلك قال الشافعي أيضاً: ما ارتدى عبدٌ علم الكلام إلّا أنه قد خاب وما أفلح، وقال أيضاً الإمام مالك: هم قوم سوء لابد من أن يهجرهم المرء ولا يسلّم عليهم.

أهل الهوى -كما قلت- لا بد أن يحاربوا دين الله جلَّ في علاه، ولا بد أن يحاربوا كتاب الله وسنة النبي. تجرأ صاحب الهوى على كتاب الله فيمزقه في قلبه، ثم يمزقه عياناً أمام الناس.

انظروا وتعجبوا لما يفعل أهل الهوى عندما يعارضوا بالسنن والآثار؛ هذا الجهمي الخبيث يقرأ قول الله تعالى: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا﴾ [النساء: ١٦٤]، وهذه آية صريحة في الكتاب، تقرأ كيف؟ بالرفع (اللهُ)، الله المتكلم، الله الفاعل.

يأتي هذا الجهمي الخبيث فيأخذ في الكتاب ويقول: وَكَلَّمَ اللهَّ مُوسَى تَكْلِيمًا؛ لأنه ممكن يؤولها ويقول موسى فاعل، فالفاعل مرفوع الضمة المقدرة، ما العلة؟ هناك علتان تقدر فيها بعلامات الرفع: واحدة الثقل وواحدة التعذر. هذه تعذر، حرف العلة الأخير الألف يكون معه التعذر، الصحيح أن الضمة أصالةً مقدرة للتعذر. فهو يقول للذي لا يعلم أمامه: وَكَلَّمَ اللهَّ مُوسَى تَكْلِيمًا.

لكن كان السني الأثري كان فقيهاً عالماً فقال: دعنا من الشبهات والخلاف، وهذا أصل ما فعله إبراهيم -عليه السلام- عندما ناظر النمرود وقال: ﴿رَبِّيَ ٱلَّذِي يُحۡيِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحۡيِۦ وَأُمِيتُۖ﴾ [البقرة: ٢٥٨]؛ سأميت هذا وآمر بقتل هذا وأحيي هذا. كأن إبراهيم يقول دعنا من الشبهات وسآتيك بأمر أسطع من شمس النهار، ﴿قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأۡتِي بِٱلشَّمۡسِ مِنَ ٱلۡمَشۡرِقِ فَأۡتِ بِهَا مِنَ ٱلۡمَغۡرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِي كَفَرَۗ﴾ [البقرة: ٢٥٨].

نفس الأمر السني قال لهذا الجهمي الخبيث: قد قال الله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ﴾ [الأعراف: ١٤٣]. فما استطاع إلى ذلك سبيلاً فأخذ الآية وقال: أردت أن أحكها من المصحف، أراد أن يقطعها ويمزقها من المصحف تعظيماً لهواه، وكان أحرى به أن يقول أرجع إلى الحق، ولأن أكون ذنباً في الحق خيرٌ لي من أن أكون رأساً في الباطل، لكنه أراد أن يحك المصحف للهوى والتعصب للهوى والمذهبية.

وكثير من الناس حدّث ولا حرج، الذين قدموا الأهواء والآراء على الآثار وعلى السنن فعلوا ذلك.

هذا الكوثري الخبيث يعلم الله به كيف سب أبا هريرة علناً من أجل المذهب الحنفي، لأن أبا هريرة أحاديثٌ كثيرة هو أروى الناس عن النبي -صلى الله عليه وسلم-، روى

أحاديث خالف فيها المذهب الحنفي، بيّن ضعف المذهب الحنفي بهذه الأحاديث، فجاء فقال: وهذا رجل ليس بفقيه ولا يعقل ما يروي -والعياذ بالله-. هذا الكلام صريح في أبي هريرة -رضي الله عنه وأرضاه-؟!! ما حمله على هذا إلّا الأهواء، إلّا الآراء، إلّا تعظيم المذاهب أو البشر دون تعظيم سنن النبي -صلى الله عليه وسلم-.

والآخر الذي يركب الموجة، يرى أن الناس الآن يتلسنون، ويرون أن النساء في مقام الرجال، والنساء يتقدمن على الرجال، والنساء سارعات في الخيرات، والنساء والنساء. فذهب بعدما ركب الموجة وقال: إن كانت الموجة في السنن نركب هذه الموجة وإن كانت في الآراء معهم. فلمّا استضافوه وتكلموا معه في حديث النبي -صلى الله عليه وسلم-: (ما رأيت من ناقصات عقلٍ ودين)، فسألته المرأة كأنها تكشر عن أنيابها: ناقصات عقل ودين؟ قال: لا، النساء لسن بناقصات عقل ودين، النبي -صلى الله عليه وسلم- كان يمزح مع النساء وهذا الدليل العلل هنا والفقه. أن الدليل على ذلك أن هذا كان يوم عيد، ويوم العيد النبي -صلى الله عليه وسلم- يوسّع على الرجال وعلى النساء، فأراد المزح مع النساء، فنزل ببلال وذهب إليهن يمازحهن. خبت وخاب كلامك إن كنت تعتقد هذا وترد على النبي -صلى الله عليه وسلم- حديثه بهذه الطريقة.

فقال كان النبي -صلى الله عليه وسلم- يذهب إلى النساء يمازحهن ويقول: (ما رأيت من ناقصات عقلٍ ودين)، وقال: وإلّا لو رأينا في عصورنا هذه كم تقدم النساء في مواطن ما استطاع الرجال أن يتقدموا أو يتخذوا إلى ذلك سبيلاً. قلنا له دعك من المتشابه رداً عليك بما فعل السني الفقيه، نقول لك: دعك من ناقصات عقلٍ ودين ودعك من مسألة المزاح، وخذ منا حديثاً واحداً عن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: (كمل من الرجال كثير، ولم يكمل من النساء إلّا أربع)، كيف تفعل بحديث النبي -صلى الله عليه وسلم- هذا؟ هل تقول هذا مزح أيضاً؟ يمازح النبي -صلى الله عليه وسلم- النساء في هذه؟ لا والله، يقر القاعدة. والله جلَّ في علاه يقول: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْاْ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ

﴿بَعَضِ﴾ [النساء: ٣٢]، هذه دلالة، لكن الأهواء كما قلت له تدفع بها السنن والآثار فيضيع الدين ويضمحل.

وكثير من أشباه هؤلاء أيضاً؛ لمّا سمعوا قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (إني رأيت أكثر أهل النار من النساء فتصدقن)، فقال الرجل أيضاً هذه كانت من الملاطفة البديعة من النبي -صلى الله عليه وسلم-. بل انظروا إلى الآراء وتقديم العقول على الأحاديث والآثار، قال: بل أكثر أهل الجنة هم النساء. كيف ذلك؟ قال: إن لكل رجلٍ في الجنة زوجتان من الحور العين، فمن الأكثر الرجال أم النساء؟ هذا يدل على أن النساء أكثر أهل الجنة ويضارب بذلك حديث النبي -صلى الله عليه وسلم-.

الغرض المقصود أهل الأهواء في ضياع، وأهل الأهواء ورب السماوات تسمع منهم الآهات والحسرات عند السكرات -كما سنبيّن-. فإن النبي -صلى الله عليه وسلم- في الحديث الأول صوّر لنا تصويراً بديعاً، وشبّه لنا تشبيها بليغاً، أوجز ما يكون تنفيراً من الأهواء والآراء وحضاً وتحضيضاً للأمة إلى اتباع الآفاق واقتفاء أثر أصحاب رسول الله -صلى الله عليه وسلم-. قال: صاحب الآراء وصاحب الأهواء مريض، وهذا المرض دب في كل جسده، وشبّه ذلك بمرض الكلب.

ومرض كلب: هو مرض يصيب الكلب -بإذن الله-، هذا المرض الذي يصيب الكلب يشبه الجنون للكلب، فإذا الكلب أحداً أصابه هذا المرض -بإذن الله-. وأنا أقيّد "بإذن الله" لِمَ؟ نرجّح "لا عدوى ولا طيرة". فلذلك قلنا إذا عض الكلب البشر أصابه المرض -بإذن الله-، فإذا أصابه المرض قال العلماء: يمتنع عن الطعام والشراب طواعيةً حتى يموت عطشاً.

انظروا كيف يصوّر النبي -صلى الله عليه وسلم- لنا أن الهوى إذا دخل القلب وأشربه القلب، ضخ القلب الأمر كله والدماء الأهواء هذه على كل العروق وعلى كل العظام وعلى كل المفاصل، ما ترك مفصلاً إلّا دخله هذا الداء العضال، ثم بعد ذلك أشربه القلب

وتشبّع البدن به، أحبه، وبعدما أحبه ناضل من أجله وناصر من أجله؛ أحب لهواه، وأبغض لهواه، وأعطى لهواه، ومنع لهواه، وناصر لهواه، وقاتل من أجل هذا الهوى ومن أجل هذه البدعة.

رحم الله الثوري ما أدق نظره، ما أفقه ما يقول وهو يقول: البدعة أحب إلى الشيطان من المعصية. لِمَ يا ثوري؟ فقال: إن المعصية (ولو كانت كبيرة: زنا شرب خمر سرقة) يتوب منها الإنسان، وإن البدعة يناضل عليها صاحبها. يقاتل من أجلها، والواقع شاهد بذلك؛ تراه يقاتل مقاتلة شرسة من أجل تأصيل هذه البدعة، ينافح عليها وينافح من أجلها.

فانظروا كيف النبي -صلى الله عليه وسلم- يصوّر لنا هذا التصوير البديع؛ دخلت البدعة والأهواء في القلب، فضخ القلب هذه البدعة إلى كل العروق والمفاصل، فتشبع البدن بها، فقاتل من أجلها صاحبها، ولّما قاتل من أجلها قابل ربه أفي حسراتٍ وندم، وسيندم لا ينفعه الندم.

الحديث الثاني حديثٌ عظيمٌ جليل، نتكلم عنه في أمور، هو حديث: (افترقت هذه الأمة على ثلاث وسبعين فرقة):

- أولاً صحة الحديث إسناداً ومتناً
- الثاني الافتراق وأصول افتراق هذه الأمة
- الثالث من الناجي من هذه الأمة
- الرابع الإشكال الذي من أجله قد ضعّف العلماء هذا الحديث.

طبعاً هذا الحديث كثير من الذين يتبنون مذهب الآراء ويقدّمون العقل على النقل، وهذا مذهب المعتزلة. لا بد أن تعلموا ذلك، يضعّفون الحديث في العقل، يقولون -كما سأبين الشبه الكثيرة-: افترقت هذه الأمة ثلاثة وسبعين فرقة، نحن خير أم اليهود؟ المسلمون خير أم اليهود؟ المسلمون. المسلمون خير أم النصارى؟ المسلمون. عندكم دليل

في ذلك؟ الآن ترون أنكم خير من اليهود والنصارى، عندكم ما يعضد ما تقولون أم هو ادعاء كاذب؟

آية ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾ [آل عمران: ١١٠]، فالصحيح الراجح بذلك أن نقول بأن الخيرية ربطت بهذه الأمة، فكيف تفترق أمة الخيرية على ثلاثة وسبعين فرقة؟ واليهود والنصارى المغضوب عليهم والضالين هؤلاء يفترقون على اثنتين والأخرى تفرق على واحد وسبعين؟!! هذا كلام عظيم وهو الذي أشكل على الناس، فلذلك قالوا: هذا الحديث ضعيف. والذي ضعّفه أكثر عندما قال: (كلها في النار)، وسنبين.

أولاً: صحة الحديث إسناداً ومتناً:

سنداً هذا الحديث ورد بدون زيادة (كلها في النار) من رواية أبي هريرة -رضي الله عنه وأرضاه-، وهذا صحيح كالشمس، ما أحد يستطيع أن يتكلم عنه. صححه الترمذي وغيره، والحاكم، ووافقه الذهبي والحافظ ابن حجر والحافظ العراقي، يعني ثلة من أهل الحديث صححوا الحديث، فلا مدخل لأحد ان يتكلم فيه. الرواية الثانية رواية أنس أو رواية معاوية هي التي فيها هذه الزيادة التي أشكلت علينا، وهي زيادة: (كلها في النار إلّا واحدة)، فضعّفوها:

- منهم من ضعّفه إسناداً وهذا كلام ابن حزم، وكلام ابن حزم إذا خولف من عظماء أهل الشأن فلا عبرة بكلامه، ومع أنه محدّث فحل، لكن هؤلاء هم أهل الشأن وأهل الصنعة.

- ومنهم من ضعّفه للمتن وقالوا: عندنا إشكال؛ الأمة مرحومة، والأمة وسط، والأمة خيرية، فكيف هذه الأمة تفترق هذه الفرق وهذه الطوائف؟ وأيضاً كيف تكون كل هذه الفرق في النار؟ وهذا إشكال أعظم لأن النبي -صلى الله عليه وسلم- ورد عنه أنه لّما قال: (تكونون ربع الجنة)، فكبّروا؛ ثلث، نصف، شطر أهل الجنة، فكبروا. بل قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (والله يحثو بكفه ثلاث حثيات)، فكبروا تكبيراً عظيماً. وقد قال النبي -

صلى الله عليه وسلم- يصف هذه الأمة المرحومة: (أنكم في الناس كالشعرة السوداء في الثور الأبيض) ، وأيضاً قال: (كالشعرة البيضاء في الثور الأسود)، فجميع هؤلاء هم الذين في النار وهذه الأمة هي المرحومة، فكيف يقول كلها في النار؟ سنبيّن هذا الإشكال فيه بالنسبة للمتن في النقطة الثالثة.

النقطة الثانية: أصول الفرقة:

أولاً الأمة مختلفة مختلفة، (ولا يزالون مختلفين)، هذا قدر كوني كتبه الله جلَّ في علاه. لكن الخلاف على نوعين، والخلاف على قسمين: خلافٌ في الأصول وخلافٌ في الفروع. والشيء بالشيء يذكر؛ لا يصح أن نقول الدين فيه أصول وفروع، الدين كل متكامل.

لكن هنا عندما نفرِّق، نفرِّق الخلاف في الأصول، يعني الخلاف في أمهات المسائل: في الإلهيات، في الغيبيات، في النبوات، يعني في العقائد. وخلاف في الفروع، أمّا الخلاف في الفروع هذا غير معتبر، ولا شيء فيه، وأيضاً هو بعيد عن هذا الحديث.

إذاً أول نقطة لا بد أن تدقق فيها حديث: (تفترق أمتي) هذا يعنى به العقائد فقط، لا الكلام على الخلاف في الفروع الفقهية؛ أن تصلي وتكبر، أن تقرأ الفاتحة أو ما تقرأ الفاتحة، أن تسبح أو ما تسبح، واجب أم سنة. هذا لا يُعنى به هذا الحديث، الحديث يُعنى بمسألة العقائد. إذاً أصل الخلاف في أمهات المسائل في النبوات، في الإلهيات، في الغيبيات في العقائد.

أصول الفرق الذين اختلفوا في هذه المسائل المهمة ستة:

١- الخوارج: الذين يكفِّرون بالمعصية، ما تركوا أحداً إلّا كفّروه، كفّروا أنفسهم بعد ذلك. الذين يخرجون على ولاة الأمور، يسفكون الدماء دون حرمة لأي شيء، هؤلاء الخوارج الذين يرون الإيمان كل متكامل، جزئية ضاعت من هذا الإيمان ضاع كل الإيمان وهدم على صاحبه، هذه فرقة ضالة.

٢- والفرقة الثانية نقيض هذه الفرقة؛ المرجئة: هؤلاء أخف ضرراً، لكنهم أيضاً من البدعة بمكان. هؤلاء الذين يرون إيمان جبريل كإيمان آحاد هذه الأمة، لا يزيد ولا ينقص، ولذلك عطّلوا قول الله تعالى: ﴿۞ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ﴾ [آل عمران: ١٣٣] ، ﴿وَفِي ذَٰلِكَ فَلۡيَتَنَافَسِ ٱلۡمُتَنَٰفِسُونَ ٢٦﴾ [المطففين: ٢٦]. وأيضاً ردوا بهذا المذهب الضال حديث النبي -صلى الله عليه وسلم-: (أن الأمة تتفاوت في الدرجات، الدرجة الدنيا وما فوقها من الدرجات في الجنة كما بين السماء والأرض)، وهذه بالأعمال لكنهم لم يثبتوا ذلك.

٣- الفرقة الثالثة القدرية: هؤلاء الذين يجهّلون الله -حاشا لله تقدست أسمائه سبحانه وتعالى-، يتهمون الله بالجهل، يقولون لا يعلم شيئاً مما يُفعل حتى يفعله المرء. فينفون القدر، يقولون هو أنف، ما كتب شيء، ما علم الله شيء حتى يفعل من العباد فتكتبه الملائكة فيعلمه الله. هذه القدرية أيضاً أصل ومنشأ من أصول البدع والضلالة.

٤- نقيض هؤلاء الجبرية: هؤلاء الذين يتهمون الله بالنقائص، يقولون هو ظالم، أن الله جلَّ في علاه ظلم عباده فأجبرهم على الكفر. ولذلك قالوا كلمتهم المشهورة:

ألقـــاه في الـــيم مكتـــوف اليـــد وقـــال إيـــاك إيـــاك أن تبتـــل بالمـــاء

ثم سووا بظلمٍ منهم وعتوٍ سووا بين جبريل وإبليس، قالوا هما سواء. كيف؟ قالوا جبريل تحت إرادة الله، هو ينزل وهو ينزل وحياً، هو بإرادة الله جلَّ في علاه، وإبليس ما عصى ولم يسجد وأغوى الناس أيضاً بإرادة الله، فكلٌ تحت إرادة الله جلَّ في علاه، فهم سواء. فسووا بين جبريل وبين إبليس. أرأيتم مثل هذا الضلال؟ هؤلاء الجبرية.

الخوارج نقيض المرجئة، القدرية نقيض الجبرية.

٥- الرافضة: هؤلاء الذين يتعبدون لله بسب أولياء الله جلَّ في علاه، بخير البشر أجمعين بعد رسوله -صلى الله عليه وسلم-. يقولون اللهم العن صنمي قريش، اللهم العن

أبا بكر، اللهم العن عمر، ويتهمون عائشة -رضي الله عنها وأرضاها- بالزنا التي برأها الله من فوق سبع سماوات. هؤلاء الرافضة الخبثاء، علماؤهم أيضاً. هذه أيضاً فرقة من الفرق الذين يحسبون أنهم يحسنون صنعاً، يتعبدون لله بسب خيار البشر.

٦- الفرقة المتممة الجهمية: هؤلاء الذين يعبدون العدم، يعبدون عدماً، لا يثبتون لله ذاتاً ولا يثبتون لله صفاتاً؛ يقولون لا سميع ولا سمع، ولا كريم ولا كرم، ولا قدير ولا قدرة. يعبدون هواءً، يعبدون عدماً.

هذه الفرق الستة تفرّع منها فرق أخرى، كل فرقة من هذه الفرق، كل أصل من هذه الأصول أنبتت لنا اثنتي عشرة فرقة. فصار المجموع اثنتين وسبعين فرقة.

ثم الفرقة الأخيرة وهي فرقة أهل السنة والجماعة. إذاً الفرق الستة أنبتت لنا كل فرقة اثنتي عشرة فرقة، أي اثنين وسبعين، هذه المجموع. والأخيرة ثلاثة وسبعين هي أهل السنة والجماعة.

هؤلاء الثلاثة وسبعين يقرأون هذا الحديث ويندهشون، فيرون النبي -صلى الله عليه وسلم- يقول: (كلهم في النار)، ويستثني واحدة (إلّا واحدة). فيقوم المعتزلي، ويقوم الجهمي ويقول: أنا فرقتي هي الناجية. ثم يقوم الآخر: ولِمَ أنت؟ يقول الرافضي: أنا، أنا الذي أناصر آل بيت النبي -صلى الله عليه وسلم-، أنا الفرقة الناجية. وما من أحدٍ إلّا ويقول أنا الفرقة الناجية.

اطلع النبي -صلى الله عليه وسلم- على حجب الغيب كما أطلعه الله في ذلك، فعلم أن الأمة ستخوض وكلٌ منهم يدّعي وصلاً بليلى وليلى لا تقر لهم بذلك. فقال: أنا أكفيكم هذا، فكفانا النبي. فكيف يا رسول الله كفيتنا هذا؟ قال: سأجمل لكم. يعلم اللبيب الأريب الفقيه الوصف الذي سأذكره، أن الفرقة الناجية يكون لها سمةً ووصفاً معلوم مشتهر. ما هذا الوسم أو ما هذه الصفة؟ ما هذا الذي وسمه به النبي -صلى الله عليه وسلم- لهذه الفرقة؟ قال: (هم الجماعة). كلٌ سيقول نحن جماعة، انظر إلينا كلنا جماعة.

أصبح الأمر مجمل، فعلم النبي -صلى الله عليه وسلم- أن الأمر المجمل لا يحل إشكالاً ففسره لنا بتفسيرٍ آخر في روايةٍ أخرى قال: (هم الناجون من النار)، فقالوا نحن أيضاً الناجون من النار، فأصبح إجمالاً آخر.

ففسره النبي -صلى الله عليه وسلم- تفسيراً بديعاً لا تفسير بعده؛ قال: (ما أنا عليه وأصحابي). إذاً هذا ضابط، خذه إشعاراً لك واحفره على صدرك بماء الذهب، واختبر كل إنسان بهذا الوصف الذي وصفه النبي -صلى الله عليه وسلم-، واعلم هذا الناجي أو ليس بناجٍ. لأن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال الفرقة الناجية واحدة، ما هي؟ ما وصفها يا رسول الله؟ قال: (ما أنا عليه). والنبي -صلى الله عليه وسلم- على طريق الهدى، على الطريق المستقيم، هو على الوحيين الكتاب والسنة؛ ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ۝٤﴾ [النجم: ٣ - ٤]، ﴿وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ﴾ [الأحزاب: ٣٤]؛ وقال الشافعي: آيات الله الكتاب، والحكمة هي السنة.

فهذا هو الوصف الأول الذي وصفه النبي -صلى الله عليه وسلم- للفرقة الناجية، هذا الوصف الأول؛ محِّص كل إنسان ودعه، إذا قال لك بمسألة أو رأيته يفتي بمسألة أو رأيته يعمل بعبادة فسله: أين الدليل من الكتاب؟ أين الدليل من السنة؟ هذه هي النجاة لأن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: (ما أنا عليه)، ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ۝٤﴾ [النجم: ٣ - ٤].

ثم قال: (وأصحابي)؛ أي ما عليه أصحابي، كما قال النبي -صلى الله عليه وسلم- في المسند بسندٍ صحيح: (اقتدوا بالذَين بعدي: أبي بكرٍ وعمر). وقال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي، عضوا عليها بالنواجذ). ولذلك قال الأوزاعي: عليكم بالرعيل الأول، كفاكم ما كفاهم، وسعكم ما وسعهم؛ خذوا ما تبنوه، اعملوا بما عملوا، يسعكم ما وسعهم.

وما أبدع ما قاله ابن مسعود، قال: عليكم بصحابة رسول الله -صلى الله عليه وسلم-،

قومٌ اصطفاهم الله لصحبة نبيه -صلى الله عليه وسلم-، واختارهم لنصرة دينه ولنشر دعوته، أعمق الناس علماً (ضالٌ مضل من يرى نفسه أعلم من الصحابة)، أبر الناس قلوباً، أحسن الناس خلقاً. هذه الصفات ما اجتمعت في أحدٍ إلّا وارتقى المعالي مع رسول الله -صلى الله عليه وسلم- في الفردوس الأعلى، ولذلك ابن مسعود يستحث الأمة ويستنهض الأمة على التمسك بما كان عليه صحابة رسول الله، لأنهم أعمق الناس علماً، أبر الناس قلوباً، أحسن الناس خلقاً.

وكفى بتعديل الله لهم تعديلاً: ﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ وَكَانُوٓاْ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَاۚ﴾ [الفتح: ٢٦]، وأيضاً كفى بتعديل النبي -صلى الله عليه وسلم- لهم تعديلاً: (أصحابي، أصحابي. لا تسبوا أصحابي، لو أنفق أحدكم مثل جبل أحد ما بلغ مُدّ أحدهم ولا نصيفه).

وأجمع ما قيل في التمسك بما كان عليه سلف الأمة قول الله تعالى: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ﴾ [النساء: ١١٥] الجزئية الأولى (ما أنا عليه)، ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا ١١٥﴾ [النساء: ١١٥]، من؟ الصحابة الكرام هذا المقصود به والمعني به الثانية: (وأصحابي).

﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا ١١٥﴾ [النساء: ١١٥]. إذاً قد وسم النبي -صلى الله عليه وسلم- ووصف النبي -صلى الله عليه وسلم- وصفاً بديعاً موجزاً لهذه الفرقة الناجية، التي تنجو من هذه الفرق الثلاثة وسبعين؛ قال: (ما أنا عليه وأصحابي).

فمن أسعد الناس بهذه النجاة، ومن أسعد الناس باقتفاء آثار النبي -صلى الله عليه وسلم- وآثار الصحابة، ومن أسعد الناس بالقرب من الله الذين تمسكوا وعضوا بالنواجذ على سنة النبي وعلى سنة صحابة رسول الله -صلى الله عليه وسلم-.

الثالثة -وهذه مهمة جداً-؛ قالوا هذا الحديث ضعيف؛ تعلقتم بها وقلتم: (ما أنا عليه

وأصحابي) وبدعتم الناس وخرجتم الناس من والفرق هذه خرجت، إذاً كل الأمة ستكون في النار.

نقول هذا الإشكال حله هين بإذن الله:

أولاً ظاهره الاختلاف نعم ظاهرة؛ الاختلاف: الأمة مرحومة، الأمة وسط، الأمة خيار، الأمة كلها بالنسبة للذين يبعثون بعث أهل النار واحد من ألف، (يا آدم ابعث بعث النار)، واحد من ألف فقط. فلذلك نقول هناك تعارض ظاهري أن هذه المرحومة كلها، بعد ما تفترق هذه الفرقة كلها في النار إلّا واحدة، ونحن نقول لا بد أن يكون كلها. الصحيح في الآية كلها في الجنة إلّا واحدة، فكيف يأتي العكس؟ هذا هو الخلاف الظاهر.

نقول بإذن الله لا خلاف في ذلك، من محّص النظر وغاص في المعاني ودقق النظر، جعل الله الصعب سهلاً له، وجعل الله المختلف مؤتلف عنده. فكيف نؤلف بين هذا الخلاف الظاهري؟

أقول الناس قسمان لا ثالث لهما: خواص وعوام.

- **أمّا الخواص**: فهم خاصة الناس، أفاضل الناس، هم الأماجد الأكارم، هم العلماء وطلبة العلم. إذاً القسم الأول خواص وهؤلاء نقاوة الناس، أفاضل الناس، الأكارم الأماجد العلماء وطلبة العلم.

- **وعوام**: هؤلاء هم عوام الناس الذين لا يدرون عن دين الله شيء، أولهم كآخرهم، لا تستطيع أن تقول هذا مبتدع أو هذا ضال أو هذا يضلل الناس.

أمّا الخاصة ففي الرعيل الأول؛ ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ الْأَوَّلِينَ ۝١٣﴾ [الواقعة: ١٣]، صحابة ما بعدهم ومن بعدهم، ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ الْأَوَّلِينَ ۝١٣ وَقَلِيلٌ مِّنَ الْآخِرِينَ ۝١٤﴾ [الواقعة: ١٣ - ١٤]. وأمّا العوام فثلةٌ من الأولين وثلةٌ من الآخرين. ننظر في القسمين وننظر في الحديث؛ هذا الحديث يُعنى بالخواص أم بالعوام؟ إن كان يُعنى بالعوام ضعنا وضيعنا، وحقاً علينا أن نرد هذا

الحديث، لأننا الآن قلنا القسمين: قسمٌ خاص وقسمٌ عام. من الأكثر؟ الأكثرية الكاثرة العوام، فهل العوام يعنون بهذا الحديث أم لا؟ الصحيح الراجح -كما قلنا- العوام لا يعنون بهذا الحديث، خرجوا، أولهم كآخرهم.

ولذلك ترى المحققين من العلماء عندما يتكلمون عن الرافضة مثلاً الذين يسبون النبي -صلى الله عليه وسلم- أو يسبون أبا بكرٍ وعمر أو عائشة، ماذا يقولون؟ يقولون هناك فرق بين العامة وبين العلماء، يفرِّقون لأن العامة لا يؤاخذون بجريدة العلماء، الكلام منصب على الذين يؤصِّلون هذه البدعة وينافحون من أجلها ويقاتلون من أجلها.

إذاً العوام خرجوا، فلمّا خرجوا ارتحنا، لأن الكثرة الكاثرة خرجت من الحديث الذي قال فيه النبي -صلى الله عليه وسلم-: (كلهم في النار). ويبقى الخواص، من هؤلاء الخواص؟ الفرق. إذاً العوام الذين هم الأكثرية الكاثرة في الأولين والآخرين، هم الأكثرية الكاثرة خرجوا من الحديث. يبقى الخواص، ننظر في الخواص؛ الخواص ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ۝١٣﴾ [الواقعة: ١٣]، يعني الأكثر من الأولين، هل يضمهم هذا الوعيد؟ الله جلَّ وعلا يقول: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ﴾ [التوبة: ١٠٠]، فهؤلاء السابقون ثلةٌ، هؤلاء الثلة من الأولين هؤلاء الناجون أيضاً.

يبقى الثلة الآخرين؛ هذه الثلة انقسمت إلى ست فرق، إلى الفرق الكثيرة الاثنين وسبعين، يبقى منها واحدة، هؤلاء قلة بالنسبة للأكثرية الكاثرة العامة، وبالنسبة للأكثرية الكاثرة في الثلة من الأولين الخاصة. فمعنى حيز جزء من ألف من ألف جزء. الذين عنى بهم قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (كلهم في النار)، "كلهم" من القليل الآخرين هم الذين عنى بهم كلام النبي -صلى الله عليه وسلم- وقال: (كلهم في النار). فيخرج من ذلك الثلة من الأولين الذين عدّلهم الله وعدّلهم النبي -صلى الله عليه وسلم، وتبقى القلة التي جاءت بعد هذه الأزمنة الخيرية، هذه القلة يمحِّص فيها أصول لهذه الفرق.

ثم نقول الفرقة التي وصفها النبي -صلى الله عليه وسلم-: (ما أنا عليه وأصحابي)،

هؤلاء الناجون، وبعد ذلك هم الذين يعني بهم حديث النبي -صلى الله عليه وسلم-: (كلهم في النار إلّا واحدة)، ويحل بذلك الإشكال ويبقى الحديث ساطعاً في سمائنا، نقول هذا حديثٌ صحيح مرعب يخوف كل إنسان يحيد عن كتاب الله ويحيد عن سنة النبي -صلى الله عليه وسلم-، يحيد عن صحابة رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، بقول النبي -صلى الله عليه وسلم-:(ما أنا عليه وأصحابي).

يبقى لنا ختاماً لهذا الباب قول الآهات والحسرات لأهل الأهواء، هذه هي العاقبة، العاقبة دائماً لأهل الأهواء الحسرات والضياع ونيران تلظى. فإن الغزالي كان من أمتن الناس في علم الكلام، بكى في آخر عمره، ثم على سرير الموت أخذ البخاري واحتضنه وقال: ولجت في بحر الظلمات. ما بحر الظلمات؟ علم الكلام الذي لا ينفعك ولا يضرك، إن لم يضرك لا ينفعك بشيء.

وأيضاً الجويني؛ الجويني والد إمام الحرمين، عند موته بكى بكاءً شديداً، وحذّر الناس أيّما تحذير من أهل الأهواء والآراء الذين يقدّمون عقولهم على سنة النبي -صلى الله عليه وسلم-. ثم بكى وقال: ها أنا ما انتفعت بهذا العلم، ما انتفعت بشيء؛ يعني دخل خضم عظيم ما خرج منه بشيء. قال: ما انتفعت بشيء، وما أموت إلّا على عقيدة عجائز نيسابور. انظروا إلى هذا الكلام!! يتندم ندماً شديداً، يعض أنامل الندم على ما فرّط في التمسك بكتاب الله وسنة النبي -صلى الله عليه وسلم-، ويقول: أموت على عقائد عجائز نيسابور.

والفخر الرازي؛ معروف كيف لام على أهل الكلام، فرجع ثم تكلم على الاستواء وغير الاستواء -على ما نفصّله-، بأنه نحى نحو أهل السنة والجماعة. وأشهر الكتب التي عنيت بذلك كتب أو كتاب أبي موسى الأشعري "الإبانة"، الذي رجع فيه بعدما كان معتزلاً ثم أشعرياً أو العكس، ثم بعد ذلك مات على سنة النبي -صلى الله عليه وسلم-، بالتمسك بمذهب إمام أهل السنة والجماعة الإمام أحمد ابن حنبل.

إذاً أهل الأهواء أهل حسرات وآهات في الدنيا وفي الآخرة، لأن العاقبة هذه في الدنيا ظهر الندم، وظهر عاقبة السوء، أمّا في الآخرة فالفضل كل الفضل للذين كانوا سعداء بقول -صلى الله عليه وسلم-: (ما أنا عليه وأصحابي). والحسرات كل الحسرات على هؤلاء أهل الأهواء، عندما ينزعون من يد النبي -صلى الله عليه وسلم- وهو يسقيهم ويحتاجون إلى شربة ماء هنية من ظمأٍ شديد، فيقال: (يا محمد لا تدري ما أحدثوا بعدك، فيقول النبي -صلى الله عليه وسلم-: سحقاً سحقاً لمن بدّل بعدي، بعداً بعداً لمن بدّل بعدي).

اللطائف الإسنادية في هذا الحديث:

- الحديث الأول فيه إسماعيل بن عياش، هو ثقة ثبت في أهل بلده.

- الثاني بقية؛ بقية يقولون فيه ضعف، والصحيح أن بقية ثقة ثبت، لكن بقية يدلس تدليس تسوية، فأيّما حديث وجدت بقية قال: "عن"، قالوا: فكن من أحاديثه على تقية، لأن أحاديث بقية ليست نقية، لأنه مدلس، فإذاً "عنعن" لا تأخذ لأنه ممكن يسقط شيخ الشيخ، فإذا أسقط شيخ الشيخ وسوّى، ويجود الإسناد فلا تأخذ به. وهنا قد صرّح بالتحديث في رواية أبي داوود -رحمه الله-.

- والثالثة الحديث: (ما تحت ظل السماء إلهٌ يعبد من دون الله)؛ هذا حديث موضوع، حديث لا يصح. طبعاً هو الكلام كلام الهيثمي، أن فيه الحسن بن قيس هذا كلام جيد لكن فيه تأصيل، إذ بالتتبع فيه -كما قال الشيخ رحمه الله- ثلاثة من المتروكين، فالحديث يعني أقرب ما يكون إلى الوضع منه أن هو يكون له أصل.

- هنا نستنبط فائدة حديثية مهمة جداً ألا وهي: إذا شهد الكتاب لنص حديثي وكان الحديث ضعيف الإسناد فإنه لا يصح الحديث؛ بمعنى الكلام لا تقوى الأحاديث في الشواهد من الكتاب. كيف ذلك؟ أين هذه الفائدة؟ من أين أخذنا هذه الفائدة؟ قال الله

تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ [الجاثية: ٢٣]، فجعل الإله هوى، وابن عباس قال: إلهٌ يعبد من دون الله هو الهوى، والحديث بالأثر قال: (ما تحت ظل السماء إلهٌ يعبد من دون الله أعظم عند الله من هوى متبع)، فسمّاه إله، ومع ذلك لم يصحح.

في مثل ممكن يضرب لهذا؟ نظير بنظير؟ مثل مشهور جداً يشهد له القرآن ولم يصحح أيضاً بشهادة القرآن له: ما روي عن النبي -صلى الله عليه وسلم-: (إذا رأيتم الرجل يعتاد المساجد فاشهدوا له بالإيمان)، له شاهد من الكتاب ما هو؟ ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ﴾ [التوبة: ١٨]، لا يتقوّى الحديث بها، الحديث ضعيف.

فهذه قاعدة حديثية ووظيفة حديثية عند علمائنا المحدثين المحققين، يرون أن الشواهد القرآنية لا تقوّي الأحاديث. تقوية الأحاديث بالأسانيد والمتابعات والشواهد، وهذا لها باب آخر. وهذه اللطائف التي نختم بها هذا الباب، وبإذن الله الإسبوع القادم نكمل هذا الكتاب البديع الذي يضعنا على البيضاء النقية التي فيها النجاة. ونسأل الله جلَّ في علاه أن يجعلنا مما كان عليه هو وأصحابه، ويجعلنا من الناجين من نار جهنم.

(١) الألباني، ضعيف الترغيب (١٢٨٩)

(٢) أخرجه أبو داود (١٦٣٣) والنسائي (٢٥٩٨) وأحمد (١٧٩٧٢)

(٣) أخرجه الترمذي (٢١٤١) واللفظ له، وأحمد (٦٥٦٣) باختلاف يسير، والنسائي في السنن الكبرىٰ (١١٤٧٣) مختصرا.

مقدمة في باب القدر

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهدِ الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ١٠٢﴾ [آل عمران: ١٠٢]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا ١﴾ [النساء: ١]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ٧٠ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا ٧١﴾ [الأحزاب: ٧٠ – ٧١].

أمّا بعد:

فإن أصدق الحديث كتاب الله، وأحسن الهدي هدي محمدٍ -صلى الله عليه وسلم-، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثةٍ بدعة، وكل بدعةٍ ضلالة، وكل ضلالة في النار، ثم أمّا بعد إخوتي الكرام:

اليوم بإذن الله مع هذا الكتاب المبارك "كتاب السنة لابن أبي عاصم"؛

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وبعد:

باب ذكر قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (عليكم هدياً قاصداً)

وعن بريدة الأسلمي قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم- (عليكم هدياً قاصداً، فإنه من يغالب هذا الدين يغلبه). وعن أبي برزة قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: (عليكم هدياً قاصداً، فإنه من يشادّ هذا الدين يغلبه).

وعن ابن عباس -رضي الله عنهما- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: (إياكم والغلو في الدين، فإنما هلك من كان قبلكم بالغلو في الدين). وعن أنس -رضي الله

عنه- عن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: (يقول الله تبارك وتعالى لأهون أهل النار عذاباً: لو كان لك الدنيا وما فيها أكنت مفتدياً بها؟ فيقول: نعم، فيقول: قد أردت منك أهون من ذلك وأنت في صلب آدم، أن لا تشرك بي شيئاً. قال: وأحسبه، قال: ولا أدخلك النار، فأبيت إلّا الشرك بي).

وعن علي -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: (أخوف ما أخاف عليكم بعدي من الدجال، أئمةً مضلين). وعن أبي أمامة قال: قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (ما ضل قوم بعد هدى كانوا عليه إلّا أوتوا الجدال، ثم قرأ: ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا﴾ [الزخرف: ٥٨].

باب ذكر القلم أنه أول ما خلق الله تعالى وما جرى به القلم

عن عبادة بن الصامت قال: سمعت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يقول: (أول ما خلق تعالى القلم فقال له: اكتب، قال: يا رب وما أكتب؟ قال: اكتب مقادير كل شيء).

عامةً كان المفروض أن نتكلم عن الهدي القاصد لكن أردت أن أدخله مع الكلام عن القدر، لا سيما أننا سنتكلم في مسألة الدجال والأئمة المضلين في أشراط الساعة على ما يأتي إن شاء الله ذكره، فالغلو في الدين من الأبواب المهمة جداً، وسنضم الكلام عليها إلى الطوائف الذين ينظرون إلى القدر وأنهم طوائف ثلاث: الطائفة الأولى غلو، والطائفة الثانية جفو، والطائفة الوسط هي طائفة أهل السنة والجماعة.

تكلم بعد ذلك في هذا الباب العظيم وهو باب: (عندما خلق الله القلم فقال له: اكتب)؛ هذا الباب هو باب القدر، وهو باب عظيم جداً، سر من أسرار الله جلَّ في علاه. من أتقن هذا الباب من العقيدة فقد أتقن باباً عظيماً من أبواب العلم، لا سيما وأن باب القدر كما قلت دحض مزلة، لا يعمق فيه النظر أحد إلّا تاه وتخبط وزل وضل، فأقول "ضل" بيقين، قد ضلت طوائف كثيرة جداً في باب القدر. وهو من لوازم ربوبية الله جلَّ في علاه. تستنبطه من قول الله تعالى: ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الأنبياء: ٢٣]، وأيضاً

من قول الله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [هود: ١٠٧].

فالقدر كما قلت قدرة الله جلَّ في علاه، وهو من لوازم الربوبية، وهو ركن من أركان هذا الدين العظيم، من لم يؤمن به فقد كفر وخرج من الملة، والدليل على ذلك حديث جبريل -عليه السلام- في الصحيحين لما سأل النبي -صلى الله عليه وسلم-: (أخبرني عن الإيمان، فقال: أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه والقدر خيره وشره، وأن تؤمن باليوم الآخر)، فقال: (أن تؤمن بالقدر خيره وشره)، فأصبح ركناً ركيناً من أركان الإيمان. والدلالة على أن الذي لا يؤمن بالقدر يخرج من الملة حديث عبادة بن الصامت، الحديث الطويل عندما قال: (وكيف أؤمن بالقدر؟ قال: تعلم أن ما أخطأك لم يكن ليصيبك وما أصابك لم يكن ليخطئك، ثم قال له: يا بني إن مت على غير ذلك دخلت النار)، نعوذ بالله من الخذلان.

قد وردت آيات كثيرة تثبت أن الله جلَّ وعلا قد كتب كل شيء قبل أن يخلق الخلق، وأيضاً علم كل شيء قبلها، علم ما كان وما يكون وما لم يكن لو كان كيف سيكون، وسنبيّن هذا تفصيلاً. قال الله تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ۝٤٩﴾ [القمر: ٤٩]، وقال جلَّ في علاه: ﴿مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [التغابن: ١١]، يعني يؤمن أن هذا كان مكتوبا قبل أن يُخلق، ﴿وَمَن يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ﴾ [التغابن: ١١]، ويجعل النور في قلبه لأنه آمن في هذا القدر. وأيضاً قال الله تعالى: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ ۝٥٢﴾ [القمر: ٥٢]، وقال الله تعالى: ﴿مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا﴾ [الحديد: ٢٢]، ما معنى نبرأها؟ يعني نجعلها موجودة، نخلقها ونخرجها للوجود، فهي في كتاب من قبل أن تُخلق.

وقال النبي -صلى الله عليه وسلم- مبيّناً أمر القدر عندما سئل: (يا رسول الله أرأيت ما نعمل؟ أفي أمر قد مضى؟ (يعني كُتِب وانتهى؟)، أم هو أنف؟ (يعني نستأنفه؟) قال: لا فيما مضى، قال: يا رسول الله إن كان فيما مضى ففيمَ العمل؟ قال: اعملوا فكل ميسر لما

خلق له). وفي مسند أحمد عن عبد الله عمر بن العاص[1] قال: (أخرج النبي -صلى الله عليه وسلم- كتابين وبيّن أن الله جلَّ وعلا كتب كتابين، فقال: هذا بأسماء أهل الجنة بأسمائهم وأسماء آباءهم ثم ختم على ذلك، ثم قال عن الذي في اليد الأخرى: وهذا الكتاب فيه أسماء أهل النار بأسمائهم وأسماء آبائهم وختم على ذلك، ثم قال: فرغ ربكم من العبادة، فعلم أهل الجنة وعلم أهل النار).

وأيضاً يبيّن النبي -صلى الله عليه وسلم- في أحاديث كثيرة عن القدر ويثبتها وأنها ركن ركين من هذا الإيمان، يقول النبي [2]-صلى الله عليه وسلم- كما في الصحيح: (لا تسأل المرأة طلاق أختها لتكفأ صحفتها ولتنكح، إنه لا يأتيها إلّا ما قُدِر لها)، هذا وجه الشاهد من الحديث قال: (لا تسأل المرأة)، كأن النبي -صلى الله عليه وسلم- يقول: لِمَ تسألي طلاقها؟ فإن الله لو كتب أنها تطلق ستطلق وإن لم يكتب طلاقها لن تطلق، والخسارة عليك، فأنتِ خسرتِ بأنك لم تعملي بقدر الله جلَّ في علاه ولم ترضي بقدر الله وأسأتِ بمخالفة للنبي -صلى الله عليه وسلم- بأنك سألتي طلاق أختك، قال: (فإنه لا يأتيها إلّا ما قدر لها).

وأيضاً يقول النبي -صلى الله عليه وسلم- مبيّناً لنا مكانة القدر: (المؤمن القوي خيرٌ من المؤمن الضعيف، وفي كلٍ خير، احرص على ما ينفعك)، فيها دلالة قوية جداً لأهل السنة والجماعة الذين ينظرون بعين القدر وعين الشرع، قال: (احرص)، خذ بكل الأسباب التي تنتفع بها، (احرص على ما ينفعك)، ثم قال بعدما تحرص وتأخذ بالأسباب الشرعية عينك إلى القدر: (احرص على ما ينفعك واستعن بالله) يقيناً، وهذا للقدر لأنك تتوكل بقلبك على الله فتأخذ بالشق الشرعي في الأخذ بالأسباب الصحيحة، ويقينك

(١) أخرجه الترمذي ٢١٤١، وأحمد ٦٥٦٣ باختلاف يسير، والنسائي في ((السنن الكبرى)) (١١٤٧٣) مختصرا.

(٢) أخرجه البخاري (٢١٤٠)، ومسلم ١٤١٣.

وقلبك معلق بقدر الله جلَّ في علاه[1] وبالتوكل على الله. (احرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجز، فإذا أصابك شيء فلا تقل لو كان كذا لكان كذا، ولكن قل قدر الله وما شاء فعل، فإن لو تفتح أبواب الشيطان)، لأنك ستتسخط بعد ذلك على قدر الله جلَّ في علاه.

فهذه أدلة كثيرة تثبت أن القدر ركن ركين من هذا الدين، وأن الإنسان لا يفلح ولا ينجح ولا يقبل إيمانه إلّا بالإيمان بالقدر، ولا يستقيم إيمان عبد بالقدر كما بيّن النبي -صلى الله عليه وسلم- في حديث القلم كما سنبيّنه بالتفصيل إلّا بالإيمان بأربع مراتب، وخذها مني بالترتيب: علمٌ فكتابةٌ فإرادةٌ فخلقٌ؛

١- العلم، لأن الله جلَّ وعلا علم كل شيء، علم ما كان وما يكون وما لم يكن لو كان كيف سيكون. المعتزلة في هذا الزمان يتمسكون بالعلم، لا يردوه، كانوا في البداية يردوه لكن هؤلاء لا يردوه يتمسكون فيه يقولون: علم كل شيء، لكن ما خلق أي شيء.

٢- الكتابة، لأن الله جلَّ وعلا كتب كل شيء؛ ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ ۝٥٢ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ ۝٥٣﴾ [القمر: ٥٢ - ٥٣]، كتب كل شيء قبل أن يخلق الخلق.

"علم فكتب فأراد فخلق"، هذه الأربع مراتب، لا بد أن تؤمن بالعلم وبالكتابة.

٣- وبأن المشيئة نافذة، ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن.

٤- وأيضاً الخلق وهو الإيجاد.

هذه الأربعة مراتب التي لا بد أن تتأصل عليها وهذا سيأتي تفصيلاً إن شاء الله، يبقى لنا في الكلام عن القدر بكلمة موجزة، طوائف الناس بالنسبة للقدر ثلاث طوائف:

١- الطائفة الأولى فيها الغلو وهم القدرية، هؤلاء لم ينظروا، كل منهم أعور كل طائفة من الطائفتين غير أهل السنة والجماعة أعور ينظر بعين واحدة؛ هؤلاء نظروا بعين الشرع

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (٢٦٦٤).

ولم ينظروا بعين القدر، محصّوا النظر في عين الشرع، نظروا الأوامر والنواهي وقالوا الإنسان يأخذ الجنة بما فعل أو بما لم يفعل، يعني الإنسان إذا فعل ما "أمر" يستحق الجنة ولا يدخل الجنة برحمة الله، بل يدخل الجنة بعمله. هؤلاء يخالفون النبي -صلى الله عليه وسلم- ينظرون بعين واحدة، ينظرون بعين الشرع ولغوا القدر، ولذلك جعلوا كل إنسان خالق لإرادته مع الله جلَّ في علاه.

الطائفة الثانية أخبث من هذه الطائفة، يعني هذه الطائفة أرحم من الطائفة التي ستأتي.

٢- الطائفة الثانية الجبرية الذين نظروا إلى القدر وأزاحوا الشرع، ما نظروا إلى الشرع. هذه الجبرية، الذين يقولون ألقاه في اليم مكتوف اليدين وقال إياك إياك أن تبتل بالماء، هؤلاء الذين يعذرون إبليس، يقولون إبليس هو مطيع لربه في عدم السجود لأنه وافق إرادة الله جلَّ في علاه ووافق قدرة الله جلَّ في علاه، لأن الله جلَّ وعلا هو الذي خلق فيه ذلك فوافق إرادة الله جلَّ في علاه، يعتذرون لإبليس والعياذ بالله. فهؤلاء أخبث من القدرية، الجبرية يرون الإنسان كالريشة في مهب الريح لا إرادة له، نفوا إرادة البشر بالمرة.

٣- الطائفة الثالثة وهي طائفة أهل السنة والجماعة، هؤلاء بفضل الله نظروا إلى القدر بعينين: عين القدر والقضاء وعين الشرع، ووفقوا بينهما، قالوا إن الله علم ما كان وما يكون وما لم يكن لو كان كيف سيكون، وأن الله كتب كل شيء، وأن الله إذا شاء شيئاً كان وإلّا فلا يكون، وأن الله إذا شاء شيئاً خلقه وبرأه أو أخرجه للناس. نظروا للقدر فجعلوا الله جلَّ وعلا له مشيئة وإرادة، ونظروا للشرع فجعلوا العبد إمّا مأمور بشيء أو نُهي عن شيء، فالعبد هنا له إرادة أيضاً في الأمر والنهي الذي عليه. فنظروا إلى إرادة الله وإرادة العبد قالوا: للعبد إرادة ولله إرادة.

أمّا الطائفة الأولى فقالوا: لا إرادة؛ كيف ذلك؟ هم قالوا أصلاً إن الله لا يضل ولا يهدي العبد، بعمله هو اهتدى، بعمله هدايته، وإذا ضل ضلاله بعمله، نفوا إرادة الله جلَّ في علاه المتحكمة في العبادة.

والطائفة الأخرى الأخبث "الطائفة الثانية" قالوا: لا إرادة للعبد، هو ريشة، يعني يحركه الله كيف يشاء. ولذلك والعياذ بالله يتهمون الله بالظلم، يقولون لو عذّب إبليس لظلمه، ولذلك قال كبيرهم: لو كنت أمام ربي لحججت عن إبليس عندما قال له: لِمَ لم تسجد لما أمرتك؟ لقال -والعياذ بالله وخاب وخسر بما قال-: لاحتججت لإبليس قال بفعلك أو بإرادتك، أنه لا إرادة لإبليس والعياذ بالله، يعني كأنه طوّع إرادة الله جلَّ في علاه.

وأمّا أهل السنة والجماعة فقالوا: للرب إرادة وللعبد إرادة، لا غلو ولا جفو، لكن إرادة العبد تحت إرادة الخالق، لا تنفرد بحال من الأحوال، هي منشأها من الخالق. فيجعلون الأفعال التي وقع فيها العبد كالزنا والسرقة وغيرها، يجعلونها من الله جلَّ في علاه، ينسبها لله خلقاً وإيجاداً، وكله كمال، لأن كل أفعال الله كمال. فكل الأفعال تنسب لله خلقاً وإيجاداً لما فيها من حلوها ومرها شرها وخيرها، وأيضاً تنسب للعبد فعلاً واكتساباً.

وهذا الذي يجعلك توافق عندما قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (وأعوذ بك من شر ما قضيت)، ما قال له: من شر ما قضيت من فعلك، يعني من قضائك، لا، قال: (من شر ما قضيت) يعني من شر القضاء نفسه ليس من شر قضائك، يعني فعلك لا والعياذ بالله، الشر في المقضي ليس في فعل الله جلَّ في علاه. فأهل السنة والجماعة لمّا نظروا إلى ذلك جعلوا للعبد إرادة، كما أنهم جعلوا للرب إرادة، وتفصيله إن شاء الله سياتي بالغلو والجفو، وقبلها نشرح مسألة حديث القلم مع المراتب الأربعة والرد على أهل البدع في مسالة القدر، أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم.

عليكم هدياً قاصداً

بلغنا إلى الكلام على حديث القلم، أنه أول ما خلق الله القلم، وقدمنا مقدمة في القدر. وأغفلنا قبلها الباب الذي يسبقه وهو باب ذكر قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (عليكم هدياً قاصداً)، لا سيما وأن هذا الباب يحمل تحت طياته أموراً عظاماً، فلا بد أن نتعرض لها قبل أن ندخل في عمق الكلام على القدر.

لا سيما وأن له بابين: الباب الأول كلام على ميثاق الفطرة، الباب الثاني هذا الحديث الذي يتكلم عن ميثاق الفطرة يجرنا على الكلام هل أهل الفترة يعني هم من المعذورين؟ أم هم من أهل الرسالة فالموحد منهم يدخل الجنة والمشرك منهم يدخل النار؟ كما انقسم أهل السنة والجماعة فريقين بسبب هذا الحديث، وهو حديث: (قد أردت منك أهون من ذلك، أردت منك ان تعبدني لا تشرك بي شيئاً وأنت في صلب آدم فأبيت إلّا الشرك)، هذا الحديث عمدته ميثاق الذر عندما مسح الله جلَّ في علاه على ظهر آدم فأخرج ذريته من ظهره. الباب الثاني نرجئه إن شاء الله للجمل المهمة في الباب الأول ألا وهو القصد أو الهدي الوسط، وأن هذه الأمة أمة وسطية، وأن أهل السنة والجماعة هم الوسط بين الغاليين وبين الذين فيهم الجفو. فنتعرض للبابين بإذن الله اليوم؛ لباب مسألة الغلو في الدين: وأيضاً حديث النبي -صلى الله عليه وسلم-[1]: (أخوف ما أخاف عليكم بعدي من الدجال، أئمة مضلين).

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، وبعد:

باب ذكر قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (عليكم هدياً قاصداً)

وعن بريدة الأسلمي قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم- (عليكم هدياً قاصداً، فإنه من يغالب هذا الدين يغلبه). وعن أبي برزة قال: قال رسول الله -صلى الله

(١) أخرجه الالباني في صحيح الترمذي (٢٢٢٩).

عليه وسلم-: (عليكم هدياً قاصداً، فإنه من يشادّ هذا الدين يغلبه).

وعن ابن عباس -رضي الله عنهما- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: (إياكم والغلو في الدين، فإنما هلك من كان قبلكم بالغلو في الدين). وعن أنس -رضي الله عنه- عن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: (يقول الله تبارك وتعالى لأهون أهل النار عذاباً: لو كان لك الدنيا وما فيها أكنت مفتدياً بها؟ فيقول: نعم، فيقول: قد أردت منك أهون من ذلك وأنت في صلب آدم، أن لا تشرك بي شيئاً. قال: وأحسبه، قال: ولا أدخلك النار، فأبيت إلّا الشرك بي)

وعن علي -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: (أخوف ما أخاف عليكم بعدي من الدجال، أئمةً مضلين).

هذا الحديث كما قال الشيخ رحمه الله رحمة واسعة: إن كان إسناده فيه ضعف الجابر الجعفي، لكن هذا الحديث أتى عن عمر بن الخطاب وعن علي وعن غيره من الصحابة رضوان الله عليهم، فشواهده كثيرة، والحديث حسن لغيره إن لم يكن صحيح لغيره، صحيح أنه حسن لغيره؛ (أخوف ما أخاف عليكم بعدي من الدجال، أئمة مضلين). وقد بيّن النبي -صلى الله عليه وسلم- أوصافهم كما سنبيّن أنهم أئمة مضلين أو أنهم منافقون، وأيضاً بيّن النبي -صلى الله عليه وسلم- أن فيهم هوى وفيهم جهل كما سنفّصل في قول النبي -صلى الله عليه وسلم-.

بدأ المصنِّف بالعلاج ثم ثنى بعد ذلك بالداء العضال، كأنه يبيّن أو يقول بهذا الترتيب: عليكم بالعلاج حصانة لكم، وعليكم بالتوضيب حصانة أو سداً منيعاً حتى لا تصابوا بهذا الداء العضال ألا وهو الغلو في الدين. كأن سائلاً يسأل يقول: ما هو المرض؟ فالإجابة: الغلو في الدين داءٌ عضال، والعلاج من هذا هو الهدي القاصد الذي بيّنه النبي -صلى الله عليه وسلم-. لذلك سنتعرض اليوم للكلام على الغلو في الدين بتعريف الغلو في الدين، ثم الغلو في الدين مذموم في ديننا في الشرائع السابقة، وبعد ذلك أنواع الغلو في

الدين، ثم التفصيل في قوله -صلى الله عليه وسلم-: (أخوف ما أخاف عليكم بعدي من الدجال)، كأن الأئمة المضلين أشد هلاكاً وفتكاً بهذه الأمة من فتنة الدجال، لا سيما وأن العدو القريب الذي يغفل عنه الناس أشد نكايةً من العدو الذي يُعرف، أو يقول المرء إني احترس من هذا العدو فأعرف عداوته لي.

الغلو: هو مجاوزة الحد؛ الراجح الصحيح في ذلك بلغة الشرع، الغلو هو: مجاوزة الحد سواء في الاعتقاد أو في العمل، يعني سواء في الأعمال أو في الاعتقادات. ولها بعض الألفاظ التي تواكبها وتشابهها كالتنطع في الدين كما قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (هلك المتنطعون)، والتعمق، وأيضاً التطرف وهذه لغة الغربيين على الذين يتمسكون بالدين وفيهم نوع من الغلو في الفكر، أو عامةً التطرف والحيدة عن الطريق القويم يمكن أن تطلق عليه بالغلو، فهذا يكون غلواً في الدين فهو مجاوزة الحد.

الغلو في الدين أو مجاوزة الحد في الاعتقاد أو في الأعمال مذموم في ديننا ومذموم في الشرائع السابقة، قدمه بقدم نوح -عليه السلام-، لأن نوح -عليه السلام- ما أرسل إلّا لقطع دابر الغلو في الدين؛ فإن البشرية كانت على التوحيد حتى حدث الغلو في ود وسواع ويغوث، فكانوا بعدما رسموا لهم الأصنام والتماثيل يذهبون يتذكرون عبادتهم يتقربون بذلك لله جلَّ في علاه، ثم اندثر العلم وظهر الجهل والشيطان تملّك في القلوب والعقول وبعد ذلك غلوا في هؤلاء الصالحين فعبدوهم من دون الله جلَّ في علاه، فأرسل الله نوحاً ليقطع دابر الغلو.

وأيضاً أشد الأمم غلواً في الدين سواء في الاعتقادات أو في الأعمال هم النصارى، وهم من بني إسرائيل، والله جلَّ وعلا يقول: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ﴾ [النساء: ١٧١]، فغلو النصارى في الدين كان في الاعتقاد وفي العمل: أمّا في العمل؛ فابتدعوا عبادات لم يكتبها الله جلَّ وعلا عليهم، ولذلك ذمهم الله وما مدحهم: ﴿وَرَهۡبَانِيَّةً ٱبۡتَدَعُوهَا مَا كَتَبۡنَٰهَا عَلَيۡهِمۡ إِلَّا ٱبۡتِغَآءَ رِضۡوَٰنِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوۡهَا

حَقَّ رِعَايَتِهَا ﴾ [الحديد: ٢٧]. وأيضاً غلو شديد في الاعتقاد بأنهم وسموا عيسى -عليه السلام- بأنه ابن الرب، حاشا لله فهو واحد أحد. وأيضاً قالوا أنه الرب نفسه وهذه التي أنكرها الله عليهم، فهذا الغلو مذموم فيمن سبقنا.

وفي ديننا قد حذر منه النبي -صلى الله عليه وسلم-: (إياكم والغلو في الدين)، وأيضاً كان النبي -صلى الله عليه وسلم- يقول: (هلك المتنطعون)، وكان النبي -صلى الله عليه وسلم- يرشد: (عليكم هدياً قاصداً). لكن لِمَ يا ترى هذا الذم وهذا التحذير البيّن من النبي -صلى الله عليه وسلم- للأمة حتى لا تقع في هذا المستنقع "مستنقع الغلو" في الدين، فتهلك وتهلك؟! فالعلل في ذلك كثيرة منها:

١- الغلو في الدين ازدياد على شرع الله جلَّ في علاه وتقدّم بين يدي الله جلَّ في علاه إمّا بلسان المقال وإمّا بلسان الحال، كأن الذي يأتي بالغلو في العبادات أو في الاعتقادات يرى أن الشرع الذي شرعه الله جلَّ في علاه لا يكفيه، ويرى أن المنزلة لا تكون أرقى ولا تكون أعلى ولا تكون أسمى له في العبادة إلّا إذا غلا في دينه وأتى بالعبادة المنقطعة النظير.

يجليها لنا القصة الصحيح؛ الثلاثة نفر الذين جاءوا يسألون عن عبادة النبي -صلى الله عليه وسلم-، فلما ذكر لهم كيف يصوم، كيف يقوم، كيف ينام، كيف يطعم، كيف يأكل، كيف يشرب، كيف يأتي نساءه، فكأنهم تقالوها. هذا نوع الغلو الذي جاء النبي -صلى الله عليه وسلم- زاجراً رادعاً على مثل هذا الفكر، أو مثل هذا الذي يُعتقد وثم بعد ذلك يترجم إلى عمل. قالوا إن النبي -صلى الله عليه وسلم- عبدٌ قد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، ثم قام قائلهم يقول: أنا أصوم ولا أفطر، وقال الثاني: أنا أقوم ولا أنام، وهذا كما قلت زين لهم الشيطان أن هذا من حسن العبادة لله جلَّ في علاه وحسن التقرب لله جلَّ في علاه، غلو في الدين. وقال الآخر: إني لا أتزوج النساء، امتنع عن هذه الشهوة. فلمّا جاء النبي -صلى الله عليه وسلم- وأخبر بالخبر اشتد غضبه ونكيره على مثل هؤلاء، لأن هذا باب فتنة ليس بعده فتنة، وسنبيّن كيف كان فتنة في الأمة كما خرجت الخوارج بسبب هذا

الغلو في الدين.

فقام النبي -صلى الله عليه وسلم- خطيباً في الناس ينكر علناً على من قال ذلك، قال: (ما بال أقوامٍ يقولون كذا وكذا وكذا)، وثم بيّن في بعض الروايات أنه أخشى الناس وأتقى الناس لله جلَّ في علاه قال: (أمّا أنا فأصوم وأفطر وأقوم وأنام وأتزوج النساء)، ثم أعلنها صراحةً: (وهذه سنتي، فمن رغب عن سنتي فليس مني). وهذه براءة من هذه الأعمال، براءة من الغلو في الدين وأن الوسطية هو الدين الحق، فقال: (أقوم وأنام، أصوم وأفطر، أتزوج النساء. هذه سنتي، فمن رغب عن سنتي فليس مني).

إذاً الذي يغلو في دين الله جلَّ في علاه يقدّم نفسه بين يدي شرع الله جلَّ في علاه، كأنه لا يقبل تشريع الله جلَّ في علاه، ويرى أنه لا يرتقي بمثل هذا التشريع. وهذا الذي فقهه الفقيه الأريب النجم كما قال الشافعي: إذا ذكر الحديث فمالك النجم، إمام دار الهجرة عندما قال للرجل: لا، لا تفعل، لا تحرم من مكان قبل مكان النبي -صلى الله عليه وسلم-، قال: لِمَ؟ زيادة الخير خير، قال: لا. ليس الأمر إنكاراً على أن هذا الفعل يجوز شرعاً أو ما يجوز، هو يجوز شرعاً حتماً، لكن كان الإنكار لأمر وراء ذلك؛ قال: ترى نفسك فعلت أمراً قصّر عنه رسول الله -صلى الله عليه وسلم-. هنا الغلو؛ يقول: النبي -صلى الله عليه وسلم- ما فعله وهو يأتيه فعله، كأنه تقدّم بين يدي عبادة النبي -صلى الله عليه وسلم- وأنه يشتد اجتهاده في العبادة دون النبي -صلى الله عليه وسلم-. قال: ترى نفسك فعلت فعلة قد قصّر عنها رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، أخشى عليك من الفتنة، ثم قرأ قول الله تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٣]، فهذه العلة الأولى أو السبب الأول في ذم الغلو.

٢- السبب الثاني في ذم الغلو؛ أن الإنسان بعد الغلو إذا اجتهد في العبادة لا بد حتماً سينقطع عن هذه العبادة ويتركها كليةً كأنه يزهد فيها، وينسى هذه العبادة وأصلها. يعني تراه يجتهد كثيراً في قيام الليل في ليلة واحدة ثم يبقى عاماً كاملاً لا يقيم الليل، أو يغض

بصره عن النساء مرة واحدة حتى عن أهله وحتى عن زوجه، ثم تراه بعد ذلك يقع في الزنا. فهذه المذمة العظيمة التي بيّنها النبي -صلى الله عليه وسلم-، أن الإنسان إذا غلا لا بد سيقع في المحظور سيقع في المحظور، وأيضاً سينقطع عن هذه العبادة سينقطع عن هذه العبادة، سواء زهادة فيها أو نفرة منها، وهذا واقعاً حديثاً من قول النبي -صلى الله عليه وسلم- وأيضاً من فعل النبي -صلى الله عليه وسلم- ليأتسي الناس به.

الدلالة على ذلك أن (النبي -صلى الله عليه وسلم- دخل على عائشة وكان عندها امرأة فقال: من هذه؟ قالت: هذه فلانة بنت فلان، تذكر من قيامها بالليل)، تذكر صلاتها وكيف كانت تقوم الليل كله. فقال النبي -صلى الله عليه وسلم- زجراً لا غلو في هذا الدين: (مه! عليكم من الأعمال بما تطيقون، فوالله إن الله لا يمل حتى تملوا). وفي الصحيحين أيضاً عن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: (عليكم من الأعمال بما تطيقون، فإن الله لا يمل حتى تملوا)، ما يستنبط من هذا الحديث الجليل؟

أولاً هي صفة ليست خبرية، فضابط الخبرية مسماها عندنا أجزاء وأبعاض، بالنسبة لله هي صفة كمال وجلال لكن بالنسبة لنا جزء وبعض. إذاً ليست صفة خبرية ولكنها صفة فعلية، كيف هي صفة فعلية؟ الضابط من الحديث: يوصف الله بها في وقت "عندما تمل"، ولا يتصف بها عندما لا تمل. كيف تثبت أنها صفة ثبوتية؟ بمفهوم المخالفة نثبت الصفة؛ هذه الصفة الجليلة هي صفة كمال وجلال لله جلَّ في علاه، أمّا الملل بالنسبة للإنسان فهي شيء عجز في النفس وكسل وفتور، أمّا الله فلا وألف لا، صفة كمال وجلال يتصف بها الله جلَّ في علاه، معناه أنه لا يمتنع عن إعطائكم الثواب إلّا إذا أبيتم أنتم الثواب، هذا معنى الصفة.

فهي صفة كمال وجلال لله جلَّ في علاه، لازمها أن الله جلَّ وعلا يغدق لكم الثواب ويعطيكم الثواب ولا يوقف هذا الثواب عنكم إلّا إذا أبيتم الثواب، يوضحها قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (كل أمتي يدخل الجنة إلّا من أبى)، فإن أبيتم الثواب فلا ثواب

لكم، وإن رضيتم بالثواب فالله يغدق عليكم الثواب الحسنة بعشرة أمثالها إلى أضعاف مضاعفة إلى سبعمائة ضعف، هذا الكلام الصحيح عند من قرره المحققون من أهل السنة والجماعة وإن كان المسألة أيضاً فيها خلاف معتبر. الغرض المقصود: هذا حديث جليل جداً، قال فيه النبي -صلى الله عليه وسلم-: (عليكم بما تطيقون من الأعمال، فإن الله لا يمل حتى تملوا).

وأيضاً (النبي -صلى الله عليه وسلم- مر في المسجد فوجد حبلاً معلق في المسجد، فقال: لمن هذا الحبل؟ قالوا: هذا لزينب تقيم الليل فإذا شق عليها أخذت وأمسكت بالحبل)، فقطعه النبي -صلى الله عليه وسلم- زجراً رادعاً، لِمَ يفعل المرء من الغلو في الدين يحمل نفسه فوق طاقته؟! لأنه سينقطع بعد ذلك عن العبادة، فقال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (عليكم بما تطيقون من الأعمال، فإن الله لا يمل حتى تملوا)، وأرشدها أن تقيم إذا كان هناك بعض النشاط عندها، وإلّا فلا بد أن ترقد وأن تنام لتقوى على قيام الليل كما قال ابن مسعود: إني لأحتسب نومتي كما أحتسب قومتي، أي ينام ليستطيع أن يقيم هذا الليل.

وأيضاً النبي -صلى الله عليه وسلم- بيّن الذم الشديد والوعيد الأكيد للمرء الذي أحسن الله إليه وثبّت له طاعة وبورك له فيها ثم تركها، لأنه من الغلو والشدة على نفسه نفر منها وزهد فيها، قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (إن أحب الأعمال إلى الله أدومه وإن قل)، وقال كما في الصحيح: (يا عبدالله لا تكن مثل فلان، كان يقيم من الليل ثم تركه). الله جلَّ في علاه ذم من غلا في شيء واشتد على نفسه ثم قطعه وبتره ولم يستمر فيه، قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّتِى نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَٰثًا﴾ [النحل: ٩٢]. ولذلك على المرء الهدي القاصد، على المرء أن يتوسط في العبادة، يكلّف نفسه من العمل ما يطيق حتى يستمر عليه لأن الله يحب من العبد أن يستمر على هذه الأعمال الصالحات وإن كانت قليلة. ولذلك عائشة تصف النبي -صلى الله عليه وسلم-أنه كان إذا أقام طاعة ثبت عليها، والدليل الواضح الجلي في ذلك حديث سنة بعد العصر؛ النبي -صلى الله عليه

وسلم- قضى سنة الظهر بعد العصر فثبت عليها، لأنه ما كان يقوم بطاعةٍ -بأبي هو وأمي- إلّا ويثبت عليها.

٣- السبب الثالث في الذم الشديد على هذا الغلو أن الذي ينتحل هذا الأمر فإنه يخرج أمام ربه جلَّ في علاه خالياً، صحيفته ليست فيها شيء، يصل بعد ذلك إلى الخواء. والدلالة على ذلك أثر ضعيف وحديث صحيح؛ أقدم الأثر الضعيف على أن معناه من الصحة بمكان، أن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: (إن المنبت لا ظهراً أبقى ولا أرض قطع)، لأنه بعد ما اشتد على نفسه قطع العبادة ونكص على عقبيه. فإن المرء يصل إلى ربه ليس له من العمل من شيء بقي له، لأنه سينفرط عقده ولا يقوم على هذه الأعمال ولا يستمر عليها فيذم عند ربه جلَّ في علاه.

والأمر الثاني أن الغلو في الدين بابه البدعة، والمبتدع مردود باطل عمله عند ربه جلَّ في علاه، كما قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (من عمل عملاً ليس عليه أمرنا)، والغلو ليس عليه أمرنا لأن النبي -صلى الله عليه وسلم- بيّن ذلك بقوله: (فمن رغب عن سنتي فليس مني). قال -صلى الله عليه وسلم-: (من عمل عملاً ليس عليه أمرنا)، (من أحدث في ديننا ما ليس منه فهو رد)، يعني فهو باطل. وابن مسعود -رضي الله عنه وأرضاه- عندما جاءه أبو موسى مهرولاً فقال: أبا عبد الرحمن رأيت عجباً، قال: ما رأيت؟ قال: رأيت أقواماً في المسجد يتحلقون حلقاً، كبيرهم يقول: سبحوا مئة، كبروا مئة، هللوا مئة. فتلثم ابن مسعود ثم دخل عليهم، ثم كشف عن وجهه وقال: ألا تعرفوني؟! أنا صاحب رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، أنا أبو عبد الرحمن عبد الله ابن مسعود، إنكم على ملة أهدى من ملة رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أو مفتتحو باب ضلالة. فقالوا: يا أبا عبد الرحمن والله ما أردنا إلّا الخير، هذا الغلو بالأعداد كما سنبيّن في الأعمال هذه والأذكار والأوراد التي لم ينزل الله بها من سلطان، هذا غلو في الدين ونوع من الغلو في الدين الذي لا بد من بتره. فقالوا: والله يا أبا عبد الرحمن ما أردنا إلّا الخير، فقال -رضي الله عنه

وأرضاه-: وكم من مريد للخير لم يبلغه، لِمَ؟ لأنه لم يتبع في ذلك هدي النبي -صلى الله عليه وسلم-.

الغلو نوعان: غلو عملي وغلو اعتقادي.

▪ **الغلو العملي**: كما بيّنا هذه في الأذكار والأوراد والأعداد الكثيرة من الركعات التي لم ينزل بها الله من سلطان، وإن أرادوا بذلك الخير يقال لهم: وكم من مريد للخير لم يبلغه، عليكم بسنة النبي -صلى الله عليه وسلم-، كما قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (إنه من يعش من بعدي منكم فسيرى اختلافاً كثيراً، فقالوا: أوصنا يا رسول الله، فقال: عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي، عضوا عليها بالنواجذ). فإن الغلو العملي هو أن يأتي بعبادة لم يأت بها النبي -صلى الله عليه وسلم-، والأصل في العبادات التوقيف لقوله -صلى الله عليه وسلم-: (من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد)، ومن الكتاب: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ [الحشر: ٧].

وأشكالها وألوانها كثيرة في العبادات، منها ما حدث واقعاً مع النبي -صلى الله عليه وسلم- كالنذور التي خالف فيها الناذر هدي النبي -صلى الله عليه وسلم-، أن ينذر الرجل أن يمشي إلى مكة مثلاً ليحج حجاً ماشياً ويكون له الأجر يعمل بذلك بقوله -صلى الله عليه وسلم-: (أجرك على قدر نصبك ونفقتك). نقول: لا هذا غلو في الدين، لا بد من بتره وقطعه وهذا النذر لا يعمل به. ولذلك لمّا سئل النبي -صلى الله عليه وسلم- عن المرأة تمشي نذراً إلى البيت الحرام، قال: (الله غني على إتعاب هذه بنفسها، فلتمشي ولتركب).

وهذا رجل اسمه إسرائيل، كان قد نذر أن يصوم ولا يفطر ويقوم ولا يقعد ولا يستظل بالشمس، فرفضه النبي -صلى الله عليه وسلم- لأن هذا من الغلو في الأعمال وهذا ليس على هدي النبي -صلى الله عليه وسلم-، فقال: (لا، مروه فليصوم وليفطر، وليقوم وليقعد وليستظل بالشمس). فهذه أيضاً من أنواع الغلو التي رفضها النبي -صلى

الله عليه وسلم- وأصّل أصولاً، قال على هذه الأصول وعلى هذا الخط الذي رسمته لا بد أن تسيروا.

▪ **الغلو الاعتقادي**: غلو مهم جداً وهو أكثر فساداً في الأمة، الغلو الأول فساده ممكن ما يتعدى إلّا للآحاد والأفراد، أمّا الغلو الثاني هو فساده يعمل في الأمة بالانهيار. الغلو الاعتقادي هو أن ينزل المخلوق منزلة الخالق، وهذا كثير في هذه الأمة، وهذا غلو في الاشخاص أصله تعظيم الأشخاص، أصله ما كان من يوم نوح -عليه السلام-، أصله الغلو وتعظيم الأشخاص على شرع الله جلَّ في علاه.

فخرجت أقوال يؤلهون النبي -صلى الله عليه وسلم-، يقولون خُلِق من نور ويعتقدون فيه أنه يحرك الكون أو أنه يشفع عند ربه دون إذن من ربه جلَّ في علاه، فهذا غلو في رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، تعظيم النبي -صلى الله عليه وسلم- أو أن تجعل النبي -صلى الله عليه وسلم- فوق حد النبي الله -صلى الله عليه وسلم-. النبي -صلى الله عليه وسلم- عندما قالوا له: أنت سيدنا وابن سيدنا، خيرنا وابن خيرنا، قال: (قولوا بقولكم أو بعض قولكم ولا يستهوينكم الشيطان)، وقال: (إنما أنا عبد، فقولوا عبد الله ورسوله)، جمع بين منزلة الرسالة، وبين أن يكون عبداً متذللاً خاضعاً متمسكاً لربه جلَّ في علاه حتى لا يرقّيه أحد عن منزلته.

وخرجت خارجة أيضاً، أقوام اعتقدوا في علي الإلهية، قالوا علي إله -والعياذ بالله-. وهؤلاء لمّا حرقهم علي بالنار ماذا قالوا؟ قالوا: هذا أعظم دليل على إنك الإله، لأنه لا يحرق ولا يعذب بالنار إلّا الله. غباء بله سفهاء، ارتقوا مرتقاً صعباً، فهؤلاء غلوا في علي فألهوه عن درجة الولاية -رضي الله عنه وأرضاه-. ثم قام قائمهم أيضاً فجعلوا الولي أفضل من النبي، جعلوا درجة الولاية أفضل من درجة النبوة والرسالة، أو قالوا أفضل من النبوة لكنها ليست بأفضل من الرسالة؛ فقال: قائلهم الولاية برزخ بين الرسالة وبين النبوة، يعني الولاية فوق النبوة وتحت الرسالة، هذا أيضاً من باب الغلو الاعتقادي الذي

لا بد أن يقطع.

ومنهم من يعتقد في أولياء الله الصالحين الذين ندين الله بحبهم وبالولاية لهم، لكنهم يغلون فيهم فيعتقدون في ولي من أولياء الله الصالحين أنه يحيي الجنين في بطن أمه، أو أن الولي يحرك الكون والأقطاب والأبدان كما يقال بذلك. فهذا أيضاً غلو في الاعتقاد لا يصح ولا يمكن أن يقبل، وهو يودي بالأمة إلى الانتكاس أو إلى الانهيار.

من الغلو في الاعتقاد أيضاً البدعة المميتة التي خرجت علينا وهو الغلو في مسألة الإيمان، وهو التكفير بالمعصية؛ أقل معصية يكفِّرون، يكفِّرون بالكبيرة ويكفِّرون بالصغيرة، وأرقاهم منزلة الذين يكفِّرون بالكبيرة دون الصغيرة، والمآل واحد والنتيجة واحدة، هذا غلو مذموم يأتي على الأمة بالانهيار لأنه إذا كفّر الأمة استباح دماء الأمة وأعراض الأمة وأطفال الأمة وأموال الأمة، وهذا الذي يحدث الآن، بل يكون تحت مسمى مثلاً الجهاد أو غير الجهاد أو التعبد لله جل في علاه. لِمَ؟ يكفِّرون الأمة بالغلو في مسألة الإيمان، فهذا هو الغلو الاعتقادي وهذا أشد كما قلت وأكثر إفساداً في هذه الأمة وهو الذي يودي بالأمة إلى الانبطاح وإلى الانهيار.

فأنواع الغلو: غلو عملي، وغلو اعتقادي؛ والله جل في علاه أوحى لنبيه ليبيّن لنا أصول وأسس هذه الأقوام الذين يغلون في دين الله جلَّ في علاه، ثم بيّن مظاهرهم. الغلو الأخير وهو الغلو في تكفير الأمة بيّن النبي -صلى الله عليه وسلم- ووسمهم ووصفهم بأوصاف تعرفها على كل أحد؛ دخل هذا الذي يغلو في دين الله يرى أنه متقدم على رسول الله، نرجع إلى المسألة الأولى: لِمَ ذم الغلو؟ ازدياد على شرع الله وتقدم بين يدي الله ورسوله. هذا القائل، نظر فكأنه أتقى لله من رسول الله، لّما دخل على النبي -صلى الله عليه وسلم- وهو يقسم الغنائم قال له: يا محمد اعدل، اتق الله. أأنت أتقى لله من رسول الله؟ حاشا لله وحاشا لرسوله -صلى الله عليه وسلم-. فقال: يا محمد اتق الله، إن هذه القسمة لا يُراد بها وجه الله، فقال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (ومن يعدل إن لم يعدل محمد)، فقام خالد

بن الوليد فقال: دعني أضرب عنق هذا المنافق، دل على نفاقه هو ليس بنفاق، والصحيح أن هذا غلو في الفكر.

وخرج من ضئضئ هؤلاء ومن صلبهم الذين كفّروا الأمة، من سماتهم يقتلون أهل الإسلام والتوحيد ويتركون أهل الأوثان والكفر، فقال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (دعه لا يتحدث الناس أن محمدا يقتل أصحابه)، ثم وصفهم وقال: (يخرج من ضئضئ هؤلاء أقوام يقرأون القرآن)؛ ويتعبدون كما تتعبدون، يقيمون الليل كما تقيمون، يصومون النهار، لكن الغلو أودى بهم إلى الهلاك. فقال: (يخرج من ضئضئ هؤلاء أقوام يقرأون القرآن لا يبلغ حناجرهم)، لا يتدبرون، يهرفون بما لا يعرفون، الجهل قائدهم وليس العلم قائدهم. انظروا إلى الجهل وصل بالناس بالغلو في العبادة فكان عابداً جاهلاً، أو للغلو في مسألة الاعتقاد فكان عالماً فاجراً، أو كان جاهلاً أوصل نفسه إلى الهلاك. ولذلك كان ابن عيينة يحذر الأمة من عابد جاهل أو من عالم فاجر، لأنه سيصل بها إمّا للغلو في العبادة "الغلو العملي" أو يصل بها في الغلو الاعتقادي، ويصل بعد ذلك إلى تكفير هذه الأمة.

العلاج من هذا الغلو الذي يودي بالأمة إلى هذا الهلاك والانهيار بيّنه النبي -صلى الله عليه وسلم-: (عليكم هدياً قاصداً)، وهذا لا يكون إلّا ببصيرة العلم، (من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين)، أنت ستخرج في هذا الدين كالشعرة من العجين ما بين غلو وبين جفو لا يكون والله إلّا بالعلم، قال الله تعالى: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ﴾ [يوسف: ١٠٨].

ثم ننتقل إلى الحديث الثاني؛ عن علي -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: (أخوف ما أخاف عليكم بعدي من الدجال، أئمة مضلين).

رسول الله -صلى الله عليه وسلم- هو أشفق الأمة بالأمة، وأرحم الأمة بالأمة، يخشى على الأمة من كل صاعقة ومن كل واقعة، ويحذِّر الأمة من كل ما يضلهم أو يفتنهم في دينهم. قام النبي -صلى الله عليه وسلم -ذات يوم من طلوع الفجر إلى صلاة العصر يقف

على المنبر يحمر وجهه ويعلو صوته ويظهر الغضب في وجهه وهو يحذِّر الأمة من الدجال، حتى قال الراوي: من شدة ما كان النبي -صلى الله عليه وسلم- يحذّرنا من الدجال خشينا أن يكون خلف النخل، يعني خلفنا الدجال. فنزل النبي -صلى الله عليه وسلم- ووجد الرجفة في قلوب أصحابه، ووجد الخوف يملأ أعين أصحابه، فقال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (ما لكم، إن خرج وأنا فيكم فأنا حجيجه، وإن خرج ولست فيكم فالله خليفتي على كل مسلم)، من رحمة النبي -صلى الله عليه وسلم- كان يشتد نذيره ويشتد تخويف الأمة من فتنة الدجال.

ثم بيّن النبي -صلى الله عليه وسلم- أن هناك فتنة إذا نزلت بالأمة أودت بها إلى الهلاك، هذه الفتنة التي قال فيها النبي -صلى الله عليه وسلم-: (أئمة مضلين)؛ هؤلاء الائمة الذين يودون بالأمة إلى الهلاك، خاف النبي -صلى الله عليه وسلم- على الأمة منهم، وخاف عمر بن الخطاب على الأمة منهم، وخاف عثمان بن عفان وعلي بن أبي طالب على الأمة منهم. لذلك ترى عمر بن الخطاب أخذ هذا الحديث نصب عينه، وكان كان يستعمل الأحنف على البصرة، فكان الأحنف بارعاً مفوهاً خطيباً مؤثراً، ما يصعد على المنبر إلّا والرقاب كلها تشرئب نحوه والقلوب تؤخذ عندما يتكلم. فنظر عمر ابن الخطاب فوجد تأثيره القوي على الأمة فخشي على الأمة، لأنه دائماً يتذكر الأئمة المضلين، (أخوف ما أخاف على أمتي). فاستدعاه فعمر بن الخطاب، فأجلسه عنده شهراً كاملاً يبحث أحواله، ينظر إليه في الليل وينظر إليه في النهار وينظر إلى تعاملاته المادية وينظر إلى أخلاقياته حتى تأكد من أن الرجل على الطريق القويم المستقيم، على هدي النبي -صلى الله عليه وسلم-، فاحتضنه وقال: الحمد لله. فاندهش الرجل: ما بي؟ كنت عاملاً لك هناك وأخذتني شهراً تختبرني، ما الذي جرك إلى ذلك؟ قال: جرني إلى ذلك قول النبي -صلى الله عليه وسلم- (أخوف ما أخاف على أمتي من الدجال، الأئمة المضلين).

كيف عرف عمر أن الأئمة المضلين لهم هذه الأوصاف؟ بضمنية الأحاديث الأخرى، قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (أخوف ما أخاف على أمتي منافق عليم اللسان)،

فوصفة أنه عليم اللسان معسول القول، يؤثر على الناس، يتكلم بحلو الكلام وقلبه حنظل والحقد يملأ قلبه على السنة وعلى أهلها، والله أعلم به ولا يمكن أن يستقر ذلك حتى يظهر وينضح على وجهه لأن الله جلَّ وعلا قال: ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَٰكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَٰهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِ﴾ [محمد: ٣٠]. وأيضاً من حديث النبي[1] صلى الله عليه وسلم-: (لا تقوم الساعة حتى يرفع العلم وينتشر الجهل، والله جل وعلا لا يقبض العلم ينتزعه من صدور العلماء ولكن يقبض العلم بقبض العلماء، فإذا قبض العلماء لم يبقَ عالمٌ (لم يبقِ عالماً) اتخذ الناس رؤوساً). هؤلاء أخوف ما أخاف على أمتي، ونحن نعيش هذا الواقع والله يرى ذلك والأمة تعلم ذلك، فقال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (فاتخذ الناس رؤوساً جهالاً، فسألوهم فأفتوا بغير علمٍ فضلوا وأضلوا).

فمن رحمة النبي صلى الله عليه وسلم بهذه الأمة حذرهم من هؤلاء؛ كأن سائلاً سأل: يا رسول الله خشيت على أمتك من الأئمة المضلين ونحن لا نعرف كيف نفرق بين إمام الهدى وإمام الضلالة؟ النبي -صلى الله عليه وسلم- لّما سئل عنهم قال: (دعاة على أبواب جهنم)، من استجاب لهم زجوه فيها، أنزلوه، اللهم استر علينا يا رب. ولذلك سنبيّن في الختام كل منا لا بد أن يقف وقفة مع هذه الأوصاف التي وصفها النبي -صلى الله عليه وسلم-، نحن منهم؟ نعوذ بالله، نستغفر الله، نرجع نتوب نؤوب حتى لا نكون من أئمة الضلالة. وأقول دائماً قولي بقلبي ولساني وعيني وجوارحي: ولأن أكون ذنباً في الحق خير لي من أن أكون رأساً في الباطل.

لهم أربع علامات؛ فاعلم أن أئمة الضلال ليسوا من العلماء الربانيين، ليسوا من أئمة الهدى هم أئمة الضلال بحديث النبي. قال هناك أئمة مضلين؟ نعم هناك أئمة مضلين، وفي كل عصر ومصر، لكن نقول ما هي أوصافهم حتى نحذرهم أو حتى نمحص أنفسنا، نحن منهم؟ نعوذ بالله نستغفر الله نرجع ونؤوب ونتوب لأن الحمد لله أن أمد الله في

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (١٠٠) ومسلم باختلاف يسير (٢٦٧٣).

أعمارنا أن نتوب وباب التوبة مفتوح إلى يوم القيامة، ونحن كما قلت ننساق من رؤوسنا إلى رضا الله جلَّ في علاه عملاً بحديث أبي هريرة، ولو جرونا بالسلاسل إلى رضا الله نحن معهم، والله نقبل الأقدام قبل الأيدي بسنة إلى من بين لنا طريق الهدى وإن كنا على ضلال نسير في طريق الهدى.

١- أول العلامات وأشهر العلامات الجهل بالدين؛ أنا أتذكر وقلت لكم أكثر من مرة لكنها أعجبتني جداً، أتذكر المرأة كانت تنكر جداً على هؤلاء المتطرفين الذين يقولون يحرم على الرجل أن يسلِّم على المرأة، فتقول: من أين أتوا بمثل هذا؟ ورسول الله يجلس وبجانبه أبو بكر وبجانبه عمر، وجاءت المرأة فاستحيت من رسول فمدت يدها لأبي بكر، فسلم أبو بكر ثم سلم عمر، والنبي -صلى الله عليه وسلم- يضحك ويبتسم ويقر. قالت فهذه سنة أيها الجهلاء، سنة تسمى تقريرية، أقر النبي -صلى الله عليه وسلم- للمرأة أن تسلم على أبي بكر وعلى عمر.

هذا نعم بحق والله من أطاعهم فيها زجوه في نار جهنم، والنبي -صلى الله عليه وسلم-[1]: بسند كالشمس يقول: (لإن يشج أحدكم بمخيط على رأسه خيرٌ له من أن يمس امرأة لا تحل له)، وعائشة تقول عن النبي -صلى الله عليه وسلم-: (لا أصافح النساء)؛ والأصل في التشريع العموم وليس الخصوص، فإذا قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (لا أصافح النساء)، أبو بكر لا بد أن يقف خلفه ويقول: لا أصافح النساء، أنا أقف خلفه وأقول: لا أصافح النساء لأن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال ذلك هو بأبي وأمي، ائتسي به وهو قدوتي إلّا ما دل الدليل على أن هذا خاص برسول الله -صلى الله عليه وسلم-، هذه واحدة من ألف مسألة.

الحديث جلي جداً؛ قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (فاتخذ الناس رؤوساً جهالاً،

(١) أخرجه الروياني في ((المسند)) (١٢٨٣)، والطبراني (٢٠/ ٢١٢) (٤٨٧) واللفظ لهما، والبيهقي كما في ((الترغيب والترهيب)) للمنذري (٣/ ٢٦) باختلاف.

فسألوهم فأفتوا بغير علم فضلوا وأضلوا)، وهذا ظاهر جداً إذا محّصت النظر في فتاوى هؤلاء المشاهير، نحن لا نتكلم على العموم، أنا أتكلم على هذه النوعية، أنا سمعتها بأذني. وفي أشياء أخرى نقل عن بعضهم يقول: النمص يا أحبابي ليس محرماً مطلقاً، النمص المحرم هي أن تأخذ موس وتحلق الحاجب كله ثم تأتي بقلم فتجعل هذا القلم بنوعية معينة رفيعة هذا هو النمص، غير ذلك ليس بنمص. وأنت أدخل في بحور كلام أهل العلم كلهم؛ إما يجعل النمص هو أخذ شعر الحاجب سواء بالقص أو بالملقاط أو بالنتف أو بأي شيء، خلافاً لأحمد الذي قال بجواز القص في مسائل معينة وهذا كلام طبعا شاذ مرجوح جداً، وبعضهم يقول النمص هو أخذ شعر الجسد كلية ليس الحاجب فقط. أمّا أن تقول الحاجب حلق الحاجب!! وهذه ما رأينا فيها من دليل.

فإذاً العلامة الأولى إذا غربلت كلامهم إمّا تراهم أولاً يحتجون بالأحاديث الموضوعة والضعيفة ويهرفون بما لا يعرفون، تراه يقوم ويقول: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، وهذا كله ضعيف وموضوع، لا سيما في السير وفي غيرها، وإذا نظرت إلى كلامه ما رأيته يلوح بشيء من الشرع. وهذا عند الغلو في الاعتقاد، وهم أهل التكفير؛ الفكر الذي يودي بالأمة إلى الهلاك ويجعل الأمة يستبيح بعضها دماء بعض، ونحن نحاربه قصداً حتى يرجع كل منا إلى حظيرة الإسلام الصحيحة فترتقي الأمة بالالتئام وبالإتلاف وبالوئام.

٢- ازدراؤهم للسنن؛ إذا قلت لهم هذه سنة النبي تشمئز قلوبهم تتمعر وجوههم، صاعقة كهربائية جاءت عليهم، تراهم يحاربون ويقاتلون، ومنهم الألطف منهم يعتذر ويقول هذه سنة افعلها ولا تفعلها، قلنا نعم لك ذلك لكن أما علمت أصولياً بأن السنة: سنة واجبة وسنة مستحبة وسنة مباحة، فماذا تقول في السنة الواجبة؟ أيضاً لك أن تفعل ولك ألّا تفعل؟ ترى من أشد علاماتهم أنهم يزدرون السنن ويزدرون أهل السنن الذين يتمسكون بالسنن، وهذه أولاً علامة نفاق وليست علامة إخلاص، لأن علامة

الإخلاص لا بد من متابعة النبي -صلى الله عليه وسلم-؛ ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَۖ﴾ [النساء: ٨٠]، ﴿وَإِن تُطِيعُوهُ تَهۡتَدُواْۚ﴾ [النور: ٥٤]، ربط وأناط الهداية بطاعة النبي -صلى الله عليه وسلم-.

٣- لا يحبون الله ويزعمون زيفاً وبهتاناً وزوراً أنهم يعملون لله، لأن الله امتحن أقواماً أمثالهم من قديم وزعموا أنهم يحبون الله ورسوله، فامتحنهم بهذه الآية الخاصمة للجدال: ﴿قُلۡ إِن كُنتُمۡ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١]. فهذه دلالة واضحة جداً على أن علامة محبتكم لله وعلامة محبتكم لرسول الله، العض بالنواجذ على سنن النبي -صلى الله عليه وسلم-. لا غرو ولا عجب، إن كنت لا تستطيع أن تقيم سنة فقل هذه سنة ومستحبة وافعلوها أيها الناس وعندي ما يمنعني من فعلها، لا عتب عليك، بينك وبين ربك، حسابك عند ربك. لكن أن تزدري السنن جهاراً، وأن تقول عقلي مقدم على السنن، من البخاري وهذا البخاري خلف ظهري، عقلي يقدم، لا أرضى بهذا الحديث مثلاً. فأن تحارب السنن وتزدريها هذه ليست من علامة الإخلاص، ليست من علامة التوفيق ولا التسديد، وإن الله محّص أقواماً فقال: ﴿قُلۡ إِن كُنتُمۡ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ﴾.

وتراه كثيراً ما يتكلم عن السنن، حبيبي يا رسول الله، أحب رسول الله. أين أنت من رسول الله؟ في شبه رسول الله -صلى الله عليه وسلم-؟ تشبه به قدر إمكانك، أو قل تشبهوا وائتسوا برسول الله، وإن لم أستطع أقول: ما استطعت لعلة عندي.

٤- يقدمون الأهواء وقول الرجال والفقهاء على قول رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وهذه لها حالتان:

- الحالة الأولى: يقدّمون قول الفقيه ليس على قول النبي، بل يقولون نقدّم قول المذهب أو قول الفقيه لفهمه لحديث النبي لأنهم أفهم منا لحديث النبي، قلنا لهم نعم ولا فض فوكم، نعم نقول بهذا ونأخذ به.

- الحالة الثانية: يقدّمون قول الفقهاء ويقدمون قول الآراء والأهواء والذوق والوجد

على حديث النبي -صلى الله عليه وسلم-، وهذا هو المذموم لأن ما من إمام من أئمة الهدى إلّا وقال: إن خالف قولي قول رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فخذوا بقول رسول الله واضربوا بقولي عرض الحائط، وقد قال مالك: كلٌّ يؤخذ من قوله ويرد إلّا صاحب هذا القبر.

٥- النفاق؛ منهم من إذا نظرت إلى وجهه قلت والله هذا وجه منافق. وأنا صراحة رأيت وجه رجل أنا ما قلت ذلك، لكن كان بعض مشايخنا أجلس بجانبه عند وقت الصلاة وكان رأى رجلاً تكلم في الدين، لكن أول ما نظر إليه قال: والله أمليت النظر في وجه الرجل ما رأيت وجهه إلّا وجه منافق. فأنا أقول هذه من علامات المنافق، يراها من يراها من كرامات الله جلَّ وعلا للمتقين والصالحين، لكن لا يصح للواحد أن يرجم بالغيب على كل إنسان بهذا الكلام، لكن لهم علامات أخرى تظهر نفاقهم، ما هي العلامات؟ لحن القول.

أختم بقصة تظهر لكم أئمة الضلالة؛ دخل رجل من المحدثين، ويا ليته ما كان من المحدثين، العلم عليه ليس له. دخل على أمير المؤمنين وكان من الخلفاء العباسيين وكان يحب اللعب بالحمام، يطير حمام، فلمّا دخل عليه فقال: جاءني الحديث عن عمك يعني ابن عباس، يرفع لمن؟ للنبي -صلى الله عليه وسلم-. قال: (لا سبق (يعني لا جائزة) إلّا في خف أو حافر أو نصل)؛ نصل هي الرماية، ممكن مسابقات وجائزة على الرماية. أو الخف الذي هو الحافر يعني خيل أو بعير، فإن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال ذلك. ثم لمّا رآه يلعب بالحمام، فمن نفاقه قال له: لا سبق إلّا بخف أو حافر أو نصل أو جناح، فقال له: هذه سنة من سنن النبي -صلى الله عليه وسلم-، فسحة لك لما تفعل، ما أحد يمكن أن ينكر عليك. فقام الأمير فأمر له بجائزة، أخذ صرة من المال، فلمّا ولّى نظر إليه فقال: أشهد الله أن قفاك قفا كذاب، يكذب على رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، وإني لأعلم أن رسول الله ما قال ذلك، قال: (لا سبق إلّا في خف أو حافر أو نصل). ثم قال: أنا الذي

جررته إلى ذلك، فأمر بذبحه نكاية لما أنه جر هذا الرجل أن ينافقه ويداهنه فيكذب على رسول الله -صلى الله عليه وسلم-.

هذه سمات وهذه بعض الأوصاف التي وصف بها النبي -صلى الله عليه وسلم- أئمة الضلالة، فكلٌ منا يجلس ليلاً الآن ويقول: هل في صفة من صفات هؤلاء؟ فيستغفر الله ويتوب ويؤوب، نحن لسنا من الملائكة، يمكن أن أقول وأكاد أجزم كل منا ممكن لا يخلو منه صفة من هذه الصفات ويغفر الله لنا، ونسأل ربنا جلَّ في علاه أن يردنا إليه رداً جميلاً. فإذا وجد صفة من هذه الصفات فليستغفر ربه وليتوب وليؤوب، وليعلم أن الممدوح بحق من مدحه الله والمذموم بحق من ذمه الله، من كان الله معه فمن عليه، وليعلم أن ما كان لله دام واتصل وما كان لغير الله انقطع وانفصل.

ثم إذا رأى أن الله قد عافاه من هذه السمات وهذه الصفات وليس منهم ويعلم أحداً هو من هؤلاء، عليه أولاً أن ينظر إليه بعين القدر ثم بعين الشرع؛ بعين القدر يحمد الله أنه ليس منهم وأن الله عافاه من هذه الصفات، ثم يبكي عليهم ويقول اللهم بحق "لا إله إلّا الله" ردهم إليك رداً جميلاً، ويدعوا لهم بالصلاح والانصلاح ويدعو لهم بأن الله جلَّ وعلا يجنّد لهم من يبيّن لهم طريق الهدى وأن ينساقوا لمن يبيّن لهم طريق الهدى. وبعين الشرع عليك أن تنكر هذه الصفات، إن كان رجلاً مرموقاً في الناس فعليك أن تراسله وعليك أن تدعو له وعليك أن تجعل المسألة بينك وبينه في الصمت، أو تأخذ المسألة شمولية لا على الأشخاص لأنك لا تحارب أشخاصاً ولا تتكلم عن أشخاص وليس لك أن تتكلم عن الأشخاص، دع الأشخاص لرب الأشخاص هو الذي يحاسبه. لكن أنت تأخذ أمراً معيناً في الدين تقيسه على كتاب الله وعلى سنة النبي -صلى الله عليه وسلم-، فإذا وافق كتاب الله قلت حي هلا به ومرحباً وكرامةً، وإن كان يخالف كتاب الله وسنة النبي -صلى الله عليه وسلم- رددته رداً لطيفاً، لعل الله جلَّ وعلا يهدي بك رجلاً واحداً يكون لك خير من حمر النعم.

الفوائد المستنبطة:

١- إثبات وجود الدجال، وهذا باتفاق أهل السنة والجماعة أنها من علامات الساعة الكبرى أو هي من إرهاصات علامات الساعة الكبرى، أن ذكرها النبي -صلى الله عليه وسلم-: (أخوف ما أخاف عليكم بعدي من الدجال)، ففيه إثبات ظهور الدجال. واختلف بعض أهل السنة والجماعة، وإن كان الجماهير في مسألة وجود الدجال أيام رسول الله -صلى الله عليه وسلم- إلى الآن؛ هم اتفقوا جميعاً أنه سيخرج وفيه فتنة وأشد ما تكون الفتنة، معه جنة ومعه نار كما وصف النبي -صلى الله عليه وسلم-، لكن الاختلاف كان في مسألة وجوده وهل هو موجود الآن أم لا؟

جر بعض المعاصرين مسألة النظر إلى الأقمار الصناعية وغيرها فخطف بريق الأقمار الصناعية عينه، وقال: ما أتى الدجال، الأقمار الصناعية ما رأته. طبعاً هذا كلام باطل، يعني الأقمار الصناعية ممكن ما ترى قرية صغيرة، ما تعرف أين هي، والله جلَّ وعلا علّام الغيوب هو الذي يخبئ من شاء في أي مكان شاء سبحانه جلَّ في علاه. لكن عندنا حديثان فيه: حديث يثبت وجوده في زمن النبي -صلى الله عليه وسلم- وحديث يرد عليه الإشكال.

أمّا الحديث الذي يثبت وجوده حديث في صحيح مسلم، هو حديث تميم الداري وهو حديث مشهور بحديث الجساسة؛ عندما قام النبي -صلى الله عليه وسلم- خطيباً في الناس يبتسم ويقول: (حدثني تميم الداري)، لذلك كانت أعظم منقبة لتميم، ما من أحد إلّا ويقول: حدثني رسول الله، وهو الوحيد الذي حدّث عنه رسول الله. قال: (حدثني تميم الداري بحديث كنت قد حدثتكم به)، وفرح النبي -صلى الله عليه وسلم- بذلك فقص قصة الدجال. هذه فيها إثبات أنه مسلسل وأنه موجود في عصر النبي -صلى الله عليه وسلم-.

يرد عليه فقط حديث: (ما من نفس منفوسة يمر عليها مائة عام إلّا وتموت)، قال:

(ومنها الدجال) فكيف نجيب على هذا الإشكال؟ ممكن بوجه آخر نقول أن حديث النفس المنفوسة عام يخصه حديث الدجال، وأوجه منه أن نقول إن الخطاب من باب العام الذي يراد به الخاص كان موجهاً لمجموعة قرن النبي -صلى الله عليه وسلم-، لمجموعة صحابة رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، فلم يدخل فيها أصالةً الدجال حتى نقول خص من العموم. لأن حديث النبي -صلى الله عليه وسلم- كان موجهاً فقط لقرنه، للمجموعة التي معه، لأصحابه فقط، وهذا الأوجه.

فإذاً الأول إثبات وجود الدجال، والصحيح الراجح أنه كان موجوداً في عصر النبي إلى الآن، وسيأذن الله له بالخروج ونسأل الله أن يعصمنا من كل فتنة.

٢- إياك من العدو الصاحب دون العدو البعيد، أو يقول العدو الظاهر، إياك من العدو الذي يظهر لك بجلدك ويتكلم بلسانك كما قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (ألسنتهم أحلى من العسل وقلوبهم أمر من الحنظل، قالوا: يا رسول الله صفهم لنا، قال: يتكلمون بألسنتنا ويتزيون بزينا)، يعني هم منا، ولذلك الله جلَّ وعلا بيّن أن المنافقين هم أشد ضرر على الأمة الإسلامية: ﴿لَوْ خَرَجُوا۟ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا۟ خِلَٰلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ﴾ [التوبة: ٤٧]، من أين نستنبط هذه الفائدة؟ من قوله: (أئمة مضلين)، فوصفهم أنهم أئمة أولاً، هم يلبسون مسوح أهل الإسلام وأهل الدين بل أهل الفتوى وأهل العلم، منهم هكذا ومنهم هكذا، والله أعلم بالمخلص من غيره. الغرض المقصود هؤلاء يكون ضررهم أشد لأنهم يتكلمون بنفس اللسان، وأيضاً يعملون للإسلام ظاهراً، والله أعلم بنواياهم هل يضربون الإسلام في كبده أو في سويداء قلبه أم لا؟

٣- ديننا يسر وسماحة، والسماحة في الوسطية، إن الهدي الصحيح هو الوسطية وإن الدين الحق هو الوسطية وإن اليسر والسماحة في الوسطية، ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ [البقرة: ١٤٣]، من أين نستنبط هذه الفائدة؟ (عليكم هدياً

قاصداً)، وسطاً عدلاً، ثم قال: (فإنه من يشاد الدين يغلبه).

٤- نبوءة النبي تتحقق، ما هي؟ وأين هذه الفائدة؟ (لتتبعن سنن الذين من قبلكم شبراً بشبر وذراعاً بذراع)، ظهر فيهم الغلو فظهر فينا الغلو، ظهر فيهم الأئمة المضلون فظهر فينا الأئمة المضلون. انظر لقول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (إياكم والغلو في الدين، فإنما هلك من كان قبلكم بالغلو في الدين)، هذه دلالة على أن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: إن من كان قبلكم عندهم الغلو وفيهم الأئمة المضلين.

٥- ثم نستدرك ونقول فائدة أخرى أخيرة؛ طالما المسألة من سنن الذين من قبلنا كما قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (الله اكبر إنها السنن، قلتم مثل ما قال أصحاب موسى لموسى)، وقال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (لتتبعن سنن من كان قبلكم شبراً بشبر وذراعاً بذراع). تجرنا إلى فائدة أخيرة ألا وهي: سنة الله لا تبديل لها؛ ﴿فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗاۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحۡوِيلٗا ٤٣﴾ [فاطر: ٤٣]، ﴿وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٖ ٨٣﴾ [هود: ٨٣]. كما غلوا وظهر فيهم الأئمة فأهلكهم الله جلَّ في علاه، يغلون هنا وتظهر فيهم الأئمة ويهلكهم الله جلَّ في علاه لأن سنن الله لا تتبدل. ولذلك حذر النبي -صلى الله عليه وسلم- أيما تحذير: (إنما أهلك من كان قبلكم)، ولذلك النبي -صلى الله عليه وسلم- يقول: (ولو كان فيهم من ينكح أمه لظهر في هذه الأمة من يفعل مثل ذلك)، وقد ظهر ولا حول ولا قوة إلّا بالله، فهذه بعموم قول الله تعالى: ﴿وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٖ ٨٣﴾.

والقاعدة: لا نسب بين الله وبين عباده، من أساء فله السيئة ومن أحسن فله الحسنى في الدنيا قبل الآخرة، وإن الله يملي لكنه لا يهمل بحال من الأحوال، ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلۡمِرۡصَادِ ١٤﴾ [الفجر: ١٤]. أمّا الظالم فإن الله لا يفوته بحال من الأحوال، لكن الله جلَّ في علاه كما بيّن رسوله -صلى الله عليه وسلم-: (إن الله ليملي للظالم) يفتح له، (ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته) هذه في الدنيا، وفي الآخرة الفضيحة الكبرى والعذاب الأليم الذي لا يمكن أن يرد، وإيّاكم إيّاكم من الظلم وإيّانا إيّانا من الجهل والفتوى بغير علم، إيّانا من التجرأ بين يدي الله جلَّ في علاه إلّا بعلم حتى لا يتقحّم النار أحد على بصيرة.

باب ذكر القلم

وعن أبي أمامة قال: قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (ما ضل قوم بعد هدى كانوا عليه إلّا أوتوا الجدال، ثم قرأ: ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا﴾ [الزخرف: ٥٨]. هذا الباب ينبه فيه المصنف على أمر خطير جليل، وهو الأمر الذي سيأتي، وهو الكلام على القدر، إذ القدر دحض مزلة؛ فإن الإنسان إذا أعمل عقله في القدر دخل في الجدال وصعب عليه الأمر، بل وسقط صريعاً.

باب ذكر القلم أنه أول ما خلق الله تعالى وما جرى به القلم

عن عبادة بن الصامت قال: سمعت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يقول: (أول ما خلق تعالى القلم فقال له: اكتب، قال: يا رب وما أكتب؟ قال: اكتب مقادير كل شيء). وهي رواية "أولَ ما خلق الله القلم"، رواية أخرى: (أولُ ما خلق الله القلم)، ففيها في الضم والفتح. ما الفرق بين الجملتين؟ هذه ميزان عظيم جداً يفصل لنا في النزاع في مسألة أول ما خلق، جملتان:

- (أولُ ما خلق الله القلم)؛ مبتدأ وخبر، فهذا إثبات بأن أولية الخلق للقلم.

- والثانية (أولَ ما خلق الله) ظرف، يعني عندما خلق القلم أمره أن اكتب، وهذه لا تدل على أولية الخلق.

عن الوليد بن عبادة عن أبيه قال: سمعت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يقول: (أول ما خلق الله تعالى القلم فقال له: اكتب، قال: وما أكتب يا رب؟ قال: اكتب القدر، قال: وكتب ما هو كائن).

عن عطاء بن أبي رباح قال: سألت الوليد بن عبادة كيف كانت وصية أبيك حين حضرته الوفاة؟ قال: أي بني، سمعت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يقول: (أول ما

خلق الله تعالى القلم فقال: اكتب، قال: وما أكتب يا رب؟ قال: اكتب القدر، قال: فجرى القلم في تلك الساعة بما كان وبما هو كائن إلى الأبد).

عن الوليد بن عبادة بن الصامت قال: دعاني أبي فقال: سمعت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يقول: (أول ما خلق الله تعالى القلم فقال: اكتب، فكتب ما كان وما هو كائن إلى الأبد).

عن ابن عمر قال: سمعت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يقول: (أول ما خلق الله تعالى القلم، فأخذه بيمينه وكلتا يديه يمين، قال: فكتب الدنيا وما يكون فيها من عمل معمول، من بر أو فجور، رطب أو يابس، فأحصاه عنده في الذكر. فقال: اقرأوا إن شئتم ﴿هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٩﴾﴾ [الجاثية: ٢٩]، فهل تكون النسخة إلّا من شيء قد فرغ منه).

عن الوليد بن عبادة عن أبيه أنه قال: سمعت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يقول: (أول شيء خلق الله تعالى القلم وقال: اجرِ، فجرى تلك الساعة بما هو كائن).

عن ابن عباس عن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: (أول شيء خلق الله تعالى القلم، فأمره فكتب كل شيء).

يذكر هنا القدر، وعندنا في هذا الباب العظيم "باب القضاء والقدر"؛ القدر هو التقدير، والقضاء هو ما أوجده الله في خلقه أو الذي يبرأه الله في خلقه. فالعلماء بيّنوا أنهما إذا اجتمعا افترقا وإذا افترقا اجتمعا؛ يعني إذا اجتمع القدر والقضاء في الذكر افترقا في المعنى، فكان القدر هو التقدير، الكتابة "العلم السابق"، وكان القضاء هو ما يقضيه الله بين العباد من إحياء وإماتة ورزق ومطر وغير ذلك من أفعال الله تعالى في عباده. وإذا افترقا اجتمعا في المعنى، فإذا ذكر القدر دخل تحته معنى القضاء، وإذا ذكر القضاء ولم يذكر القدر دخل تحته معنى القدر. بيّنا مقدمة كان لا بد على طالب العلم أن يتفهمها جيداً لأبواب القدر المغلقة، التي لا يستطيع أحد أن يفتحها إلّا بفهم هذه المقدمة، وقلنا القدر

سر من أسرار الغيوب وأن الله امتحن عباده في الأيمان بالغيب، قال: ﴿ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣﴾ [البقرة: ٣]. وأخفاه الله وطواه عن كل خلقه، سر من أسرار الله جلَّ في علاه، هو من لوازم ربوبية الله جلَّ في علاه، لا يعلمه ملك مقرب أو نبي مرسل؛ قال الله تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ۝٤٩﴾ [القمر: ٤٩]، وقال الله تعالى: ﴿وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ۝٣٨﴾ [الأحزاب: ٣٨]، ﴿وَكُلُّ شَىْءٍ فَعَلُوهُ فِى ٱلزُّبُرِ ۝٥٢ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ ۝٥٣﴾ [القمر: ٥٢ – ٥٣]، مكتوب كما سنبيّن. وبيّنا بأن الله جلَّ في علاه قدّر مقادير الخلائق قبل أن يخلق الخلق بخمسين ألف سنة، وقلنا للقدر أربع مراتب: علم فكتابة فإرادة فخلق، هذه المراتب الأربع لا بد للإنسان أن يتفهمها ويتقنها حتى يستقيم له الإيمان بالقدر، وسنفصّل القول في هذه المراتب ونتكلم على المرتبة الثانية التي ذكرها هذا الحديث بالتفصيل إن شاء الله.

الإيمان بالقدر؛ لا يستقيم إيمان عبد ولا يستوي عند ربه مسلماً مؤمناً إلّا بالإيمان بالقدر لأنه من علم الغيوب كما بيّنا، وامتحن الله إيمان العبد الإيمان بالغيب. وأيضاً في الحديث العظيم "حديث جبريل -عليه السلام-" عندما جاء يعلم الناس أمر دينهم، سأل النبي -صلى الله عليه وسلم- عن الإيمان فأجابه بأخص ما يكون للإيمان بأركان الإيمان، وذكر من أركان الإيمان قال: (أن تؤمن بالقدر خيره وشره). وقلنا المفهوم أنه إن لم يؤمن بالقدر خيره وشره ليس بمؤمن، ويفسر لك حديث مسلم أنه قال: (فإن مت على غير ذلك دخلت النار)، إنك لن تجد طعم الإيمان أو لن تذق طعم الإيمان حتى تعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك وما أخطأك لم يكن ليصيبك.

المراتب الأربع قد سبق وتكلمنا عن مرتبة العلم، اليوم المصنف يأتينا بهذا الذي الحديث يبيّن لنا المرتبة الثانية وهي مرتبة الكتابة.

▪ الكتابة الأولى: علم الله كل شيء، كان وما يكون وما لم يكن لو كان كيف سيكون، وكتب الله كل شيء في اللوح المحفوظ، والكتابة أجمع عليها أهل الإسلام وأجمع عليها

المجتهدون من الصحابة وأيضاً التابعين، الإجماع يستند إلى الكتاب وإلى السنة.

أمّا الكتاب الذي يثبت لنا الكتابة السابقة على الخلق؛ قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ﴿١٠٥﴾﴾ [الأنبياء: ١٠٥]، وهذه بشرى لأهل الإسلام لأنه اتفق المحققون من أهل التفسير أن هذه الآية المعني بها أهل الإسلام، خاصة برسول الله -صلى الله عليه وسلم-، يعني يرثها عبادي الصالحون من أمة محمد -صلى الله عليه وسلم-. لكن أقول هذه الآية تثبت أن الكتابة سبقت الخلق، أين الدلالة؟ ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ﴾ ، كأن سائلاً يقف ويقول: متى كتب في الزبور؟ أولاً الزبور هو الكتاب الذي نزل على داوود، والمحققون من أهل التفسير قالوا: المقصود هنا ليس خاصة زبور داود، بل كل كتاب نزل إلى رسول مرسل لقومه، القرآن وأيضاً التوراة والإنجيل ينزل تحت المسمّى العام "الزبور"، ففي كل كتاب أنزله الله على نبي من الأنبياء كتب فيه أن النصرة لعباده الصالحين. فهنا يقول: (وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ) يعني من بعدما كتبنا في الذكر، فأيهما أسبق؟ الذي كتب بالذكر، والذي كتب بالذكر هو اللوح المحفوظ. فهذه آية صريحة جداً تثبت لنا أن الذي كتب في الزبور مطابق منسوخ مستنسخ من الذي كتب في الذكر، والذي كتب في الذكر هو اللوح المحفوظ.

أيضاً من الآيات التي تثبت أن الله كتب كل شيء قبل أن يخلق الخلق، قول الله تعالى: ﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُم﴾ [الأنعام: ٣٨]، يعني كتبناهم، ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٣٨]، ما فرطنا في الكتاب الذي عندنا والذي كتبنا فيه كل شيء من شيء. ما من جناحٍ يطير، ما من دابةٍ تسير، ما من طائرٍ يقع أو يطير أو يحلّق إلّا كتبناه في اللوح المحفوظ. وأيضاً قال الله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ ۚ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ ﴿١٢﴾﴾ [يس: ١٢]، والإمام المبين يقصد به الذكر، يقصد به الكتاب المحفوظ، يقصد به هو اللوح المحفوظ. أيضاً قال الله تعالى: ﴿يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ﴾ [الرعد: ٣٩] صحف الملائكة كما سنبيّن،﴿وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ

﴿٣٩﴾ [الرعد: ٣٩]أي اللوح المحفوظ. هذه آيات تثبت لنا أن الله جلَّ وعلا كتب كل شيء، كل ما هو كائن في هذه الدنيا إلى يوم الساعة، إلى دخول أهل الجنة الجنة ودخول أهل النار النار، كتب الله كل ذلك لوح المحفوظ قبل أن يخلق الخلق بخمسين ألف سنة كما سنبيّن في الأحاديث المفسرة لذلك.

أمّا من السنة فحديث الباب وهو قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (أولَ ما خلق الله القلم) أو (أولُ ما خلق الله القلم قال له: اكتب، قال: وما أكتب؟) هذه من أعاجيب ربنا جلَّ في علاه كما سنبيّن على قدرة الله في هذا، (قال: وما أكتب؟ قال: اكتب كل ما هو كائن إلى يوم القيامة). فكتب كل شيء؛ صغير وكبير، دقيق وجليل، كتب الحياة، كتب الممات، كتب الرزق، كتب الرفعة، كتب العزة، كتب الذلة، كتب كل شيء في اللوح المحفوظ.

وأيضاً في حديث عن عبد الله بن عمرو بن العاص: (خرج النبي -صلى الله عليه وسلم- ومعه كتابان: كتاب بيمينه وكتاب بيده الأخرى ثم قال: هؤلاء أهل الجنة بأسمائهم وأسماء آبائهم ثم ختم على ذلك) انتهى هذا الكتاب مكتوب أولاً، (ختم على ذلك فلا زيادة ولا نقصان)، وهذا الذي يثبت لنا أن هذا يصح أن نستدل به على أن هذه كتابة قبل خلق كل شيء، للعلة التي قال فيها: (فلا زيادة ولا نقصان)، وهذا الوصف لا يكون إلّا اللوح المحفوظ، لأن أي كتابة أخرى يمكن أن تتبدل وأن تتغير. أين وجه الدلالة؟ (جف القلم بما أنت لاق)، وكما في حديث ابن عباس -رضي الله وأرضاه-: (جف القلم وطويت الصحف)، انتهى الموضوع. (لا زيادة ولا نقصان)، وهذا الحديث أيضاً دلالة على أنه لا يزاد في اللوح المحفوظ ولا ينقص، هو ثابت، والذي يمحو الله جلَّ وعلا أو يثبت في الصحف الأخرى.

قال عبد الله بن عمرو بن العاص: (خرج النبي -صلى الله عليه وسلم- ومعه كتابان، كتاب بيمينه وكتاب بيده الأخرى، قال: هؤلاء أهل الجنة بأسمائهم وأسماء آبائهم ثم ختم على ذلك لا زيادة ولا نقصان، وهذا كتاب أهل النار بأسمائهم وأسماء أباءهم وختم على

ذلك لا زيادة ولا نقصان، قد فرغ ربكم من العباد)، انتهى الأمر. ولذلك (قالوا: يا رسول الله أعُلِمَ أهل الجنة من أهل النار؟ قال: نعم، قالوا: ففيمَ العمل؟ قال: اعملوا (أو قال: سددوا وقاربوا) فكلٌ ميسر لما خلق له).

وهذه أدلة صريحة في أن الله جلَّ وعلا قد كتب كل شيء قبل أن يخلق الخلق.

بالتفصيل متى كتب الله هذه الكتابة؟ عندنا في حديث في صحيح مسلم عن أنس أن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: (كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة) [1]، هذا تحديد تفصيلي يبيّن أن هذه الكتابة الأزلية التي في اللوح المحفوظ، جعلنا الله وإياكم ممن كتبوا من السعداء قبل خلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة. والذي يعضد ذلك حديث الصحيحين[2] "احتجاج آدم مع موسى"؛ عندما (قال له موسى: أنت آدم، خلقك الله بيديه ونفخ فيك من روحه، عصيت ربك وأكلت من الشجرة وأخرجتنا من الجنة، فقال له آدم -عليه السلام-: أنت موسى الذي اصطفاك الله برسالته وبكلامه تلومني على ذنب قد كتب الله عليّ) وهنا احتجاج بالقدر، (قد كتبه الله عليّ قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة، فأقره موسى)، وبيّن أن الحجة كانت لآدم قال: (فحج آدم موسى، فحج آدم موسى)، وهذا إقرار من النبي -صلى الله عليه وسلم- على ما قاله آدم أن هذا الذنب كتبه الله عليه قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة.

فهذه الكتابة أزلية لا تبديل فيها ولا زيادة ولا نقصان، وقد فرغ ربكم من العباد، كتب أهل الجنة بأسمائهم وأسماء آبائهم وكتب أهل النار بأسمائهم وأسماء آبائهم. وهذه الكتابة كما قلت كتابة أزلية تتبعها كتابات أخرى وهي: الكتابة العمرية والكتابة العامية والكتابة

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (٢٦٥٣) وابن تيمية في مجموع الفتاوى(١٨/ ٢٣٢) والالباني في صحيح الجامع (٤٤٧٤).

(٢) أخرجه احمد في مسنده (٧٨٥٦) والبخاري في صحيحه(٣٤٠٩) ومسلم في صحيحه (٢٦٥٢)) وأبو داوود في سننه (٤٧٠١) والترمذي (٢١٣٤) وابن ماجه (٨٠) ومالك في موطأه (٢٦١٦).

اليومية، فتصبح أربع كتابات.

▪ الكتابة الثانية: وهي الكتابة العمرية، كتابة في بطن الأم عندما يكون المرء جنيناً في بطن أمه يأتي الملك ويكتب كل شيء عنه، يكتب رزقه ويكتب أجله يكون شقياً أم سعيداً، كل ذلك يكتب، والأحاديث كثيرة في ذلك. عمرو بن واثلة بن الأسقع كان يجلس بجانب ابن مسعود، فقال ابن مسعود -رضي الله عنه وأرضاه-: الشقي من شقي في بطن أمه والسعيد من وعظ بغيره. وكان إبراهيم بن أدهم عندما يدقون عليه الباب ويقولون: أيها الزاهد اخرج لنا، وكان من المتعبدين من الحفاظ الزهاد العباد، كان يبكي بكاءً شديداً عندما يسمعهم وهم ينادونه فيقول: يا ويل أمي، ما أدري أكتبت ٨عند ربي سعيداً في بطن أمي أم شقياً؟

والذي يدل على ذلك أحاديث كثيرة منها: أولاً حديث ابن مسعود [1]:-رضي الله عنه وأرضاه- في الصحيحين: (إن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوماً نطفة، ثم يكون علقة مثل ذلك، ثم يكون مضغة مثل ذلك، ثم يأتي الملك فيؤمر بنفخ الروح)، وبعد ذلك قص ابن مسعود الحديث فقال: (يكتب الرزق والأجل والشقاء والسعادة، وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة ثم لا يكون بينه وبينها إلّا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيختم له به، وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار ثم لا يكون بينه وبينها إلّا ذراع حتى يسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيختم له بعمل أهل الجنة).

أيضاً من هذه الأحاديث "حديث حذيفة بن اليمان -رضي الله عنه وأرضاه-"، قال: (إذا مر بالنطفة ثنتان وأربعون ليلة، أمر الله الملك فيخلق لحماً وعظماً وجسماً) أو (يصورها لحماً وعظماً وجسماً) ... إلى آخر الحديث. أنا أريد من هذا الحديث قول حذيفة: قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (إذا مرت بالنطفة ثنتان وأربعون ليلة، أُمِرَ الملك بتخليق هذه النطفة). هذا الحديث عجيب لا بد له من وقفة، والذي يدعوني أن أقف له هو حديث ابن

(١) أخرجه البخاري (٣٢٠٨)، ومسلم (٢٦٤٣) باختلاف يسير والالباني في صحيح الجامع (١٥٤٣).

مسعود قال: (أربعون، ثم يؤمر الملك بالتخليق)، وهنا قال: (إذا مر بها ثنتان وأربعون)؛ أثم تعارض بين الحديثين أم لا؟

والله هذا الحديث من أعظم الأحاديث، أن كثير من الأخوة كانوا يعارضونني جداً عندما تتصل المرأة تقول: ما مر إلّا شهر واحد على الجنين وما أستطيع أن احتمل زوجي سيطلقني، لا بد أن أجهض هل يجوز أم ما يجوز؟ فكثير من المفتيين تسمع ويقول: ما مر؟ تقول: مرة شهر، فيقول لها: ما يهمك إنه سقط لا إثم عليك فيه ولا شيء عليك.

حديث ابن مسعود كان فيه التفصيل أكثر وبيّن قال: يمر على نطفة ثم علقة ثم مضغة، أمّا حديث حذيفة أجملها قال: إذا مرة ثنتان وأربعون على النطفة، وما ذكر إذا مر عليه وهو مضغة، ولا مر عليه وهو علقة، مر عليه بعد ما استوى نطفة، ما بيّن. فأصبح حديث حذيفة مجمل وحديث ابن مسعود مفصّل، ولا تعارض. إذا أبى علينا من يسمع ذلك، قلنا له هذا الحديث حج لنا في أمر آخر؛ من أوجه الإجابات أن نقول إذا أبيتم علينا الجمع الأول، نقول الجمع الثاني: إذا ثبت عن النبي -صلى الله عليه وسلم- شيء لا بد أن نأخذ به، وثبت عنه أمر آخر لا بد أن نأخذ به. وثبت عنه أن الملك يأتي بعد ثنتين وأربعين ليلة فيكتب ويبدأ التخليق، وهذه في الصحف الأولى، وبعدما يكتب ويكتمل الأمر إلى المئة وعشرين يأتي الملك (أو غير هذا الملك) مرة ثانية فيكتب ويسأل ذكر أم أنثى، ويبدأ بنفخ الروح لأن نفخ الروح لا يكون إلّا بعد مئة وعشرين، وتكون هذه الزيادة مع الملك الثاني.

إذاً الأولى ليس فيها النفخ وفيها التخليق، والثانية يكون فيها النفخ مع الزيادة، وتكون كتابتين. وهذا الحديث من أمتن الأدلة على أنه لا يجوز إسقاط الجنين بعد شهر، أو بعد ثنتين وأربعين حتى تكون الدقة في الكلام، لأنه ابتدأ أن يكون مخلّقاً. ولذلك الأئمة الأربعة: الإمام أبو حنيفة والإمام مالك، والإمام أحمد والإمام الشافعي يرون أن المرأة إذا أسقطت ونزل الجنين فيه شيء من التخليق عليها الدية وفي الجنين الغرة، لماذا؟ لأنه بدأ التخليق، أصبح في حيز بني آدم فتحاسب على ذلك. إذاً هذا الحديث من أمتن الأحاديث

ومن أقوى الأحاديث التي تثبت الكتابة العمرية أو الكتابة في بطن الأم.

وأيضاً حديث أنس -رضي الله عنه وأرضاه-: (وَكَّلَ الله بالرحم ملكًا، فيقول: أي رب نطفة، أي رب علقة، أي رب مضغة، فإذا أراد الله أن يقضي خلقها، قال: أي رب، أذكر أم أنثى؟ أشقي أم سعيد؟ فما الرزق؟ فما الأجل؟ فيكتب كذلك في بطن أمه)، ويكتب كل ذلك في صحف الملائكة.

هذه الكتابة العمرية أيضاً ليست لها ميزة الكتابة الأولية الأزلية، ففيها التبديل وفيها التغيير. والذي يدلك على ذلك عندما طاف عمر بن الخطاب -رضي الله عنه وأرضاه- بالبيت يبكي ويقول: اللهم إن كنت قد كتبتني (يعني في بطن أمي، في صحف الملائكة) شقياً فامحها واكتبني عندك سعيداً، كما يكون في اللوح المحفوظ ﴿يَمْحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ ۖ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ ﴿٣٩﴾﴾ [الرعد: ٣٩]. هذه الكتابة الثانية وهي الكتابة العمرية، فيها ثلاثة أحاديث: من أهم الأحاديث حديث ابن مسعود، وحديث أنس الذي فيه (فإذا أراد الله أن يقضي خلقها) كما سنبيّن أن هذه من قدرة الله في صفات الله في الفوائد المستنبطة، والحديث الثالث هو حديث حذيفة. حديث ابن مسعود وهذا مفصّل، وحديث حذيفة وحديث أنس من المجملات، ويبيّن لك أيضاً أن السنة تفسّر السنة.

▪ الكتابة الثالثة: وهي الكتابة العامية، في كل عام تحدث كتابة وتنشأ كتابة، وهذه الكتابة تستنسخ من اللوح المحفوظ ويمكن أن يكون فيها ثمة تغيير. هذه الكتابة منشأها كما اتفق المفسرون وأهل التحقيق في التفسير في قول الله تعالى: ﴿حمٓ ﴿١﴾ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ ۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ﴿٣﴾ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ﴿٤﴾﴾ [الدخان: ١ – ٤]؛ قال مجاهد وقال سعيد بن جبير وقال سيدهم وهو ابن عباس -رضي الله عنه وأرضاه-: يُكتب الحياة والممات والرزق والمطر، يُكتب كل شيء في هذا العام؛ يكتب الله أسماء الحجيج، يكتب الله الأموات، يكتب الله الأحياء، يكتب الله الذي يولد، يكتب الله الرزق، يكتب الله الشقاوة، يكتب الله السعادة والرفعة وغير ذلك في هذا العام. هذه

الكتابة كتابة عامية، ملائكة يختصون بكتب يكتبون ما يحدث في هذا العام، وهذا في ليلة واحدة وهي ليلة القدر.

▪ الكتابة الرابعة: وهي الكتابة اليومية؛ فعندنا الكتابات: كتابة أزلية، كتابة عمرية، كتابة عامية، الكتابة الأخيرة وهي كتابة يومية.

ملائكة تختص معها الصحف تكتب، وهذه دلالة على أنه جلَّ وعلا أحصى كل شيء، ما ترك عبدا إلّا وله ملائكة يكتبون حتى النفس حتى الضحكات حتى النوم حتى القيام، كل شيء لا بد الله على العبد. فهذه الكتابة اليومية أيضاً مستنبطة ومستقاة من قول الله تعالى: ﴿كُلَّ يَوۡمٍ هُوَ فِي شَأۡنٖ ٢٩﴾ [الرحمن: ٢٩]، قال ابن مسعود وأقرّه المفسرون: لا يستغني عبد عنه بحال من الأحوال، يرفع أقواماً ويخفض آخرين، يعز أقواماً ويذل آخرين، يرزق هذا ويمنع هذا ويحيي هذا، كل ذلك كتابة في يوم واحد، فهذه الكتابة أيضاً كتابة يومية.

فاجتمع لنا في هذا الحديث العظيم أن من مراتب القدر: مراتب الكتابة، وأن تؤمن بأن الله جلّ وعلا كتب كل شيء قبل أن يخلق الخلق بخمسين ألف سنة، هذه الكتابات أربع مراتب: الكتابة الأولى في المحفوظ لا تبديل فيها ولا تغيير، الكتابة الثانية كتابة عمرية يمكن أن يمحى منها شيء وممكن أن يثبت فيها الأشياء، الكتابة الثالثة كتابة عامية وهذه في ليلة القدر، والرابعة الكتابة اليومية وهي مستقاة من قول الله تعالى: (كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ).

السؤال هنا: إذا كتب الله كل شيء في المحفوظ وكتب كل شيء أيضاً في الكتابة العمرية، هل كتب الله جلَّ في علاه هذا القرآن في اللوح المحفوظ؟ هل كتب الله جل وعلا أفعاله؟ هل كتب الله جلَّ في علاه أحواله مع عباده أم لا؟ القرآن المجيد مكتوب في اللوح المحفوظ، وما هو اللوح المحفوظ؟ الذكر "أم الكتاب". إذاً القرآن مكتوب، والقرآن من أفعال الله، فالله كتب أفعاله في اللوح المحفوظ أيضاً ثم نزل منجّماً على الرسول -صلى الله عليه وسلم- مع الأحداث. وقد كتب الله في اللوح المحفوظ أنه سيقول لموسى:

﴿يَٰمُوسَىٰٓ ۝١١ إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ﴾ [طه: ١١ – ١٢]، وكتب الله في اللوح المحفوظ أنه سيفرض على النبي -صلى الله عليه وسلم- بعد أن يُعرج به إلى السماء السابعة خمسين صلاة، كتب الله ذلك في اللوح المحفوظ.

فإذاً اللوح المحفوظ مكتوب فيه القرآن قبل أن ينزل، مكتوب فيه صفات الله، مكتوب فيه أسماء الله أو أفعال الله جلَّ في علاه. أو تقول مكتوب فيه أفعال الله، وهذا هو الصحيح، ونقف عند هذا حتى لا ندخل في الإشكالات. نقول أفعال الله نعم كتبها الله جلَّ في علاه، كما أن القرآن كتبه الله في اللوح المحفوظ. هذا إجمالاً ما يقال في هذا الحديث العظيم الذي يبيّن المرتبة الثانية من مراتب القدر وهي مرتبة الكتابة.

الفوائد المستنبطة:

١ – ذكر صفات الله جلَّ في علاه؛ هنا ذكر الله صفات ثلاث، قال: (إن أول ما خلق الله القلم، قال له: اكتب، قال: وما أكتب؟ قال: اكتب ما هو كائن إلى يوم القيامة):

• الصفة الأولى "الخلق"، الدليل: (أول ما خلق)، والخلق صفة من صفات الله الخالق، ثبتت لله بالكتاب والسنة والإجماع؛ ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ﴾ [الزمر: ٦٢]، ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ﴾ [السجدة: ٤]. ومن السنة حديث ابن مسعود الذي ذكر سابقاً، وأيضاً حديث ظاهر جداً في الرد على المعتزلة: (إن الله خلق كل صانعٍ وصنعته)، وأجمع أهل السنة والجماعة عليها. وهذه الصفة فعلية ضابطها المشيئة والدليل من الأثر في حديث أنس: (فإذا أراد الله أن يقضي خلقها)، إذا أراد أن يخلق خلق وإن لم يرد لم يخلق، دلالة واضحة على أنها تتعلق بالإرادة وتتعلق بالمشيئة.

• الصفة الثانية "صفة الكلام لله جلَّ في علاه"؛ وهي صفة ثبوتية أثبتها الله لنفسه وأثبت له رسوله وبالإجماع؛ من الكتاب: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا ۝١٦٤﴾ [النساء: ١٦٤]، وفي السنة: (يا عبادي إني حرّمت الظلم على نفسي) هذا نداء للعباد والنداء لا يكون إلّا بصوت وحرف، والصوت والحرف هذا معنى الكلام أو معنى القول. حديث أصرح:

(أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق)، أين وجه الدلالة على هذا الحديث أن الله يتكلم؟

- الوجه الأول وهو الأقوى: لو كانت الكلمات مخلوقة لكان شركاً لأنه استعاذ بغير الله جلَّ في علاه، فإذاً هذه الكلمات صفة من صفات الله جلَّ في علاه.

- والوجه الثاني: هي مضافة لله، وإضافة المعاني هي إضافة الصفة للموصوف.

• الصفة الثالثة "صفة القدرة"، تؤخذ من إنطاق الله للقلم لأن القلم من الجمادات لا يتكلم، لكن الله جلَّ وعلا من قدرته جعله يتكلم، ومن قدرته جعله يكتب، فهذه دلالة باهرة على ربوبية الله جلَّ في علاه ودلالة عظيمة على قدرة الله جلَّ في علاه.

٢- دلالة لمن يقول إن (كلتا يدي ربي يمين)، وهذه تنتزع من قوله في حديث: (وكلتا يديه يمين). وهذا خلاف بين العلماء من أهل السنة والجماعة هل يوصف الله بالشمال أم لا؟ كثير من أهل السنة يرون أن الله يوصف بالشمال، واستدلوا على ذلك بحديث عمر بن الخطاب: (إن الله لّما مسح ظهر بيمينه فأخرج ذريته من أهل الجنة، قال: هؤلاء للجنة ولا أبالي. ومسح ظهره بيده الشمال وقال: هؤلاء للنار ولا أبالي)، هذه فيها ذكر الشمال ودلالة واضحة جداً. أيضاً في حديث عبدالله بن عمرو بن العاص قال: (خرج النبي -صلى الله عليه وسلم- ومعه كتابان: كتاب بيمينه وكتاب بشماله، ثم قال)، يعني الله أخذ بشماله أهل النار بأسمائهم وأسماء آبائهم وختم على ذلك.

وأمّا المحققون من أهل السنة والجماعة يرون أن الله لا يوصف بالشمال، وحديث مسلم الذي ذكر فيه أنه أخذ بيمينه وبشماله، قالوا هذه لفظة شاذة لأن البخاري أخرجه ومسلم أخرجه قال: (بيمينه وبيده الأخرى)، ولم يقل ويصرِّح بالشمال. وهذا الأقرب للصواب لأن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: (كلتا يدي ربي يمين)، ولا تؤول اليمين بالبركة دون إثبات الأصل؛ (كلتا يد ربي يمين) هذا إثبات الأصل، وأيضاً من اليمن وهو البركة، وهذا الراجح الصحيح، وهذا حديث يدل لنا على ذلك، قال: (وكلتا يد ربي يمين).

٣- الاختلاف بين العلماء أي الخلق كان أولاً: العرش أم القلم؟ ابن القيم يرى أن العرش هو الذي خُلِق أولاً ورجّحه، وأدلة ابن القيم صراحةً أدلة قاطعة قوية جداً، لكن المصنف يميل لغير ذلك وانا مع المصنف بإذن الله.

فيقول ابن القيم: قال النبي -صلى الله عليه وسلم- كما في حديث أنس في الصحيحين: (كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة، وكان عرشه على الماء)، فهذه دلالة على سبق وجود العرش وحدثت الكتابة، ووجه الدلالة عنده التي تقوي ذلك رواية: (أولُ ما خلق الله القلم قال له: اكتب)، أو (أولَ ما خلق الله القلم قال له: اكتب)، فهذه فيها دلالة المقارنة بين الخلق وبين الأمر بالكتابة، يعني بعدما خلق الله القلم أمره: اكتب ما هو كائن إلى يوم القيامة. فإذاً قلت: (أولُ ما خلق) أو (أولَ ما خلق)، فإن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: (وكان عرشه على الماء)، أولاً سابق على ذلك الماء. هذا كلام القيم، وهذا الذي رجّحه جماهير العلماء، وطبعاً علماء الحجاز المتأخرين من السعدي وغيره وحتى الشيخ محمد خليل الهراس، كل هؤلاء رجحوا ما رجحه ابن القيم تباعاً له.

لكن نحن بفضل الله ندور مع الأثر حيث دار وندور مع شرعنا حيث دار، والعلم قال الله قال رسوله. قد ثبت عن نبينا في مسند أحمد أنه قال: (أول شيء خلقه الله القلم)، وهذا فاصل في النزاع؛ لولا هذا الحديث لقلنا بمسألة اللغة إن "أولَ" الظرفية أو "أولُ" المبتدأ والخبر، أنهانا الله جلَّ في علاه بالحقيقة الشرعية لتقدم على الحقيقة اللغوية. قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: (أول شيء خلقه الله القلم)، وهذا حديث صحيح عن النبي -صلى الله عليه وسلم- بسند كالشمس فلا محيد عنه، ويكون أول المخلوقات هو القلم لا العرش.

٤- أهمية العلم؛ أليس هذا هو الحق؟ والله الأمة لن تستقيم إلّا بالعلم، نحن ما أخذنا حديث ولا آية إلّا وكلها علم وتشير إلى العلم. نستنبط أهمية العلم من هذا الحديث بأن

القلم إشارة العلم وطلب العلم، أما قال الله تعالى: ﴿ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ۝٣ ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ۝٤﴾ [العلق: ٣ – ٤]، فهذه دلالة عظيمة جداً بإشارة من القلم لأهمية العلم بالتنصيص في الآية ﴿عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ۝٤﴾، فهي إشارة للعلم. وأهمية العلم طبعاً قد أخذناها كثيراً حتى نموت، كما سئل الإمام أحمد بن حنبل: إلى متى؟ قال: مع المحبرة إلى المقبرة، إلى أن نموت ونحن نطلب العلم ونهيب بالأخوة أن يطلبوا العلم. وقد قال الحافظ ابن حجر معلنها صراحةً يُعرِّف الناس بالعلماء: لا يزال العالم عالماً ما جد في الطلب.

٥- الرد على المعتزلة؛ (أول ما خلق الله القلم، قال له: اكتب، قال: وما أكتب؟ قال: اكتب ما هو كائن إلى يوم القيامة)، والرد على المعتزلة بهذا الحديث الجليل من وجهين:

- الوجه الأول: غلاة المعتزلة الذين هم الجهمية رفضوا العلم، وبالطبع رفضوا الكتابة وقالوا الأمر أنف. ولذلك ابن عمر -رضي وأرضاه- قال: إن ترى أحداً منهم فأخبره أنه لو انفق مثل أُحُد ذهباً ما قُبِل منه عند ربه جلَّ في علاه، لأنه لم يؤمن بالله والقدر خيره وشره. فهم يقولون الأمر أنف، وهنا ليس الأمر أنف، بل (قال له: اكتب ما هو كائن إلى يوم القيامة)، فالأمر قد فرغ منه، (جفت الأقلام وطويت الصحف).

- الوجه الثاني: وهو مدرجة في الأول؛ المعتزلة قالوا إن الله لا يتكلم، وأشكلوا بمقدمة على أهل السنة والجماعة، فقالوا لهم: إذا قلتم بإن الله يتكلم فيستلزمون الكلام وجود المخرج يعني الفم، فإذا قلتم بذلك شبهتم الخالق بالمخلوق. فهنا نقول القلم قد تكلم أين فم القلم؟ فهذا فيه رد على المعتزلة نقول لهم: تكلم الله بكيفية لا نعلمها، ولا يستلزم الكلام وجود المخرج، فقد تكلم القلم وتكلمت النار وتكلمت الجنة وتكلمت السماء، وتكلم الطعام بالتسبيح أمام صحابة رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، ولا يستلزم من هذا الكلام المخرج، إذاً فالمقدمة فاسدة فالنتيجة تكون أفسد، ولا تشبيه بين الخالق وبين المخلوق.

٦- التوكل على الله وثبات القلب بالإيمان، من أين تؤخذ هذه؟ إن الله قد كتب كل

شيء، فإذا علم العبد أن الرزق بيده والإماتة بيده والإحياء بيده مال قلبه لربه جلَّ في علاه، ذل لربه وخضع لربه وما خضع لأحدٍ سواه. قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (نفث في روعي الروح الأمين أنه لن تموت نفس حتى تستوفي رزقها وأجلها، فاتقوا الله وأجملوا الطلب)، فعنق التوكل سيكون على الله جلَّ في علاه لأن الأمر قد فرغ وقد كتب كل شيء في اللوح المحفوظ، وهذا يزيد المرء ثباتاً.

٧- من آداب سنن النبي -صلى الله عليه وسلم- ألّا نعمل العقل إلّا بعد أن نكمل الإحاطة بكل الروايات، لأن السنة تفسرها السنة. فإذاً نأخذ تفسير السنة أولاً من السنة أي تفسير الحديث يكون من الحديث، ثم تفسير الحديث من أقوال الصحابة، ثم بعد ذلك من اللغة، ولا مدخل للعقل. وهذا يجعلنا نقدّم النقل دائماً على العقل، رداً على المعتزلة.

العلم قال الله قال رسوله قال الصحابة ليس بالتمويه

والذي يدلك على ذلك الأحاديث الأولى التي جاءت مجملة، ثم بعد ذلك الأحاديث الأخرى التي جاءت مفسّرة، وأروع ما يضرب مثلاً لذلك حديث حذيفة أنه قال: (إذا مر على النطفة ثنتان وأربعون ليلة أمر الله الملك) هذه مجملة، ثم أتت مفسرة في حديث ابن مسعود بيّن أنها مراحل وأطوار ثلاثة: الطور الأول أن يكون نطفة، ثم يكون علقة، ثم بعد ذلك يكون مضغة.

باب ما يطبع المؤمن عليه

عن أبي أمامة -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: (يطبع المؤمن على كل شيء إلّا الخيانة والكذب)

وعن ابن عمر -رضي الله عنهما- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: (يطبع المؤمن على كل شيء إلّا الخيانة والكذب).

وعن معاذ بن جبل وعوف بن مالك -رضي الله عنهما- عن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: (نعوذ بالله من طمعٍ يهدي إلى طبع).

إن نبينا -صلى الله عليه وسلم- بعثه الله رحمة للعالمين، وبعثه الله جلَّ في علاه ليتمم مكارم الأخلاق، وكان النبي -صلى الله عليه وسلم- يبث الأخلاقيات الحسنة بين الناس، وجاء ليمحو الأخلاقيات السيئة. وقد بيّن فضل حسن الخلق وفضل أصحاب الأخلاق الحسنة، حيث إن الله جلَّ في علاه مدحه بأرقى الصفات وأعلى السمات، مدحه بحسن الخلق فقال جلَّ من قائل: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤﴾ [القلم: ٤]، وإن النبي -صلى الله عليه وسلم- لمّا سئلت عائشة -رضي الله عنها وأرضاها- عن خلقه قالت: (كان خلقه القرآن). وكان كما في الصحيح أنس يصف[1] لنا خلق النبي -صلى الله عليه وسلم- يقول: (ما مست يدي حريراً ولا ديباجاً ألين من يد رسول الله)، هنا شاهد حسن خلق النبي -صلى الله عليه وسلم-: (لا والله ما قال لي لشيء أنا فعلته لِمَ فعلته، ولا لشيء لم أفعله لِمَ لم تفعله) هذا كأنه لا يعاوده ولا يعاتبه على أشياء وقع فيها، يعوّل ذلك على القدر من حسن خلق النبي -صلى الله عليه وسلم-. وأيضاً تصف عائشة -رضي الله عنها

(١) أخرجه البخاري (١٩٧٣) مختصراً باختلاف يسير، ومسلم (٢٣٣٠، ٢٣٠٩) مفرقاً باختلاف يسير وابن حبان غي صحيحه (٦٣٠٣).

وأرضاها- تقول: (ما مست يده الشريفة امرأة قط، لا ضارباً ولا حتى لامساً للنساء ولو كانت في البيعة) من حسن خلق النبي -صلى الله عليه وسلم-.

لا غرو ولا عجب، فإنه بعث ليتمم مكارم الأخلاق، وقد بيّن رسولنا الكريم بأن أعلى الدرجات وأسمى المكانات عند رب الأرض والسماوات بحسن الخلق؛ حيث يقول النبي -صلى الله عليه وسلم-[1]: (أحبكم إليّ وأقربكم مني منزلة يوم القيامة أحاسنكم أخلاقاً، وأبغضكم إليّ وأبعدكم مني منزلة يوم القيامة مساويكم أخلاقاً)، وقد بيّن النبي -صلى الله عليه وسلم- كما في حديث عائشة في المسند[2]: (أن المرء يدرك بحسن خلقه درجة الصائم القائم)، وقد قال النبي -صلى الله عليه وسلم- كما في السنن بسند صحيح: (وأنا زعيم ببيتٍ في أعلى الجنة لمن حسن خلقه)، هذه دلالة على أن حسن الخلق لها مكانة عند الله جلَّ في علاه، والنبي -صلى الله عليه وسلم- جمع التقوى بأسرها في حسن الخلق.

ومساوئ الخلق هي التي تنزل بالمرء إلى الدركات ولا يرتقي الدرجات عند رب العباد، ومساوئ الخلق لا بد للمرء المسلم المؤمن التقي أن يبعد عنها وأن ينأى عنها قدر استطاعته، ولو وقع فيها مرة أو مرتين فعليه بالتوبة، بل ولو زاد فعليه بالتوبة كما أرشدنا إلى ذلك وقال: (فإن أسأت فأحسن)، وفي بعض الروايات قال: (فإن أسأت سراً فسراً، وإن أسأت علناً فعلناً)؛ يعني إن أسأت في السر فضع مكان هذه السيئة حسنة في السر، وإن كانت في الجهر فضع مكانها في الجهر. فسوء الخلق يبعد المرء عن الله جلَّ في علاه، ويبعده منزلة عن النبي -صلى الله عليه وسلم-.

ومن أسوأ الأخلاقيات التي لابد للمرء أن ينأى عنها هي: الكذب والخيانة، نعوذ بالله من الخيانة. فإن الكذب مهلكة كما أن الصدق منجاة، وإن الخيانة من أعظم الذنوب، كفى بأن الخيانة تكون نقصاً بأن الله جلَّ وعلا لم يصف نفسه بها حتى ولو في جهة المقابلة. فإن

(١) اخرجه الالباني في صحيح الترمذي (٢٠١٨) والهيثمي في مجمع الزوائد (٨/ ٢٤).
(٢) أخرجه أبو داود (٤٧٩٨) واللفظ له، وأحمد (٢٤٣٥٥) باختلاف يسير والالباني في صحيح الترغيب (٢٦٤٥).

المكر والخداع والاستهزاء وصف الله بهذه الصفات نفسه عند المقابلة، وعند المقابلة تكون على الكمال، لكن عند الإطلاق تكون نقصاً، قد قال الله تعالى: ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٣٠﴾﴾ [الأنفال: ٣٠]، ﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ﴾ [النساء: ١٤٢]، وقال في سورة البقرة: ﴿وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴿١٤﴾ ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٥﴾﴾ [البقرة: ١٤ – ١٥]، فهذه عن طريق المقابلة. أمّا في الخيانة لأنها نقيصة عظمى ولأنها على الإطلاق من قصف لم يصف الله نفسه بها قال الله تعالى: ﴿وَإِن يُرِيدُوا۟ خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا۟ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ﴾ [الأنفال: ٧١]، ما وصف نفسه عن طريق المقابلة، قال: ﴿فَقَدْ خَانُوا۟ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ ۚ﴾ [الأنفال: ٧١]، دلالة على عظم هذه السيئة، على هذه النقيصة، على عظم سوء الخيانة.

ولذلك النبي –صلى الله عليه وسلم– قال: (يطبع المؤمن على أي شيء) من المساوئ، كثير من المساوئ يطبع عليها المرء، بل تكون طبعا له جارياً في أوقاته، (إلّا الخيانة والكذب) فإن الإيمان ينسلخ من الخائن كما نقول استبرأ أو نقول إن دم يوسف بريء منه الذئب. فكما بين الله جلَّ في علاه وبيّن رسوله أن المرء المكلّف ينزع منه الإيمان بسبب خيانته، قال الله يحذر الناس من الخيانة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَخُونُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓا۟ أَمَٰنَٰتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [الأنفال: ٢٧]، وأيضاً قال النبي –صلى الله عليه وسلم– مبيّناً أنها من علامات النفاق، وهذه لابد لكل امرئ أن يتقي ربه ويجلس ينظر في نفسه هل خان الله ورسوله؟ هل خان الأمانات أم لا؟ قال النبي –صلى الله عليه وسلم– مبيناً أن: (آية المنافق ثلاث)، منها (إذا اؤتمن خان). وأيضاً قال النبي –صلى الله عليه وسلم–: (أربع من كن فيه كان منافقاً خالصاً) وذكر منها: (إذا اؤتمن خان).

بل إن النبي –صلى الله عليه وسلم– صرّح بأن الأمانة تنزع من الخائن والعياذ بالله، سواء كان خائناً لله ورسوله كما سنبيّن أو خائناً لأمانات الناس؛ قال النبي –صلى الله عليه وسلم– كما في مسند أحمد: (لا إيمان لمن لا أمانة له)، فمن كان خائناً فلا إيمان له، والمعنى

لا إيماناً كاملاً أو بالتأويلات التي سبق وفسرناها. بل جعل الله البركة مع الصدق ونزع البركة مع الخيانة، هكذا في المسند قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (أنا ثالث الشريكين ما لم يخن أحدهما الآخر)؛ إذا وجد الله جلَّ في علاه فالبركة كلها فالتوفيق التسديد في الدنيا وفي الآخرة، وإذا نزع الله نفسه فانتهى الأمر.

ما دام المرء المكلّف في تعامله له تعاملان: تعامل مع الرب جلَّ في علاه، وتعامل مع عباد الرب جلَّ في علاه، فالخيانة تكون خيانة مع الله وخيانة مع رسوله -صلى الله عليه وسلم-، والخيانة أيضاً تكون مع عباد الله والذين يتبعون رسوله -صلى الله عليه وسلم-.

١- أمّا الخيانة مع الله جلَّ في علاه فالخيانة العظمى، والأعظم أن يخون التوحيد، أن يشرك بالله جلَّ في علاه، هذه أعظم الخيانة أن يخون توحيد الله جلَّ في علاه. إن الله ما خلقه إلّا لهذه المهمة العظيمة، إن الله ما أوجده في هذا الكون وما أوجد هذا الكون كله له وسخره له إلّا لتوحيده، فإن خان هذه الأمانة فهذا أعظم الخيانة، وهذا تستنبطه من قول ابن مسعود لمّا سأل النبي -صلى الله عليه وسلم-: (أي الذنب أعظم، قال: أن تجعل لله نداً وهو خلقك).

وأقل من ذلك الكبائر في خيانة الله وخيانة دين الله جلَّ في علاه وخيانة رسول الله -صلى الله عليه وسلم-؛ وخيانة دين الله بتقديم أعداء الله على أولياء الله، بمحبة أعداء الله على محبة أولياء الله، بنصرة أعداء الله على أولياء الله جلَّ في علاه، هذه أعظم الخيانة. خيانة دين الله جلَّ له أن تقدم أي دين مهما كان على دين الإسلام الذي ارتضاه الله جلَّ في علاه للبشرية أجمعين، وخيانة رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وخيانة سنته بأن تقدم آراء الفقهاء وأقوال الفقهاء على سنة النبي -صلى الله عليه وسلم-، وأن تقدم عقلك على ما قاله الرسول -صلى الله عليه وسلم-، هذه خيانة لرسول الله -صلى الله عليه وسلم-.

فالخيانة الأولى خيانة مع الله ومع رسوله، خيانة لدينه، خيانة لتوحيده، خيانة لشرعه، خيانة لسنة النبي -صلى الله عليه وسلم-. وهذه التي قال فيها الله جلَّ في علاه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمۡ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ٢٧﴾ [الأنفال: ٢٧]، لا يصح أن تكونوا من المؤمنين وتخونوا الله ورسوله، لا يمكن أن نطلق عليكم مسمّى الإيمان وأنتم ما دمتم على خيانة توحيد الله جلَّ في علاه أو خيانة شرع الله وخيانة سنة النبي -صلى الله عليه وسلم-.

٢- خيانة لعباد الله جلَّ في علاه، وأعظم الخيانة لعباد الله جلَّ في علاه إضلالهم عن دين الله جلَّ في علاه أن تلبّس عليهم الحق بالباطل وتميّع القضايا حتى لا يفرق المؤمن الغر الكريم بين الحق وبين الباطل. هؤلاء الذين يجعجعون كثيراً ويلبّسون الحق بالباطل هم الذين يترجمون قول الله تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوۡلِيَآئِهِمۡ لِيُجَٰدِلُوكُمۡۖ﴾ [الأنعام: ١٢١]، فهؤلاء يلبّسون على الحق بالباطل ويمزجون العقل مع النص ليحسب الذي يسمع أن هذا هو الحق وهذا هو الدين فيقف عنده، فهذه خيانة من أعظم الخيانة.

وأيضاً من أعظم الخيانة لعباد الله جلَّ في علاه هو أن يزني المرء بحليلة جاره، أن يخون جاره الذي وصّى النبي -صلى الله عليه وسلم- عليه، إمّا أن يزني بها صوتاً أو كلاماً أو فعلاً أو تطبيقاً أو ميلاً، فهذه خيانة من أعظم الخيانات كما قال النبي -صلى الله عليه وسلم- عليه لما سئل: (ثم أي الذنب أعظم؟ قال: وأن تزاني بحليلة جارك).

وأيضاً من الخيانات، الخيانات في العمل؛ أن يكون الرجل يعمل أجيراً عند مدير الشركة ترك معه مثلاً ختمه أو ترك مستندات الشركة عنده وهو يلعب فيها كيفما شاء، يختلس المال، يبيع دون أن يقول له أو يرشده إلى ما فيه مصلحة له. ومن باب الخيانات أيضاً إذا استشير لا يكون مؤتمناً، إذا جاءت امرأة تسأله مثلاً سؤالاً معينا تستشيره في قضية إن لم ينصح لها النصح الكامل خائن لهذه الأمانة، لقول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (المستشار مؤتمن)، فهذه إن لم يكن ناصحاً أميناً فهو خائن والعياذ بالله. فهذه الخيانة كما قلت من أسوأ الأخلاق التي أبعدنا النبي -صلى الله عليه وسلم- عنها وأبعدنا الشرع عنها.

يبقى أن نقول: يستثنى من هذه المسائل مسألة مهمة؛ إذا قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (يطبع المؤمن على كل خلة) وهذا رواه الطبراني برواة ثقات، حتى نقول بأن هذا الحديث وإن كان ضعيفاً رواة الطبراني بسند صحيح، قال: (يطبع المؤمن على كل خلة ليس الخيانة والكذب) على عموم الخيانة والكذب. لكن نقول: استثنى العلماء -وهذا الراجح الصحيح- في مسألة أن يكون المرء له الحق عند إنسان لا يستطيع أن يأخذ حقه إلّا بالحيلة أو بالخداع له فله أن يأخذ حقه، وهذه تخرج من عموم (إلّا الخيانة والكذب). الدلالة على ذلك حديث هند -رضي الله عنه وأرضاها- لما جاءت النبي -صلى الله عليه وسلم- قالت: إن أبا سفيان رجل شحيح، لا يعطيني نفقتي ولا نفقة أولادي، فلها الحق أن تأخذ منه، أمرها النبي -صلى الله عليه وسلم- أن تخادعه وتأخذ منه الحق لأن هذا استجلاب لحقها ولا تستطيع أن تأخذ حقها إلّا بذلك، ولذلك قال لها: (خذي من ماله) دون أن يدري، وهذه إن عدّها بعضهم خيانة، نقول هذه لو كانت خيانة تكون من الخيانة المباحة ولا تسمى خيانة ولا تكون مذمومة. قال: (خذي من ماله ما يكفيك وولدك بالمعروف)؛ يعني ما عرف واشتهر على ما يكفيك وولدك.

وأيضاً حديث الضيافة أن له حق ثلاثة أيام، بيّن النبي -صلى الله عليه وسلم- أنه إن بخس حقه المضيق له إن يأخذها إمّا بالخداع أو بالحيلة؛ وقد فعل ذلك الرقية عندما نزلوا وحلّوا أضيافاً على بعض الناس فأبوا أن يضيفوهم، فلدغ سيدهم، فقالوا: هل عندكم من راقي؟ قالوا: والله لا نرقي حتى تضربوا لنا سهماً من الغنم، فضربوا لهم سهماً من الغنم فرقاه الرجل بالفاتحة، فكأنما نشط من عقال. وأخذ المال وأخذ الغنم، فأرادوا أن يقسموا الغنيمة على أنفسهم، قالوا: لا، حتى نأتي رسول الله، كيف نفعل ذلك؟ فقال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (اضربوا لي معكم بسهم). الغرض المقصود أن هؤلاء أخذوا هذا الحق بهذه الحيلة.

وأيضاً الواضح في هذه المسألة هناك أحاديث أخرى تبيّن لنا أن النبي -صلى الله عليه وسلم- أباح لمن يحتال على حقه إذا سُلِب منه أو أخِذ منه؛ من هذه الأحاديث حديث هند

وحديث الضيافة، وأمّا الثالث فالآية التي تدل على ذلك آية صريحة.

أنت ممكن يعترض عليك بما قلنا الآن: يستثنى من هذه الخيانة رجل له حق وجاء الرجل استأجره وأخذ حقه وهو يرى حقه أن يأخذه بالحيلة، فأنت إذا أخذته بالحيلة جاءك المعترض وقال: اتقِ الله أنت خائن الآن، والنبي -صلى الله عليه وسلم- قد منعك من ذلك. قلنا: لا هذا مستثنى، (خذي ما يكفيك وولدك بالمعروف). فيقول لك: قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (أدِّ الأمانة لمن ائتمنك ولا تخن من خانك). المسألة مثلاً: أحمد أجير عند المدير محمد، محمد حبس راتب أحمد، وأحمد وقع تحت يده مال بالضبط هذا المال هو مقدار راتبه، ومحمد المدير لا يعرف، هل لأحمد أن يأخذ هذا الراتب أم لا؟ هذه هي المسألة، هل تكون خيانة للأمانة؟ نقول: لا محمد خانه أولاً فحبس عنه راتبه.

الآية هي: ﴿فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَٱعۡتَدُواْ عَلَيۡهِ بِمِثۡلِ مَا ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡۚ﴾ [البقرة: ١٩٤]؛ فنقول: قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (أدِّ الأمانة لمن ائتمنك ولا تخن من خانك)، هذه ليست بخيانة، هذا رب الكيل بالكيل والصاع الصاع، وقد قال الله تعالى: (فَمَنِ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ)، وهذا ليس فيه ملامة. لا سبيل على من ينتصر لنفسه، لكن السبيل على من يبغى ويطغى ويظلم. فهذه كما قلت مستثناة من قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (ليس الخيانة والكذب)، إن صح الحديث.

وبعض الأمور قد عدّها الصحابة الكرام من الخيانة، ولا نستطيع أن نقول من الخيانة لأن هذه الأحاديث على التكرار ليست على انفراد، يعني من خان مرة أو خان مرتين أو خان أحداً ويعني أصابه في دينه أو في مكانته أو في شرفه أو في عرضه، أقول المرة والمرتين لا يحاسب عليه المرء، ولا نقول طُبع على الخيانة، لكن التكرار هو علة أن يطبع المرء على الخيانة. من ذلك الصحابة من ورعهم وشدة تقواهم أنهم كان كل واحد منهم يذم نفسه بالخيانة على مرة واحدة، وقد غفر الله لهم ذلك، إذ المرة أو المرتين في ميزان حسناتهم تغمر، ولا يصح وسم الصحابة بذلك.

لكن نقولها للعبرة وللتقى والورع الذي كان فيه الصحابة؛ هذه الآية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمۡ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ٢٧﴾ [الأنفال: ٢٧]، الواحدي ذكر أن أبا لبابة ذهب إلى بني قريظة وكان أبوه أو أولاده وأهله عندهم، بعدما ذهب إليهم قالوا له: يا أبا لبابة ما رأيك ننزل على حكم سعد بن معاذ؟ فأبو لبابة أشار إليهم وقال: لا، قالوا: لِمَ؟ لأن النبي -صلى الله عليه وسلم- خيّرهم ينزلون على حكم سعد؟ قالوا: اللهم نعم. فلمّا سألوا أبا لبابة كأنهم يستشيرونه، والمستشار مؤتمن ولابد أن يرد بأمانة ويبيّن لهم الحق، فبيّن لهم الحق وقال لهم: لا الذبح، هو فعل ذلك تكون يداً من أجل أولاده وأهله كما سنذكر في القصة الثانية. فقال: لا تنزلون على قول سعد فإنه الذبح، وأشار إلى حلقه. ثم قال: ما إن قرأت هذه الآية إلّا وعلمت أنها نزلت فيّ، والله قد علمت من يومها أني قد خنت الله ورسوله. يا التقى والورع، مع أن الله جلَّ وعلا قد قضى أمراً وكان مفعولاً، وقد نزلوا على حكم سعد، وبفضل الله سبحانه أنهى الله المسلمين من ضرر بني قريظة. لكن الغرض المقصود من التقى والورع أنه وسم نفسه بذلك، فعمل أعمالاً لهذه المصيبة التي وقع فيها.

وأقول أيضاً لا يمكن أن تسم صحابياً بفعل ولا أي أحد من المؤمنين بهذا الحديث إن خان مرة، وهي على التكرار. والحادثة الثانية حادثة حاطب بن أبي بلتعة -رضي الله عنه وأرضاه-، كان عيناً للمشركين على المؤمنين وهذه تدلك حتى الذي يكون عيناً للظلمة على العدول هو نفس الأمر من الخيانة بمكان، وإن شاء الله سيلقى ربه بهذا الحديث (ليس الخيانة والكذب)، فإن كان مثلاً عيناً للكفرة على المسلمين أو عيناً لأهل الطغيان على العدول الأتقياء أيضاً لا يمكن أن يفر من هذا الحديث. حاطب بن أبي بلتعة بعث برسالة إلى أهل قريش وقال: إن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يجهّز الجيش لكم تسير إليكم، فالنبي -صلى الله عليه وسلم- أوحي عليه أن حاطب قد بعث بهذه الرسالة، فبعث علي بن أبي طالب والزبير حتى أتيا بالرسالة، فأخذ النبي -صلى الله عليه وسلم- الرسالة وذهب إلى حاطب بن أبي بلتعة، الجاسوسية لا يمكن أن تغتفر وحتى ولو كان صحابياً.

فأخذ النبي -صلى الله عليه وسلم- الرسالة فقال: ما هذا يا حاطب؟ فلمّا قرأ عمر قال: يا رسول الله دعني أضرب عنق هذا المنافق. انظروا الخيانة وسمته بالنفاق مع أنه كان بدرياً، ونسأل الله جلَّ وعلا أن يغفر له هذه الزلة، وقد غفر الله له هذه الزلة جزماً بفضل الله سبحانه وتعالى. فقال عمر: يا رسول الله دعني أضرب عنق هذا المنافق، النبي -صلى الله عليه وسلم- لم ينكر عليه أنه وسمه بالفعلة هذه أن يكون منافقاً، لكن قال بعلة أخرى أن النفاق قد نُزع أو رُفع عنه، فقال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (لا يا عمر، لعل الله اطلع على أهل بدر فقال: افعلوا ما شئتم فقد غفرت لكم)، جعل النبي -صلى الله عليه وسلم- فضيلة الوجود في غزوة بدر أن الله جلّ وعلا غفر له كل هذه الزلات حتى ولو كانت هذه الزلة.

الغرض المقصود لو لم يغفر له هذه الزلة، نقول لأنه من أهل بدر أيضاً لا يصح لك أن تقول أنه خان الله ورسوله أو أنه طُبع على الخيانة، لأن مناط الخيانة أو الوسم بالخيانة أو الصفة بالخيانة هو أكثر من مرة، هو تكرار ذلك كما قلنا في الكبيرة وغيرها، والفسق يكون باستقرار لا بمرة ولا بمرتين.

ثم الخلق الثاني الذي حذر منه النبي -صلى الله عليه وسلم-: (ليس الخيانة والكذب)؛ والكذب مهلكة كما أن الصدق منجاة، وإن الكاذبين عند ربهم جلَّ في علاه على مقت عظيم، قال الله تعالى عن المؤمنين عندما يروا الكاذبين: ﴿وَيَقُولُ ٱلْأَشْهَٰدُ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٨﴾﴾ [هود: ١٨]، ووجوههم يوم القيامة كما بيّن الله تأتي مسودة، فقد قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (كل غادر يُرفع له لواء ويقال: هذه غدرة فلان).

إن النبي -صلى الله عليه وسلم- قد بيّن للناس فحش الكذب، قال: (إن الصدق يهدي إلى البر وإن البر يهدي للجنة، ولا يزال المؤمن يصدق ويتحرّى الصدق حتى يكتب عند الله صدّيقاً، وإن الكذب يهدي إلى الفجور وإن الفجور يهدي إلى النار)، والذي يبيّن لكم

أنه على التكرار: (ولا يزال المرء يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذّاباً). وقد نزع الله الإيمان عن الكاذب ووسمه بالنفاق، حيث قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (آية المنافق ثلاث: إذا حدّث كذب)، وأيضاً قال: (أربع من كن فيه كان منافقاً خالصاً)، قال فيه: (وإذا حدّث كذب)، فإن المؤمن لا يكذب بحال من الأحوال.

إذا قلنا الكذب كله مهلكة والكذب محرّم شرعاً وهو من الكبائر، فإن الكذب كذبان: كذب على الله ورسوله، وكذب على الخلق.

أمّا الكذب على الله فأعظمه كما قلت أن يجعل لله نداً أو يبدّل في دين الله جلَّ في علاه أو يقول قد أوحي إليه ولم يوحى إليه شيء؛ كما قال مسيلمة الكذاب، كذب على الله وقال: قد أوحى الله لي وأرسل إليّ كما أرسل إلى محمد، حتى لمّا جاءه عمرو بن العاص فقال: أما ترى ما أنزل علي الليلة البارحة، كان نزل على رسول الله قول الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ ۝١﴾ [الفيل: ١]، فقال: أنزل عليّ مثله، استغفر الله هو ينسب لله هذا: يا ضفدع يا بنت ضفدعين... إلى هذه الكلمات الساقطة، فنظر إلى عمرو بن العاص فقال: ما تقول؟ قال: أشهِد الله أنك كذّاب، حتى على كفره عمرو بن العاص قال: أشهِد الله أنك كذاب، وأنه ليس بمرسل أو يوحى إليه. فهذا كذب على الله؛ أن يدّعي أنه قد أوحي إليه أو أرسل إليه أو أنه اختتم الرسالة مع النبي -صلى الله عليه وسلم-.

والكذب على رسول الله؛ هو أن يضع الأحاديث لرسول الله أو يضع الأحاديث على رسول الله كما قال الطبراني. والحديث الذي يرّهب المؤمنين من الكذب على رسول الله حيث يقول: (إن كذباً عليّ ليس ككذب على أي أحد، من كذب علي متعمداً فليتبوأ مقعده من النار)، وأيضاً بيّن النبي -صلى الله عليه وسلم-: (من روى حديثاً يُرى أنه كذب)، هو ما يعني يستيقن من كذبه ولا يعلم أنه قد وضع أن لم يوضع على النبي -صلى الله عليه وسلم-، قال: (فهو أحد الكاذبين)، فالكذب على الرسول أن يضع أحاديث عن النبي -صلى الله عليه وسلم-.

والكذب على الخلق أفحشه هو أن يكذب على الخلق بيمين ليقتطع مال امرئ مسلم، وهذا هو اليمين الغموس الذي يكذب فيها صاحبها ليقتطع مال المسلم. وأيضاً من الكذب؛ الكذب حتى يمدح أو يُضحك الناس، كما بيّن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: (من ترك الكذب ولو كان مازحاً، فأنا زعيمٌ ببيت في ربض الجنة)، وأيضاً (النبي -صلى الله عليه وسلم- دخل على امرأة قالت لابنها تعال أعطيك، فقال: تعطيه؟ قالت: نعم، قال: أما لو كنت لا تعطيه فقد كتبت عليك كذبة)، الكذب أيضاً يكون على الأطفال وعلى النساء وعلى الرجال. فهذه الكذبات لا تُقبل عند الله جلَّ في علاه، وخلق المسلم يأبى والصدق منجاه والكذب مهلكة.

مسائل ثلاث استثناها النبي -صلى الله عليه وسلم-: الكذب في الحروب، والكذب عند الإصلاح بين المتخاصمين، والكذب على الزوجة.

▪ الكذب في الحروب: وقد وردت عنه النبي -صلى الله عليه وسلم- قولاً وفعلاً، أستغفر الله ليست كذباً صريحاً ولكن كانت تنويهاً وتعريضاً وتلميحاً، لا كذباً، ممدوح عن الكذب.

أمّا قولاً فقد قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (الكذب ليس في ثلاث: في الحرب وفي الإصلاح بين الاثنين ومع الزوجة ليطيب خاطرها)، أو كما قال النبي -صلى الله عليه وسلم-.

أمّا فعلاً؛ لمّا سأل عن قريش: كم عددهم وأين هم الآن؟ فسأله الرجل: من أين أنتم؟ قال: (نحن من ماء). ولذلك العلماء قالوا التعريض ممدوحة عن الكذب، يعني أنت لو وضعت في مكان ستكذب وأبيح لك الكذب لك أن تعرّض أفضل من أن تكذب.

▪ الكذب على الزوجة: يدخل على امرأة يبغضها بغضه للشيطان، لكن يعلم أنه برضاه عليها وأن الله جلَّ وعلا يرضى بحسن عشرته معها وحسن (**) لها هي أيضاً له فتذهب إلى الجنة، يدخل يقول أحبك وما أرى في الدنيا غيرك، ويا ليتك تموتي لكن هذا في قلبه.

يعني هو أصلاً يكذب عليها بحبه لها وعاطفته له ذلك، والنبي النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: (ليطيب خاطرها)، وهل هذا على الإطلاق والعموم؟ نعم على الإطلاق وعلى العموم، له أن يكذب عليها.

▪ الكذب عند الصلح بين اثنين متخاصمين: لأن الله جلَّ وعلا قال: ﴿لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ﴾ [النساء: ١١٤]، والنبي -صلى الله عليه وسلم- يقول: (فساد ذات البين هي الحالقة، ولا أقول تحلق الشعر ولكن تحلق الدين)، فالإصلاح بين المتخاصمين من أفضل القربات ومن أصلح الطاعات.

يبقى لنا مسألة أخيرة في مسألة الكذب هذه؛ إن صح وأبيح الكذب في حالات هل للمرء أن يقسم على هذا الكذب أم لا؟ دخل رجل على امرأته بعد ما تعطر وتطيب وكان عند امرأته الثانية، فقالت له: أنت متزوج، قال: غير متزوج، قالت: والله لا أصدقك حتى تقسم بالله، فأقسم بالله أنه غير متزوج، هل يصح أم لا؟

أيضاً دخل رجل على رجل قال له: إن محمد يقول فيك كذا وكذا، وإن محمداً يقول فيك كذا وكذا ويمدح فيك، ومحمد يكون قد سبه ولعن أجداده أيضاً. فهو يقول له: لا هذا الرجل يبغضني، لا بد أن يكون سبني، لا ما مدحني. فيقول له: والله الذي لا إله إلّا هو قد مدحك، فيقسم على ذلك. هل يباح له أن يقسم على أمرٍ قد علم يقيناً أنه قد كذب فيه؟ هذه المسألة التي فيها المعترك الدامي بين العلماء.

الجماهير على أنه لا يجوز له أن يقسم بحال من الأحوال، لأنه يعلم أنه يقسم على يمين قد علم يقيناً أنه قد كذب فيها، فيدخل في اليمين الغموس أو في معنى اليمين الغموس بظاهر الأدلة. والصحيح الراجح ما رجحه ابن حزم، بل يجوز للمرء إن أبيح له المقصد وأبيحت له الوسيلة، له أن يقسم على ذلك لأن النبي -صلى الله عليه وسلم قد استثنى وقال الكذب هنا حلال، فإن أقسم على أمرٍ حلال ما أقسم على أمرٍ حرام. وهو يقسم

ويقصد بالقسم الصلح بين الاثنين، فقد أقسم على أمرٍ مباح، فيجوز له القسم على ذلك، وهذا هو قول ابن حزم وهذا الذي أميل له وأدين الله به.

الفوائد المستنبطة:

١- يجتمع في المؤمن الكفر والإيمان، والبر والفجور، والمعصية والطاعة. من أين هذا؟ (يطبع)؛ يطبع على كل شيء خير وشر، يطبع على البر والتقوى والصلاح وأيضاً يطبع على الفسق والفجور، ويقبل منه هذا ونقول يستطيع أن يتوب منه، إلّا إذا وقع في الخيانة والكذب يمكن أن يغلق الله عليه الباب، فإن الله قليلاً ما يوفّق الخائن والعياذ بالله. كما قلت (فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ)، لأن الله يبغض الخائن والعياذ بالله.

٢- الإيمان يزيد وينقص؛ عندنا أدلة كثيرة تثبت أن الإيمان يزيد وينقص، قال الله تعالى: ﴿وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ هُدًى﴾ [مريم: ٧٦]، وقال الله تعالى: ﴿لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ﴾ [الفتح: ٤]، وأيضاً في النقصان قال: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ﴾ [التوبة: ١٢٥]. من أين نستنبط هذه الفائدة العظيمة؟ قال: (يُطبع المؤمن) فشهد له بالإيمان، ثم قال: (إلّا الخيانة والكذب)، لأن الخيانة والكذب ستنزل من إيمانه وتنقص من إيمانه.

٣- الرد على القدرية والجبرية؛ هو أصالةً (يُطبع المؤمن على كل خلق) أو (على كل خلة) في رواية أخرى، (إلّا الخيانة والكذب)، هذا خبر يراد به الإنشاء، لكن في الشطر الثاني فقط وليس الشطر الأول، يعني يقول: إياكم والخيانة والكذب -هذا يراد به الإنشاء الآن-، إياكم وهذا الخلق الذليل، إياكم وهذه الصفات السيئة.

لو قلت "يطبع" فيها رد على القدرية، لأن القدرية قالوا إن الله لا يتحكم في أفعال العباد؛ فإذا قلت "يطبع" أي الله جلَّ وعلا هو الذي خلقه على ذلك، خلقه فإنه مفتّن، وهذا يعضدها أحاديث كثيرة أن المؤمن مفتّن له ذنب يأتيه، يرجع إلى هذا الذنب وبعد ذلك يؤوب ويتوب. أما قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (كل ابن آدم خطّاء، وخير

الخطّائين التوّابون)، وأيضاً خلق الله الناس بأسرهم في ظلمة، فإن الله جلَّ وعلا يتحكم في أفعال العباد، فهنا إذا قلنا "طبع" يعني خلق على ذلك.

والرد على الجبرية: (ليس الخيانة والكذب)؛ يعني يتخلّق بالخيانة والكذب ويجعلها طبعاً له بعد ذلك، يعني الله لم يطبعه عليها لكنه يعتاد الخيانة، يبقى خائناً يخون كل أحد من أولياء الله جلَّ في علاه، فإذا خان واعتاد على الخيانة جرت مجرى الطبع فيكون هذا من فعله، فإذاً كان له فعل. فهذا رد أيضاً على الجبرية الذين يقولون ألقاه في اليم مكتوف اليدين ثم قال إياك إياك أن تبتل بالماء، لأن الجبرية يقولون: العباد لا يفعلون شيئاً، الله جلَّ وعلا هو الخالق وهو الفاعل. فهنا نقول: لا، العبد هنا الآن هو الذي يجري خلف الخيانة حتى يتخلّق بها، بل تكون طبعاً له. والدلالة الثانية التي توضح لك ما قلناه بالرد على الجبرية، الرواية الأخيرة: (نعوذ بالله من طمع يهدي إلى طبع)، يعني يكون طبعاً بعد ذلك للإنسان، فيكتسب المرة بعد المرة حتى يصبح خلقاً له.

٤- يشترط العلم حتى تثبت الخيانة؛ لا يصح أن تقول لأحد فعل فعلة تراها أنها مخالفة للكتاب والسنة أو أبلغ بلاغاً عن أحد فتقول في هذه الحالة خيانة، حتى يعلم من والسنة أنه قد خان الله ورسوله. من أين نستنبط هذه الفائدة؟ يعني لا يحاسب المرء ولا يتصف ولا يوصف بالخيانة حتى يعلم أن هذا الفعل الذي يفعله خيانة لله ولرسوله. كيف أنه يشترط في الخائن أن يعلم أنه قد أتى بخيانة؟

لكن إن كان الفعل الذي فعل ويحسب أنه ليس بخيانة، لا يصح أن تقول له أنت خائن، ككثير من الناس الذين يعادون أهل الإسلام ويعادون المسلمين والملتزمين فقط لأنه في أذكارهم أن هؤلاء من المتشددين من الإرهابيين المتطرفين، فيهم وفيهم. هذا ما تستطيع أن تقول أنت عدو الله وعدو شرع الله، أنت تكون ظالم له. يمكن أن نقول عنده فكر مغلوط عنده أو علم مغلوط أو ناس عمّوا عليه. متى تقول أن هذا الرجل حقاً هو من أعداء الله أو من أولياء الله؟ عندما تقيم عليه الحجة وتزيل عنه الشبهة وتبين له أن دين

الله هو الذي يقول بذلك، فيبقى على ما هو عليه من العداوة الضارية بينه وبين أهل الإسلام أو بينه وبين أهل الالتزام، فتقول هذا هنا عدو الله بحق.

لا يمكن أن تسم وتصف أحد بالخيانة، حتى ولو فعل خيانة حتى يعلم أنه يخون، عندكم آية تثبت لكم ذلك، الآية تقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمۡ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ٢٧﴾ [الأنفال: ٢٧]، يعني تعلمون أنكم تخونون الله ورسوله. ولذلك قال أبو لبابة: علمت أنني قد فعلت كذا، ذكر الخيانة لمّا قال لهم بالذبح، علم أنه أفشى سراً لرسول الله -صلى الله عليه وسلم-.

من أين الفائدة؟ لا يكون طبعاً إلّا إذا كرر، وإذا كرر فقد أراد، لا يكرر المرء شيئاً إلّا إذا أراده وعلمه، فإن الإرادة لا بد لها من علم. أما قلنا حتى الأشاعرة لمّا أثبتوا لله العلم قالوا نثبت لله إرادة، لِمَ؟ قالوا: هذا الخلق لا يكون إلّا بإرادة، والإرادة لا بد أن يسبقها علم بالمراد. فنقول: صار طبعاً له، كرر فإذا كرر أراد وهذه الإرادة لا تكون إلّا عن علم، فنسأل الله أن يعافينا من الخيانة ومن الكذب.

باب ذكر الرضا بالقدر

عن عبد الله بن بريدة عن يحيى بن يعمر عن عبد الله قال: حدثني عمر قال: (بينما نحن مع رسول الله -صلى الله عليه وسلم- إذ جاء رجل هيئته هيئة مسافر وثيابه ثياب مقيم، فقال: يا رسول الله أدنو منك؟ فدنا حتى وضع يده على ركبته فقال: يا رسول الله ما الإيمان؟ قال: أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله وبالموت وبالبعث والجنة والنار والقدر كله، فإذا فعلت ذلك فقد آمنت، قال: نعم، قال: صدقت. قال: فلمّا ولّى قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: عليّ بالرجل، قال: فطلبوه فلم يجدوه، فقال: هذا جبريل -عليه السلام- جاء يعلمكم أمر دينكم).

وعن ابن عمر -رضي الله عنه- عن النبي -صلى الله عليه وسلم- نحوه: (وتؤمن بالقدر كله).

وعن عمار بن ياسر -رضي الله عنهما- قال: سمعت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يقول: (وأسألك الرضا بالقدر). وعنه -رضي الله عنه- عن النبي -صلى الله عليه وسلم- أنه كان يدعو: (وأسألك الرضا بالقدر).

هذا الباب عظيم جداً كما بيّنا، وقلنا أبواب القبر أبواب مهمة لا بد على الإنسان أن ينتبه لها وأن يفتح قلبه وعقله لفهمها، ثم التعبد بها لله جلَّ في علاه، أو التسليم التام لربنا جلَّ في علاه دون معارضات العقول لأن هذا الباب دحض مزلة، لأن باب القدر من لوازم ربوبية الله جلَّ في علاه، وهو سر من أسرار الله حجبه الله عن كل عبد، لا يعلمه ملك مقرّب ولا نبي مرسل. وكما قلت لا بد للإنسان ولا يستقيم إيمانه ولا يكتب عند الله في طائفة المسلمين حتى يؤمن بالقدر كله خيره وشره، كما بيّن النبي -صلى الله عليه وسلم- مفصّلاً هذا الإجمال. أقول ولا يستقيم إيمان عبد أيضاً بالقدر حتى يؤمن بالمراتب الأربعة التي بيّناها قبل ذلك.

الأدلة على أن الإيمان بالقدر ركن من أركان الإيمان، وأن العبد الذي لا يؤمن بالقدر لا يكون مؤمناً، ولا يكتب عند الله بالإيمان، ولا ينجو يوم القيامة النجاة التامة إلّا بأن يؤمن بالقدر؛ قول النبي -صلى الله عليه وسلم- عندما سئل: ما الإيمان؟ فدلل عن الإيمان أو أجاب عن الإيمان بأهم أركان الإيمان، ثم ذكر الأركان ومنها وأن تؤمن بالقدر خيره وشره. وفي الحديث الثاني؛ أن الرجل وهو يعلم ابنه على الإيمان بالقدر وسأله عن القدر، فقال: (أن تعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك وما أخطأك لم يكن ليصيبك)، ثم قال له: (فإن مت على غير ذلك كنت من أصحاب النار)، فهذه شريطة لقبول الإيمان هو أن يؤمن بالقدر. وابن عمر -رضي الله عنه وأرضاه- كما في الصحيح لمّا كلموه عن أناس يقولون إن الأمر أنف، لا يؤمنون بقدر الله جلَّ في علاه، قال: أبلغهم أني منهم بريء وهم مني براء، لو أنفقوا مثل جبل أحد ذهباً ما تُقبّل منهم. لِمَ؟ لأنهم خرجوا من الإيمان بعدم إيمانهم بالقدر.

فهذه أدلة تدلك على أن الإيمان بالقدر هو ركن من أركان الإيمان، وقد بيّنا أنه لا يستقيم إيمان عبد بالقدر حتى يؤمن بالمراتب الأربعة.

وقبل أن ندخل في صلب هذا الحديث العظيم وفيه جمل قوية جداً، منها قول: (أن تؤمن بالقدر خيره وشره)، ثم قال: (وحلوه ومره)، ما معنى الحلو والمر؟ والشر والخير؟ وأيضاً المسألة الثانية تعامل عبد الله مع القدر، ثم المسألة الثالثة في قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (شره وخيره)، هل في القدر شر؟ والجمع بينها وبين وقول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (وقني شر ما قضيت)، وقول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (والشر ليس إليك)، ثم بعد ذلك الفوائد المستنبطة.

بادئ ذي بدء المسألة الأولى قبل أن أدخل عليها، ما هي المراتب الأربعة التي لا يستقيم إيمان عبد بالقدر حتى يؤمن بهذه المراتب؟ علم فكتابة فإرادة فخلق؛ دون أن ندخل في التفصيل قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (أن تؤمن بالقدر كله)، هذا إجمال فسّره في

أحاديث وروايات أخرى قال: (أن تؤمن بالقدر كله خيره وشره، حلوه ومره). أمّا الخير والشر فهذه في العاقبة؛ تكون بالقربات والطاعات والأعمال الصالحات، يدخل بها المرء الجنات، هذا الخير. والشر يكون أيضاً في العاقبة، الويل والثبور لمن فجر ولم يبر، لمن عصى ولم يطع ربه جلَّ في علاه. (حلوه ومره)؛ المقصود به عند وقوع القدر، سواء كانت سراء أو كانت ضراء.

فإذاً الشر والخير ينظر فيها للمآل وللعاقبة، والحلو والمر ينظر فيها عند وقوع القدر. وأقول وهما متلازمان، يستلزم الخير والشر الحلو والمر، الخير من الطاعات والقربات يستلزم الحلاوة؛ إن العبد إذا عبد ربه جلَّ في علاه أو علم أنه لن يوفق للطاعة إلّا بالله جلَّ في علاه كما كان يقول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (اللهم لولا أنت ما اهتدينا ولا صمنا ولا صدقنا ولا صلينا)، وأيضاً قال الله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ﴾ [الأنبياء: ٧٣]، فالفضل كل الفضل الله جلَّ في علاه. وأنت تؤمن جازماً بذلك، ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾ [النحل: ٥٣]، فتعلم أن هذه القربات من الله وأن الله هو الذي يسّر لك هذه الطاعات ووفقك وسددك لتقيم هذه الطاعات، فتجد حلاوة الإيمان في قلبك إقراراً أولاً بربوبية الله جلَّ في علاه، وأيضاً نسبة النعمة لباريها سبحانه جلَّ في علاه، ثم التذلل لله بها كما سنبين، فهذا الخير.

فالخير يستلزم الحلاوة، (ذاق) التذوق من الحلاوة، (ذاق طعم الإيمان من رضي بالله رباً) يعني رضي عن أقدار الله جلَّ في علاه، (من رضي بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد -صلى الله عليه وسلم-نبياً ورسولاً). وأيضاً قول الله تعالى: ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾ [التغابن: ١١]؛ يعني يؤمن بقدر الله وأن ما نزل عليه من النعماء أو من السراء أو من الضراء من الله، (يَهْدِ قَلْبَهُ)، وهداية القلوب أن تستشعر حلاوة الإيمان، تشعر كأنك في جنة والناس ما دخلوا الجنة، تعلم أن الناس لو استشعروا بما شعرت أنت لفاز الناس بالسعادة التي في الدنيا قبل أن يصلوا إليها بها إلى الآخرة، فالخير يستلزم الحلاوة.

أيضاً الشرور سواء كانت في العاقبة من نار تلظى أو العقاب الأليم يستلزم المرارة؛ عند وقوع المصيبة إن العبد إذا تصبّر كانت مرارة الصبر يستشعر بها، وإن تسخط فمرارة ألم التسخط سيأتي عليه أيضاً، فمرارة في الحالتين، حتى ولو أتى شهوته بعد الشهوة يستشعر بهذا الألم، وهذا أيضاً يستلزم العذاب الشديد يوم القيامة، لأنه إمّا يتسخط على أقدار الله وإمّا ألّا يرضى بأقدار الله جلَّ في علاه وإمّا يكفر بالله كليةً. ففي الحالات كلها المرارة في الدنيا عدم راحة البال وعدم راحة القلب، ثم بعد ذلك العذاب الشديد عند الله جلَّ في علاه.

وأقول: وفي كلٍ خير، كما قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (في خيره وشره) خير، (وفي حلوه ومره) خير، وفي كلٍ خير، ثم أقول: وفي كلٍ شر. أنا جمعت بين النقيضين، مع أن العقل يقول لا يجمع بين النقيضين، ومع ذلك أنا أجمع من النقيضين أقول: وفي كلٍ خير، وفي كل شر. كيف؟ وفي كلٍ خير للمؤمن فقط، وفي كلٍ شر للعبد الفاسق الفاجر الكافر، لِمَ؟ لأن النبي صلى الله عليه وسلم-[1] قال كما في الصحيح: (عجباً لأمر المؤمن إن أمره كله له خير، إن أصابته سراء شكر وهذا له خير، وإن أصابته ضراء صبر وهذا له خير). إذاً في كلٍ خير للمؤمن لأنه لمّا تتنزل عنده النعائم فينسبها لباريها ويعلم أنها من الله جلَّ في علاه وهذا له خير، ويشكر كما سنبين التعامل مع القدر وأقدار الله جلَّ في علاه. وفي كلٍ خير أيضاً له إذا نزلت عليه البلايا والمصائب، قال: الحمد لله لم تكن أكبر من ذلك وإن ربي أرحم عليّ من أمي، وركن إلى ربه جلَّ في علاه فأصبح في ذلك أيضاً الخير له.

وفي كلٍ شر للعبد الفاجر الفاسق أو للعبد الكافر الذي كفر بربه جلَّ في علاه، لأنه لمّا تتنزل عليه الرحمات من الله جلَّ في علاه ينسبها لنفسه ولا ينسبها لله جلَّ في علاه، كقارون عندما قال: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِيٓ﴾ [القصص: ٧٨]، وصاحب الجنة قال: ﴿وَلَئِن

(١) أخرجه أحمد (٢٣٩٣٠) مطولاً باختلاف يسير، وأخرجه مسلم (٢٩٩٩) بنحوه والالباني في السلسلة الصحيحة (١٤٧).

رُدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا﴾ [الكهف: ٣٦]، حتى لمّا رفع عنه الله الشرور والآثام ما شكر ربه، ماذا قال؟ قال: ﴿ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّيٓ﴾ [هود: ١٠]، يعني حتى لم يشكر ربه جلَّ في علاه، ففي كلٍ شر. ولمّا تنزل عليه البلايا كثرة، يبدأ يقول ما في الدنيا أحد مظلوم إلّا هو، الله جلَّ وعلا لم يقدّر المصائب إلّا عليه هو، وتراه يتسخط على أقدار الله جلَّ في علاه.

ففي كلٍ خير وأيضاً في كلٍ شر؛ في كلٍ خير للمؤمن، وفي كلٍ شر للعبد الفاجر والعياذ بالله.

إذاً الإيمان بالقدر ركن من أركان الإيمان، فلا يقبل إيمان عبد إلّا به، فكيف يتعبد المرء تجاه أقدار الله؟ أو نقول كيف يتعامل العبد مع أقدار الله؟ أقول: قد قسّم النبي -صلى الله عليه وسلم- أقدار ربه جلَّ في علاه على قسمين: قسم خير وقسم شر، وفي كلٍ عبادة. فكيف يتعبد العبد لربه جلَّ في علاه في أقدار الخير؟

▪ أولاً شكر النعمة، شكر القدر، أن يشكر ربه جلَّ في علاه إن رزقه الله برزق أو مرأة صالحة أو طاعة أو علم ينتفع به أو غير ذلك من أرزاق الله جلَّ في علاه السابغة التي تنزل تتراً على العباد ليل نهار. فعلى العبد أن يتعبد بهذا القدر أولاً يشكر نعمة الله جلَ في علاه، وهذا الشكر أولاً ينسب النعمة لباريها حتى لا يكون جاحداً، لا يكون كافراً بنعمة الله جلَّ في علاه، يقول: كل الخير من ربي جلَّ في علاه، فينسب النعمة لباريها جلَّ في علاه ويقول قول الله تعالى: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾ [النحل: ٥٣]، ويتذكر آنذاك قول النبي -صلى الله عليه وسلم- في الحديث القدسي يرويه عن ربه جلَّ في علاه: (يا عبادي كلكم ضال إلّا من أهديته، فاستهدوني أهدكم)، ويتذكر في ذلك أيضاً: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾﴾ [النحل: ٧٨].

فعليك أن تشكر ربك، هذه أول معاملة القدر أن تتعبد لله بالشكر؛ والشكر أولاً ذكر باللسان، أو نقول تثبت النعمة لباريها بلسان المقال ولسان الحال، أمّا بلسان المقال فتقول

قول الله تعالى: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴿١١﴾﴾ [الضحى: ١١]، فتحدّث أن الله أنعم عليّ وأسبغ نعائمه عليّ؛ كنت فقيراً فأغناني، كنت جاهلاً فعلّمني، كنت عزباً فزوجني، كنت وكنت وكنت، وتذكر للناس وتعدد نعائم ربك عليك، تشكر ربك في ذلك. لا تجحد بنعائم ربك جلَّ في علاه، وهذا بلسان المقال.

أمّا بلسان الحال؛ كما قال النبي -صلى الله عليه وسلم-[1]: (إن الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده)، فهذا أيضاً شكر لنعائم الله بلسان الحال، هذا الأول باللسان.

▪ ثم بالقلب أو القلب قبل اللسان، نحن لا نرتب. القلب أولاً؛ والقلب أن تجزم وتقر في قلبك إقراراً جازماً أن النعمة من الله جلَّ في علاه، وأن الله هو الذي يرحم عبده، وأن الله جلَّ في علاه أقرب ما يكون العبد ويسارع للعبد في الخيرات، وإن العبد إذا تاب تاب الله عليه، وإن العبد إذا سأل أعطي، وإن العبد إذا تذلل رفعه الله جلَّ في علاه، (من تواضع لله هكذا، رفعه الله هكذا). فإذا أقرّ العبد في قلبه ذلك وكشف الله عن قلبه فرآه أنه يقر بأن النعمة ليست إلّا من الله جلَّ في علاه، زاده الله على هذه النعائم كما سنبيّن، هذه الثانية.

▪ الثالثة بالجوارح؛ أن تستخدم هذه النعيم في رضا الله جلَّ في علاه. أبيّن أولاً بالدليل أن الشكر لا يتم ولا يكون عند ربنا جلَّ في علاه إلّا بالثلاثة: بالقلب واللسان والجوارح. أمّا باللسان وبالقلب بيّنا، أمّا في الجوارح فقد قال الله تعالى: ﴿ٱعۡمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكۡرٗاۚ﴾ [سبأ: ١٣]، فإذاً العمل يبيّن أنك تشكر الله جلَّ في علاه، فعملك يكون شكراً لله جلَّ في علاه.

بيّنا أنه ركن من أركان الشكر أن تشكر بالجوارح كما تشكر بالقلب كما تشكر باللسان، كيف يشكر العبد ربه على أقداره "أقدار الخير" بجوارحه؟ إذا كانت الحواس هذه كلها

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٨١٩) واللفظ له، والحاكم (٧١٨٨)، والبيهقي في ((شعب الإيمان)) (٦١٩٦) مطولاً) وابن مفلح في الآداب الشرعية (٣/ ٥١٨) والالباني في صحيح الترمذي (٢٨١٩).

نعائم؛ لسان وعين بصر وسمع، وأيضاً هذه الجوارح، قوة البدن كل ذلك تسخيراً لعبادة الله، كيف ذلك؟ ألّا يسمع وألّا يبصر وألّا ينظر وألّا يتكلم إلّا بما يرضي الله، ولذلك سأل الناس بعض الحكماء: كيف أعرف مكانتي عند ربي؟ قال: إذا أردت أن تعرف كيف مقامك فانظر أين أقامك؛ فإن أقامك على طاعته، إن أقامك على مجالس العلم، إن أقامك على نشر العلم، إن أقامك على الصدقات، إن أقامك على تلاوة القرآن، إن أقامك على سماع دروس العلم والقرآن، إذا أقامك على أنك لا تبصر إلّا في القرآن وفي الحديث، فهذا مقامك عند ربك جلَّ في علاه. أمّا إن كانت الأخرى، نعوذ بالله من الخذلان.

إذاً الشكر: شكر لسان وشكر قلب وشكر الجوارح، وهذه عبادة مقابل أقدار الله التي هي خير. والمكافأة أنك إن شكرت مع الشكر الزيادة، قال الله تعالى: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم: ٧]، تستجلب من الله الخير. أما علمت أن يعقوب -عليه السلام- عندما شفاه الله جلَّ في علاه نزل عليه جراد من الذهب، ماذا حدث؟ أخذ يحذف الذهب، فأوحى إليه: ألم أكن قد أغنيتك؟ قال: لا غنى لي عن بركتك. هذا هو الفقه التعامل مع الله، إن خزائن الله لا تنفذ أبداً، فاطمع في الكريم واشكر تزدد، فكلما شكرت كلما ازدادت النعائم. ولذلك في بعض الإسرائيليات لا تصدق ولا تكذب؛ أن داوود قال: يا ربي كيف أشكرك والشكر نعمة منك؟ قال: الآن شكرتني، وهذه زيادة لأنه يشكر بعدما شكر بلسانه أوزع الله في قلبه أن هذا الشكر باللسان نعمة من الله، فأصبحت النعائم المتجددة من الله جلَّ في علاه، فأصبح الحب أقوى وأكثر وأعلى لله جلَّ في علاه.

هذا بالنسبة لقدر الخير، فكيف يتعبد المرء لقدر الشر؟ وهذا كله تفسير لقوله -صلى الله عليه وسلم-: (بالقدر كله)، يعني خيره وشره حلوه ومره.

القدر الشر؛ أقول للمرء عبادة تجاه قدر الله الذي ظاهره على العبد أنه شر، هذا الظاهر فقط وإلّا ففي باطنه الخير كل الخير. الغرض المقصود نقول: أقدار الشرور أو المقضي الشر حتى نثبت الكلام الصحيح، لأن ليس في قدر الله شر. في المقضي شرور، فالمقضي نوعان:

شر يمكن دفعه، وشر لا يمكن دفعه.

- أمّا الأول: قدر شره يمكن دفعه، تدفع القدر بالقدر، هذه العبادة التي لا بد أن تتعبد بها وإن لم تفعل فأنت آثم، تدفع قدر الله بقدر الله، كيف؟ إن توقعت بلاءً فادفع البلاء، قدر الله سينفذ نعم، لكن تدفعه كيف؟ يدفع بالدعاء، يعتلجان الدعاء إن كان أقوى يرفع البلاء، قدر البلاء تدفعه بقدر الدعاء، الجوع والعطش تدفعه بالطعام والشراب، قدر الجهل تدفعه بقدر العلم.

هذه التي تتعبد بها لربك جلَّ في علاه وهو دفع القدر بالقدر، وهذا فقه لا يصل إليه أي أحد، لأنك ستفر من الجبرية وتفر من القدرية، وتعبد الله لا تضرب القدر بالشرع، تقول أقدار الله حالتان: الحالة الأولى قدر يدفع؛ المرض يدفع بالتداوي، قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (تداووا عباد الله، ولا تداووا بحرام)، والتداوي هذا أمر من النبي -صلى الله عليه وسلم- وإن كان أمر استحباب، لكن هو أمر من النبي -صلى الله عليه وسلم- لتدفع قدر المرض بقدر التداوي، وفي كلٍ خير لأن الله جلَّ في علاه جعل لك في باطن ذلك الخير كما سنبيّن.

- الثاني: قدر شر لا يمكن دفعه، الذي هو المقضي، مقضي فيه شر؛ مصيبة الموت لا أحد يستطيع أن يدفعه بحال من الأحوال، هذا ليس عليك عبادة إلّا الرضا، فإن لم تستطع فانزل مرتبة إلى الصبر، وهذا الواجب، هذا المجزئ حتى لا يتسخط عليك ربك ولا يغضب عليك ربك. إذا نزلت المصيبة فاتجاه هذه المصيبة أن ترضى، فإن لم تستطع فعليك بالصبر، كما قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (إن أحب الله قوماً ابتلاهم، فمن رضي فله الرضا ومن سخط فعليه السخط).

وأيضاً المرأة -كما في الصحيح- التي كانت تتكشف ويأتيها الجن يؤذيها، فكانت تتكشف وذهبت للنبي -صلى الله عليه وسلم- تقول: ادعُ الله لي أن يكشف عني هذا البلاء، فقال لها -عليه الصلاة والسلام-: (لو شئتِ صبرتِ)، وهذا البلاء من النوعين،

يعني هذا قدر يمكن دفعه لأنها اتخذت سبباً صحيحاً، ذهبت للنبي -صلى الله عليه وسلم- ليدفع هذا القدر بقدر الدعاء، والنبي -صلى الله عليه وسلم- يوجهها توجيه أولى منه وأفضل قال: (إن شئتِ صبرتِ ولكِ الجنة، وإن شئتِ دعوت لكِ)، فالمرأة كانت فقيهة، قالت: بهذا الصرع فقط يكون الجنة، قالت: لا الجنة، الصبر، ثم قالت: ادعُ الله لي ألّا أتكشف، فالغرض المقصود أن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال لها: (اصبري).

ولمّا مر النبي -صلى الله عليه وسلم- على امرأة تبكي على ولدها وتنعى ولدها، قال لها: (يا أمة الله اتقي الله واصبري)، هذه هي الدرجة. إذاً القدر الذي ينزل لا يمكن دفعه فعلى المرء الرضا، فإن لم يستطع فعليه أن يصبر على هذا القدر وله الجزاء الوفير، هذا بالنسبة لتعامل العبد مع القدر.

سؤال هنا: كيف نجمع بين قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (تؤمن بالقدر كله خيره وشره، حلوه ومره)؟ فقد أثبت النبي في القدر شر، فالسؤال هنا هل في أقدار الله من شر؟ الجواب: نعم، لأن الدليل جاءنا. نقول: إذا قلنا نعم فلا بد أن نوجه بأن النبي -صلى الله عليه وسلم- يقول: (والشر ليس إليك)، وإبراهيم -عليه السلام- يقول: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ۝٨٠﴾ [الشعراء: ٨٠]، لو كان المرض من الله لقال: وإذا أمرضني جلَّ في علاه، فهذا ينجب لنا إشكال لا بد من حله. أثبت في هذا الحديث أن فيه شر، قال: (خيره وشره)، وفي الحديث الثاني قال: (والشر ليس إليك)، في الآية قال: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ۝٨٠﴾ [الشعراء: ٨٠]، فالشر لا ينسب إلى الله جلَّ في علاه فكيف نوجه هذا التوجيه؟

التوجيه في ذلك أن نقول إن أقدار الله: قضاء ومقضي؛

والقضاء أو القدر من فعل الله، وأفعال الله كلها كمالات لأن الله له الأسماء الحسنى والصفات العلى، الكمال كله لله، الجمال كله لله، الجلال كله لله فكل أفعال الله على الكمال. فإذاً القدر الذي هو أفعال الله، كله خير، وكله كمال. والمقضي هي المفعولات.

ففعل الله كله خير لأنه ينسب لله جلَّ في علاه الذي له الكمال المطلق وله الجلال المطلق

والجمال المطلق، المقضي وهي المفعولات فيها الشرور وفيها الخير. فيها الشرور؟ نعم فيها شرور؛ الله جلَّ وعلا خلق الشيطان وخلق المعاصي وخلق الزنا، كل هذا مخلوق لله جلَّ في علاه، ينسب لله خلقاً إيجاداً وينسب للعبد فعلاً واكتساباً.

في المقضي وفي المفعولات شرور؟ نعم في المقضي والمفعولات شرور، والواقع يثبت ذلك والأدلة كما سردناها. يبقى لنا أن نبيّن بأن حتى هذه الشرور لم تكن شراً محضاً، إن الله لم يخلق شراً محضاً بحال من الأحوال. خلق الله شراً؟ نعم، في المخلوق شر والدلالة على ذلك قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (وقني شر ما قضيت)، وقال الله تعالى مبيناً لنا كيف نتعبد له بالاستعاذة من الحسد ومن غيره: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ۝١ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ۝٢﴾ [الفلق: ١ - ٢]، ما قال: من شر فعله -حاشا لله-، من شر قدري -حاشا لله-. قال: ﴿مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ۝٢﴾؛ من شر المخلوق، يعني هنا الشر نسب للعقرب، نسب للحية، نسب لفعل الإنسان. فالشر نسب للإنس والجن، فقال: ﴿مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ۝٢﴾، فهذا النسبة نسبة الشر للمخلوق، للمقضي، للمفعول، وليس لفعل الله جلَّ في علاه.

ونقول حتى في ذلك لم يخلق الله شراً محضاً، بل هو شر من وجه وخير من أوجه، أو خير من وجه وشر من وجه؛ حتى الشيطان ملئ شراً، الشيطان يوسوس ويغوي ويورث العداوة وينفث في عباد الله جلَّ في علاه حسد وحقد وقتل وزنا وشرك بالله جلَّ في علاه، هذا المطلوب من الشيطان، فكله شرور. نقول وجود الشيطان في الدنيا فيه خير، والخير الذي تعرفه من وجود الشيطان هو التمايز؛ لن يتميز عبدٌ مصلح وعبدٌ مفسد إلّا بوجود الشيطان، لأن الشيطان سيأتي للعبد يوسوس له أن يزني، أن يكذب، أن يسرق، أن يفعل الفاحشة، فإن العبد الصالح يتجنب ويقول: نهاني ربي، أمّا العبد الفاسق سيهجم على هذه المعاصي دون روية وسيتجرأ على حدود الله جلَّ في علاه.

وتمييز الخبيث من الطيب هذه من عدل الله جلَّ في علاه ومن حكمة الله جلَّ في علاه، قال الله تعالى: ﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ۝٢٨﴾ [ص: ٢٨]، أبداً لا ينزل الأبرار منزلة الفجار،

لا والله، من عدل الله أنه لا يسوّي بين المختلفين ويفرِّق بين المختلفين، ويسوّي بين المتماثلين. فوجود الشيطان مع أنه ابتلاء ومع أنه محنة، فيه الخير الكثير للتمييز بين الخبيث والطيب.

وأيضاً الشرور الأخرى مثل البلايا والمصائب التي تنزل على المرء تتراً هذه كلها خير، وإن ظهرت العبد شر؛ إن مات أبوه، مات أخوه، سُرِق ماله، إن حدث له ما حدث من البلايا والمعاصي هذا في باطنه الخير، ليعلم العبد أن الله والله يدركه برحمته، وأن الله جلَّ في علاه أرحم عليه من أمه ونفسه عندما يبتليه. أما رأيت الطبيب عندما يعطي المريض الدواء المر، يعطيه الدواء المر ليقتله؟ لأنه يقول هذا سبب الشفاء. ترى العصا والسوط معلّقة، يدخل التلميذ ويجد المدرس يعلّق السوط والعصا في الفصل ليقتل التلاميذ وليهين التلاميذ ويهين كرامتهم صحيح؟ لا والله يفعل ذلك ليرتفعوا ولينتبهوا وليذاكروا وليختبروا، وعند الاختبار تظهر الكرامة فيرتقوا.

نفس الأمر؛ إن الله يبتلي العبد رحمةً من الله بالعبد، ليقف نقياً ذهباً خالصاً أمام الله جلَّ في علاه، فإنه يبتليه لأمرين:

- إن كان صالحاً فإن هذا البلاء يرفع بالدرجات، عمله لا يصل به إلى هذه الدرجة فيبتليه فيرفعه بهذه البلايا.

- أو رجل كان صالحاً وقلبه فيه نقاوة، قلبه فيه صدق وإخلاص مع الله، فيبتليه الله جلَّ وعلا، يُنزل عليه البلاء صباً، يخسر مالاً، يخسر بناتاً، يخسر ولداً، يخسر أباً، يخسر أماً، ينزل عليه البلاء صبا لينقيه، ليبقى ذهباً عنده يوم القيامة. وإليكم الأدلة على ذلك[1]؛ أما قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (ما يصيب المرء من همٍ ولا غمٍ ولا نصبٍ ولا وصبٍ، حتى الشوكة يشاكها إلّا كانت كفارو له)، والنبي -صلى الله عليه وسلم- مرض مرضاً شديداً فدخل عليه ابن مسعود فقال: (يا رسول الله مالي أراك توعك وعكاً شديداً؟ فقال

(١) أخرجه البخاري (٥٦٤٢) واللفظ له، ومسلم (٢٥٧٣) والالباني في صحيح الجامع (٥٧٨٢).

النبي -صلى الله عليه وسلم-: إني أوعك وعك رجلين، فقال ابن مسعود: ذلك لأنك لك أجر رجلين، قال: نعم).

ولذلك بيّن النبي -صلى الله عليه وسلم- أن البلاء ينزل صباً على العبد المؤمن، وكلما ازداد الإيمان كلما ازداد البلاء، حتى يقف أمام ربه جلَّ في علاه خالصاً مخلّصاً، يوم القيامة لا يحاسب على معصية. انظروا إلى هذه البلايا كلها خير للعبد لو علم العبد ذلك، فإن جهل فعليه أن يصبر ويسكت حتى لا يضيع أمام ربه جلَّ في علاه.

هذا السؤال جوابه: الشر ليس في أفعال الله بل الشر في مفعولات الله، الشر ليس في قدر الله الشر في المقضي. (من شر ما قضيت)، (مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ)، نسبت الشرور إلى المخلوقات، هذا هو الجواب. والجمع بين الاثنين أن نقول: أمّا قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (من شر ما قضيت)، وقوله: (والشر ليس إليك) يثبت أن شرور في المقضي وليس في أفعال الله جلَّ في علاه، وأمّا قول إبراهيم -عليه السلام-: (وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ) هذا أدب من إبراهيم مع ربه جلَّ في علاه؛ حتى وإن كانت الشرور في المفعولات فإنه يتأدب مع ربه ولا يصرّح بأن الله هو الذي أمرض وأن الله هو الذي ابتلى أو أصاب، هذا من حسن الأدب مع ربنا جلَّ في علاه. هذا آخر ما يمكن أن يتكلم فيه في هذه المسألة فقط في قوله -صلى الله عليه وسلم-: (تؤمن بالقدر خيره وشره، حلوه ومره).

الفوائد المستنبطة:

١- ذكر خاص بعد العام لا يكون إلّا للتوكيد، توكيداً تاماً، لأمرٍ مؤكد؛ مثلاً الله جلَّ وعلا قال: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ﴾ [آل عمران: ١٤]، فمتاع الدنيا فيها الخير والرزق والمال والبنون والنساء. قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (اتقوا الدنيا واتقوا النساء، فإن أول فتنة بني إسرائيل كانت في نسائهم)، هنا ذكر النبي -صلى الله عليه وسلم- النساء خاص بعدما ذكر العام، وكما قال علماؤنا ذكر الخاص بعد

العام للتوكيد، وهذا الحديث عظيم جداً فيه ذكر خاص بعد عام للتوكيد.

من أين أتت هذه الفائدة؟ (القدر كله) هذا إجمال، ثم فسّر "كله" قال: (خيره وشره، حلوه ومره). أن تؤمن بالله، والإيمان بالله يتضمن إيمان بالله، بإلهية الله، الإيمان بالأسماء الحسنى والصفات العلى، الإيمان بربوبية الله، ومن لوازم الربوبية القدر، أليس الخلق وأفعال الله من لوازم الربوبية؟ إذاً لمّا يقول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (أن تؤمن بالله) بإلهية الله وبربوبية الله، ثم ذكر خاص من الربوبية (وتؤمن بالقدر خيره وشره)، فذكر الخاص بعد العام كأنه يقول: وأؤكد عليكم من الإيمان بالله أن تؤمن بأفعال الله، بقدر الله جلَّ في علاه.

٢- الحكم الذي يتعلق على شروط لا يتوفر إلّا بشروطه، أو نقول الجمل المتعاطفة التي يعقبها حكم لا يكون الحكم ولا يظهر إلّا بعد وجود هذه الجمل المتعاطفة كلها؛ لا يمكن أن تكون مؤمناً بالقدر عندما تؤمن به في الحلوة ولا تؤمن به في المرة، ولا تكون مؤمناً بالقدر عندما تؤمن به في الخير ولا تؤمن به في الشر.

من وجهة أخرى؛ قال النبي -صلى الله عليه وسلم- في آخر الحديث: (فإذا فعلت ذلك فقد)، إذاً ما حكمنا عليك بالإيمان إلّا بكل المتعاطفات: أن تؤمن بالله وبالملائكة. يعني من قال: آمنت بالله وبالقدر وبالبعث وبالحياة وبالموت ولم أؤمن بالملائكة، تقول له: ما آمنت. آمن بالله والملائكة والكتب وآمن بالبعث والقدر، ولم يؤمن برسول، آمن بكل الرسل إلّا محمد، ليس بمؤمن لأنه قال: (ورسله) يعني كل الرسل. قال: (فإذا فعلت ذلك فقد آمنت).

٣- أعطى الله القدرة للملائكة على تحويل صورتهم من الصورة الملائكية إلى الصورة البشرية، وهذا فارق بين الجن والملائكة؛ الجن لهم ذلك هذه القدرة أيضاً، فإن الجن يمكن أن يتمثل في بني البشر، يتمثل إنساناً. لكن الفارق بين الملك وبين الجن: الجن إن أصيب على صورة الإنسان لا يستطيع أن يرجع بعد ذلك على صورته الجنية، يعني لو قتل ما

يستطيع أن يرجع، لو حدث عور لعينيه ما يستطيع أن يرد ذلك في الصورة الجنية.

أمّا الملك له ذلك، والدلالة على ذلك بحديث جبريل -عليه السلام-، أن النبي -صلى الله عليه وسلم- بيّن أن الوحي يأتيه على مراحل ثلاثة، ثم بيّن أخف هذه الأحوال أن يأتينه الملك على صورة رجل، وكان جبريل -عليه السلام- أشبه ما يكون بدحية الكلبي. وقد دخل الملك بين الصحابة وجلس بين أيديهم وجلس أسند ركبتيه إلى ركبتي النبي -صلى الله عليه وسلم- وتحدث مع النبي -صلى الله عليه وسلم- سؤالاً وجواباً. فالملك يستطيع أن يتحول إلى صورة بشرية، وإذا حدث له شيء في صورة البشرية يستطيع أن يردها إذا تحول إلى الصورة الملكية. والدليل على ذلك أيضاً حادثة موسى -عليه السلام-، عندما دخل له ملك الموت فلطمه ففقأ عينه، الرواية قالت: (فرد الله عليه عينه)، فرد الله عليه عينه بفعل الله أو بأن الله أقدر الملائكة على أن يردوا في حالة صورتهم الملكية.

وهذه فائدة تعرف بأن الملائكة يمكن أن تكون كالبشر، ولذلك لك أن تتصور أن الملائكة كانت تسير في الأراضي بجانب صحابة رسول الله. أمّا الآن الشياطين تفر منا تقول هؤلاء سيعلمون الشرور، يبعدون عنا، فيغفر الله لنا. الملائكة كانت تسير بجانب الصحابة وتسلم عليهم، قال عمران بن حصين: ما زلت أرى الملائكة يسلمون عليّ حتى استويت، فلمّا استويت كفت الملائكة بالسلام عليّ فتبت إلى الله ورجعت (لأن هذا فيه نوع من قطع في التوكل)، فرجعت الملائكة تسلم عليّ. وأيضاً الصاحب الجليل عندما كان يقرأ القرآن جاءت ظله تظلله من النور، بيّن النبي -صلى الله عليه وسلم- أن هؤلاء الملائكة جاءوا يصحبون هؤلاء الأخيار.

النبي -صلى الله عليه وسلم- كان جالساً في مكان، وأبو بكر جالس، وأبو بكر يشتم ويشتم والملك يرده، فأبو بكر اشتد على الرجل الذي شتمه، فقام النبي -صلى الله عليه وسلم- فلمّا سأله قال: الملك كان موجوداً يرد لك. لكن لو كانت مظلمة؛ لمّا قال عروة للنبي -صلى الله عليه وسلم-: ما أرى حولك إلّا أوباشاً من الناس، أو قال: أشواباً من

الناس يفرون عنك، ماذا حدث؟ قال أبو بكر: امصص بظر اللات، ولم يقم النبي -صلى الله عليه وسلم- ولم يعاتب أبا بكر لأنه ﴿فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَٱعۡتَدُواْ عَلَيۡهِ بِمِثۡلِ مَا ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡۚ﴾ [البقرة: ١٩٤].

والغرض المقصود أن الملائكة هي مصاحبة للبشر، تسير معهم، تنافح عنهم، تسددهم وتنصحهم، خير صديق لك هو الملك قبل البشر. والدلالة على ذلك سليمان -عليه السلام- عندما قال: لأطوفن الليلة بتسعة وتسعين امرأة، تلد كل امرأة رجلاً يجاهد في سبيل الله. فجاء الملك الصديق الذي يرشد إلى الخيرات فقال له: قل إن شاء الله، يبيّن له إذا أردت ذلك سيأتيك، لكن قل إن شاء الله. يعضده الملك ويرشده ويبين له الخير، قل إن شاء الله، فلمّا لم يقل ما حدث ذلك. ولذلك النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: (ولو قال لكان دركاً له). هذه فائدة هذه الصورة، أن الملك يأتي ويمشي بين الصحابة ويسلم على الصحابة، بل ويرفق بالصحابة ويعلمهم ما جهلوا حتى يعبدوا ربهم على بصيرة.

٤- التعليم له كيفيات وله أساليب، ومن أفضل أساليبه السؤال والجواب، والدلالة على ذلك فعل جبريل، جاء جبريل يسأل. من أين نستنبط هذه الفائدة؟ أولاً اللفظ الذي استنبطنا منه هذه الفائدة: (هذا جبريل أتاكم يعلمكم أمر دينكم)، فسمّاه تعليماً، فكان بالسؤال والجواب: (يا محمد) مع أنه عالم. ولذلك عمر بن الخطاب يقول: تعجبنا من هذا الرجل، يسأل ويصدّق بعد ذلك، يقول: يا محمد ما الإسلام؟ الإسلام أن تشهد أن لا إله إلّا الله.... إلى آخره، فيقول: صدقت. فتعجبوا، صدقت؟!! أنت سائل لتتعلم!! لا، هو سأل ليعلم الآخرين.

فالتعليم بالسؤال والجواب هو من أفضل أنواع التعليم، كما كان النبي -صلى الله عليه وسلم-يفعل مع أصحابه ويقول: (نخلة تشبه ابن آدم)، فقام الصحابة كلٌ منهم يضرب حتى يحزر النبي -صلى الله عليه وسلم- عقولهم، فما أتى بها إلّا ابن عمر في نفسه وما استطاع أن يجيب، حتى أجاب النبي -صلى الله عليه وسلم-.

٥- الرد على بعض الطوائف من المعتزلة؛ يثبتون الخير فقط، يقولون الخير من الله لكن المعاصي من العبد والشرور من العبد، وهي جلية واضحة ظهرت في بعض أصحاب النبي -صلى الله عليه وسلم- لكنهم كانوا على نفاق، عندما قال الله تعالى حاكياً مجليّاً لنا أوصافهم: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَٰذِهِ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَٰذِهِ مِنْ عِندِكَ﴾ [النساء: ٧٨]، فرد الله عليهم: ﴿قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللَّهِ فَمَالِ هَٰؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴿٧٨﴾﴾ [النساء: ٧٨]. كله من عند الله الخير والشر، لكن له أسباب وليس هذا مجاله، هذا فيه رد عليهم لأن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: (خيره وشره).

٦- إذا انفردا اجتمعا، وإذا اجتمعا افترقا؛ سأله عن الإسلام ففرّق وجعله الأعمال الظاهرة، وسأله عن الإيمان ففرّق وبيّن أنه الأعمال الباطنة، وقال: (جاء يعلمكم أمر دينكم)، وسأله عن الإحسان فعلمنا أن الدين مراتب، وهذه المراتب: إحسان وإيمان وإسلام. فلمّا ذكرا معاً فرق بينهما، وفي الآيات الأحاديث الأخرى التي بيّناها لمّا افترقا دخل الأول تحت الثاني والثاني تحت الأول.

٧- آداب طالب العلم مع معلمه، فإن بركة العلم لا تأتي بثمارها إلّا إذا تأدب الطالب مع معلمه، من أين نأخذ هذه الفائدة من الحديث؟ قال: (يا رسول الله أدنو منك؟)، استأذن أن أدنو منك، من الأدب هنا الاستئذان من القرب من المعلم، والاستئذان أدب. بنفس النص الذي نستلم منه أدباً عالياً راقياً: (يا رسول الله)، لقّبه ما قال: يا محمد، بلقب عظيم قال: (يا رسول الله أدنو منك؟)؛ لقّبه أولاً ثم تأدب مرة ثانية يستأذن. وأبلغ من ذلك في نفس الحيز: (أسند ركبتيه إلى ركبتيه)، دل ذلك على أن وضعية الجلوس على الركبتين هذا من الأدب، هذا أدب في البداية، يعني يتأدب به المرء في البداية كأنها تدل على وقار وأيضاً ذلة واستحياء المتعلم ليخضع لمعلمه، ثم بعد ذلك يبدّل جلسته. لكن الجلسة الصحيحة أدباً أولاً أن يجلس على ركبتيه، ثم يبدّل كيفما شاء.

ووضع أيضاً يديه على ركبة النبي، هذا من تمام الأدب؟ حاشا لرسول الله وحاشا

لجبريل، وقد أخطأ بعض المفسرين فيه أن قال: وضع يديه على رسول الله، لا والله، فبعد كل هذا الأدب يقول: يا رسول الله وأستأذنك أن أقترب منك، ويضع يده على فخذيه؟ لا، ووضع يديه على ركبتيه يعني ركبة جبريل، هذا من تمام الأدب من ذلك.

وأبلغ من ذلك أدباً؛ فهو يسأل ويصدّق، لكن كيف؟ هذا أبلغ مبالغة في الأدب، لو علمتم المعلم من المتعلم لقلتم أي أبلغ: جبريل المعلم للنبي -صلى الله عليه وسلم-، ويظهر أمام الناس بصورة المتعلم، وأمام النبي -صلى الله عليه وسلم- يخضع بصورة المتعلم. هذا أبلغ ما في الأدب، أن تكون أنت أعلم بالمسألة وهو يتكلم معك المعلم وتقطع وكأنك أول مرة تسمعها وتبيّن جهلك لتستفيد. وكنت دائماً يعني أبحث كثيراً كيف تأدب علماؤنا وسلفنا بهذا الأدب ومن أين استنبطوها؛ كان الثوري وابن عيينة والشافعي وغيره يقول: يأتيني المرء يكلمني عن مسألة قد انتهيت منها من سنين، أعلمها من قبل أن يولد، ويكلمني عنها وأتعلمها منه وأبيّن أنني أجهلها. فقلت من أين هذا الأدب؟ ومن أين استنبطوه؟ كان الظاهر في ذلك هو فعل جبريل، هو المعلم، فيظهر أمام الناس في صورة المتعلم، وأمام النبي -صلى الله عليه وسلم- في صورة المتعلم. ولذلك جزاءً وفاقاً النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: (جاء جبريل)، هو الذي يعلم ليس أنا الذي علمتكم، (جاء جبريل يعلمكم أمر دينكم)، وهذا هو أبلغ في الأدب طالب العلم.

باب ذكر احتجاج موسى وآدم عليهما السلام

عن عمر -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: (إن موسى النبي -عليه السلام- قال: يا رب أرنا أبانا الذي أخرجنا ونفسه من الجنة، فأراه الله تعالى آدم -عليه السلام-، فقال: أنت آدم الذي أخرجتنا ونفسك من الجنة؟ فقال له آدم: نعم، قال: أنت الذي نفخ الله تعالى فيك من روحه وعلّمك الأسماء كلها وأمر ملائكته فسجدوا لك؟ قال: نعم، قال: فما حملك على أن أخرجتنا ونفسك من الجنة؟ قال له آدم: ومن أنت؟ قال: أنا موسى، قال: أنت نبي بني إسرائيل؟ أنت الذي كلمك ربك من وراء حجاب لم يجعل بينك وبينه رسولاً من خلقه؟ قال: نعم، قال: فما وجدت ذلك في كتاب الله تعالى أن ذلك كائن من قبل أن أُخلَق؟ قال: نعم، قال: ففيمَ تلومني في شيء سبق من الله تعالى في القضاء قبلي؟ قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: فحج آدم موسى عليهما السلام).

وعن أبي هريرة -رضي الله عنه- عن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: (لقي آدمَ موسى عليهما السلام)؛

(لقي آدمُ موسى عليهما السلام)، (لقي آدمَ موسى عليهما السلام)؛ أيهما الأرجح الآن؟ أين القرينة التي تجعلكم تقدمون وتؤخرون؟ القرينة التي تجعله يرجّح (لقي آدمَ موسى) يعني موسى هو الذي لقي آدمَ، أن موسى هو الذي تقدّم بالطلب من ربه جلَّ في علاه فأكرمه الله فلقي موسى آدمَ.

عن أبي هريرة -رضي عنه- عن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: (لقي آدمَ موسى عليهما السلام، فقال: أنت آدم الذي أشقيت الناس وأخرجتهم من الجنة، فقال له آدم: أنت الذي اصطفاك الله على الناس برسالته وبكلامه؟ قال: نعم، قال: فلم تجد فيما أنزل الله تعالى عليك أنه سيخرجني منها قبل أن يدخلنيها؟ قال: نعم، فخصم آدم موسى).

وعنه -رضي الله عنه- عن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: (احتج آدم وموسى، فقال له موسى: يا آدم أنت الذي خلقك الله بيده ونفخ فيك من روحه، أغويت الناس وأخرجتهم من الجنة؟ قال: فقال آدم: وأنت الذي اصطفاك الله بكلامه تلومني على عمل عملته كتبه الله علي قبل أن يخلق السماوات والأرض؟ قال: فحج آدم موسى عليهما السلام).

وعن جندب أو غيره أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: (احتج آدم وموسى، فقال: أنت آدم الذي خلقك الله بيده وأسكنك جنته وأسجد لك ملائكته؟ فعلت الذي فعلت فأخرجت ذريتك من الجنة؟ فقال آدم: أنت موسى الذي اصطفاك الله برسالاته وبكلامه وآتاك التوراة؟ قال: فأنا أقدم أم الذكر؟ قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: فحج آدم موسى عليهما السلام).

وعن أبي هريرة -رضي الله عنه- أن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: (احتج آدم وموسى عليهما السلام، فقال له موسى: أنت أبونا الذي أخرجتنا وأحرمتنا؟ فقال له آدم: أنت موسى الذي اصطفاك الله برسالاته وكتب لك التوراة بيده؟ فلِمَ تلومني على أمر قدّره الله تعالى عليّ قبل أن يخلقني بأربعين عاماً).

إن الله خلق الخلق لعبادته وتوحيده، قال الله تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ ﴾ [الذاريات: ٥٦]، فإن الله خلق الخلق وأمرهم بأوامر شرعية على المرء أن يأتمر بها، فسعادة المرء أن يأتمر بأوامر الله الشرعية، يعمل بها عابداً لله متذللاً خاضعاً ذليلاً. وأيضاً قدّر الله عليه مقادير أو أقدار، ومن سعادة المرء أيضاً أن يرضى بأقدار الله جلَّ في علاه. فإن دائرة العبد الذي من تمام عبوديته ألّا يضرب الشرع بالقدر وأن يأتمر بأمر الله أو بأمر الشرع، وأن يرضى بقدر الله جلَّ في علاه ولا يضرب الشرع بالقدر، هذه هي تمام العبودية للإنسان.

ولذلك ضلت طوائف كثيرة في هذا الباب؛ منهم من أخذ بالقدر فقط، ومنهم من أخذ

بالشرع فقط، ومنهم من ضرب الشرع بالقدر، ومنهم من توسط ينظر في هذه الدنيا وفي هذه العبادات بعينين: عين القدر وعين الشرع. وسعادة المرء بالعينين، عين واحدة لا يصل بها المرء، وعين أخرى دون الأولى لا يصل بها المرء، كالجناحين للطائر، إذا طار بجناح واحد لا بد أن يسقط، فلا بد من الجناحين، أن ينظر بعين القدر وأن ينظر بعين الشرع.

وبصدد ذلك نحن أمام مناظرة من أعظم المناظرات، التي تثبت لنا أهمية العلم، وتثبت لنا أنه لا مجال للأبوة ولا البنوة في إظهار الحق، فإن الحق لا بد أن يظهر تأدباً للصغير مع الكبير، تأدباً ورحمةً من الكبير مع الصغير، ومع ذلك لا يشوش هذا على الحق بحال من الأحوال، فلا بد من ظهور الحق.

موسى -عليه السلام- أفضل البشر على الإطلاق وقت أن بعثه الله إلى بني إسرائيل، أو نقول موسى -عليه السلام- من أفضل خمسة من الرسل على الإطلاق على البشر أجمعين بما فيهم آدم -عليه السلام-، لمكانة موسى عند ربه جلَّ في علاه؛ كان يكلمه الله من وراء حجاب، ولم يبعث إليه رسولاً يعني في هذا الكلام، وإلّا سنبيّن أنه أوحى إليه كما أوحى إلى النبي -صلى الله عليه وسلم-، لكن الله اصطفاه بكلامه. ولمّا سمع موسى كلام الله جلَّ في علاه وشعر بحلاوة ذلك، اشرأبت عنقه إلى ما فوق سماع الكلام، إلى رؤية الباري لمّا حلاوة الكلام جاءت إلى مسامعه؛ ﴿قَالَ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِي وَلَٰكِنِ ٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡجَبَلِ فَإِنِ ٱسۡتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوۡفَ تَرَىٰنِيۚ﴾ [الأعراف: ١٤٣].

فالغرض المقصود طلب موسى من ربه أشياء فأكرمه الله بأن لبّى له ما طلبه من هذه المطالب؛ طلب موسى -عليه السلام- أن يرى آدم أباه -عليه السلام- فلبى الله له طلبه، فرأى آدم فناظره مناظرة لطيفة تثبت لك المجادلة بين الابن وأبيه، وأيضاً تظهر لك حنو الأب على الابن. فقام موسى -عليه السلام- يجادل أباه فيما حدث: أنت آدم خلقك الله بيده نفخ فيك من روحه، هذه الفضائل التي كُرِّمت بها على البشر أجمعين، كيف أخرجتنا من الجنة؟ مع أن آدم ما أخرجنا من الجنة، ولكن هذا كما سنبين في الفوائد المستنبطة أن

المتسبب كالمباشر. فقال: أخرجتنا ونفسك من الجنة إلى هذا الشقاء، مع أننا كنا في الجنة سنكون في نعيم. فيأتي بلطف باهر عظيم من الأب بحنو مع الابن ويبيّن له أن هذا أمر كتبه الله عليّ في الذكر قبل أن يخلق السماوات والأرض، قبل أن يخلقني قد كتب الله عليّ ذلك.

هنا فصل النزاع شاهداً هو أفضل شاهد على هذه المناظرة، ألا وهو رسول -صلى الله عليه وسلم-، كما تشهد أمته على باقي الأمم شهد رسول الله -صلى الله عليه وسلم- على هذه المناظرة وفصل في النزاع وحسم في المادة، ليعلّمنا ما جهلنا والحجة كانت مع أبيه آدم على موسى، ولذلك قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (خصم آدم موسى) أو قال: (حج آدم موسى). فالحجة كانت مع آدم، هذا إجمال ما سمعتم من هذه الأحاديث العظيمة الجليلة، ونأتي إلى المسائل التي تتعلق بهذا الباب الجليل.

أهم هذه المسائل حديث عظيم فيه مقولة للنبي -صلى الله عليه وسلم- حيّرت عقول كثير من أهل السنة والجماعة وكثير من طوائف أهل البدع: (حج آدم موسى)، فوقف الناس أمام قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (حج ادم موسى)، لاختلاف الفهوم اختلفت طرقهم في النظر لهذا الحديث إلى طوائف ثلاثة:

▪ طائفة ردت الحديث رداً قوياً وما أخذت به، وقالت هذا حديث آحاد، ولو قلتم كما يترنم بعض أهل الحديث هذا إسناده كالشمس لا يستطيع أحد أن يرده، نعم إسناده كالشمس لكنه من الآحاد، والآحاد لا يؤخذ بها في العقائد. وهؤلاء الذين يقولون بالقدر، يقولون هو أنف، ردوا الحديث رداً قوياً، وقالوا لو أخذنا بهذا الحديث أبطلنا الشرع بأسره؛ لأنه (حج آدم موسى)، ويقول له: أنت تلومني؟ أنا أكلت من الشجرة، وسوس إليّ الشيطان لكن الله كتب علي أنني سآكل من الشجرة، فاحتج آدم على موسى بأن الله كتب عليه أنه سيأكل من الشجرة. قالوا لو أخذنا بهذا الحديث رددنا كل أوامر الشرع، وما من عاصٍ في الدنيا إلّا وسيقول كتب الله عليّ هذه المعصية؛ (ألم ترَ أن الله قدّر

ذلك قبل أن يخلق السموات والأرض)، وهذا حق. فقالوا لو أخذنا بهذا الحديث كانت هناك حجة لمن يرد الشرع كليةً، فردوا الحديث وقالوا لا نعمل به.

▪ وطائفة ثانية طاروا بهذا الحديث طير الطير إلى السماء، وفرحوا به فرحاً لم يفرحوا بغيره بحال من الأحوال، وقالوا هذا من أعز وأرجى الأحاديث لنا، هؤلاء الذين يقولون بالجبر. قالوا هذا حديث حجة بليغة ظاهرة باهرة على أن الإنسان ما منه شيء، المسألة من الله جلَّ في علاه، هو يُلقى في اليم مكتوف الأيدي ويقال له إياك إياك أن تبتل بالماء. كيف ذلك؟ هو كالريشة في الهواء، إن الله يحركه كيف شاء. ولذلك قال قائلهم وهو ابن سينا ولا بد أن نصرّح به لأن هذا هو قوله، ابن سينا كان يقول: من تطلّع إلى سر القدر لم ينكر منكراً. مقولة عظيمة جداً تكتب بماء الذهب لكن ليست في صدور المؤمنين بحال من الأحوال، نريد تفسير هذا الكلام الذي لا يمكن لإنسان مؤمن بالله متعبد له يعمل بالشرع والقدر أن يقول به؟ هم يرون أن الله هو الفاعل حقيقةً ليس العبد، يقول لا يجوز أن تنكر عليه، لأن الله هو الذي فعل هذا. ولذلك قال قائلهم: لو كنت موجوداً عندما قال الله تعالى: ﴿ قَالَ يَٰٓإِبۡلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسۡجُدَ لِمَا خَلَقۡتُ بِيَدَيَّۖ ﴾ [ص: ٧٥]، لقلت له أنت الذي جعلتني لم أسجد. نعوذ بالله من الخذلان. فهؤلاء طاروا بهذا الحديث، وقالوا قد حج آدم موسى بشهادة الرسول، وفيها دلالة على أن آدم قال: (ألم ترَ أن الله قد كتب علي ذلك قبل أن يخلق السموات والأرض؟)، فقال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (حج آدم موسى).

طوائف من الضلال بمكان عندما قالوا هذه المقولة بالنسبة للقدر.

▪ أمّا الذين ينظرون بعينين، لا بعين عوراء، ينظرون لعين قدر وينظرون إلى عين الشرع، ويوافق القدر الشرع، قالوا: نحن ننظر في فهم رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، في كلام رسول الله، والمطلوب منا شرعاً أن نفهم مراد الله ونعقل ما يريده الله منا ويريده منا رسوله -صلى الله عليه وسلم-. فقالوا مقولة الشافعي: آمنت بالله وبما جاء الله على مراد الله، وآمنت برسول وبما جاء عن رسول الله وعلى مراد رسول الله؛ كأنهم يقولون ما

مراد رسول الله -صلى الله عليه وسلم- في هذا الحديث؟ أو من هذا الكلام؟ قالوا يعتري الحديث احتمالات كثيرة منها:

١- الاحتمال الأول: (حج آدم موسى) معناها أن آدم هو أب لموسى، وأن موسى ابن لآدم، ولا يصح للابن أن يخاصم الأب تأدباً مع الأب، فالحجة الآن أصبحت مع آدم لأنه أبوه. واحترام الأب وتوقير الأب وتعظيم الأب وتبجيل الأب يمنع أن تكون الحجة مع موسى، فالحجة كانت مع آدم لأنه أبوه، هذا الأول، وهذا الاحتمال ضعيف جداً.

إذاً هذا الاحتمال الأول، قالوا هذا الاحتمال معنى كلام النبي -صلى الله عليه وسلم- (حج آدم موسى)، لأن آدم هو الأب وموسى الابن، فكيف نلغي التوقير والتبجيل والتعظيم ونقول إن موسى هو الذي معه الحجة؟ لا، الحجة مع آدم، والعلة المؤثرة أنه الأب.

٢- الاحتمال الثاني: قالوا إن موسى أخطأ في ملامة آدم، لأنه لامه في دار الجزاء وليس في دار التكليف. اللوم كل اللوم يكون في دار التكليف، لا في دار الجزاء، وآدم الآن في دار الجزاء، فلا يصح الملامة في دار الجزاء، هذا الاحتمال الثاني وهذا ضعيف كما سنبيّن.

٣- الاحتمال الثالث: قالوا (حج آدم موسى)، الحجة لآدم كيف ذلك؟ قالوا لأن موسى قد لام آدم على ذنب قد ارتكبه آدم ثم تاب منه، ومن تاب من ذنب تاب الله عليه، وقد دلت الدلائل على أن الله قد تاب على آدم: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيۡهِۚ﴾ [البقرة: ٣٧]. فإذا تاب آدم من هذا الذنب بقي كمن لا ذنب له، فكيف يعيّره موسى بذنب قد تاب منه؟ وإن الله جلَّ في علاه إذا تاب على العبد محى له هذه السيئة، بل بدّل السيئات حسنات، فليس لموسى أن تكون له الحجة.

٤- الاحتمال الرابع: هو أن الحجة كانت مع آدم، لأن آدم -عليه السلام- لمّا حجه موسى حجه على مصيبة، ما هي المصيبة؟ أنه أخرجه ومن معه، أخرجه وذريته من الجنة. فلمّا احتج عليه بهذه المصيبة، احتج عليه آدم بأن هذه المصيبة قد قدّرها الله جلَّ في علاه من

فوق سبع سماوات قبل أن يخلق السماوات والأرض بأربعين. هذا احتمال رابع على أن الحجة كانت لآدم على موسى، لأن موسى تخاصم معه على مصيبة، والمصائب الذي يقدّرها الله جلَّ في علاه لأن الله جلَّ وعلا قال: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ ۚ﴾ [التغابن: ١١]، فهي من عند الله جلَّ في علاه، فكانت الحجة لموسى.

الآن إلى التحليل والتفنيد وننظر أي الحجج صحيحة وأي الاحتمالات صحيحة، حتى نرجّح هذا القول ونقول هنا نظرنا بعين القدر وعين الشرع فأبطلنا قول القدرية وأبطلنا قول الجبرية. الذين قالوا لا ندفع الحديث، نقول: لا، نحن نقبل الحديث حباً وكرامة وعلى العين وعلى الرأس، هذا حديث النبي -صلى الله عليه وسلم- كيف نرده؟ ولا نقول نطير به وندفع به القدر، نضرب الشرع بالقدر، نوفق بين الشرع والقدر.

الآن هذه الاحتمالات منها ما هو ضعيف ومنها ما هو قوي ومنها ما هو الأقوى، أين مواطن الضعف؟ وكيفية الرد؟ هذه احتمالات أربع وممكن أن نورد على ذلك احتمالين آخرين لكن قلت نقصر المسافة.

أقول أربع احتمالات فيهم ضعف وفيهم قوة؟

أول واحد هو أضعف الاحتمالات، الأبوة والبنوة ليست علة مؤثرة في الحق، لا تظهر حقاً ولا تبطله، والدلالة على ذلك من الشرع كثيرة؛ آزر كان عماً أو كان أباً لإبراهيم -عليه السلام- ولم تكن الحجة معه بل الحجة مع إبراهيم وقال: ﴿يَٰٓأَبَتِ إِنِّى قَدْ جَآءَنِى مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ﴾ [مريم: ٤٣]، وبّين له ﴿يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾﴾ [مريم: ٤٤]، ﴿قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِى يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ۖ﴾ [مريم: ٤٦]، فذهب عنه واستغفر له، بعد ذلك نُهِيَ عنه، الغرض المقصود كان آزر أباه ولم يكن الحق معه بحال من الأحوال.

أيضاً إذا أتينا بالمثل الذي يثبت أن الأبوة لا تكون قرينة للحق، أيضا البنوة ليست قرينة

بالحق؛ نوح -عليه السلام- ابنه معه، كان الحق مع نوح؛ ﴿يَٰبُنَيَّ ٱرۡكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ۝٤٢ قَالَ سَـَٔاوِيٓ إِلَىٰ جَبَلٖ يَعۡصِمُنِي مِنَ ٱلۡمَآءِۚ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلۡيَوۡمَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَۚ﴾ [هود: ٤٢ – ٤٣]، فكانت الأبوة هنا الحق معها.

فالأبوة والبنوة ليست مؤثرة في حق ولا في غيره، فإذاً الكلام الأول ضعيف جداً، ليست الحجة مع آدم لأنه أبوه وليست الحجة مع موسى، أو الحجة ليست على موسى لأنه ابن والصغير يكبر للكبير. لا والله، الحق حق إذا كان مع الصغير أو كان مع الكبير، وهذه دلالة واضحة جداً سنبيّنها في الفوائد المستنبطة. فالأول ضعيف، والضعف ظاهر جداً من قصص القرآن ومن تعامل الأنبياء بعضهم مع بعض.

الثاني؛ قال احتجاج موسى على آدم في دار الجزاء وهذا لا يصح، الاحتجاجات تكون في دار التكليف لا في دار الجزاء. هذا الكلام ضعيف من وجهين:

- الوجه الأول: لو كانت الحجة لآدم بهذا لبيّنه، لقال: يا موسى كيف تلومني وأنا في دار الجزاء ولا ملامة على أحد في دار الجزاء؟ فهذه حجة بيّنة كان لا بد أن يبيّنها آدم، فلمّا لم يبيّنها علمنا أنها ليست حجة لآدم.

- الوجه الثاني: وهو مهم جداً، نقول هذه حجة باهتة، لأن دار الجزاء فيها ملامة، أمّا رأيت أن الملائكة يوبخون أهل النار؛ ﴿تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلۡغَيۡظِۖ كُلَّمَآ أُلۡقِيَ فِيهَا فَوۡجٞ سَأَلَهُمۡ خَزَنَتُهَآ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ نَذِيرٞ ۝٨ قَالُواْ بَلَىٰ قَدۡ جَآءَنَا نَذِيرٞ فَكَذَّبۡنَا وَقُلۡنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَيۡءٍ﴾ [الملك: ٨ – ٩]، وأيضاً ﴿وَنَادَوۡاْ يَٰمَٰلِكُ لِيَقۡضِ عَلَيۡنَا رَبُّكَۖ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ ۝٧٧﴾ [الزخرف: ٧٧]. فالملامة موجودة، والله جلَّ وعلا [1] سيلوم ويوبخ أهل الكفر عندما يأتي بالكافر فيقول: (لو أن لك ما في الأرض ذهباً لافتديت به من عذاب يوم القيامة؟ قال: اللهم نعم، قال: طلبت منك ما هو أهون من ذلك) هذا توبيخ، (طلبت منك أن تعبدني لا تشرك بي شيئاً، فأبيت إلّا الشرك)، فدار الجزاء فيها الحجة وفيها التوبيخ.

(١) أخرجه البخاري (٦٥٣٨)، ومسلم (٢٨٠٥).

أيضاً أربعة لهم الحجة على الله يوم القيامة، في دار الجزاء: الأصم والخرف الهرم والأحمق وأهل الفترة، للدلالة على أن هذه الحجة باهتة ضعيفة.

الثالثة صراحة من القوة بمكان، القول الثالث قالوا: قد لام موسى آدم على ذنب تاب منه آدم -عليه السلام-، والذي يعيّر أحداً بذنب تقول: لا بد أن يقع فيه، ولا يصح لمؤمن أن يعيّر لمؤمنٍ مؤمناً بذنب، لا سيما إن كان قد تاب منه. فلذلك كانت الحجة مع آدم لأنه قد تاب من الذنب، ومن تاب من ذنبه كمن لا ذنب له. نقول وإن كان هذا الباب أو هذه الحجة قوية لكن أيضاً فيها ضعف والرد عليها من وجوه ثلاثة:

- لو كانت حجةً له لقال آدم: كيف تلومني يا موسى على ذنب تاب الله عليّ منه؟ ومن تاب من الذنب كمن لا ذنب له، فكيف تجرؤ أن تلومني وتعيّرني على ذنب تاب الله عليّ منه؟

- والوجه الثاني يبعد كل البعد؛ موسى كليم الرحمن، موسى أفضل الخلق في وقته أن يعيّر أحداً بذنبه بحال من الأحوال، آحاد المؤمنين لا يفعل ذلك.

- موسى نفسه قد وقع في ذنب وما رضي أن يُلام عليه عندما قتل الرجل ثم قال: ﴿هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُۥٓ﴾ [القصص: ١٥ - ١٦]. فما قبل أن يلومه فرعون على ذلك؛﴿قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴿١٨﴾ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِى فَعَلْتَ﴾ [الشعراء: ١٨ - ١٩]، ما رضي من فرعون أن يذكّره حتى بقتل هذه النفس. فالغرض المقصود أن آحاد المؤمنين لا يمكن أن يلوم أحد على ذنب قد تاب منه، فكيف يقع موسى الكليم في هذا؟ فهذا الوجه الثاني الذي يبيّن ضعف هذه المسألة، موسى ليس له أن يلوم آدم عليه السلام من ذنب تاب منه، لأن من تاب من الذنب قد تاب الله عليه.

نقول أقوى الأقوال هو القول الرابع، وأن حجة آدم كانت على موسى أن موسى لمّا احتج على آدم احتج عليه بالمصيبة؛ أما رأيت ما فعلت بنا؟ ما هذه المصيبة العظيمة التي

ابتلينا بها بسببك أنك أخرجتنا من الجنة؟ قال: (أخرجتنا ونفسك من الجنة). وهذا القول الراجح الصحيح، أن حجة آدم كانت على موسى لأن موسى لامه على المصيبة، فلمّا لامه على المصيبة قال هنا يصح لي أن أحتج بالقدر، إذ الاحتجاج بالقدر على المصائب وليس على المعايب، فقال له: قدّر الله وما شاء فعل، قدّر الله أن تخرج أنت ويخرج من بعدك وتخرج الذرية كلها من الجنة، وهذه مصيبة قدّرها الله قبل أن يخلق السماوات والأرض.

وقد قلنا للإنسان أن يحتج بالقدر في المصائب وليس له أن يحتج بالقدر في المعايب، وهذه التي تجرنا إلى المسألة الثانية في هذا الحديث وهي حالات الاحتجاج بالقدر.

حالات الاحتجاج بالقدر حالتان:

♦ الحالة الأولى حالة ممنوعة، حرام البته، لا يستطيع المرء فيها أن يحتج بالقدر، وإلّا لضرب الشرع بالقدر ووصل إلى درجة الجبرية، وهؤلاء أضل قوم هم الجبرية الذين ضربوا القدر بالشرع، لأنهم سووا بين إبليس وبين جبريل -عليه السلام-.

فنقول الاحتجاج بالقدر على المعاصي لا يجوز بحال من الأحوال، وهذه نبيّنها في نقاط عدة قد نفاها الله جلَّ في علاه، قال الله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ لَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدۡنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيۡءٖ نَّحۡنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمۡنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيۡءٖۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ فَهَلۡ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ٣٥﴾ [النحل: ٣٥] ، هنا إشارة على أن الله كذّبهم، الرسل جاؤوا يبينون لكم أن هذا أمر لا بد أن تأتمروا به والقدر لا بد أن تحملوه وترضوا به. في الآية الأخرى: ﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ لَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشۡرَكۡنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمۡنَا مِن شَيۡءٖۚ﴾ [الأنعام: ١٤٨]، ماذا قال الله تعالى؟ ﴿كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ حَتَّىٰ ذَاقُواْ بَأۡسَنَاۗ﴾ [الأنعام: ١٤٨]، فكذّبهم الله جلَّ في علاه. فنقول هذه آيات تثبت لنا أن الاحتجاج بالقدر على المعاصي لا يجوز بحال من الأحوال، وتفسير ذلك:

١- أولاً أن الله جلَّ في علاه جعل المعاصي من فعل العبد وليس من فعل الرب، فلا يجوز أن ينسبها لله جلَّ في علاه، عندما قال: ﴿وَإِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةٗ قَالُواْ وَجَدۡنَا عَلَيۡهَآ ءَابَآءَنَا

﴿وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَاۗ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِۖ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾ قُلْ أَمَرَ رَبِّى بِٱلْقِسْطِۖ﴾ [الأعراف: ٢٨ – ٢٩]، فهذا رد عليهم. فنقول أولاً نسب الله المعاصي لفعل العبد هذه دلالة على أن العبد فعل ذلك، قال الله تعالى: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ﴾ [الروم: ٤١]، وقال تعالى: ﴿جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [التوبة: ٨٢] فهذا كسب المرء وهذا عمل المرء.

والنبي –صلى الله عليه وسلم– يقول: (كل أمتي يدخل الجنة إلّا من أبى، فمن أطاعني دخل الجنة، ومن عصاني فقد أبى). قال الله تعالى: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟﴾ هذا من فعلهم، ﴿فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾ [فصلت: ١٧]، فكل هذه أفعال نسبت للعبد. إذاً الطريق الأول الذي يبين لنا أن الحجة عليهم وليست لهم في الاحتجاج بالمعاصي أن فعل العبد منسوب للعبد.

٢– النقطة الثانية أن نقول صدق الله في قوله سبحانه جلَّ في علاه أنه لا يظلم أحداً، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍۖ﴾ [النساء: ٤٠]، وقال الله تعالى في الحديث القدسي[1]: (يا عبادي إني حرّمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرماً)، ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا ﴿١٢٢﴾﴾ [النساء: ١٢٢]، ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا ﴿٨٧﴾﴾ [النساء: ٨٧]. فإن كانت المعصية أو القدر حجة للعاصي فإن الله سيظلم، لأنه سيعذّب عبداً بغير جريرته، بغير فعله، وهذا مخالف لقول الله تعالى: (إني حرّمت الظلم على نفسي)، وقول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا﴾ [يونس: ٤٤].

٣– وأمّا الثالثة الاحتجاج بالقدر إثبات ما نفاه الله جلَّ في علاه ويتضمن ذلك تكذيب الله، ونحن لا نقول أنهم يكذّبون الله، لكن نقول أن هذا من اللوازم الباطلة. الاحتجاج بالقدر فيه نفي ما أثبته الله أو فيه إثبات ما نفاه الله جلَّ في علاه، في الحالتين يتضمن تكذيب الله جلَّ في علاه، فهذه من اللوازم الباطلة التي تجعلنا نقول الاحتجاج بالقدر لا

(١) أخرجه مسلم (٢٥٧٧) وابن تيمية في مجموع الفتاوى (٨/ ٧١).

يجوز بحال من الأحوال، لأنه يلزم ممن احتج بالقدر أنه سيكذّب الله؛ الآية لمّا قالوا ما أشركنا إلّا بأمر الله جلَّ في علاه ﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا﴾، كذّبهم الله قال: ﴿كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا۟ بَأْسَنَا﴾ [الأنعام: ١٤٨]. والآية هذه أجلى ما تكون: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ﴾ [الروم: ٤١] فالله جلَّ وعلا نسب سبب الفساد في البر والبحر ﴿بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ﴾ ، هذا إثبات من الله. هم جاءوا وقالوا هذا ليس من كسب أيدي الناس، بل هو من فعل الله، فنفوا ما أثبته الله. ونفي ما أثبته الله جلَّ في علاه يستلزم تكذيب الله جلَّ في علاه، ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا ﴿١٢٢﴾﴾ [النساء: ١٢٢]، ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا ﴿٨٧﴾﴾ [النساء: ٨٧].

نقول إذاً الآن لا يصح لأحد أن يحتج بالقدر على المعاصي بحال من الأحوال، لأنه لو احتج بالقدر كذّب الله جلَّ في علاه، لو احتج بالقدر كذّب رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، لو احتج بالقدر ضرب الشرع بالقدر وهو مأمور أن يتعبّد الله بالرضا بالقدر ويأتمر بأمر الشرع، وسعادة المرء أن يكون عابداً لله جلَّ في علاه، أن يرضى بقدر الله وأن يأتمر بأمر الله الشرعي، هذه الوجهة الأولى.

إذاً الحالة الأولى الاحتجاج بالقدر على المعاصي يمنع منعاً باتاً، إلّا في حالة واحدة مستثناة وهي إذا فعل العبد ذنباً ثم تاب من هذا الذنب فرفع اللوم، لأن التائب من الذنب كمن لا ذنب له. فمن تاب من الذنب رفع اللوم عنه، فإذا رفع اللوم له أن يحتج بالقدر، يقول قد قدّر الله عليه هذا الذنب بعد ما تاب منه، وهذا يستقى ويستخلص بأن موسى قال لآدم: (أغويتنا)، فأشار إليه بالذنب الذي وقع فيه من أكل الشجرة، قال وبيّن له أنه قد تاب. وإجمال احتجاج آدم بقدر الله جلَّ في علاه على المصيبة وأيضاً بقدر الله على الأكل من الشجرة، فلمّا احتج بذلك قلنا هذه حجة، وإن لم تكن حجة لمن قال في القول الثالث، لكن هو حجة تستخلص لأن التائب من الذنب رفعت عنه الملامة، فإذا رفعت عنه الملامة يصح أن يقول قدر الله وما شاء فعل عليّ هذا الذنب، يقول قد كتب الله عليّ هذا الذنب وقد تبت منه. فمن تاب من الذنب في هذه الحالة فقط من الاحتجاج بالقدر على الذنوب

أن يتوب منها، فإن تاب منها له بعد رفع الملامة عنه أن يقول قدر الله وما شاء فعل.

♦ الحالة الثانية: له أن يحتج بالقدر في المصائب وليس في المعايب، وهذه قاعدة قوية جداً، لو ما خرجت من الدرس إلّا بها كان أولى لكم، الاحتجاج بالقدر على المعايب ما يصح، لكن على المصائب يصح.

الاحتجاج بالقدر على المصائب له دلائل قولية وفعلية:

▪ أمّا الدلائل قولية؛ فقد قال الله تعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ ۚ﴾ [التغابن: ١١]؛ ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ ۚ﴾ يعني يرضى بهذا القدر ﴿يَهْدِ قَلْبَهُۥ ۚ﴾ له أن يحتج به، هذه فيها إشارة.

▪ **أمّا الدلالات الفعلية فكثيرة جداً منها:**

- أولاً هذا الحديث؛ فإن آدم -عليه السلام- لمّا حجه موسى على المصيبة قال: (أخرجتنا ونفسك من الجنة)، قال: قدّر الله وما شاء فعل، فاحتج على هذه المصيبة بأنها كتبت قبل أن يخلق الله السماوات والأرض.

- الثاني أن النبي -صلى الله عليه وسلم- نام عن صلاة الفجر، وهذه مصيبة. نام النبي -صلى الله عليه وسلم- عندما عرس بالليل، وقال بلال أنا احفظ لكم الفجر، ناموا فغلب بلال النوم فما استيقظ إلّا عمر، حر الشمس هو الذي أيقظ عمر. فقام عمر قال: الله أكبر ضاعت الصلاة، فأيقظ النبي -صلى الله عليه وسلم-[1]، فقال النبي -صلى الله عليه وسلم: (إن أرواحنا بيد الله يقبضها حيثما شاء ويبعثها حيثما شاء، انطلقوا من هذا الوادي، هذا الوادي فيه شيطان)، فذهب إلى وادٍ آخر، أذّن بلال وصلى النبي -صلى الله عليه وسلم- السنة ثم أقام ثم صلى الفجر، فالنبي -صلى الله عليه وسلم- احتج بالقدر على هذه المصيبة.

(١) أخرجه مسلم (٦٨٠) والالباني في صحيح الجامع ٥٣٧٤) بلفظ مختلف والمعنى واحد.

- أيضاً من القول قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (المؤمن القوي خير من المؤمن الضعيف، وفي كلٍ خير)، قال في هذا الحديث: (فإن أصابك شيء فلا تقل لو كان كذا لكان كذا، ولكن قل قدّر الله وما شاء فعل)، فأنت هنا يبيّن لك النبي -صلى الله عليه وسلم- قولاً إنك تحتج على المصيبة بقولك "قدّر الله وما شاء فعل". (فإن أصابك شيء)؛ هذه معناها أصابك شيء بلا دخل من نفسك، أصابك شيء دون ملامة عليك، فأنت لك هنا في المصائب التي لا دخل لك فيها، لا بمعصيتك، أن تقول قدّر الله وما شاء فعل، لأن "لو" تفتح عمل الشيطان.

- أيضاً علي بن أبي طالب نام طيلة الليل ونامت فاطمة، فجاء النبي -صلى الله عليه وسلم- فأيقظ الاثنين فقال: (أما تقوما تصليا من الليل)، فقام علي بن أبي طالب فقال: يا رسول الله أرواحنا بيد الله يقبضها كيف يشاء ويبعثها كيف يشاء، النبي -صلى الله عليه وسلم- ما يستطيع أن ينكر لأنه هنا احتج بقدرٍ على مصيبة، فلمّا سمع النبي -صلى الله عليه وسلم- أعطاه ظهره وضرب على فخذه وقال: ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَىْءٍ جَدَلًا ﴿٥٤﴾﴾ [الكهف: ٥٤]. هو ما لامه، هذا جدل بحق لأن الروح بيد الله جلَّ في علاه، فهنا له أن يحتج بها في هذه المسألة.

للمرء أن يحتج بالقدر في المصائب التي لا دخل له فيها، وليس بسبب معصيته، يحل للإنسان أن يفعل ذلك، وهذه هي المسألة المهمة الثانية التي تتعلق بهذا الحديث الجليل العظيم وهي قول آدم لموسى: (أنت موسى)، ثم ذكر علته، ثم قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (حج آدم موسى) لأنه احتج بالقدر على المصيبة، (قد كتبها الله عليّ قبل أن يخلق السماوات والأرض بأربعين)، قدّر الله وما شاء فعل.

الفوائد المستنبطة:

١- آدم أول مخلوق بشري، رداً على صلاح عبد الصبور بالتصريح، قال: آدم له أب وأم؛ هذا الحديث رد قاطع عليه، ومن ليس عنده علم بحال من الأحوال وعرف هذا

الحديث سيرد عليه ولا يستطيع أن يرده كيف ذلك؟ الغرض المقصود أن في غاغة طلعت وقالت آدم ليس بأول البشر، بل ليس بأبو البشر هو له أب وأم، كيف الرد عليه بهذا الحديث؟ والله رد باهر قاطع فاصل في النزاع قال له: (أنت أبو البشر)، فلو كان هناك بشر قبل آدم ما يقال أنت أبو البشر، لأن أنا ما وجدت إلّا أن تجدوا أنتم فتعلموني ما جهلت، ما وجدت أن ابناً ينجب الأب وجدتم ذلك؟ لا في البشر ولا في الحيوانات ولا في أحد. إذاً لّما يقول: (أنت أبو البشر)، قبل آدم كان ابنه وابنه هو الذي أنجبه؟!! هذه دلالة على أن الأب الوحيد أو الأب الأصلي هو آدم، هذا رد قاطع قاصم للظهور لمن يقول إن هناك خلق قبل آدم.

٢- من تسبب في شيء كمن باشره، سواء كان خيراً أم شراً؛ وهذه قاعدة تنسحب في الحكم على من يبيع العنب لمن يعتصره خمراً، على من يبيع الموس لمن يحلق لحيته، على من يبيع تبغ لمن يستخدمه دخاناً. هذه مستنبطة من هذا الحديث بأن آدم -عليه السلام- هو السبب في خروج كل البشرية من الجنة، ولذلك قال له موسى: (أنت أخرجتنا ونفسك)، ما قال نفسك مع أنه ما أخرجها، ولأنه تسبب في خروجنا فكأنه الذي أخرجنا، هذه تدل على القاعدة العريضة المتسبب كالمباشر، ومنها من تعاون على شيء له أجره؛ إن تعاون على خير فخير وإن تعاون على شر فشر، فينسحب الحكم لمن باع عنباً لمن يعتصره خمراً من باب المتسبب كالمباشر، الذي يعتصره خمراً ما اعتصره خمراً حتى أخذه عنباً، فنزل هذا وذاك سواء في الوزر.

٣- إضافة الروح لله جلَّ في علاه إضافة تشريف، عندما قال: (خلقك الله بيديه ونفخ فيك من روحه)، هل آدم فيه جزء من الله جلَّ في علاه؟ حاشا لله، (نفخ فيك من روحه) يعني روح عنده، روح خلقها الله جلَّ في علاه.

والمضاف إلى الله نوعان: إضافة تشريف وإضافة معنى "صفة إلى موصوف". إذا قلت رب العزة، إضافة الصفة للموصوف، العزة معنى، فإذا أضيفت إلى الله إضافة صفة

للموصوف. وأمّا الكعبة فهذا ليس معنى ولكنه عين قائمة، فتقول الكعبة بيت الله، فإضافتها لله تشريف. فيقول: (روح منه)، يعني رح من عند الله جلَّ في علاه، لأن الروح كينونة لها كيان، فالروح لها عين يعلم الله مداها. عيسى روح الله، يعني روح من عند الله جلَّ في علاه.

٤- قول آدم -عليه السلام-: (لم يجعل بينك وبينه رسولاً) هذا عام مخصوص، بل جعل الله بينه وبينه رسولاً. نقول هذا عام مخصوص، والصحيح الراجح أنه لم يجعل بينك وبينه رسولاً في أن تسمع كلامه ويكلمك الله جلَّ في علاه من وراء حجاب. دليل على هذه الفائدة؟

قلنا هذا عام مخصوص، ما يمكن أن نقول: لا هناك رسول بين الله وبين موسى -عليه السلام-، لكن هذا يراد به عند الكلام وعند سماع الكلام ليس بينه وبينه رسول، من وراء حجاب كلمه الله فسمعه موسى وقال: ﴿قَالَ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ﴾ [الأعراف: ١٤٣]؛ نقول الآن ﴿فَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضۡرِب بِّعَصَاكَ ٱلۡبَحۡرَۖ فَٱنفَلَقَ﴾ [الشعراء: ٦٣]، لها متعلق، فالوحي لابد يكون رسول. نقول: لا، كلاماً إلّا أن تأتي بقرينة دليل يثبت أن جبريل كان يأتي لموسى؟ إذا أتيت بدليل جبريل يأتي لموسى نقول هذا عام مخصوص. حديث ورقة بن نوفل، عندما جاء وقص عليه النبي -صلى الله عليه وسلم- القصص ماذا قال؟ قال: هذا الناموس الذي كان يأتي موسى، فهذه فيها دلالة واضحة جداً أن جبريل كان يأتي موسى. إذاً قول آدم لموسى: (لم يجعل بينك وبينه رسولاً)، هذا عام مخصوص، وهذه فائدة أصولية قوية جداً لطلبة العلم.

٥- إثبات صفات لله جلَّ في علاه سواء صفات فعلية أو صفات ذاتية؛ أثبت صفة الخلق، أثبت صفة الكلام، أثبت صفة اليدين لله جلَّ في علاه، مجموع هذه القدرة. هذه إثبات الصفات لله جلَّ في علاه، والفرق بين هذه الصفات: صفة الكلام، صفة اليد، صفة الخلق:

▪ صفة الخلق: فعلية تتعلق بالمشيئة، ضابطها إن شاء خلق وإن شاء لم يخلق، وهذه أوضح ما تكون صورة الجنين الذي يسقط؛ ﴿لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا ۖ وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا ۚ﴾ [الشورى: ٤٩ – ٥٠]. وأيضاً نقول إن الله جلَّ في علاه إذا قدّر أن الجنين يحيا يحيا، وإلّا إذا قدر سقوطه يسقط ولا يُخلق، فإن شاء خلق وإن شاء لم يخلق.

▪ صفة الكلام: صفة ذاتية فعلية، إن شاء تكلم وإن شاء لا يتكلم؛ سيتكلم في عرصات يوم القيامة إن شاء، وتكلم مع موسى عندما جاء موسى، فإن شاء تكلم وان شاء لم يتكلم سبحانه جلَّ في علاه.

▪ صفة اليد: صفة ذاتية خبرية ضابطها أنها مسمّاها عندنا أجزاء وأبعاض، كاليد والعين والساق.

٦- كتب الله بيده؛ إذاً الله يكتب؟ نعم هذه صفة الكتابة لله، تثبت لله، ونؤمن بذلك. قد كتب الله بيده، كيف كتب الله بيده؟ كتب التوراة بيده، بكيفية نعلمها علم اليقين أنها كيفية تليق بجلال الله وكمال الله وهي غائبة عنا والسؤال عنها بدعة، والدلالة على ذلك أنه قال: (وكتب لك)، في رواية قال: (خط لك التوراة بيده).

٧- الفضائل تخص، وتفسير آخر يمكن أن يكون للمفضول علم ليس عند الفاضل، كيف ذلك؟ من أين أتينا بهذه الفائدة؟ ائتوني بالأدلة على أن المفضول هو آدم وأن موسى هو الفاضل؟ الله جلَّ وعلا فضّل النبيين والمرسلين على الخلق أجمعين، ثم فضّل عليهم أولو العزم وموسى من أولو العزم كما قال الله تعالى: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ۚ﴾ [النساء: ١٦٤]، ﴿ ۞ تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۘ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ ۖ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ ۚ﴾ [البقرة: ٢٥٣]. هذه دلالة على أن موسى هو الفاضل وآدم كان المفضول، ومع ذلك العلم كان عند آدم وليس عند موسى، وقد حج آدم موسى.

وهذه ظهرت مع موسى مرتين؛ لمّا موسى سئل من أعلم أهل الأرض؟ قال: أنا، لمّا

قال أنا، انظروا التهذيب جاء مرتين. وهذه تدلك على قاعدة أهل السلف يقولون بها: التخلية قبله التحلية، ولولا أن موسى يقر في نفسه من تواضعه أنه ليس بأفضل البشر ما أوتي هذه المنزلة. كما ورد في الإسرائيليات التي لا تصدق ولا تكذب؛ أوحي إلى موسى: أتعرف لِمَ فضلتك على الناس واصطفيتك بكلامي وبرسالتي؟ قال: لا أعرف، قال: ما رأيت أحداً إلّا أقررت في نفسك أنه أفضل منك. تواضع عالي، (من تواضع لله هكذا رفعه الله هكذا)، فلذلك جعله الله جلَّ وعلا فوق البشر أجمعين في عصره.

لكن لمّا قال: أنا أعلم أهل الأرض، قالها ليس تكبراً، ولكن قالها ضمناً لأن الله اصطفاه وكلمه وبعث إليه جبريل، فعلم أنه من الرسل ومن أولو العزم من الرسل، فهو أعلم أهل الأرض. فهذّبت هذه الصفة مرتين:

- المرة الأولى مع الخضر؛ موسى جاء للخضر يتعلم، وهذه دلالة على قمة تواضع موسى، قالها ضمناً ما قالها كبراً، ولذلك تواضع للخضر وأتى خلفه وقال: ﴿عَلَىٰٓ أَنتُعَلِّمَنِ مِمَّاعُلِّمْتَ رُشْدًا ۝٦٦﴾ [الكهف: ٦٦]، لكن صبره نفد، ما استطاع أن يصبر. وهذه دلالة على أن الذي يتواضع يتعلم، والذي يتكبر لا يمكن أن يأتيه العلم، ولذلك ابن عيينة قعّد قاعدة قال: نبل المرء يظهر أن يتعلم ممن هو دونه قبل أن يتعلم ممن هو فوق. وذهب موسى يتعلم من الخضر.

- ثم بعد ذلك جاءت الحجة القوية من آدم على موسى، والله جلَّ في علاه يؤتي فضله من يشاء.

٨- الرد على النصارى في عقيدتهم؛ (نفخ فيك من روحه)، فيه رد عليه في مسألة روح منه، أنتم تقولون إن آدم مخلوق من تراب كما بيّن النبي -صلى الله عليه وسلم-: (أنت آدم خلقك الله ونفخ فيك من روحه)، وأيضاً عيسى نفخ الله فيه من روحه. الروح هنا روح من عند الله، وليس من الله، وليست جزءً من الله جلَّ في علاه، لأنكم قلتم آدم ليس جزءً من الله فعيسى ليس جزءً من الله، وهذه بالإشارة.

أمّا بالتصريح فهو رد عليهم في عقيدة التثليث أو نقول في عقيدة المخلِّص أو عقيدة الفداء؛ هم يعتقدون أن عيسى -عليه السلام- ما بعثه الله إلّا ليفدي به جميع الخلائق من خطيئة آدم، لأن آدم لمّا أخطأ البشرية بأسرها كانت ستؤخذ بخطيئة آدم، فبعث الله المخلِّص وهو عيسى، فكيف يكون هذا رد عليهم؟ الله تاب على آدم -عليه السلام-، فإن تاب الله على آدم فكيف يأخذ ذريته بالذنب، ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ۝٥١﴾ [الأنفال: ٥١].

٩- أدب نبينا الجم، من أين نأخذ هذا؟ مع أن النبي -صلى الله عليه وسلم- أظهر الحق: (حج آدم موسى)؟! قال: (موسى النبي)، فلقّب موسى أدباً منه. وقال: (عليهما السلام)، هذا من أدب النبي -صلى الله عليه وسلم- أنه ينزل الناس منازلهم ويعرف لكل ذي قدر قدره. قال: (موسى النبي) لقّبه، وأيضاً قال: (عليهما السلام) تأدباً مع أبيه ومع أخيه موسى عليهم جميعاً الصلاة والسلام، هذا دلالة على أدب النبي -صلى الله عليه وسلم- الجم.

١٠- القدر كان في شرع من قبلنا؛ قال: (ألا تجد ذلك أن الله قد كتب هذا قبل أن يخلق السماوات والأرض بأربعين)، هذه دلالة على أن في كتب موسى أو التوراة التي خطها الله بيده وأوحاها إلى موسى يكتب فيها القدر، وأن الإنسان يحتج بالقدر على المصائب.

١١- حنو الأب مع الابن؛ صحيح أن موسى -عليه السلام- كان يجادل حتى يظهر الحق، فلمّا ظهر له الحق انصاع وسكت، لكن هنا يظهر لنا أمر مهم جداً ألا وهو حنو الأب مع الابن، كيف ذلك؟ قال له بحنو الأب: (أنت الذي اصطفاك ربك بكلامه؟ أنت الذي فضلك على البشر؟ أنت الذي كتب الله لك التوراة بيده؟)، بيّن فضائل موسى، وموسى مع ذلك اشتد وقال: (أنت أغويتنا، أنت أخرجتنا). فهذه دلالة على حنو الأب مع الابن حتى ولو كان هناك شدة في الجدال، لأن الأب يعلم أن الابن ما يجادل إلّا ليظهر الحق. سبحان الله!

١٢- أهمية العلم، من أين نأخذ هذا؟ جعل الله الحجة مع آدم على موسى مع أنه المفضول، لما فضله عليه من العلم. وهذا يدلك أيضاً على أن آدم كان فضله على الملائكة بالعلم، عندما قال: ﴿أَنۢبِـُٔونِي بِأَسۡمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ [البقرة: ٣١]، فعجزوا وما استطاعوا، فلمّا تعلم آدم الأسماء وبيّن الله فضل آدم بعلمه عليهم سجدوا لآدم وعلموا أنه من الفضل بمكان بهذا العلم، وهذه دلالة على أهمية العلم. ويا لسعادة آدم -عليه السلام- لمّا كانت الحجة معه، لأنه كان أرقى علماً في هذه المسألة فقط.

إنما تعملون في أمر قد فرغ منه

بفضل الله وبكرمه وحوله وقوته ومنه علينا ما زلنا مع هذا الكتاب الجليل "كتاب السنة"، ونسأل الله أن يديم علينا هذه الخيرات ما حيينا، اليوم إن شاء الله سنتكلم في أمر هام وهو باب من أهم الأبواب، هو باب القدر، وقلت لكم كثيراً أبواب القدر أبواب من أشق ما تكون، من أتقن هذه الأبواب أتقن أبواب العقيدة بأسرها. واليوم نحن على موعد مع أمر معين، سأؤصل لكم بإذن الله تأصيلات ثلاث من اتقنها الذي يأتي بعده يكون أيسر ما يكون. اليوم إن شاء الله على موعد مع باب ما ذكر عن النبي -صلى الله عليه وسلم- أنه قال: (إنما تعملون في أمر قد فرغ منه).

الحمد لله الصلاة والسلام على رسول الله، وبعد:

باب ما ذكر عن النبي -صلى الله عليه وسلم- أنه قال: (إنما تعملون في أمر قد فرغ منه)

عن عمر بن الخطاب أنه قال: (قلت: يا رسول الله أرأيت عملنا هذا على أمر قد فرغ منه أم على أمر نستقبله؟ فقال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: بل على أمر قد فرغ منه، قال عمر: ففيمَ العمل؟ فقال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: كلا لا ينال إلّا بعمل، فقال عمر: إذاً نجتهد).

وعن ابن عمر عن عمر -رضي الله عنهما- أنه قال للنبي -صلى الله عليه وسلم-: (أرأيت ما يعمل فيه قد فرغ منه أو في أمر مبتدأ؟ قال: فيما قد فرغ منه، فقال عمر: أفلا نتكل؟ فقال: اعمل يا ابن الخطاب فكلٌ ميسر، أمّا من كان من أهل السعادة يعمل للسعادة ومن كان من أهل الشقاء يعمل للشقاء).

وعن أبي هريرة -رضي الله عنه- أن عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- قال: (يا رسول الله أنعمل في أمر نأتنفه أم في أمر قد فرغ منه؟ قال: بل في أمر قد فرغ منه، فقال: ففيمَ العمل؟ فقال: يا عمر كلا، لا يدرك إلّا بعمل، قال: فالآن نجتهد يا رسول الله).

وعن سراقة بن مالك قال: (قلت: يا رسول الله أنعمل لأمر قد فرغ منه أم نستأنف العمل؟ قال: نعمل لشيء قد فرغ منه، قلت: يا رسول الله ففيمَ العمل؟ قال: كلٌّ ميسر له عمله، قال: فالآن نجد، الآن نجد، الآن نجد).

وعن هشام بن حكيم أن رجلا أتى رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فقال: (يا رسول الله انبتدئ الأعمال أم قد قضي القضاء؟ فقال: إن الله تعالى أخذ ذرية آدم من ظهورهم وأشهدهم على أنفسهم، ثم أفاض بهم في كفيه، فقال: هؤلاء في الجنة وهؤلاء في النار، فأهل الجنة ميّسرون لعمل أهل الجنة وأهل النار ميّسرون لعمل أهل النار).

وعن عمر -رضي الله عنه- قال: لمّا نزلت هذه الآية: ﴿فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ ﴿١٠٥﴾﴾ [هود: ١٠٥]، سألت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فقلت: أنعمل على أمر قد فرغ منه أم على شيء لم يفرغ منه؟ قال: (بل على شيء قد فرغ منه وجرت به الأقلام يا عمر، وكلٌ ميسر لما خلق له)، وإسناده ضعيف.

هذا الباب باب عظيم يبيّن للناس أن الأمر قد انتهى، أو (قد فرغ ربكم من العباد، أهل الجنة عرفوا بأسمائهم وأسماء آبائهم، وأهل النار عرفوا بأسمائهم وأسماء آبائهم). أقول هذه المسألة صعيبة جداً على كثير من الناس، ما ترى إلّا أن ينجم لك سؤالاً مهماً جداً، يقول الرجل: إذا فرغ ربنا من العباد ففيمَ العمل؟ كما فعل الصحابة، الآن أهل الجنة قد عرفوا وأهل النار قد عرفوا، ولِمَ خلق الله جلَّ في علاه للجنة أناساً وللنار أناساً؟ لِمَ لم يجعلهم كلهم لهم لأهل الجنة؟ أو يجعلهم كلهم لأهل النار؟ هذا سؤال ينجم عن كثير من الذين لا يتقنون هذا الباب.

أقول قبل أن نلج في هذا الباب العظيم نيسره بتأصيلات ثلاثة:

▪ أول هذه التأصيلات: ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الأنبياء: ٢٣]، إن الله جلَّ في علاه لا يُسأل عن شيء فعله البتة سبحانه جلَّ في علاه، وكل الخلق يسألون، لأن الله له الكمال المطلق وله الحكمة المطلقة يضع الشيء في موضعه، وأن الله جلَّ في علاه كل أفعاله خارجة عن كمالات سبحانه جلَّ في علاه. فلذلك ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴿٢٣﴾﴾ ، فلو عذّب أهل السماوات والأرض لا يُسأل عن ذلك، ولو نعّم أهل السماوات والأرض فلا يُسأل عن ذلك لحكمة منه سبحانه جلَّ في علاه، إذاً ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ﴾ لأنه الحكيم العليم الذي يضع الشيء في موضعه.

▪ التأصيل الثاني: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا﴾ [يونس: ٤٤]، ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٥١﴾﴾ [الأنفال: ٥١]، إذا خلق هؤلاء للنار وأدخلهم النار ليس بظالم لهم، وإذا خلق هؤلاء للجنة وأدخلهم الجنة فليس بظالم لهم سبحانه جلَّ في علاه، يعلم ما خفي ويعلم ما ظهر. قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا﴾ [يونس: ٤٤]، وقال جلَّ في علاه:﴿وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [النحل: ١١٨] ، ﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [النحل: ٣٣]. وأيضاً في الحديث القدسي أشرف حديث لأهل الشام كما في الصحيح، قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (قال الله تعالى: يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرماً). فالله جلَّ في علاه ليس بظلام للعبيد، فلو خلق كل الخلق وأكبهم عن بكرة أبيهم في النار فليس بظالم لهم سبحانه جلَّ في علاه، وحاشاه. ولذلك في السنن بسند صحيح أن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: (لو عذّب الله أهل السماوات وأهل الأراضين لم يكن ظالماً لهم)، هذا التأصيل الثاني الذي يريحك فيما سيأتي بأن ربك قد فرغ من العباد.

▪ التأصيل الثالث: رحمة الله قد سبقت غضب الله، ولا يهلك على الله إلّا هالك، والدلالة على ذلك كثيرة؛ لأن الله تعالى قال: ﴿وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ﴾ [الأعراف: ١٥٦]

﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا ﴿١٢٢﴾﴾ [النساء: ١٢٢]، ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا ﴿٨٧﴾﴾ [النساء: ٨٧]، وأيضاً فيو الحديث القدسي[1] كما في الصحيح أن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: (كتب كتاباً عند العرش قال: رحمتي سبقت غضبي). فرحمة الله تدرك الأمة بأسرها.

انظروا إلى رحمات الله، دعك من المسلمين الآن ورحمات الله سابغة عليهم تنزل تتراً ليل نهار على المسلمين، انظر إلى أهل الكفر، بل أعتى أهل الكفر الذين يسبون الله وينتقصون من قدره وينتقصون من قدر رسوله -صلى الله عليه وسلم- وينتقصون من قدر رسله جميعاً، الذين ينسبون له الولد ويسبونه ويشتمونه، ومع ذلك من رحمة الله جلَّ في علاه أنه يعافيهم في أبدانهم ويرزقهم من الدنيا ما اشتهوا وما لم يشتهوا، وأيضاً أعطاهم الله جلَّ في علاه أكثر وفوق ما يأملون من هذه الدنيا، هذه من رحمات الله جلَّ في علاه. ولذلك قال النبي -صلى الله عليه وسلم-[2] متعجباً مندهشاً: (ما رأيت أحدا أصبر على أذى من الله جلَّ في علاه، يسبونه وينسبون له الولد، ويرزقهم ويعافيهم)، فرحمة الله سبقت غضب الله جلَّ في علاه ورحمة الله سابغة على عباد الله جلَّ في علاه.

إذاً لا يهلك على الله إلّا هالك، فمن رحمة الله جلَّ في علاه خلق العباد، وخلقهم ليبيّن لهم ويرشدهم ما يسعدهم، فأبوا عليه ذلك، ولذلك قال الله تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ۗ﴾ [هود: ١١٨ - ١١٩]، اختلف أهل التفسير وأرجح التفسيرات في هذه: ولرحمته خلقهم، يعني ولذلك لأن يرحمهم خلقهم لكن أبوا عليه الرحمة. ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾ [فصلت: ١٧]، ما ترى واحداً من أهل الكفر أو من الزناة أو من العصاة أو من الفسّاق إلّا وجعل الله وازع الإيمان في قلبه وجعل من ينصحه وجعل من يرشده وجعل من يرده عما هو فيه، وهو عاتي ما يريد إلّا ذلك. قال الله تعالى: ﴿فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ ۚ﴾ [النحل: ٣٦]،

(١) أخرجه البخاري (٣١٩٤) واللفظ له، ومسلم (٢٧٥١) والالباني في صحيح الجامع (٥٢١٤).
(٢) أخرجه البخاري (٦٠٩٩)، ومسلم (٢٨٠٤).

فلا يهلك على الله إلّا هالك.

ثلاث تأصيلات، إن ضبطت هذه التأصيلات وعلمتها وفقهتها سهل عليك هذا الباب جداً.

هذه الأحاديث العظيمة مجمل الشرح فيها خلق الله الخلق، أو خلق الله آدم -كما وردت الآثار- ومسح على ظهره فأخرج كل ذريته ثم أشهدهم على أنفسهم: ألست بربكم؟ فشهدوا بربوبية الله قاطبةً جميعاً، شهدوا بربوبية الله جلَّ في علاه فأشهدهم على أنفسهم، وهذا ميثاق الذر: (مسح على ظهر آدم وأخرج الذرية وأشهدهم على أنفسهم/ الست بربكم؟ قالوا: بلى)، في بعض الآثار: (إن الله جلَّ وعلا أخذ بكفه بيده اليمنى قال: هؤلاء أهل الجنة ويعملون بعمل أهل الجنة، وباليد الأخرى هؤلاء في النار ويعملون بعمل أهل النار، فرغ ربكم من العباد). فلمّا خلق الله الخلق قسمهم إلى فريقين: فريق قد سعدوا وفريق قد بائسو شقوا، هؤلاء في الجنة وهؤلاء في النار. وقد ورد في الآثار والأدلة الكثيرة التي تثبت لنا ذلك، ولذلك سنتعرض لهذه الأحاديث في الكلام عن مسألتين:

- المسألة الأولى: (فرغ ربكم من العباد)
- المسألة الثانية: هل يدعو ذلك إلى التقاعس؟ هل يدعو ذلك إلى الاتكال على الكتب أو القدر المقدور؟

♦ الأول: (فرغ ربكم من العباد)، نعم فرغ ربنا من العباد قبل أن يخلق الله الخلق بخمسين ألف سنة، كتب أسماء أهل الجنة وآباء أهل الجنة والذين في الجنة والصغار الذين في الجنة، وكتب أسماء أهل النار وآباء الذين في النار والصغار الذين يكونون في أهل النار، إذا قلنا بأن صغار المشركين في النار على المرجوح، الغرض المقصود (فرغ ربكم من العباد). في مسند أحمد كما في حديث عبد الله بن عمرو بن العاص: خرج النبي -صلى الله عليه وسلم- معه كتابان؛ كتاب بيده اليمنى وكتاب بيده الأخرى اليسرى، فقال في الكتاب الذي بيده اليمنى: (فرغ ربكم من العباد، هذا الكتاب في أسماء أهل الجنة وأسماء

آبائهم وأسماء ذرياتهم) ثم أجمل على ذلك وقال: (لا زيادة ولا نقصان). وبالبد الأخرى في الكتاب الثاني قال: (وهؤلاء أسماء أهل النار وآباء أهل النار)، ثم أجمل على ذلك أغلق: (لا زيادة ولا نقصان، فرغ ربكم من العباد).

وفي الصحيح حديث علي بن أبي طالب -رضي الله عنه وأرضاه- أن النبي -صلى الله عليه وسلم- كان في مقبرة، دخل يدفنون أحداً من الموتى، فقال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (ما من أحد منكم إلّا وقد كتب مقعده من الجنة ومقعده من النار، فرغ ربكم من العباد، هذا من أهل الجنة وهذا من أهل النار)، ولذلك قال علي لرسول الله -صلى الله عليه وسلم-: (ففيمَ العمل؟ قال: اعملوا فكل ميسر لما خلق له)، ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ ۝٨ وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٩ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ ۝١٠﴾ [الليل: ٥ – ١٠].

وأيضاً في حديث عمران بن حصين -رضي الله عنه وأرضاه- لّما حضر عقل التابعي الذي يسأله عن القدر وقال له: أترى ما نعمل؟ أفيما نستقبل أم أمر قد مضى علينا وكتب؟ قال: فيما مضى، قال: أليس هذا بظلم؟ عمران يسأل التابعي لينظر في عقله قال: أليس هذا بظلم؟ قال: حاشا لله، لأن عنده التأصيلات هذه أن ربنا ليس بظلّام للعبيد، قال: ما قلت ذلك إلّا لأرى قوة عقلك. فإن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- سأله نفس السائل فقال: (يا رسول الله أرأيت فيما نعمل؟ أمر نستقبله أم هو فيما مضى؟ قال: بل فيما مضى، قال: أفلا نتكل يا رسول الله؟ قال: لا، اعملوا فكل ميّسر لما خلق له). وأيضاً في حديث عمر -رضي الله عنه وأرضاه- أنه قال: (أرأيت ما يعمل فيه قد فرغ منه أو في أمر مبتدأ؟ قال: فيما قد فرغ منه، فقال عمر: أفلا نتكل؟ فقال: اعمل يا ابن الخطاب فكلٌ ميسر). فهذه أحاديث كثيرة تثبت لنا أن الله جلَّ وعلا فصل الأمر في العباد، فريق في الجنة وفريق في السعير.

ويدلك على ذلك أيضا حديث الصحيحين عن النبي -صلى الله عليه وسلم-: (إن الله

كتب كل شيء)؛ "كل" نص في العموم، يعني كتب أهل الجنة وكتب أهل النار، (كتب كل شيء قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة). وأيضاً النبي -صلى الله عليه وسلم- قد بيّن أنه رفعت الأقلام وجفت الصحف: (إن ما أصابك لم يكن ليخطئك، وما أخطأك لم يكن ليصيبك).

إذاً فرغ ربكم من العباد كتب أهل الجنة وكتب أهل النار قبل أن تولد، بل قبل أن تخلق بخمسين ألف سنة، عُرِف أهل الجنة وعُرِف أهل النار. إذا اعتقدنا هذا اعتقاداً جازماً فإن هذا من تمام الإيمان بربوبية الله، أما قلنا بأن العلم والكتابة وأن القدر سر من أسرار الله، وهو من لوازم الإيمان بربوبية الله جلَّ في علاه، إذاً من تمام الإيمان بربوبية الله جلَّ في علاه أن تعلم أن الله قد فرّق الناس إلى فريقين فريق في الجنة وفريق في السعير وعلم ذلك وكتب ذلك قبل أن يخلق أن يخلق السماوات بخمسين ألف سنة. وهذه دخل فيها المؤمن والكافر، لأن كثير من المشركين يؤمنون بالربوبية كما سنبيّن.

إذاً لمّا فرغ ربنا من العباد، لا بد من السؤال الذي نجم لعمر ينجم لنا ونقول: إذا علم أهل الجنة وأهل النار فلِمَ العمل؟ هل هذا العلم يجعلنا نقصّر في الأعمال؟ يجعلنا نتقاعس في الأعمال؟ أقول: الإجابة لا وألف لا، بل العلم بأن الله جلَّ في علاه قد كتب أهل الجنة وأهل النار يجعلنا نجد ونجد ونسعى، وهذا من فقه الصحابة العالي. ولذلك النبي -صلى الله عليه وسلم- لمّا قال: (لا يا ابن الخطاب اعمل)، وقال: (لا يا ابن الخطاب إنما عند الله لا ينال إلّا بالعمل، قال: الآن نجد، الآن نجد، الآن نجد). وقال بعض السلف: والله ما ازددت اجتهادا في عبادة ربي حتى علمت أن الأمر قد فرغ منه؛ لمّا علموا أن الله جلَّ وعلا علم مكان العباد اشتدوا في العبادة كما سنبين. إذاً الإجابة لا، والله هذا العلم يجعلنا نجتهد ونزداد في عبادة الله جلَّ في علاه، كيف ذلك؟ نقول من وجوه ثلاثة، وهذه الوجوه هي التي تحث الإنسان الذي آمن بالقدر على أن يجد في عبادة الله جلَّ في علاه:

١- أولها بأن الفطرة والعقل والشرع يقرُّون بأن الله جلَّ في علاه هو الذي خلق

الأسباب وخلق المسببات وربط النتائج بالمقدمات، فمن رام الجنة وأراد الفردوس الأعلى علم بالفطرة وبالعقل وبالشرع، ويقدِّم الشرع، وأخرته الآن لأني أبين أن هذه مجبول عليها الإنسان، بالفطرة وبالعقل وبالشرع أن الإنسان إن رام الفردوس الأعلى وجب عليه أن يجد على طريق الفردوس الأعلى، من الاجتهاد في الفرائض ثم النوافل ثم الاستغفار ثم التوبة ثم الأوبة ثم العمل لدين الله جلَّ في علاه، ثم يكون المرء وقفاً لله جلَّ في علاه ليصل إلى الجنات.

(قال الرجل لرسول الله -صلى الله عليه وسلم- عندما أراد أن يكافئه بعد ما أتاه بالوضوء، فقال: اطلب، فقال له: ما أطلب إلّا مرافقتك في الجنة، فقال: أو غير ذلك؟ قال: هو ذلك، قال: أعني على نفسك بكثرة السجود)، فإن أبواب الجنة مفتوحة على مصرعيها لمن سعى في طريق الجنة وسعى في مرضاة الله جلَّ في علاه.

أيضاً عقلاً يمكن لنا أن نسرد لك قصة رجل فقيه عالي الفقه، متقن جدا في أبواب القدر، علم من الشرع أن النبي يباهي بهذه الأمة الأمم يوم القيامة، وأن المقصود الأسمى من الزواج والنكاح هو كثرة النسل وكثرة الأولاد، قال: إذاً أقيم هذا الشرع، أفرح نبيي بذلك، فاتصل بامرأة فعقد عليها وقال: أتزوجها من أجل إكثار النسل حتى يفرح ويسعد رسول الله -صلى الله عليه وسلم- بذلك، فلمّا عقد عليها وتزوجها قال: إذاً سأنجب الأولاد. أنتِ في بلدك في فلسطين مثلاً أو أنتِ في بلدك في سوريا أو أنتِ في مصر وأنا في الإمارات، وطالما حدث العقد فإن الولد سيأتي، المرأة كانت عاقلة قالت: كيف وأنت بعيد عني لم تمسني؟ مريم نفسها عندما بُشّرت بعيسى ماذا قالت؟ أبشر بولد ولم يمسسني بشر!! فكأنها استشكلت الأمر وقالت: كيف ذلك؟ قال: ألا تؤمنين بالقدر، إنما قدر سيكون وإليك الحديث الذي يثبت ذلك: إن النبي -صلى الله عليه وسلم- لمّا جاءه جابر وغيره قالوا: نعزل عن الإماء حتى لا تلد ونستطيع بيع الإماء، فقال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (عزلت أو لم تعزل، إن قدّر الله جلَّ في علاه خلق النطفة لو كانت على صخرة لخُلِقت)، فقال: هذا دلالة واضحة على أن الله جلَّ وعلا إذا قدر الولد فالولد سيأتي وأنتِ

في مصر وأنا في الإمارات. فجلس الرجل دهراً ينتظر التليفون الذي يبشره بالمولود، فلمّا سمع الناس عن قصته قالوا هو فقيه عالم بالقدر يريد الولد وقد تزوج، لم يعمل. قال: مكتوب، أنا لي ولد عبدالله وأحمد وزيد وعبيد.

نقول خالفت العقل والفطر والشرع، فإن الله جلَّ في علاه ربط المسببات بالأسباب، والنتائج لا تكون إلّا بالمقدمات. إذاً الجنة لا تكون إلّا بالعمل الصالح، هذا أول ما يجعل الإنسان أن يجد ويعلم أنه لن يصل إلى العلا إلّا بالعمل الصالح، بالأخذ بالأسباب، ولذلك قال قائلهم: من جد وجد، ومن طلب العلا سهر الليالي.

لا تحسبن المجد تمراً أنت آكله لن تبلغ المجد حتى تلعق الصبرا

لا بد من عمل وجد واجتهاد حتى تصل إلى ما تريد.

أمّا الملحدون الذين يضربون الشرع بالعقل، يقولون ما كتب سيكون، نعم هو سيكون رغم أنفك سيكون، لكن الله جلَّ في علاه قد ربط ما سيكون بسببه. فإن الله جلَّ وعلا بيّن أن الأرض لا تنبت إلّا أن تضع البذرة وإلّا أن ينزل المطر وإلّا أن ترعاها وإلّا أن تنتفي الموانع حتى تنبت هذه النبتة أو هذه الثمرة، فلا بد من توفر الشروط وانتفاء الموانع. إذاً الوجهة الأولى التي تجعل الإنسان يقول: لا والله اجتهد أجد الآن، أجد الآن أجد الآن، كما قال عمر، لأن الله جلَّ في علاه بالفطرة وبالعقل وبالشرع خلق المسببات وخلق الأسباب وربط النتائج بالمقدمات، لا يمكن أن تدخل الجنة إلّا بالعمل الصالح. الذي يجعلنا نجد ونجتهد في عبادة الله أن نعلم أن القدر قد كتبه الله والقدر هذا مكتوب بسببه، أن الله جلَّ وعلا كتب أن محمد يدخل الجنة بعمله الصالح، توافقون؟

الآن إذا وافقنا على أن الله جلَّ وعلا ربط النتائج بالمقدمات فماذا تقولون عن حديث النبي -صلى الله عليه وسلم- عندما قال لأصحابه[1]: (لن تدخلوا الجنة بعملكم، قالوا:

(١) أخرجه البخاري (٦٤٦٤)، ومسلم (٢٨١٨).

ولا أنت يا رسول الله؟ قال: ولا أنا، إلّا أن يتغمدني الله برحمته)، هذا إشكال عظيم. قلنا إن الأوجه التي تستحث الإنسان وتستنهضه على أن يعمل أن الله جلَّ وعلا قال: قدر أهل الجنة يكونوا في الجنة بسبب أن يعملوا بعمل أهل الجنة، وهذا الدليل الواضح جداً أن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: (اعملوا فكلٌ ميسر لما خُلِق له)، كما سنبين أن هذه في بشارة الله جلَّ في علاه.

ماذا نفعل بحديث النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: (لن تدخلوا الجنة بعملكم)؟

"الباء" هنا ليست للنفي، هنا "الباء" نفي المقابلة، يعني الباء هنا ليست بالمقابلة لا يمكن أن تدخل الجنة بعملك، العين فقط تطيش بكل الأعمال. فباء المقابلة منفية، نفاها النبي -صلى الله عليه وسلم-: ولا أي عمل يوافي ولا يكافئ نعمة من نعائم الله جلَّ في علاه، فهنا لم ينفِ النبي أن تدخل بعملك، ينفي أن تدخل بعملك فيكون الجنة مقابلها الأعمال. وهذا قول المعتزلة يقولون: ندخل الجنة بما فعلنا وتعبدنا لله جلَّ في علاه، ولا ينظرون لنعائم الله. فنفي النبي هنا للباء "باء المقابلة"، نفى المقابلة أن تكون الجنة ثمن للأعمال، وأثبت باء السببية لأن الله جلَّ وعلا قال: ﴿جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ١٧﴾ [السجدة: ١٧]؛ بسبب ما كانوا يعملون، باء سببية، والتفاوت بهذه الأعمال، لكن النفي هنا في الباء على أن تكون للمقابلة.

إذاً أثبت النبي -صلى الله عليه وسلم- أن للأعمال تأثير، والله جلَّ وعلا أثبت في كتابه أن للأعمال تأثير، وأن العبد إذا سار على نهج أهل الصلاح وسار على عمل أهل الجنة فهو من أهل الجنة كما قال النبي -صلى الله عليه وسلم-، فمن كان من أهل الجنة فييسر عليه عمل أهل الجنة فيعمل بعمل أهل الجنة، وإن كان من أهل النار فييسر عليه عمل أهل النار فيعمل بعمل أهل النار، نعوذ بالله من الخذلان. إذاً هذا الوجه الأول الذي يجعل نستنهض الأمة بمعرفتها بالقدر أن تسارع في طاعة الله جلَّ في علاه، لأن الله جلَّ في علاه جعل النتائج مرتبطة بالمقدمات.

٢- الوجه الثاني وهو وجه مهم جداً، ألا وهو إذا قلنا الإيمان بالقدر أو الإيمان بأن الله قد فرغ من عباده وكتب أهل وكتب أهل النار، هذا من تمام الإيمان بربوبية الله جلَّ في علاه. والإنسان لا ينجو بالربوبية، لا بد له من الإلهية. فنقول: الإيمان بالقدر المكتوب والعلم السابق من الله جلَّ في علاه، هذا إيمان بالربوبية، ويلزم لنجاة المرء أن يؤمن بالإلهية، والإيمان بالإلهية هو الائتمار بأمر الله جلَّ في علاه. فالقدر ربوبية، والشرع إلهية، ولا ينجو المرء إلّا بقدر وبشرع، إلّا بربوبية وإلهية.

فمن تمام الإيمان بالإلهية أن يعمل بشرع الله جلَّ في علاه، وشرع الله فيه: يا أيها الذين آمنوا أقيموا الصلاة، يا أيها الذين آمنوا لا تشربوا الخمر، يا أيها الذين آمنوا افعلوا، يا أيها الذين آمنوا لا تفعلوا. فمن تمام الإيمان بإلهية الله جلَّ في علاه أن تأتمر بأمر الله، وأن تنتهي عمّا نهاك الله جلَّ في علاه. فإذاً إذا آمنت بالشرع وعملت به فقد آمنت لزوماً أو ضمنا بربوبية الله، وهو علم الله السابق. فالوجه الثاني الذي يستحث الإنسان ويستنهض الأمة على العمل أن نقول: من تمام الإيمان بإلهية الله جلَّ في علاه أن تؤمن بالشرع وتعمل به، لا تضرب القدر بالشرع.

٣- الوجه الثالث الذي نقول فيه بالإجابة على السؤال، هل نتقاعس بعد ما علمنا أن الله قد فرغ من العباد؟ لا والله، البشارة هي التي تحثنا على العمل؛ إن النبي -صلى الله عليه وسلم- بيّن عندما أمر ابن الخطاب (اعمل)، أمره شرعاً، وهذا أمر لا بد أن نعمل به. ثم بشره قال: (اعمل فكلٌ ميسر لما خلق له)؛ فالجزئية الأولى أمر من النبي، فوجب عليك إن لم تستطع أن تتفهم الإيمان بالقدر وبربوبية الله والإيمان بالشرع إيمان بإلهية الله جلَّ في علاه، وأن الإيمان بالقدر لا يتم حتى لا تضرب الشرع بالقدر، إن لم تستطع أن تصل إلى هذا وتتفهم هذا، فما عليك إلّا أن تقول خلقني الله لأكون عبداً.

أنت ما استطعت أن تتصور مسألة القدر والشرع والربوبية وإلهية، أقول لك أمر أسهل من ذلك، لِمَ خلقك الله؟ للعبادة ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [الذاريات: ٥٦].

ما معنى أن يعبد الله؟ أن يأتيه الأمر من الله فيقول سمعت وأطعت، وأن يأتيه الأمر من رسول الله فيقول سمعت وأطعت. الآن جاءك الأمر، فإذاً لا بد أن نستحثك على العمل بأمر الرسول -صلى الله عليه وسلم-، قال: (احرص على ما ينفعك، واستعن بالله ولا تعجز). ما تستطيع أن تنظر لعين القدر وعين الشرع، اعمل بما أمرك به النبي -صلى الله عليه وسلم-، فإذا عملت بما أمرك به النبي -صلى الله عليه وسلم- فنزف إليك بشارة أن الله جلَّ وعلا قد كتبك من أهل الجنة. إذا سمعت وأطعت عندما قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (اعمل يا ابن الخطاب)، فإذا سمعت وأطعت لك هذه البشرى، أنت من أهل الجنان.

كيف ذلك؟ أنرجم بالغيب؟ قلنا لا والله، فإن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: (فكلٌ ميسر لما خلق له)، هذه بشارة. إذا علمت أن الله جلَّ وعلا يفتح لك أبواب الطاعة من حيث لا تدري؛ تجلس في مجالس العلم، تذكر الله جلَّ في علاه، تراجع ما علمت من مسائل، تقرأ القرآن، تستغفر الله، تقوم سحراً، ترى نفسك في ضائقة فترفع يديك فتبكي فتبتهل فتتمسكن فتخضع لله جلَّ في علاه، تذكر هذه البشارة من النبي -صلى الله عليه وسلم- وهو يقول: (كلٌ ميسر لما خلق له). فمن جلس في مجلس العلم واستدام عليه قال لنفسه: إذاً أنا ميسر للعلم، أنا ميسر لعبادة الله جلَّ في علاه، أنا ميسر لأنشر دين جلَّ في علاه، إذاً قد كتبني الله جلَّ في علاه في اللوح المحفوظ أنني من أهل الجنان، فيزيدك ذلك خيراً على خير.

والذي فقه هذه المسألة جداً رسول الله أولاً، ثم بعد ذلك أبو بكر، ثم عمر ثم عثمان ثم علي، ثم خيار الصحابة، ثم من بعدهم من التابعين الذين عقلوا عن رسول الله مراده. إليكم الصور التي تثبت لكم أن هذه البشارة هي التي حركت القلوب وشدت السواعد للاجتهاد في طاعة الله جلَّ في علاه؛ قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۝١ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ۝٢ ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ ۝٣ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ۝٤﴾ [الشرح: ١ - ٤]، رفع الله له ذكره وغفر له ذنبه، لِمَ العمل؟ ولذلك عائشة استشكلت هذه المسألة، قام النبي -صلى الله عليه

وسلم- مجتهداً في عبادة الله جلَّ في علاه تتورم قدماه من كثرة القيام، فقالت له عائشة -رضي الله عنها وأرضاها-: أنت عبد قد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر!! وهذا قدر انكشف لرسول الله، قطعي لا احتمال فيه، قال: (أفلا أكون عبداً شكوراً)، فما زاده علمه بالقدر إلّا الاجتهاد فوق الاجتهاد.

قال الله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا ٧٩﴾ [الإسراء: ٧٩]، "عسى" في القرآن كما قال ابن عباس: واقعة استوجبت، (عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ) يعني إذاً ربك يبيّن لك وكشف لك الغيوب وفي القدر كتب (عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ) يعني سيبعثك ربك مقاماً محموداً، ما زاده إلّا اجتهاداً. لمّا قال الله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ﴾، أي من بعض الليل، كان النبي -صلى الله عليه وسلم- يقوم من الليل أكثره ويقوم حتى تتورم قدماه، بل لمّا ثقل عليه اللحم وكبر سنه كان رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يقرأ بما كان يقرأ به شباباً، لكن كان يقرأ قاعداً إلى أن يصل إلى مئة آية، ما بقي عليه إلّا المئة آية، فعندما يصل إلى المئة آية يقوم النبي -صلى الله عليه وسلم- ويقرأ المئة آية قائماً، والباقي كان يقرأ بها قاعداً لما شعر من التعب أو ثقل لحمه، فهذا اجتهاد النبي -صلى الله عليه وسلم- بعد ما علم القدر.

أبو بكر -رضي الله عنه وأرضاه- أشد الناس اجتهاداً في عبادة الله بعد رسول الله، مع أنه بشر بالجنة وهو يمشي على الأرض، عرف مكانته عند رسول الله وعرف مكانته عند ربه جلَّ في علاه؛ رسول الله -صلى الله عليه وسلم- اشتد غضبه على عمر الفاروق من أجل أبي بكر، وكان أبو بكر مخطئاً في حق عمر، كان في تعامل أبي بكر حدة على أنه أرحم الأمة بالأمة، فاشتد على عمر ثم رجع إلى عمر يتسامح (يعني يطلب السماح من عمر)، فأبى عمر، فقال: لأستعدين عليك رسول الله. فذهب إلى رسول الله وهو يأخذ بطرف ثوبه حتى ارتفع إلى ركبته، فنظر إليه النبي -صلى الله عليه وسلم-، وهذه ليست فراسة أي مؤمن، هذا سيد المؤمنين، قال: (أمّا صاحبكم فقد غامر).

ثم دخل أبو بكر فاشتكى له، فاشتد غضب النبي -صلى الله عليه وسلم-، حتى جاء عمر عاتب نفسه فرجع إلى بيت أبي بكر فقال: أثم هو؟ أثم أبو بكر؟ هنا أبو بكر؟ فقالوا: لا. فذهب إلى المسجد ليرى أبا بكر، فلمّا ذهب وجد رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، فعلم أبو بكر من وجه رسول الله أنه سيشتد على عمر من أجل أبي بكر، فقال: والله يا رسول الله كنت أظلم، أنا أظلم يا رسول الله، حتى يهدأ الأمر على عمر. فلمّا دخل، فقال النبي -صلى الله عليه وسلم- مغضباً لعمر يبيّن له مكانة أبي بكر -رضي الله عنه وأرضاه-: (هلا تركتم لي صاحبي، قد قلتم كذب وقال صدق، وواساني بأهله وماله، سدوا عني كل خوخة إلّا خوخة أبي بكر).

أبو بكر -رضي الله عنه وأرضاه- بيّن النبي -صلى الله عليه وسلم- أنه أفضل الأمة بعد نبيها -صلى الله عليه وسلم-، ومع ذلك لما علم أنه من أهل الجنان وعلم أنه الصاحب الخليل للنبي -صلى الله عليه وسلم- لم يحمله هذا على التقاعس عن العبادة، بل اشتد واجتهد في العبادة.

عمر بن الخطاب الوزير الثاني لرسول الله -صلى الله عليه وسلم-، له مكانته المعروفة؛ يقول النبي -صلى الله عليه وسلم- عنه: (لو سلك عمر فجاً لسلك الشيطان فجاً غير فج عمر). عمر -رضي الله عنه وأرضاه- ما ترك العبادة قط، بل كان يقوم من الليل يفزع الشياطين، لمّا مر النبي -صلى الله عليه وسلم- على قيام ليل لأبي بكر فوجده يصلي بصوت منخفض، ولمّا مر على عمر فوجده يصلي بصوت جهوري، فسأل فقال: هو يوقظ النائم ويفزع الشياطين، يفر الشيطان من عمر -رضي الله عنه وأرضاه-. وبشر بالجنة وهو يمشي على الأرض، وكان يشتد في عبادة الله جلَّ في علاه بعد ما تعلم القدر، ولذلك في حديث علي بن أبي طالب: عندما رأى النبي -صلى الله عليه وسلم- أبا بكر ورأى عمر يمشيان فقال لعلي بن أبي طالب: (أرأيت هذين هما سيدا كهول أهل الجنة، فقال علي بن أبي طالب: يا رسول الله أفلا أبشرهما؟ قال: لا)، شفقة عليهم من شدة الاجتهاد في عبادة الله جلَّ في علاه.

فهذه كلها صور تبيّن لنا الذين أتقنوا قدر الله جلَّ في علاه وعلموا أن الله قد فرغ من العباد، اشتدوا واجتهدوا في عبادة الله، لأنهم علموا أن الله جلَّ وعلا ربط النتائج بمقدماتها أو المسببات بالأسباب. هذا آخر ما يتكلم في هذه المسألة، ولعلنا بلغنا نقول الأصل الأصيل في هذه المسألة أن تعلم أن الله جلَّ في علاه لن يدخلك الجنة إلّا بعملك، وعملك هذا من تيسير الله عليك، لو كتبك الله في الأزل أنك من أهل الجنان. فليستبشر من وجد نفسه يسارع في الخيرات ويسارع في التوبة من المعاصي والمحرمات، وليحزن على نفسه من رأى نفسه إذا أراد الخير صد الباب في وجهه، ومن سعى إلى أن يرضي ربه فلا يرضيه، فليعلم أنه على خطر عظيم ولعل الله قد كتبه من الأشقياء، نعوذ بالله من الخذلان.

الفوائد المستنبطة:

١- الصحابة أفقه الناس؛ وهذا يقوي مذهب بعض الأصوليين وهو قول الشافعي، قال في القديم: قول الصاحب حجة.

الصحابة أفقه الناس، الدلالة على ذلك سؤال عمر، فإن العلم لا يكون إلّا بالسؤال. فعمر لم يستحِ بين الناس أن يسأل ويكرر السؤال على النبي -صلى الله عليه وسلم-: ففيمَ العمل يا رسول الله؟ وهو يعلمه النبي -صلى الله عليه وسلم-، ثم بعد ما يعلم يعمل. هتف العلم بالعمل فإن أجابه وإلّا ارتحل.

ولذلك قلنا كثير من المحدثين، أربعون حديث لا بد أن تعمل بحديث واحد. تعلمت أربعين مسألة، اعمل بمسألة واحدة تتعبد بها لله جلَّ في علاه. ولكن عمر بن الخطاب ومن معه من الصحابة كان إذا تعلم مسألة لا يمكن أن يعدوها حتى يعمل بها ويستمر على العمل بها، ولذلك ذكر أن عمر بن الخطاب ما حفظ سورة البقرة إلّا في سنوات عدة، ست سنوات أو أكثر، لأنه كان يحفظ الآية فيتقنها فيصلي بها، فيتعبد بها لله جلَّ في علاه، هذا كان دأب صحابة رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، وهذا من علو فقه هؤلاء الأخيار.

هذا يجرنا إلى الفائدة المهمة: قول الصاحب حجة؛ فسرنا الفائدة المستنبطة لكن هذه الفائدة كيف تجرنا إلى أن نقول "قول الصاحب حجة"؟ هناك خلاف أصولي: لو جاءك قول عن عمر، جاءك قول عن زيد بن ثابت، جاءك قول عن ابن عباس، هل يكون حجة عليك تتعبد الله بهذا القول وتعمل به أم لا؟ نقول هذا الحديث يقوّي مذهب من قال "قول الصاحب حجة"، إذا قلنا أفقه الناس هم الصحابة وأعقل الناس عن مراد الله ومراد رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، إذاً هم أقرب الناس إلى الصواب، فإن اجتهدوا في أي مسألة فهم أقرب الناس للصواب، للتقى والورع والزهد في الدنيا والعمل بما علموا، أبر الناس قلوباً وأحسن الناس خلقاً، أخير الناس اختارهم الله جلَّ في علاه صحبةً لنبيه -صلى الله عليه وسلم-، إذاً قول الصاحب واجتهاد الصاحب يكون حجة عند عدم المخالفة.

بعض الأصوليين ما غض الطرف، قال: نعم، قول الصاحب حجة ويكون إجماع أصولي إن لم يكن هناك مخالفة. لكن نقول لو كانت المخالفة، ننظر في القول الأول والقول الثاني، ولنا قرائن في الترجيح؛ إن كان القول الأول قول لأبي بكر وإن خالف عمر والأمة بأسرها قول أبي بكر يقدّم، لأن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: (اقتدوا بالذين بعدي أبي بكر وعمر)، وأبو بكر بالإجماع يقدّم على عمر، وعمر نفسه قال: ليتني شعرة في صدر أبي بكر -رضي الله وأرضاه-. وإذا اتفق أبو بكر وعمر فدعك من أي أحد يخالفهم بعد ذلك، يعني دعك من قول من يخالف، لكن كلهم أخيار بفضل الله، لكن خذ وعض بالنواجذ على قول أبي بكر وعمر لقول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (إن يتبعوا أبا بكر وعمر يرشدوا)، الرشد كل الرشد أن تتبع أبا بكر وعمر. إن كان علي بن أبي طالب وعمر وأبو بكر وعثمان، فالخلفاء الراشدين الأربعة قال فيهم النبي -صلى الله عليه وسلم-: (عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي، عضوا عليها بالنواجذ).

٢- إذا أراد الله شيئاً هيأ له السبب؛ غزوة بدر، هذه الغزوة ما أرادها النبي -صلى الله عليه وسلم-، ما خرج رسول الله إلّا للعير، وما خرج يريد قتال قريش، وما خرج يريد

الغزوة بحال الأحوال، الآية التي تدل على ذلك: ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ ۝٧﴾ [الأنفال: ٧]. الذي يفسر لك ذلك أنه ما أراد النبي الغزوة، ولكن لّما أراد الله الغزوة هيأ له الأسباب، ﴿إِذْ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِى مَنَامِكَ قَلِيلًا وَلَوْ أَرَىٰكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ﴾ [الأنفال: ٤٣]، وقال: ﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ فِىٓ أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِىٓ أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾ [الأنفال: ٤٤]، إذاً هذه تهيئة لأمر يقضيه الله جلَّ في علاه، فإذا أراد الله شيئاً هيأ له سبباً.

لّما أراد الله جلَّ في علاه أن يبعث محمداً هيأه تهيئة كاملة؛ جعله يتيماً، جعله صادقاً، جعله أميناً، جعله زاهداً، جعله تقياً ورعاً، لا يشرب الخمر، لا ينظر إلى النساء، لا يذهب إلى الأفراح، جعله زاهداَ متعبداَ يتقلل من الدنيا، وحبب إليه الخلوة يخلو بنفسه حتى يأتيه الملك، وهو قد تكاملت كل الكمالات في البشر، وضعت بالنبي -صلى الله عليه وسلم-، فهيأ النبي -صلى الله عليه وسلم- حتى يبعثه، والأمثلة على ذلك كثيرة. الغرض المقصود بالمثال فقط تتضح الفائدة، من أين استنبطنا هذه الفائدة؟ (فأهل الجنة ميسرون)، فإذا أراد الله جلَّ في علاه بعبدٍ خيراً يسر له أبواب الخير وفتح له أبواب الخير، إن كان جاهلاً علّمه، لأن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: (من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين)، فأول أبواب الجنان أن تتعلم دينك، فإن تفقهت في دينك فأنت على الطريق المستقيم الذي يصل بك إلى الجنان، فإن الله إذا أراد شيئاً هيأ له سببه.

٣- إثبات العمل للإنسان وفيه الرد على الجبرية، لأن الجبرية يقولون أن لا إرادة للعبد ولا عمل للعبد، ألقاه في اليم مكتوف اليدين وقال إياك إياك أن تبتل، فكذّبهم الله في هذه الأحاديث. من أين استنبطنا هذا؟ (فسيعمل بعمل أهل الجنة)، نسب العمل له، وفيه الرد على الجبرية.

٤- إثبات الكف لله، (ثم أفاض بهم في كفيه)، أثبت النبي -صلى الله عليه وسلم- لله

الكف، والكف صفة ثبوتية ذاتية خبرية.

- ثبوتية: يعني ثبتت لله بالكتاب والسنة أو بالسنة، وقد ثبتت بالسنة.

- ذاتية: يعني لا تنفك عن الله جلَّ في علاه.

- وخبرية: ضابط الخبرية أن مسماها عندنا أجزاء وأبعاض، هي أجزاء وأبعاض مني، لكنها بالنسبة لله صفة كمال وجلال سبحانه جلَّ في علاه.

٥- الدلالة الواضحة على أن ميثاق الذر ليس بحجة؛ ربط دخول الجنة بالعمل، والعمل لا يعرف إلّا بإرسال الرسل، لأن مسألة المعتزلة هم الذين يقولون بالاستحسان والاستقباح، لكن نحن نقول العمل حسن أو العمل فاضل عند الله جلَّ في علاه لا نعرفه إلّا بالشرع، فهو قال: وهو ميسر لهذا العمل عمل أهل الجنة، ولا يعرف العمل إلّا بميثاق الرسل أو بإرسال الرسل.

أيضاً في وجهة أخرى تبيّن لنا دلالة واضحة على أن ميثاق الذر ليس بحجة، هو الذي قال فيه النووي في مسألة أهل الفترة، لا بد يؤمنوا بالربوبية وأن يأتوا بها وبالتوحيد ولا يشركون، نحن نقول هم آمنوا بالربوبية ومع ذلك قسمهم الله إلى فريقين: فريق في الجنة وفريق في السعير، إذاً ميثاق الذر غير مؤثر. وإن كانت هذه الوجهة فيها شيء من النظر، لكنها أيضاً تعضد ويستأنس بها على أن ميثاق الذر ليس بحجة.

٦- الكتابة كتابات؛ في إسناد ضعيف لكن نحن نستفيد ونقول له شواهد، (وجرت به الأقلام)، فلمّا قال "أقلام" أثبت لنا القلم الأول الذي كتب في اللوح المحفوظ، والقلم الثاني قلم الملك الذي يأتي وهو في بطن أمه، والقلم الثالث قلم الملائكة التي تكتب العمل العمري واليومي. الكتابات التي بيّناها لأنه قال: (جرت الأقلام)، جمع قلم، إذاً ليس بقلم واحد هم أقلام.

٧- لا نسب بين الله وبين عباده؛ يا لها من قوة هذه المسألة، وهذه والله ما أردت أن

أكتب هذه الفائدة، أنا خفت على نفسي لأن ما منا من أحد إلّا وقد قصّر في حق الله جلَّ في علاه، وما منا إلّا ويتمنى شيئا عند ربه وعمله لا يصل به إليه، ودائماً تزعجني هذه القاعدة وهذه الفائدة، وهذه الأحاديث تتم لنا هذه الفائدة: لا نسب بين الله وبين عباده. طبعاً نذكركم بما قلنا قبل ذلك في الآثار التي لا تصدق ولا تكذب، أن داوود -عليه السلام- قال: رب كن لسليمان كما كنت لي، فأوحى الله إليه اجعل سليمان يكون لي كما كنت أنت لي، أكون له كما كنت لك.

من أين نأخذ هذا "لا نسب بين الله وبين عباده"؟ قال: (لا يدرك إلّا بعمل)، لا تدرك يا عمر يا ابن الخطاب، لا تدرك ما عند الله إلّا بالعمل. وذكرني هذا الحديث بأخ لي له أماني واسعة، يريد أن يكون عالماً طالباً للعلم متقناً، يريد كذا وكذا وهو لا يجد في هذه المسألة، حتى في دروس العلم ما يتقن أن يأتي مبكراً أو يتقن ان يلزم نفسه في طلب العلم، فكيف يكون عالماً؟ فكيف يكون طالباً للعلم وهو لا يدارس في المسألة ولا حتى يجلس في مجالس العلم يتذلل في مجالس العلم حتى يكون عالماً؟ هذه أماني، والذي أتبع نفسه الأماني قد خاب وخسر وما ربح، ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّى شَيْـًٔا وَسِعَ رَبِّى كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا﴾ [الأنعام: ٨٠]. هذه المسألة مستثناة، لأن كثرة العمل ليست علامة على القرب من الله جلَّ في علاه، لكن المسألة كلها تدور على هذا، وهذا كلام يفصّل في مقام آخر.

٨- لا انشغال برزق، سواء رزق الآخرة أو رزق الدنيا، إذ الرزق رزقان: رزق آخرة ورزق دنيا، أو نقول: رزق قلوب ورزق أبدان.

- وأمّا رزق القلوب فعلى الله،

- وأمّا رزق الأبدان أيضاً على الله من باب أولى، أو تضمينا كما في الحديث: (نفث في روعي الروح الأمين أنه لن تموت نفس حتى تستوفي أجلها ورزقها، فاتقوا الله وأجملوا الطلب).

أمّا الفائدة كيف استنبطناها؟ استنبطناها من كلام عمر بن الخطاب عن النبي -صلى

الله عليه وسلم-، عندما قال له النبي -صلى الله عليه وسلم-: (يا عمر إن ما عند الله لا يدرك إلّا بالعمل)، و "ما" تدل على العموم؛ إن ما عند الله من رزق الدنيا، إن ما عند الله من رزق القلوب، إن ما عند الله من رزق الأرواح، إن ما عند الله من رزق الآخرة، لا يدرك إلّا بالأعمال. لا يمكن أن تجد رجلاً يريد الغنى ويريد المال وليس بتاجر وليس بعامل وليس بمدير، نائم على سريره ويقول غداً ستمطر السماء فضة وذهب!! تمطر نعم، لكن خذ بالأسباب حتى تمطر عليك السماء.

فالصحيح الراجح في ذلك أن نقول: إن ما عند الله لا يدرك إلّا بالعمل، لا انشغال بالرزق لكن خذ بالأسباب، والله جلَّ وعلا قد كتب الرزق عنده وسيأتيك ويبحث عنك كما يبحث عنك ملك الموت لتموت.

١-أخرجه البخاري (٣١٩٤) واللفظ له، ومسلم (٢٧٥١) والالباني في صحيح الجامع (٥٢١٤)

٣-أخرجه البخاري (٦٤٦٤)، ومسلم (٢٨١٨).

باب الطبع والجبل والخير

وعن عبد الرحمن بن أبي بكرة -رضي الله عنهما- قال: قال لي أشج بن عصر قال: قال لي رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: (إن فيك لخلتين يحبهما الله عز وجلَّ، قال: قلت: وما هما؟ قال: الحلم والحياء، قلت: قديماً كانتا فيّ أم حديثاً؟ قال: قديماً، قال: الحمد لله الذي جبلني على خلتين يحبهما الله عز وجلَّ).

وعن أبي هريرة -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: (إذا اشترى أحدكم خادماً فليأخذ بناصيته وليقل: اللهم إني أسألك من خيره وخير ما جبلته عليه). وعن أبي هريرة -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: (مُغير الخُلق كمُغير الخَلق). وعنه -رضي الله عنه- عن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: (كتب الله تعالى على كل نفسٍ حظها من الزنا).

عن ابن عباس -رضي الله عنهما- عن أبي بن كعب -رضي الله عنه- عن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: (الغلام الذي قتله الخضر طُبع كافراً)، وعنه -رضي الله عنه- يرفع الحديث إلى رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: (الغلام الذي قتله الخضر طُبع كافراً، ألقى الله تعالى على أبويه محبةً منه).

ما زلنا ندور في فلك القضاء والقدر، وما زلنا نتعرض إلى الأحاديث التي تثبت أن الله قد فرغ من العباد، كتب أهل الجنة وكتب أهل النار بأسمائهم وأسماء آبائهم، ولا يزاد على ذلك ولا نقصان. أقول لهذه الأحاديث التي سردت فيها حديث لا بد أن نتوقف عنده وهو حديث الخضر وموسى -عليه السلام-؛ موسى -عليه السلام- كليم الرحمن، إن الله جلَّ في علاه فضّل موسى على سائر خلقه في زمانه وفي وقته، اصطفاه الله جلَّ في علاه برسالاته واصطفاه الله جلَّ في علاه بكلامه، فلما تمتع بسماع صوت الله جلَّ في علاه تطلع

إلى ما هو فوق ذلك وطلب رؤية الله جلَّ في علاه، فقال الله تعالى: ﴿ٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡجَبَلِ فَإِنِ ٱسۡتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوۡفَ تَرَىٰنِيۖ﴾ [الأعراف: ١٤٣]. ومع هذه الكرامة، ومع هذه المكانة، نرجع إلى القاعدة الأصيلة: ليس بين الله وبين عباده نسب، هذه قاعدة مرعبة لكل إنسان يتقاعس في طاعة الله جلَّ في علاه أو يتجرأ على محارم الله جلَّ في علاه.

فإن موسى -عليه السلام- كليم الرحمن، وهو صفي، لا من خلقه وهو الذي له المنزلة العظمى، وهو من أولي العزم من الرسل، ومع ذلك لمّا حدث منه بعض الأمور التي لا يرضاها الله جلَّ في علاه عاتبه عليها وجعله تابعاً لا متبوعاً. كما في الصحيح ابن عباس يرويه عن أبي: أن موسى -عليه السلام- وقف أمام القوم فسئل من أعلم الناس؟ فقال: أنا، فلمّا قال: أنا، عاتبه ربه جلَّ في علاه، إذ من يحيط بكل شيء علماً؟ الله، فكان أولى وأجدر بموسى -عليه السلام- أن يرد العلم لله جلَّ في علاه. فلمّا قال: أنا، عاتبه الله جلَّ في علاه وأراد أن يبيّن له لست بأعلم أهل الأرض، العلم يعلمه الله جلَّ في علاه.

قال: عبد من عبادي أعلم منك، وبيّن له هذا العبد وهو الخضر، فأمره أن يذهب إليه. هذا خلق الأنبياء؛ لم يتكبر موسى -عليه السلام-، ولم يقل أنا من أولي العزم من الرسل كيف أكون تابعاً لا متبوعاً؟ بل تواضع لله جلَّ في علاه وعلم أنه لا بد أن يسعى راحلاً خاضعاً متواضعاً ليتعلم العلم الذي حباه الله لغيره، حتى جعل الله له علامات يعرف بها الخضر، وهي مسألة الحوت، فلما رأى هذه العلامات ذهب إلى الخضر.

من هذه اللطائف في هذه القصة، وبعض العلماء يعني أتى بلطيفة لا بد أن نذكرها لطلبة العلم: أن طالب العلم ميّسر عليه الطلب في كل حين وآن إذا صدق الطلب واستنبط العالم الجليل. هذه اللفتة العظيمة من أين؟ من أنه قال لمّا سار موسى والغلام -والراجح في الغلام هو يوشع بن نون- كان صادقاً للتعلم فلم يشعر بالوقت ولم يشعر بالرحلة ولا عناء الرحلة، لكن لمّا تجاوز المكان أو المقام الذي أراد أن يتعلم فيه حدث له التغيير بالعناء والمشقة وشعر، ولذلك سأل الفتى وقال: ائتنا غدائنا. وفي طيلة الرحلة لم

يحدث ذلك، لِمَ؟ لأنه سار في هذا الطريق ليطلب العلم، والنبي -صلى الله عليه وسلم- يبيّن لنا تقريراً بهذه المسألة أن (من سلك طريقًا يطلب فيه العلم ابتغاء وجه الله، سلك الله به طريقاً إلى الجنة)، وسهّل الله كل أمره دقه وجلّه، وهذا الذي حدث مع موسى -عليه السلام-.

لمّا تجاوز المقام حدث التفريق وشعر بالمشقة، فرجع بعد ذلك سأل الغلام حتى رأى العلامة وذهب إلى الخضر. فلمّا ذهب إلى الخضر ما ذهب على أنه من أولي العزم من الرسل، وما ذهب على أنه صفي من أصفياء الله جلَّ في علاه، ولا على أنه أكرم خلق الله على الله في هذه الآونات وهذه الأوقات، لا. ذهب متعلماً مستأذناً خاضعاً للخضر، وهو بالإجماع موسى أفضل من الخضر، بل الخضر الاختلاف فيه ظاهر بين العلماء هل هو ولي أم نبي؟ ولكن الفضائل تخص، خصه الله بعلم لم يعلمه موسى -عليه السلام-. فذهب خاضعاً متذللاً، يسأل بتواضع أن يكون تابعاً للخضر. فهذه تكون نبراساً لكل طالب علم يريد أن يتعلم هذا العلم، أن يتواضع للعلم حتى يحوز هذا العلم. فتواضع موسى للخضر وذهب تابعاً للخضر، حتى أن الخضر شق عليه وقال: ﴿فَلَا تَسْـَٔلْنِى عَن شَىْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴿٧٠﴾﴾ [الكهف: ٧٠]، ﴿قَالَ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا ﴿٦٩﴾﴾ [الكهف: ٦٩] لكن إنكار موسى -عليه السلام- أنه وجد ما لا صبر له عليه من الإنكار الشرعي.

وأيضاً لفتات أخرى أو نقول لطائف أخرى من هذه القصة؛ أنه لمّا ركب السفينة مع الخضر خرق الخضر السفينة، انظروا اللطيفة؛ قالوا: هكذا الأنبياء والرسل والصلحاء والكرماء الأماجد الأفاضل، لا ينظرون لأنفسهم، ينظرون لعباد الله، لأن الله ما أرسلهم إلّا رحمة للناس، ما أرسلهم إلّا رحمة على الناس، فلن يفكر في نفسه يغرق أو يموت أو يُقتل، ولم يفكر فيه هو أيضاً لأنهم جند من جنود الله جلَّ في علا، رحمة على عباد الله، كما بيّنا أن الرسول -صلى الله عليه وسلم- رحمة مهداة، فكل رسول كذلك. فقال له موسى:

﴿أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا﴾ [الكهف: ٧١]، ما يهمني نفسي، ما يهمني أنت، يهمني هؤلاء البشر الذين أرسلنا الله لهم ندعوهم إلى دين الله جلَّ في علاه، فأنكر عليه إنكاراً لطيفاً.

ثم بعد ذلك لمّا قتل الطفل -ونحن مع هذا الطفل في هذا الباب الذي سنتكلم عنه- أنكر عليه إنكاراً شديداً وقال: ﴿أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةًۢ بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْرًا﴾ [الكهف: ٧٤]؛ أشد من الأول، قال: (إمراً) أولاً، ثم الثانية قال: (نكراً)، ثم هدم الجدار إلى آخر القصة المشهودة والمعلومة. الصحيح الراجح هو موسى بن عمران، والصحيح الراجح أن الخضر كان نبياً كما سنبيّن. هذا مجمل ما يمكن أن يقال في هذه القصة اللطيفة، ثم نتبعها بأن ابن آدم كتب عليه الزنا مدركٌ ذلك لا محالة، فنبدأ الأول بالكلام على الخضر وموسى -عليهما السلام-.

الخضر وموسى وأهم اللطائف التي ممكن أن نستنبطها من هذه القصة في باب القدر بالذات؛ قتل الخضر للطفل لأن الحديث جاء يصرِّح: غلام الخضر طُبع يوم طُبع كافراً، وهذه كلها تنصب في بوتقة حديث واحد وهو حديث ابن مسعود -رضي الله عنه وأرضاه-: (يأتي الملك الموكل بالرحم فيقول: أي رب شقي أم سعيد؟)، أيضاً قول ابن مسعود: (الشقي من شقي في بطن أمه). فإذاً هذا الطفل كتب في صحيفة الملك أنه من الأشقياء، ومع ذلك قد قتله الخضر غلاماً، و"الغلام" كما قال بعض علماؤنا الأغلب في اللغة: "الغلام" على الذي ناهز الحلم، لم يحلم بعد، وأمّا قليل في اللغة يمكن أن يطلق الغلام على الرجل الكبير البالغ المكلّف. لكن هنا في قصتنا أن غلام الخضر لم يبلغ الحلم، لأنه هناك الزيادة في مسلم ومسند أحمد قال: (إذا عاش سيرهقهما طغياناً وكفراً).

هو قال: يوم طُبع طُبع كافراً، ولمّا قتله الخضر قتله غلاماً، فهذا سيعن لنا إشكال: كيف نقول هو كافر وقد قتله ولم يبلغ؟ هذا فيه إشكال أنه ما قتل كافراً لأنه لم يكلّف، فلا يصح أن نقول إنه كان كافراً، فإذاً يدخل لنا أن الغلام يطلق على الكبير.

أمّا لمّا عرج بالنبي -صلى الله عليه وسلم- أكان صغيراً؟ بعد الأربعين بعثته. فلمّا مر

على موسى وصعد، بكى موسى -عليه السلام-، فقيل ما يبكيك؟ قال: (غلام بعثه الله بعدي، من يتبعونه أكثر ممن يتبعوني). لكن هنا الصحيح الراجح في الغلام هنا هو الصغير الذي لم يبلغ الحلم، والدلالة على ذلك بالزيادة في مسلم ومسند أحمد قال: (إن عاش سيرهقهما طغياناً وكفراً)، يعني بعد بلوغه الحلم.

فقام الخضر فنظر إلى هذا الطفل فقتله، فاشتد نكير موسى -عليه السلام-: كيف تقتله؟ ولِمَ تقتله؟ مع أنه قال له: ﴿فَلَا تَسْـَٔلْنِى عَن شَىْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴿٧٠﴾﴾ [الكهف: ٧٠]، لكن لا يصبر على ذلك، فقال له واشتد عليه المعلم للمتعلم فخضع، وقال بأدب: ﴿قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَىْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَٰحِبْنِى ۖ قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّى عُذْرًا ﴿٧٦﴾﴾ [الكهف: ٧٦].

نقف وقفة مع قتل الخضر لهذا الطفل: أولاً كان طفلاً صغيراً غير مكلف، فكيف يقتل هذا الطفل؟ وهذا الذي جعل موسى يشتد نكيره عليه: كيف تقتل هذا الطفل؟ الطفل لم يجني جناية فكيف تقتله؟ وهو لم يكلّف حتى الآن فكيف تقتله؟ فهذا الذي جعله يشتد نكيراً. نقول لمّا أجاب الخضر لموسى علة وحكمة قتل هذا الطفل قال: هذا الطفل سيكون كافراً فيكفر والديه، أو قال: هو يوم طبع طبع كافراً، كما قال النبي -صلى الله عليه وسلم- ، فسيرهق أباه وأمه، وكانا مؤمنين فمن حبهما له سيكونا كافرين على الكفر الذي هو عليه، سيجذبهما إلى ما هو عليه من الكفر، فقتله حتى يحمي والديه منه بل ويحمي نفسه منه. كيف ذلك؟ لأن العلماء لمّا نظروا في قتل الخضر للطفل قالوا هناك وجهان:

- الوجه الأول: أنه علم؛ وعلم هذه تحتها مئة خط لتعلم أن الخضر ليس بولي بل هو نبي، لأنه لا يمكن أن يعلم ذلك إلّا بالوحي، والوحي لا يكون إلّا للأنبياء. فعلم أنه إذا كبر سنه سيكون كافراً، فلمّا علم كفره مآلاً قتله حالاً، وقال العلماء: قتله حالاً كان في شرعه؛ يعني كأن رجل قام يكفر مآلاً، له الحجة، سيقول للخضر: كيف تقتلني؟ أكفرت أمامك؟ فيقول: لا، فيقول: فلِمَ تقتلني؟ يقول: أعرف أنك عندما تكبر تكون كافراً، فيقول له: لا حجة لك لأنني لست بكافر. فلذلك العلماء قالوا: هي خاصة بالخضر، لأنه

لّما علم باطن الأمر من الله جلَّ في علاه أنه إذا كبر سنه سيكفر قتله في الحال، وهذا في شرعه يجوز، وصراحة هذا الوجه في النفس منه شيء.

▪ الوجه الثاني: أنه قتله بعد معرفته بعلم الغيب من الله جلَّ في علاه أنه سيكون كافراً من باب مقاصد الشريعة الكلية، وهذه تتفق فيها الشرائع، وهي إذا تعارضت المفاسد ارتكب المرء المفسدة الأدنى لدفع المفسدة الأعلى. ويا ليت الذين يقتلون ويفعلون ما يفعلون يتعلمون هذا الباب، وهذا الباب من أعظم أبواب الشرع. فهنا جاء الخضر يقتل نفساً زكية، وهذه مفسدة ليست بعدها مفسدة، فلمّا نظروا العلماء قالوا: لا، هذه المفسدة التي ارتكبها من أجل ألّا يقع في مفاسد ثلاثة منها:

١- أولاً أن الأب والأم كانا مؤمنين فسيصيران كافرين، وهذه مفسدة من أعظم المفاسد، لأن قتل النفس في الدنيا لا توجب الخلود في النار، أمّا الكفر والموت عليه يوجب الخلود في النار، والخلود في النار خسارة في الدنيا وفي الآخرة، فمن أجل هذه المصلحة الكبرى قتل الطفل.

٢- الأمر الثاني أن الولد إذا كبر سنه سيكون كافراً، فإذا قتل وهو لم يبلغ الحلم فإن مآله على الراجح يكون في الجنة، فهذه مصلحة أعظم مما تكون من حياته، لأنه سيموت ويكون من خدم أهل الجنة كما صحح علماؤنا من علماء الحديث، حديث النبي -صلى الله عليه وسلم-: (أولاد المشركين خدم أهل الجنة)، وصححه الشيخ الألباني، هذا آخر ما صحح من الأحاديث التي تثبت أن أولاد المشركين في الجنة. فإذا قتل طفلاً لم يبلغ الحلم فهو من أهل الجنة، ولو كان كبيراً لصار من أهل النار، وهذه مصلحة أعظم مما تكون من مصلحة قتله.

٣- الثالثة أنه إذا تركه يكبر يكفر (هذه مفسدة)، ثم يكفر أباه ثم أمه (هذه مفسدة ثانية)، ثم يركب هذا الذنب عليه في ميزانه لأن من دل على شر كمن دل على خير له أجره أو له وزره، فقطع وحسم المادة حتى ينصب في حسناته ولا ينصب في سيئاته. فقالوا: هنا

من باب درء المفسدة العظمى بارتكاب المفسدة الصغرى، ولذلك لمّا بينها لموسى -عليه السلام- خضع وما تكلم، ثم قال: ﴿وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِىٓ ۚ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾ [الكهف: ٨٢].

تستنبط من ذلك رحمات الله جلَّ في علاه الله، وفضل الله على عباده، وفضل الله على الأبوين المحبين لهذا الطفل، وفضل الله على الطفل، ورحمة الله التي أدركت هؤلاء الثلاثة أنهم أصبحوا في الجنة أخلاء لقتل هذا الطفل حتى لا يصير الأبوان إلى الكفر. هذه المسألة الأولى أو الحديث الذي لا بد أن نقف عنده وقفة، وهي مسألة الخضر مع موسى -عليه السلام-.

المسألة الثانية في حديث آخر، وهو قول النبي -صلى الله عليه وسلم-[1]: (كتب على ابن آدم الزنا مدرك ذلك لا محالة)، هذا يدور في فلك أن كل شيء دقيق وجليل، صغير وكبير مكتوب عند الله جلَّ في علاه قبل أن يخلق الخلق؛ الزنا، الكلام، البطش. قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (كتب على ابن آدم حظه من الزنا مدرك ذلك لا محالة)، يعني لا بد أن يقع لا بد أن يقع، كما قال ابن عباس -رضي الله عنه وأرضاه-: إن الله كتب الضحك والبكاء وغير ذلك، واستدل بقول الله تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ﴿٤٣﴾﴾ [النجم: ٤٣]. وفي حديث ابن عمر -رضي الله عنه وأرضاه- أن الله خلق العقل وخلق الكيف وخلق كل شيء، حتى في الحديث الصريح قال: (خلق الله كل صانع وصنعته)، فإذاً خلق الله العين والجوارح وجعل فيها الآلة التي تستخدم في الخير أو في الشر، وأوزع في قلب من استخدمها في الشر هذه الإرادة.

(كتب على ابن آدم حظه من الزنا مدرك ذلك لا محالة)؛ (العين تزني)، وفي روايات أخرى في مسلم وفي غيرها زيادة قال: (العين تزني وزناها النظر)، وسمّاها زنا من باب تسمية الوسائل بالمقاصد، لأن القاعدة عند العلماء: أحكام الوسائل هي أحكام المقاصد،

(١) أخرجه مسلم (٢٦٥٧) باختلاف يسير وابن تيمية في مجموع الفتاوى (١٠/ ١٤).

يعني الوسيلة لها حكم المقصد. قال: (العين تزني وزناها النظر، والأذن تزني وزناها السمع، واللسان يزني وزناه الكلام، واليد تزني وزناها البطش، والرجل تزني وزناها المشي والخطى إلى هذه المعاصي، والقلب يهوى ذلك ويتمنى)، ما قال يزني، قال: (والقلب يهوى ذلك ويتمنى) وسنقف عنده وقفة قبل أن نصل إلى الفوائد المستنبطة، قال (والقلب يهوى ويتمنى، والفرج يصدّق ذلك أو يكذّبه)، يعني يصدّق كلية هذه الزنا أو يكذّب كلية هذه الزنا.

نقف وقفة مع قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (القلب يهوى ويتمنى)، ولم يذكر أنه زنى. فهل القلب يزني كما أن العين تزني واللسان يزني والأذن تزني؟ أم القلب يفارق ويخالف هذا الحكم؟ السؤال واضح: قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (العين تزني وزناها النظر، واللسان يزني وزناه الكلام، والأذن تزني وزناها السمع) وسنبيّن أن هذه الجوارح كلها عليها عبادات لا بد أن تؤدى، هل قول النبي: (والقلب يهوى ويتمنى) يعني القلب يزني وزناه الهوى والتمني؟

الآن السياق والسباق من المفسرات، والسياق محكم، قال: (العين تزني وزناها النظر، والأذن تزني وزناها السمع، واللسان يزني وزناه الكلام، واليد تزني وزناها البطش، والرجل تزني وزناها المشي والخطى إلى هذه المعاصي، والقلب يهوى ذلك ويتمنى، والفرج يصدّق ذلك أو يكذّبه) وهذه مسألة مهمة جداً لأن من أطلق البصر فقد زنا وكتبت عليه معصية، وشوش على ذلك في قلبه كما قال بعض العلماء: القلب كعبة المحبين، والمعبود لا يرضى بالأصنام. فكل بصر؛ يطلق على امرأة عارية مثلاً أو يطلق على معصية لله جلَّ في علاه تشوش على القلب، تنقش على القلب ظلمة على القلب لا يستطيع المرء أن يفرّق بين الحق والباطل بإطلاق البصر، ولذلك قال بعضهم أسوأ مفسدات القلب هو إطلاق البصر. وأيضاً الكلام زنا، (واللسان يزني وزناه الكلام)، فتكتب معصية. (والأذن تزني وزناها السمع) ويكتب معصية، لكن قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (والقلب يهوى ويتمنى) هل يساوي: والقلب يزني وزناه الهوى والتمني لأن سياق الحديث هكذا؟

القول عندي هو يزني ولا يزني، نقول كيف؟ هو لا يزني[1] لحديث النبي -صلى الله عليه وسلم-: (إن الله تجاوز لأمتي ما حدّثت به أنفسها ما لم تعمل أو تتكلم)، فكلّما كان الهوى والتمني في القلب دون تحريك الجوارح فلا يسمى زنا ولا يكتب. وقد قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (لا يُرى للمتحابين سوى النكاح)، هذا الحديث فاصل في النزاع أنه لو أحب امرأة هو ليس عند ربه مذموماً، لكن لو حرّكه هذا الهوى وهذا العشق لبعث الرسالة في الموبايل، لكلام في التلفون دون أن يكون عاقد، ليراها، ليذهب بها، إذاً وقع في الزنا، فهو لا يزني وهذا هو الدليل.

والثاني هو يزني، كما قرر الأخ الكريم أن هذا هو عمل القلب، الهوى والتمني بداية زنا القلب، فإن حدث هذا الهوى والتمني فأصبح عزماً على معصية فإن الفرج سيصدّق هذا بأمر من الملك جالس على عرشه وهو القلب، لأنه الملك على الجوارح، فيأمر الفرج فيصدّق. هنا نثبت للقلب زنا لأن الفرج سيصدّق بأمر القلب.

فالمسألة تحتاج إلى تفصيل وأن القلب يزني، ولا يزني. في الحالتين التي فصلنا إيّاهما فهذه اللفتة التي لا بد أن نقف عندها في هذا الحديث ونبكي على أنفسنا، ونقول ما منا من أحد إلّا وله هذه السقطة، لقول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (مدرك ذلك لا محالة)، ونحمد الله على قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (لو لم تذنبوا لذهب الله بكم ولأتى بقوم يذنبون فيستغفرون فيغفر لهم)، الحمد لله على هذا الحديث والحمد لله على هذه المنة وهذه النعمة، (وكل ابن آدم خطّاء وخير الخطّائين التوابون).

فإذاً لا يلومن أحد نفسه ويقول أنا منافق، أنا أنظر إلى المرأة وأقول يا رب تبت توبة نصوح ولن أنظر إليها، ويعاود الكرة وينظر، ثم يتوب ثم يعاود الكرة وينظر، فيقول هذا نفاق. فنقول: لا والله ليس بنفاق، قلبك ينبض بالحياة بفضل الله، عليك أنك تراجع نفسك متى ترى أنك في محل نفاق إن استدرجك الله فلن تشعر بأن هذا النظر سهم

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (١٢٧) والبخاري(٢٥٢٨).

مسموم ولم تشعر بأن الله جلَّ في علاه فتح لك أبواب الشر فولجت فيها، فهذه هي المصيبة. أما كلما تقول أنا نظرت استغفر الله، استغفر الله، وتتوب من الذنب لله جلَّ في علاه فقلبك فيه الحياة. وقد بيّن لنا النبي -صلى الله عليه وسلم- جزم وقال: (مدرك ذلك لا محالة)، هذا الذي يمكن أن يقال من طرائف ولطائف في هذه الأحاديث.

الفوائد المستنبطة:

١- مقاصد الشريعة: وكما قلت هذه التي تهذب شبابنا وتهذب أفكارنا، وتعلمنا أن المتجرئ على الشريعة ضائع وتائه ولا بد أن يرجع لأهل العلم قبل أن يتحرك يميناً ولا يساراً. لأن المفاسد العظمى التي يراها هي عظمى أمامه ويقول هذا منكر لا بد أن أغيره، لابد أن أفعل وأفعل، نقول له: انتظر، انظر للشرع، هل الشرع أباح لك ذلك أم لا؟ هل هذه المفسدة التي تريد أن تزيلها ستأتي بمفسدة أعظم منها أم لا؟

وهذه المسألة من أعظم مسائل الدين، وأولها وأعلاها وأرقاها وأسها وأساسها البول، الأعرابي أروع أمثلة مقاصد الشريعة؛ دخل الأعرابي وأول ما دخل هيّج مشاعر الصحابة، أول ما دخل نظر إلى الصحابة ونظر إلى النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: (اللهم ارحمني وارحم محمداً ولا ترحم معنا أحداً)، فهذا أول الغل في قلوبهم، ثم ترك البشر وأخذ ناحية المسجد فبال، لّما بال في نهاية المسجد، قالوا: الحمد لله قد وقع، ثم ذهبوا إليه هموا ليقتلوه، انظروا إلى أروع التعليم الذي يكون من النبي -صلى الله عليه وسلم-، قال لهم النبي -صلى الله عليه وسلم-: (لا تزرموه)، (لا تقطعوا عليه بوله)، (اتركوه).

هنا من الفوائد واللطائف أعظم مما يكون: هو أخذ ناحية المسجد يبول، فبال فنجس المكان، انظروا هذه مفسدة ومن المصلحة أنه يقطع البول في هذا المسجد الذي يذكر فيه الله، ومع ذلك النبي -صلى الله عليه وسلم- يقول: لا اتركوه على هذه المفسدة، لأن إزالة هذه المفسدة ستأتي بمفاسد أعظم؛ (لا يتحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه)، وتقتل المؤمن ويقال: أقتلت مؤمناً؟ ثم يقال المسلمون يكفر بعضهم بعضاً ويقتل بعضهم بعضاً،

والله أعلم بما سيأتي بعد ذلك. فقال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (لا تزرموه)، اتركوا هذه المفسدة لأنكم لو قطعتم عليه بوله أتيتم بمفاسد أعظم.

المفسدة الثانية؛ هو قد أفسد هذا المحل، فإذا قلت اقطع بوله سيمر ويذهب يميناً ويساراً فينجس أكثر من مكان، فهذه المفسدة متحققة في أكثر من مكان. الأمر الثاني؛ إذا قطعت عليه بوله سيرجع البول على الثوب، وأيضاً طبياً كما قال العلماء: إذا قطع بوله سيحدث له ضرر أعظم وهو مرضه، وإن الدين جاء بحفظ الضرورات الخمس ومنها حفظ النفس، فكيف نحن نلحق بمسلم هذا الضرر؟ فلذلك قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (لا تقطعوا عليه بوله).

المفاسد الأعظم تجعلنا نقول هذه المفسدة تبقى على ما هي عليه، ولا نغير هذه المفسدة حتى لا نأتي بمفاسد أعظم، هذه أولها وأسها وركنها الركين. وهنا نستنبطها من فعل الخضر؛ أتى بمفسدة من أعظم المفاسد وهي إسالة الدماء، ودم الطفل محفوظ عند ربه جلَّ في علاه، لكن هذه المفسدة أتى بها ليدرأ مفاسد أعظم منها ألا وهي: كفر الطفل بعد بلوغه، كفر أبويه، الخلود في النار للثلاثة، وعذاب أشد لهذا الطفل. والمصالح الأعظم من قتل الطفل: أنه سيكون من خدم أهل الجنة، أبواه مؤمنان يكونان في الجنة، الثلاثة يجتمعون في الجنة. فإذاً مسألة المصالح والمفاسد من أعظم الفوائد المستنبطة من هذا الحديث.

حديث: (إن فيك خلتين يحبهما الله)، الأخلاق منها جبلي أو مكتسب، والدلالة على المكتسب قول النبي -صلى الله عليه وسلم-[1]: (إنما الحلم بالتحلّم، وإنما الصبر بالتصبر)، وعلى الجبلي أن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: (إن فيك خلتان يحبهما الله، قال: يا رسول الله أهي قديماً أم حديثاً؟)؛ قديماً يعني كتبت في الأزل وخلقني الله بها، أم هي حديثاً اكتسبت هذه الصفات. قال: (لا قديماً، جبلك الله على ذلك، فقال: الحمد لله الذي

(١) أخرجه الالباني في السلسلة الصحيحة (٣٤٢).

جبلني على صفة يحبها الله جلَّ في علاه).

٣- لا يجوز للخاطب أن يتكلم مع المخطوبة إمّا في التلفون أو على النت أو مع المحرم؛ من أين أتينا بهذا الحكم؟ (كتب على ابن آدم حظه من الزنا)، قال: (والأذن تزني)، الاستمتاع بصوت المرأة، فإن كانت الاستمتاع بصوت المرأة فهذا زنا، والمخطوبة موعودة بالزواج وليس معقوداً عليها فلا يجوز الكلام معها. وكتب على ابن آدم حظه من الزنا باللسان، إذا تكلم ويغفر الله لنا ما سقطنا فيه جميعا ونستغفر الله على ذلك.

٤- الأدب مع الله: ولنعم الأدب مع الله جلَّ في علاه، وحسن الخلق يظهر في تعاملك مع ربك. كيف ذلك؟ نقول قد تأدب الخضر وموسى وتأدب سيدهم مع الله جلَّ في علاه، وتأدب الخليل مع الله جلَّ في علاه. هذا الأدب من أين يستنبط؟ لا ينسب الشر لله، من أين؟ قال: (غلام خضر طبع يوم طبع كافراً)، ما قال "طبعه الله كافرا"، مع أن الله الذي خلقه وخلق كل شيء، لأن الشر ينزل تحت العموم، وهذا أدب جم مع الله جلَّ في علاه ألّا ينسب الشر صراحةً لله جلَّ في علاه. فكيف ينسب لله؟ لأن الله خلقه، والله لم يخلق شراً محضاً، لكن خلقه، ولنا أحوال ثلاث في نسبة الشر الله جلَّ في علاه:

• أولاً ينزل تحت العموم، هذا من الأدب مع الله أن تقول ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖۖ﴾ [الزمر: ٦٢]، فينزل الشر تحت كل شيء، فخلق الشر والخير.

• أو تنسب الشر لنفسك تقول: ﴿وَإِذَا مَرِضۡتُ فَهُوَ يَشۡفِينِ ٨٠﴾ [الشعراء: ٨٠] كما قال الخليل، وأيضاً كما قال الخضر: ﴿أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتۡ لِمَسَٰكِينَ يَعۡمَلُونَ فِي ٱلۡبَحۡرِ فَأَرَدتُّ أَنۡ أَعِيبَهَا﴾ [الكهف: ٧٩]، ما قال "أراد الله" مع أن الإرادة إرادة الله، هو الذي أوحى إليه أن يفعل ذلك لأنهم أحسنوا إليه وأتى من غير أن يدفع أجرة، ومع ذلك خرق السفينة لأنه من أمر الله، فنسب العيب لنفسه. فإذاً الحالة الثانية أن تنسب لنفسك، (وَإِذَا مَرِضْتُ)، مع أن الله هو الذي أمرضه، لكن قال لا أدبا مع الله: ﴿وَإِذَا مَرِضۡتُ فَهُوَ يَشۡفِينِ ٨٠﴾ [الشعراء: ٨٠].

• والحالة الثالثة أن تأتي بها بالمبني للمجهول، كأن تقول: (طبع يوم طبع كافراً)، مع أن الذي خلقه هكذا هو الله جلَّ في علاه، وهذا أدب جم الله جلَّ في علاه.

٥- علم الله أحاط بكل شيء؛ إن الله يعلم ما كان وما يكون وما لم يكن لو كان كيف سيكون، ونحن الآن بصدد الثالثة: يعلم الله ما لم يكن لو كان كيف سيكون، هو لم يخرج لكن لو خرج يعلمه الله جلَّ في علاه، قتل الغلام هو علم الله لأن في الرواية زيادة أنه لو عاش سيرهق والديه كفراً، فيكون كافراً، هذا من باب أن الله جلَّ وعلا يعلم ما لم يكن لو كان كيف سيكون. ونظائر ذلك في الشرع أن الله جلَّ في علاه لمّا وقف أهل النار على النار ﴿فَقَالُوا۟ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾﴾ [الأنعام: ٢٧]، فقال الله تعالى: ﴿بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا۟ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ ۖ وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [الأنعام: ٢٨]، يعني لو ردوا للدنيا مرة ثانية سيعودون كما كانوا على الكفر، هذه فيها دلالة على إحاطة الله جلَّ في علاه بكل شيء علماً.

٦- هذه الأحاديث فيها الرد على الجبرية وعلى القدرية. كيف ذلك؟

▪ (طبع كافراً)؛ من الذي طبعه على ذلك وجبله على ذلك؟ الله جلَّ في علاه، قديماً أم حديثاً؟ قديماً، وهم يقولون الأمر أنف، فهذا رد على القدرية.

▪ (قتله الخضر)، فنسب القتل لمن؟ للخضر، أي نسب العمل للعامل، وهذه دلالة ورد على الجبرية أنهم قالوا: ألقاه في اليم مكتوف اليدين وقال إياك إياك أن تبتل بالماء.

٧- إثبات صفة من صفات الأفعال لله من أروع الصفات وهي صفة المحبة لله جلَّ في علاه، من أين؟ هذا تصريح قال: (يحبها الله) فأثبت الصفة لله، أضاف الصفة للموصوف، يحبها من؟ الله. الله يحب؟ نعم يحب. وقد قال بعض الناس: المحبة هنا إرادة الثواب والبغض إرادة العقاب. قلنا لهم: نحن نثبت ما تثبتون ونقول إن الله جلَّ في علاه إذا أحب شخصا أراد له الرفعة وأراد له الثواب، أما علمت أن النبي -صلى الله عليه وسلم- قد قال: (إن الله جلَّ في علاه إذا أحب عبداً نادى في السماء أن يا جبريل إني أحب

فلاناً فأحبه، فيحبه جبريل، ثم ينادي في أهل السماء إن الله يحب فلاناً فأحبوه، فيحبه أهل السماء، ويكتب له القبول في الأرض)، والقبول في الأرض ليست مطلقة بل مقيدة بأهل الصلاح، فيكتب لك القبول عند أهل الصلاح. فإن الله إذا أحب عبداً أراد ثوابه وأراد جنته وأراد له الخير كله، فنحن نثبت الصفة ونثبت لازم الصفة، وقد فصّلنا القول في هذه المسألة في شرح أصول السنة والجماعة.

هذه صفة ثبوتية فعلية، لأنها تتعلق بالمشيئة: إن شاء أحب وإن شاء بغض، الله يحب فلان ويبغض فلان، يحب ولا يحب، مثلاً: الله ما يحب فرعون. فالله يحب فلان ويبغض فلان، يحب هذا ولا يحب هذا، يحب محمداً وهو أكرم الخلق على الله جلَّ في علاه، ولا يحب فرعون لأنه من أكفر أهل الأرض. إذاً صفة المحبة صفة ثابتة لله جلَّ في علاه في الكتاب والسنة وإجماع أهل السنة، وهي صفة فعلية تتعلق بالمشيئة، إن شاء أحب وإن شاء لم يحب.

٨- فتنة البنين هي من أشد فتن الدنيا، فهي أشد من فتنة المال، فإن النبي -صلى الله عليه وسلم- قد خطب على المنبر وهو أعظم الخلق وأطوع الخلق وأذل الخلق للخالق وهو أعز الخلق، كان يخطب في الناس فرأى الحسن والحسين يتهادى كل واحد منهم، كل واحد منهم كاد يقع بعد ما اشتد عليه الأمر في السعي إلى النبي -صلى الله عليه وسلم-، فترك الخطبة وترك الناس ونزل من على المنبر وذهب مسرعاً إلى ابنه الحسن وابنه الحسين يضمهما، رحمة من النبي -صلى الله عليه وسلم-، وقال: صدق الله، ﴿إِنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٞۚ﴾ [التغابن: ١٥]. ففتنة البنين فتنة شديدة عظيمة، وهذه الفائدة مستنبطة من أين؟ (لو كبر سيرهقهما طغياناً وكفراً)، فمن شدة محبة الأم له ومن شدة محبة الأب له فيكون كافراً من أجل حبه لولده.

باب ذكر أخذ ربنا الميثاق من عباده

الحمد لله على إتمام هذه الدروس التي منّ الله علينا ويسرها علينا، ونسأل الله جلَّ وعلا أن ييسر لنا هذا دائماً وأن يديم علينا هذه الخيرات وأن يشكر لمن يسّر علينا ذلك. أقول هذا الكتاب كتاب السنة الذي ندرسه الآن من أمتع الكتب لأنه إن لم يكن كل جمل العقيدة، فأكثر وأغلب جمل العقيدة وأفضليته، على أن كثير من الإخوة الذين لم يحضروا معنا الكتب التي شرحت سابقاً فإنها تضم أيضاً داخل هذا الكتاب الجليل، فتكون المسائل التي لم يدرسها بعض الإخوة يمكن أن يراجعها معنا تأصيلاً فقط لا اتساعاً، فالاتساع نعول فيه على ما مضى من شرح الكتب، فنحن نعرّج في أبواب القضاء، مكثنا فيها كثيراً ولا يمل المرء من المكوث في مثل هذه الأبواب التي هي من أهم أبواب العقيدة، بحيث أن الإنسان يركز عقله بتأصيلات علمية سبقت تكون نبراساً لمن يبتدئ، وأيضاً تثبيتاً ومراجعةً لمن درس هذه الكتب قبل ذلك.

ما زلنا كما قلت في أبواب القدر، واليوم إن شاء الله على مشارف القول في المواثيق التي أخذها الله على العباد. طبعاً ضمناً هذه المواثيق سينزل تحتها الكلام على ميثاق الذر والكلام على أهل الفترة: هل هم محاسبون؟ هل هم مخيرون؟ هل هم من أهل الجنة؟ هل هم من أهل النار؟ وبعد ذلك طبقات المكلفين، وهذا الذي سنفرد له الأسبوع القادم إن شاء الله في الكلام على أطفال المسلمين وأطفال الكافرين هل هم في الجنة أم هم في النار؟

باب ذكر أخذ ربنا الميثاق من عباده

عن مسلم بن يسار الجهني أن عمر سئل عن هذه الآية: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ [الأعراف: ١٧٢]، فقال عمر بن الخطاب -رضي الله عنه-: سمعت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يُسأل عنها فقال: (إن الله تعالى خلق آدم -عليه السلام- ثم مسح ظهره بيمينه فاستخرج منه ذريته فقال: خلقت هؤلاء للجنة وبعمل أهل الجنة يعملون، ثم مسح ظهره بيمينه فاستخرج ذريته فقال: خلقت هؤلاء للنار وبعمل أهل النار يعملون، فقال رجل: يا رسول الله، ففيمَ العمل؟ قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: إذا خلق الله تعالى العبد للجنة استعمله بعمل أهل الجنة حتى يموت على عملٍ أهل الجنة، وإذا خلق الله تعالى العبد للنار استعمله بعمل أهل النار حتى يموت على عملٍ من عمل أهل النار فيدخل النار).

وعن سعيد بن عبد الجبار يقول: سمعت مالك بن أنس يقول: ورأيي فيهم أن يستتابوا، فإن تابوا وإلّا قتلوا؛ يعني القدرية.

وعن مروان بن محمد الطاطري قال: سمعت مالك بن أنس يسأل عن تزويج القدري فقرأ: ﴿وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ﴾ [البقرة: ٢٢١].

وعن أبي سهيل بن مالك قال: سمعت عمر بن عبد العزيز يقول في القدرية: أرى أن يستتابوا، فإن تابوا وإلّا قتلوا؛ قال أبو سهيل: وذلك رأيي، قال مالك: وذلك رأيي.

وعن علي بن بكار يقول: كان ابن عون يبعث إليّ بالمال أفرقه في سبيل الله فيقول: لا تعطي قدرياً منه شيئاً، وأحسبه قال فيه: ولا يغزوّن معكم فإنهم لا ينصرون؛ وإسناده ضعيف.

وعن مسلم قال: سألت نعيماً عن هذه الآية: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ [الأعراف: ١٧٢]، قال نعيم: كنت عند عمر إذ جاءه رجل فسأله عنها فقال عمر -

رضي الله عنه-: كنت عند رسول الله -صلى الله عليه وسلم- إذ جاءه رجل فسأله عنها، فقال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: (خلق الله تبارك وتعالى آدم)، فذكر نحو حديث مالك.

وعن ابن عباس -رضي الله عنهما- عن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: (أخذ الله تعالى الميثاق من ظهر آدم -صلى الله عليه وسلم- بنعمان [يعني عرفة]، فأخرج من صلبه كل ذرية ذرأها، فنثرها بين يديه كالذر كلهم مثلاً وقال: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ ۖ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾﴾ [الأعراف: ١٧٢ – ١٧٣].

وعن أبي موسى الأشعري -رضي الله عنه- عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: (إن الله تعالى يوم خلق آدم -عليه السلام- قبض بكفيه قبضتين فوقع كل طيب بيمينه وكل خبيث بشماله، فقال: هؤلاء أصحاب اليمين وهؤلاء أصحاب الجنة، وهؤلاء أصحاب الشمال وهؤلاء أصحاب النار، ثم ردهم في صلب آدم فهم يتناسلون على ذلك الآن)؛ وإسناده ضعيف جداً.

وعن ابن عباس -رضي الله عنه- قال: لمّا نزلت آية الدين قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: (إن أول من جحد آدم، إن الله تعالى لمّا خلقه مسح ظهره فأخرج منه ما هو من ذراريه إلى يوم القيامة فعرضهم عليه).

وعن عبيد الله بن عمر عن خبيب بن عبد الرحمن عن حفص بن عاصم عن أبي هريرة -رضي الله عنه- عن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: (لمّا خلق الله تعالى آدم)، ثم ذكر الحديث.

وعن أبي هريرة -رضي الله عنه- أن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: (لمّا خلق الله آدم ونفخ فيه من روحه قال بيده وهما مقبوضتان: خذ أيهما شئت يا آدم، فقال: يمين ربي،

وكلتا يداه يمين مباركة، ثم بسطها فإذا فيها آدم وذريته، وإذا كل إنسان منهم عنده عمره مكتوب).

وأسأل قبل أن نبدأ في الدرس: (إن أول من جحد آدم)، ما معنى الجحود هنا؟ هي بالنسبة لآدم -عليه السلام- لابد أن تقول النسيان، لكن هو الإشكال الذي عنّ لنا أنه وردت آثار جمع فيها بين النسيان وبين الجحود؛ قال: (جحد آدم فجحدت ذريته، ونسي هذا فنسيت ذريته)، فيتفقان ويفترقان، لكن ليس هذا باب التفصيل اليوم، اليوم فقط نبيّن أن المقصود بإطلاقها هنا هو النسيان.

على ما صححه الشيخ الألباني ونحن نركن إلى تصحيح الشيخ الألباني هنا، والخلاف عريض بين العلماء، وإن كان ابن كثير يميل إلى ضعف كل هذه الأحاديث: "مسألة مسح الظهر وإخراج الذرية" و"مسألة الاستدلال بهذه الآية على ميثاق الذر"، ابن كثير يرفض ذلك ويرده. ولكن نحن مع الأثر، وهذا الأثر قد صح ونحن معه. فإن الله جلَّ في علاه خلق آدم ثم مسح على ظهره، فأخرج ذريته كالذر فأشهدهم على أنفسهم: ألست بربكم؟ قالوا: بلى، فالكل قد شهد ولكن طوعاً وكرهاً؛ فمنهم من شهد طائعاً راضياً، ومنهم من كان كارهاً خائفاً فأقر بربوبية الله جلَّ في علاه ولكن في باطنه أنه لا يقر بذلك. فالذي أقر طواعية نفعه هذا الإقرار عندما ذكّره ميثاق الرسل بميثاق الذر، أرسل الله إليه الرسول ليذكره بميثاق الذر، وأيضاً بميثاق الفطرة كما سنبين. والذي أقر كراهية أو أقر وهو يبطن الرفض، فهذا الذي لم ينفعه تذكير الرسل.

هذه المسألة لابد أن نقف معها وقفة ونقول إن الله جلَّ في علاه نظر إلى عباده فأخذ منهم مواثيق، وهذه المواثيق اختلفت أنظار أهل العلم فيها: هل هذه المواثيق حجج على بني آدم إذا وقفوا أمام الله جلَّ في علاه سألهم عنها فحوسبوا على هذه المواثيق أم لا؟ فهذا الذي سنبينه.

أقول أولاً المواثيق أربعة: ثلاثة عامة وواحدة خاصة:

١- الميثاق الأول هو ميثاق الذر؛ وهذا الذي أجلاه لنا هذه الأحاديث، وهو عندما خلق الله آدم مسح على ظهره فأخرج كل الذرية ثم أشهدهم على أنفسهم ألست بربكم؟ قالوا: بلى شهدنا. فهذا الميثاق بيّنه عمر بن الخطاب، وإن كانت الرواية عن عمر بن الخطاب فيها انقطاع، لكن حديث ابن عباس بفضل الله يغنينا، وحديث ابن عباس صحيح؛ أن الله لمّا خلق آدم مسح على ظهره وأخرج كل الذرية، ثم أشهدهم على أنفسهم فأقروا بربوبية الله جلَّ في علاه.

هذا الميثاق نظر إليه العلماء وسأل سائل: هل هذا الميثاق يحاسب عليه المرء أم لا يحاسب عليه المرء؟ يعني إذا مات المرء قبل أن يأتيه رسول هل الله جلَّ في علاه يحاسبه على هذا الميثاق إن أشرك به؛ رجل عبد صنم، ثم مات قبل أن يأتيه رسول، وقبل أن يأتيه نبي، هل هذا المرء الذي عبد الصنم إشراكاً بالله يحاسب على هذا الشرك أم لا؟

بعض العلماء قال: يحاسب، لأن الله جلَّ في علاه لمّا مسح على ظهر آدم أشهدهم من الرب؟ قالوا: أنت، والربوبية تستلزم الإلهية. ومن أهم أمور الإلهية هو توحيد الله جلَّ في علاه وإن لم يأتِ بالعبادات، المهم أن يوحّد ربه جلَّ في علاه ولا يشرك بالله أحداً.

القائلون بهذا القول استدلوا على ذلك بحديث النبي -صلى الله عليه وسلم-[1] في الحديث قدسي: (إن الله جلَّ وعلا يوقف ابن آدم أمامه فيقول: يا ابن آدم أرأيت لو كان لك وسع ما في الأرض ذهباً أكنت مفتدياً به من عذاب يوم القيامة؟ قال: نعم، فقال الله جلَّ في علاه: طلبت منك ما هو أهون من ذلك وأنت في صلب آدم [يعني ميثاق الذر]، أن تعبدني ولا تشرك بي شيئاً فأبيت إلّا الشرك). فنقول: هو أقر كرهاً، فلمّا نزل إلى الدنيا ولم يرَ ربه جلَّ في علاه ولم يراقب ربه في مسألة الغيوب أشرك بالله جلَّ في علاه وانقلب على عقبيه. فقال: (فأبيت إلّا الشرك)؛ لمّا نزلت إلى الدنيا أبيت إلّا الشرك. قالوا: وهذه

(١) أخرجه البخاري (٦٥٣٨)، ومسلم (٢٨٠٥).

دلالة على أن ميثاق الذر حجة على الإنسان، وبالتالي سحبوا الحكم على أهل الفترة وقالوا: أهل الفترة معذّبون لأنهم لو أشركوا بالله لم يعملوا بميثاق الذر، لمّا مسح الله على ظهر آدم وأشهدهم على أنفسهم أنه ربهم، طبعاً هذا الكلام ليس بصحيح كما سنبيّن في النهاية.

٢- الميثاق الثاني هو ميثاق الفطرة، وهناك تلازم بين الاثنين لأن ابن كثير يرى أن هذه الآية: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ [الأعراف: ١٧٢] أنها نص في ميثاق الفطرة وليس في بميثاق الذر، لأنه هو يقول: ميثاق الذر إن قلتم به إذا فتحتم الباب للتناسخ، وهذا ليس محل التفصيل فيه وهذا كلام مردود أيضاً، لكنه يضعّف هذه الأحاديث ويقول هذه الآية حجة في ميثاق الفطرة.

وميثاق الفطرة هو أن الله فطر الناس وجبلهم على الميل الفطري، ميل القلوب لتأليه الله جلَّ في علاه، وللإقرار بربوبية الله جلَّ في علاه، وللإقرار بأن الله جلَّ في علاه هو مكوّن الكون وهو خالق الكون وأنه الذي يستحق العبادة وحده سبحانه جلَّ في علاه. قال الله تعالى: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا﴾ [الروم: ٣٠]؛ ﴿لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ﴾ هذا خبر بمعنى الإنشاء، يعني الله يخبركم أن الفطرة لا تتبدل. والصحيح أن المقصود من الآية: لا تبدلوا -أنتم أيها المكلفون- خلق الله جلَّ في علاه. وأيضاً قال الله تعالى: ﴿صِبْغَةَ ٱللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً﴾ [البقرة: ١٣٨].

وفي الصحيحين عن النبي -صلى الله عليه وسلم- أنه قال: (كل مولود يولد على الفطرة)، وهذا باتفاق جماهير أهل العلم وأن السند فيها ضعيف باتفاق جماهير أهل العلم، (كل مولود يولد على الفطرة) يعني على الإسلام، على الاستسلام لله جلَّ في علاه، على الإقرار بربوبية الله جلَّ في علاه التي تستلزم الإلهية [1]: لله جلَّ في علاه، (كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه)؛ فلمّا يقول: (يهودانه أو ينصرانه

(١) أخرجه البخاري (١٣٨٥) مطولاً، ومسلم (٢٦٥٨) مطولاً باختلاف يسير وابن حبان في صحيحيه (١٢٩).

أو يمجسانه)، ولم يقل "يسلمانه"، دل على أن الفطرة المقصود بها هي الإسلام هو الخضوع والاستسلام التام لله جلَّ في علاه.

أيضاً العلماء نظروا لميثاق الفطرة، هل ميثاق الفطرة حجة؟ قالوا: نعم بالاقتران بميثاق الذر وميثاق الفطرة هو حجة على الإنسان يُسأل عنه يوم القيامة، فإذا أشرك بالله جلَّ في علاه، لا يطلب منه أن يأتي بفروع الشرائع، يطلب منه ان يأتي بالتوحيد فقط والإقرار بربوبية الله جلَّ في علاه، فإن تخلف عن الإقرار بربوبية الله فأشرك معه غير الله جلَّ في علاه يُسأل عن ذلك، وأيضاً سنبيّن أن هذا ليس بحجة.

٣- الميثاق الثالث هو ميثاق الرسل، وهذا الميثاق هو العمدة في كتاب الله جلَّ في علاه وهو الحجة على البشر بحق، هذا الميثاق هو أن الله جلَّ وعلا ما ترك أمة من الأمم إلّا وقد أرسل إليهم رسولاً؛ إمّا رسولاً شخصاً عيناً، وإمّا حجة عن هذا الرسول، ولذلك قال الله تعالى: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ۝٢٤﴾ [فاطر: ٢٤]، وقال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا﴾ [النحل: ٣٦]، وقال الله تعالى في سورة تبارك: ﴿تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ۝٨ قَالُوا بَلَىٰ﴾ [الملك: ٨ – ٩]، إذاً كل فوج ينزل إلى النار يقف أولاً وتقام عليه الحجة: جاءكم رسول؟ جاءنا الرسول. وأيضاً في آيات أخرى بيّن الله جلَّ في علاه أنهم قالوا: شهدنا على أنفسنا، وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين، ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُوا بَلَىٰ﴾ [الزمر: ٧١]، إقراراً بأن الله ما ترك أمة إلّا وأرسل إليها رسول.

وقلت الرسول ليس المقصود شخص الرسول، بل المقصود إقامة الحجة، إمّا من الرسول وإمّا من وريث الرسول. فما من أمة إلّا وأرسل الله لها رسولاً خاصاً بها، ولكن نبينا -صلى الله عليه وسلم- أرسله الله للناس كافة، أرسله الله للبشر أجمعين، بل للثقلين: للجن وللإنس، ولذلك النبي -صلى الله عليه وسلم- يقول: (والذي نفسي بيده ما سمع بي يهودي ولا نصراني ثم لم يؤمن بالذي جئت به إلّا كان من أصحاب النار). فالرسول

يأتي ليقيم الحجة ليبلغ الآيات الله جلَّ في علاه، ليذكر بميثاق الذر، ليذكر بميثاق الفطرة التي تبدلت، والحجة كل الحجة في ميثاق الرسل وليست الحجة في ميثاق الذر ولا بميثاق الفطرة.

والدلالة على ذلك أولاً، ثم الرد على من تكلم أو أخذ الميثاق الأول أنه حجة؛ الآية الظاهرة جداً على أن ميثاق الرسل هي الحجة فقط: قال الله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿١٥﴾﴾ [الإسراء: ١٥]، هذا فصل النزاع، الآية لا تحتمل أبداً أي تأويل. قال الله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ﴾ لأي أحد، هذا الميثاق يدل لكل الأمم، ثم (حَتَّىٰ) للغاية، ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿١٥﴾﴾؛ مفهوم المخالفة في الغاية هنا: إن لم نبعث رسولاً هنا فلا تعذيب، لا نعذّب حتى نبعث الرسول، فإذا أرسلنا الرسول فذكّرهم بالمواثيق الثلاث فأخذوا بها هنا الحساب وهنا الحجة. وأيضاً الآيات في ركاب هذه الآية كثيرة جداً، لأن الله جلَّ وعلا قال: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًۢا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ﴾ [التوبة: ١١٥]، والسبيل لا يكون إلّا من رسول أو من وريث الرسول، والدلالة على هذا الإرث أن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: (بلغوا عني ولو آية).

أمّا الذين قالوا إن ميثاق الذر حجة، أو ميثاق الفطرة حجة، فالحجة للناس عند الله لو أخذهم بميثاق الذر نظراً سيقولون: ربنا نسينا، فأول من جحد آدم، وليس هذا في سياق الذم لآدم -عليه السلام-، ما ذمه الله جلَّ في علاه أنه نسي، هم يقولون: ربنا كيف تؤاخذنا وقد نسينا؟ وقد بيّن الله لنا أنه يرفع الإثم عن الناسي: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ [البقرة: ٢٨٦]، قال: (قد فعلت، قد فعلت)، وفي الحديث عن النبي -صلى الله عليه وسلم-: (رفع عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه). فسيكون لهم الحجة على الله بالغة جداً، يقولون: ربنا أنت مسحت على ظهر آدم وأخرجتنا كالذر ما كنا على هيئتنا، وأشهدتنا فشهدنا ونسينا. ويكون لهم الحجة على الله جلَّ في علاه، فلا يكون هذا الميثاق حجة بحال من الأحوال.

أمّا الحديث: (فأبيت إلّا الشرك)؛ بمعنى أخرجتك من صلب آدم وطلبت منك التوحيد فأقررت، فلمّا نزلت إلى الدنيا أشركت فأرسلت إليك رسولاً يذكّرك بإقرارك، فأبيت إلّا الإشراك. وهذا الإضمار القرائن المحتفة هي التي جعلتنا نقول به، فإذاً هذا الميثاق ليس بحجة.

أمّا ميثاق الفطرة فأقوى للناس حجة الله جلَّ في علاه من ميثاق الذر، كيف ذلك؟ سيقولون لله جلَّ في علاه: خلقتنا حنفاء، خلقتنا على الفطرة السليمة، لكن جاء الهوى وجاء الفساد وتبدل الأحوال، والشياطين من حولنا بدلوا لنا الفطر فما استقررنا على الفطرة التي خلقتنا عليها. وعندنا حديث ظاهر جداً يبيّن ذلك وهذا الحديث في الصحيح؛ قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (قال الله تعالى: إني خلقت عبادي حنفاء) يعني يميلون بقلوبهم إلى الله جلَّ في علاه، يميلون عن الشرك إلى التوحيد، (إني خلقت عبادي حنفاء) يعني أول ما يولد (إني خلقت عبادي حنفاء فجاءتهم الشياطين فاجتالتهم) يعني حولتهم، (فاجتالتهم عن دينهم) يعني عن فطرتهم السليمة والاستسلام التام لله جلَّ في علاه، (فاجتالتهم) يعني بدلت لهم الفطرة فأحلت لهم ما حرم الله جلَّ في علاه فاتبعوا ذلك.

وعندنا الواقع يصدق هذا، الواقع يبين أن الفطر كلها تبدلت؛ أنت ترى الميل الفطري للإنسان يميل الرجل للمرأة، لا يميل للرجل، والآن ماذا ترى؟ ترى الآن الشعار الذي يرفع أن الرجل يريد أن يدعو المدعوين إلى حفل زواجه على أخيه الكافر في القاعة الفلانية، يميل الرجل إلى الرجل، فطرة تبدلت الآن. ترى اناس يعبدون الفئران، والبقر يقول: البقرة أفضل من أمي البقرة تعطيني اللبن ولا تتضجر، أمّا أمي إذا أخذت منها اللبن سنة أو سنين، عام أو عامين، أمّا البقرة طيلة أوقاتي أخذ منها ويعبد البقرة، ففطرة تبدلت.

الفطر أنت ترى الله جلَّ وعلا يغدق النعائم على عباد الله جلَّ في علاه، ويبدلون بدل

الشكر والفطرة في الداخل دائماً. قالوا قاعدة من أمتع ما تكون، يبين لك الفارق بين امرئ وآخر، بماء الذهب تكتب، قالوا: الإنسان أسير الإحسان؛ أنت إذا أردت أن تعرف كريماً وتعرف شيمه هي من شيم الكرام، تراه ينسى إحسانه للناس ويتذكر دائماً إحسانهم، هذا الكريم. وغير ذلك اضربه خلفك ظهريّاً، ليس بكريم. فالإنسان أسير الإحسان، وهذه فطرة جبل الإنسان عليها من معالي الأمور، لكن لمّا تبدلت الفطر، النعائم تنزل عليهم تتراً من الله جلَّ في علاه فيبدلون بدل الشكر جحود وسب، الله يغدق عليهم النعائم وهم ينسبون له الولد. وقد جاء في بعض الآثار كما بينا قبل ذلك وهي ليست بحديث: إني والإنس والجن في نبأ عظيم، أخلق ويُعبد غيري (وهذا تبديل الفطر)، أرزق ويُشكر سواي، خيري إليّ العباد نازل وشرهم إليّ صاعد، وأنا أكلأهم على فرشهم.

الغرض المقصود؛ الفطرة تبدلت ويكون لهم الحجة عند الله جلَّ في علا، يقولون: ربنا الفطرة تبدلت وجاءت الشياطين، أو هوانا تقدم علينا فلم نتذكر أو لن نقر بهذا التوحيد. فإذاً الفطرة تبدلت، والحجة معهم على الله جلَّ في علاه، فلا يكون ميثاق الفطرة حجة لهم.

الثالث هو ميثاق الرسل فيكون هو الحجة على البشر، والناس بالنسبة لميثاق الرسل أصناف خمسة: مؤمنون خُلّص، كافرون خُلّص، منافقون، أهل فترة، غير مكلفين.

▪ الأول: مؤمنون خُلّص هؤلاء الذين سعدوا، وهؤلاء الذين لم تتبدل فطرهم، هؤلاء الذين أقروا طواعية لله جلَّ في علاه عندما مسح على ظهر آدم، لمّا جاءهم الرسول ما احتاج إلّا أن يقول: إن الله يذكركم بميثاق الذر، فقالوا: شهدنا أنه ربنا وعبدنا الله جلَّ في علاه، وهؤلاء الذين سعدوا. وهؤلاء أصناف أيضاً:

- أصناف تأتي بالحجة: فهذا لا يمكن أن يؤمن حتى تأتي له بالدليل وباللطف وبالبيان يأتي معك، كما قال الله تعالى: ﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ﴾ [النحل: ١٢٥]، ولكن قيّد هذه الدعوة لهذا الصنف الذي لابد لا يؤمن إلّا بحجة لابد من العلم، قال الله تعالى: ﴿قُلۡ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ﴾ [يوسف: ١٠٨] أي على علم.

وهذا يبيّن لك خطأ من يتصدر للدعوة ولا علم عنده، فيفسد أكثر مما يصلح، أين أنت من العلم؟ إن كثير من الناس يرتكزون على عقولهم وينظرون في المقدمات والنتائج، هل عندك علم تستطيع أن تقنع أم لا؟ لكن تكون داعي باسم الداعي ولا علم لك، فأنت خالي عن مسألة الدعوة لأن الله قيّدها بقيد عظيم: ﴿قُلْ هَٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ﴾ بشرط وقيد ﴿عَلَىٰ بَصِيرَةٍ﴾. إذاً من اتبع الله واتبع الرسول وكان داعياً، لا يكون داعياً إلّا بعلم، فمن دعا بغير علم لم يتبع الرسول -صلى الله عليه وسلم- بنص الآية: ﴿قُلْ هَٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾ [يوسف: ١٠٨].

❖ وبعض الناس ليس بالحجة ولا بالبيان ولا بشيء، موعظة واحدة أن ترغّب له الجنة وحور العين ودرجة النبي -صلى الله عليه وسلم- والفردوس الأعلى وجوار الله والنظر إلى وجه الله، يخر صريعاً يبكي بكاءً شديداً شوقاً لرؤية وجه الله جلَّ في علاه، وهذا أسهل الناس طبعاً.

❖ والصنف النادر الذي ما ذكرته هو الصديق، ما من أحد إلّا وكان له وقفة، ما من أحد عرض عليه الدعوة إلّا وكانت له وقفة مع الدعوة إلّا واحد فقط -نادر- وهو الصديق. يقول: قال رسول الله صدق، آمنت بالله وآمنت برسول الله -صلى الله عليه وسلم-. والنبي -صلى الله عليه وسلم- لمّا بيّن فضله على عمر قال: (ما من أحد إلا وكانت له وقفة) أو (كانت له همة) أو (كانت له سكتة، إلّا أبو بكر). ابو بكر ما قيل له إلّا "آمن"، قال: آمنت بالله، دون أدنى روية ودون أدنى تفكير ودون أدنى نظر.

❖ وبعضهم لا يؤمن إلّا بالإكرام والهدية والعطايا كالمؤلفة قلوبهم.

❖ وبعضهم لا يأتي إلّا بالشدة؛ فهذا لابد أولاً أن تستخدم معه السبيل الحسن والدعوة بلطف، ثم تتدرج معه، إن طمعت في دعوته في الشدة اشتد عليه، لكن شدة عن شدة تفرق لأن في شدة لا تكون إلّا لولي الأمر ولذلك قال عثمان بن عفان: إن الله لا يزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن؛ فالقرآن على العلماء وشدة من صاحب البيان، تكون هذه

الشدة لا ترتقي إلى شدة ولي الأمر، لأن هذه تختلف، لأن الفساد فيها أشد، ترجو مصلحة فتأتي

فهذه الأقسام الأربعة بالنسبة للمؤمنين.

▪ كافرون خُلّص؛ هؤلاء الذين جهروا بقوة وبجراءة، للنبي قالوا: لا نؤمن لك ولا نقبل منك دعوة، هؤلاء كافرون خُلّص، ما قبلوا الرسول ولا قبلوا الدعوة، هؤلاء الذين تبدلت فطرهم وهؤلاء الذين أقروا لا صدقاً مع الله جلَّ في علاه ولكن أقروا جبراً، فهؤلاء ردوا الرسل وهؤلاء كفروا وهؤلاء لهم نار جهنم -والعياذ بالله- وخالدين فيها.

▪ الصنف الثالث هم المنافقون؛ هؤلاء الذين تمتعوا بالإسلام وتمتعوا بالكفر، هؤلاء الذين أقروا أيضاً جبرا ولكنهم في النهاية لّما بُعث إليهم الرسل أقروا بالرسل وتمتعوا بالإسلام، تزوجوا من المسلمين وأكلوا طعام المسلمين وذبيحة المسلمين، وأيضاً كانوا مع الكافرين في الباطن. فهؤلاء أشد وأنكى من الكافرين الخُلّص، لأن عذابهم في الآخرة كما بيّن الله جلَّ في علاه أنهم في الدرك الأسفل من النار، وهذا أشد عذاباً من الكافرين الخُلّص. فانظروا الذي ميّع ولم يصفِّ لم يُصفَّ له، والذي خادع خدعه الله جلَّ في علاه كما قال الله تعالى: ﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ﴾ [النساء: ١٤٢]، ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ﴾ [الأنفال: ٣٠].

▪ الصنف الرابع هم أهل فترة لم يأتيهم الرسل، هؤلاء ما آتاهم رسول، وهؤلاء قسمان، والقسمان يتفقان بأنهم ما آتاهم الرسول شخصاً، لكن: قسم منهم أتتهم دعوة الرسول، وقسم لم يأتهم دعوة الرسول.

والفريقان ينصبان في مسألة قريش؛ مكة فيها القسمان، لم يأتهم النذير، اتفقا في ذلك، لم يأتهم النذير شخصاً وعيناً، قال الله تعالى: ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا﴾ أهل قريش ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ [السجدة: ٣]، ما أتاهم من نذير شخصاً وعيناً، لكن هل النذارة وهل الرسالة وهل الحجة أقيمت عليهم أم لا؟ نقول قسمان أيضاً: قسم بلغتهم دعوة

الرسل، وقسم لم تبلغه.

❖ القسم الذين بلغهم دعوة الرسل: أبو النبي -صلى الله عليه وسلم- وأم النبي وجد النبي، والدلالة على ذلك أن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: (إن أبي وأباك في النار) فحكم لأبيه أنه في النار، وأيضاً قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (استأذنت ربي أن استغفر لأمي فلم يأذن لي)، لِمَ؟ ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسۡتَغۡفِرُواْ لِلۡمُشۡرِكِينَ وَلَوۡ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرۡبَىٰ﴾ [التوبة: ١١٣]، (واستأذنت أن أزور قبرها فأذن لي).

ومنهم من بلغتهم الدعوة أيضاً فآمنوا ولم يشركوا: ورقة أبن نوفل قد تنصّر، الشرائع لا يلزم بها المرء لكن عليه أن يأتي بأصل الدين وهو أصل التوحيد، فورقة بن نوفل وبعض الذين ذكرهم النبي -صلى الله عليه وسلم- أنهم لم يسجدوا لصنمٍ قط ولم يأتيهم النذير، فهؤلاء بلغتهم الدعوة وهؤلاء أيضاً الذي عناهم النبي -صلى الله عليه وسلم- عندما صوروا التصاوير بأن إبراهيم وإسماعيل يستقسمان بالأزلام، قال: (كذبوا والله، ولقد علموا) وهذا نص، (ولقد علموا) أي بلغتهم دعوة إبراهيم، (ولقد علموا أنه ما استقسم قط).

فهؤلاء بلغتهم الدعوة: فهؤلاء الذين آمنوا منهم في الجنان، والذين كفروا منهم في النيران.

❖ القسم الثاني من أهل الفترة الذين لم يأتهم النذير ولم تبلغهم الدعوة، وهؤلاء يختبرون يوم القيامة كما بيّنا على الراجح أن الله يأمرهم أن ينزلوا النار، فإذا نزلوا كانت برداً وسلاماً عليهم. وهذه ليس في عصر مكة فقط، بل في عصرنا هذا يمكن أن نجد أناساً لم تبلغهم الدعوة ولم يأتهم نذير، حجة الرسل لم تصل إليهم؛ فأدغال إفريقيا كثير منهم لم يصلهم الإسلام الصحيح، بعض أوروبا لم يصلهم الإسلام الصحيح، هؤلاء حكمهم حقاً حكم أهل الفترة لأنه لم يبلغهم الإسلام الصحيح، فهؤلاء يختبرون يوم القيامة.

▪ القسم الأخير وهم قسم غير المكلفين؛ هؤلاء أتاهم الرسول، جاءهم النذير

وأقيمت الحجة عليهم، لكنهم هم غير مكلفين وغير مؤاخذين، وهم أصناف منهم:

❖ أولاً من زال عقله كلية: السفيه والمجنون والخرف الهرم، هذا أيضاً أتاه النذير وكأنه لم يأته، لأن المقصود من إرسال الرسول هو إقامة الحجة؛ قال الله تعالى: ﴿وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ [الكهف: ٥٦]، ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥]. هنا سيكون له حجة يقول: ربي أتاني رسولك ولم أعقل عنه شيء، إذاً لا حجة فهذا لا عقل له.

❖ والثاني الأطفال: والأطفال لا يقال إنهم قد زال عقلهم، لا، الأطفال منهم المميز ومنهم غير المميز، والأطفال عامة عندهم عقول لكنهم غير مكلفين، وهذا حقهم سيأتي بإذن الله منهم أطفال المسلمين وأطفال المشركين.

- أطفال المسلمين الخلاف فيه ضعيف جداً، فأشبه ما يكون بالاتفاق أن أطفال المسلمين في الجنان، خدم أهل الجنة.

- أمّا أطفال المشركين ففيها أقوال ثلاثة، وهذا الذي يأتي تفصيله إن شاء الله في طبقات المكلفين الأسبوع القادم، والأقوال الثلاثة نعجلّ بها الآن:

القول الأول: الله أعلم بما كانوا عاملون، الأمر مبهم ولا نعلم، وأحالوا الأمر على رسول الله -صلى الله عليه وسلم-. وهذا قول أيضاً في أطفال المسلمين لكنه ضعيف، فلذلك لن نلتفت له، بأن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: (أطفال المشركين الله أعلم بما كانوا عاملين)، بعد ذلك عندما يكبروا، ولكن ماتوا كطفل الخضر.

والقول الثاني: أنهم في النار، لأن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: (هم منهم)، فإذاً هم اتباع آبائهم، فإن كان الآباء في النار فهم في النار.

القول الثالث: أنهم في الجنة، وهذا الذي سنفصل فيه النزاع الأسبوع القادم بإذن الله.

٤- الميثاق الرابع هو ميثاق خاص وهو ميثاق الرسل، كل رسول أخذ الله عليه ميثاق،

ما من رسول إلّا وأخذ الله عليه الميثاق كرامةً وتعظيماً لمحمد -صلى الله عليه وسلم-؛ أخذ عليه الميثاق أنه إن أتاه رسول بوصفه المعلوم وهو محمد -صلى الله عليه وسلم- وجب عليه أن يتبعه، ولا يسعه أن يخرج عنه قيد أنملة. قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨١﴾﴾ [آل عمران: ٨١]، ثم قال الله تعالى: ﴿فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٨٢﴾ أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ﴾ [آل عمران: ٨٢ – ٨٣].

وأيضاً النبي -صلى الله عليه وسلم- عندما رأى عمر -رضي الله عنه وأرضاه- يأخذ التوراة بيده يقرأ، قال: (أمتهوكون فيها يا ابن الخطاب؟ والذي نفسي بيده لو كان موسى حياً)، وموسى من أولي العزم من الرسل، فموسى له شرف وكرم وعظمة عند الله جلَّ في علاه، ومع ذلك قال فيه النبي -صلى الله عليه وسلم-: (ما وسعه إلّا أن يتبعني). وهذه حجة قوية جداً عند العلماء في أن الخضر ليس بحي، لأن النووي يميل وبعض العلماء يميلون إلى حياة الخضر، وأتوا بحكايات، وكل هذه القصص صراحةً لم ينزل الله بها من سلطان. والدليل واضح جداً على موت الخضر لأنه (لو كان حياً ما وسعه إلّا)، فأين هو؟ كان لابد أن يحمل لواء النبي -صلى الله عليه وسلم-، أين هو؟ كان لابد أن يبايع رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، أين هو؟ كان أولى الناس بالخلافة من أبي بكر لأن أبا بكر أفضل الناس سوى الأنبياء والمرسلين، والراجح في الخضر أنه نبي. فهذا دليل يستدل به العلماء على أن الخضر ليس بنبي لأن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: (والذي نفسي بيده لو كان موسى حياً ما وسعه إلّا أن يتبعني)، وإن كان موسى لا يسعه إلّا أن يتبع النبي -صلى الله عليه وسلم-، فالخضر من باب أولى. فإذاً الميثاق الرابع هو ميثاق النبيين أنهم يتبعون رسول الله -صلى الله عليه وسلم-.

الفوائد المستنبطة:

١ - المضاف إلى الله نوعان: إضافة نوع أو معنى، وإضافة عين. هنا إضافة عين وإضافة معنى:

▪ أمّا إضافة العين إلى الله جلَّ في علاه عين قائمة بذاتها كالكعبة، الكعبة هذه عين قائمة أمام عينك، فإذا أضيفت إلى الله لا تضاف إلى الله أنها جزء منه أو صفة من صفاته -حاشا لله-، هي إضافة تشريف. عيسى كان يمشي بين الناس ويأكل ويشرب، عين قائمة، لّما يضاف إلى الله يقول: عيسى روح الله، هل هو روح الله أو روح من الله جزء من الله أو صفة من الله؟ حاشا لله، الإضافة هنا إضافة تشريف.

وهنا قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (لّما خلق آدم ونفخ فيه من روحه)؛ "روح" مضاف و"الهاء" مضاف إليه، و"الهاء" عائدة على الله جلَّ في علاه، فالمضاف إلى الله إن كانت عيناً فتكون الإضافة إضافة تشريف. إذاً هذه الروح يعني روح خلقها الله وألصقها الله به إضافةً تشريفاً لهذه الروح وتمييزاً لهذه الروح عن الأرواح الأخرى التي ينفخ فيها الملك بأمر الله جلَّ في علاه.

▪ أمّا إضافة المعنى فهي إضافة صفة للموصوف، ليست عين قائمة؛ تقول: يد الله، عين الله، أصابع الله، رجل الله؛ كل هذه ثابتة بالسنة، إضافة المعنى هي صفة للموصوف: كعزة الله، كلام الله، قدرة الله، حب الله، روح الله؛ والروح هنا بمعنى رحمة الله جلَّ في علاه لأنه قال: ﴿لَا يَأْئَسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ﴾ [يوسف: ٨٧]، وفي بعض الأحاديث: (لو علم الإنسان ما من رحمة الله جلَّ في علاه ما يأس من رحمة الله من شيء)، فروح الله يعني رحمة الله جلَّ في علاه، فتكون هذه إضافة معنى، هذه إضافة صفة للموصوف.

وهنا في الأحاديث إضافة المعاني كثيرة جداً: صفة اليد؛ إثبات صفة اليد لله جلَّ في علاه من أين أخذت في الأحاديث؟ (فمسح بيده)، فهذه دلالة على اليد، لكن لّما قال: (فمسح بيده) أضاف، والمضاف يعم، يعني لله يد وثانية وثالثة ورابعة وخامسة؟؟ السائل ممكن أن

يقول ذلك ويقف عندها، يقول: "يده" هذه مضافة والإضافة تفيد العموم، فيأتيه حديث آخر ورواية أخرى تحد له هذا التفسير ويقول: لا لربك يدان فقط؛ قال: (يمينه .... وشماله)، فأثبت أن لله يدان اثنتان لا أكثر.

(وكلتا يدي ربي يمين)؛ هذه الأحاديث تثبت أنه لا يصح نصف الله بالشمال، آخر حديث قال: (وكلتا يدي ربي يمين مباركة)، وهذا الإسناد الحسن، وأمّا التي ذكر فيها الشمال فهي ضعيفة. وأول حديث: (إن الله تعالى خلق آدم -عليه السلام- ثم مسح ظهره بيمينه فاستخرج منه ذريته فقال: خلقت هؤلاء للجنة وبعمل أهل الجنة يعملون، ثم مسح ظهره بيمينه فاستخرج ذريته فقال: خلقت هؤلاء للنار وبعمل أهل النار يعملون)، فصرّح باليمين. وهناك رواية في مسلم قال: (وبشماله)؛ فقال العلماء: هذه الرواية وإن كانت في مسلم هي رواية شاذة، والصحيح الراجح أنها ضعيفة لأن الراوي فيها ضعيف كما ضعّفه البيهقي وغيره من المحدثين، وأمّا المتفق عليه من البخاري ومسلم: قال: (وكلتا يدي ربي يمين)، فلا يصح أن تصف ربك بالشمال.

٢- يوصف الله بأفعال من هذه الأفعال: المسح على الظهر [وهذه صفة اليد أيضاً]، القبض والبسط كما قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (إن الله يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل، سحاء الليل والنهار).

﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ ۚ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟ ۘ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ ۚ﴾ [المائدة: ٦٤]، فالبسط والقبض صفة من صفات الأفعال لله جلَّ في علاه.

٣- الرد على الجبرية وعلى القدرية؛ (وبعمل أهل الجنة يعملون) هذا رد على القدرية ورد على الجبرية:

- كيف يكون رداً على الجبرية؟ بقول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (وبعمل أهل الجنة يعملون) نسب العمل للعامل، وهم يقولون: لا عمل للعامل.

- ورد على القدرية أيضاً، كيف؟ (خلقت هؤلاء للجنة وبعمل أهل الجنة يعملون)، (خلقت هؤلاء للنار وبعمل أهل النار يعملون)، لمّا قال: (خلقت) يعني فرغ ربكم من العباد، إذاً القدر سابق وليس الأمر أنف.

٤- التصريح بكفر قدرية، وهذه المسألة صراحةً لا يوافق عليها المستنبط، هو فقط هو تصريح من عمر ومن ابن عمر. ونحن نقول هذا ليس في أوانهم، التصريح بالكفر القدرية في أوانهم لأنهم أنكروا علم الله جلَّ في علاه، قالوا: لا يعلم. ولذلك الشافعي قال: خاصموا أهل القدر بالعلم؛ فلو قالوا: الله لا يعلم، إذاً كذبوا الله في كتابه، والله جلَّ في علاه يبيّن أنه عليم قدير، يعلم كل شيء يعلم ما كان وما يكون وما لم يكن لو كان كيف سيكون، فإن أنكروا علم الله جلَّ في علاه كذبوا الله في كتابه، ومن أصدق من الله حديثاً، ومن أصدق من الله قيلاً.

التصريح بكفرهم هنا لأنهم كذّبوا الله جلَّ في علاه ونفوا علمه، لكن القدرية المتأخرين لا يقال فيهم هذا لأنهم يثبتون علم الله جلَّ في علاه، لكنهم يقولون إن الأفعال لم يخلقها الله جلَّ في علاه، وهذا ضلال مبين، لكن لا نستطيع أن نقول بمسألة الكفر، لا نستطيع أن نقول ذلك ولا نتجرأ عليه.

هم يؤولونها ويحرفونها، لا ينكرونها، ولذلك العلماء احتاروا في مسألة المؤول فقالوا: المؤول لا يكفر لأن عنده معاني تحتها والله أعلم بنيته، ولذلك العلماء قعّدوا قاعدة مهمة جداً: لازم القول ليس بقول؛ لا تستطيع أن تكفّر أمرئً بلازم قوله. نقول: نفصّل في القدرية، وهذا الذي فصله أيضاً شيخ الإسلام ابن تيمية وقال: غلاة القدرية يكفرون، أمّا الذين هم اتباع أو عوام لا يكفرون، لأنهم لا ينكرون علم الله جلَّ في علاه.

٥- العلة في الاستشهاد على الدين: من أين أتت هذه؟ (إن أول من جحد آدم)؛ ولذلك هذه الحكمة من آيات الدين: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيۡنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى فَٱكۡتُبُوهُۚ﴾ [البقرة: ٢٨٢]، فأنت ممكن تعطيه الدين وتأتي في الأجل يقول: ما رأيتك

إلّا اليوم، فلذلك أمر الله بالكتابة. ولولا آية السفر والرهان لقلنا بوجوب الإشهاد، لكن الذي صرف الوجوب إلى الاستحباب، لأن الله جلَّ وعلا قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيۡنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى فَٱكۡتُبُوهُۚ﴾ [البقرة: ٢٨٢] هذا أمر على الوجوب، لكن قال: ﴿فَإِنۡ أَمِنَ بَعۡضُكُم بَعۡضٗا فَلۡيُؤَدِّ ٱلَّذِي ٱؤۡتُمِنَ أَمَٰنَتَهُۥ﴾ [البقرة: ٢٨٣] فصرف الوجوب له الاستحباب. والحكمة من ذلك أن الإنسان ينسى ويجحد. ولذلك قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (أول من جحد آدم)، (نسي آدم)؛ فأنت ابن آدم فلابد أن يعتريك النسيان، فحتى لا تنسى إذا أقرضت فاكتب.

لكن ترى بعض العوام إذا قلت له بعد ما تحسن إليه وتعطيه القرض، تقول اكتب، يقول أنت لا تستأمني؟ ألا تتقي الله؟ يعني ملتحي ومطوع وتفعل ذلك. نقول له: هذا الدين، بل أنا أنصح كل أخ إذا أقرض أخ أن يكتب عليه، هذا أقل أحواله الاستحباب، لأن الحسن وعطاء وغير هؤلاء قالوا بوجوب كتابة الدين أو الإشهاد على الدين.

٣-أخرجه مسلم (١٥٣) والالباني في صحيح الجامع (٧٠٦٣).

الطير تجري بقدر

عن ابن الديلمي قال: لقيت زيد بن ثابت فسألته فقال: سمعت رسول الله -صلى عليه وسلم- يقول: (لو أن الله تعالى عذّب أهل سماواته وأرضيه لعذّبهم وهو غير ظالم لهم، ولو رحمهم كانت رحمته خيراً لهم من أعمالهم، ولو كان لرجلٍ أحدٌ مثل أحدٍ ذهباً ينفقه في سبيل الله لا يقبله الله عز وجلّ منه حتى يؤمن بالقدر خيره وشره ويعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه وما أخطأه لم يكن ليصيبه، وإنك إن مت على غير هذا أُدخلت النار)، وإسناده صحيح. وفي زيادة قال: ثم أتيت عبد الله بن مسعود فقال مثل قوله، ثم أتيت حذيفة بن اليمان فقال مثل قوله، ثم أتيت زيد بن ثابت فحدثني عن النبي -صلى الله عليه وسلم- مثل ذلك.

وعن أبي الدرداء عن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: (إن العبد لا يبلغ حقيقة الإيمان حتى يعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه)، وهو حديث صحيح.

وعن شبيب قال: سمعت أنس بن مالك -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: (لا يجد عبد حلاوة الإيمان حتى يعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه)، وإسناده حسن.

وعنه -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: (إن الله قبض قبضة فقال: للجنة برحمتي، وقبض قبضة قال: للنار ولا أبالي)، وهو حديث صحيح.

وعن عبد الله بن مسعود -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم: (إن العبد يولد كافراً ويعيش كافراً ويموت كافراً، وإن العبد ليعمل برهة من دهره بالسعادة ثم يدركه ما كتب له فيموت شقياً، وإن العبد ليعمل برهة من دهره بالشقاء ثم

يدركه ما كتب له فيموت سعيداً)، وإسناده ضعيف ولكن معنى الحديث صحيح بشواهده.

وعن عائشة -رضي الله عنها- قالت: قال لي رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: (يا عائشة، جعل الله للجنة أهلاً وهم في أصلاب آبائهم، وجعل للنار أهلاً وهم في أصلاب آبائهم)، وإسناده حسن. وعنها -رضي الله عنها- عن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: (إن العبد ليعمل الزمان الطويل من عمره بعمل أهل الجنة وإنه عند الله لمن أهل النار، وإن العبد ليعمل الزمان الطويل من عمره بعمل أهل النار وإنه مكتوب عند الله من أهل الجنة)، وهو حديث صحيح.

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص -رضي الله عنهما- قال: سمعت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يقول: (إن الله تبارك وتعالى خلق خلقه، خلقهم في ظلمة قبل أن يستقروا نطفاً)، قال: (فأخذ الله إلى نوره فألقى عليهم، فمن شاء أن يصيبه من ذلك النور اهتدى ومن شاء أن لا يصيبه ضل)، وإسناده ضعيف جداً.

وعن يوسف بن أبي بردة عن أبيه -رضي الله عنه- قال: أتيت عائشة فقلت: يا أمتاه حدثيني شيئاً سمعتيه من رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، قالت: (قال لي رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: الطير تجري بقدر، وكان يعجبه الفأل الحسن)، وهو حديث حسن.

هذه الأحاديث يدور فلكها في الكلام على هذا الباب العظيم، الركن الركين من الإيمان، ألا وهو باب القدر وأنه لا يستقيم إيمان عبد إلّا به، ومن لا يؤمن بالقدر يكون عند الله جلَّ في علاه غير مؤمن. دخل جبريل -عليه السلام- يسأل النبي -صلى الله عليه وسلم- عن الإيمان، فأجابه بأعظم ما فيه، فأجابه بأركان الإيمان فقال: (الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته .... إلى أن قال: وتؤمن بالقدر خيره وشره). وأيضاً عن ابن عمر -رضي الله عنه وأرضاه- كما في صحيح مسلم أن رجلا اكتنفه هو وآخر فقال: أناس يتكلمون في القدر يقولون الأمر أنف، فقال ابن عمر -رضي الله عنه وأرضاه-: أبلغهم أني منهم براء

وهم مني براء، لو أنفقوا مثل أحد ذهباً ما تقبِّل من أحدهم حتى يؤمنوا بالقدر. والرواية هنا صريحة أنك إن لم تؤمن بأن ما أصابك لم يكن ليخطئك وما أخطأك لم يكن ليصيبك دخلت النار على ذلك، كما قال الرجل لابنه وأوصاه بالإيمان بالقدر.

فالإيمان بالقدر هو ركن ركين من هذا الدين، وهو الركن السادس الذي من لم يؤمن به لا يدخل الجنة ولا ينجو من عذاب ربه جلَّ في علاه. وصحت الآثار على أن القدرية هم مجوس هذه الأمة، هم الذين يقولون الأمر أنف. ولذلك حذّر الشرع قال: إذا مرضوا فلا تعودوهم وإن ماتوا فلا تتبعوهم، لأنهم يدخلون في هذا الباب لا يسلمون لأمر الله جلَّ في علاه. والقدر هو قدرة الله جلَّ في علاه، وأيضاً الأحاديث الأخرى بيّنت أن الله قد فرغ من العباد، كتب لأهل الجنة ناسها وكتب لأهل النار ناسها، وكل ذلك تابع لحكمة الله جلَّ في علاه.

ثم الأبواب التي بعدها شرحناها تفصيلاً؛ أن الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة فيما يبدو للناس، وحتى يسبق عليه الكتاب فيعمل عمل أهل النار فيختم له فيدخلها، وإن الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة فيما يبدو للناس، ويكون منافقاً في الباطن، حتى يسبق عليه الكتاب فيكون من أهل النار والعياذ بالله. اليوم نتكلم عن حديث عائشة -رضي الله عنها وأرضاها-، هو آخر هذه الأبواب، الذي قالت فيه أن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: (الطير تجري بقدر الله).

كل شيء قد خلقه الله جلَّ في علاه وقد كتبه قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة، ومعنى أن تقول: (الطير تجري بقدر الله) أن الطير لا تجلب نفعاً ولا تدفع ضراً، وهذه طبعاً تنوه لنا وتومئ لنا بأمر مهم جلل، بعقيدة كانت خربة في الجاهلية، جاء الإسلام ليمحو هذه العقيدة ويصححها، هذه العقيدة هي عقيدة التشاؤم أو التطيّر. التطير: تطير طيرة أي تشاءم، يعني رده التشاؤم عن شيء أراد أن يفعله أو دفعه بشيء يريد أن يفعله كما سنبيّن في الفأل. فالدفع يكون في الفأل، الإحجام يكون بالتطير أو التشاؤم.

هذا كان في الجاهلية، بل كان أيضاً في الأمم قبل النبي -صلى الله عليه وسلم-، في أمم موسى وصالح وشعيب، كانوا يتطيرون بكل شيء. أصل التطير كان من الطير، ينظرون إلى الطير؛ إذا ذهب يميناً تيمنوا وقالوا نذهب، إن كان سفراً، إن كان زواجاً، إن كان تجارة بيعاً أو شراءً فعلوا ذلك. وإن ذهب شمالاً تشاءموا فأوقفوا الزواج أو التجارة أو غير ذلك. فكانوا يتطايرون بالطير، ثم ارتقى هذا الأمر عندهم بالشجر والحجر والإنسان وكل شيء. وأراذل للناس كانوا يتطيرون بأفاضل الناس، بالنبيين وبالمرسلين، وهذا حدث في قوم موسى عندما أصابتهم البلايا، قالوا لموسى: إنا تطيرنا بك، وأيضاً قوم صالح لصالح قالوا نفس الأمر. وأيضاً ارتقوا إلى النبي -صلى الله عليه وسلم-؛ ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا۟ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا۟ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَ ۚ﴾ [النساء: ٧٨]، يتطيرون برسول الله. فأراذل الناس يتطايرون بأفاضل الناس، وما زلنا نرى ذلك، يعني في كثير من الناس إذا رأوا الرجل صاحب الهيئة السنية التي تتبع النبي -صلى الله عليه وسلم-، يقول أنا أتشاءم من رؤية مثل هؤلاء، لا أحبهم، يأتون بالفقر. يتشاءمون بالأفاضل ويشابهون أمثالهم في الجاهلية كانوا يتشاءمون برسول الله -صلى الله عليه وسلم-. وكما قلت اتقى بعد ذلك إلى الحجر والشجر وغير ذلك من العجائز والغراب والبوم على ما سنفصل.

هذه العقيدة الخربة فيها ضلال في القدر، من آمن بالقدر لا يتشاءم، ومن ضل في باب القدر يدخل في قلبه هذا التشاؤم، وهو مذموم شرعاً وعقلاً وفطرةً؛ أمّا في الشرع فإن النبي -صلى الله عليه وسلم- نهى عنه أو نفاه، والنفي يتضمن النهي، حيث يقول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (لا عدوى ولا طيرة ولا هامة ولا صفر)، والصراحة أن هذا النفي يتضمن النهي، يعني لا تتطيروا فإن حرام، وهذه تدل على أنها من الكبائر. وأيضاً صح عن نبينا -صلى الله عليه وسلم-[1] أنه قال: (الطيرة شرك، الطيرة شرك، الطيرة شرك)،

(١) أخرجه أبو داود (٣٩١٠)، والترمذي (١٦١٤) باختلاف يسير، وابن ماجه (٣٥٣٨)، وأحمد (٣٦٨٧) واللفظ لهما، والالباني في الايمان لابي عبيد (٨٠).

يؤكد أن هذا من أفعال الجاهلية، وهو شرك على ظاهره.

ويقول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (ليس منا من تطيَّرَ أو تُطيِّر له أو تَكَهَّن أو تُكهِّن له) ... إلى آخر الحديث، ما يفيد هذا اللفظ من النبي -صلى الله عليه وسلم-: (ليس منا من تطيَّرَ أو تُطيِّر له)؟ ما معنى (تطيَّرَ أو تُطيِّر له)؟ ثم بيّنوا لي إفادة هذا اللفظ من النبي؟ كثير من الناس إذا رأى عجوزاً يقول: هذا عجوز النحس، لا أسير ولا آتي ولا أفعل شيئاً، أو الغراب أو البوم. نقول لهم بصريح قول النبي -صلى الله عليه وسلم- لا تفعل، إن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: (ليس منا من تطيَّرَ أو تُطيِّر له).

(تطيَّر)؛ كما قلنا سمع البوم وكاد يسافر قال: هذا نذير شؤم لا أسافر. (تُطيِّر له)؛ قال رجل: أين تذهب؟ يقول: أذهب إلى التجارة الفلانية، فيقول: لا رأيت رؤيا أمس فيها كذا وكذا، مرت من أمامك هذه المرأة وما مرت أمام أحد إلّا وخسر، فيقول: أعوذ بالله لا أذهب؛ هذا الذي تُطيِّر له. ما يفيده حديث النبي -صلى الله عليه وسلم-: (ليس منا من تطيَّرَ أو تُطيِّر له)؟ النفي هنا نفي كمال الإيمان وليس نفي أصل الإيمان، لكننا قعّدنا قاعدة مهمة جداً تضبط لنا ضابطاً معيناً بهذه اللفظة: إذا كان نفي الإيمان، نفي أن يكون منا أو على هدينا تدل على أن الفعل هذا كبيرة. (ليس منا)؛ إذاً هو أتى بكبيرة، من تشاءم من أحد، من انقبض قلبه من أحد أو انقبض قلبه رده على الفعل أو دفعه للفعل هذه دلالة على أنه وقع في كبيرة ولابد أن يتوب منها توبة نصوحة. فيقول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (ليس منا من تطيَّرَ أو تُطيِّر له)، وقد قال النبي -صلى الله عليه وسلم- تصريحاً: (الطيرة شرك، الطيرة شرك، الطيرة شرك)، وقال: (أصدقها الفأل) كما سنبين.

إذاً الطيرة كبيرة من الكبائر، بل هي شرك كما سنبيّن، وهي من أفعال الجاهلية، ومن تطير لم يؤمن بحق الإيمان المطلوب منه أو الإيمان الواجب بقدر الله جلَّ في علاه لأنه سينجر إلى سوء الظن بالله.

ما حكم الطيرة؟ أقول الطيرة لها أحوال:

▪ الحالة الأول: خاطرة في القلب؛ يرى الرجل المرأة التي ما رآها إلّا وحدثت له مصيبة، فلمّا يراها يعتمل في نفسه هذه المرأة شؤم، ما أريد أن أفعل عندما أراها، فيعتمل في قلبه.

▪ الحالة الثانية: بعد ما يعتمل في قلبه وتكون خاطرة تصبح عزماً فلا يسافر، فلا يتاجر، فلا يتزوج يوقف العمل من أجلها. وفي هذه الحالة يقول هذه المرأة سبب في البلاء، ما يقول هي البلاء أو هي التي تجلب الخير وتدفع الضر، لا، يقول هذه سبب وهذه علامة على البلاء. أو إذا رأى الغراب قال: هذه دلالة على أن الشؤم سيأتيني أو البلاء سيأتيني، يجعله سبباً.

▪ الحالة الثالثة: بعدما جاءت الخاطرة وجاءت أن يتطير المرء، ولذلك وهذا الذي جر بعض الفقهاء أن يقول: الطيرة على الكراهة وليس على التحريم.

الحديث ظاهر جداً في السنن عن النبي -صلى الله عليه وسلم-[1] أنه قال: (الشؤم في ثلاث)، والشؤم معناه التطير، قال: (الشؤم في ثلاث: في المرأة والدابة والدار)، هذا قال فيه العلماء يجوز التطير في هذه الأحوال.

- المرأة بالاستقراء يعني المرأة العاصية، هذه شؤم، إذا دخلت عليها رأيتها ما تعينك على طاعة، إن رأتك على طاعة ما سددتك، وإن رأتك على اعوجاج ما قيّمتك، لا تعينك ولا تسددك بل هي تجرك دائماً إلى الشرور والآثام. أين الطعام؟ أين الشراب؟ أين الثياب؟ أين السيارة؟ أين تغيير البيت؟ امرأة ليل نهار لا تطلب إلّا ما يجحف المسألة على المرء، يجعله يقع في الحرام دون أن يدري.

- وفي الدار؛ الدار الضيقة لا تستطيع أن تستضيف أحداً، كلما استضفت أحداً وجدت

(١) أخرجه البخاري (٢٨٥٨)، ومسلم (٢٢٢٥) باختلاف يسير والعيني في نخب الأفكار (١٤/ ١٠٩).

في نفسك الحرج، فهذه أيضاً تؤدي بالمرء إلى التشاؤم.

- والثالثة الدابة؛ السيارة تأخذها لتقود السيارة إلّا وقفت، أخذت البرشام ووضعته لا تسير، الماء لا تسير، ما في إلّا أن يحملها أحد ويسير معك، فأنت ما تستطيع أن تسير بهذه السيارة، فتتشاءم فتسب فتتطير فيحدث معك ما يحدث، تتعطل عن الطاعات، هذه أيضاً فيها شؤم.

وقد قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (الشؤم في ثلاث: في الدابة، في الدار، في المرأة)، وهذا يدل على الجواز، مع أننا قررنا آنفاً أن التطير حرام، فكيف نجمع بين الحديثين؟ وهذا قال به بعض الفقهاء؛ قال: التطير ليس بحرام، التشاؤم ليس بحرام، هو وسيلة للحرام فلذلك هو على الكراهة. واستدلوا بأن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: (الشؤم)، يعني التشاؤم، نعم من تشاءم في المرأة وفي الدار وفي الدابة يصح هذا التشاؤم ولا ينكر عليه ولا يدخل في محل قوله -صلى الله عليه وسلم-: (ليس منا من تطيَّرَ أو تُطيِّر له). ما رأيكم في استدراك عائشة على أبي هريرة، هذا بيّن جداً في مسألة ولد الزنا، (شر الثلاثة ولد الزنا)؟

التوجيه ثلاث توجيهات:

- التوجيه الأول: هو استدراك عائشة لأنه الأقوى ونقدم فهم عائشة على فهمنا، أنها قالت: رحم الله أبا هريرة أنه قال: النبي -صلى الله عليه وسلم- قال كذا وكذا، إن أهل الجاهلية كانوا يقولون: الشؤم في ثلاثة: الدابة والمرأة والدار. فدخل أبو هريرة على قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (الشؤم في ثلاثة). ويبقى الاستدراك أنها قالت: إن أهل الجاهلية كانوا يقولون ذلك؛ وأهل الجاهلية يقولون ذلك، فجاء النبي يصحح كلام أهل الجاهلية، جاء يصحح لهم هذا الكلام ويقول: لا شؤم لا في المرأة ولا في الدابة ولا في الدار، (لا عدوى ولا طيرة)، (الطيرة شرك)، وهذا أقوى الأوجه.

- التوجيه الثاني: أننا نقول الأصل العام "لا تشاؤم"، لكن هناك أشخاص خلق الله

فيهم بعض الشرور، ما تراهم إلّا والشرور معهم، كالمرأة الطالحة والدابة المتعرجة وأيضاً الدار الضيقة. وهذا كلام صحيح، لكن الأصل أنه لا تشاؤم، لكن هؤلاء بذواتهم ذوات لا خير فيهم؛ كما يقولون هذا الرجل رزقه الله ولداً مباركاً، لا يدخل إلّا باليمن والبركة، ما يهل إلّا بالخيرات، الله جلَّ وعلا دائماً يجعله سببا لفتح الأبواب. الآخر ما يأتي إلّا بالشرور، ما يأتي إلّا بالقضايا، ما يأتي إلّا بالعربدة، ما يأتي إلّا بكذا وكذا.

- والثالث هو التوجيه الأخير: لو كان ثمة شؤم، فإن الشؤم لا يكون إلّا مصدره من امرأة لأنها تلح كثيراً على الرجل، وهي التي تغري الرجل عن الجادة وتحيد به عن طريق الله جلَّ في علاه، أو الدابة التي تضيق عليه عمله أو تضيع عليه طاعته، أو الدار التي تحرجه دائماً إذا استضاف أحداً.

فإذاً معنى الحديث لو كان هناك شؤم، والأصل أنه لا شؤم، لو كان لن يكون إلّا في امرأة طالحة ليست صالحة، أو في دابة، أو في دار. هذه المسألة الأولى تتعلق بمسألة الطيرة.

الأمر الثاني؛ قلنا الطير بأسرها حرام، كبيرة، شرك، إلّا شيئاً واحداً من الطيرة ألا وهو الفأل، لأن النبي -صلى الله عليه وسلم- لمّا سئل عن الطيرة قال: (الطيرة شرك، وأصدقها الفأل [كأن الفأل منها]، فقالوا: يا رسول الله ما الفأل؟ قال: الكلمة الطيبة). هذه النفوس تقبلها، حتى أنت ترى كثير من العرب كانوا من التفاؤل يغيرون أسماء المرضى أو المفاوز، يعني إذا ذهبوا وسافروا في أرض قحلة قف يقولون: مفازة، يعني يستبشرون أنهم يعني سيتجاوزونها. أيضاً اللبيغ؛ عقرب أو نقول حية لدغت أحد، ماذا يسمونه؟ سليم. وأيضاً الأعمى ماذا يسمونه؟ بصير. فهم يستبشرون بذلك، فهذه فطر سليمة، والنبي -صلى الله عليه وسلم- كان يحب الفأل جداً، ولذلك كما في المسند: كان النبي -صلى الله عليه وسلم- إذا سار بسرية يحب أن يسمع: يا ناجح، يا نجيح، يا راشد، يا رابح. فكان إذا جهّز سرية وأمّر عليهم أحداً سأل عن اسمه، فإذا وجده منصور، وجده رابح، وجده راشد، سر بذلك. وإذا كره اسمه رؤي ذلك في وجهه ونحّاه ولم يؤمّره. ولذلك النبي -

صلى الله عليه وسلم- كان قال: (أصدقها الفأل)، وسألوه: ما الفأل يا رسول الله؟ قال: (الكلمة الطيبة) لأنها تشعل فتيل حسن الظن بالله جلَّ في علاه، وهي من أجلّ العبادات.

العلاقة بين الطيرة وبين الفأل الحسن: هما في دائرة واحدة يتفقان ويفترقان:

الفأل والطيرة يتفقان في التأثير في النفس؛ المتشائم يعتمل في نفسه، المتطير إذا رأى الغراب أو البوم وضع في قلبه شيء وقال: انقبض قلبي لا أتاجر، لا أتزوج. الذي يسمع يا ناجح يا رابح، يقول لابد أن أقدم على هذه التجارة، النجاح معي والفوز معي وسأربح في هذه التجارة. فالاثنان يتفقان في أنها تحرك النفس وتجعله يعمل الهم حتى يأتي العزم على العمل، فيتفقان في ذلك.

ثم يفترقان بعد ذلك، هذا طريق وهذا طريق؛ أمّا الفأل فهو حسن ظن بالله، وهو من أجلّ العبادات، عندما يسمع يا رابح يا نجيح يا راشد، يحسن الظن بربه أن الله جلَّ وعلا سينجح له مسألته، فيفوز بهذه المسألة، فييسر عليه أمره، فيفتح عليه الأبواب المغلقة. وحسن الظن بالله مطلوب مأمور به، الله جلَّ في علاه مدح الذين يحسنون الظن به على لسان -صلى الله عليه وسلم-[1]: (لا يموتن أحدكم إلّا وهو يحسن الظن بالله جلَّ في علاه)، وأيضاً في مسند أحمد: (أنا عند ظن عبدي بي، فليظن بي ما شاء، فإن خيراً فخير) يعني خير له، فحسن الظن مطلوب.

أمّا الطيرة ففيها سوء ظن بالله جلَّ في علاه، أن الله جلَّ وعلا لا يربح تجارته، يوقف عليه زواجه، لن يسيّره في الطريق الذي يتمناه، سوء ظن بالله جلَّ في علاه. وسوء الظن بالله إن لم يكن من أكبر الكبائر فهو من الكبائر؛ قال الله تعالى بشدة الذم على الذين يسيئون الظن به: ﴿ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوۡءِۚ عَلَيۡهِمۡ دَآئِرَةُ ٱلسَّوۡءِۖ﴾ [الفتح: ٦]. فكما أن حسن الظن بالله جلَّ في علاه مرغوب مرّغب فيه مطلوب، فإن سوء الظن والعياذ بالله منهي عنه محرّم، هذا فرق بينهما.

---

(١) أخرجه مسلم (٢٨٧٧).

الأمر الثالث؛ أن الفأل مأمور به شرعاً، والطيرة منهي عنها شرعاً. ونحن خلقنا عبيد لله جلَّ في علاه، ما لنا إلّا أن نقول سمعنا وأطعنا، آمنا بالله وبما جاء عن الله وعلى مراد الله، وآمنا برسول الله وما جاء عن رسول الله وعلى مراد رسول الله. إذا جاء رجل قال: هذه تحرك النفس وهذه تحرك النفس، لِمَ فرقتم أخذتم بهذه وتركتم هذه؟ قلنا نحن عند الله جلَّ في علاه آلة، ندور مع الشرع حيث دار، قال: آمنوا بالفأل وافعلوا به، قلنا سمعنا وأطعنا، قال: لا تفعلوا بالطيرة ولا تعتقدوا فيها، قلنا: سمعنا وأطعنا. وهذا من باب التسليم التام، العبادة المحضة لله جلَّ في علاه، كمال الذل مع كمال الانقياد مع كمال المحبة لله جلَّ في علاه.

فعندما قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (أصدقها الفأل) إذاً نتفاءل لأن النبي -صلى الله عليه وسلم- كان يتفاءل، وعندما قال: (الطيرة شرك) قلنا لا نتطير بحال من الأحوال لأن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: (إن الطيرة الشرك). فإذاً هذه مأمور بها وهذه منهي عنها، ونحن ندور مع الشرع حيث دار.

الأمر الرابع؛ الفأل وسيلة إلى أجلّ العبادات ألا وهي التوكل، أجلّ العبادات القلبية التوكل على الله جلَّ في علاه. فإن الذي يتفاءل بالخير يتوكل على الله تمام التوكل، ويثق في الله الثقة التامة، ويعتمد على الله كل الاعتماد أن أمره بيد الله وأن الذي ينجز له أمره وهو الله جلَّ في علاه. والعكس بالعكس في مسألة الطيرة، لأنه إذا أساء الظن بالله جلَّ في علاه فلن يتوكل على الله جلَّ في علاه. هذه العلاقة بين الفأل الحسن وبين الطيرة، وهذا آخر ما يتكلم في مسألة الطيرة من القدر، يعني الطيرة يملكها الله جلَّ في علاه هو الذي خلق الطير وهو الذي خلق الشر وهو الذي خلق الخير، وبيّن لك طريق الخير الذي تلتمسه عند ربك جلَّ في علاه وتتجنب طريق الشر الذي جنبك إيّاه.

مناقشة: نحن مع الشرع حيث دار، لو خفنا من هذه الوسيلة لقلنا قد قال النبي -صلى الله عليه وسلم- وفعلها؛ قال: ما اسمك؟ قال: رابح أو ناجح، قال: أنت أمير. أمّا الثاني

قال: خاسر أو نحّاس، قال: أنت لست بأمير. ليس من التشاؤم، دليلنا أن النبي -صلى الله عليه وسلم- لمّا قدم سهيل بن عمرو -رضي الله عنه وأرضاه- قال: (هذا سهيل سهّل الله أمركم)، اشتق منها التسهيل. هذه بشارات وهذا فقه التفاؤل، أن ترى رجلاً صالحاً تقول: سيصلح الله لكم أمركم.

النبي -صلى الله عليه وسلم- لمّا جاءه المسيب بن حزن، فقال له: أنت ابن كذا؟ غيّر اسمه من حزن إلى سرور، قال: أمي سمتني، فما غيّر اسمه إلى مسرور أو سرور، قال: فما زلنا في حزن إلى اليوم، فكان لابد أن النبي -صلى الله عليه وسلم- يقبل أن يحيل اسمه من حزن إلى سرور. لكن المفروض إذا أراد أن يسمّي ابنه ويتفاءل باسمه يسميه: عبد الله، عبد الرحمن، الحارث، همام. لكن إذا سمّاه تسمية فيها تزكية فقد نهى النبي -صلى الله عليه وسلم- عن ذلك، قال: (هممت أن أنهى عن اسم نافع وخالد) ولم ينهَ هذا.

الفرق بين الفأل والطيرة؛ أنت أصلاً مخلوق لله، وأنت تعتقد في ربك أنه سيلقي بك في النار ويمنع عنك الطعام والشراب ويؤذيك شر الإيذاء!! لا، أعوذ بالله، ما أحد يعتقد في ربه ذلك. النبي -صلى الله عليه وسلم- نظر إلى امرأة حنون عطوف على طفل لها على ثديها، فقال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (ترون هذه المرأة تلقي بوليدها في النار؟ قالوا: لا، قال: الله أرحم على العبد منها). فأنت دائماً تعتقد اعتقاداً سديداً صحيحاً أن ربك أرحم عليك من أمك ومن نفسك التي بين جنبيك، هذا الاعتقاد يجعلك دائماً تتفاءل في ربك؛ كلما عصيت علمت أن الله سيستر ويغفر، كلما رجوت علمت أن الله سيعطيك المأمول، ما تؤمّله في ربك سيعطيك، (أنا عند ظن عبدي بي). فهذا هو الأصل، الفرق بين الاثنين؛ فأنت الأصل في ربك أنه يعطيك، الأصل في ربك أنه ما خلقك إلّا ليرحمك، ما منعك إلّا لك وما أعطاك إلّا بفضل منه ورحمة سبحانه جلَّ في علاه. فأنت مخلوق دائماً للنفع لك، وهذا الاعتقاد السديد ينميه أن تتفاءل خيراً لتحسن الظن بربك، لكن يقلله ويجعلك تقنط من رحمة الله إذا تطيرت والعياذ بالله.

باب قول النبي -صلى الله عليه وسلم- (لا عدوى)، وقوله: (من أعدى الأول)

باب ذكر قول النبي -صلى الله عليه وآله وسلم-: (لا عدوى)، وقوله: (من أعدى الأول):

وعن سعد عن النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- قال: (لا عدوى)، حديث صحيح.

وعن جابر عن النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- قال: (لا عدوى ولا صفر ولا غول)، حديث صحيح.

وعن أنس قال: قال النبي -صلى الله عليه وآله وسلم-: (لا عدوى)، إسناده صحيح.

وعن السائب بن يزيد قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم-: (لا عدوى ولا طيرة)، وعن السائب بن يزيد أيضاً قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم-: (لا عدوى ولا صفر ولا هامة).

وعن أبي هريرة -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم-: (لا عدوى ولا صفر ولا هامة).

وعن أبي سلمة عن أبي هريرة عن النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- مثله.

(لا صفر) فيها تأويلات وتفسيرات، بعضهم يقول هو شهر صفر لأن أهل الجاهلية كانوا يتشاءمون به، أنه مرض أو داء يصيب الإنسان، ونفى النبي -صلى الله عليه وسلم- ذلك. (ولا هام)؛ قالوا داء يصيب البطن، وقالوا هي طائر كالبوم يتشاءمون به، وهو ليس في عصب ما نتكلم فيه.

اليوم إن شاء الله سنتكلم على مسألة مهمة جداً تختص أيضاً بمسألة القدر، وهي مسألة

العدوى. سنبيّن المسألة حتى ننظر الشرع كيف عالج هذه المسألة؟ وهل هي حقيقة شرعية؟ يعني الواقع يصدقه أم لا، لأن كثير من العلماء قالوا الواقع يصدقه، وبعض العلماء الشرع أنكروا جداً على الأطباء.

أقول إن الله جلَّ في علاه هو الذي كوّن الكون وهو العلي القدير، هو الذي إذا أراد شيئاً قال له: كن فيكون، سبحانه جلَّ في علاه، بيده مقاليد كل شيء، هو الذي أضحك وأبكى، هو الذي أمات وأحيا، وبيده كل شيء سبحانه جلَّ في علاه. حتى العدل والكيف إن الله جلَّ في علاه خلقه؛ ما من إشارة، ما من يقظة، ما من نوم، ما من حركة، ما من سكون إلّا وخلقه الله جلَّ في علاه وهو الذي يتحكم فيه. والله جلَّ في علاه خلق الأسباب وربطها بمسبباتها، وإن الله جلَّ في علاه إن شاء عطّل هذه الأسباب عن التأثير. إن الله جلَّ في علا خلق النار وجعلها سبباً في الإحراق، ومع ذلك فإن الله جلَّ في علاه قادر أن يعطّل هذا السبب عن التأثير، وهذا حدث واقعاً نشاهده ونسمعه ونستيقن به؛ إبراهيم -عليه السلام- أضرموا له النار وألقوه في النار موثقاً بالحبال (بالسبب)، فالله جلَّ في علاه أمر النار أن تتعطل عن التأثير، هي سبب للإحراق وما أحرقت وما ذلك إلّا لأنها تأتمر بأمر الله جلَّ في علاه: ﴿قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴿٦٩﴾﴾ [الأنبياء: ٦٩]، حتى الحبال أمامهم تحترق وهو لا يمسه شيء. وأبو مسلم الخولاني من التابعين حدث معه ما حدث مع إبراهيم -عليه السلام-.

بل النبي -صلى الله عليه وسلم- عطّل الله له الأسباب؛ إن النبي -صلى الله عليه وسلم- دعته امرأة يهودية على شاة مصلية وكان يحب الذراع فأهدت له ذراع مسمومة، ونهش منها نهشة النبي -صلى الله عليه وسلم-، يعني أخذ وأكل جزءً منه النبي -صلى الله عليه وسلم- وأخبرته بعد ذلك أنها مسمومة. انظروا إلى تعطيل الأسباب؛ الصاحب الجليل الذي كان مع النبي -صلى الله عليه وسلم- أكل منها نقول مات بعد أيام، ولذلك اقتص النبي -صلى الله عليه وسلم- من هذه المرأة وما كان يريد أن يقتص لنفسه، وأكل منها النبي -صلى الله عليه وسلم- فلم تؤثر فيه في الحال، وإن قلنا إنها بعد حين أثرت لأن

النبي -صلى الله عليه وسلم- بيّن أنه تأثر بالأكل من هذه الشاة المسمومة، فعطلها الله جلَّ في علاه في هذا الوقت.

يوشع بن نون؛ إن الله جلَّ في علاه أجرى الأسباب أن الليل والنهار يتعاقبان، الشمس تجري لمستقر لها حتى تغيب فتسجد عند العرش ولها وقت معين عند المغيب، فلمّا أشرفت على المغيب وكان يوشع بن نون قد أمِر أن يدخل الأرض المقدسة قبل أن تغيب الشمس، ماذا حدث؟ دعا الله جلَّ في علاه فأوقف له الشمس.

وأيضاً في حديث فيه الأربعة أقوال: موضوع، صحيح، ضعيف. ١- حديث علي بن أبي طالب أنه نام النبي -صلى الله عليه وسلم- على حجره وهو لم يصلِّ العصر، فخشي أن يوقظ النبي -صلى الله عليه وسلم- وهو نائم، فلم يصلِّ العصر لمكان النبي -صلى الله عليه وسلم- من حجره. ولسنا بصدد تفصيل الكلام حديثياً عليه، قلت فيه الأربعة أقوال. فدعا النبي -صلى الله عليه وسلم- الله جلَّ في علاه فرد الشمس لعلي بعدما غابت، فرد الشمس لعلي فصلى علي الصلاة في وقتها. الغرض المقصود؛ هذه الأسباب والله جلَّ في علاه عطّلها عن التأثير. تروى في السير قلنا كما قال أحمد: إذا جاء في السير فنكف، المسألة لا نعنت ولا نشدد في الأسانيد.

خالد بن الوليد لّما دخل على الأمير من وراء الروم فهو يجادله في مسألة القتال أو الجزية، فقال له: أرأيت إن شربت أمامك هذا السم فلم يؤثر فيّ، أتؤمن؟ وهذا دلالة على قوة يقين وإيمان خالد، فشرب السم ولم يؤثر فيه. قال: بسم الله الذي لا يضر مع اسمه شيء في الأرض ولا في السماء وهو السميع العليم، فعطل الله تأثير السم على جسد خالد -رضي الله عنه وأرضاه-.

فالحاصل هناك أسباب خلقها الله جلَّ في علاه لها تأثير والله قادر أن يعطّل هذا التأثير، لأن كل شيء بيد الله جلَّ في علاه، وهذا هو من أهم الأبواب في القدر: أن تعتقد بأن مقاليد كل شيء بيد الله جلَّ في علاه، وأن الله جلَّ في علاه خلق كل شيء فقدّره تقديراً.

هذا مجمل المعاني التي تحوم حول هذه الأحاديث التي تليت علينا.

تبقى مسألة وهي من أعظم المسائل، وهي قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (لا عدوى)؛ هذا نفي، وهذا النفي يتضمن النهي، وأبلغ في النهي لأن النبي -صلى الله عليه وسلم- يقول: (لا عدوى)، كأنه يقول: لا تعتقدوا أن هناك عدوى، هنا النفي الذي يتضمن النهي.

هذه المسألة شائكة جداً لأن العلماء وقفوا وقفة طويلة أمام هذه الأحاديث، فقالوا هل هناك عدوى أم لا؟ هل هناك مرض معدي أم لا؟ والذي جعلهم يسألون هذا السؤال: لو ما عندنا إلّا هذا الحديث (لا عدوى ولا طيرة) ما عنّ السؤال وما نجم، لكن هناك أحاديث أخرى تخالف هذا الحديث، هذه الأحاديث التي جعلت العلماء يقفون معظمين ويقولون هل هناك عدوى؟ هل هناك أمراض معدية أم لا؟

الأحاديث التي جعلت العلماء يسألون هذا السؤال:

١- أولاً قول النبي -صلى الله عليه وسلم- كما في صحيح مسلم: (فر من المجذوم فرارك من الأسد)، لا تجتمع معه في مكان، لا تمسه لأن الجذام ينتقل على ما يقولون، يعني هذه إشارة أنه ينتقل سريعاً.

٢-وأيضاً النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: (لا يورد ممرض على مصح)؛ صاحب الإبل المريضة لا يأخذها إلى الإبل الصحيحة، أو صاحب الإبل الصحيحة لا يأتي على الإبل المريضة لأنه سيحدث العدوى، هذا الذي قاله العلماء. فهذه أحاديث تثبت العدوى، قالها النبي -صلى الله عليه وسلم-.

٣- وأوكد من ذلك أن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: (من سمع بالطاعون في أرض فلا يدخلها ولا يخرج منها أحد)، وهذا طبياً اسمه الحجر الصحي، هذه من السنن أصالةً "الحجر الصحي". النبي -صلى الله عليه وسلم- قال ألّا يدخل ولا يخرج من هذه

البلدة أحد حتى لا يعدي على ما يقولون، وإذا دخل الثاني حتى لا يصل إليه المرض.

فهذه أحاديث طويلة وشديدة صحيحة صريحة أو نقول غالب الظن فيها أنها تصرّح من بعد أن هناك عدوى، فلذلك قال العلماء: هل هناك عدوى أم لا؟

لمّا اختلفت أنظار العلماء والفهوم كلها تختلف، ظهر لنا ما يقرب من سبعة أقوال للعلماء في هذه المسألة، حتى نستخلص ما هو الراجح فنبّين هذه الأقوال ثم نبيّن الراجح ثم نرد على المخالف.

العلماء الذين قالوا بالعدوى قالوا:

١- أولاً العدوى موجودة، النفي الذي جاء عن النبي -صلى الله عليه وسلم- نفي الاعتقاد الجاهلي، لأنهم كانوا في الجاهلية يعتقدون أن هذه الأمور تعدي وتمرض بذاتها، ليست سبباً، بل هي بذاتها تنتقل إلى الأجسام. وهذا اعتقاد شركي، أنهم يعتقدون أن هناك رب غير الله جلَّ في علاه. ما من متحكم في الدنيا بأسرها صغير ولا كبير، دقيق ولا جليل إلّا الله جلَّ في علاه. فإذا قالوا هناك مرض يعدي بذاته، بطبعه، فهذا شرك في الربوبية، فنفى النبي -صلى الله عليه وسلم- هذا الاعتقاد الشركي وقال: (لا عدوى)، يعني لا عدوى تعدي بذاتها بطبعها، فنفى أن تعدي بذاتها أو بطبعها.

والأحاديث الثانية أثبتت أن هناك عدوى لأن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: (فر من المجذوم فرارك من الأسد)، هذا قولاً. وبالفعل: النبي -صلى الله عليه وسلم- جاءه رجل مجذوم يريد أن يبايعه، فكف النبي -صلى الله عليه وسلم- يده ما بايعه باليد، قال: (بايعتك)، ولم يرد أن يصافحه حجراً، حتى لا يصل المرض إلى رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، على ما قاله العلماء. إذاً القول الأول: القول المنفي هنا الاعتقاد، أو المثبت هو أنها تعدي كسبب وليست بطبعها ولا بذاتها.

وهذا القول عليه عامة العلماء، وأصل القول للبيهقي ونصره ابن القيم وأيضاً ابن

رجب الحنبلي، فقالوا بأن هذا القول هو أقوى الأقوال وعليه عامة العلماء.

٢- القول الثاني قول انتصر له ابن حجر وهو قول ابن جرير الطبري وهو قول الطحاوي كما في شرح معاني الآثار، قال: (لا عدوى)، لا بذاتها ولا سبب، صراحة كنت أدين الله بذلك: لا سبب ولا بذاته، يعني ما في شيء اسمه عدوى ولا المرض ينتقل بهذه العدوى. واستدلوا على ذلك بالنفي المحكم القاطع الصريح من النبي، قال: (لا عدوى)؛ لا عدوى بذاتها ولا عدوى بطبعها، ولا عدوى حتى أن تكون سبباً لأن النفي على العموم. فنفى النبي -صلى الله عليه وسلم- أن تكون عدوى بذاتها أو تكون سبباً.

قالوا إذاً هذه الأحاديث التي نوردها عليكم تثبت العدوى؛ قال النبي -صلى الله عليه وسلم: (لا يورد ممرض على صحيح)، (فر من المجذوم فرارك من الأسد)، فماذا تقولون؟ قالوا هذه من باب سد الذريعة وحسم المادة، لعل الرجل إذا زار أو عاد الرجل المجذوم أو سلم عليه أو أكل معه في الصحفة فأراد الله وقدر الله عليه أن يصاب بهذا المرض ماذا الذي سيحدث في قلبه؟ يقول: عداني فلان، ويبغضه ويحقد عليه وتحدث المشاحنة والشجار ويتفشى بين الناس الشر والحقد والحسد والمشاحنة التي لا يقبلها الشرع. فقالوا: حسم النبي -صلى الله عليه وسلم- المادة وسد الذريعة وحتى لا تتسرب هذه العقيدة الخربة الشركية إلى القلب، قال: لا يأتي المريض على هذا المصح، لا يسلم الرجل السليم الصحيح على المجذوم. فقالوا: إذاً هذه أحاديث ليست إلّا حسماً للمادة وسداً للذريعة.

قلنا هاتوا ما يقوي قولكم، ما زلنا على الاحتمال. قالوا: عندنا أن رجلاً أعرابياً جاء للنبي -صلى الله عليه وسلم- قال: البعير صحيحة ما فيها شيء ويأتي الجمل الأجرب فيكون فيهم فينتشر الجرب في البعير، فقال له النبي -صلى الله عليه وسلم-: (فمن أعدى الأول؟)؛ كأنه يقول هذه العدوى انتشرت يا رسول الله، فيقول النبي -صلى الله عليه وسلم- رداً عليه: (فمن أعدى الأول؟). هذه البعير قد مرضت بسبب هذا الجمل

الأجرب، من الذي أمرض الأول؟ من الذي قدّر المرض على الأول؟ فسكت الأعرابي، وهذه فيها دلالة على أن المسألة كأن الإجابة "تأتي بقدر الله"؛ فإذاً الإجابة على البعير وأيضاً هم أجربوا بقدر الله، يعني ليست بالعدوى على أنها سبب.

وأيضاً هناك حديث صريح جداً عن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: (لا يعدي شيء شيئاً)، وهذا أيضاً على العموم، (لا يعدي شيء شيئاً) هذا عام في النفي. قالوا إذاً هذه فيها دلالة على أن النبي -صلى الله عليه وسلم- نفى نفياً عاماً عن العدوى، فإذا قدّر الله جلَّ في علاه نقول كلٌ بإذن الله جلَّ في علاه؛ ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا﴾ [التوبة: ٥١]، ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ﴾ [الحديد: ٢٢]، فالمسألة بيد الله جلَّ في علاه.

القول الأول والثاني من أقوى الأقوال.

٣- القول الثالث، وهذا القول الذي ارتقيت إليه وتبنيته بعد أمد من الدهر بأن أنا كنت أتبنى القول الثاني. هذا هو قول الخطابي: النفي على العموم؛ نفى النبي -صلى الله عليه وسلم- العدوى على العموم وخصص أمراض معينة هي التي تعدي.

قالوا: النفي على العموم، (لا عدوى) أي لا عدوى إلّا في أمراض معينة خاصة، ليس بكل مرض، ليس كل مرض معدي، المرض المعدي فقط: الجذام والبرص أو ما شابه. واستدلوا على ذلك وهذا وجه من الجمع على القوة بمكان، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (لا عدوى)، فنفى العدوى كليةً، لا بذاتها ولا سبب، ثم لّما أثبت ما أثبت بكل الأمراض، أثبت العدوى في الجذام فقال: (فر من المجذوم فرارك من الأسد). فقالوا: هذه تكون خاصة في هذا المرض فقط وما يشابه هذا المرض، سواء الكوليرا أو غيرها الذي يشابه الجذام هو الذي يكون فيه العدوى، وهذا قول الخطابي، وهو قول صراحةً متين. فالقول الثالث؛ قالوا: النفي عام لكن يخصص بهذه الأحاديث على مرض واحد وهو الجذام وما يشابه الجذام.

٤- القول الرابع: قالوا بالنسخ؛ قالوا: (لا عدوى) عامة محكمة وهي الناسخة لحديث أبي هريرة (لا يورد ممرض على مصح). قالوا أحاديث العدوى (فر من المجذوم) وغيرها منسوخة بقول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (لا عدوى). إذاً نفي تام: ما في عدوى، سداً للذريعة وحسماً للمادة لأنه ما في عدوى أصالةً، وهذا قول ضعيف جداً. قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (فر من المجذوم فرارك من الأسد)، هذا من باب المواساة للمجذوم على أن الإنسان لو رأى المجذوم ففر منه واشمأز سيتحسر قلبه، ويمكن أن يتسخط على قدر الله، فلذلك النبي -صلى الله عليه وسلم- قال بأن لا تواجهه لأنك لو واجهته ووقفت أمامه فنظرت ما هو فيه من مرض اشمأززت، فإن اشمأززت فطال الأمر على قلبه فتسخط على قدر الله جلَّ في علاه وتحسر على نفسه وما فيه من مرض. فإذاً كان النبي -صلى الله عليه وسلم- يقول: (فر من المجذوم) رفقاً بقلب المجذوم، والصحيح أنه لا عدوى. يعني المسألة لا تخص العدوى، (فر من المجذوم) لا للعدوى ولكن حتى لا يتحسر هذا المريض ورفقاً بقلبه، فهذا عذر أيضاً قالوه في مثل هذا الحديث.

٥- القول الخامس: قالوا بالترجيح؛ بعضهم رجّح العدوى وقالوا الواقع يصدقها، (ولا عدوى) النسخ يكون منسوخ، يعني جعلوا الناس النسخ هو المنسوخ.

٦- القول السادس: قالوا الحديث (لا عدوى ولا طيرة) ثابت ومحكم، وقول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (فر من المجذوم فرارك من الأسد) ليس من أجل العدوى، بل هي المسألة مخالطة الجسد بالجسد ممكن أن ينتقل المرض، ليس بسبب العدوى. وهذا صراحة من أضعف الأقوال.

فهذه أقوال للعلماء أقواها الثلاث الأولى أو الأربع الأولى:

❖ القول الأول: أن هناك عدوى كسبب وليست بذاتها ولا بطبعها.

❖ والقول الثاني: لا عدوى لا هي سبب ولا تعدي بذاتها، والنفي عام ومحكم، وأمّا قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (فر من المجذوم) حسماً للمادة وسداً للذريعة.

فما الأقوى من هذه الأقوال السبعة؟ أنا صراحة كنت أقول بالقول الثاني وأن النفي محكم. وأمّا قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (فر من المجذوم)، (لا يورد ممرض على مصح)، كل هذه الأحاديث محتملة ويرد عليها ما يرد؛ يرد عليها أنها حسماً للمادة، يرد عليها أنها سداً للذريعة، يرد أن النبي -صلى الله عليه وسلم- قالها في حال وفي حال.

٧- القول السابع: إن بعضهم قال: كل حديث يحمل على حاله، قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (لا عدوى) هذا لقوي التوكل يأخذ بيد المجذوم ويأكل معه ويذهب إلى المريض، لو كان توكله على الله قوي يأخذ بهذا الحديث (لا عدوى). واستدلوا على ذلك بفعل عائشة -رضي الله عنها وأرضاها-، كان لها مولى مجذوم فكان يأكل في الصحفة وتأكل هي في الصحفة التي يأكل منها المجذوم. وأيضاً حديث مرفوع لكنه ضعيف؛ سلمان أخذ بيد المجذوم ووضعها في الصحفة وقال: كل بسم الله، يقيناً في الله توكلاً على الله. فقالوا من قوي توكله يأخذ بحديث (لا عدوى)، ومن ضعف توكله يأخذ بحديث (فر من المجذوم) حتى لا يحدث له المرض.

فهذه أقوال كثيرة جداً، وكنت أقول الأقوى من هذه الأقوال إنه لا عدوى بحال من الأحوال وهذه حسماً للمادة، ثم قلت بالقول الثالث أن العدوى يمكن أن تكون في أمراض وبعض أمراض لا يكون فيها عدوى، وهذا التوسط بين القولين من هذه الأقوال الثلاثة أقوال قوية جداً.

كثير من الأطباء، أنا مشايخي السبعة أطباء، والسبعة يقولون بالعدوى لأنه طبياً عندهم أن الواقع يصدق أن هناك عدوى، وكنت دائماً أردد قول ابن حجر: لا عدوى عموماً ولا يؤبه لقول الأطباء -سامحوني على المقولة أنا أنقلها فقط ولا أوافقها- الجهلة بالشرع. سامحوني أنا آسف جداُ ما أقصد هذا، لكن هذا نقل عنه. فأقول: الشرع لا يخالف الطب ولا يخالف الواقع. فصراحة تعبت جداً في البحث ووجدت أن الواقع يصدق هذا، والأمر الثاني أن الشرع يمكن أن يحتمل هذا القول الذي أن بعض الأمراض معدية وبعض

الأمراض لا تعدي. وإن كان الأسلم أن نأخذ بالقول الثاني لكن أنا أرجح القول الثالث.

تبقى لنا مسألة في قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (لا عدوى ولا طيرة)، شرحنا الطيرة وانتهينا منها، يبقى فيها مسألة واحدة ألا وهي: لو تطير الإنسان؛ ما منا من أحد إلّا ويأتي في قلبه يرى امرئً مثلاً فيحدث معه مصيبة أو يحدث عند كلامه مصيبة فماذا يفعل؟ لو جاء في قلبه بعض التشاؤم أو التطير كيف يعالج ذلك؟

معالجة التطير بيّنها النبي -صلى الله عليه وسلم- في أمرين اثنين مهمين:

▪ الأمر الأول: قوة التوكل على الله، ولذلك الحديث عن ابن مسعود، والخلاف بين المحدثين هل هذا مدرج من كلام ابن مسعود أو من كلام النبي -صلى الله عليه وسلم- والأصل عدم الإدراج؛ قال ابن مسعود يرفعه عن النبي -صلى الله عليه وسلم-: (ما منا من أحد إلّا [يعني يقع في قلبه التشاؤم والتطير] ويذهبه الله بالتوكل)، فقمة أو قوة التوكل تذهب هذا التطير ولا يحاسب عليه المرء.

▪ الأمر الثاني: الدعاء؛ أن يدعو الله جلَّ في علاه ويقول هذا الذكر: (اللهم لا خير إلّا خيرك ولا طير إلّا طيرك ولا إله غيرك)، فهذا الدعاء يحفظ المرء من التطير حتى لو تشاءم من مسألة معينة، لو قال هذا الدعاء لا يكتب عند الله جلَّ في علاه أنه وقع في التطير.

الفوائد المستنبطة:

١- النكرة في سياق النفي تفيد العموم، من أين هذه؟ (لا عدوى)؛ "عدوى" نكرة في سياق النفي فإذاً تفيد العموم، والعموم معناه لا عدوى بطبعها ولا عدوى كسبب، نفي عام، ثم تأتي الأدلة تخصصها على ما قلناه (فر من المجذوم فرارك من الأسد).

٢- رد المختلف فيه إلى المتفق عليه، وهذه من وجاهة الفقيه المناظر؛ إبراهيم -عليه السلام- لما ناظر النمرود قال: ﴿رَبِّيَ ٱلَّذِى يُحۡىِۦ وَيُمِيتُ﴾ [البقرة: ٢٥٨]، ماذا قال؟ قال سفسطة: الرجل هذا أقتله فقد أمته، وهذا أتركه فقد أحييته. فماذا قال إبراهيم؟ ما جادله

لأنها سفسطة، رد المختلف فيه إلى المتفق عليه. قال له: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأۡتِي بِٱلشَّمۡسِ مِنَ ٱلۡمَشۡرِقِ فَأۡتِ بِهَا مِنَ ٱلۡمَغۡرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِي كَفَرَۗ﴾ [البقرة: ٢٥٨]، من أين استنبطنا هذا؟ قال له: البعير أجربت، نأتي إلى المتفق عليه فقال له النبي -صلى الله عليه وسلم-: (من أعدى الأول؟) فكأن الأعرابي سيسكت ويقول: الله هو الذي قدّر ذلك.

نستخلص من هذه الأحاديث أن قمة التوكل تجعل الإنسان يقول لا عدوى كلية، وإن خف توكله فيقول العدوى في أمراض معينة لا في عموم الأمراض.

سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلّا أنت أستغفرك وأتوب إليك وجزاكم الله خيراً.

١-اخرجه بن ماجه والطيالسى وضعفه الالباني في السلسلة الضعيفه (٩٨٧) وذكره بن حزم في الموضوعات.

٢-الراوي: أبو هريرة | المحدث: الألباني | المصدر: السلسلة الصحيحة | الصفحة أو الرقم: ٧٨٣ | خلاصة حكم المحدث: إسناده صحيح.

٣-الراوي: أسامة بن زيد | المحدث: البخاري | المصدر: صحيح البخاري | الصفحة أو الرقم: ٥٧٢٨ | خلاصة حكم المحدث: [صحيح] | التخريج: أخرجه البخاري (٥٧٢٨)، ومسلم٥٧٠٧.

٤-صحيح البخاري | الصفحة أو الرقم: ٥٧٧١ صحيح مسلم، الصفحة أو الرقم: ٢٢٢١.

مراجعة على ما سبق حول مفهوم الايمان بالقدر

فإن أصدق الحديث كتاب الله، وأحسن الهدي هدي محمدٍ -صلى الله عليه وسلم-، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثةٍ بدعة، وكل بدعةٍ ضلالة، وكل ضلالة في النار، ثم أمّا بعد إخوتي الكرام:

الحمد لله على نعمة الإسلام والحمد لله على نعمة الطلب، إذ أن الإنسان بغير طلب العلم يتزعزع ولا يستطيع أن يقف أمام الأمواج المتلاطمة من الشبهات، قبل أن آتي إلى هذا الدرس جلست مع رجل هي عشرة أيام فقط ومعنا الشيخ يحيى شاهد علينا بذلك والأخ شوقي، عشرة أيام فقط ترك أهل الخير والفضل وجلس وسافر إلى بلده، جلس فقط مع بعض العلمانيين فأطاح برأسه وأطاح بإيمانه، إيمانه طار في الهواء، ما أصبح كالظلة بحيث أنك لو ناقشته استطعت أن تثبته في قلبه، لا والله أطاح بإيمانه وأطاح برأسه. وتأويل ذلك أن الرجل وإن كان عظيماً أمامك لكن إن كان من الداخل خاوياً لا علم له يسهل التأثير عليه، يسهل أن تشبه عليه الأمور وأن تلبس عليه الأمور، جاءته الشبهات في الكتاب في أكثر من آية يقول: هذا الكتاب متناقض، كلام الله متناقض، وأتى بأكثر من آية المشتبهات التي يصح ويسهل عليك أن ترد عليه، وأيضاً في بعض الأمور يشكك في رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ويشكك في القرآن ويشكك في الدين الإسلامي ومع ذلك سيشكك في الله جلَّ في علاه.

فالحاصل من الذي يمكن أن يستطيع أن يثبت أمام هذه الهجمة الشرسة على هذا الدين؟ الذي كتب الله له الانتشار بفضل من ربنا ونعمة ورحمة وكرم منه، الذين يتعلمون هذا العلم، الذين يعملون بقول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (بلغوا عني ولو آية)، والذين يعملون بقول الله تعالى: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ﴾ ما ترك، قيّد ﴿أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى﴾ [يوسف: ١٠٨]. فنسأل الله جلَّ في علاه أن يجعلنا ممن

يحرص على الطلب ويعض على ذلك بالنواجذ كما فعلنا في الأسبوع الماضي، ما من درس دخلنا فيه إلّا ووجدنا خمولاً قاتلاً من الإخوة فأردنا تهييج مشاعر الطلب عند الإخوة، وأيضاً الركائز التي درسنا عليها الدروس التي مضت لابد أن نراجعها مع الإخوة. المراجعة ستكون صعبة وشاقة لأن الباب الذي وقفنا عنده هو باب القدر، وهو أعظم الأبواب في مسألة العقيدة، ومن أتقن باب القدر فقد أتقن نصف العقيدة، إن لم يكن أن نقول قد أتقن العقيدة. فهذا الباب باب وعر جداً باب ليس بالهين، وقد تكلمنا فيه في أكثر من مسألة. واليوم إن شاء الله سنمر على الركائز التي تجعل الأخوة تتذكر ما قيل في باب القدر، ثم ندخل في حديث أو حديثين حتى أيضاً ننجز ما علينا.

القدر هو قدرة الله جلَّ في علاه، القدر هو من لوازم ربوبية الله جلَّ في علاه، هو صفة من صفات الله كما تقول لله يد، لله وجه، لله عين، لله سمع، لله بصر، فالقدر صفة من صفات الله جلَّ في علاه. قال الله تعالى: ﴿ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ ۝١٥ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ۝١٦﴾ [البروج: ١٥ – ١٦]، وقول الله تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ۝٤٩﴾ [القمر: ٤٩]، وقول الله تعالى: ﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ۝٢﴾ [الفرقان: ٢]. وحديث في الصحيحين عن عمر ابن الخطاب –رضي الله عنه وأرضاه– أن رجلاً دخل على النبي –صلى الله عليه وسلم– فأسند ركبتيه إلى ركبتيه، فسأل النبي –صلى الله عليه وسلم– عن الإسلام والإيمان، النبي –صلى الله عليه وسلم– بعدما أجابه عن الإسلام أجابه عن الإيمان قال: (والإيمان أن تؤمن بالله وملائكته) إلى أن قال: (والقدر خيره وشره)، وفي رواية عن أبي هريرة –رضي الله عنه وأرضاه– في الصحيح صحت عن النبي –صلى الله عليه وسلم– أنه قال: (آمنت بالقدر خيره وشره وحلوه ومره).

ما هو خير القدر وشر القدر؟ وما هو حلو القدر ومر القدر؟ النبي –صلى الله عليه وسلم– يقول: (آمنت بالقدر خيره وشره حلوه ومره)، الحلاوة والمرارة تظهر وقت وقوع

البلية والمصيبة أو وقوع ما يستبشر به المرء، هذه تكون فيها الحلاوة وتكون فيها المرارة، هذا معنى (حلوه ومره). والعاقبة إذا كان رضي وشكر فله في العاقبة الثواب وإن لم يصبر وتسخط فله بعد ذلك في العاقبة العقاب، هذا معنى (خيره وشره). فقول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (آمنت بالقدر)، بكل القدر، بما قدره الله، بما كتبه الله جلَّ في علاه. (آمنت بالقدر خيره وشره) في العاقبة، قبلها يكون حلوه ومره عند وقوع البلية والمصيبة، ولذلك لّما مر النبي -صلى الله عليه وسلم- على المرأة وهي تبكي من فقدته من أبنائها فقال لها: (اتقي الله واصبري)، هنا يظهر خيره وشره قالت: إليك عني إنك لم تصب بمصيبتي، فلمّا ذهبت إلى النبي -صلى الله عليه وسلم- تستعتب، قال لها النبي -صلى الله عليه وسلم-: (إنما الصبر عند الصدمة الأولى). فالغرض المقصود هنا أيضاً الإيمان بالقدر كما قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (آمنت بالقدر خيره وشره وحلوه ومره).

والقدر قدرة الله جلَّ في علاه، أخفاه الله عن الخلق أجمعين، سر من أسرار الغيب لم يطلع عليه ملك مقرب ولا نبي مرسل، ومن عمّق النظر في القدر ضل وتاه ولم يستطع أن يقف على أرض صلبة، ومن لم يسلّم لله تمام التسليم ما آمن بالقدر. والقدر ركن من أركان الإيمان، لا يستقيم إيمان عبد بحال من الأحوال إلّا أن يؤمن بأن ما أصابه لم يكن ليخطئه وما أخطأه لم يكن ليصيبه، لقول النبي -صلى الله عليه وسلم- لما سئل عن الإيمان فذكر أركان الإيمان وذكر من أركان الإيمان أن تؤمن بالقدر خيره وشره، وفي الحديث أيضاً (إن مت على غير ذلك دخلت النار) يعني إن مت على غير الإيمان لأن ما أصابك لم يكن يخطئك، وهو مكتوب عند ربنا جلَّ في علاه قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة، مت ودخلت النار. وفي الحديث الذي في الصحيحين في احتجاج آدم وموسى، أن موسى -عليه السلام- قال: أنت آدم؟ أنت أبو البشر؟ أنت الذي أخرجتنا وأخرجت نفسك من الجنة؟ فقال له آدم: أنت موسى الذي اصطفاك الله بكلامه وبرسالته؟ تراجعني على أمر قد كتبه الله عليّ قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة؟ فقال النبي -صلى الله عليه وسلم- حينئذ: (فحج آدم موسى، فحج آدم موسى، فحج آدم موسى)

الحجة كانت مع آدم على موسى.

فقد قال الله تعالى مبيناً أن ما أراده الله جل في علاه قد كتبه وسيكون وسيقع، ولو اجتمع من في أقطارها على أن يدفعوا هذا الأمر لن يدفعوه، قال الله تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهۡدِيَهُۥ يَشۡرَحۡ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِۖ وَمَن يُرِدۡ أَن يُضِلَّهُۥ يَجۡعَلۡ صَدۡرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي ٱلسَّمَآءِۚ﴾ [الأنعام: ١٢٥].

وفي المسند بسند صحيح عن ابن عباس -رضي الله عنه وأرضاه- أن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: (يا غلام احفظ الله يحفظك) في الحديث قال [الشاهد بالقدر]: (واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك لن ينفعوك إلّا بشيء قد كتبه الله لك) هم أسباب لكن لن ينفعوك إلّا بما كتب في السماء، (واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن يضروك بشيء لن يضروك إلّا بشيء قد كتبه الله عليك، جفت الأقلام ورفعت الصحف). وحديث عبدالله بن عمر بن الخطاب حديث صريح مثل ذلك؛ خرج النبي -صلى الله عليه وسلم- على أصحابه بكتابين، كتاب في اليمين وكتاب في الشمال، الشمال في يد النبي -صلى الله عليه وسلم- لكن إذا تكلمنا عن الله جلَّ في علاه نقول (وفي اليد الأخرى) على ما رجحنا سابقاً، فقال في الكتاب الذي في اليمين: (هذا فيه أسماء أهل الجنة بأسمائهم وأسماء آبائهم وختم على ذلك) لا يزاد عليه ولا ينقص، (ثم أخذ الكتاب الذي في اليد الأخرى فقال: هذا كتاب أهل النار فيه أسماؤهم وأسماء آبائهم) ولا يزاد على ذلك ولا ينقص، ثم قال: (فرغ ربكم من العباد)، إن الله جلَّ في علاه كتب أهل الجنة في الجنة وأهل النار في النار.

إذاً هذا هو القدر، وهذا هو الركن الركين من الدين، وهو الركن السادس من الإيمان، لا يستقيم إيمان عبد حتى يؤمن بالقدر، بل ويؤمن ويعتقد اعتقاداً جازماً أنه إذا وضع يده على خده هذه بقدر وإن ابتسم فبقدر وإن بكى فبقدر، قال الله تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضۡحَكَ وَأَبۡكَىٰ ۝٤٣﴾ [النجم: ٤٣]، وفي السند الصحيح عن ابن عمر قال: (إن الله خلق كل شيء)، حتى إن وضعت يدك على خدك فهذا قد كتبه الله جلَّ في علاه قبل أن يخلق الخلق

بخمسين ألف سنة. ولن يؤمن عبد بحال من الأحوال ولن يستقيم إيمانه بالقدر إلّا أن للقدر أربع مراتب:

الأصح أن نقول: علم فكتابه فمشيئة فخلق.

١- المرتبة الأولى العلم: لابد أن تتقن بأن الله علم ما كان وما يكون وما لم يكن لو كان كيف سيكون، لو أتقنت واعتقدت اعتقاداً جازماً بأن الله جلَّ في علاه يعلم كل ما مضى ويعلم ما سيأتي، يبقى إذاً لك ويسهل عليك أن تعتقد أنه بعلمه على ما سيأتي كتبه وأيضاً خلقه لأنه يعلم ما سيحدث. فأول المراتب هو أن تؤمن بعلم الله جلَّ في علاه الذي أحاط بكل شيء، إن الله جل وعلا أحاط بكل شيء علماً، علم ما كان وما يكون وما لم يكن لو كان كيف سيكون، الله يعلم كل شيء. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ﴾ [البقرة: ١١٠]، ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ﴾ [البقرة: ٢٧١]، ﴿۞ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلۡغَيۡبِ لَا يَعۡلَمُهَآ إِلَّا هُوَۚ وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِۚ وَمَا تَسۡقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعۡلَمُهَا وَلَا حَبَّةٖ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلۡأَرۡضِ وَلَا رَطۡبٖ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ ٥٩﴾ [الأنعام: ٥٩].

فإن الله جلَّ في علاه يعلم كل شيء، "علم ما كان"؛ وقد قص علينا ما كان من وقعة إبليس وأنه أمره بالسجود لآدم، علّم آدم الأسماء. "وما يكون"؛ علم الله جلَّ في علاه ما يكون، قال الله تعالى عن المنافقين للنبي -صلى الله عليه وسلم- يبين له ما أخرجنا المنافقين معك لأنهم لو خرجوا سيحدث كذا وكذا، ﴿لَوۡ خَرَجُواْ فِيكُم مَّا زَادُوكُمۡ إِلَّا خَبَالٗا وَلَأَوۡضَعُواْ خِلَٰلَكُمۡ يَبۡغُونَكُمُ ٱلۡفِتۡنَةَۖ وَفِيكُمۡ سَمَّٰعُونَ لَهُمۡۗ﴾ [التوبة: ٤٧]. وأيضاً مما يكون في حاضر وفي واقعنا الآن (بين يدي الساعة سنون خداعة)، وعلامات الساعة كلها التي ذكرها النبي -صلى الله عليه وسلم- كلها بعلم ما يكون.

"وعلم ما لم يكن لو كان كيف سيكون" فيها أدلة كثيرة، وطبعاً هي على قسمين: قسم ممكن وقسم مستحيل.

- ما لم يكن لو كان كيف سيكون من الممكنات؛ ﴿لَوۡ خَرَجُواْ فِيكُم﴾ المنافقون ما

خرجوا، لكن لو خرجوا، هو لم يحدث، من الممكنات، ﴿لَوْ خَرَجُوا۟ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا۟ خِلَٰلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّٰعُونَ لَهُمْ﴾ [التوبة: ٤٧]. وفي الأنفال ﴿وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾ [الأنفال: ٢٣]، الله يبين أن أهل الكفر أن الله جلَّ في علاه لو رأى فيهم خيرًا لأسمعهم، ولو أسمعهم ماذا سيحدث؟ هذا لم يكن لو كان كيف سيكون؟ قال الله عنهم أنهم سيتولون وهم معرضين. ﴿لَئِنْ أُخْرِجُوا۟ لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُوا۟ لَا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٢﴾﴾ [الحشر: ١٢].

(جواب) استدل بأن غلام الخضر الذي قتله طبع كافراً، لو عاش لصار كافراً ولكفّر أباه ولكفّر أمه لذلك قتله الخضر، هذه بالممكنات.

▪ في المستحيلات؛ ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [الأنبياء: ٢٢]، هذه من المستحيلات لو كان في أكثر من إله لذهب كل إله بما خلق، ولعلى رب الشمس يقول أنا مالك الشمس فيذهب بالشمس، ورب القمر يقول ما في قمر الليلة أنا رب القمر لابد تعبدوني وحدي. لو حدث هذا لفسدت السماوات والأرض، الله جل وعلا يبين ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: ٢٢]، هذا من المستحيلات. كأن الله يبين لنا لو كان هناك أكثر من إله لفسدت السماوات والأرض.

أمر آخر ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُوا۟ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾ بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا۟ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ ۖ وَلَوْ رُدُّوا۟﴾ [الأنعام: ٢٧ – ٢٨]، هنا الشاهد (وَلَوْ رُدُّوا) وهذا ممكن ومستحيل، كيف ذلك؟ ممكن في قدرة الله جلَّ في علاه، لكن مستحيل لأن الله كتب على أن من مات لا يرجع إلى الدنيا مرة ثانية. ﴿وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ﴾ [الأنعام: ٢٨] يعني لو ردوا إلى الدنيا وجاءهم الرسول مرة ثانية لعاتبوه وقاتلوه وردوا دعوته، ﴿وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ [الأنعام: ٢٨]، وبين الله أن في هذا الكذب ولذلك استحقوا العذاب الأليم.

أول مرتبة من أهم المراتب في القدر التي يمكن أن تستيقن بأن الله جلَّ وعلا قدّر كل

شيء عنده علم كل شيء، وقد أخطأ المعتزلة في هذا الباب خطئاً فاحشاً، لأن المعتزلة على قسمين: قسم فيهم الغلو وقسم فيهم أقل من الغلو.

• القسم الذي فيهم غلو نفوا العلم كلية، وهؤلاء الذين قال فيهم الشافعي: خاصموهم بالعلم فإن أقروا فقد خصموا؛ انتهى الموضوع، التناقض وقعوا فيه لأن الله يعلم كل شيء، يعلم من العبد، ويعلم ما كان وما يكون وما لم يكن لو كان كيف سيكون. وإن ردوا العلم فقد كفروا؛ لأنهم نفوا صفة ثابتة لله جلَّ في علاه وبالإجماع هي صفة العلم.

• وأما الأخف منهم هم الذين يثبتون العلم لكن لا يثبتون أن الله قد خلق أفعال العباد. وهذا المثل المشهور جداً الذي يمثله الشيخ رحمة الله عليه أنه أراد أن يمثل للناس لِمَ لا تؤمنون بأن الله كتب كل شيء؟ كالمدرس عنده التلاميذ وهو مجرب هؤلاء التلاميذ، اختبر التلاميذ، فهو يقول هذا التلميذ بارع متقن سيأتي في الاختبار مئة بالمئة، والآخر هذا بارع سيأخذ تسعة وتسعين، والثالث يأخذ تسعين، ومثل التلاميذ وكتب أرقامهم، بعدما انتهى الاختبار واختبروا وجاء الذين يعلمون الورق، بعدما علموا الورق نظر في الورق فوجد الذي كتبه هو نفس الدرجة التي أخذها الطالب فأصبحت مسابقة على أنه كان خبيرا بهؤلاء فكتب لهم درجاتهم، الناس كثيراً انبهروا بهذا المثل وهذا المثل فيه ما فيه لأن هذا المثل فقط يثبت أن الله يعلم ما يكون فقط. لكن هل أثبت أن الله هو الذي خلق فعل العبد؟ تقول كأن المدرس هو الذي نجح أو وفق التلميذ إلى أن يصل إلى تسعة وتسعين درجة أو المئة درجة، نفاها. أقول لك فهذا أيضاً نوع من الاعتزال، وهو أنهم ينفون أن الله يتحكم في أفعال العباد، وهذه التي سنأتي إليها إن شاء الله من مراتب القدر.

٢- المرتبة الثانية الكتابة؛ علم كل شيء علم ما كان وما يكون وما لم يكن لو كان كيف سيكون، كتب كل شيء، كتب أن الله جلَّ في علاه سيأمر إبليس ليسجد لآدم فيرفض ويتكبر ويتجبر ويطرد من الجنة، كتب هذا في اللوح المحفوظ. كتب الله جلَّ في علاه ان

أهل الإسلام سيكونون في ذلة وتتكالب عليهم الأمم، وهذا كله بعد ما علمه جلَّ في علاه، وهذا طبعاً يخضع وينأى إلى رحمة وحكمة وعدل من الله جلَّ في علاه. فإن الله كتب كل شيء كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾﴾ [القمر: ٤٩]، ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ ﴿٥٢﴾ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُسْتَطَرٌ ﴿٥٣﴾﴾ [القمر: ٥٢ – ٥٣]، مسطر ومكتوب في اللوح المحفوظ، فإن الله كتب كل شيء في اللوح المحفوظ.

وهذه الكتابة أيضاً تجعلك تتقن الإيمان بالقدر بأن الله جلَّ في علاه، قدّر كل شيء وكتب كل شيء، بعد ما قدّره علماً قدّره كتابة، وكتب في اللوح المحفوظ كل ما حدث وكل ما يحدث في هذه الدنيا إلى يوم القيامة، حتى أهل الجنة وحتى أهل النار كتب الله كل شيء. ولإتقان هذه الكتابة التي تؤمن بها بأنها مرتبة من مراتب القدر حتى ترتاح قلباً وتعلم أن ربك يعلم كل شيء ويقدر على كل شيء وكتب كل شيء، إن الكتابة لها أنواع أربعة:

▪ كتابة الكلية: هي الكتابة في اللوح المحفوظ، أن الله جل في علاه كتب كل شيء في اللوح المحفوظ، الآية التي تدل على ذلك ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ ۖ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ ﴿٣٩﴾﴾ [الرعد: ٣٩] ، يعني مكتوب في أم الكتاب. ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ﴾ [الأنبياء: ١٠٥] ، أين وجه الدلالة؟ (الزَّبُورِ) هذا الذي أوتيه داوود -عليه السلام- ونزل عليه، فقال: ﴿كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ﴾ يعني من بعد ما كتبنا في الذكر، والذكر هنا هو اللوح المحفوظ. ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ فِي كِتَابٍ﴾ [الحج: ٧٠].

يقصد به اللوح المحفوظ، يعني القرآن مكتوب في اللوح المحفوظ. هذه كتابة الكلية وهي كتابة اللوح المحفوظ، طبعاً دلالة على ذلك بعد الآيات التي ذكرت حديث الصحيحين عن النبي -صلى الله عليه وسلم-: (إن الله كتب مقادير الخلائق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة). فهذه كتابة كلية كتابة اللوح المحفوظ، وغاية هذه الكتابة أو قل اتقان هذه الكتابة التي تنفعك أنها لا تتغير ولا تتبدل، لا شيء كتب في

هذا يُغير بحال من الأحوال، ما كتب في اللوح المحفوظ لا يعتريه التغيير فهو ثابت إلى يوم القيامة، إلى ما يحدث نهاية العالم هذا ونهاية الدنيا ويدخل أهل الجنة الجنة ويدخل أهل النار النار، هذه ميزت هذا الكتاب، فالكتاب الأول الكتاب الكلي لا يتبدل ولا يتغير.

▪ الثاني الكتابة العمرية: وهي كتابة الملك عندما يأمره الله جلَّ في علاه (بعد مرور مئة وعشرين يوماً يأتي الملك فيقول: أي رب الرزق؟ أي رب شقي أم سعيد؟ أي رب ذكر أو أنثى؟ ثم يقول: أي رب الأجل؟) فيكتب الأجل. وهذه الكتابة في صحائف الملائكة، وهذه الكتابة يمكن أن تتغير، يعني يمكن أن تقول يكتب في الأجل هنا (أي رب الأجل؟) فيقال قل الأجل ستون عاماً، يمكن أن يتغير ويتبدل إلى ثمانين، وهذه الدلالة فيها من وجهين:

- الوجه المشهور عندكم هو أن عمر بن الخطاب -رضي الله عنه وأرضاه- طاف بالكعبة فبكى فقال: اللهم إن كنت قد كتبتني شقياً [يعني في بطن أمي] فامحها واكتبني عندك سعيداً. "فامحها" دلالة على أنها تتبدل وتتغير، "واكتبني عندك سعيداً" يعني أقرها عندك في اللوح المحفوظ أنني من السعداء. يدلل على ما دعا به، يدلل أنه فاهم معتقد اعتقاداً جازماً في الله في القدر أنه قال: ﴿يَمْحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾ يمحو الله ما يشاء في صحف الملائكة، ﴿يَمْحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ﴾ [الرعد: ٣٩] يعني في صحف الملائكة، وعنده كتاب لا يتبدل ﴿وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ ۝٣٩﴾ [الرعد: ٣٩] الذي هو اللوح المحفوظ.

- الأمر الثاني الذي هو أوجه من هذا، (داوود -عليه السلام- لّما رآه آدم واستبشر بالنور الذي بين عينيه قال: عمره ستون، خذ من عمري أربعين وأعطيه إياه). فكل هذا وكل ما كتب في كتب الأجل، في صحف الملائكة. لا يمكن أن تقول إنه في اللوح المحفوظ قد تبدل او تغير. نعم. (من أحب أن يزاد له في عمره)، إن قلنا الزيادة حقيقية وليست البركة، والصحيح أنها زيادة حقيقية مع وجود البركة، وهذه تدل على أن هذه الزيادة تكون في صحف الملائكة.

▪ الكتابة الثالثة كتابة عامية: يعني في العام، وهذه الكتابة في ليلة القدر، الذي يقدر فيها الإحياء والإماتة والرزق، كل ما يحدث في هذا العام يكتب في هذه الليلة. فهذه كتابة عامية كما قال ابن عباس في تفسير ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ۝٤﴾ [الدخان: ٤]، بيّن هذا الأمر.

▪ الرابعة الكتابة اليومية: التي في صحائف الملائكة

وقلنا أيضاً كل هذه الكتابات يمكن أن يتغير فيها أشياء؟ نعم، يمكن ان يتبدل فيها أشياء؟ نعم، يمكن أن يتبدل فيها أشياء لكن اللوح المحفوظ ثابت. فهذه المرتبة الثانية من مراتب الإيمان بالقدر.

٣- المرتبة الثالثة المشيئة: يعني ما من شيء في الكون ساكن أو متحرك، قائم أو نائم، ميت أو حي إلّا بمشيئة الله جلَّ في علاه. ما يمكن لك أن تقول أن هناك شيء يحدث في هذه الدنيا بأسرها إلّا والله قد أراده، إلّا والله قد خلقه، إلّا والله قد شاءه، سبحانه وتعالى ما شاء كان وما لم يشأ لا يمكن أن يكون. فمشيئة الله عامة، والإرادة إرادتان: إرادة كونية، وإرادة شرعية؛ الإرادة الكونية هي المشيئة، والإرادة الشرعية هي محبة الله جلَّ في علاه.

❖ **للإرادة الكونية ضابطان:**

- الأول أنها تقع في كل ما يحب الله وما لا يحب الله، شيء يحبه أو لا يحبه سيقع، تكون كونية فيما يحب وما لا يحب.

- الثاني أنها تقع لا محالة، لا يمكن أن ترد.

مرض المؤمن كوني كيف ذلك؟ اضبط بالضابطين تسهل عليك، مرض المؤمن أنتم قلتم بإرادة الله أم بإرادة نفسه؟ بإرادة الله، هل هي إرادة كونية أم إرادة شرعية؟ البلية التي تقع على المؤمن كونية. اضبطوا لي الضابطين؟ هي تقع لا محالة، ما أحد يستطيع أن يدفع عن نفسه المرض، إذاً سيقع لا محالة هذه أول شيء. الثاني أن الله لا يحب أن يقع المكروه على المؤمن، أما رأيت أن الله جلَّ في علاه من حبه للمؤمن يقول: (ما ترددت في شيء أنا

فاعله ترددي في قبض روح المؤمن، يكره الموت وأكه إساءته)، فهو يكره ذلك يبغضه، فهو غير محبوب.

❖ والإرادة الثانية إرادة شرعية وهي المحبة، ولها ضابطان أيضاً:

- الضابط الأول قد تقع وقد لا تقع.

- والضابط الثاني خاصة فيما يحبه الله فقط.

إيمان أبي بكر ضعها في الإرادة الكونية أم الشرعية؟ إيمان أبي بكر وقع وهذا من ضابط الكونية، وفيما يحب الله جلَّ في علا فهي في الشرعية، قد قدّر الله كوناً أن يؤمن أبو بكر وأحب الله لأبي بكر الإيمان فآمن ابو بكر، فهذه توافق الكونية والشرعية.

كفر أبي لهب إرادة توافق الكونية أم توافق الشرعية؟ الكونية ليست شرعية، الله جلَّ وعلا يحب أن يسلم أبو لهب، والدليل على ذلك ﴿وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ ۖ وَإِن تَشْكُرُوا۟ يَرْضَهُ لَكُمْ ۗ﴾ [الزمر: ٧]، والواقع أنه بعث إليه محمد -صلى الله عليه وسلم- بالرسالة. وقد قال الله عن محمد -صلى الله عليه وسلم- يصفه وصفاً دقيقاً: ﴿لَعَلَّكَ بَـٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ۝٣﴾ [الشعراء: ٣]، لعلك قاتل نفسل وهو يقول لعمه إني لا أغني عنك من الله شيئاً ويدعوه إلى الإسلام، هذه دلالة أنه يحب إيمان أبي لهب.

إيمان أبي لهب؟ شرعية، يحب الله ذلك لكنها لم تقع فأصبحت كفر وكونية.

كفر المؤمن؟ هي لا كونية ولا شرعية، المؤمن لم يكفر فليست كونية، ولا شرعية لأن الله لا يحب الكفر للمؤمن بحال من الأحوال، لا يحب الكفر للكافر فكيف يحب الكفر للمؤمن؟ يعني أنا أقول مثلاً كفر أبي بكر؟ نقول لا كونية ولا شرعية؛ لا كونية لأن أبا بكر بالإجماع مات مسلماً وهو أفضل الأمة، لا كونية لأنها لم تقع، ولا شرعية لأن الله لا يحب ذلك لأي عبد من عباده سبحانه جلَّ في علاه

فالمرتبة الثالثة في مراتب الإيمان هو أن تؤمن بالمشيئة، بمشيئة الله العامة، ما شاء كان

وما لم يشأ لم يكن. وإن للعبد مشيئة وهذه، لكن مشيئة العبد خاضعة لمشيئة الرب. فإن العبد له مشيئة خاصة به، ولكن هذه المشيئة مخلوقة لرب هذا العبد. قال الله تعالى: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [التكوير: ٢٩]، ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّى فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الكهف: ٢٣ – ٢٤]، فمشيئة العبد مستقلة موجودة؟ نعم مستقلة موجودة رداً على المعتزلة، لكن هذه المشيئة منوطة مستلزمة أو نقول هي تابعة لمشيئة الرب جلَّ في علاه.

٤ – المرتبة الرابعة وهي الخلق: علم فكتب فشاء فخلق،

لأنت تفري ما خلقت وغيرك يخلق ولا يفري

أي ما قدّرته تخرجه في الوجود، أمّا الذي من البشر يقدر ويخطط كيفما شاء ولا يستطيع أن يطبقه واقعاً لأنه عاجز، لأن العجز وصف ذاتي للإنسان.

فالله جل في علاه علم فكتب فشاء فخلق فأوجد وأخرج، وهذا الذي يفسر لنا ﴿ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ﴾ [الحشر: ٢٤]، قلنا إذا اجتمعت الثلاثة أسماء: الخالق هو المقدر قدّر الأشياء، البارئ هو أخرجه خلقه، والمصور هو الذي كمّل بنائه وصورته وهيئته في أحسن تقويم سبحانه جل في علاه. ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ﴾ [الزمر: ٦٢]، فإذا قلت الله جلَّ وعلا خلق كل شيء سيفيدنا في باب عظيم في القدر، وهو إذا اعتقدت اعتقاداً جازماً بأن الله خلق كل شيء، فمن الشيء أفعال العباد، وهو المهم هنا الآن أن الله خلق فعل العبد. قال الله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾ [الصافات: ٩٦]؛ خلقكم وعملكم أو خلقكم والذي تعملون، الصنعة التي صنعتوها هذه مخلوقة لله، فإذا صنعتكم التي صنعت هذه الصنعة مخلوقة. قل السيارة، رجل صانع سيارة، الله خلق هذه السيارة أم لا؟ بالآية ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾ ؛ "ما" إذا قلنا مصدرية أو غير مصدرية، مصدرية: خلقكم وعملكم، هذه الصريحة. أمّا إذا قلنا وما تعملون، يعني الذي أخرج للدنيا هذه السيارة خلقها الله، إذاً خلق الله السيارة فقد خلق اليد التي صنعت السيارة والعقل الذي فكر

ودبر كيف يخلق هذه السيارة. وقد قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (إن الله خلق كل صانع وصنعته)، فأفعال العباد مخلوقة لله جلَّ في علاه.

فهذه المراتب الأربع التي يستقيم الإيمان بالقدر بأن تؤمن بهذه المراتب الأربعة، يبقى لنا أن نقول هناك طائفتان لم يقبلوا القدر فخابوا وخسروا وضاعوا وضيعوا، والغلاة منهم كفروا وخرجوا من الملة.

الطائفتان: الطائفة الأولى منهم القدرية، والطائفة الثانية هي الجبرية.

♦ أما الطائفة الأولى طائفة القدرية والمعتزلة وولاة المعتزلة، هم الذين يقولون لا قدر الأمر أنف، يعني ما يعلمه الله جلَّ في علاه حتى يحدث وما كتبه حتى يحدث، وبالتالي ما خلقه حتى يحدث، فيقولون الأمر أنف. هؤلاء ردوا القدر ولم يؤمنوا بالقدر، وهذه فئة ضالة باطل ما يتبنوه، والدلالة على ذلك أن الله جلَّ في علاه خلق الخلق وخلق ما يعمل الخلق كما استدللنا بهذه الأدلة، وهؤلاء لازم قولهم أنهم جعلوا رباً مع الله جلَّ في علاه، جعلوا كل إنسان خالق لفعله دون الله جلَّ في علاه.

♦ والطائفة الثانية هي الجبرية الذين يقولون لا فعل للعبد ولا مشيئة ولا إرادة، ويقولون ألقاه في اليم مكتوف اليدين فقال إياك إياك أن تبتل بالماء. وقال قائلهم الجهول المفتون المأفون عندما قرأ قول الله تعالى: ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ [ص: ٧٥]، قال: لو كنت مكانه (يقصد إبليس) لقلت أنت منعتني من السجود. يعني يرد على من؟ على الله جلَّ في علاه، كأنه يقول هو فاعل لإرادة الله ليس له إرادة.

وهذا رد عليه سهل جداً لأن الله رتب الجنة ورتب النار على أفعال العباد، قال: (جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) [السجدة:١٧]، فنسب العمل لهم ونسب الكسب لهم ونسب المشيئة لهم ونسب الإرادة لهم. ﴿وَمَا تَشَاءُونَ﴾ يعني لهم مشيئة ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [التكوير: ٢٩].

والطائفة الوسطية هي أهل السنة والجماعة الذين يؤمنون بالقدر ويؤمنون أن للعبد

مشيئة وأن للعبد إرادة، ولكن مشيئة العبد وإرادة العبد تحت مشيئة الرب جلَّ في علاه.

هذا يعني بإيجاز لملمنا شمل الكلام على القدر وأبواب القدر، ثم بعد ذلك بفضل الله شرحنا لكم حديث احتجاج آدم وموسى وبينا لا عدوى ولا طيرة، حتى إذا آمن العبد بالقدر بحق لأن الله هو الذي يمرض وأن الله جلَّ في علاه هو الذي أنزل الداء وأن الله جلَّ في علاه هو الذي أنزل الشفاء وأنزل الدواء، يعتقد في ربه اعتقاداً جازماً، ولا أشك في أحد يستطيع أن يفعل شيئا في الكون إلّا بعد اذن الرب جلَّ في علاه. ثم بعد ذلك ختمنا الكلام على الحديث (لا عدوى ولا طيرة). وصلنا إلى حديث قوله -صلى الله عليه وسلم-: (سألت ربي ثلاثاً)، وحديث (إن الله جلَّ وعلا عنده خزائن الخير والشر، فطوبى لمن جعله الله مفتاحاً للخير مغلاقاً للشر)، يعني ثلاثة أبواب سنتكلم فيها عن رحمة الله جلَّ في علاه بالعباد ورحمة النبي -صلى الله عليه وسلم- بهذه الأمة، وأن هذه الأمة مرحومة حتماً وأن هذه الأمة لابد أن ترتقي فوق الأمم حتماً، وأن هذه التي تقع المصائب والباليات التي تقع حتماً لابد أن تقع، والحمد لله أنها وقعت ولم تكن أعظم مما كانت، ثم المستقبل المشرق لهذه الأمة هذا الذي تتبناه الأحاديث القادمة.

ومنها أيضاً فائدة أن عبداً خلقه الله جلَّ في علاه فسأل نفسه: كيف أنا عند ربي؟ أين مقامي عند ربي؟ هل رضي عني أم لا؟ فينظر في نفسه هل الله يجري الخير على يديه؟ هل كلما حل أو ارتحل وجد الخير وذكر الله حين يوجد أم لا؟ هذه دلالة على أنه جعله الله مفتاحاً للخير يعني رضي الله عنه وجعل الرضا معه وفيه وبه، وهناك أناس إذا رأيتهم ذكرت الله، إذا رأيتهم قضيت الحوائج، هؤلاء جعل الله الخير فيهم وبهم ومعهم، وأناس إذا رأيتهم استعذت من الشيطان الرجيم واستعذت من النار، ما رأيتهم إلّا رأيت الشر بهم الشر وفيهم الشر ومعهم الشر، هؤلاء الصنف من الناس. أقدم مقدمة لهذا الباب؛ الخلق على أقسام ثلاثة:

- القسم الأول: خير محض.

- القسم الثاني: شر محض.

- القسم الثالث قسم فيه خير وفيه شر، وهم أقسام أيضاً، أنواع لا يعلم بها إلّا الله جلَّ في علاه، يعني لا يعلم بعددها إلّا الله جل في علاه. خير يقرب جداً هو قريب من الخير المحض، عالي راقي سامي، وأناس أنزل هم أقرب فيهم خير وفيهم شر لكن شرهم أقرب ما يكون لأصحاب الشر المحض.

❖ أما أصحاب القسم الأول فهم الملائكة، خير محض، خلقهم الله جلَّ في علاه للتسبيح والذكر والاستغفار والدعاء للمؤمنين، منهم الراكع والساجد والقارئ والمسبح والخاضع الذليل لله جلَّ في علاه، والملائكة الذين يسيحون في الأرض ينظرون إلى مجالس العلم فيكتبون أسمائهم ويستغفرون لهم ويصعدون بهم إلى الله جلَّ في علاه فيثني عليهم في الملأ الأعلى.

❖ القسم الثاني شر محض، هؤلاء الأبالسة والشياطين ليس فيهم ثمة خير قط، لكن في خير يأتي من عندهم؟ نعم في خير، مع أنهم شر محض لكن الله خلقهم لخير، لِمَ؟ للقاعدة التي قعدناها في القدر مهمة جداً: إن الله لم يخلق شراً محضاً ولكن خلق شراً نسبي (إضافي)؛ هو شر بالنسبة للشيطان، لكن بالنسبة لتمحيص البشر حتى لا يساوي بين المسلم والمؤمن والفاجر وبين البر والصالح والطالح فهذا فيه الخير، يعني فيه خير يأتي لازم له، لكن هو شر محض الأبالسة والشياطين.

❖ الثالث البشر؛ ليس في الوسط فيهم تخليط، فيهم خير وفيهم شر، ما منا من أحد حتى في هذا المجلس إلّا وفيه خير وفيه شر، ما منا إلّا ومن تجرأ على حرمات الله، وما أحد يبرئ نفسه. نسأل الله جلَّ وعلا أن يستر علينا ويغفر لنا زلاتنا. وأيضاً منا من يسيء، منا من يتعدى، منا من يفرط، منا من لم يعمل لله جلَّ في علاه في آونة من الآونات، منا من فيه شر وفيه الخير. ونسأل الله أن يجعل خيرنا غالباً على شرنا. فهؤلاء فيهم خير وفيهم شر، لكنهم يتفاوتون منازل، منهم من قرب من الملائكة مثل الأنبياء والمرسلين والصديقين

والصالحين والشهداء، بل هؤلاء أفضل من الملائكة كما سنبين. ومنهم من ينزل إلى الشياطين والعياذ بالله، يعلّمون الأبالسة كيف تكون الشيطنة، يعني هم أشد من الجن، يعني جنون الإنس أشد من جنون الجن، والله جلَّ وعلا قد سمّى شياطين الإنس قال: ﴿يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا﴾ [الأنعام: ١١٢]، فهم أشد من شياطين الجن. ومنهم الطائفة الوسط التي تعادلت الحسنات مع السيئات.

المسألة ترجع إلى القلب، إن كان قلباً نقيا فهو أقرب إلى أهل الخير، فالله يختم عليه بأهل الخير. وإن كان والعياذ بالله في قلبه الدغل والحقد والحسد على أهل الإسلام، فإنه أقرب لأهل الشر فيختم عليه بأعمال أهل الشر. وهذا الذي سنفصله ونبينه بإذن الله، أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم.

باب قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (سألت ربي ثلاثاً)

باب ذكر قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (سألت ربي ثلاثاً):

عن ثوبان -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: (إني سألت ربي لأمتي أن لا يهلكها بسنة لعامة، وأن لا يسلط عليهم عدواً من سوى أنفسهم فيستبيح بيضتهم، وإن ربي عز وجلّ قال لي: يا محمد، إني إذا قضيت قضاءً فإنه لا يرد وإني أعطيك لأمتك أن لا أهلكهم بسنة عامة وأن لا أسلط عليهم عدواً من سوى أنفسهم فيستبيح بيضتهم، ولو اجتمع عليهم من بين أقطارها، حتى يكون بعضهم يهلك بعضاً وبعضهم يسبي بعضاً)، وإسناده صحيح.

وعن سهل بن سعد الساعدي -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: (إن لله تبارك وتعالى خزائن للخير والشر، مفاتيحها الرجال، فطوبى لمن كان مفتاحاً للخير مغلاقاً للشر، وويلاً لمن جعله مغلاقاً للخير مفتاحاً للشر).

أولاً هذا باب في القدر، وأتى بحديثين أريد العلاقة بينهما، ما العلاقة؟ الحديث الأول (سألت ربي ثلاثاً)، ويسأل الله جلَّ في علاه في الثلاث، وهذه تدلك كما سنبين في الفوائد المستنبطة على أن الله جلَّ وعلا يرد دعاء الأنبياء، حتى الأنبياء الذين لهم المكانة العلية عند الله جلَّ في علاه يرد دعائهم، حتى يغلق الباب على كل من يصرف عبادة لنبي أو لولي ويقول: هذا لوجاهته عند ربه فأتوسل به عند ربي، هذا سد الباب، يعني حتى النبي الذي هو أعظم المخلوقات وأكرم الخلق على الخالق رد الله عليه بعض دعائه كما سنبين. الغرض المقصود هذا الحديث في القدر، والحديث الثاني في القدر فما وجه الربط بينهما؟ وقد ضمّنهما تحت باب واحد.

الحديث الأول يتكلم على الأمة وأن قدر الله الذي لا يمكن أن يرد، أن هذه الأمة

ستنقسم ستنقسم وستتكالب بعضها على بعض، لكن بفضل الله ورحمة الله وكرم الله وعناية الله بهذه الأمة أنها لن تستباح البيضة بحال من الأحوال، ولا فناء لهذه الأمة حتى تقوم الساعة على أشرار الخلق، (ولا تزال طائفة من أمتي على الحق ظاهرين لا يضرهم من خالفهم ولا خذلهم إلى أن تقوم الساعة). هذا يبين أيضاً بأن للعبد مشيئة وللعبد إرادة وهي مرتب عليها النتائج، والأولى يبين أن هذه المشيئة تابعة، لكن أنا أريد الوضوح الجلي الآن بينهم؟

أصل المسألة أن الله جلَّ في علاه ربط المسببات بالأسباب والنتائج بالأسباب، وهذه فيها دلالة واضحة جداً على عمدة من يأخذ بالقدر، أنه يقول أن الله كتب كل شيء قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة، وأن الله جلَّ وعلا كتب أهل الجنة وأهل النار، وأن الله جلَّ وعلا قدر الأقوات والأرزاق والآجال وكل شيء حتى أصحاب الجنة وأصحاب النار، ومع ذلك لا يدعو ذلك إلى التقاعس، بل ربط كل هذه النتائج بأسباب. كيف وجهة الربط بين الحديثين؟

انظر وجهة الربط: قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (حتى يكون بعضهم يهلك بعضاً)، هذا سبب من أسباب القدر الذي قدّره الله قبل ذلك، فالتوجيه أنه لن تستباح بيضة هذه الأمة من عدو من غيرهم بحال من الأحوال، حتى إذا قمنا بالتوجيه الأول أو التفسير الأول حتى يحدث السبب. ما هو السبب؟ السبب أن يتكالب البعض على البعض، وأن تتألب هذه الأمة بعضها على بعض، وألّا يلتفوا حول راية واحدة ولا يجتمعوا، فحين التفرق وحين التمزق تتكالب الأمم عليهم فتستبيح البيضة فهذه كانت سبباً. إذاً القدر الذي قدّره الله قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة جعل له سبباً، ما هو السبب الذي ربط به؟ هو أن تتفرق الأمة وأن تتمزع وأن تتمزق الأمة أشتاتاً.

الراوي جاء في الحديث الثاني أنه جعل مفاتيح للخير ومفاتيح للشر، فإن الله قدر كل

شيء: الخير والشر وخزائن كل شيء، الخير والشر بيد الله جلَّ في علاه، ومع ذلك لا ينام أحد على سريره ويقول خزائن الخير والشر فوق ليست تحت، إن الله سيمطر علي الذهب والفضة؟ نقول لا، هذا ضلال في العقل، هذا جنون. أرأيت رجلاً ذهب إلى صحراء خالية وقال: قد علمت نصرة الأمة بالسواد الأعظم بالرجال بأسد الغاب، وأنا سأنجب ثلاثين رجلاً يجاهدون في سبيل الله وهو في الصحراء. ماذا تقولون عنه؟ سيأتي بالأولاد من الرمال؟ سيتزوج الصحراء؟ ما أخذ بالأسباب، فهذا مجنون لأنه لم يأخذ بالسبب.

قدّر الله المقادير وربط كل نتيجة بسببها، وهذه تجعل الهمة عالية، وهذا الذي يجعلنا نعلم أن هؤلاء لمّا سبقوا ما سبقوا من فراغ، سبقوا لأنهم قد فقهوا عن الله جلَّ في علاه وعقلوا عن رسوله -صلى الله عليه وسلم-. ولذلك كان يقول أبو بكر وعمر وغير هؤلاء (والله ما اشتدت همتنا إلّا بعد ما تعلمنا القدر)، علمنا أن الله جلَّ وعلا ربط النتائج بالأسباب، وأن العبد إذا يسر الله عليه الخير فوجد نفسه يسير في درب الخير فلابد أن يسارع لعل الله أتى له ببشارة الخير، وقد قدر قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة أنه من أهل الخير. هذا الرابط بين الحديثين.

قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (بسنة لعامة)؛ السنة هو أن تمطر ولا تنبت الأرض، وهذا عجب، ينتظرون المطر لإنبات الأرض فيأتي المطر وهنا تعطيل الأسباب بيد الله جلَّ في علاه، لأن الله هو الذي خلقها، إذا أراد أن يعطلها عطلها، وهذه من مظاهر قدرة الله التي تبين لك حتى وأن الله قد ربط النتائج بالأسباب فإن الله قادر أن يجعل النتائج تتخلف عن الأسباب ويلغي هذه الأسباب. أرأيت النار؟ خلقها الله، والنار تحرق بذاتها، بطبعها سبباً في الإحراق إن صح التعبير، لكن نقول هي تحرق بذاتها وعطلها الله جلَّ في علاه عندما ألقي إبراهيم -عليه السلام- في النار، فقال الله تعالى تعطيلاً لصفة النار: ﴿قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴿٦٩﴾﴾ [الأنبياء: ٦٩]. وهذه حدثت مع أبو مسلم الخولاني -رضي الله عنه وأرضاه-، من التابعين في زمن عمر بن الخطاب -رضي الله عنه وأرضاه-. الغرض المقصود هنا يبين قدرة الله جلَّ في علاه أن السنة هي المطر ينزل

ولا تنبت الأرض. فهذه الأمور المشكلة وندخل على الأحاديث.

أقول إخوتي الكرام إن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- هو أرحم الناس بالناس، بل أرحم الخلق بالخلق، وإن الله جلَّ وعلا ما خلقه إلّا رحمة للعالمين وما بعثه إلّا رحمة للعالمين، فهو رحمة مهداة. ورحمة النبي -صلى الله عليه وسلم- بالكافرين مشتهرة معلومة مذاعة بين الناس فضلاً عن رحمته بالمؤمنين، رحمة النبي -صلى الله عليه وسلم- بالكافرين ترى أروعها عندما جاء النبي -صلى الله عليه وسلم- ملك الأخشبين فقال: أطبق عليهم الأخشبين من قريش؟

١-فقال النبي -صلى الله عليه وسلم-[1]: (لا، لعل الله يخرج من أصلابهم من يوحد الله جلَّ في علاه). وانظر إلى رحمة النبي -صلى الله عليه وسلم- بهؤلاء الأمم عندما تملكهم وكانت القبضة عليهم وهو يقول: (اذهبوا فأنتم الطلقاء) إن صح التعبير. أيضاً قال الله تعالى واصفاً رحمة النبي -صلى الله عليه وسلم- بالكافرين: ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفۡسَكَ أَلَّا يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ ۝٣﴾ [الشعراء: ٣]؛ يعني فلعلك مهلك نفسك فلعلك قاتل نفسك أنهم لم يؤمنوا ويكون عقابهم ناراً تلظى. وأيضا قال الله تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمۡ إِن لَّمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ أَسَفًا ۝٦﴾ [الكهف: ٦]، هذا وصف للنبي -صلى الله عليه وسلم- كيف يقتل نفسه على هؤلاء الذين لم يؤمنوا به ولن ينجوا من نار جهنم.

أمّا رحمته بالمؤمنين فحدث ولا حرج، وأمثلة كثيرة تثبت لك رحمة النبي -صلى الله عليه وسلم- بهذه الأمة المرحومة؛ فإن رسول الله لمّا فاز وحظي في هذه المكانة العلية عند ربه جلَّ في علاه، عندما أمّ بالأنبياء ثم عُرِج به إلى السماء قام ينظر إلى أمته ما ينظر إلى نفسه، ينظر إلى أمته رحمةً بأمته وهو يسأل ربه التخفيف في الصلوات حتى خفف الله له الصلاة من خمسين إلى خمس ولها أجر الخمسين، رحمة من الله على هذه الأمة، وهذه رحمة النبي -صلى الله عليه وسلم- بهذه الأمة.

(١) عائشة أم المؤمنين | المحدث : البخاري | المصدر : صحيح البخاري الصفحة أو الرقم: ٣٢٣١ .

أيضاً بكى النبي -صلى الله عليه وسلم- بكاءً طويلاً شديداً حتى جاءه جبريل يستفسر عن بكائه، فبين له أن خشيته على أمته كبيرة، فبعث الله إليه جبريل مبشراً إياه قال:

٢-(يا محمد إن ربك يقرئك السلام ويبشرك بأنه قال: سنرضيك في أمتك ولا نسوؤك)[1]. لا غرو ولا عجب من رحمة النبي -صلى الله عليه وسلم- لهذه الأمة، عندما يأتي كل البشر وهم يقولون لكل نبي اشفع لنا وهو يقول: لا لست لها لست لها اذهبوا إلى فلان، حتى يأتي إلى النبي -صلى الله عليه وسلم- فيقول: (أمتي أمتي أنا لها أنا لها). وأيضاً في الصحيح أن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: (لكل نبي دعوة مستجابة، وخبأت دعوتي) كل نبي له دعوة جزماً مستجابة، كل نبي دعا؛ نوح دعا على قومه، إبراهيم دعا بالدعوة، ما من نبي إلّا ودعا بدعوته المستجابة، أمّا النبي -صلى الله عليه وسلم- رحمته بالأمة تفوق أن يدعو بهذا الدعاء فيقول: (وأما أنا فخبأت دعوتي شفاعة لأمتي) رحمة بهذه الأمة، فبأبي هو وأمي -صلى الله عليه وسلم-.

فهنا أيضاً هذا الحديث يثبت لنا كيف رحمة النبي -صلى الله عليه وسلم- بهذه الأمة المرحومة، والحمد لله الذي أرسل لنا أفضل الخلق وأرحم الخلق عليه وهو يدعو الله جلَّ في علاه ألّا يهلك هذه الأمة بالقحط الدائم العام على هذه الأمة، ولا يسلط عليها عدواً حتى لا تتغيظ القلوب ونموت كمداً، ولا يسلط على هذه الأمة عدواً من غيرها فيستبيح البيضة هذا قيد، يعني القيد هو ألّا يسلط عدواَ من غيرها فيستبيح البيضة ويفنيها عن بكرة أبيها، لا لن يحدث هذا بفضل الله علينا، فدعا الله على ذلك والله أجاب له.

لكن الثالثة لم يجب الله للنبي -صلى الله عليه وسلم-، حتى أنه بيّن الله له في كثير من الآيات، ﴿أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ﴾ [الأنعام: ٦٥]، فرأى النبي -صلى الله عليه وسلم- أن هذه أيسر يعني رضي بذلك أن يحدث التقاتل بينهم فلا تستباح البيضة

(١) الراوي : عبدالله بن عمرو | المحدث : مسلم | المصدر : صحيح مسلم | الصفحة أو الرقم : ٢٠٢ | خلاصة حكم المحدث : [صحيح] | التخريج : من أفراد مسلم على البخاري.

من الغير. وهذه كما قلت من رحمة النبي -صلى الله عليه وسلم- بهذه الأمة فدعا ربه، فانظر كيف يعلمنا النبي -صلى الله عليه وسلم- الرحمة والشفقة على الآخرين.

ثم يعلمنا أدباً جماً: كيف نتعامل مع ربنا جلَّ في علاه عندما نحتاج إليه؟ وهل في لحظة أو ثانية أو طرفة عين لا نحتاج إلى الله جل في علاه؟ الفقر وصف لنا ذاتي والغنى وصف له ذاتي، أقسم بربي بعدد أنفاسنا نحن أحوج ما نكون لربنا جلَّ في علاه، أقسم بربي لحظة واحدة يكفر بها المرء فيختم عليه فيدخل نار جهنم والعياذ بالله، أو لحظة واحدة تنقلب أحواله فيتوب فيؤوب إلى ربه فيقبل منه، وقلبنا متقلب، ونحن ليل نهار في ثانية نعصي والثانية الثانية يمكن أن نطيع. فالمسألة تدلك دلالة واضحة على أنك أحوج ما تكون وأفقر ما تكون إلى الله جلَّ في علاه، فعليك بأن تلح على ربك جلَّ في علاه وتكثر من السؤال والدعاء، وهذا الأدب الجم الذي استخدمه النبي الكريم الذي هو أقرب الخلق وأكرم الخلق على الله، فاستأذن ربه في السؤال وتذلل وخضع لربه جلَّ في علاه يسأل ربه. وهذا السؤال دلالة وإشارة على أفضل عبادة يمكن أن يتقرب بها العبد إلى الله ألا وهي عبادة الدعاء، سواء دعاء المسألة أو دعاء الثناء. ما الفرق بين دعاء الثناء ودعاء المسألة؟

أفضل العبادات على الإطلاق الدعاء، أفضل العبادات التي يمكن أن يتقرب بها العبد إلى ربه جلَّ في علاه الدعاء. لكن إخوتي الكرام أقسم بالله هذه المسألة مسألة توفيق، كنت أعرف من يدعو الله جلَّ في علاه فيرفع يديه بالساعات لا بالساعة، بالساعات ثم قبض عنه ذلك، وكان يتلذذ تلذذاً يقول ما أدعو ليستجاب وأرى السؤال، أدعو لأتلذذ بمناجاة الله جلَّ في علاه. هذه مسألة ليست بعدها مسألة، ولا يعرف أحد أن يصف هذه المسألة ولا يستروح بها ولا يتلذذ بها إلّا من ذاقها قبل ذلك، إن يجنده الله جلَّ في علاه فيخلو بربه وهو يناديه ويتذلل ويظهر فقره ويستحضر قوة الله وقدرة الله وجبروت الله وعزة الله وهو فوق عرشه يرفع أقواماً ويخفض آخرين، يعز ويذل ويعطي ويمنع، هذه قدرة الله جلَّ في علاه، وهذه مناجاة ليست بعدها مناجاة. ولذلك قال الله تعالى يبين هذه من أجل

العبادات: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾﴾ [غافر: ٦٠].

أيضاً إبراهيم -عليه السلام- ﴿فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [مريم: ٤٩]، يعني وما يدعون من دون الله، فهذه فيها دلالة على أن الدعاء أيضاً عبادة، يدل على أنها عبادة من أجلّ العبادات لأنك تظهر فيها الفقر والمسكنة والذل، والعبادة هي غاية الذل مع غاية المحبة لله جلَّ في علاه، ويظهر قلبك التوكل واليقين في الله والإنابة والرجاء والخوف والرغبة من ربك جلَّ في علاه ﴿وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ﴾ [الأنبياء: ٩٠].

٣- وفي السنن بسند صحيح عن ابن عباس قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-[1]: (أفضل العبادة الدعاء)، وهذا كلام واضح جداً جلي.

أسألكم بالله من منا في كل أربعاء يستن بهذه السنة بين الظهر والعصر فيأتي يدعو ربه متضرعاً، فقط ما أقول لكم في كل الأوقات، أو يكون في السحر فيدعو أو له في كل يوم نصف ساعة بينه وبين ربه يدعو الله جلَّ في علاه. في أحد يفعل ذلك؟ في أحد يفعل ذلك يوم الجمعة بعد العصر؟ في أحد يقوم في الليل فيدعو ربه جلَّ في علاه ولو عشر دقائق؟ هذه لذة ليست بعدها لذة، لا تتركوا ذلك. كما قلت لكم ما منكم من أحد إلّا ويحتاج إلى ربه؛ للزواج أو للرزق، سواء الرزق المعنوي أو الرزق الحسي، أو بلية لترتفع أو قرب يريد مكانة عند ربه جلَّ في علاه لا يستطيع أن يصل إليها بعمله. ما منا من أحد سيصل بعمله في شيء إلّا أن يرحمه الله ويتغمدنا الله برحمته، ولذلك الإنسان همته العالية تصل به إلى المعالي ويريد الفردوس الأعلى فلا يستطيع أن يصل ولن يصل، كيف يصل إلى فعل السابقين. لكن عنده وعزاءه انه له مخبأ، زاد عظيم جداً مخبأ له ألا وهو باب التضرع والدعاء لله جلَّ في علاه. ولذلك قال ابن عباس: (أفضل العبادة الدعاء)، وفي رواية

---

(١) الراوي : النعمان بن بشير | المحدث : المنذري | المصدر : الترغيب والترهيب | الصفحة أو الرقم : ٢/ ٣٨٨ | خلاصة حكم المحدث : [إسناده صحيح أو حسن أو ما قاربهما] | التخريج : أخرجه أبو داود (١٤٧٩)، والترمذي (٢٩٦٩)، وابن ماجة (٣٨٢٨).

أخرى قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (الدعاء هو العبادة)، وهذا الأسلوب يسمى أسلوب حصر؛ يعني كأنه يقول كل العبادة وجلّ العبادة وعظمة العبادة تتجلى في الدعاء، لأن قمة التوحيد في الدعاء، كما قلت أنت تعتقد في ربك الاعتقاد الجازم أنه المعطي المانع النافع الضار المحيي المميت المبدئ المعيد سبحانه جلَّ في علاه، وتعتقد في نفسك الذلة والمسكنة والخضوع والعبودية وأنك أفقر ما تكون إلى ربك جلَّ في علاه، وتعلم أن الله إن أعطاك أعطاك من جوده وكرمه ورحمته، وإن منعك منعك عدلاً منه وحكمةً.

*والدعاء دعاءان: دعاء مسألة ودعاء عبادة، فما الفرق بينهما؟

♦ دعاء المسألة هو قضاء الحاجات، من دفع بلية أو جلب منفعة، بأن تثني على الله بما هو أهل له، وتصلي على النبي -صلى الله عليه وسلم- ثم تسأل: اللهم ارزقني، اللهم علمني، اللهم نجني، فتسأل دفع ضر أو جلب منفعة.

♦ دعاء الثناء فهو الثناء على الله بما هو أهل له.

وأنت لو تدبرت في الفاتحة كما في درس التفسير ترى أن الفاتحة بأسرها هي إمّا دعاء مسألة وإمّا دعاء ثناء؛ أنت تحمد الله ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٤﴾ [الفاتحة: ٢ - ٤] كل هذا دعاء ثناء، ثم بعد ذلك ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ [الفاتحة: ٥] هذا دعاء مسألة، فقد جمعت الفاتحة جوامع مكانة الدعاء.

هنا أدب جم من النبي -صلى الله عليه وسلم- أنه يسأل ربه ويتضرع إلى الله جلَّ في علاه، معلماً الأمة أنه ما من حاجات وما من كربات تفرج إلّا أن يتضرع العبد لربه جلَّ في علاه، يظهر فقره أمام الله ويثبت بذلك يقيناً غنى الله عنه وأن الله جلَّ في علاه يتفضل على عباده ويقضي لهم حاجاتهم.

وأيضاً في الحديث مسألة مهمة جداً هو أن الله جل في علاه إذا قدر شيء لو اجتمع من

بأقطارها لدفع هذا القدر لن يكون بحال من الأحوال، وأن القدر واقع واقع، وأن هذه الأمة سيستبيح بعضها بعضاً ويقع بينهم القتال والفرقة ويتمزعون ويتفرقون أشتاتاً، ثم تتكالب عليهم بعد ذلك الأمم، وهذا قدر من الله جلَّ في علاه لحكمة من الله علمها من علمها وجهلها من جهلها. لكن ليبقى لنا البصيص من الأمل أن النبي -صلى الله عليه وسلم- لّما دعا ربه جل في علاه ألّا تهلك هذه الأمة، وقد أجاب الله تعالى له وبينها النبي -صلى الله عليه وسلم- نبوءة بشارة لنا (لا تزال طائفة من أمتي على الحق ظاهرين)، فلن تستباح هذه الأمة وستبقى هامتها مرفوعة بإذن الله، وإن الله جلَّ في علاه سيعيد لها مجدها وسيادتها وقيادتها وريادتها مرة أخرى.

أمّا الحديث الثاني الرابط بينه وبين هذا الحديث هي الأسباب، الحديث الثاني (إن لله تبارك وتعالى خزائن الخير والشر)؛ كلكم يعلم وكلكم على يقين أن الله جلَّ في علاه بيده بمقاليد السماوات والأرض، وأن الله جل في علاه هو الذي سخر البحر لتجري فيه الفلك بأمره، وأن الله يمسك السماء أن تقع على الأرض، فخزائن الخير بيد الله، وخزائن الشر بيد الله، وقد خلق الله كل شيء. ولِمَ قلت أنا كل شيء؟ أدباً مع ربي حتى لا أصرح وأقول خلق الشر، فقد خلق كل شيء وبيده مقاليد كل شيء، قد قال الله تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ﴾ [الحجر: ٢١]، خزائن الخير وخزائن الشر.

وهنا يبين الله لنا بعدما كتب الخير وخلقه وكتب الشر وخلقه، جعل لهذا أسباباً وجعل لهذا أسباباً، فجعل للخير مفاتيح وجعل للشر مفاتيح، ليثبت أن الإنسان لابد أن يأخذ بالسبب؛ إن أراد الخير فعليه أن يسعى ويأخذ بالسبب حتى يصل للخير، لأن النتيجة التي يرجوها ويصبو إليها ويتمناها هو الوصول إلى الخير لها رابط ولها سبب ولها سلم ولها طريق لابد أن يسير في هذا الطريق. والشر الذي يخشى منه ويريد أن يتجنبه ولا يقع فيه له أسباب، فلابد أن يتجنب هذه الأسباب حتى لا يصل إلى هذه النتيجة المؤلمة المزعجة بأن يصل إلى الشر.

مفاتيح للخير ومفاتيح للشر؛ الخير كل الخير فيمن جعله الله مفتاحاً للخير، وأول هذه المفاتيح وأول هذه الخيرات العلم، إذا نظرت في هذا الحديث ودققت في النظر وجدت أن الله جل في علاه بعدما خلق مفاتيح الخير جعل أناساً لمفاتيح الخير، رابطة وسبب لهذا الخير. أول الأسباب هو العلم؛ إن الله ما خلق الخلق إلّا لمهمة جسيمة عظيمة هي أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً، ولن يحدث ذلك إلّا بالعلم، ولذلك أمر الله نبيه أن يقول: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ﴾ [يوسف: ١٠٨]. فالخير كل الخير في أناس إذا رأيتهم ذكرت الله، إذا مشيت معهم رأيت الخير معهم، أمرت بالمعروف ونهيت عن المنكر، تصدقت، أرشدت، علمت، تعلمت. إذا كنت معهم صامتاُ حفتك الملائكة لأنه سيذكرك بربك، سيصلي على النبي -صلى الله عليه وسلم-، سينشر لك علماً، سيرفع عنك جهلاً.

فالخير جعله الله في أناس الخير فيهم وبهم ومعهم، فهم بركة كما قال السخاوي ورحمة الله على السخاوي، وهو يترجم للنووي فقال: النووي بركة؛ بركة بكل المعاني، ترى الخير معه، في تصنيفه، في عبادته، في زهادته، انظر إلى رياض الصالحين ينتشر في جميع المساجد وفي جميع بيوت المسلمين، فالخير معه وفي تصنيفه وفي زهادته وفي طلبه للعلم، كلما تقرأ لترجمة هذا الرجل تعلم أن هذا مفتاحاً للخير، خلقه الله للخير. كما شيخ الإسلام ابن تيمية تقول في ذلك "عبد خلقه الله له"، مفاتيح للخير هؤلاء وسائط بين رب الناس وبين الناس. فمن وجد نفسه قد جعله الله مفتاحاً للخير واسطةً بين رب الناس والناس، فليعلم أنه من مفاتيح الخير، فليحمد الله على ذلك، (فمن وجد خيراً فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلّا نفسه).

إذاً أول مفاتيح الخير هو تعليم الناس الخير، كما قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (من دل على خير فله أجره وأجر من عمل به من غير أن ينقص من أجورهم من شيء)، وهذه دلالة واضحة جداً على أن الخير فيه، فينتشر الخير في الناس وله نصيب من هذا

الخير. وأيضاً يقول النبي -صلى الله عليه وسلم- لعلي بن أبي طالب عندما أعطاه الراية وأقسم بالله: (والذي نفسي بيده لأعطين الراية غداً رجلاً يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله يفتح الله على يديه)، وقال لعلي بن أبي طالب عندما أوتي به للنبي -صلى الله عليه وسلم-: (ولئن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك من حمر النعم). أما رأيت الخير في العلماء؟ أما علمت الخير للعلماء؟ قد قال النبي -صلى الله عليه وسلم- فيهم: (إن العالم ليستغفر له كل من في الأرض حتى الحيتان في البحر)، أي خير يداني هذا الخير؟ تستغفر له النملة في الجحر، يستغفر له الحيتان في البحر، يستغفر له الناس، يستغفر له البشر، وإن الله جلَّ في علاه يكتب له أجور البشر في ساعة واحدة، ولو مكث ألف سنة يتعبد لنفسه لذاتية نفسه لن يصل إلى هذا الخير.

فهؤلاء القوم الذين جعل الله فيهم الخير، سيدهم وأعظمهم وكبيرهم وإمامهم وقدوتهم واسوتهم هو رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، أي خير على يد رسول الله -صلى الله عليه وسلم-؟ فتح القلوب الغلف والآذان الصم والأعين العمي بالخيرية التي ابتعثه الله بها. وكذلك أصحابه الكرام الذين جابوا مشارق الأرض ومغاربها يدعون لله جلَّ في علاه، يعبّدون الناس لرب الناس سبحانه جلَّ في علاه. إذاً مفاتيح للخير، الخير فيهم كما قلت وبهم ومعهم، إذا ذكرته تذكر ربك جلَّ في علاه، وإذا رأيته تذكر ربك جلَّ في علاه، إذا جالسته ذكرت ربك جلَّ في علاه، إذا افتقدته تقول والله هذا الرجل ما جلست معه إلّا وذكرنا الله فذكرت ربك جلَّ في علاه، فهذا أول مفتاح الخير.

فمن رأى في نفسه ذلك فليحمد الله، وهذه إشارة على ان الإنسان لا يخالل ولا يصادق إلّا مفاتيح الخير، لأن من جاور السعيد يسعد، والمجاور يأخذ حكم المجاور: "لا تسأل عن المرء ولكن سل عن خليله"، كلما رأيته إذا صادق وإذا خالل خالل أهل الخير ومفاتيح الخير فهو أيضاً من مفاتيح الخير. وضرب النبي -صلى الله عليه وسلم- لنا مثلاً رائعاً في ذلك؛ صاحب المسك وصاحب الكير، فأنت تنظر من تخالل مفتاح الخير أم مفتاح الشر.

أيضاً من مفاتيح الخير أناس خلقهم الله ورزقهم مفاتيح الدنيا من الكنوز، الذهب والفضة والأموال، ثم استعملهم الله جلَّ في علاه في قضاء حوائج الناس، وهذه أجلّ العبادات بعد تعليم الناس الخير. أجلّ العبادات وأجلّ الناس وأعظم الناس مكانة بعد العلماء هم الذين صدّرهم الله جلَّ في علاه لقضاء حوائج الناس، (من نفّس عن مسلم كربة نفّس الله عنه كربة من كربات يوم القيامة)، فأفضل الناس من جعله الله وفضله بين الناس يبذل وجهه وماله وجسده وكل ما يملك لقضاء حوائج الناس، وقد ورد عن الحسن وعن غير الحسن قال: لأن أمشي في حاجة أخي خير لي من أن أعتكف شهراً في المسجد النبوي؛ وهذا قد جاء مرفوعاً وصححه بعض العلماء عن النبي -صلى الله عليه وسلم- لعظم هذه العبادة. فمفتاح للخير، وأخير الناس وأعظم الناس مفتاحاً للخير هو الذي يقضي الله على يده حوائج الناس، وقد قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (اشفعوا تؤجروا، ويقضي الله على لسان نبيه ما يشاء). وقال الله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰۖ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِۚ﴾ [المائدة: ٢].

وضرب لنا النبي -صلى الله عليه وسلم- أروع الأمثلة في أنه كان يسعى في قضاء حوائج الناس، يبذل وجهه وكرامته ومكانته وهو سيد الخلق أجمعين من أجل قضاء حوائج الناس، ليبين لنا ويشحذ هممنا على هذه العبادة الجليلة. إن النبي -صلى الله عليه وسلم- لّما جاءت بريرة وطلبت من عائشة أن تساعدها وكانت مكاتبة المكاتب هو العبد الذي صالح سيده على أموال (مال معين، خمسة آلاف، عشرة آلاف)، قال: كل نجم [يعني كل شهر] أعطيك منه ألف، فهذه كتابة بينه وبين سيده أن كل شهر يعطيه ألفاً منجماً حتى يتحرر بعد ذلك هذا المكاتب. فبريرة كانت كذلك، فراحت لعائشة -رضي الله عنها وأرضاها- حتى تساعدها وتعطيها المال فتحرر نفسها ففعلت، وأيضاً لها قصة في البيوع لا نتكلم عنها الآن، وأصبح ولاؤها لعائشة.

الغرض المقصود نحن في مسألة أن قضاء الحاجات من أفضل العبادات، وأفضل

الناس من جعله الله مفتاحاً للخير لقضاء حوائج الناس. ولذلك النبي -صلى الله عليه وسلم- في غير ما حديث يبين أن أفضل العبادات إدخال السرور على المسلم، وأفضل ما تدخل به السرور على أخيك أن تنفّس عنه كربة أو تقضي له حاجة. ولذلك كان النبي -صلى الله عليه وسلم- يقول: (اشفعوا تؤجروا، ويقضي الله على لسان نبيه ما يشاء). الغرض المقصود؛ بريرة بعد ما أعتقتها عائشة -رضي الله عنها وأرضاها-، لها فقهيات، إن كانت متزوجة فأصبحت ملك لنفسها، بمعنى هي مخيرة تبقي على زواجها وزوجها أو تفسخ العقد، لها ذلك على خلاف بين الفقهاء إن كان هو عبد أو حر، لا ندخل في هذا خلاف لسنا بصدده الآن.

لكن الغرض المقصود هي الآن بريرة زوجة لمغيث، وبريرة قد أعتقتها عائشة. الفقه هنا يقول إن عقد نكاحها في يدها، هي مخيرة، تقبله زوجاً أو لا تقبله. فنظرت إليه هي حرة، هو أسود عبد فقالت: لست بزوج لي. ما رضيت به، فبكى بكاءً شديداً، وكان يحبها حباً جماً، فكان يدور حولها ويبكي عند قدميها، والنبي -صلى الله عليه وسلم- يرى فيرق قلبه له ويقول: (يا عباس، أما تعجب من حب مغيث لبريرة وبغض بريرة لمغيث). فانتفض النبي -صلى الله عليه وسلم- وهو الذي علم البشرية كيف أن مفتاح الخير هو الذي يقضي حاجات الناس، فأراد أن يقضي حاجة مغيث وينفس كربته، فذهب وهو أكرم الخلق على الخالق شافعاً، فذهب إلى بريرة فشفع لمغيث عند بريرة أن ترضى به زوجاً. انظروا كيف يبذل النبي -صلى الله عليه وسلم- وجهه ليعلمنا نحن أن الوجيه الغفير أو الوزير أو الأمير أو الذي يملك وجاهة لابد أن يحمد الله على هذه النعمة فيبذل هذه الوجاهة من أجل قضاء حاجات الناس. فذهب النبي -صلى الله عليه وسلم- وهو سيد الخلق أجمعين يشفع لمغيث عند بريرة حتى يعني ترجع له. فقالت له: يا رسول الله، تأمرني؟ فقال: لا، لأنه لو أمر لابد على الأمة من السمع والطاعة، ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ [الحشر: ٧]. قالت: يا رسول الله تأمرني؟ قال: لا، إنما أنا شافع، قالت: لا حاجة لي فيه. ورفضت شفاعة النبي -صلى الله عليه وسلم-، وهو متوقع أن تقبل شفاعة

النبي -صلى الله عليه وسلم-، لكن فعل ذلك لأن خير الناس من كان مفتاحاً للخير مغلاقاً للشر. فأصبح شفيعاً لمغيث ليقضي حاجته ولينفس عنه كربته.

أيضاً من أروع الأمثلة التي ضربها لنا النبي -صلى الله عليه وسلم- عملياً ليبذل وجهه من أجل قضاء حاجات الناس، أن جابر -رضي الله عنه وأرضاه- لمّا مات أبوه ترك له ديوناً كثيرة قد أثقلت كاهله، وهذه الديون عند أقبح الخلق الأمة المغضوب عليهم، فذهب النبي -صلى الله عليه وسلم- يشفع لجابر مع أنه يعلم أنهم يحقدون عليه ويحسدونه ويريدون قتله ويبغضونه ويردونه، ومع ذلك بذل وجهه وواجهته من أجل أن يبين لنا ويعلم لنا أفضل العبادات على الإطلاق بأن تقضي لأخيك حاجته وأن تنفّس عنه كربته. فذهب لليهود يشفع لجابر أن يسقطوا عنه الدين، فلم يقبلوا شفاعة النبي -صلى الله عليه وسلم-، فقضى عنه وفرج عنه هذه الكربة بأمر آخر، ذهب إلى النخل وبصق فيه بأبي هو وأمي ودعا حتى بفضل الله سبحانه وتعالى أثمرت الثمرة وأينعت وقضى دينه وفاض له، بقي له ما يأكل به هو وأهله، وهذا من فضل فعل النبي -صلى الله عليه وسلم.

أيضاً النبي -صلى الله عليه وسلم- كان يتفقد أصحابه، معاذ كان رجلاً عالماً نحريراً، مات قبل الثلاثين والنبي -صلى الله عليه وسلم- يقول: (معاذ يبعث يوم القيامة قبل العلماء) أو (يتقدم العلماء برمية حجر). كان معاذ -رضي الله عنه وأرضاه- لفضائله وشمائله الحسنة، أنه كان مضيافاً، كان كثيراً ما يكرم ذوي الحاجات ويكرم الضيفان. فمن شدة كرمه وسخائه وجوده أثقلته الديون، فأراد النبي -صلى الله عليه وسلم- أن يحمل عنه هذه الديون، وأراد النبي -صلى الله عليه وسلم- أن ينفّس كربته وأن يفرج ما هو فيه، فبعثه إلى اليمن ليعلم الناس فيفوز بالآخرة ويستفيد من جباية الصدقة والأموال التي تأتيه، فجعله يفوز بالآخرة بتعليم الناس ويفوز في الدنيا بأن يسد دينه، هذا فعل النبي -صلى الله عليه وسلم-. وائتسى بالنبي -صلى الله عليه وسلم- صحابته الكرام؛ أبو بكر وعمر وعثمان، كما في الآثار بالأحاديث الصحيحة أن عثمان بن عفان اشترى بئر رومة

وجعلها لوجه الله جلَّ في علاه تنفيساً للكرب التي كانت تنزل على الأمة. أبو بكر وعمر كانوا يفعلون ذلك مع المرأة العجوز، يحملون على ظهورهم الطعام والشراب ويذهبون يجهزون ذلك للمرأة تنفيساً لكربة المرأة. فإن خير الناس بعد العلماء وأعظم الناس بعد من علم الناس الخير والتوحيد والعبادة لله جلَّ في علاه هو من بذل وجهه وماله وجاهه وقوته من أجل أن يفرج على الناس كرباتهم.

ثم بين النبي -صلى الله عليه وسلم- أن الله جلَّ في علاه كما أنه ربط الخير كل الخير بأسباب وبالأناس الذي جعلهم مفاتيح للخير فطوبى لهم، وقيل شجرة في الجنة أو الجنة لهم. أيضاً وبضدها تتبين الأشياء؛ أن الله نصب أسباباً وأيضاً أناساً يفتحون أبواب الشر لا يفتحون أبواب الخير، هؤلاء فيهم الشر ومعهم الشر.

أفضل من نضرب لهم أمثلة لذلك الذين ينشرون الشرك بين الناس، إن الذين يصدرون أنفسهم ليضربون كبد الدين في التوحيد ثم ينشرون الشرك هؤلاء هم الذين يقال فيهم مفتاحاً للشر لا مفتاحاً للخير. من نشر الشرك وأغمد سيف التوحيد، ومن نشر الباطل والفسق والفجور هذا مفتاحاً للشر. الرجل الذي إذا جلست معه لا تجد عنده إلّا الغيبة، يغتاب الناس، والغيبة من الكبائر تسقط عدالة المرء، ما تراه تجلس معه إلّا أن يصرح بالغيبة أو يلمح بها، يقول كفانا حتى لا نأخذ سيئات من الكلام على هذا الرجل، هو رجل مليء بالسيئات، إمّا بالتعريض وإمّا بالتصريح ما جلست معه إلّا ويأكل في لحم أخيه غيباً. وإمّا أن تراه يوقع بين الناس، يمشي بين الناس بالنميمة "أما سمعت الرجل يتكلم فيك أمس"، ويأتي للمرأة مع زوجها فيوقع بين المرأة وزوجها والنبي -صلى الله عليه وسلم- يقول: (لا يدخل الجنة قتات)، وفي رواية قال: (لا يدخل الجنة نمام). فهذا الشر فيه ومعه وبه، ما جلست معه إلّا أتاك بشر، ما مشيت معه إلّا أتاك بشر، ما تذكرته إلّا تذكرت الشر، نعوذ بالله من الخذلان.

فإذاً ربط الله جلَّ في علاه أناساً بالشر ويعرفون بالشر ينأى المرء عنهم، وربط الخير

بأناس جعل الخير معهم وفيهم وبهم فعلى الإنسان أن يسارع في القرب من هؤلاء، نسأل الله جلَّ في علاه أن يجعلنا مفاتيح للخير مغاليق للشر.

الفوائد المستنبطة:

١- إن بعض الأنبياء يمكن أن يرد دعاءهم، كل نبي قريب من الله لكن يرد الله دعاءه، قد قال الله تعالى: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، وقال الله تعالى: ﴿إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾ [الأنبياء: ٢٨]، يعني الله جلَّ وعلا حتى الملائكة لا يقبل شفاعتهم إلّا إذا ارتضى الله جلَّ في علاه، يأذن ويرتضي سبحانه جلَّ في علاه. وهذا يسد الباب على الذين يذهبون إلى محمد فيقولون: يا محمد اشفِ مريضي، يا محمد ارزقني. فيقولون نفعل ذلك لوجاهة محمد عند رب محمد أو يتوسلون به ويجعلون واسطة بينهم وبين الله جلَّ في علاه. نقول حتى النبي -صلى الله عليه وسلم- يمكن أن الله جلَّ وعلا لا يقبل دعاءه، وقد رد دعاءه الله جلَّ في علاه لحكمة عند الله، لا لأنه لا كرامة له، بل هو أكرم الخلق عند الخالق. وهذه من أهم الحكم التي تظهر، أن الله جل في علاه لا غالب على أمره، لا أحد يجبر الله على شيء سبحانه، إذا أراد شيئاً قال له كن فيكون، ﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٢١].

٢- رحمة الله بهذه الأمة، وأن هذه الأمة لا تفنى إلّا يوم القيامة، لا تقوم الساعة إلّا على شرار الخلق. قد قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (لا تزال طائفة من أمتي على الحق ظاهرين لا يضرهم من خالفهم ولا من خذلهم).

٣- عندما أنزل الله هذه الآية ﴿أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ﴾ [الأنعام: ٦٥]؛ قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (أعوذ بوجهك، أعوذ بوجهك، أعوذ بوجهك)، يستعيذ النبي -صلى الله عليه وسلم- بصفة من صفات الله وهي صفة الوجه. هنا هذا الحديث يلمح لنا بإثبات صفة من صفات الله جلَّ في علاه وهي صفة خبرية، صفة الوجه خبرية.

صفات الله قسمان: ثبوتية وسلبية.

❖ الثبوتية: هي التي ثبتت لله في الكتاب أو في السنة، كأن يقول الله: ﴿يَدُ ٱللَّهِ فَوۡقَ أَيۡدِيهِمۡۚ﴾ [الفتح: ١٠]، هذه صفة ثبوتية أثبتها الله في كتابه، وأيضاً أثبتها أهل السنة والجماعة أجمعوا على أن لله صفة وهي صفة اليد، وأثبتها رسول الله -صلى الله عليه وسلم- في سنته، هذا معنى الثبوتية.

❖ السلبية: يعني منفية، نفاها الله عن نفسه في كتابه، ونفاها عنه رسوله في سنته. كأن يقول الله جلَّ في علاه: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ﴾ [فصلت: ٤٦]، نفى عن نفسه الظلم، هذه صفة سلبية نفاها عن الله جلَّ في علاه. أيضاً النبي -صلى الله عليه وسلم- في الحديث القدسي الصحيح في الصحيحين أنه قال: (قال الله تعالى: يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرماً)، إذاً سلبية يعني نفاها الله عن نفسه في كتابه ونفاها عنه نبيه -صلى الله عليه وسلم- في سنته.

القسم الأول في الصفات الثبوتية هي التي ثبتت لله في الكتاب والسنة، لها أنواع ثلاثة يعني كأن هذا جنس والأنواع الثلاثة: النوع الأول صفات خبرية، النوع الثاني صفات ثبوتية ذاتية، النوع الثالث صفات فعلية.

♦ثبوتية خبرية: خبرية ضابطها أنها عندي مسماها أجزاء وأبعاض، مسماها عندي أنا كبشر كمخلوق أجزاء وأبعاض، لكن مسماها للخالق صفات. مثال: اليد جزء مني، إذاً فهي صفة ثبوتية لله، لو قلت يد الله يبقى هذه صفة ثبوتية خبرية. فضابط الخبرية أنها عندي أنا كمخلوق جزء وبعض، لكن عند الخالق لا يقال جزء من الله، لكن تقول صفة من صفات الله، صفات الكمال والجلال. العين جزء مني، لكن إذا قلت عين الله فالعين هنا ليست جزءً من الله لكن هي صفة من صفات الله الخبرية. سميناها خبرية لأننا لا يمكن أن نستطيع أن نصف الله بها إلّا عن طريق الخبر، لأنني لم أرَ الله ولم أرَ من رأى الله ليصف لي الله جلَّ في علاه، فالمسألة كلها محض خبر. الله ذاته هو الذي أخبرنا قال اسمعوا

يا عبادي لي عين ولي يد ولي ساق ولي أصابع ولي أنامل، كما ورد عن النبي -صلى الله عليه وسلم- يصف ربه جلَّ في علاه بهذا الوحي المنزل من فوق سبع سماوات.

فهي خبرية لأنها بمحض الخبر، القياس ما يدخل به. الكلام؛ الرجل الذي لا يستطيع أن يتكلم. إذا مشى بجانب رجل وتكلم معه وما استطاع أن يرد عليه ماذا يقول المتكلم عن الذي لا يتكلم؟ يقول هذا عاجز فيه نقص، فالمتكلم أكمل. بالعقل ممكن أقول بأن الله يتصف بالكلام لأن صفة الكلام كمال، فالعقل ممكن يقر بذلك لكن العقل ما يقر بأن العين كمال أو يد كمال أو الساق كمال، لا مدخل للعقل في ذلك، هي خبرية لأن الأصل فيها الخبر فقط.

♦ الصفات الفعلية: التي هي في أفعال الله، أن الله جلَّ وعلا يستوي، أن الله سبحانه وتعالى ينزل إلى السماء الدنيا، أن الله جلَّ وعلا يقبض ويبسط، أن الله جلَّ في علاه يعطي ويمنع. ضابطها: تستطيع أن تجعل "إن شاء" قبلها، يعني إن شاء فعل وإن شاء لم يفعل، يعني ضوابطها تتعلق بالمشيئة. كالكلام؛ نقول إن شاء تكلم وإن شاء لم يتكلم. هل الله من الأزل يقول لموسى: ﴿إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخۡلَعۡ نَعۡلَيۡكَ﴾ [طه: ١٢]؟ ما تكلم الله بهذه الكلمات إلّا لمّا جاء موسى عند الشجرة وتكلم الله معه. فالصفات الفعلية هي التي تتعلق بمشيئة الله جلَّ في علاه، إن شاء تكلم وإن شاء لم يتكلم.

♦ ثبوتية ذاتية: ثبتت بالكتاب والسنة؛ كالعزة والقدرة، وهذه لابد تكون صفات ثبوتية أزلية أبدية، يعني هي صفات يتصف الله بها من الأزل إلى الأبد؛ كأن تقول: العزة، ما تأتي تقول إن شاء كان عزيزاً وإن شاء لم يكن عزيزاً -حاشا لله-، الله عزيز قبل أن يخلق الخلق. الله رحيم قبل أن يخلق الخلق ويرحمه سبحانه جلَّ في علاه. أزلية أبدية هذه الصفات الثبوتية.

فالوجه من الصفات الخبرية، هذه الصفة صفة كمال وجلال لله جلَّ في علاه، صفة ثبتت لله بالكتاب وفي السنة وإجماع أهل السنة. ﴿كُلُّ شَيۡءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجۡهَهُۥ﴾ [القصص:

٨٨]، ووجه الدلالة من الآية أنه أضاف الوجه، الضمير هذا عائد على الله جلَّ في علاه، فأضاف الوجه لله فهي إضافة صفة لموصوف. وأيضاً قال الله تعالى: ﴿وَٱصۡبِرۡ نَفۡسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥۖ﴾ [الكهف: ٢٨]، ﴿وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ٱبۡتِغَآءَ وَجۡهِ ٱللَّهِۚ﴾ [البقرة: ٢٧٢] فهذه تصريح بصفة الوجه لله جلَّ في علاه لأنه اضاف الوجه لله جلَّ في علاه.

أمّا في السنة فكثير؛ في الحديث في الصحيحين عن أبي موسى الأشعري قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: (إن الله لا ينام) هنا صفة سلبية (ولا ينبغي له أن ينام يرفع القسط ويخفضه)، إلى أن قال: (حجابه النور) الحجاب على وجه من؟ على وجه الله جلَّ في علاه، (لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه) يعني أنوار وجه الله جلَّ في علاه، (لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه) وبصر الله ينتهي إلى كل الخلق. وأيضاً في الصحيحين عن أبي موسى الأشعري عن النبي -صلى الله عليه وسلم- أنه قال: (جنتان من ذهب هما وما فيهما وآنيتهما من الذهب)، قال في آخر الحديث: (وما بين القوم وبين أن يروا ربهم رداء الكبرياء على وجهه)، فهذا اصطلاح أيضاً لوجه الله جلَّ في علاه. وأيضاً الحديث الذي التمسنا منه هذه الفائدة أنه بعد ما أنزل الله عليه الآيات قال: (أعوذ بوجهك)، فاستعاذ بصفة من صفات الله جلَّ في علاه وتوسل بصفة من صفات الله جلَّ في علاه.

إذا ثبتت بالكتاب وثبتت بالسنة وإجماع أهل السنة؛ أجمع أهل السنة والجماعة أن لله وجه يليق بجلاله وكماله، وأمّا كيفيته: الوجه في اللغة معلوم [يعني المعنى معلوم] والكيف مجهول والإيمان به واجب والسؤال عنه بدعة. في كيفية لوجه الله لكن لا نعلمها، الله أعلم بها. فإذاً أثبتنا لله وجه يليق بجلال الله، يليق بكمال الله جلَّ في علاه، والكيفية لا نعلمها، لا نسأل عنها ونؤمن بها يقيناً، ونسأل الله جلَّ في علاه، أن يرزقنا الخير والإخلاص في هذا وأن يعلمنا ما ينفعنا وينفعنا بما علمنا.

ما فائدة أن يؤمن العبد ويعتقد العبد بأن لله وجه؟ أقول إذا علمت أن لربك وجهاً علمت أن الله جل في علاه يسأل بهذا الوجه، يسأل بهذه الصفة، هي صفة من صفات الله تتوسل بها، ولذلك جاء في الحديث (لا تسألوا بوجه الله إلّا الجنة). فإذا اعتقدت أن لربك وجهاً وعلمت أن وجه الله جلَّ في علاه عظيم، وأن النبي -صلى الله عليه وسلم- كان يقول: (أعوذ بوجهك) وكان يعلم أن الدنيا بأسرها السماوات والأرض أشرقت بنور وجه الله جلَّ في علاه، فإنه يعظم ويوقر ويكرم وجه الله بأن لا يسأل به إلّا الجنة (لا تسألوا بوجه الله إلّا الجنة)، ولك أيضاً أن تستعيذ بوجه الله من النار. هذه الفائدة إذا اعتقدت وآمنت بأن ربك له الوجه الكريم، وأن وجه الله جلذَ في علاه صفة تليق بجلال الله وكمال الله.

أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم، جزاكم الله عنا خيراً. سبحانك اللهم ربنا وبحمدك، أشهد أن لا إله إلّا أنت، أستغفرك وأتوب إليك.

باب (كل يوم هو في شأن)

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، وبعد:

عن أبي الدرداء -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله في قوله تعالى: (كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ) [الرحمن:٢٩]، قال: (في شأنه أن يغفر ذنباً ويكشف كرباً ويجيب داعياً ويرفع قوماً ويضع الآخرين)، حديث صحيح.

وعن عامر بن سعد عن أبيه -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: (لعلك أن تخلّف حتى ينتفع بك أقوام ويغرّ بك أخرون).

ما زال يتكلم عن صفات الله جلَّ في علاه لا سيما صفات الربوبية، ويبين لنا ارتباط القدر بصفات الربوبية لأنه من لوازم الربوبية. قال ابن مسعود -رضي الله عنه وأرضاه-: ما بين الأرض والسماء خمسون ألف سنة، وما بين كل سماء وأخرى خمسون ألف سنة... إلى أن وصل إلى السماء السابعة قال: ثم الماء، وما بينه وبين الماء خمسون ألف سنة، والعرش فوق ذلك والله فوق العرش ويعلم ما أنتم عليه. من باب قدرة الله وعزة الله سبحانه جلَّ في علاه أنه لا تخفى عنه خافية، قد قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَآئِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ ﴿١٧﴾﴾ [المؤمنون: ١٧]. أعظم الخلق إيماناً الملائكة، يرون ربهم جلَّ في علاه.

يرفع أقواماً ويخفض آخرين، يعطي هذا ويمنع هذا، يحيي ويميت، يبدئ ويعيد، سبحانه إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون، له كمال القدرة وكمال العزة وكمال الجبروت سبحانه جلَّ في علاه. وهنا يبين لنا النبي -صلى الله عليه وسلم- أن الله جلَّ في علاه من شأنه أن يغفر وأن يرفع وأن يخفض وأن يعطي وأن يمنع، وهذه كما قلت من كمال عزة الله وكمال جبروت الله وكمال غنى الله جلَّ في علاه. في الصحيح عن أبي موسى الأشعري أن

النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: (إن الله لا ينام ولا ينبغي له أن ينام، يرفع القسط ويخفضه، يُرفع إليه عمل الليل قبل النهار ويُرفع إليه عمل النهار قبل الليل، حجابه النور [وفي رواية قال: حجابه النار]، لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه)، وبصر الله ينتهي إلى جميع خلقه جلَّ شأنه سبحانه جلَّ في علاه.

وهذه دلالات واضحة كما قلت على صفات الله العلية سبحانه جلَّ في علاه، وما آمن إلّا من تعرّف على ربه حق المعرفة، من عرف ربه وعرف نفسه هذا الذي تعبد حق العبودية لله جلَّ في علاه. وما زلنا يعلمنا رسول الله -صلى الله عليه وسلم- من صفات الله جلَّ في علاه، وكما قلت يبين لنا كمال غنى الله جلَّ في علاه، كما قال الله تعالى: ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلۡفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ ١٥﴾ [فاطر: ١٥]، وكان كثيراً النبي -صلى الله عليه وسلم- ما يدعو ويقول: (لا ينفع ذا الجد منك الجد)؛ لا ينفع ذا الغنى منك الغنى. فالعبد أفقر ما يكون إلى ربه الغني الذي الغنى وصف له ذاتي والفقر وصف ذاتي للعبد، كما كان يقول شيخ الإسلام ابن تيمية يبين وصف الفقر له ذاتي ووصف الغنى لله ذاتي.

الغرض المقصود هذا من كمال غنى الله جلَّ في علاه، ومن تمام هذا أن نقول إنه من غنى الله جلَّ في علاه أنه لا ينفعه عبادة المتعبدين، ولا ذل المتذللين، ولا خضوع الخاضعين، ولا المتمكنين بين يديه سبحانه جلَّ في علاه، ولا يضره عصيان الفجرة الكفرة بحال من الأحوال كما في الصحيح عن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: (يا عبادي إنكم لن تبلغوا ضري فتضروني، ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني. يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجلٍ منكم ما زاد ذلك في ملكي شيئاً. يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجلٍ منكم ما نقص ذلك من ملكي شيئاً)، فهذا لكمال غنى الله جلَّ في علاه.

وهنا النبي -صلى الله عليه وسلم- في هذا الحديث يفسر لنا الآية ﴿كُلَّ يَوۡمٍ هُوَ فِي

﴿شَأْنٍ ۝٢٩﴾ [الرحمن: ٢٩] ويبين لنا صفات الكمال والجلال والعظمة لله جلَّ في علاه، أن من صفات الله جلَّ في علاه أن يغفر ذنباً وأن يكشف كرباً وأن يجيب داعياً أو يعطي سائلاً وأن يرفع أقواماً ويخفض آخرين. المسائل التي تتعلق بهذا الباب وهو كما قلت في عمدة الكلام على العقيدة، يتكلم النبي -صلى الله عليه وسلم- على صفات الله جلَّ في علاه، وهنا يذكر صفات من صفات الأفعال. والصفات الفعلية هي ناتجة عن فعل الله جلَّ في علاه، تتعلق بالمشيئة، وهي متجددة. يعني لك أن تقول أصلها هي ذاتية الأصل لكنها متجددة فعلية، ضابطها أن تتعلق بالمشيئة، إن شاء فعل وإن شاء لم يفعل.

انظر يقول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (في شأنه)؛ من شأن الله جلَّ في علاه، وهذا من كمال غناه كما سنبين أن (يغفر ذنباً) قل إن شاء غفر وإن شاء لم يغفر، الآيات ظاهرة؛ قال الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ﴾ [الفتح: ١٤]، فهذه دلالة على أنها تتعلق بالمشيئة إن شاء غفر وإن شاء لم يغفر. ولذلك العلماء يقولون في فاعل الكبيرة أو الذي عصى ربه جلَّ في علاه أو غلبت سيئاته على حسناته فهو في مشيئة الله، إن شاء عذبه بهذه السيئات ثم بعد ذلك يلقى في نهر الحياة ويدخل الجنة، وإن شاء غفر له من أول وهلة، فإن هذه صفة من صفات الأفعال تتعلق بالمشيئة. قال: (ويكشف كرباً)؛ إن شاء كشفت وإن شاء ثبت هذا الكرب. فإذاً صفات الفعل هي الصفات التي تتعلق بمشيئة الله جلَّ في علاه، وهي تتجدد، إن شاء فعل وإن شاء لم يفعل.

هنا النبي -صلى الله عليه وسلم- ذكر أكثر من صفة، منها صفة المغفرة، وهذه صفة كمال وجلال لله جلَّ في علاه، يتضمنها اسم من أسماء الله الحسنى وهو اسم الغفور. إن الله جلَّ في علاه من أسمائه الغفور، وهذا الاسم من الأسماء الحسنى لأنه يطابق ذات الله، دلالة على الذات المقدسة، ولأنه يتضمن صفة كمال. هذه الصفة هي صفة المغفرة، بل وتستلزم صفات أخرى كصفة الرحمة والجود وغير ذلك. فهذه الصفة صفة المغفرة صفة كمال لله جلَّ في علاه، ثبتت بالكتاب وثبتت بالسنة وإجماع أهل السنة.

أمّا في الكتاب فقد قال الله تعالى: ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١١٠﴾﴾ [النساء: ١١٠]، وأيضاً يقول الله جلَّ في علاه: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِن يَنتَهُوا۟ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ﴾ [الأنفال: ٣٨]، وقد قال الله تعالى: ﴿هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ﴾ [المدثر: ٥٦]، هذه فيها دلالات من الكتاب على هذه الصفة العظيمة وهي صفة المغفرة لله جلَّ في علاه.

أمّا في السنة فقد أثبتها النبي -صلى الله عليه وسلم- لربه جلَّ في علاه، كما في السنن بسند صحيح أن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: (لو لم تذنبوا لذهب الله بكم وأتى بقوم يذنبون ثم يستغفرون فيغفر لهم)، فأثبت لربه أنه يغفر الذنب فيغفر لهم. وفي مسند أحمد أيضاً بسند صحيح أن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: (أذنب عبد ذنباً فقال: ربي إني أذنبت ذنباً فاغفر لي، فقال الله: عبدي علم أن له رباً يأخذ بالذنب ويغفر، اشهدوا أني قد غفرت له)، فهذه فيها دلالة واضحة جداً على أن النبي -صلى الله عليه وسلم- أثبت لربه هذه الصفة العظيمة.

وأيضاً في بعض الأحاديث عن النبي -صلى الله عليه وسلم- التي في الصحيح أنه قال: (ينزل ربنا ثلث الليل الآخر)، وهذا حديث فيه أكثر من رواية فيه: (ثلث الليل الأول) و (ثلث الليل الآخر)، وما دمنا مع الإخوة طلبة العلم ونذكرهم بهذه المسائل الطيبة، كيف نجمع بين الروايات المختلفة التي أثبتت أن الله ينزل؟ وهذا النزول طبعاً له كيفية لكن لا نعلمها. فينزل ربنا في رواية قال: (ثلث الليل الآخر)، وفي رواية قال: (ثلث الليل الأول) كيف نجمع بين هذه الروايات؟ إذا قلنا ينزل ثلث الأول فنزوله في ثلث الليل الآخر صحيح، أنه يبقى إلى ثلث الليل الآخر، ومن قال في تفسير ﴿إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴿٧٨﴾﴾ [الإسراء: ٧٨]عن الله هو الذي يشهده فإذاً ينزل الله ثلث الليل الأول ويبقى نزوله إلى طلوع الفجر. الغرض المقصود يقول النبي -صلى الله عليه وسلم- وهو يثبت صفة المغفرة، هذه الصفة العظيمة الجليلة التي أعوز ما نكون لها وأحوج ما نكون لها، قال:

(ينزل ربنا ثلث الليل الآخر) أو قال: (في ثلث الليل الأول، فيقول: هل من مستغفر فأغفر له؟ هل من سائل فأعطيه؟ هل من داع فأستجيب له؟)

١-وفي رواية في الطبراني[١] بسند صحيح أنه قال: (هل من مستشفي فأشفيه)، فهذا نزول يليق بجلال الله جلَّ في علاه يثبت لنا صفات المغفرة لله جلَّ في علاه.

أيضاً في الصحيح عن النبي -صلى الله عليه وسلم- أنه قال: (إن الله يبسط يده بالليل) وهي يد حقيقية تليق بجلال الله وكمال الله، (إن الله يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل)، فهذه كلها أدلة تثبت لنا هذه الصفة الجليلة العظيمة لله جلَّ في علاه. وأجمع أهل السنة والجماعة على أن الله جلَّ وعلا يتصف بالمغفرة ويغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء، وهناك أمثلة رائعة يتعرض فيها الصحابة الكرام إلى مغفرة ربهم جلَّ في علاه، ما من أحد إلّا وقد أذنب، ما من أحد إلّا وقد زل، ما من أحد إلّا وله السقطات والهنات، ولذلك يتمنى الإنسان أن يتطلع ويتعرف على ربه بمغفرة الله جلَّ في علاه. ما من ذنب يذنبه العبد إلّا ويجد الظلمة في قلبه، إلّا ويجد الظلمة في وجهه، إلّا ويجد نفسه في هم وغم، فعليه أن يتطلع إلى مغفرة الله جلَّ في علاه.

عمرو بن العاص كان من أذكياء العرب كما سموه داهية العرب، لما أراد أن يدخل الإسلام ومست بشاشة الإيمان قلبه

٢- ذهب إلى رسول الله -صلى الله عليه وسلم-[٢] وبسط النبي -صلى الله عليه وسلم- يده ليبايعه على الإسلام فقبض يده، فقال: (علام يا عمرو؟ فقال: أشترط، قال وعلام تشترط؟ قال: أشترط المغفرة [أي مغفرة الذنوب التي سبقت]، فقال له النبي -

(١) الراوي : عثمان بن أبي العاص الثقفي | المحدث : شعيب الأرناؤوط | المصدر : تخريج المسند لشعيب | الصفحة أو الرقم : ١٧٩١٥ | خلاصة حكم المحدث : صحيح | التخريج : أخرجه أحمد (١٧٩١٥) واللفظ له، والبزار (٢٣٢٠)، والطبراني (٩/ ٤٦) (٨٣٧٥).

(٢) الراوي : عمرو بن العاص | المحدث : الألباني | المصدر : صحيح الترغيب | الصفحة أو الرقم : ١٠٩٧.

صلى الله عليه وسلم-: أما تعلم أن الإسلام يجب من قبله؟)، وهذه فيها دلالة على كأنه وهو في الجاهلية يعلم بهذه الصفة الجليلة لله جلَّ في علاه، فيتعرض لمغفرة الله جلَّ في علاه.

وأيضاً عن ابن عباس أن أناساً كانوا قد قتلوا في الجاهلية وزنوا وسرقوا، فذهبوا للنبي -صلى الله عليه وسلم- فقالوا: الذي تأمر به إنه لجميل لكن نشترط، تكلموا على الزنا والسرقة والقتل. ما مآلنا بذلك؟ ما حالنا؟ ما حسابنا على هذا؟ فأنزل الله جلَّ في علاه ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ۗ﴾ [الفرقان: ٧٠]. فأهل الجاهلية كانوا أفقه منا يتعرضون لمغفرة الله جلَّ في علاه، كانوا يعتقدون أن الله يتصف بهذه الصفة العظيمة، ألا تباً لأهل البدعة الذين ينفون عن الله أسمائه وينفون عن الله صفاته وهي صفات الكمال والجلال.

أقول هذا الباب باب القدر، فإذا كان باب القدر فلابد أن نبين أين الوجهة في القدر في هذه الأحاديث؟ الوجهة هنا أن النبي -صلى الله عليه وسلم- يبين لنا أن النتائج مرتبطة بالأسباب وأن الله جلَّ في علاه جعل المسببات بالأسباب ترتبط ارتباطاً وثيقاً، فإذا كانت المغفرة من الله جلَّ في علاه فجعل الله أسباباً للمغفرة، فإن المرء الذي يتطلع إلى أن يتعرف على ربه بمغفرته سبحانه جلَّ في علاه، فإن العبد الذي يتطلع إلى أن تغفر ذنوبه فلابد أن يتعلم شرعاً، وهذه فضيلة علم الشرع. ما هي الأسباب التي تكون موجبة لمغفرة الذنوب؟ من هذه الأسباب التي توجب المغفرة:

- كثرة الاستغفار: ما بيض أحد صحيفته يوم القيامة وما سعد بها إلّا إذا أكثر فيها الاستغفار، عن ابن عمر كما صح عن النبي -صلى الله عليه وسلم- (أنهم كانوا يعدون للنبي -صلى الله عليه وسلم- في المجلس الواحد أكثر من سبعين مرة يستغفر الله جلَّ في علاه)، بل أكثر بلغ المئة يستغفر الله جلَّ في علاه، وأمر النبي -صلى الله عليه وسلم- عباد الله أن يستغفروا الله جلَّ في علاه في اليوم أكثر من مائة مرة.

• وأيضا من الأسباب التي تكون موجبة للاستغفار صدق التوبة مع الله جلَّ في علاه؛ فإن العبد إذا صدق ربه جلَّ في علاه بالاستغفار غفر الله له، ولو كانت الذنوب بلغت عنان السماء، ولو بلغت زبد البحر، فإن الله جلَّ في علاه إذا علم من قلب العبد صدق التوبة والإنابة والأوبة والاستغفار فإن الله يغفر له. أما رأيت كيف صدقت الغامدية ربها جلَّ في علاه في التوبة؟ أما رأيت كيف صدق ماعز ربه جلَّ في علاه في التوبة؟ ولذلك شهد الله بعد موتهم بأن الله قد تاب عليهم وقبل هذا الاستغفار وقبل التوبة منهم. إن هذه المرأة جاءت إلى النبي -صلى الله عليه وسلم- صادقة الاستغفار صادقة التوبة من قلبها لربها جلَّ في علاه فقالت: يا رسول الله إني حبلى من الزنا، صادقة أرادت أن تتطهر، فعلمت أن إقامة الحد فيه التطهير، فكانت صادقة التوبة والاستغفار والأوبة لربها جلَّ في علاه. فقال لها النبي -صلى الله عليه وسلم-: (اذهبي حتى تضعي)، فكان لها أن تفر وتستر على نفسها وتدعو الله جلَّ في علاه بالاستغفار، لكنها صادقة بالتطهير المادي لإقامة الحد عليها فرجعت بعد ما ولدت فقالت: يا رسول الله طهرني فإني ولدت من الزنا، فقال: (اذهبي حتى ترضعيه)، فأرضعته حتى جاءت فأقام النبي -صلى الله عليه وسلم- عليها الحد حتى رماها خالد بن الوليد -رضي الله عنه وأرضاه- بحجر، فالدماء تناثرت على ثوب خالد بن الوليد، فقال خالد بن الوليد: لعنة الله عليك، هنا شهادة من رب السماوات والأرض على لسان نبيه -صلى الله عليه وسلم- بصدق توبة هذه المرأة الغامدية، فقال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (لا تلعنها، والذي نفسي بيده لقد تابت توبة لو وزعت على أهل المدينة لوسعتهم)، وفي رواية قال: (قد تابت توبة لو تابها صاحب مَكْسٍ [يعني جابي الضرائب] لقبل منه).

وأيضاً ماعز لما جاء للنبي -صلى الله عليه وسلم- يتوب والنبي يرده حتى أقام عليه الحد، وبعدما قتلوه بيّن النبي -صلى الله عليه وسلم- أنه تاب توبة قد قبلها الله منه. فصدق التوبة من الأسباب الداعية أن الله جلَّ وعلا ينظر إلى العبد بعين المغفرة.

• من أهم الأسباب الموجبة لأن ينظر الله إلينا بعين المغفرة كثرة الحسنات الماحية

للسيئات؛ كما صرح النبي -صلى الله عليه وسلم- بأنه قال: (اتق الله حيثما كنت، وأتبع السيئة الحسنة تمحها)، كلما أسأت فأحسن كما قال النبي -صلى الله عليه وسلم- تصريحاً: (فإذا أسأت فأحسن). هذه المرأة من بغايا بني إسرائيل، كانت تضاجع كل ليلة رجلاً، إنها ما فعلت إلّا حسنة تمحو لها كل هذه السيئات، فالحسنة تمحو السيئات وإن كانت قليلة بصدق القلب مع الله جلَّ في علاه تصبح جسيمة وعظيمة، المرأة سقت كلباً شربة ماء فغفر الله لها كل هذه السيئات.

فهذه الصفة الأولى التي قالها النبي -صلى الله عليه وسلم-: (يغفر ذنباً)، و"يغفر ذنباً" هنا إمّا أن نقول عام مخصوص وإمّا أن نقول هو عام، والصحيح الراجح أنه "يغفر ذنباً" هو ما قال بالتوبة يغفر ذنباً، هذه كلها فيما دون الشرك، لأن الله جلَّ وعلا لا يغفر الشرك بحال من الأحوال، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٨]، فهذه عموم يراد به الخصوص. هي عامة فيما دون الشرك، وأقول فيما دون الشرك أقصد به الشرك الأكبر والشرك الأصغر كما حققه شيخ الإسلام ابن تيمية؛ أن الشرك الأصغر أيضاً لا يغفر. وهل صاحبه يخلد في النار؟ لا، لكن يوضع في ميزان سيئاته فإن رجحت كفة الحسنات دخل الجنة وإن رجحت كفة السيئات فهو بمشيئة الله جلَّ في علاه.

ثم ذكر النبي -صلى الله عليه وسلم- صفة أخرى من صفات الأفعال لربنا جلَّ في علاه وهو فوق العرش، يرفع ويخفض كيفما شاء، يعطي ويمنع، يحيي ويميت سبحانه جلَّ في علاه لكمال قوته وجبروته وغناه وعزته، قال: (يكشف كرباً). وهذا من جميل فعال الله جلَّ في علاه، أنه ما ابتلي العبد بالبلايا إلّا والتجأ إلى ربه جلَّ في علاه فرفع عنه هذه البلايا، قال الله تعالى: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلۡمُضۡطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكۡشِفُ ٱلسُّوٓءَ﴾ [النمل: ٦٢]، ولذلك قال الله تعالى: ﴿لَا تَقۡنَطُواْ مِن رَّحۡمَةِ ٱللَّهِ﴾ [الزمر: ٥٣]، وقال على لسان إبراهيم -عليه السلام-: ﴿وَمَن يَقۡنَطُ مِن رَّحۡمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ﴾ [الحجر: ٥٦] فأناط الضلال بمن يقنط

من رحمة الله جلَّ في علاه.

ما من كرب يلم بالأمة أفرادا او جماعات إلا والله جلَّ في علاه سيفرج هذا الكرب وهذا الهم؛ إن النبي -صلى الله عليه وسلم- يقول: (يعجب ربكم)، وفي رواية بإسنادها بعض الضعف لكن يستأنس بها (يضحك ربكم)، فالرواية الأولى وهي الصحيحة: (يعجب ربكم من عباده يقنطون)، الكرب أحاط بهم، البلايا أحاطت بهم (يقنطون وقرب غيره) أو والفرج قريب. يعجب الله جلَّ في علاه من عباده أنهم لو تطلعوا، لو تعرفوا على ربهم حق المعرفة، لو تمرسوا في عبادة الله جلَّ في علاه بصفات الجلال والكمال لله جلَّ في علاه، ما نزل بهم الكرب إلّا وعلموا أن الله سيرفع الكرب، لكن الله جلَّ في علاه يطلع على القلوب المريضة التي لا تثق في ربها جلَّ في علاه، فيبقى المرء في هذا الكرب وهذا البلاء لأن قلبه ليس نظيفاً وليس مستيقناً في ربه جلَّ في علاه. فإن العبد إذا تجلَّت له هذه الصفات يعلم أن فرج الله قريب، كما قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (يعجب ربكم من عباده يقنطون مع قرب غيره).

وقد استنهض الله جلَّ في علاه عباده إلى السعي في تنفيس الكرب، وهذه فيها دلالة على أن الذي استنهض خلقه بذلك هذه صفة فيه سبحانه جلَّ في علاه، إن الله جلَّ وعلا قد استنهض الأمة على تنفيس الكرب وأثاب على ذلك كما قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (من نفّس كربة عن مسلم نفّس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة). إذا كان الله جلَّ في علاه يستنهض الأمة أو يستنهض الخلق بأسرهم ويأمرهم بهذه الصفة الجليلة، فإذاً نقول هذه الصفة يتصف بها الله جلَّ في علاه لأنه مدحها ويثيب من تعبد لله بذلك، فهي صفة من صفات الله جلَّ في علاه.

وقد وصف الله جلَّ في علاه نبيه على لسان خديجة ووفّقها لأن تقول ذلك، تصف نبيه بهذه الصف الجليلة؛ عندما جاء مفزوعاً لمّا رأى جبريل -عليه السلام-، فذهب إليها فقالت: له لا والله لا يخزيك الله أبداً، إنك تصل الرحم. ثم بينت أنه ينفس الكربات،

قالت: إنك لتصل الرحم وتكسب المعدوم وتعين ذا الحاجة. وهذه الصفة ذاتها كانت لأبي بكر -رضي الله عنه وأرضاه-، وعندنا أمثلة رائعة في الصحابة وغير الصحابة تبين لنا كيف تجلَّى الله جلَّ في علاه لعباده بتنفيس الكربات، وفائدة ذلك أن العبد يستيقن أكثر في ربه جلَّ في علاه، يتقرب أكثر لربه جلَّ في علاه، يمتلئ قلبه حباً لله.

أنت كبشر إن كنت في ضائقة فجاءك من البشر من فرّج لك هذه الضائقة، من تعاون معك على أمر يدخل السرور عليك، أحببته من قلبك حباً جماً. فما بالك من ربك جلَّ في علاه الذي يكشف عنك في كل لحظة وفي كل آن وفي كل ثانية، كربات لا يعلمها إلّا الله جلَّ في علاه. الكربة الظاهرة والضائقة الظاهرة عندك يكشفها الله، والتي خفيت أكثر بكثير، والله جلَّ في علا يتجلَّى لك بهذه الصفة العظيمة الجليلة بأن يكشف عنك هذه الكربات.

النبي -صلى الله عليه وسلم- أكرم الخلق على الخالق نزلت به البلايا تتراً، وأعظم ما نزل بالنبي -صلى الله عليه وسلم- وأصابه بالهم العظيم والغم الجسيم حادثة الإفك، فراشه، يتكلم في عرض النبي -صلى الله عليه وسلم-. عندما تكلموا في عائشة -رضي الله عنها وأرضاها- فقد أصاب الكرب والهم العظيم النبي -صلى الله عليه وسلم-، وأصاب الكرب أعظم منه عائشة -رضي الله عنها وأرضاها-، وأصاب الكرب والهم أبا بكر -رضي الله عنه وأرضاه-. فإن النبي -صلى الله عليه وسلم- من الهم والغم ما استطاع أن يقف صامداً إلى هذه الفتنة العظيمة، يسأل علي بن أبي طالب، يسأل أسامة ابن زيد، يسأل الجارية، يذهب إلى عائشة يقول: (إن كنت قد ألممت بذنب فاستغفري فإن الله غفور رحيم)، ويقول: (وإن كنت بريئة فسيبرئك الله)، وما كان يخاطبها غير أنه إذا دخل يقول: (كيف تيكم؟). وأمّا بالنسبة لعائشة الله لها، فإنها كاد يتفطر قلبها وكبدها ورقّ دمعها من عينها لمّا أصيبت وعلمت بهذه الفرية العظيمة، فكانت دائماً تبكي وتقول: ليس لي مثل بيني وبينكم إلّا مثل يعقوب وأولاده، قالت: ﴿وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾

[يوسف: ١٨]، حتى برأها الله جلَّ في علاه ليتجلَّى الله لعباده بهذه الصفة العظيمة الجليلة بأن كشف هذا الكرب عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وعن عائشة -رضي الله عنها وأرضاها-.

ولذلك أم الرومان لمّا دخل النبي -صلى الله عليه وسلم- يهش ويبش ويبين لها كيف تجلَّى الله لها بهذه الصفة العظيمة، يقول لها: (أبشري يا عائش فإن الله قد برأك)، فتقول أم رمان: اذهبي فاشكري رسول الله، فتقول: لا والله. انظر إلى الفقه العظيم تجلَّى الله لها بالصفة فقالت الابتداء في الشكر والتعبد والتذلل، قد تعلمت هذا من صفات الله جلَّ في علاه، قالت: لا والله لا أشكر إلّا الله جلَّ في علاه. وهي تشكر النبي -صلى الله عليه وسلم-، لكن أصالة تشكر صاحب الصفة الله جلَّ في علاه. وكذلك أبو بكر -رضي الله عنه وأرضاه- الكرب العظيم الذي نزل به جعله يقول: لا أنفق على مسطح لأنه خاض مثل ما خاض الناس في عائشة -رضي الله عنها وأرضاها-، فكشف الله عنه الكرب وبين أن هذه من بركات آل أبي بكر. فإن الله أنزل قرآناً يتلى إلى يوم القيامة، كشف عنها الكربة ثم بعد ذلك رفع قدرها يتلى فيها القرآن إلى يوم القيامة، هذا فضل الله جلَّ في علاه يتجلَّى لعباده بهذه الصفة الجليلة.

ليتنا نعرف كيف نتعرف على ربنا جلَّ في علاه، والله إذا أتقن المرء هذا الباب "باب الصفات" ما قنط من رحمة الله قط، ما أساء الظن بربه قط، ما تسخط على قدر الله قط.

هذا كعب بن مالك تخلف وكان قاصداً، تخلف عن غزوة تبوك، ولمّا تخلف هجره النبي -صلى الله عليه وسلم-، كان يستطيع أن يلحن بالقول فيعذره النبي -صلى الله عليه وسلم- مع هؤلاء المنافقين لكنه صدق وعلم أن الصدق منجاة، فتكلم مع النبي -صلى الله عليه وسلم- بالصدق هجره النبي -صلى الله عليه وسلم- وأمر أصحابه أن يهجروه، فما أحد كان يراه ويكلمه. يذهب إلى النبي -صلى الله عليه وسلم- يقول: أدخل المسجد، كاد يتفطر قلبه، أدخل المسجد فأنظر إلى رسول الله فأسلم عليه فيتمتم يحرك شفتيه، ما

أعرف يرد علي السلام أو لا يرد علي السلام. يذهب إلى ابن عمه ويتسور السور ويسلم عليه ويقول السلام عليكم ورحمة الله، ويدير وجهه عنه ويبكي ويرجع إلى بيته. وهذه الكربة قد أحاطت به كما وصف جلَّ وعلا وصف بديعاً في كتابه ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَرۡضُ بِمَا رَحُبَتۡ﴾ [التوبة: ١١٨]، حتى انه كاد يفتن في دينه. فأنزل الله جلَّ في علاه تفريج الكربة ونفّس الله عنه هذه الكربة، فقد تجلَّى له بهذه الصفة العظيمة، حتى نزلت الآيات تبين توبته فيذهب متهللاً مستبشراً بهذه الآيات، فيقوم طلحة فيسلم عليه ويهنئه بهذه التوبة التي نزلت من فوق سبع سماوات.

تجلَّى الله جلَّ في علاه لعباده بهذه الصفة، فمن تعرف على هذه الصفة يصمد أمام البلايا ولا يفتن في دينه بحال من الأحوال، لأنه أحسن الظن بربه جلَّ في علاه، وقد تعرف على ربه بصفاته.

أيضاً من الأمثلة الرائعة التي تبين لك كيف ثبت الله من تعرف عليه حق المعرفة بأنه تجلَّى له بهذه الصفة العظيمة، يكشف له الكربة؛ الأحزاب تألب العرب جميعاً بسبب اليهود على رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وأرادوا الفتك بهذه الدعوة، وأرادوا تقويض أركان الدولة الإسلامية وقتل رسول الله وقتل كل من حول رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، فالأمر كان أشد ما يكون على أصحاب رسول الله. قد وصفهم الله وصفاً بديعاً، أنهم جاؤوا من فوقهم ومن أسفل منهم حتى زاغت القلوب والأبصار، كادت القلوب تبلغ الحناجر، كان أحدهم يقول إن رسول الله يبشرنا بكنوز كسرى وقيصر وأحدنا لا يستطيع يقضي حاجته، من شدة الكرب الذي ألم بهم. فتجلَّى الله لهم بهذه الصفة العظيمة، وكانوا قبل يثقون في الله جلَّ في علاه جزاءً وفاقاً وأجراً طباقاً، فتجلَّى الله لهم بهذه الصفة العظيمة فكشف عنهم الكرب. ﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِغَيۡظِهِمۡ لَمۡ يَنَالُواْ خَيۡرٗاۚ﴾ [الأحزاب: ٢٥]، لم ينالوا شيئاً بحال من الأحوال من المؤمنين، هذا من فضل الله على العباد ومن كشف الكربات عن المسلمين، يتجلَّى الله لنا بذلك.

صلح الحديبية كان أشد ما يكون على الصحابة، صلح الحديبية كانوا يرون أنهم في قوة وقريش تمنعهم من الطواف بالبيت، وما جاءوا مقاتلين، جاءوا من أجل الحج ومن أجل أن يتمسكوا بالله جلَّ في علاه، ومع ذلك فإن قريشا قد منعتهم من دخول المسجد الحرام. ثم بعد ذلك أرادوا مع النبي -صلى الله عليه وسلم- أن يجعلوا هذا الصلح، وهذا الصلح كانت فيه الشروط المجحفة على رسول الله وعلى أصحاب رسول الله. ما هي الشروط المجحفة على رسول الله وأصحاب رسول الله في صلح الحديبية؟ لو ارتد أحد من المسلمين إلى الكفار لا يرده إلى النبي -صلى الله عليه وسلم-، إذا أسلم أحد منهم وذهب إلى رسول الله لا بد أن يرده، وأن يرجعوا دون أن يطوفوا بالبيت. لكن كان أشد الشروط إجحافا عليهم هو هذا الشرط، لا سيما الكرب نزل بالمسلمين وأحاط بهم من جميع الجهات وجاء أبو جندل يقف أمام النبي -صلى الله عليه وسلم- مسلسلاً ويأخذه ويأخذ بعنقه أبوه سهيل بن عمرو، فيقول للنبي -صلى الله عليه وسلم-: أتردوني لهم وقد أسلمت؟ وتعرفون أنهم يفتنونني في ديني؟ والنبي -صلى الله عليه وسلم- يقول: (سيجعل الله لك فرجاً ومخرجاً).

لكن اشتد الأمر على عمر ما استطاع أن يتصور هذه المسألة وهو يذهب إليه ويعرض له بالسيف، وهو يقول يعني كلب وقتل، يعرض على سهيل -رضي الله عنه وأرضاه- والحمد لله أنه قد أسلم. فعمر بن الخطاب يذهب للنبي -صلى الله عليه وسلم- يقول: يا رسول الله ألسنا على الحق؟ يقول: بلى، أليسوا على الباطل؟ يقول: بلى، يقول: فلِمَ نعطي الدنية في ديننا؟ الكرب اشتد على الصحابة، لكن الثبات والرسوخ ومعرفة الله حق المعرفة تجلَّت في رسوخ وثبات الرسول -صلى الله عليه وسلم- وأيضاَ أبي بكر -رضي الله عنه وأرضاه-، فتجلَّى الله لهم بهذه الصفة العظيمة، فنفّس كربهم بعدما انصاعوا وأطاعوا رسول الله وحلقوا ورجعوا سمّاه الله فتحاَ، ودخلوا إلى مكة فاتحين مكافأة من الله لهم. فهذه دلالات واضحة على أن الله جلَّ في علاه فوق عرشه يدبر أمر السماوات والأرض، (يكشف كرباً).

العصور المتأخرة ورد فيها ما ورد من الملمات والبليات أشد ما ترون، الآن نزلت على الأمة الإسلامية؛ التتار قتلوا ملايين من بغداد وأسقطوا الخلافة وقتلوا الخليفة وعاثوا في الأرض فساداً، بل يقال إن نهر دجلة أو الفرات امتلأ بالمحابر والكتب التي أحرقت، وقتل العلماء من التتار. هذه بلية ليست بعدها بلية، كرب ليس بعده كرب على المسلمين، لكن لّما كان في الأمة طائفة تعبد الله حق العبادة، تتعرف على الله حق المعرفة، تثق بالله حق الثقة، تستيقن في ربها حق اليقين أن الله جلَّ في علاه نفّس هذا الكرب على يد قطز في عين جالوت بأن هزم الله لهم التتار، فهذه أيضاً من دلالات كشف الكرب من فعل الله جلَّ في علاه.

ثم قال: (ويجيب داعياً)؛ هذه الصفة تكلمنا عنها الأسبوع الماضي وبينا آداب الدعاء، وكيف أن الله جلَّ وعلا لا يرد سائلاً بحال من الأحوال.

الصفة الأخيرة قال: (ويرفع قوماً ويضع آخرين)، هي يعز أقواماً ويذل آخرين كما قال الله تعالى: ﴿أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ [النساء: ١٣٩]، وكما بعث علي ابن أبي طالب أو غير علي بن أبي طالب يقول وينصح بعض التابعين: من كان الله معه فمن عليه؟. فمن رفعه الله فلن تجد أحداً ينزله بحال من الأحوال ولو اجتمع من بأقطارها، ولو أنزل الله قوماً أو وضع قوما لن تجد أحد يرفعه من هذه المكانة، قال الله تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ ۖ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾﴾ [آل عمران: ٢٦]. انظر إلى فعل الله جلَّ في علاه بالروم وفعل الله بالفرس، إن الله جلَّ في علاه رفع الروم في آخر الأمرين ووضع الفرس، ثم بعد ذلك رفع أهل الإسلام.

إذاً العزة بيد الله والرفعة بيد الله جلَّ في علاه، وقد جعل الله لها أسباباً وهذا أيضاً من باب الإيمان بالقضاء والقدر، لا تكن نائماً على سريرك وتقول سيرفعنا الله لأننا مسلمون، لا تحسبن باسمك أنك محمد أو أحمد او أبو بكر أو عمر بأن الله جلَّ في علاه سيرفعك أو

يعزك بذلك، لا والله، لا تنام على سريرك وتحسب أنك سترتفع، لا والله. لابد من الأخذ بالأسباب، فإن كانت العزة بأسرها بيد الله جلَّ في علاه والرفعة بأسرها بيد الله، فإن الله جلَّ في علاه تعبدنا بأن نأخذ بالأسباب وهذا من باب الإيمان بالقدر حتى نرتقي إلى هذه المنزلة.

الأسباب التي ترفع المرء وتعزه هو التمسك بهذا الدين، إن الله جلَّ في علاه قد أناط العزة في التمسك بهذا الدين، فإن ابتغينا العزة في غير هذا الدين لابد أن تأتينا الذلة، كما قال النبي -صلى الله عليه وسلم- عن هذا الدين: (لا يترك بيت مدر ولا وبر إلّا دخله بعز عزيز أو بذل ذليل)، وإن النبي -صلى الله عليه وسلم- في غزوة الأحزاب أو غزوة الخندق ضرب الكدية ثم قال: (الله أكبر أعطيت الكنزين الأحمر والأصفر). فمن تمسك بهذا الدين ارتقى وقاد وساد، وهذه الأمة قد قادت وسادت وكان لها مطلق الريادة في مدة وجيزة من عمر الزمن لأنهم تمسكوا بهذا الدين.

عمر بن الخطاب اللهم فرج بيت المقدس على يد لا يمكن أن نتسلم مفاتيح بيت المقدس إلّا بيد عمر بن الخطاب أو من سار على درب عمر بن الخطاب. هيهات هيهات لمن يحلم أن يتسلم هذه المفاتيح إلّا أن يسير على درب هذا الرجل. عمر بن الخطاب عندما بعثوا إليه ليفتح الله عليه بيت المقدس، ردها الله للمسلمين سالماً وجعلنا نصلي في هذا المسجد العظيم المبارك، فإن عمر بن الخطاب ركب مع خادمه يركب تارة ويمشي تارة، يتناوب مع خادمه. انظروا هذا هو أمير المؤمنين، يركب تارة ويمشي تارة، وفي المرة أو النوبة التي جاءت أنه الذي يمشي والخادم يركب، وأبو عبيدة بن الجراح ينظر مندهشاً من هذا؟ عمر بن الخطاب؟ ثم بعد ذلك صادف مخاضة [بركة من الماء] فتأبط نعله [يعني أخذ النعل ووضعه تحت إبطيه] ومشى حافياً فنظر أبو عبيدة بن الجراح فقال: يا أمير المؤمنين ما يسرني أن يراك القوم وأنت على هذه الهيئة، وهو من؟ أمير المؤمنين، يقول عمر بن الخطاب: إيهٍ يا أبا عبيدة! انظروا إلى التأديب من عمر، ومع التأديب يعرف فضله هو يريد أن يؤنبه ويؤسس له أمراً قد زل فيه، ومع ذلك يعرف فضله ويعرف مكانته، عمر بن

الخطاب في مرض موته قال: والله والذي نفسي بيده لو كان أبو عبيدة حياً لسلمته الخلافة، لفضله ولمكانته. فقال: إيهٍ يا أبا عبيدة! لو قالها غيرك لصفعته؛ لكن أنت ما أستطيع أن أفعل معك شيئاً لأن النبي -صلى الله عليه وسلم- قد وصف أن لكل أمة أميناً وأمين هذه الأمة أبو عبيدة بن الجراح.[1]

فقال: إيهٍ يا أبا عبيدة! لو قالها غيرك لصفعته، -هنا الشاهد-: (كنا أذل قوم فأعزنا الله بهذا الدين، فلو ابتغينا العزة في غيره أذلنا الله). تكتب بهاء العين، بل تحفر على الصدر بماء الذهب، يقول: (كنا أذل قوم فأعزنا الله بهذا الدين، فلو ابتغينا العزة في غيره أذلنا الله)؛ فمن أراد العزة ورام الرفعة والقيادة والسيادة وأن ترتقي الأمة على عرشها المسلوب منها لابد من التمسك والعض بالنواجذ على هذا الدين، ﴿أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ [النساء: ١٣٩]، فمن أراد العزة فعليه بالتمسك بهذا الدين العظيم الجليل.

أيضاً من الأسباب التي تكون فيها الرفعة والعزة لهذه الأمة العلم بنوعيه، لكن أصله علوم الشرع. فالأمة التي تهتم الاهتمام البالغ بالعلم ترتقي المنازل العلا في الدنيا وفي الدين، والكلام الذي بصدده نحن الآن هو الكلام على أن العزة بحق هي عزة العلماء، قال الله تعالى: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾ [المجادلة: ١١]. وإن عمر ابن الخطاب سأل عن الوالي في مكة فقالوا فلان، قال: مولى من الموالي أم من الأحرار؟ قالوا: مولى من الموالي، قال: تركت عليها مولى من الموالي؟ قال: إنه يحفظ القرآن ويتعلم المواريث، وذكر أشياء مما تعلمها هذا المولى، فقال: صدق الله، إن الله يرفع بالقرآن أقواماً ويضع آخرين. عبد أسود بعدما حرر ما وجد عملاً يشتغل به ليكسب ليترزق، فقال العلم، مالي إلّا العلم، فجلس في مجالس العلم فتعلم وأتقن، فبعدما أتقن وسعت له المجالس، جلس يحدث الناس فيبعث إليه أمير المؤمنين أن ائتنا نتعلم منك، قال: مجالسنا

(١) الراوي: أنس بن مالك | المحدث: الألباني | المصدر: صحيح الجامع | الصفحة أو الرقم: ٥١٦٢ | خلاصة حكم المحدث: صحيح | التخريج: أخرجه البخاري (٤٣٨٢)، ومسلم (٢٤١٩) باختلاف يسير.

معروفة ومن أرادنا فليأتنا. هذا يرد على من؟ على أمير المؤمنين العبد الأسود، ما الذي أعزه؟ ما الذي جعله في هذه الرفعة والمكان العالية؟ هو أنه أخذ بأسباب العزة التي أناط الله بها العزة.

إن الله جلَّ في علاه جعل أسباباً، العزة بيده لكن جعل لها أسباباً، من هذه الأسباب كما قلت بعد التمسك بدين الله جلَّ في علاه أن يرتقي المرء في درجات العلم. ألم ترَ كيف رفع الله بلالاً الحبشي وقد وضع أبا لهب النسيب قرشي، وأيضاً قد رفع الله سلمان وصهيب ووضع الله جلَّ في علاه أبا جهل الحسيب النسيب هذا.

آخر ما يمكن أن يقال في هذه الصفات التي كررها النبي -صلى الله عليه وسلم- أو أراد أن يعلمنا كيف أن الله يتجلَّى لنا بهذه الصفات الجليلة العظيمة: صفات المغفرة وكشف الكرب، صفات إجابة الداعي، وأيضاً أن العزة بأسرها بيد الله جلَّ في علاه.

الفوائد المستنبطة:

١- السنة علاقتها بالقرآن أنها مفسرة، وأولى التفسير كما قال العلماء تفسير القرآن بالقرآن، ثم تفسير القرآن بالسنة. قال الله جلَّ في علاه: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴿٢٩﴾﴾ [الرحمن: ٢٩]، فجاء النبي -صلى الله عليه وسلم- يفسر لنا: ومن شأن الله أن يغفر الذنب وأن يرفع قوماً ويضع آخرين ويكشف كرباً ويجيب داعياً.

٢- إن هذا الحديث العظيم يدل لنا على كمال رحمة الله جلَّ في علاه وكمال جوده وكمال عطائه وكمال قوته وقدرته، كل واحدة من هذه ركبها على الحديث وقل لي أين الشاهد من هذا؟ هذا الحديث يدل على كمال رحمته وجوده وعطائه وكمال قدرته سبحانه وتعالى؛ وكمال رأفته بعباده أنه (يغفر ذنباً)، من تمام رحمة الله جلَّ في علاه ألّا يؤاخذ بالذنب بل يغفر الذنب، وهذا من جميل فعال الله جلَّ في علاه يستر ويغفر ويرحم. (ويكشف كرباً) هذا من كمال رحمته وقدرته وقوته وجبروته، لأنه لا غالب لله جلَّ في علاه، ولو كانت الكربات بلغت إلى عنان السماء فإن قدرة الله جلَّ في علاه إنما إذا أراد شيئاً يقول له كن

فيكون.

٣- وجوب المسارعة إلى مرضاة الله جلَّ في علاه بالإيمان بالقدر، يعني بسبب الإيمان بالقدر تتمثل في ذلك بما قاله أبو بكر وغير أبو بكر، قالوا: (ما اجتهدنا حتى تعلمنا القدر)، يعني اشتد اجتهادنا في القرب من الله بعد ما تعلمنا القدر. من أين هذه الفائدة؟ قدر الله رفع أقواماً وخفض آخرين، قدر الله مغفرة الذنوب، قدر الله إجابة الدعاء. فلا يمكن أن رجلاً ينام على سريره ولا يرفع يديه يدعو الله متذللاً خاضعاً متمسكاً ونقول سيجيب الله دعاءه، أين الدعاء حتى يجيب الله دعاؤه؟ هذه دلالة على أن الله ربط النتائج بالأسباب، فإنه إذا أجاب داعياً لابد أن يتواجد هذا الداعي حتى يجيب ولابد أن يتواجد هذا السائل حتى يعطى.

سؤال: يقول علمه بحالي يغنيه عن سؤالي؟

جواب: هذا خطأ فاحش لأن الله جلَّ في علاه قد شرف عباده، وبيّن أن أكرم الخلق عليهم وبيّن أن أفضل العباد منزلة هم الأنبياء، أفضل ما هم فيه أنهم يتذللون لله جلَّ في علاه ﴿وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا﴾ [الأنبياء: ٩٠]. يقول علمه بحالي يغنيه عن سؤالي، هذا كلام خطأ فاحش، كأنه يزهد ويزدري أن يتذلل لله جلَّ في علاه، ما له في حلو المناجاة عبادة فوق العبادة عندما يتذلل ويعلم الفقر وصف ذاتي له وأن غنى الله جلَّ وعلا وصف ذاتي له، فإنه يتقرب إلى الله جلَّ وعلا قرباً لا يجده في الذي لا يدعو، بل يتذلل إلى الله جلَّ في علاه ويشتاق قلبه إلى رؤية ربه جلَّ في علاه الذي نفّس عنه هذه الكربة.

٤- (يغفر ذنباً ويكشف كرباً ويجيب داعياً، يرفع أقواماً ويضع آخرين) فيها عموم وخصوص؛ (يغفر ذنباً) كما قلنا إلّا الشرك، (يكشف كربا) صراحة هذا على العموم هذا للمؤمن والكافر، يعني يكشف كرب الكافر؟ نعم يكشف كربات الكفرة، فإن صدقوا في الدعاء فإن الله يكشف عنهم الكربات، فقد قال الله تعالى عموماً: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ﴾ [النمل: ٦٢]، فهذا على الجميع. والله جلَّ وعلا وصف لنا ﴿هُوَ

ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٢٢﴾ [يونس: ٢٢]، فهنا عندما دعوا الله جلَّ في علاه مخلصين له الدين، الله جلَّ وعلا يستجيب لهم هذا الدعاء فيكشف الكربة وإن كانوا على الكفر، (ويجيب داعياً) نفس الأمر كما قلنا. (ويرفع أقواماً ويضع آخرين) هذا عام مخصوص، لأنه لا يرفع إلّا الخاصة الذين هم أقرب إلى ربهم جلَّ في علاه.

الباب القادم إن شاء الله سنتكلم عنه مع الباب الذي بعده ودعوة المظلوم ولو كان كافراً، للتصريح عن حديث ابن عمر -رضي الله عنه وأرضاه- أنه بيّن أن الله جلَّ في علاه يستجيب للمظلوم ولو كان فاسقاً ولو كان كافراً.

(وآخرون منهم لما يلحقوا بهم وهو العزيز الحكيم)
باب في ذكر قوله عليه السلام: (العين تسبق القدر)

ما زلنا مع عصب العلم وقوته وعزته وهو علم العقيدة، وعلم العقيدة فيه ما هو فرض عين وفيه ما هو فرض كفاية، وإن كان بعضهم يرى بأن علم التوحيد فرض عين على الأمة بأسرها، الصحيح كما فصلنا. وهذا العلم هو أشرف العلوم لأنه يتعلق بالله جلَّ في علاه، وليس أحد أشرف من الله جلَّ في علاه، وقلب علم العقيدة في القدر، وقد تكلمنا عن القدر وبيّنا أنه من أهم أبواب الإيمان وأهم أبواب العقيدة، وكما قال ابن عبد البر: علم القدر سر من أسرار الله جلَّ في علاه، أخفاه عن البشر، لم يطلع عليه ملك مقرب ولا نبي مرسل، يعرفه الناس حين دخول أهل الجنة الجنة وأهل النار النار. فعلم القدر أو العلم في أبواب القدر من أدخل عقله فيها زل وتخبط واحتار وضاع وضيع نفسه وأفسد ولن يصل إلى شيء؛ علم القدر: أن تؤمن بالله جلَّ في علاه بأنه الرب المدبر الذي كوّن هذا الكون وجعل للجنة أهلاً وجعل للنار أهلاً كما سبق وفصلنا في ذلك.

نحن ما زلنا مع أبواب القدر وأهمية هذا الباب، ولذلك أطال المصنف النفس في الكلام على أبواب القدر حتى يتقن الناس هذا الباب، لأنه كما قلت هذا الباب فيه قمة العقيدة وفيه قمة الإيمانيات، قوة الإيمان لا تأتي إلّا من باب القدر، قوة التوكل لا تكون إلّا من باب القدر، قوة اليقين في الله جلَّ في علاه لا يأتي إلّا من باب القدر، وبالتالي الخضوع والذل والخشوع والتعبد لله جلَّ في علاه لا يكون إلّا بالإيمان بالقدر. كما قال بعض الفقهاء من فقهاء الصحابة: ما ازددت طاعةً واجتهاداً في الطاعة إلّا بعد ما تعلمت أبواب القدر. (اعملوا فكل ميسر لما خلق له)، هذا من الفقه العظيم في أبواب القدر أنه إذا وفق لعمل خير، كأن الله قد كتبه في الأزل أنه من أهل الخير فاجتهد اجتهاداً عظيماً حتى يثبت عند ربه جلَّ في علاه أو عند الملائكة بأنه من أهل الخير.

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، وبعد:

باب في قوله تعالى

﴿وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا۟ بِهِمْ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٣﴾ [الجمعة: ٣]

عن سهل بن سعد -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم- (إن في أصلاب أصلاب أصلاب أصلاب رجال من أصحاب الرسول رجالاً ونساءً من أمتي يدخلون الجنة بغير حساب)، ثم قرأ: ﴿وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا۟ بِهِمْ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٣﴾ [الجمعة: ٣]، وإسناده صحيح. هو طبعاً في هذا الباب يشوق السامع كأنه يقول سأذكر لك جملاً أيضاً من أبواب القدر، ثم شوق السامع بذكر قطعة من الآية قد ذكرها النبي -صلى الله عليه وسلم-، وكأن السامع يقول وما علاقة هذه الآية بأبواب القدر؟ ولِمَ يذكر هذه الآية؟ هل ذكرها النبي -صلى الله عليه وسلم-؟ ثم أتبع بعد ذلك بأن النبي -صلى الله عليه وسلم- استدل بها على ما قرره في أن الأمر من أصلاب أصلاب رجال من أصحاب رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يكونون في الجنان، وسيأتي شرحه إن شاء الله.

باب في ذكر قوله -عليه السلام-: (لو قلت إن شيئاً سابق القدر لقلت العين تسبق القدر):

عن أبي هريرة -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: (لو قلت لشيء يسبق القدر لقلت العين تسبق القدر)، حديث صحيح.

وعن عبد الرحمن بن جابر بن عبدالله عن أبيه -رضي الله عنه وأرضاه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: (أكثر من يموت من أمتي بعد كتاب الله عز وجلَّ وقضائه وقدره بالأنفس يعني العين)، يعني الحسد كما سنبين.

في الباب الأول يقول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (إن في أصلاب أصلاب أصلاب أصلاب رجال من أصحاب الرسول رجالاً ونساءً من أمتي يدخلون الجنة بغير حساب)؛

يشير على أن الله جلَّ في علاه قد فرغ من العباد، وإن الله جلَّ في علاه قد كتب أهل الجنة في الجنة وأهل النار في النار لا يزاد على ذلك ولا ينقص، كما في حديث عبد الله بن عمرو بن العاص -رضي الله عنه وأرضاه-: (أن النبي -صلى الله عليه وسلم- أخرج كتاباً فقال: هؤلاء هم أهل الجنة بأسمائهم وأسماء آبائهم وختم على ذلك، وهؤلاء [في كتاب الذي في شماله] من أهل النار بأسمائهم وأسماء آبائهم وختم على ذلك فقد فرغ ربكم من العباد)، كتب أهل الجنة في الجنة وكتب أهل النار في النار. ولذلك كثيراً ما تسمع أنهم يقولون الشقي من كان قد شقي في بطن أمه، إن الملك يكتب (رب أي الأجل؟ رب أي الرزق؟ شقي أم سعيد؟)، فهذه فيها دلالة واضحة جداً إن الله جلَّ وعلا قد فرغ من العباد، قد فرغ من أهل الجنة ومن أهل النار.

وهنا النبي -صلى الله عليه وسلم- يبين لهم نبوءة؛ أنتم وإن كنتم من أهل الجنة، في أصلاب أصلاب أصلاب أمثالكم سيكونون معكم في الجنة، يعني أحفاد أحفاد أحفادكم سيكونون معكم في الجنة، قد فرغ الله جلَّ في علاه من العباد. والإشارة هنا تبين أنهم لم يخلقوا حتى الآن، لم يعملوا خيراً قط، لم يخرجوا إلى دنيا الواقع حتى نقول أحسنوا أو أساءوا، الحسنات قد غلبت على السيئات، لا، وهم في الأصلاب قد كتب الله أنهم من أهل الجنان. وهذه هي الإشارة من النبي -صلى الله عليه وسلم-، لكن الصحابة رضوان الله عليهم كانوا أفقه منا وأحرص منا على الخير وأسرع منا إلى الطاعة، لمّا يستمعون هذه الكلمات وهذه البشارات لا يسكتون، ترى الهمم تعلو وترى القلوب تشتاق إلى هذه المنزلة العظيمة، وكأن النبي -صلى الله عليه وسلم- يستنهض الهمم كأنهم يقولون: يا رسول الله من يدخلون الجنة بغير حساب؟ من أول وهلة يدخلون الجنة؟ ما صفات هؤلاء؟ ما سمات هؤلاء؟ يدخلون الجنة ولِمَ لا نكون منهم؟ ولِمَ لا يكون أحفادنا وأحفاد أحفادنا منهم؟

فكأن النبي -صلى الله عليه وسلم- أيضاً بهذه النبوءة يستنهض الأمة أن يترسموا

خطى هؤلاء، لعلهم يفوزوا كما فازوا، لعلهم إذا ساروا على دربهم يكونون من أهل الجنان من غير حساب. ولذلك في بعض الأحاديث أن النبي -صلى الله عليه وسلم- ذكر أن من أمته من يدخل الجنة بغير حساب ولا عذاب فباتوا يدكون، هذا وصف دقيق جداً يبين لك كيف همة الصحابة، ليسوا كأمثالنا، ليسوا على سبات عميق ولا أنهم يزهدون في نعم الله جلَّ في علاه. لا والله، لّما سمعوا ذلك باتوا يخوضون ويدكون من هؤلاء؟ ما صفات هؤلاء؟ نحن ام أولادنا أم غير هؤلاء؟ سيخرج النبي -صلى الله عليه وسلم- ليبين لهم الصفات والسمات التي بها يحوز المرء ويفوز ويحظى بهذه الفضيلة العظيمة، علكم إذا نفذتم ما قيل لكم، إذا اتسمتم، إذا وصفتم بهذه الصفات تدخلون أو تفوزون كما سيفوزون.

أولاً لتشرئب الأعناق ولتهتم القلوب ولتشتاق الأنفس النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: (يدخلون الجنة على صورة القمر) كل واحد منهم أجمل من القمر، كما قال جابر بن سمرة يصف جمال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (نظرت إلى وجه رسول الله ونظرت إلى القمر، فإذا برسول الله أجمل من القمر). يوم القيامة هؤلاء السبعون يدخلون الجنة، كل واحد منهم كالآخر كالقمر، صورته على صورة القمر. والأعجب من ذلك أيضاً يشوق النبي -صلى الله عليه وسلم- الناس ليرتقوا إلى هذا المرتقى الصعب، يقول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (لا يدخل أولهم إلّا حتى يدخل آخرهم)، يشبك بعضهم بيد بعض، يأخذ الأول بيد الآخر، هم صف. يعني تخيل معي هؤلاء لا يحاسبون، الله جلَّ وعلا يأمر أنهم يدخلون الجنان فيكونون صفاً صفاً، كل منهم آخذ بيد أخيه، كلهم على قلب رجل واحد، لّما اتفقوا في أفعال القلوب أصبحوا على قلب رجل واحد في الظاهر وفي الباطن، فهم المتوكلون بحق كما سنبين، كل منهم عندما اتفق مع أخيه في الباطن فاتفق معه في الظاهر، كل يأخذ بيد أخيه فيدخلون جميعاً صفاً إلى الجنان على صورة القمر.

ولِمَ اشرأبت النفوس من هؤلاء؟ ما صفات هؤلاء؟ هل نحن منهم؟ هل نكون كأمثالهم؟ فقال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (هم الذين لا يسترقون ولا يتطيرون ولا

يكتوون) هذا نفي سلب، ثم إثبات: (وعلى ربهم يتوكلون)، هذه الصفات كلها تنصب في الصفة الرابعة. فذكر النبي -صلى الله عليه وسلم- لهم صفات أربع، هذه الصفات الأربع هي السبب في أنهم لا يحاسبون يوم القيامة. لك أن تتخيل يوم القيامة الناس غرقى في عرقهم كما يصف النبي -صلى الله عليه وسلم- يهرولون إلى الله جلَّ في علاه إلى أرض المحشر؛ العرق إلى قصبة الرجل، العرق إلى الكعبين، العرق إلى الركبة، العرق إلى الحقوين، إلى الوسط، العرق إلى الصدر، ومنهم من يلجمه العرق إلجاماً وكل يريد النجاة. وهؤلاء لا يحاسبون يدخلون وإشعاع النور من وجوههم تنبثق، ويدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب، لِمَ؟

❖ لأنهم لا يسترقون: هذه الصفة الأولى المهمة جداً، (لا يسترقون) بحثها كثير من العلماء، أي أن التداوي خلاف الأولى، وهذا البحث صراحة غير دقيق، نحن لا ندخل في مسألة فقهية. العلماء يقولون هل الأولى التداوي أم لا؟ هل التداوي هو الأفضل أم ترك التداوي وتمام التوكل في ترك التداوي؟ هذه المسألة لا ندخل فيها لكن نعبر عليها. كثير من العلماء يرون أن ترك التداوي أفضل لأن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: (لا يسترقون)، والرقية من التداوي. النبي -صلى الله عليه وسلم- لمّا نظر إلى امرأة بها نظرة الجن قال: (استرقوا لها) وأمر بالرقية، ورقاه جبريل، وهو رقى بأبي هو وأمي. فيرون أن النبي -صلى الله عليه وسلم- رقى، لكنه أمر بعدم الأخذ بالرقية لأن هذا يعتبر قدح في تمام التوكل.

قال: (لا يسترقون)، فقالوا إذاً عدم التداوي هو الأفضل والتوكل على الله يمنع من التداوي، ولذلك أبو بكر في مرض موته قالوا له: يا أبا بكر ألا نستدعي لك الطبيب؟ قال: لا، الطبيب قد رآني. قالوا: وماذا قال لك؟ قال: قال لي إني فعال لما أريد، ولم يرضَ بالتداوي. وقد أجمعت الأمة على فعل أبي بكر، ولم نجد مناهضاً لأمر أبي بكر ولا لفعل أبي بكر ولا مخالف له، دلالة على أن هذا هو الأفضل، وهذا الذي ركن إليه الأحناف.

أمّا كثير من المحققين يرون أن التداوي أفضل لأن هذا من فعل النبي ومن قول النبي تأكيداً، قد قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (تداووا عباد الله ولا تتداووا بحرام)، وهذا الأرجح التداوي هو الأفضل، قال: (تداووا عباد الله ولا تتداووا بحرام، فإن الله ما أنزل داء إلّا أنزل له دواء)، واحتج الآخرون بأن النبي -صلى الله عليه وسلم- تداوى وطلب دواء واستشفى النبي -صلى الله عليه وسلم-، فهذا هو الأفضل، لكن هذا ليس مبحثنا.

قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (لا يسترقون) لا يتعرض إلى طريق التداوي أو لا، هو يتعرض لأمر آخر لعمل قلبي، لو أحد رقاهم رضوا بالرقية، يعني لو أحد جاء يرقيهم رضوا بالرقية لكنهم من تمام توكلهم على الله جلَّ في علاه وعندهم السبب، لأن من تمام التوكل الأخذ بالسبب، لكنهم يخشون على أنفسهم أنهم إذا أخذوا بالسبب مال القلب للسبب بعض الشيء، والمرء لا يكتمل توحيده ولا تكتمل عقيدته السديدة إلّا بتمام التوكل على الله جلَّ في علاه. فوصفهم النبي -صلى الله عليه وسلم- أنهم لا يسترقون، ملئ قلوبهم تمام التوكل على الله جلَّ في علاه، لذلك لا يطلبون الرقية، ولو جاءهم أحد يرقي لفعلوا ذلك. وهذا هو فعل النبي -صلى الله عليه وسلم-. النبي -صلى الله عليه وسلم- لم يطلب الرقية، جاءه جبريل يرقيه من غير أن يسترقي من جبريل -عليه السلام- . فلذلك وصفهم النبي -صلى الله عليه وسلم- هؤلاء صورتهم كصورة القمر يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب.

السائل يسأل ما الذي فعلوه جعلهم يحظون بهذه المكانة الشريفة العظيمة؟ تمام التوكل على الله جلَّ في علاه، امتلأت قلوبهم بالعقيدة السديدة أن النافع الضار هو الله جلَّ في علاه. لمّا ابتلوا علموا أن البلاء من الله، ولمّا أرادوا رفع البلاء علموا أن الرفع لا يكون إلّا من الله جلَّ في علاه، وهم لم يغفلوا الأسباب لكنهم لما خشوا على قلوبهم الميل إلى السبب امتنعوا من هذا السبب. هذه اللفتة الدقيقة في قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (لا يسترقون)، يعني امتلأت قلوبهم بالتوكل على الله جلَّ في علاه، فلا ينظرون للسبب بحال من الأحوال، قال: (لا يسترقون) لا يطلبون الرقية.

❖ (ولا يتطيرون)؛ وهذا أيضاً رفعة فوق الرفعة لأن التطير أنك تتشاءم من شيء تخشى نفعه أو ضره، هؤلاء قلوبهم امتلأت بأن الله جلَّ في علاه هو الذي يملك الكون وهو الذي دبره وهو الذي يعطي وهو الذي يمنع وهو الذي ينفع وهو الذي يضر، فقلوبهم امتلأت بأن النافع الضار هو الله جلَّ في علاه. لمّا اعتقدوا الاعتقاد السديد صحيح بأن النافع الضار هو الله جلَّ في علاه لم يتطيروا بشيء، لم يخشوا من شيء ولم يتشاءموا بشيء، ولا حتى استبشروا بشيء إلّا من الله جلَّ في علاه. لمّا أباح لهم النبي -صلى الله عليه وسلم- الفأل كما قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (أصدقها الفأل)، هنا أيضاً تمام التوكل على الله جلَّ في علاه، أنهم امتلأت قلوبهم بأن النافع الضار هو الله جلَّ في علاه.

كثير من الناس يحفظون هذه الأسماء، ويعلمون أن النافع الضار هو الله جلَّ في علاه، لكن لم تمتلئ قلوبهم باليقين بأن النفع والضر في يد الله جلَّ في علاه، تميل قلوبهم لمدراءهم، تميل قلوبهم لأحبابهم، لأصحابهم، وهذا كما قلت قدح تام في كمال توحيد العبد لله جلَّ في علاه. فهنا النبي -صلى الله عليه وسلم- يصف الوصف الدقيق لهؤلاء قال: (لا يتطيرون)، أي قلوبهم امتلأت بالعقيدة الجازمة بأن النفع والضر في يد الله جلَّ في علاه.

❖ (ولا يكتوون)، مع ذلك أنهم بعدما فعلوا الفرائض وأتوا بالنوافل، ولمّا امتنعوا عن المحرمات امتنعوا حتى عن المكروهات ولو كان فيه بعض النفع، لأن الكي نوع من الشفاء قال فيه النبي -صلى الله عليه وسلم-: (وأنا أكره الكي)، فلمّا كرهه النبي -صلى الله عليه وسلم- امتنعوا عنه، وهذا أيضاً من تمام امتثالهم في الظاهر وفي الباطن. أمّا في الباطن فامتثلوا بعقيدة سديدة في الله جلَّ في علاه؛ النفع والضر لله جلَّ في علاه وبيد الله جلَّ في علاه. وفي الظاهر تركوا المكروهات بعد المحرمات، إرغام النفس لله جلَّ في علاه. إذاً الوصف الثالث لا يكتوون أنهم امتثلوا في الظاهر، بعدما صدّر الباب انهم امتثلوا بالباطن في قلوبهم لله جلَّ في علاه، وهذه دلالة واضحة على ارتباط الظاهر بالباطن.

ثم جمع هذه الصفات جميعاً، وكأن الله جلَّ في علاه على لسان نبيه يبين لنا أن الإيمان إن لم يكن نصفه التوكل فكل الإيمان هو التوكل على الله جلَّ في علاه، وربك يكشف عمّا في القلوب. وكأن سائلاً يسأل: يا رسول الله كيف نبلغ تمام التوكل؟ فقال: الأسباب التي توصل تمام التوكل: عدم الاسترقاء، عدم التطير، عدم الاكتواء، يصل بها المرء للنتيجة العظمى هو التوكل وتمام التوكل على الله جلَّ في علاه لأنه امتثل باطناً، قال النفع والضر بيد الله جلَّ في علاه، وإن الله إذا أراد شيئاً كان، وإن الله إن أصابني ببلاء أو بشر لا يدفعه عني أحد وإن أرادني بخير لو اجتمع من بأقطارها لن يدفع عني هذا. كما قال الله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۚ قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦۚ قُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُۖ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٣٨﴾﴾ [الزمر: ٣٨]فهذه دلالة واضحة جداً أن الله جلَّ في علاه إذا أراد النفع لا يمكن أن يرد، وإذا أراد الضر لا يمكن أن يرد.

فكأن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال إن أردتم أن تدخلوا الجنة بغير حساب، إن أردتم أن تكونوا على صورة القمر، إن أردتم أن تكونوا صفاً واحداً على قلب رجلٍ واحد تدخلون بغير حساب ولا عذاب ولا فزع فعليكم بهذه الصفات: لا يسترقون، لا يتطيرون، لا يكتوون؛ وجماع ذلك (وعلى ربهم يتوكلون) أي حق التوكل على الله جلَّ في علاه.

والتوكل أفضل وأوجز ما يقال فيه أن تثق بما في يد الله عما في يدك، أنت تمسك هذا بيدك وتعلم أنك يقيناً هي ملك لك، تثق في أن هذه بيد الله تكون أعظم لك وأنفع لك من أن تكون بيدك، أن تثق بما في يد الله عمّا في يدك. وهذا الفارق بين أهل السنة والجماعة، الفارق بين أهل التوحيد الكامل لله جلَّ في علاه وبين أهل الكتاب؛ أهل الكتاب ماذا كان الله جلَّ وعلا يغدق عليهم من الخير؟ المن والسلوى، يأتيهم من السماء، هذا بيد من؟ بيد الله ليس في أيديهم، لكنهم لمّا انخرق تمام التوكل على الله جلَّ في علاه وما تم يقينهم في الله جلَّ في علاه وانخرمت الثقة في الله منهم لله جلَّ في علاه ما أرادوا ذلك، قالوا: ﴿لَن نَّصْبِرَ

عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ﴾ [البقرة: ٦١]، المغزى في ذلك أنهم إذا مسكوه بأيديهم وثقوا فيه، هم لا يثقون بما في يد الله جلَّ في علاه، ولذلك أصبحت هذه الأمة ألعن أمة في الأرض على وجه البسيطة بأسرها. أمّا هذه الأمة لمّا تعلقت قلوبها بحق لله جلَّ في علاه استحقوا الجنة بغير حساب، ولذلك يقول النبي -صلى الله عليه وسلم- بشارة لأمثال هؤلاء: (يدخل الجنة أناس أفئدتهم كأفئدة الطير)، أوّلها كثير من العلماء: أي أفئدتهم امتلأت توكلاً على الله جلَّ في علاه ويقيناً في الله وثباتاً وثقةً بما في يد الله عمّا في أيديهم، هذا أول الحديث والفوائد المستنبطة تأتي بإذن الله.

أمّا الحديث الثاني والحديث الثالث يبيّن لنا النبي -صلى الله عليه وسلم- أن القدر قد سبق، وأن الله جلَّ وعلا قد فرغ من العباد وانتهى الأمر كما قلت، أصحاب الجنة في الجنة وأصحاب النار في النار، أصحاب الشقاء أصحاب السعادة، انتهى الأمر. لكن النبي -صلى الله عليه وسلم- يبين لنا أمراً إشارةً إلى قوة تأثير؛ العين، يقول: (لو كان شيء يسبق القدر لسبقته العين)، هذه فيها دلالة واضحة جداً على قوة الحاسد وقوة العين، وفي الرواية الأخرى أعجب من ذلك: (أكثر موت أمتي بالعين)، وهذه مصداقاً لقول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (العين تدخل الجمل القدر، وتدخل الرجل القبر). حديث سهل بن حنيف وعامر بن ربيعة؛ سهل بن حنيف لمّا خلع ثيابه وراح يغتسل نظر إليه عامر بن ربيعة فوجد جلداً أعجبه أبيض، فقال: هذا الجلد ما رأيناه ولا على جلد مخبأة، فتلبط خر صريعاً صهيب بن حنيف، فقال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (علام يقتل أحدكم أخاه؟). فهذه فيها دلالة واضحة على أن الحاسد يمكن أن يقتل المرء بالحسد، وهذه دلالة أيضاً واضحة جداً قطعية على خطر الحاسد وخطر العين، نعوذ بالله من الخذلان.

نحن فصلنا القول في مسألة الحسد في سورة الفلق عندما شرحناها، وبينا الفرق بين العائن وبين الحاسد، والسؤال هنا ما الفرق بين العائن وبين الحاسد؟ هنا النبي -صلى الله عليه وسلم- يبين لنا القدر قد سبق، نعم قد سبق، وإن سبقه شيء يكون العين. الإجابة في

ذلك العين نفسها من القدر، لأنها لن تضر إلّا بإذن الله كما قال تعالى: ﴿وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١٠٢]، إذن الله الكوني، فنقول إذا كان بإذن الله كوني يعني بالقدر، فالعين من القدر.

فإذاً العين إن أصابت، أصابت بالقدر فهي من القدر، ولقوتها في القدر بيّن النبي -صلى الله عليه وسلم- كأنه يمثل لنا (العين تسبق القدر) لقوتها وقوة تأثيرها، ولذلك بيّنا أن الخطر العظيم الذي يداهم البشرية هو الحسد، الخطر الذي علينا مثلاً من أهل الكتاب الحسد، أشد من الخطر الفتاك بأيديهم، كما قال الله جلَّ في علاه: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم﴾ [البقرة: ١٠٩]. فالحسد مرض داء عظيم فتاك قال فيه النبي -صلى الله عليه وسلم-: (علام يقتل أحدكم أخاه؟)، وقد بيّن خبراً بأن أكثر موت هذه الأمة بالحسد بالعين، ولنا كما قلت أمثلة كثيرة مثال ذلك صهيب بن حنيف، وأيضاً كان أهل مكة في الجاهلية يسير مع عبده فيقول: ائتني بلحم هذا الجمل غداً، ينظر إليه ويعلم أنه عائن إذا نظر إليه نزل الجمل، فكان ينظر إلى الجمل ويقول: خذ بضاعتك واذهب وائتنا بشيء من هذا الجمل، لأنه تأكد أنه سيذبح سيذبح وينحر على ما قال.

وقد بينت أكثر من مرة في المثل العظيم، الرجل الذي أتى برجل يستأجره أن يحسد رجلاً عنده أبقاراً كثيراً وأموالاً، لمّا أتى به والرجل ماشي في مكان نائي بأبقاره فقال هذا الرجل: أين هو؟ قال: هناك، فالرجل الحاسد المستأجر قال: وعينك أتت به من هناك، ابتلاه الله بالعمى. يعني هي المسألة أن العين من شدتها أنها تقع على الإنسان ليست بالهينة، ولذلك قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (العين تدخل الرجل القبر)، يخر صريعاً، (وتدخل الجمل القدر)، فلذلك نقول بأن النبي -صلى الله عليه وسلم- بيّن أن العين من قوتها لها أن تسبق القدر.

لكن قبل أن ننتقل نقول: قد بيّنا في سورة الفلق أن الحسد والعين يجتمعان ويفترقان؟

فما الفرق بين العائن وبين الحاسد؟ في قصة أخرى طريفة أن عروة بن الزبير دخل بابنه لعبد الملك بن مروان، فلمّا دخل عليه فرأى فيه، طبعاً هو رجل كان محدثاً تقياً ورعاً، ونظر إلى ابنه فنظر إلى الاثنين فمدحهما، فكانت العين تسبق، ما أقول الحسد، العين تسبق، ما دخل المدينة إلّا والخيل قد قتلت ابنه وضربت الأكلة في رجل عروة ابن الزبير حتى قطعوها وبتروها، فلمّا سئل عن ذلك قال: أصبنا بغير داء، يقصد بالعين. إن الحسد فتاك وقتال.

ما الفرق بين العين وبين الحسد؟ القصة التي ذكرناها في العين والحسد، ما الفرق بين العين والحسد؟ العائن والحاسد يتفقان ويفترقان.

- يتفقان في الحاق الضرر بالمعيون أو المحسود، الحاسد نظر إليه حسده فقتله، والعائن نفس الأمر، فيتفقان في الحاق الضرر بالمحسود او المعيون.

- ويفترقان: في النية؛ صحيح أن نقول الحاسد أعم، طبعاً هذا أعم من وجه وهذا أعم من وجه، لكن كلية يقال الحاسد أعم لأن الحاسد يحسد المحسود وجد أمامه أم لم يوجد، يعني إن نظر إليه أو لم ينظر إليه قد حسده، ويصل الحسد بخبث النفس إلى أن يؤثر في المحسود. أمّا العين لا يؤثر إلّا بالرؤية، لابد أن يراه أمامه حتى يصل إليه ما يشتهيه من إلحاق الضرر به، فهذا الفارق بينهم.

فهما يتفقان بالحاق الضرر، ويختلفان ويفترقان بأن الحاسد لو على سريره يحسد المحسود وممكن يميته وهو بعيد عنه، أمّا العائن لابد أن يراه حتى يؤثر فيه، هذا الفرق بين العائن وبين الحاسد. إذاً الحاسد أعم من جهة التأثير، وأمّا بالنسبة للعائن أعم من جهة النية. الحاسد خبث نفسه الذي جره إلى ذلك، لكن العائن ممكن ما يريد أن يؤثر في المعيون، لكن لمّا رآه أثر فيه، حتى أن العلماء يقولون أن العائن ممكن أن يؤثر في نفسه، في ابنه، في ماله، ولذلك أمر أنه إذا دخل جنته أن يقول ما شاء الله ولا قوة إلا بالله، حتى لا يؤثر في نفسه. فالعائن نيته ليست خبيثة، أو نقول ممكن تتفق بذلك لكنها أعم من ناحية

النية. إذاً العائن والحاسد يدخلون في قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (أكثر موت أمتي من العين)، نعوذ بالله من الخذلان. وهذا علاقته كما قلت بالقدر، أن العين من أبواب القدر، فهي من قدر الله جلَّ في علاه ولا تضر إلّا بإذن الله.

الفوائد المستنبطة:

١- السنة مفسرة للقرآن لأن النبي -صلى الله عليه وسلم- عندما قال: (إن من أصلاب أصلاب أصلاب رجال من أصحاب الرسول [يعني من أمتي] رجالاً ونساءً يدخلون الجنة بغير حساب)، ثم قال يفسر: ﴿وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا۟ بِهِمْ﴾ [الجمعة: ٣]يعني سيدخلون معهم بعد ذلك يلحقهم الله في درجتهم وهم في أصلاب آبائهم.

٢- قليل من النساء لهن الفضل على الرغم من أن النبي -صلى الله عليه وسلم- بيّن أن أكثر أهل النار من النساء، فهناك من النساء حفنة قليلة يمكن أن تدخل الجنة بغير حساب ولا عذاب، يعني النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: (رجالاً ونساءً من أمتي)، فهذا تخصيص لقول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (تصدقن فإني رأيتكن أكثر أهل النار)، وأيضاً لقول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (أكثر أتباع المسيح الدجال من النساء)، فهذا يبين أن هناك من النساء من لهن الفضل وقليل ما هن. ولذلك قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (كمل من الرجال كثير ولم يكمل من النساء إلّا أربع)، فهذا حديث في بيان فضل بعض النسوة اللاتي يدخلن الجنة بغير حساب، وسيد هؤلاء هو عكاشة ابن محصن عندما قال للنبي -صلى الله عليه وسلم-: (ادعُ الله أن أكون منهم، فقال له النبي -صلى الله عليه وسلم-: أنت منهم).

٣- ذكر اسمين من أسماء الله الحسنى يتضمنان أهم الصفات العزة والحكمة؛ ﴿وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا۟ بِهِمْ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٣﴾ [الجمعة: ٣]، ختم الله جلَّ في علاه هذه الآية العظيمة بهاذين الاسمين العظيمين؛ العزيز: كأنه يبين للناس ويبين للخلق أجمعين أنا القادر، وأنا الذي أدخل هؤلاء في الجنة ولا أبالي وأدخل هؤلاء في النار ولا أبالي، عزة

وقدرة ومنعة وقوة، إذا أمر أمراً وإذا قضى قضاءً لا مرد لقضاء الله جلَّ في علاه. كأن الله يبين الآن بأن الله قضى أن أهل الجنة يكونون في الجنة ولا مرد لهذا القضاء، فمن اختاره الله لأهل الجنة فإنه من أهل الجنة، ومن اختاره الله لأهل النار أدخله النار ولا يبالي.

يختلج في النفس، لا يستطيعون البوح بذلك فيقولون: أليس في هذه المظلمة؟ أدخل هؤلاء الجنة الجنة وأدخل هؤلاء النار النار بالعزة والقوة اليست مظلمة؟ فيأتيه الاسم الثاني ينفي عنه هذا الذي يختلج في صدره، لا الله عزيز قوي قدير وهو حكيم. وهذا بيان واضح جداُ جلي أن الله قرن بين اسمين جليلين لبلوغ الكمال فوق الكمال، لأن هذا الكمال مركب، لأن الله العزيز قدّر أن هؤلاء من أهل الجنة وهؤلاء من أهل النار، فلا يقوم قائم ويقول هذه مظلمة ولِمَ وضع هؤلاء في الجنة ووضع هؤلاء في النار؟ فكأن الله جلَّ وعلا يبين لهم أنا الحكيم، ومعنى الحكيم أنه يضع الشيء في موضعه، فإنه يجعل أهل الصلاح أهل الطاعة أهل البر في الجنة وأهل الفجور والفسق في النار. ولذلك قال الله جلَّ وعلا من حكمته: ﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ۝٣٥ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ۝٣٦﴾ [القلم: ٣٥ – ٣٦]، وبيّن الله جلَّ في علاه أنه لا يسوي بين الفجار وبين الأبرار، لا يسوي بين الظلمات ولا بين النور. لذلك وهذه الحكمة العظيمة التي ختم بها الآية؛ العزيز لأنه يقدر ويستطيع إذا أمر هؤلاء من أهل الجنة لا مرد لقضائه، ومع ذلك هذه العزة لابد أن تتضمنها وتترافق معها الحكمة، لأن من حكمة الله أن يجعل الصالح في موضعه وأن ينزل الطالح إلى موضعه.

٤- الخبر المحض لا يدل على جواز ولا على حرمة، من أين نستنبط هذه الفائدة؟ إذا أخبر النبي -صلى الله عليه وسلم- عن شيء هذا الخبر لا يستنبط منه يجوز أو لا يجوز، حرام أو حلال، هذا خبر محض. فالخبر المحض لا يدل على جواز ولا على حرمة إلّا بالقرائن المحتفة؟ أخبر بأن أكثر موت الأمة بسبب العين، بسبب الحسد. هل الحسد مذموم؟ هل حسد محمود؟ لا دلالة في ذلك، وإن كان السياق يقول الموت فيه ما فيه، لكن الصراحة أن الخبر المحض لا يجوز أن تقول فيه حرمة أو فيه حل إلّا بالقرائن المحتفة،

والقرائن المحتفة قد جاءت بأن النبي -صلى الله عليه وسلم- بين أن الداء العضال هو الحسد والحسد مذموم عند الله جلَّ في علا كما في الحديث الضعيف (الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب) فيه ضعف لكن المعاني كثيرة تبين ذم الحسد، قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (لا تدابروا، لا تباغضوا، لا تحاسدوا)، وأيضاً ورد في بعض الإسرائيليات وهي لا تصدق ولا تكذب: أن الحاسد عدو نعمتي يتسخط على قضائه ولم يرضَ بقسمتي، الحاسد عدو نعمتي.

كأن الذي ينظر إلى رجل أعطاه الله مكانة مرموقة ويحسده على ذلك أنه يعترض على الله جلَّ في علاه، يقول أنت لست بحكيم -نعوذ بالله من غضب الله-، كيف تعطي هذا الفضل لهذا الرجل؟ كما قال أهل الجاهلية أنهم تمنوا أن ينزل القرآن على رجل من القريتين عظيم، قالوا ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنۢ بَيۡنِنَآۚ﴾ [الأنعام: ٥٣] فرد الله عليهم بحكمته: ﴿أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِأَعۡلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ٥٣﴾ [الأنعام: ٥٣]. فلذلك يقول الله جلَّ في علاه الحاسد المحترق الحاسد عدو نعمتي يتسخط على قضائي لم يرضَ بقضاء الله جلَّ في علاه، فهنا يبين الله جلَّ في علاه بهذا الأثر الحاسد عدو نعمتي يتسخط على قضائي ولم يرضَ بقسمتي، فيها الذم على الحسد.

فالخبر المحض، وإن كان لا يدل على جواز أو على حرمة فالقرائن المحتفة هي التي تدل على ذلك، وهذا يفيدنا كثيرا في مسألة الحج، لأن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: (لتمرن الظعينة الهودج، لتمرن الظعينة من حضرموت إلى البيت)، أو قال: (تطوف بالبيت إلى مكة، تطوف بالبيت لا تخشى إلّا الله والذئب على الغنم)، هذا النبي -صلى الله عليه وسلم- قد قاله في سياق الخبر. يقول سيأتي زمان على الناس المرأة تسافر وحدها من اليمن إلى الكعبة تطوف ولا تخشى إلّا الله، يعني ينتشر الأمان في كل البلاد والعباد فلا تخشى إلّا الله والذئب على الغنم. بعض العلماء استنبط لنا الحديث أنه يجوز للمرأة تسافر وحدها وتذهب إلى الحج، نقول لهم هذا خبر محض من النبي -صلى الله عليه وسلم- لا يدل على جواز ولا يدل على حرمة إلّا أن تأتي الأدلة الأخرى التي تثبت الجواز أو الحرمة.

والدليل الناصع هو قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (لا يحل لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر أن تسافر مسيرة يوم وليلة).

هل من هذا الباب قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (بين يدي الساعة سنون خداعة يُصدّق فيها الكاذب ويُكذّب فيها الصادق ويؤتمن الخائن ويخون الأمين)؟ هل يدخل في هذا الباب أم لا؟ سياق والسباق واللحاق من المفسرات، سياق الحديث يدل على الذم لأنه قال: (سنون خداعة)، ثم قال: (يُصدّق الكاذب ويُكذّب الصادق)، وهذا ظاهر جداً على أنه على سياق الذم وليس سياق المدح.

٥- جواز كلمة "لو" لأن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: (لو كان شيئاً يسبق القدر لكانت العين)؛ طالما تكلمنا على باب القدر فلابد أن ندخل فيها، جاء في "لو" حديث ظاهر جداً، يمنع النبي -صلى الله عليه وسلم- أن تقول "لو"، النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: (احرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجز، والمؤمن القوي خير من المؤمن الضعيف) إلى أن قال: (فإن أصابك شيء فلا تقل لو أني فعلت كذا لكان كذا، ولكن قل قدّر الله وما شاء فعل) أو (قل قدر الله وما شاء فعل)، وثم ختم الحديث بأنه قال: (فإن لو تفتح عمل الشيطان)، فنهى عن أن نقول "لو". فهنا قالها النبي -صلى الله عليه وسلم- فتجوز، فمتى تجوز ومتى تحرم؟

"لو" لها أقسام أربعة وأوجه أربعة أو خمسة أو أقل من ذلك أو أكثر نبينها لأنها تتعلق بباب القدر:

▪ أولاً إذا قالها معترضاً متسخطاً على القدر فهذا الذي لا يجوز، كقول أهل الكفر، قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَقَالُواْ لِإِخۡوَٰنِهِمۡ إِذَا ضَرَبُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَوۡ كَانُواْ غُزًّى لَّوۡ كَانُواْ عِندَنَا مَا مَاتُواْ وَمَا قُتِلُواْ﴾ [آل عمران: ١٥٦]، فاعترضوا على قضاء الله وقدر الله وقالوا لو كنا أخذناهم وجعلناهم معنا ما ماتوا. الله بيّن لهم أنهم سيقتلون ولو على أسرتهم، ولو على فراشهم فإن الموت سيأتيهم. فهذا ال"لو" هنا تسخط على قدر الله

جلَّ في علاه فلا يجوز، وهذا الذي يدخل فيه حديث النبي -صلى الله عليه وسلم-: (فإن لو تفتح عمل الشيطان)

▪ الثاني أن يتمنى، أن تكون لو للتمني؛ لو عندي مئة دينار لأنفقتها في سبيل الله، لو عندي مثل علم فلان لتصدقت به على الناس. هذا ال"لو" ممدوح وليس مذموم. وآخر يقول لو كنت أمتلك مثل ما يمتلك فلان لأتيت بالجواري والحور وفعلت كذا وكذا من السوء والفسق والفجور، هذا تمنى لكنه مذموم شرعاً. "لو" إن كانت للتمني فهي على قسمين:

- إن أراد وتمنى الخير فله الخير،

- وإن أراد الفسق فله الفسق وإن أراد الشر فله الشر.

لقول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (الدنيا لأربعة نفر: رجل أتاه الله المال والحكمة، فيسلط الحكمة على مال فينفقها في سبيل الله جلَّ في علاه. ورجل آخر أتاه الحكمة ولم يؤتيه المال، فقال: لو) ولو هنا للتمني، فتمنى خيراً فقال: (لو أعطاني الله مثل ما أعطى فلاناً لفعلت مثل ما فعل فلان)، فقال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (فهما في الأجر سواء). (وأما الآخر لم يؤتيه حكمة وأتاه المال فهو يعيث فيه فساداً، والآخر لم يؤتيه لا حكمة ولا مالاً قال: لو اتاني الله مالاً مثل فلان لفعلت فيه مثلما فعل فلان)، فقال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (فهما في الوزر سواء). إذاً "لو" إن كانت للتمني فهي على القسمين: إن تمنى خيراً فالخير له ويجوز، وإن تمنى شراً فالشر له ولا يجوز أن يتكلم بال"لو" هنا.

▪ الثالثة أيضاً فيها الاستعتاب؛ أن يقول لو كنت فعلت كذا لكان كذا، يستعتب رجل صاحب تجارة فقال: شريكي فلان هذا رجل صاحب تجارة رائجة وذكي جداً في أعماله أتاجر معه، فاشترك معه في المال، فقدر الله الخسارة فقال: لو ما شاركت هذا الرجل ما خسرت المال، هذا استعتاب. "لو" هنا الصحيح الراجح أنها لا تجوز لأمرين اثنين:

- لصريح قول -صلى الله عليه وسلم-: (فإن له تفتح عمل الشيطان)

- والأمر الثاني أنها تدخل على المرء الحسرة والندم والحزن أنه بعد ما خسر قال: لو ما أعطيت فلان هذا المال ما خسرته، أولادي أحق بهذا المال، كنت أعيش مرتاحاً بهذا المال. فيصيبه الهم والغم، ماذا يحدث بعد ذلك؟ التقاعس في عبادة الله جلَّ في علاه، التسخط بعد ذلك على قدر الله جلَّ في علاه. فهي وسيلة إلى الكفران بقضاء الله جلَّ في علاه، والتسخط على قدر الله جلَّ في علاه، ففي هذا المحل أيضاً لا يجوز في حال من الأحوال ويكون حرام عليه أن يقول هذه الكلمة.

▪ الرابعة "لو" يقصد بها الخبر المحض، كما أخبر النبي -صلى الله عليه وسلم-: (لو كان شيء يسبق القدر لكانت العين)، وأيضاً كما قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (لو استقبلت من أمري ما استدبرت فجعلتها عمرة) في مسألة التمتع الحديث المشهور، هذا من باب الخبر المحض أيضاً. لكن اعترض علينا بعض الناس وقال لا هذا الحديث لا يصح أن يقال إنه من الخبر المحض بل هو من التمني، لأن النبي -صلى الله عليه وسلم- تمنى وقال: (لو استقبلت من أمري ما استدبرت لفعلت أمراً أخير من ذلك) هو أنني اتمتع بالعمرة إلى الحج. إن تنزلنا مع هؤلاء وقلنا إنه للتمني فنقول هذا جائز، يعني إن كان النبي -صلى الله عليه وسلم- منع أن يقول المرء لو ولا يستعتب حتى لا يحزن فنقول هذا مخصوص منه، لأن "لو" التي فيها الاستعتاب تدخل على المرء الهم والغم والحزن، و "لو" هذه لا تدخل عليه الهم والحزن، هو يريد أن يفعل طاعة فوق الطاعة التي فعلها، فهذه تدخل عليه هماً ولا حزناً. والأمر الثاني أنه يريد أمراً مستقبلاً، لا أمراً قد مضى، والحديث الذي فيه لو أني فعلت كذا في الماضي، لكن هنا يقول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (لو استقبلت) يعني في العام القادم لو حججت لتمتعت، فهذا استقبال وهذا ماضي وهذا فارق يجعل الأمر في القياس لا يصح بحال من الأحوال. إذاً (لو استقبلت من أمري ما استدبرت) هذا خبر محض، والخبر المحض يجوز للمرء أن يستخدم كلمة "لو".

"لو" تمنع في حالتين: في التسخط على أقدار الله جلَّ في علاه، أو معارضة شرع الله جلَّ في علاه، أو في أن تكون سبب في دخول الهم والحزن على الإنسان

إن النذر لا يقرّب شيئاً لابن آدم

باب في قوله -عليه السلام-: (إن النذر لا يقرّب شيئاً لابن آدم):

عن أبي هريرة -رضي الله عنه- قال: أن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: (إن النذر لا يقرّب شيء لابن آدم لم يكن أتيح قدره له، ولكن النذر يوافق القدر فيُستخرج به من البخيل ما لم يكن يريد أن يخرجه)، حديث صحيح.

وعن أبي هريرة -رضي الله عنه- أن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: (لا تنذروا فإن النذر لا يرد عن القدر شيئاً، وإنما يُستخرج به من البخيل)، حديث صحيح.

وعن ابن عمر -رضي الله عنهما- أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: (إن النذر لا يقرّب شيئاً ولا يؤخره، وإنما يُستخرج بالنذر من البخيل)، حديث صحيح.

كما قلت المسألة دقيقة والكلام عن شيء صار عن تصوّره، لذلك وجب أن نبيّن النذر وأقسام النذر، ثم نبيّن ما علاقة النذر بالقدر.

◄ **النذر لغةً**: هو الإلزام والتعهد، ألتزم بشيء أو نذرت على نفسي شيء، نذرت لشيء ألتزم به، ألزمت نفسي به، عاهدت الله عليه أو تعهدت به على نفسي.

◄ **اصطلاحاً أو شرعاً**: هو إلزام العبد نفسه بعبادة أو بجنس العبادة لم يوجبها الله عليه، أو قل لم يكلّفه الله بها؛ كأن يقول نذرت صوماً، نذرت صلاةً، نذرت صدقةً، نذرت ذبحاً، بالتمثيل: يقول الرجل: نذرت، سواء مطلقاً أو معلقاً.

مطلقاً؛ تقول: نذرت أن أصوم لله ثلاثة أيام من كل شهر، نذرت أن أصلي عشر ركعات في كل يوم وليلة. نذرت أن أذبح ولدي: رجل نذر أن يذبح ولده بالتمثيل، عبد المطلب تقرّب بذبح ولده، نحن ما نتكلم عن حكم النذر بل نتكلم عن تمثيل النذر. هل

هذه عبادة أم لا؟ نقول كانت له عبادة وفي الإمكان؛ أما أمر الله إبراهيم -عليه السلام- أن يذبح ولده، وائتمر بأمره. عامةً هي على التمثيل، أمّا الحكم فهو حرام. الغرض المقصود؛ نذر أن يصلي، نذر أن يتصدق، نذر أن يقرّب الذبح لله جلَّ في علاه، هذا النذر اصطلاحاً ولغةً.

النذر أقسام، وقبل أن نبيّن أقسام النذر وجب علينا أن نبيّن الحكم التكليفي (حكم النذر)؛ اختلف العلماء اختلافاً شديداً، ونوجز كلام العلماء في قولين:

♦ قول الجماهير: النذر على الكراهة، وإذا قلت على الكراهة يقصد بها الكراهة التنزيهية لا التحريمية، والذي جعل وحمل الجمهور أن جعلوا النذر في باب المكروهات لا المستحبات ولا المباحات أن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: (إنما يُستخرج به من البخيل)، وهذا السياق سياق ذم أو على الأقل إشعار باللوم، فهذا السياق يدل على الكراهة أقل ما فيه.

والأمر الثاني هم جاءوا بها من ناحية النظر؛ قالوا: إنه لو نذر عبادةً، صوماً، صلاةً، صدقةً، ويحتمل ألّا يفي بهذا النذر، فعند عدم وجود الاحتمال بالإيفاء بالنذر فإنه سيقع في الحرج، سيقع في مسألة شبه النفاق، فمنهم من عاهد الله كما سنبيّن. قالوا: وإن كان الاحتمال موجود فهذا الاحتمال يُشعر بالكراهة، لأنه لو كان جزماً لأصبح محرماً، لكن هم قالوا في احتمال أن يفي بهذا النذر فعلى الأقل لا يضع نفسه بمثل هذا الحرج، هذا قول الجمهور.

♦ أمّا ابن تيمية فانفرد عن الجمهور وقال بتحريم النذر سواء معلقاً أو مطلقاً، واستدل على ذلك بالأثر وبالنظر.

- أمّا بالأثر فإنه قال: إن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: (لا تنذروا)، وهذا نهي، والأصل بالنهي التحريم. فإذا نهى النبي -صلى الله عليه وسلم- فالأصل عند جماهير الأصوليين وهذا الراجح الصحيح: أنه إذا نهى فأصل النهي التحريم، ما تدل قرينة

تصرف النهي من التحريم إلى الكراهة. قال أيضاً من الآثار أن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: (إنما يُستخرج به من البخيل)، وهذا السياق ذم، والمذموم شرعاً أصله التحريم إلّا أن يدل الدليل أيضاً على الكراهة.

- ومن النظر هو وسيلة لمحرم، إذ القاعدة عند العلماء: الوسائل لها أحكام المقاصد، وقد قال الله تعالى مبيّناً حرمة عدم الوفاء بالنذر: ﴿۞ وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُوا۟ بِهِۦ وَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُوا۟ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ﴿٧٧﴾﴾ [التوبة: ٧٥ – ٧٧]، فوسمهم بالكذب وأعقبهم نفاقاً في قلوبهم. فهذا النذر الذي لا يستطيع المرء أن يفي به، وكثير من الناس امرأة تقول يعني إذا نجح ابني أو إذا من الله علي بالولد سأصوم دهري بأسره، إلى يوم مماتي سأصوم ثلاث أيام من كل شهر، ولا تستطيع ولا تفي بهذا النذر، ماذا سيحدث؟ العقاب وخيم في هذه الآية: ﴿فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ﴾. فقال: هو وسيلة إلى المحرم، فإن كان وسيلة للمحرم يأخذ حكمه لأن القاعدة: الوسائل تأخذ أحكام المقاصد.

وعامةً الخلاف في هذا خلاف معتبر، وإن كان قول الجمهور أقوى وقول ابن تيمية أحوط وأورع، والقاعدة عند العلماء: الخروج من الخلاف مستحب، فنقول أولى لكل واحد من المكلفين ألّا ينذر نذراً ولا يكلف نفسه تكليفاً يمكن أن يشق عليه في المستقبل. فهذا هو الحكم التكليفي للنذر بعد تعريفه اصطلاحاً ولغةً.

كل ذلك تصوّر للنذر حتى نبين ما علاقة النذر بالقضاء والقدر، القضاء والقدر شيء مكتوب في اللوح المحفوظ ما له ومال النذر؟ هذا الذي سنصوره بعد تصور هذا النذر. النذر أقسام كثيرة منها أقسام خمسة:

▪ القسم الأول نذر يجب الوفاء به؛ وهذا النذر هو نذر الطاعة سواء كانت مطلقة أو معلقة؛ مطلق: يقول نذرت أن أصوم لله كل يوم خميس أو كل يوم اثنين إلى الممات. معلق:

يقول إن نجح ابني سأصوم ثلاثة أيام من الشهر. ففي الحالتين يجب الوفاء، والدليل على ذلك ما صح عن نبينا -صلى الله عليه وسلم- أنه قال: (من نذر أن يطيع الله فليطعه)، وهذا أمر وظاهر الأمر الوجوب. فإذاً النذر يجب الوفاء به، وهذا بعيد عن مسألة هل هو محرم أم مكروه، لكن يجب عليه إن نذر أن يفي بنذره.

▪ القسم الثاني نذر لا يجب الوفاء به، بل يحرم الوفاء به، وهو نذر المعصية؛ نذر أن يشرب خمراً، نذر أن يزني، نذر مطلق أو حتى معلق: لو قال إن نجح ابني سأفعل كذا بسبب أن ابنه نجح سيجمع كل الراقصين والراقصات مثلاً. فيقول: هذا نذر محرم معصية، فلا يجب الوفاء به لأن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: (ومن نذر أن يعصي الله فلا يعصه)، وهذا أيضاً نهي وأصل النهي التحريم.

▪ القسم الثالث نذر يسمى نذر اللجاج أو الغضب؛ يعني رجل يجادل رجل في شيء فيريد أن يعضد كلامه ويبين أن كلامه صحيح، فيقول له: نذر علي أن هذا الكلام وإن لم يكن صحيحاً سأصوم ثلاث أيام. هذا النذر ينزل منزلة اليمين، هو ليس صيغته صيغة النذر الصحيحة. نذر اللجاج أو الغضب هو يريد التحضيض أو الحث أو يبين صدقه أو يبين كذب من أمامه، هذا منزلته منزلة اليمين، يعني هذا النذر الصحيح فيه أنه يمين، فإن كان يميناً فهو يأخذ حكم اليمين، إمّا يفي وإمّا أن يكفّر عن يمينه بأن يصوم ثلاثة أيام إن لم يكن من أهل المال وإن كان من أهل المال عليه يطعم أولاً.

▪ القسم الرابع نذر مكروه الوفاء به، ليس محرماً بل مكروه الوفاء به، أن ينذر المرء أن يفعل شيئاً مكروهاً؛ قل مثلاً نذر أن يصلي بعد العصر ويثبت على هذه الصلاة بعد العصر، عند من يقول بكراهة الصلاة بعد العصر. طبعاً من قال بأن هناك سنة بعد العصر، هذا كلام بعيد عن السلف لا يصح، ليست هناك ثمة سنة بعد صلاة العصر. فمن نذر أن يصلي بعد العصر فهذا مكروه ويكره الوفاء به لأنه سيخالف الشرع، لأن ابن عباس كما في الصحيحين بين أن النبي -صلى الله عليه وسلم- نهى عن الصلاة بعد الفجر حتى تطلع

الشمس ونهى عن صلاة بعد العصر حتى تغرب الشمس، أو نهى أن يأكل ثوماً وبصلاً. أيضاً نذر أن يأكل ثوماً أو بصلاً، نقول يكره أن تفي بهذا النذر، كفّر عن يمينك عند من قال بوجوبه أو بالاستحباب عند قول الجماهير.

▪ القسم الأخير هو النذر المباح؛ هو أن ينذر المرء ان يلبس الثياب البيض إلى مماته، وهذا مباح، وفي النذر المباح له أن يفي وله ألّا يفي، يعني لا نقول له يلزمك الوفاء. وعند الجماهير يستحب التكفير، عند بعض العلماء قالوا يجب أن يكفّر لأنه سينزل منزلة اليمين هنا فيكفّر.

النذر ليس عبادة؛ أما قلنا هو يتأرجح بين الكراهة وبين التحريم، هو ليس بعبادة لكن الوفاء بالنذر هو العبادة، لأن الله جلَّ وعلا قال في سياق المدح والمنة: ﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا ۝٧﴾ [الإنسان: ٧]. فالوفاء بالنذر عبادة، لكن أصل النذر بأن يقول نذرت أن أفعل هكذا وكذا هذا ليس بعبادة، بل هو يدور بين الكراهة ويدور بين التحريم، فهو مذموم في الحالتين. أمّا الوفاء بالنذر إذا نذر فالوفاء بالنذر عبادة، لأن الله جلَّ وعلا قال: ﴿ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ ۝٢٩﴾ [الحج: ٢٩]، فأمر بالوفاء بالنذر والأمر هنا يدل على أنه عبادة.

هذا هو التصور للنذر، فإن كنا قد تصورنا النذر فلابد أن نقول وما علاقة النذر بالقدر؟ هنا النبي -صلى الله عليه وسلم- يبين لنا أن علاقة النذر بالقدر أن الإنسان إذا كتب له أن له مئة ألف سيربحها آخر العام، وهو يجد ويسارع من أجل ان يربح هذه المئة ألف، فقال: اللهم إني نذرت نذراً أنت تعلمه أني لو ربحت المائة ألف هذه سأصوم شهراً متتابعاً. هذا النذر لا يستجلب له المائة ألف، نذر أو لم ينذر فإن الله جلَّ وعلا لا يؤتيه المئة ألف بهذا النذر. هذه العلاقة النبي -صلى الله عليه وسلم- يبينها، بأن هذا النذر لا يعجل بالقدر ولا يؤخره، لا يمنعه ولا يأتي به، فإن كان القدر مكتوب أن المئة ألف لك آخر العام فالنذر لا يؤثر في ذلك، لا يستجلبها ولا يسارع بها، وإن لم يكتب لك المئة ألف، لو

نذرت ألف نذر فإن المئة ألف لن تأتيك. هذا الذي يبينه النبي -صلى الله عليه وسلم-، لأن النذر لا يؤثر في القدر، فإنه لا يؤثر به سلباً ولا إيجاباً.

هنا لابد أن ننظر إلى مسألة مهمة، إلى أن هناك أسباب شرعية تؤثر في القدر سلباً وإيجاباً. قلنا إن النذر لا يؤثر سلباً ولا إيجاباً، لا يقدم ولا يؤخر، لكن الدعاء يقدم ويؤخر، فإن النبي -صلى الله عليه وسلم- بيّن أن الدعاء والقدر يتدافعان، فإن تدافعا أيهما أقوى يدفع الآخر. والنبي -صلى الله عليه وسلم- أيضاً بيّن أن الإنسان بصلته لرحمه، اتصاله بأمه، بابنه، بأخيه، بخاله، بعمه، بإعطائه الهدية هذا يزيد المال والعمر. كما قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (من أراد أن ينسأ له في عمره) أو قال: (يؤخر له في عمره ويبارك له في رزقه فليصل رحمه). فحتى لو كتب له العمر ستين سنة سيعيش ستين سنة، بصلته للأرحام تصل إلى المئة؟ نعم تصل إلى المئة، هذا ظاهر الحديث.

فعندنا أسباب تؤثر سلباً وإيجاباً، وأسباب لا تؤثر لا سلباً ولا إيجاباً. وهذا محل النظر في هذا الباب. فدققوا معي النظر، قلت لا تطويل لكن تدقيق لأن المسألة هذه مهمة، فصل الخطاب في هذا الباب لنفرّق بين صلة الأرحام وبين الدعاء وبين النذر. لأن الدعاء أنا ادعو اللهم آتني بالمئة ألف، ستأتيك المئة ألف. نذرت أن تأتيني مائة ألف؟ لا تأتيني المائة ألف. فلابد أن نبين الفرق بين الاثنين، وعلاقة هذا بالقدر وعلاقة ذاك بالقدر.

أقول هذه المسألة فرع عن أصل، ما هو الأصل؟ الأصل أن هناك فارق بين الكون والشرع، ما معنى ذلك؟

- الكون يساوي الخلق، وإذا كان الخلق فإننا نقول جزماً سيحدث. الكون ما كوّنه الله جلَّ في علاه، ما خلقه الله جلَّ في علاه، ما كتبه الله جلَّ في علاه، ما قدره الله جلَّ في علاه. لا تغيير سواء أحبه الله أو لم يحبه الله. هذا الكون كما قلنا في إرادة كونية، قضاء كوني، إذن كوني. قال الله تعالى: ﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ﴾ [فصلت: ١٢]، هذا قضاء كوني، إرادة كونية. ﴿وَمَن يُرِدۡ أَن يُضِلَّهُۥ يَجۡعَلۡ صَدۡرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي ٱلسَّمَآءِۚ﴾ [الأنعام:

١٢٥]، إذا أراد الله اضلال العبد لا أحد يستطيع هدايته.

- الشرع هو الأمر والنهي، ومعنى الأمر والنهي هو خاص بما يحبه الله جلَّ في علاه، إذا أمر ونهى: افعل ولا تفعل، هذا الذي يحبه الله، كأنه يقول افعل ما أحبه ولا تفعل ما لا أحبه. أيضاً فيه أمر آخر هو أنه ممكن أن يقع وممكن ألّا يقع، كما بينا في الإرادة الشرعية لأن الله جلَّ وعلا قال: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ [الإسراء: ٢٣]؛ فيما يحبه الله أمر أن تعبد الله وحده لا شريك له، هذا يحدث ولا يحدث. فهذا الفرق بين الكون والشرع. ولك أن تتخيل هنا النذر والدعاء وصلة الأرحام كوناً وشرعاً:

♦ أمّا كونا فقد كتب الله في اللوح المحفوظ أن الرجل الفلاني سيأتيه كذا وكذا من الأموال أو من الأولاد أو من الأرزاق، نذر أو لم ينذر، وهذا كما قلت كوناً لا يمكن تغييره. وقضى الله جلَّ في علاه أن عمر هذا الإنسان يكون ستين عاماً، ويصل رحمه فيصير مئة عام. أو نقول كوناً؛ الله جلَّ في علاه كوّن في صحف الملائكة يكتب الملائكة له أربعين عاماً يعيش فيها أربعين عاماً، وفي اللوح المحفوظ أنه سيصل رحمه فيزداد ويتبدل ويتغير هذا القدر الذي في صحف الملائكة من الأربعين إلى المئة كوناً، هذا الكون ولا تغيير في ذلك.

♦ أمّا الشرع فإن الله جلَّ في علاه أحب من الإنسان أن يدعو وأن يصل رحمه حتى يزيد في رزقه ويزيد في عمره، ولم يحب من الإنسان أن ينذر نذراً لأنه لن يزيد ولا ينقص.

فحتى نفرّق بين النذر وبين صلة الارحام والدعاء، الكون والشرع؛ ما كوّنه الله سيكون، قد كتب الله في اللوح المحفوظ أن فلان ينذر أو ما ينذر ليس له إلّا ما كُتِب له. وكتب في اللوح المحفوظ أيضاً أن فلان سيزداد عمره بما فعل من صلة الأرحام، وبما دعا الله جلَّ وعلا سيدفع عنه البلاء.

فإذا قلنا بالكون والشرع نفرّع ونقول: ما الفرق بين النذر وبين صلة الأرحام وبين الدعاء؟ النذر لا يؤثر في القدر، وعندنا صلة الارحام هذا سبب شرعي؛ الرجل سيقوم

بعبادة وهذه العبادة هي الصلاة أو الصوم أو الصدقة ولا تؤثر في القدر. وعندنا صلة الأرحام عبادة كما أن الوفاء بالنذر عبادة، وأيضاً الدعاء عبادة وهذا يؤثر في القدر. فما الفرق بينهما؟ نقول الفرق بينهما بيّنه النبي -صلى الله عليه وسلم -:

• بأن صلة الأرحام والدعاء مأمور بها شرعاً، والنذر مكروه شرعاً على أقل الأحوال يعني منهي عنه شرعاً لأن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: (لا تنذروا). وأمّا صلة الأرحام فقد أمر النبي -صلى الله عليه وسلم- بوحيٍ من ربه بصلة الأرحام، وهذه الرحم لما تعلقت بحق الرحمن وقال: (ألا ترضين أن أصل من وصلك)، فهذا مأمور به شرعاً. وذاك منهي عنه شرعاً.

• الدعاء وصلة الأرحام قد ثبت بالشرع أنها تزيد في الأعمار وتزيد في الأرزاق،

(١) قال النبي -صلى الله عليه وسلم-[1]: (من أحب أن ينسأ له في عمره ويبارك له في رزقه فليصل رحمه). وأمّا النذر فلم يثبت شرعاً أنها تزيد أو تنقص، بل ثبت شرعاً أنها لا تؤثر فيها.

• الدعاء وصلة الأرحام من باب حسن الظن بالله، لذلك استجلبت الخير، الداعي بعدما نزلت عليه البلية يرفع أكف الضراعة لله جلَّ في علاه ويبكي وقلبه معلق بالله أن يرفع عنه البلية، ولذلك النبي -صلى الله عليه وسلم- بين أن الدعاء والقضاء البلية نزلت، هي من السماء نزلت قضيت أن البلية ستنزل على هذا العبد، وهو يتوقع بلاء سينزل عليه، فإذا رفع أكف الضراعة بإخلاص قوي وبدمعة صادقة وتذلل وخضوع ومسكنة لله جلَّ في علاه تكون بقوة هذا الدعاء يدفع هذا البلاء. فهو يحسن الظن بربه جلَّ في علاه، أنه لو تضرع سيرفع الله عنه البلاء. فإحسان الظن بالله بالدعاء، وهذا من قمة ما

---

(١) الراوي : أنس بن مالك وأبو هريرة | المحدث : الألباني | المصدر : صحيح الجامع | الصفحة أو الرقم : ٥٩٥٦ | خلاصة حكم المحدث : صحيح الراوي : أنس بن مالك | المحدث : البخاري | المصدر : صحيح البخاري الصفحة أو الرقم: ٢٠٦٧ | خلاصة حكم المحدث : [صحيح] التخريج : أخرجه مسلم (٢٥٥٧) باختلاف يسير.

يكون في القرب من الله جلَّ في علاه والتذلل لله جلَّ في علاه. أيضاً صلة الأرحام فيها حسن ظن بالله جلَّ في علاه. أمّا النذر ففيه سوء ظن بالله جلَّ في علاه، كأنه يظن بربه جلَّ في علاه أنه لن يؤتيه بهذا الخير حتى يقدم له الطاعة. نعوذ بالله. إن الله جواد كريم، إن الله جلَّ في علاه يعطي ليل نهار كما قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (يد الله ملأى سحاء الليل والنهار)، وإن الله جل وعلا لا مغالب له. فإن النذر فيه سوء الظن بالله جلَّ في علاه.

• الفرق بين النذر وبين الدعاء وصلة الأرحام هي مسألة مدافعة الأقدار؛ أمّا الدعاء فهو من باب مدافعة الأقدار، وأمّا النذر فليس من هذا الباب، فلذلك لابد الكف عن النذر.

تفصيل ذلك أقدار الله أقسام كثيرة لكن نحصرها في قسمين: أقدار تدفع، وأقدر لا تدفع.

▪ هذه الأقدار التي لا يمكن دفعها وهذا الذي نقوم به العلاقة بين الشرع والكون، ولا تضرب الكون بالشرع. أقدار لا يمكن أن تدفع كقدر الموت أو قدر البلية التي لا حيلة فيها، هذا قدر لا تستطيع أن تدفعه بحال من الأحوال. ولك فيه عبادة هو الصبر على هذا القضاء والرضا به، إمّا أن تصبر وإمّا أن ترضى، المرتبة الأعلى هو أن ترضى. تصبر على هذا القضاء، فإن وقعت عليك بلية لا حيلة لك فيها وجب عليك الصبر على هذه البلية، وتعتقد اعتقاداً جازماً أن الله ما أراد إهلاكك بهذه البلية، لا، أراد رفعتك وتكفير السيئات عنك.

﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾ [التغابن: ١١]، فإن الله جلَّ وعلا ما أصاب عبداً من مصيبة إلّا ليرفعه كما قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (عجباً لأمر المؤمن إن أمره كله له خير، إن أصابه خير شكر فهذا له خير، وإن أصابته ضراء صبر وهذا له خير)، وقد قال النبي -صلى الله عليه وسلم- في السنن بسند صحيح: (ما أصاب العبد من نصب ولا

وصب ولا هم ولا غم حتى الشوكة يشاكها إلّا كانت كفارة له) رفعة في الدرجات، إذاً هذا البلاء الذي ينزل على المرء لا يستطيع أن يدفعه، وهذا القدر الأول.

▪ الثاني قدر وجب على المرء شرعاً أن يدفعه ولا يقبله ولا يرضى به، هذا القدر الذي فتح الله لك به المجال أن تدافعه؛ مثلاً الجوع، هذا قدر الله جلَّ في علاه، فهذا القدر وجب عليك أن تدفعه، إذا شارف على مرحلة الهلاك وجب دفع هذا القدر. إذاً قدر الجوع يدفع بالطعام، قدر العطش يدفع بالشراب قدر المرض يدفع بالتداوي، (تداووا عباد الله ولا تداووا بحرام، إن الله ما أنزل داءً إلا أنزل له دواء). فهذه أقدار وجب عليك أن تدافعها، أنت هنا تعمل بالشرع وتعمل بالقدر، تؤمن بأن البلية التي نزلت هذه أو المرض الذي نزل عليك بقدر الله جلَّ في علاه، وأنت مع إيمانك بأن الله فعل ذلك لك، فاعمل بشرع الله أن تتداوى كما أمرك الله جلَّ في علاه، فأنت بين عين القدر وبين عين الشرع.

إذاً الفرق الرابع هو تدافع الأقدار، بأن الدعاء يدفع قدر البلاء،

(٢) كما قال النبي -صلى الله عليه وسلم-[1] (ما من بلية تنزل إلّا والدعاء مع البلاء يتدافعان، أيهما أقوى دفع الآخر)، وكل ذلك مكتوب، والمدافعة لا تكون إلّا في صحف الملائكة كما قال عمر وهو يطوف: (اللهم إن كنت قد كتبتني شقياً) يعني في صحف الملائكة، هو يدفع البلاء الشقاء بالدعاء فهو يطوف ويدعو (اللهم إن كنت كتبتني شقياً)، يعني في بطن أمي، يعني في صحف الملائكة لا باللوح المحفوظ، (فامحها) فيدفع هذا البلاء بالدعاء، (فامحها واكتبني عندك سعيداً)، ثم قرأ قول الله تعالى: ﴿يَمْحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ ۖ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ ﴿٣٩﴾﴾ [الرعد: ٣٩]. هذه الفوارق الأربعة بين صلة الأرحام والدعاء وبين النذر وعلاقتهما بالقدر.

أمّا صلة الأرحام والدعاء والنذر يتفقان كوناً بأنها من أقدار الله جلَّ في علاه، لأن كل

(١) الراوي : ثوبان مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم | المحدث : الألباني | المصدر : صحيح ابن ماجه | الصفحة أو الرقم : ٧٣ | خلاصة حكم المحدث : حسن.

شيء من أقدار الله جلَّ في علاه، لأن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: (يوافق القدر)، النذر ما يقدم ولا يؤخر ولا يزيد ولا ينقص ولكنه يوافق القدر، فهو من قدر الله كوناً. أمّا شرعاً فيفترقان؛ فإن الدعاء وصلة الأرحام تدفع الأقدار من باب القدر الذي يدفع به القدر، أمّا النذر فليس كذلك. هذه هي العلاقة أو الفرق بين النذر وصلة الأرحام والدعاء وبين النذر والقدر. قلنا المسألة تحتاج لتصويب تحتاج لتدقيق.

الفوائد المستنبطة:

١- ذم البخل: البخل خلق ذميم يبغضه الله ويبغضه رسوله وكان يفر عنه الصالحون، بل والفطر السليمة تأباه، وهذا يستنبط من قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (فإنما يستخرج به من البخيل). النبي -صلى الله عليه وسلم- كما في الصحيح كان دائماً ما يدعو الله جلَّ وعلا: (اللهم إني أعوذ بك من الجبن والبخل)، والأنبياء قد رزقهم الله أرقى الصفات وأعلى السمات، ومن أهم صفات الأنبياء أنهم كانوا أهل كرم وكانوا أهل ضيافة؛ إبراهيم -عليه السلام- كان يسمى أبو الضيفان، كان ينتظر أي ضيف حتى يكرم ضيفه. فالبخل خلق ذميم، قد دعا النبي صلى الله عليه وسلم أن ينأى عنه قال: (اللهم إني أعوذ بك من الجبن والبخل)، وفي الحديث الذي فيه بعض الضعف لكن يستأنس فيه: (صفتان أو خلتان لا يمكن ان تكون في مؤمن: سوء الخلق مع البخل)، مع أن البخل أيضاً من سوء الخلق. والفرق بين البخل وبين الشح؟ البخل أن يبخل بماله عن الناس، والشح ان يبخل بمال غيره على الناس، هذا الذي لا يرضى بنعائم الله أن تنزل على العباد. فالبخل مذموم، وقد ذمه الله جلَّ في علاه وذمه رسوله -صلى الله عليه وسلم-.

٢- كلمة النذر (إن النذر لا يقرِّب شيئاً لابن آدم)، وأيضاً (لا تنذروا فإن النذر لا يرد عن القدر شيئاً)؛ فالنذر معرّف بالألف واللام الجنسية، تدل على العموم سواء كان نذراً مطلقاً أو نذراً مقيداً معلقاً؛ يعني إن قال: إن شفى الله ابني سأصوم يوم الاثنين، فهذا النذر معلق. وإن قال: نذراً عليّ أن أصوم لله جلَّ في علاه ثلاثة أيام، هذا النذر مطلق. وفي

النهاية الكل مذموم لأن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: (لا تنذروا)، سواء كان نذراً معلقاً أو نذراً مطلقاً.

الباب الذي بعده باب فيه صراحةً جملاً عظيمةً من أبواب العقيدة وهي حفظ الله، وأنت كيفما فعلت مع ربك سيفعل معك، كما قالوا إن أردت أن تعرف مقامك فانظر أين أقامك. ثم قال بعضهم كيف أعرف حالي عند ربي؟ كيف أعرف مقامي عند ربي؟ قال بعض العارفين: إن أردت أن تعرف مقامك أو حالك عند ربك فانظر إلى ربك أو مكانة ربك أو قدر ربك عندك، فأنت بهذا المقياس تعرف قدرك عند ربك. وهذا ننطلق منه إلى تفسير حديث النبي- صلى الله عليه وسلم-: (احفظ الله) الجزاء من جنس العمل، (احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك)، وهذا فيه جمل عظيمة جداً من أبواب العقيدة وأبواب القدر. سبحانك اللهم ربنا وبحمدك، أشهد أن لا إله إلّا أنت، أستغفرك وأتوب إليك، جزاكم الله خيراً.

باب قوله صلِّ الله عليه وسلّم (احفظ الله يحفظك)

حديثا ابن جعفر رضي الله عنه وأرضاه، وابن عباس رضي الله عليهم أجمعين، فقد بينا جملاً فيه وقد بينا فيها آداب، وآداب أدبنا بها النبي -صلى الله عليه وسلم-، وبينا نصايح وكلمات وجيزة تكتب في مجلدات تكتب بماء العين من النبي -صلى الله عليه وسلم- تعليماً لابن عباس، الوعاء الذي استطاع أن يحمل عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- هذا العلم ويبثه في الناس فيأتسون بكلام النبي -صلى الله عليه وسلم- وينتصحون بنصائحهم

"عن عبد الله بن جعفر -رضي الله عنه- أن النبي -صلى الله عليه وسلم- أردفه خلفه فقال: (يا فتى ألا أهب لك؟ ألا أعلمك كلمات ينفعك الله بهن؟ احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده أمامك، وإذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله. واعلم أنه قد جف القلم بما هو كائن، واعلم بأن الخلائق لو أرادوك بشيء لم يردك الله به لم يقدروا عليه، واعلم أن النصر مع الصبر، وأن الفرج مع الكرب، وأن مع العسر يسرا).

قد بينا جملاً من الآداب في هذا الحديث، أن النبي -صلى الله عليه وسلم- من تواضعه ومن حسن خلقه مع عظم مكانته وقدره الجليل عند ربنا جلَّ في علاه أنه كان قد أردف أكثر من صاحب من صحابة رسول الله؛ ابن عباس كان صغير السن والنبي -صلى الله عليه وسلم- كان كبير السن، ابن عباس معروف قدره، لكن قدر النبي -صلى الله عليه وسلم- معروف عند الله جلَّ في علاه فهو أكرم الخلق على الخالق، ومع ذلك يتواضع النبي -صلى الله عليه وسلم- ويردف خلفه ابن عباس ويردف خلفه عبدالله ابن جعفر، حتى يبين للناس أن النفوس المتكبرة أبعد ما تكون عن الله جل في علا وأن النفوس المتواضعة مهما علت فهي أقرب ما تكون لله جلَّ في علاه.

يحضرني حديث من أعظم الأحاديث يحفر بماء الذهب على الصدور أو يكتب بماء العين؛ أن النبي -صلى الله عليه وسلم- يشير لأصحابه قولاً وفعلاً ليؤثر في القلوب، قال: (قد أوحى الله إليّ أن تواضعوا هكذا، يرفعكم الله هكذا)، هذا فعل النبي -صلى الله عليه وسلم-، وحري بكل من يأتسي رسول الله أو يروي حديث النبي -صلى الله عليه وسلم- أن يفعل مثل ما فعل رسول الله. فكان يشير يقول: (أوحى الله إليّ أن تواضعوا هكذا)، من تواضع هكذا رفعه الله هكذا. فهذا تواضع النبي -صلى الله عليه وسلم- جعله أرفع الناس على الإطلاق، فأردف خلفه عبدالله بن جعفر وأردف خلفه عبدالله بن عباس وأردف خلفه الفضل بن عباس وأردف خلفه أسامة بن زيد كما بينا في الأسبوع الماضي.

أيضاً من هذه الجمل التي لابد أن نبتدئها قبل أن نبدأ في هذه الجمل العظيمة من جمل العقيدة: أن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: (يا غلام)، في هذا الحديث قال: (ألا أهب لك؟) أو قال: (ألا أعلمك)، فجعل الهبة والعلم يستويان، كأن العلم بدل عن الهبة. وهذا حري بنا أن نعرف أن أفضل الهبات وأفضل الصدقات هي صدقة العلم، فإن الإنسان لا يستطيع أن يسع الناس بماله لكن يستطيع أن يسع الناس بهشاشة وبشاشة وبحسن الخلق، وأفضل من ذلك وأجود من ذلك وأعظم من ذلك وأرفع من ذلك أن يسع الناس بصدقة العلم. والدلالة على ذلك حديث في الصحيحين عن ابن عباس -رضي الله عنه وأرضاه- أنه قال: (كان رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أجود الناس وكان أجود ما يكون في رمضان حين يدارسه جبريل القرآن، فلرسول الله أجود من الريح المرسلة)، فبين الجود وعظم الجود هو بتعليم القرآن للناس. العلم أفضل صدقة وأفضل هبة يستوجبها المرء، قد قال الله تعالى: ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا﴾ [البقرة: ٢٦٩]ثم ابتدأ النبي -صلى الله عليه وسلم- يعلم بهذه الكلمات العظيمات الجليلات، التي لو اعتقدناها اعتقاداً جازماً لارتاحت قلوبنا وأجسادنا، ولنشرنا بين الناس الطمأنينة وما فزع أحد بالنسبة للدنيا هذه طرفة عين. الكلمات قال فيها النبي -صلى الله عليه وسلم-: (احفظ الله)؛ بينا أن الله لا يحتاج لحفظ، بل العباد هم الذين يحتاجون للحفظ، قال الله

تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿١٥﴾﴾ [فاطر: ١٥]، ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ﴾ [الرعد: ٣٣] هو القائم سبحانه جلَّ في علاه على الدقيق والجليل لكل نفس. فالله جلَّ في علاه هو الحفيظ، ﴿فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [يوسف: ٦٤].

معنى (احفظ الله) يعني احفظ حدود الله جلَّ في علاه، احفظ أوامر الله جلَّ في علاه، احفظ نواهي الله جلَّ في علاه، احفظ كل ما يأتيك من قول الله (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا) ارعها سمعك كما قال ابن مسعود -رضي الله عنه وأرضاه-: إذا سمعت النداء فارعها سمعك فإنه أمر تأتمر به وتعمل به أو نهي تنتهي عنه عند ربك جلَّ في علاه. (احفظ الله)، فقد قال الله تعالى واصفاً أعلى الدرجات في الجنة وأن الذين يدخلون الجنة: ﴿هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴿٣٢﴾ مَّنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴿٣٣﴾﴾ [ق: ٣٢ - ٣٣]؛ يحفظ الله جلَّ في علاه في أوامره، يحفظ الله جلَّ في علاه في نواهيه.

(احفظ الله يحفظك)، أهم ما يحفظ الإنسان ربه فيه الإيمان والإسلام، أجلّ نعمة وأعظم نعمة ليل نهار لابد أن تسجد شكرا لله جلَّ في علاه عليها هو الإسلام والإيمان، إذ أنك إن لم تكن مسلماً أو مؤمناً لخلدت في نار جهنم، فهي أعظم نعمة وأجلّ نعمة. فأعظم ما يحفظ المرء الله فيه هو إيمانه، توحيده ألّا يشوبه أدنى شرك، فإن الله جلَّ في علاه توعد وعيداً أكيداً شديداً على من أشرك به شيئاً ولو كان الشرك شركاً أصغر، فقد قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٨]. فكأن سائلاً يسأل: أحفظ الله في توحيدي كيف؟ أقول احفظ الله في أسمائه الحسنى وصفاته العلا، لا يمكن لك أن تسمع قول الله تعالى: ﴿يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ [الفتح: ١٠]وأنت تتفكر في كيفية يد الله وكيفية أصابع الله وكيف تكون يد الله فوق أيديهم وتتفكر في صفات الله جلَّ في علاه، هذا يشوب توحيدك، هذا ينقصك عند ربك جلَّ في علاه. أنت ما حفظت الله في إيمانك وتوحيدك هنا، فلابد أن تنزه الله جلَّ في علاه مع إثباتك للصفة، فإن الآثار قد جاءت: (لا

تتفكروا في صفات الله، فإن الله لا تصل إليه فكرة)؛ تفكروا في آلاء الله، تفكروا في نعائم الله جلَّ في علاه، تفكروا في خلق الله. العبد المؤمن إذا نظر ودقق النظر يتفكر في ملك من الملائكة، خلقه الله له ستمائة جناح، لو فكرت في جناح واحد لم تعرف كيف تصف هذا الجناح، ولم تصل إلى كيفية هذا الجناح. فكيف بربك جل في علاه؟

احفظ الله في أسماء الله الحسنى، احفظ الله في صفات الله جلَّ في علاه؛ احفظ الله فلا تعطل، لا تقول سمع بلا سمع، عليم بلا علم، بصير بلا بصر. هذا والله ينقصك عند ربك جلَّ في علاه، لم تحفظ الله جلَّ في علاه، احفظ الله في توحيدك لله جلَّ في علاه. أو تقول لا سميع ولا سمع، لا بصير ولا بصر، لا عليم ولا علم، لم تحفظ الله جلَّ وعلا في توحيدك.

احفظ الله في أسمائه الحسنى، احفظ الله في ربوبية الله جلَّ في علاه، لا تعتقد في الأولياء أنهم ينفعون أو يضرون، كما يقول أحدهم أن الولي يحيي الجنين في بطن أمه أو الآخر يذهب إلى الولي ويقول انفعني أو ارفع الضر عني أو ائتني أو ارزقني، هذا لا يجوز بحال من الأحوال. إن الولي لا يملك أن ينفع نفسه فكيف ينفع الآخرين؟ أنت بهذا لم تحفظ الله في ربوبية الله جلَّ في علاه.

احفظ الله في توحيدك لربك جلَّ في علاه؛ لا تعتقد في نبي مرسل ولا ملك مقرب ولا ولي من أولياء الله ما لا يعتقد إلّا في الله جلَّ في علاه. احفظ الله في توحيد إلهيته، احفظ الله بأن لا تصرف عبادة لغير الله جلَّ في علاه، إن صرفت عبادة لغير الله فأنت لم تحفظ الله جلَّ في علاه. فإذاً النقيض: احفظ الله يحفظك فإن لم تحفظ الله لن يحفظك بحال من الأحوال. احفظ الله فلا تذبح إلّا لله، فلا نذر إلّا لله، فلا سجود إلّا لله، فلا طواف إلّا ببيت الله جلَّ في علاه لأنه أمر من أوامر الله جلَّ في علاه.

(احفظ الله يحفظك) احفظ الله في إيمانك كما قلت، احفظ الله في إسلامك، احفظ الله في توحيدك لا ترتد على عقبيك، ولن يكون ذلك إلّا بأن تتعرف على ربك حق المعرفة. ﴿إِنَّ

﴿ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ﴾ [النساء: ٤٨]، قال الله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادٗا يُحِبُّونَهُمۡ كَحُبِّ ٱللَّهِۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ [البقرة: ١٦٥] الذين حفظوا الله بحق ﴿أَشَدُّ حُبّٗا لِّلَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥]. وفي الصحيح عن ابن مسعود -رضي الله عنه وأرضاه- قال: (سألت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أي الذنب أعظم؟ قال: أن تجعل لله نداً وهو خلقك)، لا يمكن أن تفعل ذلك ولا يحق لك أن تفعل ذلك، هذا من أظلم الظلم، لم تحفظ ربك في توحيده لم يحفظك في بدنك ولا في إيمانك ولا في إسلامك كما سنبين.

احفظ الله في إيمانك، احفظ الله في توحيدك، احفظ الله في تفكيرك في صفاته الله جلَّ في علاه، احفظ الله في مقامك أمام الله جلَّ في علاه. فأنت تتفكر بأن الله جلَّ في علاه جامعك ولابد أن تقوم أمامه ولابد أن يكلمك الله ليس بينك وبينه ترجمان ينبئك بما فعلت، ﴿وَلِمَنۡ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ٤٦﴾ [الرحمن: ٤٦]، فمن حفظ الله جلَّ في علاه فله الجنتان.

(احفظ الله يحفظك)؛ احفظ الله في إيمانك وأعظم ما تحفظ الله فيه، واحفظ الله بعد ذلك في أركان الدين، إذا كنت تحفظ الله في توحيدك وإيمانك وإحسانك لابد أن تحفظ الله في قواعد الدين وفي أركان الدين، في أهم أركان الدين وفي أعظم أركان الدين: في الصلاة؛ الله جلَّ وعلا أمر بالمحافظة على الصلوات، قال الله تعالى: ﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلۡوُسۡطَىٰ﴾ [البقرة: ٢٣٨]، ﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمۡ يُحَافِظُونَ ٩﴾ [المؤمنون: ٩]، وفي المسند عن النبي -صلى الله عليه وسلم- وهو يتكلم عن الصلاة قال: (فمن حافظ عليها [يعني الخمس صلوات] كان له عهد عند الله أن يدخله الجنة)، فانظر بالمحافظة على الصلوات له عهد أن يدخل الجنة من أول وهلة أو يحاسب الحسنات والسيئات، لأن الصلاة خير موضوع. فالناس بالنسبة للصلاة مستكثر ومقل، فإن النبي -صلى الله عليه وسلم- بيّن أن أعظم ما يقترب به المرء لربه جلَّ في علاه الصلاة، حين (قال له مولاه: أريد مرافقتك في الجنة، فقال له: أو غير ذلك؟ قال: بل هو ذلك)، همة عارية

يريد مرافقة النبي -صلى الله عليه وسلم- في الجنة، فقال له النبي -صلى الله عليه وسلم-: (أعني على نفسك بكثرة السجود).

فأهم ما يحافظ عليه المرء الصلاة، وأهم المحافظة أن تحافظ على الصلاة في أول الوقت، فالتكاسل عن المحافظة عن الصلوات هذا قدح في إيمانك، ومع ذلك يكون بالنتيجة قدح في أن تكون قد حفظت الله جلَّ في علاه، وبعد ذلك المردود أنك لا يحفظك الله حفظاً كاملاً. كما في الصحيح عن ابن مسعود قال: (سئل النبي -صلى الله عليه وسلم- أي الأعمال أفضل؟ قال: الصلاة على وقتها) أو قال: (الصلاة في أول وقتها) يعني تحافظ على الصلاة في أول الأوقات. فمن توانى عن ذلك فهذا نقص في الإيمان، وإذا كان نقصاً في الإيمان لم يتم الحفظ التام الكامل لأن النبي -صلى الله عليه وسلم- يقول: (احفظ الله) بتمام الحفظ يحفظك بتمام الحفظ، الجزاء من جنس العمل؛ كلما نقص من المقدمة ينقص من النتيجة، كلما أنقصت من حفظك لله في إيمانك، في إسلامك، في أعمالك ينقص بمقدار ذلك حفظ الله لك ورعاية الله لك كما سنبين.

(احفظ الله يحفظك)؛ في أركان الدين في الصلاة كما بينا، وقد قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (من أتم ركوعهن وخشوعهن كن له نوراً وبرهاناً ونجاةً يوم القيامة). فإن كنت علمت أن أعظم ما تحفظ الله فيه من أركان الدين الصلاة، فالصلاة لها لازم، لا يمكن أن تدخل مقامك بين يدي الله جلَّ في علاه إلّا بالشرط الأكيد الذي اشترطه الله جلَّ في علاه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمۡتُمۡ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغۡسِلُواْ﴾ [المائدة: ٦]، فتحافظ على الوضوء. وقد جاء التصريح من النبي -صلى الله عليه وسلم- بأن الذي يحفظ الله يحفظ الله في وضوءه، وكثير من إخواننا يتكاسلون عن هذا الأمر، النبي -صلى الله عليه وسلم- قد أناط كمال الإيمان، ما أقول أصل الإيمان، أناط كمال الإيمان بحفظ الوضوء؛ قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (لا يحافظ على الوضوء إلّا مؤمن)، لا تترك عين إلّا وأنت على طهارة، تحتاج إلى قراءة القرآن، تحتاج إلى مس المصحف، تحتاج إلى صلاة جنازة، تذهب في مكان لا تجد ماء فيه ولا تجد فيه شيئاً ولا تراب ولا شيء من ذلك وتريد الصلاة

وحضرت الصلاة، إن لم تكن على وضوء تضرب أخماساً في بأسداس لأنك لم تتهيأ تهيئة صحيحة ولم تعمل بنصيحة النبي -صلى الله عليه وسلم- في الحفظ الكامل لله بحفظك للوضوء. بحفظ للوضوء قد حفظت الله؟ نعم، حفظت الله جلَّ في علاه في مثل هذا، قال النبي -صلى الله عليه وسلم- وهو يريد كمال الإيمان به: (لا يحافظ على الوضوء إلّا مؤمن).

وأيضاً من الأوامر والحدود التي أمر الله بالمحافظة عليها وفيها كمال الحفظ لله جلَّ في علاه "الأيمان"، والأيمان من الإيمان؛ الفرق بينها بالكسر والفتح هذا يدلك على الارتباط الوثيق بينهم. الإيمان والإيمان واحد، الأيمان من الإيمان وهي من تعظيم قدر الله جلَّ في علاه وتعظيم شأن الله جلَّ في علاه، ﴿وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ﴾ [الحج: ٣٢] ومن شعائر الله الأيمان ﴿وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ﴿٣٢﴾﴾ [الحج: ٣٢]. وقد قال الله تعالى: ﴿وَٱحْفَظُوٓاْ أَيْمَٰنَكُمْ﴾ [المائدة: ٨٩]، وقال الله جلَّ في علاه مشدداً على الذي يكثر من الحلف وهذه علامة وإشارة على كذبه، فقال الله تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ﴿١٠﴾﴾ [القلم: ١٠]، ولذلك كان علماؤنا من السلف الصالح كأبي حنيفة وغير أبي حنيفة يقول: كنت أشدد على نفسي حتى لا أكثر من الحلف، فضيقت على نفسي قلت كل قسم أصوم له يوماً، فأكثرت من الصوم فأتعبني وأجهدني الصوم، فقلت كل قسم أتصدق بدرهم حتى لا أخطئ، فقال: فلمّا تصدقت وكثر عليّ المال في التصدق كففت عن القسم أو الحلف بالله. لِمْ؟ حفظاً لأيمان جلَّ في علاه، لأن الذي تجده كثيراً ما يقسم هذا كأنه مستهين بعظمة جلال الله جلَّ في علاه، لكن الذي يضيق على نفسه ولا يقسم إلّا في المهمات والملمات فهذا هو الحق، ﴿وَٱحْفَظُوٓاْ أَيْمَٰنَكُمْ﴾ [المائدة: ٨٩].

أيضاً من باب حفظ حدود الله جلَّ في علاه من باب: احفظ الله الرأس وما حوى والبطن وما وعى، وهذه جاءت صريحة من النبي -صلى الله عليه وسلم- عندما قال لهم: (استحيوا من الله حق الحياء، قالوا: إنا لنستحيي من الله حق الحياء، فقال: ليس ذاك)، ثم

بين مثلاً أن تستحوا من الله حق الحياء أن (تحفظ الرأس وما حوت وتحفظ البطن وما وعت). تحفظ الرأس ثم حوت سواء كان العقل في القلب أو القلب في الدماغ فنحن نقول أهم ما يكون حفظ ما يكون للرأس هو حفظ العقل، وهذه من الضرورات الخمس بعدم شرب المسكرات، فشرب الخمر يضيع العقل. فالذي يتجرأ ويتجاسر علم أن يضيع عقله بشرب الخمر، لم يحفظ الله جلَّ في علاه، إذاً لم يُحفظ، هذه مقدمة ونتيجة. فقد قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (لعن في الخمر عشر)، والملعون مطرود من رحمة الله جلَّ في علاه، وقد قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ﴾ [المائدة: ٩٠]، في الآية التي بعدها قال: ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ [المائدة: ٩١]، قالوا انتهينا ربنا كما في حديث أنس وغير أنس -رضي الله عنهم وأرضاهم-.

فحفظ الله جلَّ في علاه في الرأس وما حوت حفظ العقل، فلا تضيع العقل بالمسكر ولا بالمخدر، يعني إن كان المسكر حرام فالمخدر حرام والمفتر حرام، المفتر كالدخان، وما أقصد بالمفتر كالأشياء الحلال كجوزة الطيب مثلاً، يعني جوزة الطيب عنّ ونجم الخلاف البعيد بين العلماء الآن "هل يجوز للإنسان أن يأكلها أو لا يجوز أن يأكلها؟"، بعض العلماء يقولون لا يجوز ويستندون إلى حديث النبي -صلى الله عليه وسلم- أنه نهى عن كل مسكر ومفتر؛ الجمبري حرام؟! السمك حرام؟! ما في أحد يأكل سمك إلّا ويحدث معه استرخاء بعد هذا الطعام فإذاً يكون حرام؟! الصحيح الراجح أن نقول إن الحديث أولاً ضعيف، والكلام كله يدور على المشكل لأنه يزول معه العقل، أمّا إذا حدث منه يكون مفتراً لكن العقل موجود فلا حرمة في ذلك.

احفظ الله في رأسك وما حوت، احفظ العقل هذا الأهم، واحفظ آلات الرأس وأهم آلات الرأس "البصر"، حفظ البصر. والله والذي نفسي بيده أنا أحكي عن الصالحين، ولا أحكي عن نفسي وما أستطيع أن أفعل شيئاً غير أن أقول اللهم اغفر لي زلاتي واحفظني من كل سوء ومن كل بصر لا يرضيك. فهذه المسألة يعاني منها الإنسان عناء ما يعلم به إلّا الله جلَّ في علاه، والصالحون صوتهم بدأ يصل إلى السماء، هم على درب والحين ساروا

وقد سبقونا ونحن في غفلة ما نعلم مداها وكيف سنفوت منها إلّا برحمة الله جلَّ في علاه. فحفظ البصر أنا أتكلم فيه فقط للتعليم، وأسأل ربي جلَّ في علاه أن يجعلني ممن يحفظ بصره.

قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (احفظ الرأس وما حوت)، منها آلة البصر وهو أهم ما لابد أن تحفظ الله في نفسك، في بصرك، قال الله تعالى: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ﴾ [النور: ٣٠]، وفي الآية الأخرى: ﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ﴾ [النور: ٣١]. ففي الصحيح أيضاً عن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: (العين تزني وزناها النظر)، نعوذ بالله من الخذلان، نعوذ بالله من غضب الله جلَّ في علاه. فالنظر سهم من أسهم الشيطان المسمومة، وليست العاقبة أو التعب أو العناء أو المعصية التي سيهلك بها الإنسان من النظر فقط، لا، المسألة كل المسألة أن النظر ممكن للإنسان بعد أن يبصر ما أبصره وينظر إلى ما نظر إليه يستغفر، لكن الإشكال أنها تطبع في القلوب لأن هذه صورة تنزل إلى هذا القلب. القلب كأنه كعبة، الكعبة لا يمكن أن ترضى بالأصنام حولها، ولذلك النبي -صلى الله عليه وسلم- أول ما فتح مكة ودخل طهر الكعبة بأسرها من الأصنام. وكلّما ينظر المرء إلى الصورة المحرمة تزرع صنماً في كعبته، تزرع صنماً في قلبه، وهذا لا يرضي الله جلَّ في علاه.

والإشكال كل الإشكال كيف ينزعها من القلب؟ يستطيع أن ينزعها من العين لأنه إذا فات المكان الذي رآها فيه انتهى الموضوع، نزعها من عينه، لكنها لا تنزع من القلب إلّا أن ينزعها الله جلَّ في علاه، وإذا كثرت -وهذا الذي يؤلمني ويقتلني- فإنها تغطي القلب، تغطي القلب بطبقة لا يستطيع أن يفرق بين حق ولا باطل، ولا يستطيع أن يوفق ولا يسدد، ولا أن ينظر الله إليه بعين الرحمة الكاملة، لأن الله يحب القلوب الطاهرة الصافية النقية التي قد تنظفت وتطهرت من الأصنام.

﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا۟ فُرُوجَهُمْ﴾ [النور: ٣٠]، ﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ

يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ ﴾ [النور: ٣١]، وفي الصحيح قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (العين تزني وزناها النظر). فاحفظ الله في بصرك، احفظ الله فلا تنظر إلى حرام بحال من الأحوال. اللهم احفظنا من كل سوء، اللهم نقنا يا رب العالمين من كل سوء.

أيضاً من آلات الرأس التي لابد أن تحفظ "الأذن"، ألّا تسمع إلّا بما يرضي الله جلَّ في علاه؛ السماع إلى الغناء، والركون إلى الفاحش من القول والبذيء، الركون إلى الغيبة والنميمة، هذا ليس حفظ لله جلَّ في علاه في هذه الآلات، فإذاً لا تُحفظ إن فرطت في مثل هذه الآلات.

أن تحفظ الرأس وما حوت، وأن تحفظ الفم، وحفظ الفم أهم ما يُحفظ فيه هو اللسان، اللسان الذي أخذ به أبو بكر -رضي الله عنه وأرضاه- وقال: هذا الذي أوردني المهالك. اللسان كان كالثعبان إن تركته لدغك ويمكن أن يقتلك وبل يميتك، كلمة واحدة ينزل الإنسان فيها إلى الدرك الأسفل من النار، كما قال النبي -صلى الله عليه وسلم- عندما قال له معاذ: أو مؤاخذون نحن بما نتكلم؟ قال: (ثكلتك أمك يا معاذ، وهل يكب الناس على وجوههم إلّا حصائد ألسنتهم). واللسان حفظه حفظ من القول البذيء، من القول الفاحش، إن الله جلَّ وعلا قال: ﴿ لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ ﴾ [النساء: ١٤٨]، وقد قال النبي -صلى الله عليه وسلم- وبيّن أكثر من قوله وفعله والأمر به والإرشاد: (إن الله لا يحب الفاحش البذيء)، وفي وصفه -صلى الله عليه وسلم-: ما كان صخاباً ولا كان فاحشاً ولا كان بذيئاً، بأبي هو وأمي. فالإنسان لابد أن يبعد نفسه عن البذاءة وعن الفحش في القول، وعن السوء في القول قدر ما أمكنه.

ولا إشكال فيما حدث من أبي بكر -رضي الله عنه وأرضاه-، أبو بكر هذا سيدنا وسيد آباءنا وهو خليفة رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، لكن نقول تكلم بكلمة في اللغة وعند العرب فيها نوع من السوء، لأنه لمّا قال عروة للنبي -صلى الله عليه وسلم-: ما أرى حولك إلّا أوباشاً من الناس -يقلل من شأنهم- أو أشواباً أخلاصاً -يعني سيفرون لا

يترابطون- من الناس فيفرون عنك عما قريب. فقال له الأسد الذي يدافع عن نفسه وعن أصحاب رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، قال له: امصص بظر اللات، هذه مسبة عظيمة، ومع ذلك النبي -صلى الله عليه وسلم- بجانبه ولم يقل يا أبا بكر قد تكلمت بقول فيه ما فيه من الفحش. إن النبي -صلى الله عليه وسلم- لم يقبل الإشارة من عائشة عندما قالت: تكفيك من صفية أنها كذا، قال: (لقد قلت كلمة لو مزج بها البحر لمزجته)، وهذا إنكار النبي -صلى الله عليه وسلم- على عائشة -رضي الله عنها وأرضاها-. وأبو بكر هنا في هذا المحل يقول: امصص بظر اللات، ومع ذلك لا يشتد عليه النبي -صلى الله عليه وسلم-. لِمَ؟ لأن هذا من باب الاستثناء.

في أمور وفي أوقات الله جلَّ وعلا وإن كان لا يحب الفحش من القول والبذيء من القول، لكن عندما يكون انتصاراً فإن الله جلَّ في علاه لا ينكر على من فعل ذلك، والدلالة على ذلك في سورة الشعراء: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَذَكَرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱنتَصَرُواْ مِنۢ بَعۡدِ مَا ظُلِمُواْۚ﴾ [الشعراء: ٢٢٧] من بعد الظلم ما فيها شيء، وأيضاً في سورة الحج: ﴿ذَٰلِكَۖ وَمَنۡ عَاقَبَ بِمِثۡلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيۡهِ لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُۗ﴾ [الحج: ٦٠]. الآية الصريحة قال الله تعالى: ﴿۞لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلۡجَهۡرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ إِلَّا مَن ظُلِمَۚ﴾ [النساء: ١٤٨]، وهذا الذي يحتج به لأبي بكر. وفي حديث عن النبي -صلى الله عليه وسلم-، حديث السند صحيح، صراحةً من القوة بمكان، وقد طبقه أبي؛ أبي جاءه رجل تكلم بكلام الجاهلية، فلمّا تكلم بكلام الجاهلية فقال له أبي: اعضض هنّ أبيك، فأبي طبق الحديث دون أن يكني، فحتى لا يستغرب الذين يجلسون بجانبه قال: سمعت الله -صلى الله عليه وسلم- يقول: (من تعزّى بعزاء الجاهلية فأعضوه بهنّ أبيه ولا تكنوا)، أمر ونهي؛ يعني أمر (أعضوه بهنّ أبيه)، (ولا تكنوا) نهى. الآن ما تقول أدب، هنا أدب لا يفل صاحبه، أدب تنطع هذا، كالحياء المستعار، لأن النبي -صلى الله عليه وسلم- صرح بهذا التصريح في هذا المجال. فإذاً الفاحش البذيء بعيد من الله جلَّ في علاه إلّا في مواطن قد أباح الله فيها رداً للعدوان أو رداً على من ظلم، فإن الله جلّ وعلا رضي بذلك أو أقر ذلك وأقر

النبي -صلى الله عليه وسلم-.

أيضاً من حفظك باللسان حفظ الله في لسانك أن تمتنع عن الغيبة، الغيبة مسقطة للعدالة، وهذا باتفاق العلماء أن الغيبة من الكبائر. فمن اغتاب أحداً في مجلس فقد سقطت عدالته إلّا أن يتوب ويؤوب إلى ربه جلَّ في علاه، ﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ﴾ [الحجرات: ١٢]، وقد قال النبي -صلى الله عليه وسلم- واصفاً الغيبة: (ذكرك أخاك بما يكره). كما قلنا الغيبة مسقطة للعدالة، فعلى المرء أن يتحرى لسانه في هذا الباب بالذات في عوام الناس، وأحرى ثم أحرى ثم أحرى في لحوم العلماء، فإن لحوم العلماء مسمومة وآيات الله في منتقصيهم معلومة، وكذلك طلبة العلم لأن طالب العلم هو الوزن بين العوام وبين العلماء.

لا أحد يأتي ويقول نحن نأتي ذلك ديانة، ائتي بدليل على ديانة!! أثبت أن هذا الرجل الذي تكلمت فيه يستحق أن تتكلم فيه، وأثبت أيضاً أنه قد تعدى شرع الله ثم روجع فلم يرجع، وأثبت أيضاً أنه فعل ذلك تعنتاً حتى تستطيع أن تهتك عرضه، العرض هذا عند الله ليس بالهين. إن ابن عباس -رضي الله عنه وأرضاه- وهو يطوف بالكعبة كان يقول: إن الكعبة عظيمة شريفة، إن الله عظّمك وشرّفك، وإن حرمة دم المسلم أعظم وأشرف منكِ عند الله جلَّ وعلا. جاء حديث أقوى ما يكون

(١) (درهم واحد ربا أشد من ست وثلاثين زنية، وإن أربى الربا استطالة الرجل في عرض أخيه المسلم)[1]، فما بالكم بطلبة العلم؟! فإن هذه معضلة ليست بعدها معضلة.

وعلى المرء أن يحفظ الله، فإن لم يحفظ الله في عوام الناس وقد أكل لحوم الناس في غيبتهم، فإن الله جلَّ في علاه لا يحفظه وسيتتبع عورته وسيهتك في ستره ويجعل الناس تلغ

(١) الراوي : عبدالله بن حنظلة | المحدث : الألباني | المصدر : صحيح الترغيب | الصفحة أو الرقم : ١٨٥٥ | خلاصة حكم المحدث : صحيح | التخريج : أخرجه أحمد (٢٢٠٠٧)، والبزار (٣٣٨١) واللفظ لهما، وابن أبي عاصم في ((الآحاد والمثاني)) (٢٧٥٩) باختلاف يسير.

في عرضه كما كان يفعل مع الناس. وإذا ارتقى فوق ذلك ووقع في العلماء، أخشى على فتنته في الدين، وعاقبة الأمر الفتنة في الدين. بعض المحدثين لا كان يحدث ودخل ثلاثة أرادوا فقط الشين بهذا المحدث، فواحد منهم قال: أكتب عنه لقنه، فكلما يأتي بحديث يكتب له الحديث يعني يغير من الأسانيد الموجودة في الأحاديث حتى يخرج ويقول: هذا نلقنه فيتلقن، هذا رجل متروك، هذا الرجل فيه كذا، ليتكلم فيه. فالمحدث بعدما مر على نصف الأحاديث فطن، ثم قال: ردوا علي الأحاديث، فردوا عليه الأحاديث فكان يخطّئ الخطأ ويصوّب الصواب، ثم نظر للثلاثة فقال للأول: أمّا أنت فأسأل الله ألّا تموت حتى يفتنك الله في دينك، فما مات حتى فتنه الله. وأمّا الثاني كان رجلاً عالماً محدثاً حافظاً، قال له: اللهم لا تنفع بعلمه، فدعا عليه قال لا ينتفع الناس بالعلم، قال: مات وما أحد من الدنيا انتفع بعلمه بحال من الأحوال. والثالث دعا عليه بالبلاء في البدن، وقد ابتلاه في بدنه.

فإن لحوم العلماء عند الله جلَّ في علاه لها ما لها من القدر، هذا العالم يحمل الشرع ويحمل ورث النبي -صلى الله عليه وسلم-، فالذي يتجرأ على العالم كأن العالم بوابة للنبي -صلى الله عليه وسلم-. كما قلنا معاوية بوابة الصحابة، فمن تجرأ على معاوية دخل في الصحابة كالسهم، وأيضاً العلماء بوابة النبي -صلى الله عليه وسلم- وبوابة صحابة رسول الله -صلى الله عليه وسلم-. إن النبي -صلى الله عليه وسلم- لم يجعل خلفه أحد إلّا العلماء، قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (إن العلماء هم ورثة الأنبياء، وإن الأنبياء لم يورّثوا درهماً ولا ديناراً ولكن ورّثوا العلم، فمن أخذه أخذ بحظ وافر). فمن وقع في العلماء صغيراً كان أو كبيراً داعياً إلى الله جلَّ في علاه، فالحذر الحذر من الفتنة في الدين.

واحفظ الله جلَّ في علاه في لسانك في النميمة، أن تمشي بين الناس بالوقيعة، هذا يفسد المجتمعات ويأتي بقوائم الأمة على أصلها. قد قال النبي -صلى الله عليه وسلم- لهذا الفساد العظيم: (لا يدخل الجنة قتات)، ولذلك قال العلماء هذه من أكبر الكبائر، من

الكبائر العظيمة عند الله هو المشي بين الناس بالوقيعة، نقل الكلام من أجل الإفساد بين المجموعات. (لا يدخل الجنة قتات)، وفي رواية: (لا يدخل الجنة نمام). كأن سائلاً يسأل: ولِمَ؟ ما عظم هذه الكبيرة؟ يقول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (فساد ذات البين) هذا أثر النميمة أنه يوقع بين الاثنين، (فساد ذات البين هي الحالقة، لا أقول تحلق الشعر ولكن أقول تحلق الدين)، تهدم الدين من قوائمه. ما دمت قد حفظت الله جلَّ وعلا في لسانك، حفظ الله عرضك ولم يهتك هذا الستر.

احفظ الله في بطنك وما وعت؛ حفظ الله في البطن ألّا تأكل حراماً، فالجسد الذي ينبت من السحت فالنار أولى به. وقد قال الله تعالى: ﴿يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰا۟ وَيُرْبِى ٱلصَّدَقَٰتِ﴾ [البقرة: ٢٧٦]، الناس يغضون الطرف عن الربا، يحتاجون إلى فتوى صغيرة يقول هذه ممكن فيها شبهة أدخل فيها، هذا الرجل إذا تجرأ على مثل هذه المسائل التي قد أشتبه فيها أو اختلف العلماء فيها سيلج إلى الحرام سيلج إلى الحرام. علماؤنا ونحن نتعلم على أيديهم وتحت أرجلهم كانوا يعملون لنا دوائر، يقولون: هذه الدائرة العظيمة دائرة المباح، داخلها دائرة أضيق دائرة المكروه، داخلها دائرة أضيق وأقل دائرة المحرم. فمن ارتاح أخذ يرتع في دائرة المباح ويدور ويكثر من المباحات يقع في المكروه لا محالة، فإذا دار بهذه السرعة وأباح لنفسه أن يدور في دائرة المكروه وقع في المحرم لا محالة، وهذا وقعنا فيه ووقع فيه كثير من إخواننا طلبة العلم الذين يأخذون بالوسائل. فإذا أخذ المشتبهات وقع في الحرام، فمن أكل درهماً واحداً رباً فله الوعيد الشديد الذي قال به النبي -صلى الله عليه وسلم-: (درهم واحد ربا أشد من ست وثلاثين زنية)، وقد قال الله تعالى: ﴿يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰا۟ وَيُرْبِى ٱلصَّدَقَٰتِ﴾ [البقرة: ٢٧٦]، وقال الله تعالى: ﴿فَأْذَنُوا۟ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٧٩]. فإن النبي -صلى الله عليه وسلم- بين أن الجسد الذي يأكل الحرام إذا رفع يديه الإنسان، كما جاءت في بعض الآثار وإن تكلم فيها بعض العلماء، أن الله جلَّ في علاه لا يقبل من داعي دعوة إلّا أن يطيب مطعمه. وشواهد كثيرة تؤكد هذا، وإن كان الحديث الذي جاء فيه ما فيه، فحفظ البطن ألّا يأكل حراماً.

وأيضاً من حفظ البطن حفظ الفرج؛ قد قال النبي -صلى الله عليه وسلم- وتكفل الجنة لمن حفظ الله في لسانه وفي فرجه ألّا يزني، والفرج يصدق ذلك ويكذبه: (من يضمن لي ما بين لحييه وما بين فخذيه [يعني الفرج] أضمن له الجنة)، وقد قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (اتقوا الدنيا واتقوا النساء، فإن أول فتنة بني إسرائيل كانت فيه النساء)، وقد قال الله تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ﴾ [آل عمران: ١٤]... إلى آخر الآية. فحفظ الله جلَّ في علاه في البطن وما وعى بأن يحفظ الفرج، ومن حفظ فرجه وحفظ لسانه ضمن له النبي -صلى الله عليه وسلم- الجنة، وهذا من باب يحفظك الله جلَّ في علاه.

(احفظ الله يحفظك)؛ هذه الجملة الثانية جملة عظيمة جداً جليلة القدر، (احفظ الله يحفظك) هذه من باب المقابلة، كقول الله تعالى: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾ [البقرة: ١٥٢]، ﴿إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ﴾ [محمد: ٧]، وأيضاً قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء)، (إن الله رفيق يحب كل رفيق ويعطي الرزق ما لا يعطي على غيره)، فهذه من باب المقابلة. ولابد أن ننظر نظرة دقيقة في مسألة المقابلة هذه؛ هل هي مقابلة استحقاق أم مقابلة منة وفضل وكرم من الله جلَّ في علاه؟

المعتزلة يقولون هذه مقابلة استحقاق، قد حفظنا الله في أسماعنا، حفظنا الله في أبصارنا، حفظنا الله في قلوبنا، حفظنا الله من الشهوات والشبهات، حفظنا الله في الحلال والحرام، فنستحق حفظ الله جلَّ في علاه لأن الله جلَّ وعلا جعلها مقدمة ونتيجة؛ (احفظ الله)، قد حفظنا الله فلابد أن يحفظك الله جلَّ في علاه. المعتزلة يقولون هذا استحقاق، والصحيح الراجح أن هذا سوء أدب مع الله جلَّ في علاه، الملك ملكه والكون كونه والخلق خلقه، يعذب العابد الصالح ولم يكن ظالماً له سبحانه وتعالى، كما قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (لو أكب أهل السماوات والأرض في النار لم يكن ظالماً لهم)، سبحانه جلَّ في علاه. دخل النبي -صلى الله عليه وسلم- على أصحابه ليبين لهم أنهم لن يدخلوا الجنة إلّا

برحمة الله جلَّ في علاه، فقالوا: يا رسول الله ولا أنت؟ قال: (ولا أنا إلّا أن يتغمدني الله برحمته). فهذه المقابلة ليست مقابلة استحقاق بحال من الأحوال، هذا واجب أوجبه الله على نفسه، هذا فضل ونعمة ومنة من الله جلَّ في علاه.

(احفظ الله يحفظك)؛ وحفظ الله للعبد هو الذي ينقصنا في هذه الدنيا، حفظ الله للعبد هو الذي ينجيك من هذه المهالك من هذه البليات في هذه الملمات، حفظ الله للعبد هو الذي يصل به إلى مرافقة النبي -صلى الله عليه وسلم-. فالمرء في كل آن وحين وفي كل لحظة وفي كل نفس يحتاج لحفظ الله جلَّ في علاه، وأروع ما نقوله في هذا وأعظم ما يكون حفظاً من الله لعباده أن يحفظ عليك دينك، لا يفتح المجال لك أن ترتد عن دينك. إن الإنسان في ظلمة وفي جهل، لو تركه الله لنفسه لكفر في لحظة واحدة. كما في الحديث الذي في الصحيح القدسي (قال الله تعالى: يا عبادي كلكم ضال)، أنتم في ظلم وجهل، كل الناس يميل إلى الكفر والردة، ولكن الله جلَّ وعلا يحفظ من يشاء، (كلكم ضال إلّا من هديته).

فإن الحفظ أعظم الحفظ للإنسان أن يحفظ الله عليك دينك، وأن يحفظ الله عليك إيمانك، وأن يختم لك بالأعمال الصالحات، فإن الأعمال بالخواتيم. إن الله جلَّ في علاه قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ١٠٢﴾ [آل عمران: ١٠٢]، وهذه ليست بيد الإنسان، لا يستطيع الإنسان أن يموت مسلماً بيده. إنه على فراش الموت -كما حدث لأحمد وغيره إن صحت القصة- يأتيه الشيطان ويقول ما اتركه في هذه اللحظات يمكن أن يفتن في دينه، فيأتي يفتنه في دينه، ولا يثبت إلّا من ثبته الله جلَّ في علاه، ولا يختم بالصالحات إلّا من ختم الله له بالصالحات. ولذلك كان يبكي الثوري ويبكي إبراهيم بن أدهم، يبكي الفقهاء من السلف ليس على المعاصي، قالوا: المعاصي لا تبكينا، يبكينا ما ننتظر في الخواتيم، أخشى ألا يختم الله عليّ بالصالحات. فالمصيبة كل المصيبة في مسألة عندما يحال بينك وبين عقلك، يحال بينك وبين قلبك بما يختم لك، فالأعمال بالخواتيم.

أفضل الحفظ أن يحفظ الله عليك إسلامك، أن يحفظ الله لك إيمانك، أن يحفظ الله لك توحيدك، هذا أفضل الحفظ. وقد بينه النبي -صلى الله عليه وسلم- أنه لا يمكن بطرفة عين أن يحفظ إلّا من قبل الله جلَّ في علاه، (يا حي يا قيوم برحمتك أستغيث، أصلح لي شأني كله ولا تكلني إلى نفسي طرفة عين). ولك أروع الأمثلة في الكتاب لأنبياء الله جلَّ في علاه لولا حفظ الله لهم لضعفوا وهلكوا؛ هذا نوح -عليه السلام- لولا حفظ الله له وحفظه لإيمانه لهلك، إن نوح قد طلب من الله طلب الجاهلين، هذا الطلب وصفه الله أن هذا طلب الجاهلين وأنت يا نوح لست منهم، أنت أرفع من هؤلاء وأنت أعظم عندي من هؤلاء، فلا تطلب وتشاكل ما قاله الجاهلين. كأن الله يهذبه ويقول لا تقول مثل ما قال الجاهلون، لمّا قال نوح -عليه السلام-: ﴿رَبِّ إِنَّ ٱبۡنِي مِنۡ أَهۡلِي وَإِنَّ وَعۡدَكَ ٱلۡحَقُّ وَأَنتَ أَحۡكَمُ ٱلۡحَٰكِمِينَ﴾ [هود: ٤٥]، ﴿قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيۡسَ مِنۡ أَهۡلِكَۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيۡرُ صَٰلِحٖۖ﴾ [هود: ٤٦]، في القراءة الأخرى (عَمِلَ غَيْر صالح)، فبعدها قال: ﴿فَلَا تَسۡـَٔلۡنِ مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌۖ إِنِّيٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ ٤٦﴾ [هود: ٤٦]. أنت لست منهم، ولا بد أن نقول أنت لست منهم، أنت من أولي العزم من الرسل، أنت أعظم الخلق عند ربك جلَّ في علاه لكن لا تشاكل للجاهلين في قولهم، ﴿إِنِّيٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ ٤٦ قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِكَ أَنۡ أَسۡـَٔلَكَ مَا لَيۡسَ لِي بِهِۦ عِلۡمٞۖ وَإِلَّا تَغۡفِرۡ لِي وَتَرۡحَمۡنِيٓ أَكُن مِّنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٤٧﴾ [هود: ٤٦ – ٤٧]. فهنا نوح -عليه السلام- وفقه الله وسدده وحفظه من كل سوء، حفظه أن يقول قول الجاهلين، حفظه أن يشاكل الجاهلين في قولين، حفظه الله جل في علاه لأنه حفظ الله. حفظ الله فحفظه الله، حفظ عليه إيمانه، حفظ عليه إسلامه، حفظ عليه توحيده، حفظ عليه أدبه معه سبحانه جلَّ في علاه.

أروع من ذلك ما بين المثلين، أخذنا الأول والآخر؛ خاتم الأنبياء والمرسلين هو محمد -صلى الله عليه وسلم-، سيد الخلق أجمع هو محمد -صلى الله عليه وسلم-، وهو يقول: (أنا سيد ولد آدم ولا فخر). قد قال الله له جلَّ في علاه: ﴿وَلَوۡلَآ أَن ثَبَّتۡنَٰكَ لَقَدۡ كِدتَّ تَرۡكَنُ إِلَيۡهِمۡ شَيۡـٔٗا قَلِيلًا ٧٤ إِذٗا لَّأَذَقۡنَٰكَ ضِعۡفَ ٱلۡحَيَوٰةِ وَضِعۡفَ ٱلۡمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيۡنَا نَصِيرٗا ٧٥﴾

[الإسراء: ٧٤ – ٧٥]. هنا الله جلَّ وعلا يقول: (وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ)؛ أنت يا محمد أعظم الخلق أجمعين، لولا حفظ الله لإيمان العبد وإسلام العبد ما حفظ بحال من الأحوال. (كلكم ضال إلّا من هديته)، التوفيق من الله جلَّ في علاه.

يوسف -عليه السلام- لِمَ لم يكد يزل؟ لأن الله قد حفظه، حفظ الله فحفظه الله جلَّ في علاه. ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ وَهَمَّ﴾ [يوسف: ٢٤]، القراءة التقديرية التفسيرية التي لابد أن نقول فيها (لَوْلَا) حرف امتناع الوجود، فكأن القراءة تفسيرية تقول: ولقد همت به ولولا أن رأى برهان ربه لهم بها، هذا الراجح الصحيح الذي لابد أن تفهم الآية به، يعني امتنع هم يوسف. لكن قول بعض يقول قد هم بها هم الحب أو هم العاطفة أو هم الدفع أو هم الإرشاد، كل هذا تفسيرات لا دليل عليها. الصحيح الراجح أن نقول من اللغة (لولا) حرف امتناع للوجود، امتنع الهم بها لوجود برهان الله جلَّ في علاه، قال: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ﴾ [يوسف: ٢٤]، قال الله تعالى ليبين لك حفظه ليوسف نبي من أنبياء الله جلَّ في علاه: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [يوسف: ٢٤]، حفظ الله فحفظه الله جلَّ في علاه، الجزاء من جنس العمل.

إبراهيم -عليه السلام- خشي على نفسه الكفر، وخشي على أولاده الكفر، وخشي على نفسه عبادة الأصنام وهو أبو الأنبياء، لكنه لمّا حفظ الله حفظه الله. ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ [إبراهيم: ٣٥ – ٣٦]، وفي الآية الأخرى قال: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِى قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٢٤﴾﴾ [البقرة: ١٢٤]، حفظ الله فحفظه الله جلَّ في علاه.

يحفظ عليك إيمانك، يحفظ عليك إسلامك، يحفظ عليك توحيدك، يختم لك بالصالحات وهذا أهم ما يصبو إليه المرء، أهم ما يروم إليه المرء هو أن يختم الله له بالصالحات، أن يحفظ عليه هذا الإسلام، لأن الخلود في النار منوط بالكفر والابتعاد عن

الإسلام، والخلود في الجنة منوط بالتمسك بالإسلام. (احفظ الله يحفظك)؛ فإن حفظت الله جلَّ في علا في توحيده حفظك وختم لك بالصالحات. احفظ الله بأوامره وحدوده، في النواهي يحفظك الله جلَّ وعلا من كل سوء في بدنك وفي مالك وفي أهلك وفي رزقك وفي ولدك وفي زوجك وفي كل من تحب، إن حفظت ربك جلَّ في علاه يحفظك الله جلَّ في علاه، قال الله تعالى مبيناً حفظه لعباده في الأرزاق والأقوات وكل شيء: ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ يَحۡفَظُونَهُۥ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۗ﴾ [الرعد: ١١].

يمكن أن يحفظ الله دين العبد بحجب الدنيا عنه، لأن القاعدة عند العلماء: إعطاء الدنيا أو حجب الدنيا ليست علامة على الكرامة ولا علامة على الغضب ولا السخط، لكن الأفضل والأخير ما اختاره الله لنبيه. ترى أثرى الأثرياء وأغنى الأغنياء لا تقول إن هذه كرامة من الله على العبد، أو ترى أفقر الناس الذي لا يجد طعاماً ولا شراباً لا تقول إن هذا سخط من الله أو غضب من الله. الدنيا ليست علامة، وأيضاً سحب الدنيا ليست علامة على السخط، والعكس بالعكس، ﴿إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ﴾ [الحجرات: ١٣]. فهنا الله جلَّ وعلا يمكن أن يحجب عن الإنسان الدنيا من أجل دينه، وهذه جاءت جلية في بعض الآثار في الطبراني بسند ضعيف لكن الشواهد تقوي هذا المعنى: (إن من عبادي من لا يصلحه إلّا الفقر ولو أغنيته لفسد حاله)، يعني فسد إيمانه وضاع، وأنا أريده للآخرة ما أريد له الدنيا. (إن من عبادي من لا يصلحه إلّا الفقر وإن أغنيته فسد حاله، وإن من عبادي من لا يصلحه إلّا الغنى ولو أفقرته لفسد حاله)، انظر إلى لطف الله ورحمة الله بالعبد، (وإن من عبادي من لا يصلحه إلّا السقم ولو أعطيته الصحة لفسد حاله، وإن من عبادي من ينفعه إلّا الصحة ولو أمرضته لفسد حاله)، فهذه فيها دلالة واضحة على أن الله جلَّ وعلا يحجب الدنيا ويحجب الصحة عن الإنسان حتى يحفظ عليه دينه.

(٢)قال ابن مسعود[1]: إن الرجل ليعقد الصفقة [يعني من المال]، فينظر الله إليه فيأمر ملائكته أن يحجبوا ذلك عنه. هو يحسب أن هذا هلاك وبلية من الله، وهذه نجاة من الله جلَّ في علاه، فيقول الله للملائكة: لو يسرتها عليه لفسد دينه، ولو فسد دينه لذهب إلى النار والعياذ بالله، والله يريده للجنة، فهذا من فضل الله على العبد. ولذلك ابن جرير الطبري بسنده إلى ابن عباس روى في تفسير قول الله تعالى: ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ﴾ [الأنفال: ٢٤]؛ قال: يحول بين المرء وبين معصيته، أراد المرء بشدة وذهب مسرعاً يهرول إلى المعصية فيصد الله عليه الباب ويقطع عنه وسائل الشر ووسائل المعصية، لأنه يريد حفظ دينه. أمّا العبد المبغوض عند الله جلَّ في علاه، المطرود من رحمة الله، كل أبواب المعصية تفتح له على مصرعيها، لكن أبواب الطاعة حتى لو باجتهاد وجد يذهب إليها يصد عنها ولا يمكن أن يذهب إليها، وكل أبواب المعصية مفتوحة من مال وجاه ونساء وغير نساء، تفتح له لأن الله قد أبعده عنه. قال الحسن البصري عندما قيل له في أهل المعاصي، قال: هانوا على الله فعصوه، لأنه هين على ربه لا يساوي شيئاً فالله جلَّ وعلا فتح له الباب ليعصيه حتى يأتي يوم القيامة إلى نار تلظى، قال: هانوا على الله فعصوه، ولو عزوا عليه لعصمهم. فقد يحجب الله الدنيا والصحة والمال والجاه والسلطان عن العبد حفظاً لدينه.

قال: (احفظ الله يحفظك)، فإن حفظت الله في توحيدك وفي إسلامك وفي إيمانك، حفظ الله عليك أعمالك وختم لك بالصالحات، أيضاً يحفظك الله جلَّ وعلا في المال والأهل والولد والزوجة. فإن الله جلَّ وعلا قال: ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ [الرعد: ١١]؛ قال ابن عباس: ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ﴾ له ملائكة ﴿يَحْفَظُونَهُۥ﴾ من كل الشرور ومن كل سوء، من كل المهالك، يحفظونه بأمر الله. الله أمر الملائكة أن يكونوا حفظاً لك، يحوطونك بكل حفظ ورعاية إلّا إذا قدّر الله شيء، خلوا

(١) الراوي : [عبدالرحمن بن عبدالله بن مسعود] | المحدث : الألباني | المصدر : السلسلة الصحيحة | الصفحة أو الرقم : ٥/ ٤٢٠ | خلاصة حكم المحدث : إسناده صحيح.

بينها وبين القدر. وهذا جاء عن علي بن أبي طالب -رضي الله عنه وأرضاه- بتفصيل أكثر من هذا الإجمال قال: إن لكل مكلف ملكين يحفظانه من كل سوء إلّا مما قدره الله جلَّ في علاه، فإذا جاء القدر خليا بينه وبين القدر. وقال مجاهد: لكل عبد ملك يحفظه ويحوطه من كل الهوام والجن والإنس، كلما يأتي شيء يدفع نفسه عليك ليهلكك الله يحفظك، وأنت تنام على سريرك وترى ذلك، الهوام ممكن أن تقتلك، من الذي يحفظك؟ هو الله جلَّ في علاه. فالملك إلّا أن يعلم أن هذا قدر فيخلي بينك وبين القدر، وهذا مصداق لبعض الآثار والإسرائيليات؛ إني والإنس والجن في نبأ عظيم، أخلق ويُعبد غيري، أرزق ويُشكر سواي، خيري للعباد نازل وشرهم إليّ صاعد، أتحبب إليهم بالنعائم ويتبغضون إليّ بالمعاصي وأنا أكلأهم على فروشهم.

إن الله جلَّ وعلا هو الذي يكلأ المرء على فرشه، وقد جاء بها صريحاً في كتابه: ﴿قُلۡ مَن يَكۡلَؤُكُم بِٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ مِنَ ٱلرَّحۡمَٰنِۚ﴾ [الأنبياء: ٤٢]، استنكاري: أنتم تقرون أن الذي يحفظكم على فرشكم هو الله جلَّ في علاه فكيف تعبدون غير الله جلَّ في علاه؟! إذا حفظ العبد ربه جلَّ في علاه حفظه الله جلَّ في علاه، وحفظه في ماله كما قلت، وحفظه في ولده، بل وحفظه في جسده. كما سنضرب أروع الأمثلة التي ضربها الله لنا في كتابه وضربها لنا النبي -صلى الله عليه وسلم- في سنته، والسلف الصالح يبينون لنا أن العبد يعامل بما عمل به ربه. إن أردت أن تعرف أين مقامك فانظر أين أقامك، إن أردت أن تعلم مقامك عند ربك فانظر مقام ربك من قلبك، هذا الذي لابد أن تنظر إليه. الجزاء من جنس العمل، المقابلة؛ كان رجلاً كبيراً عجوزاً شاخ سنه وضعف عظمه، وكان يمشي مع بعض الشباب، الشباب فيهم الخفة والقوة، فمروا على مخاضة [مخاضة بركة]، فلابد هذه المخاضة يخوضونها، فالشباب ما استطاعوا أن يثب منهم وثبة يصل إلى الضفة الثانية، قام هذا العجوز فوثب وثبة شديدة حتى بلغ المنتهى، فنظروا له باندهاش وعجب، فسألوه عن ذلك فقال: هذه جوارح حفظنا الله فيها في الصغر فحفظها الله لنا في الكبر.

الله جلَّ في علاه يبين لنا أن حفظ الله وحده يحفظ الله به الذرية ويحفظ به الرزق والمال، الله تعالى بعد ما بين لنا أن المدينة بأسرها أرادوا هدم الجدار وأراد الله إقامة الجدار وهذه لوامع القدر أيضاً، اجتمعت الأمة بأسرها على هدم الجدار وأرادوا استئجار موسى والخضر. القدر يأتي هنا؛ أبى الله وأمر الخضر أن يقيم هذا الجدار لأن تحت الجدار كنزاً ليتيمين. لماذا يحفظ اليتيمين مع أن المدينة اجتمعت كلمتهم على هذا الجدار؟ لأن الصلاح قد وقف حائلاً بينهم وبين هذا الكنز، قال الله تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ [الكهف: ٨٢]، قال الله جلَّ وعلا في العلة قبلها: (وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا). فمن أراد حفظ أولاده فعليه بالصلاح، فمن أراد حفظ رزق أولاده فعليه بالصلاح، لا بالمال ولا بالجاه ولا بالسلطان، بالصلاح. قال الله تعالى: ﴿وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا﴾ ؛ هي علة متقدمة، ﴿وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ [الكهف: ٨٢]. ﴿وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا۟ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَٰفًا خَافُوا۟ عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْيَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ۝٩﴾ [النساء: ٩].

فمن حفظ الله جلَّ في علاه حفظ الله ولده، ولذلك كان سعيد بن المسيب بعد قراءة هذه الآية يقول لابنه: والله إني لأزيد في صلاتي من أجلك؛ أزيد في تقواي أزيد في عملي الصالح لأن الله يحفظك بعملي هذا. ولذلك قال ابن المنكدر وغير ابن المنكدر: إن الله يحفظ الولد بصلاح الأب؛ بل يحفظ الولد وولد الولد وولد الولد إلى أربعين دويرة حتى الجيران يحفظهم الله بالصلاح. ولذلك كان علماؤنا يقول: تخير الجار قبل أن تتخير الدار، إن تخيرت صالحاً من الصلحاء الفضلاء يكون جاراً لك فهذه بركة ليست بعدها بركة، لعل الله جلَّ وعلا يشفّعه فيك، لعل الله جلَّ في علاه يصلح أو يحفظ عليك رزقك وولدك بصلاح الجار الذي بين يديك. ولذلك كان ابن المسيب يقول: إني لأزيد في صلاتي من أجلك؛ من أجل ولده، فهذه الزيادة زيادة الصلاح وزيادة التقوى تحفظ الأولاد.

(احفظ الله يحفظك)؛ أعجب من ذلك وأفضل من ذلك وأروع من ذلك أن نضربه

مثلاً بأن الله جلَّ وعلا جنّد حتى الجمادات لحفظ الإنسان، إذا حفظ الله صنع الله للذي يحفظه ما لم يصنع لغيره، كرامات من الله جلَّ في علاه. أقول إن الله جلَّ في علاه يجنّد السماء والأرض للذي يحفظه وللذي يتقيه وللذي يكون ولياً لله جلَّ في علاه؛ هذا سفينة مولى رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، كان في صحبة ثم تاه وضاع منهم فلم يعرف مكانهم، انظر حفظ الله فحفظه الله جلَّ في علاه، جند الله له أسداً هو الذي يدل على مكان هؤلاء. ناداه باسمه أو قال: أيها الليث إني سفينة مولى رسول الله، ما إن سمع الأسد هذا القول وهو مولى رسول الله. جند الله له أسداً لا يعقل من العجماوات، ومع ذلك عقل عنه، قال: إني سفينة ألا تعرفني؟ إني سفينة مولى رسول الله، قد غبت عن صحبتي، فأخذه فأوصله إلى هذه الصحبة.

أعجب من ذلك؛ قد حفظ الله الهدهد من القتل لأنه حفظ الله، وهذا هو العجب اللطيف التي تخرج بها من كل هذا، الهدهد ليس مكلفاً لكنه لمّا حفظ توحيد الله جلَّ في علاه حفظه الله من العقاب الأليم "القتل"، تعرفون كيف؟ أما قال سليمان كما وصف الله لنا: ﴿وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ فَقَالَ مَالِيَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ ۝٢٠ لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَا۟ذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّى بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ۝٢١ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ۝٢٢ إِنِّى وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَىْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ۝٢٣ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ﴾ [النمل: ٢٠ – ٢٤]. انظر الهدهد يحفظ توحيد الله جلَّ في علاه، الهدهد يحفظ قدر الله جلَّ في علاه، الهدهد يغار على دين الله، فما بالنا العجماوات يغارون على دين الله جلَّ في علاه ولا نغار على ديننا؟ العجماوات يحفظون حدود الله جلَّ في علاه، ولا يحفظ أحد منا حدود الله. الفضيحة ليست بعدها فضيحة، يوم القيامة إن الله جل وعلا لو قارن بيننا وبين الهدهد لكنا تحت رجله، الله المستعان. يغفر الله لنا من التعدي والتجرؤ على حدود الله جلَّ في علاه. فالهدهد لمّا حفظ حدود الله جلَّ في علاه، لمّا حفظ توحيد الله عافاه الله من العقاب، لأن سليمان جزم وكان عازما أن يقتله، ﴿لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَا۟ذْبَحَنَّهُۥٓ﴾ ، فعافاه الله ونجاه الله لأنه حفظ توحيد الله جلَّ

في علاه، أبى أن يرضى بأن يسجدوا للشمس من دون الله، والله هو الذي يخرج الخبأ من السماوات ومن الأراضين.

ونسأل الله جلَّ في علاه أن يجعلنا ممن يحفظ الله فيحفظه الله جلَّ في علاه. أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم.

تتمة الكلام في القدر

فصلنا الناس إلى طوائف أربعة بالنسبة لأبواب القدر: طائفة هم شرار الخلق على الإطلاق، وطائفة هم خيار الخلق على الإطلاق، وطائفتين وسط؛ هاتين الطائفتين تتفاوت الشرور بينهما.

♦ أمّا شرار الخلق هم الذين عند الطاعات قدريون وعند المعاصي جبريون، كأنهم ينسبون الخير لأنفسهم وينسبون الشر لله جلَّ في علاه؛ فهو قدري عند الطاعة يقول مني ومن علمي ومن فعلي ومن ذكائي ومن فطنتي، وعند المعصية يقول قدر الله وما شاء فعل، كأن الله أجبره عليها، فينسب الشر لله وينسب الخير لنفسه، هؤلاء شرار الخلق على الإطلاق.

♦ وخيار الخلق وأفضل الخلق على الإطلاق هم أهل السنة والجماعة الذين ينسبون الخير لله جلَّ في علاه ويقولون خلق الله كل شيء، عند الشر لا ينسبون له تأدباً ويعلمون أنه ينسب لله خلقاً وإيجاداً، لكن منهم كسباً وفعلاً.

وبعد ذلك طائفتان:

♦ الطائفة الأولى: هي طائفة القدرية الذين يقولون الأمر أنف، ينفون عن الله جلَّ في علاه العلم وإرادة الشيء وخلق الشيء، جعلوا مع الله خالقين لا خالقاً واحداً، كل إنسان قد خلق فعل نفسه.

♦ والطائفة الأشد شراً والأكثر وزراً "الجبرية"؛ والقدرية أشبه ما يكونون بأهل الكتاب لأنهم مجوس هذه الأمة، والنبي -صلى الله عليه وسلم- قال عن المجوس: (سنوا بهم سنة أهل الكتاب). وأمّا الجبرية فهم أشبه ما يكونون بالمشركين الذين قالوا ﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا﴾ [الأنعام: ١٤٨]، فهم أشبه ما يكونون بالمشركين. وأهل

الكتاب أفضل من المشركين الذين لا كتاب لهم؛ أما رأيتم أن الرسول -صلى الله عليه وسلم- فرح فرحاً شديداً عندما غلب أهل الكتاب الروم على الفرس المجوس، لأن أهل الكتاب أقرب إلى أهل الإسلام. فالغرض المقصود القدرية كأهل الكتاب، والجبرية كالمشركين، والمشركون أشر هؤلاء.

ما معنى أن العبد يكون فاعل منفعل، هذا الذي أيضاً سنبينه، نمر على كثير من أبواب القدر في الكتاب ثم بعد ذلك ننهي أبواب القدر إلّا بابين إن شاء الله.

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، وبعد:

باب نهي النبي -صلى الله عليه وسلم- عن مجالسة أهل القدر

عن أبي هريرة -رضي الله عنه- عن عمر -رضي الله عنه- قال: قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (لا تجالسوا أهل القدر ولا تقاعدوهم)، وإسناده ضعيف.

باب قول النبي -صلى الله عليه وسلم-
﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ﴿٤٧﴾﴾

عن عائشة أم المؤمنين قالت: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: (مجوس هذه الأمة القدرية، وهم المجرمون الذين سمّاهم الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ﴿٤٧﴾﴾ [القمر: ٤٧] ، وإسناده ضعيف. ويشهد له ما أخرجه البزار عن يونس بن الحارث عن عمر ابن شعيب عن أبيه عن جده قال: ما أنزلت هذه الآية: ﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِى ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا۟ مَسَّ سَقَرَ ﴿٤٨﴾﴾ [القمر: ٤٧ – ٤٨] إلّا في أهل القدر.

أما الباب الأول فهو (لا تجالسوا أهل القدر ولا تقاعدوهم)، هذه فيها دلالة على عدم مجالسة أهل البدع، وهذا سيأتي تفصيله، إن هذا لا يصح ان نمر عليه مرور الكرام. سنتكلم في مسألة البدعة والسنة، والفرق بين البدعة والسنة، وكيف التفريق بين أهل البدعة وبين أهل السنة، ومتى تكون البدعة قد ثبتت بأنها بدعة، ومتى نبين أن هذا مبتدع،

وإن أتى ببدعة متى لا يكون مبتدعاً، وكيف التعامل معه. أمّا الحديث الثاني فهو يبين لنا أن هذه الآيات جاءت تخاصم الذين قالوا: لا قدر.

باب في قوله: (اتقوا القدر فإنه شعبة من النصرانية)

عن ابن عباس -رضي الله عنهما- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: (اتقوا هذا القدر فإنه شعبة من النصرانية)؛ هنا الحديث فيه ضعف، يعني روي (اتقوا هذا القدر فإنه شعبة من النصرانية)، أين وجه الشبه؟ أين النصرانية من المجوس؟ كيف يكون القدر شعبة من النصرانية؟

النصارى يجعلون مع الله خالقاً، جعلوا عيسى -عليه السلام- خالقاً مع الله جلَّ في علاه، فهم يقولون باسم الأب باسم الابن باسم الروح القدس، أو يقولون ثلاثة أقانيم، ثلاثة في واحد. وهؤلاء القدرية جعلوا كل واحد خالق مع الله جلَّ في علاه، فتشابهوا من هذا. لكن أنا ما أدري هل هذا صحيح أن النصارى يقولون لا يخلق إلّا الخير فقط؟ أيضاً ممكن نقول أيضاً الكلام في القدر هنا فيه شعبة من النصرانية من الجبرية، كيف وجه الشبه بينها وبين الجبرية؟ مؤاخذون بما لم يفعلوا لأنهم اتهموا الله بالظلم بأن الله جلَّ وعلا سيعذِّب هذه البشرية جمعاء بسبب خطيئة آدم -عليه السلام- فيأخذهم بما لم يفعلوا، وهذا هو عين قول الجبرية أنه سيعذِّبهم بما لم يفعلوا، سيعذِّبهم على فعله هو.

باب من قال القدرية في المنسأ تحت قدم الرحمن

عن أبي هريرة -رضي الله عنه- عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال (ثلاثة في المنسأ تحت قدم الرحمن يوم القيامة، لا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم ولا يزكيهم. قلت: يا رسول الله من هم؟ جلِّهم لنا. قال: المكذِّب بالقدر والمدمن الخمر والمتبرئ من ولده، قال: قلت فما المنسأ؟ قال: جب في قعر جهنم وأسفل طينتها)، وإسناده ضعيف.

باب في قوله -عليه السلام-: (صنفان من أمتي ليس لهم في الآخرة نصيب: القدرية

والمرجئة):

عن ابن عباس -رضي الله عنهما- عن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: (صنفان من أمتي ليس لهم في الآخرة نصيب: القدرية والمرجئة)، وإسناده ضعيف جداً.

باب (إذا كان يوم القيامة نادى منادٍ: ليقم خصماء الله تعالى)

عن حبيب بن عمر عن أبيه عن ابن عمر -رضي الله عنهما- عن أبيه قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: (إذا كان يوم القيامة نادى منادٍ: ألا ليقم خصماء الله، وهم القدرية)، وإسناده ضعيف.

باب (سبعة لعنتهم)

عن عائشة -رضي الله عنها- قالت: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: (سبعة لعنتهم، لعنهم الله تعالى، وكل نبي مجاب؛ الزائد في كتاب الله والمكذب بقدر الله والمتسلط على أمتي بالجبروت ليذل من أعز الله ويعز من أذل الله عز وجلّ والمستحل محارم الله تعالى والتارك لسنتي والمستحل من عترتي ما حرم الله عز وجلّ)، وإسناده ضعيف.

باب في قول عمر -رضي الله عنه-: (الرجم حد من حدود الله فلا تخدعوا عنه):

عن ابن عباس -رضي الله عنهما- قال: قال عمر -رضي الله عنه-: (الرجم حد من حدود الله فلا تخدعوا عنه وآية، ذلك أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- رجم، وأبو بكر رجم ورجمت أنا بعد، وسيجيء قوم يكذّبون بالقدر ويكذّبون بالحوض ويكذّبون بالشفاعة ويكذّبون بقومٍ يَخرجون من النار)، وإسناده ضعيف.

باب (صنفان من أمتي ليس لهم في الإسلام سهم)

عن ابن عباس وعن جابر بن عبدالله -رضي الله عنهما- قالا: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: (صنفان من أمتي ليس لهما في الإسلام نصيب: أهل الإرجاء وأهل القدر)،

وإسناده ضعيف جداً.

باب: عن حذيفة -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: (إن الله خلق كل صانع وصنعته)، حديث صحيح.

إكمالاً بهذا الباب وهذه الأحاديث بأسرها تتحدث عن القدرية وعن المرجئة وفكر القدرية وفكر المرجئة، وأيضاً الأحاديث التي جاءت معنا في حديث عمر والحديث الثاني، كلها تتحدث عن أبواب القدر وخلق أفعال العباد وأن الله جلَّ في علاه قد خلق أفعال العباد. وأيضاً لها تنويه وإشارة وإماءة إلى أن الإنسان لا يجوز له أن يحتج بالقدر على المعاصي، ولا أن يضرب الشرع بالقدر، ولا أن يعطل الشرع بالقدر، وهذا الذي سندور حوله الآن في الفوائد المستنبطة من هذه الأحاديث وهذه الأبواب التي ذكر فيها النبي -صلى الله عليه وسلم- أبواب القدر تعلياً لأمته.

أول هذه الأبواب أن القدر لا يصح للإنسان به قط بحال من الأحوال أن يحتج به على المعاصي، ولا يصح أن يضرب الشرع بالقدر ولا أن يغفل عن أوامر الشرع بسبب القدر. العلماء يقولون كلام من ذهب يحفر على ماء الصدر بل بماء العين يكتب: القدر يؤمن به ولا يحتج به، يعني على المعايب؛ القدر يؤمن به لأنه من لوازم ربوبية الله جلَّ في علاه، فالقدر تؤمن به وتعلم أن هذه من قدرة الله جلَّ في علاه، وأن كل فعل من أفعال الله جل في علاه نابع عن حكمة وعن إرادة سبحانه جلَّ في علاه، وعن علم. فالقدر يؤمن به ولا يحتج به، فإن العبد إذا زل، إذا سرق، إذا كذب، إذا ظلم تسميه ظالماً كاذباً صادقاً، هو الذي فعل؛ هو الذي سرق، هو الذي تكلم، هو الذي نكح، هو الذي طلق، هو الذي مات، هو الذي اشترى، هو الذي باع، وهو الذي عصى وهو الذي تعدى حدود الله جلَّ في علاه.

قال الله تعالى: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ﴾ [الروم: ٤١]، فأضاف الأمر والكسب لهم، وقال الله تعالى: ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا

قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ ﴾ [آل عمران: ١٦٥]

. وقال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (قال الله تعالى: فمن وجد خيراً فليحمد الله ومن وجد غير ذلك فلا يلومنّ إلّا نفسه)، وقد قال الله تعالى: ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا﴾ [المائدة: ٣٨]، فسمّاه سارقاً وسمّاها سارقةً، وأيضاً قال: ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي فَٱجْلِدُواْ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِاْئَةَ جَلْدَةٍ﴾ [النور: ٢]، وفي الآية التي نسخت (الشيخ والشيخة إذا زنيا فرجموهما البتة). فهذه كلها دلالة على أن العبد هو الذي يقع في المعصية وليس له أن يحتج بالقدر على هذه المعصية، الاحتجاج بالقدر لا يجوز في هذا الحال لأنه لو احتج بالقدر:

- أولاً قد رجم بالغيب، كأنه اطلع على الغيب وقال: قد علمت أن الله كتب علي ذلك في اللوح المحفوظ، ويكون بذلك كاذبا.

- والأمر الثاني: هو يتجرأ على الله جلَّ في علاه، لأنه لو جاءه أحد قد صفعه على وجهه فقال له: سامحني لا تقترب مني، قد قدر الله علي أن أصفعك على وجهك. هل سيرضى منه ذلك؟ لا يمكن أن يرضى منه ذلك، فكيف يفعل ذلك مع الله جلَّ في علاه ويحتج على معصية الله بفعل الله جلَّ في علاه أو بالقدر كما يدعي.

فالاحتجاج بالقدر لا يصح بحال من الأحوال أن يعطل به الشرع، أنت دائر بين قدر. تؤمن به لأنه من لوازم ربوبية الله جلَّ في علاه، وبين شرع لابد عليك أن تقول سمعت وأطعت، ائتمر بما أمر الله به، "آمنت بالله وبما جاء عن الله وعلى مراد الله، آمنت برسول الله وبما جاء عن رسول الله وعلى مراد رسول الله -صلى الله عليه وسلم-"، فلا يحتج بالقدر على المعايب بحال من الأحوال.

وأيضاً في حديث احتجاج آدم وموسى الذي احتج به بعض العلماء على ذلك لا يصح، لأن آدم لمّا احتج، احتج بالقدر على المصيبة ما احتج بالقدر على الذنب، حتى أنه لمّا قال له: (أخرجت نفسك وأخرجتنا، قال: تلومني -على الإخراج- على شيء قد قدره الله عليّ)، فقد احتج بالقدر على المصيبة، على الإخراج من الجنة، لا على الأكل من الشجرة.

فالاحتجاج بالقدر يصح ويرد، ويكون للمرء له في ذلك حجة أن يحتج به على المصائب، لا على المعايب.

وأيضاً له موضع آخر يمكن أن يحتج المرء فيه بالقدر وهو في المعايب التي لم يفرط فيها المرء، التي لم يحدث من المرء فيه تفريط، أو نقول تسيب وليس ائتمار بأمر الله جلَّ في علاه أو تعدي لحدود الله جلَّ في علاه؛ مثال ذلك النوم عن الصلاة معيبة أم ليست معيبة؟ ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتۡ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ كِتَٰبٗا مَّوۡقُوتٗا﴾ [النساء: ١٠٣]، لكن لو نام المرء لإجهاد أو لتعب أو نام في وقته وساعات التي ينام فيها وما استطاع أن يقوم إلى الصلاة، فالنبي -صلى الله عليه وسلم- قد رفع عنه الحرج في ذلك، ليست معيبة عليه، قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (ليس في النوم تفريط).

المرء لو نام الظهر وما قام إلّا العشاء له أن يحتج بالقدر، لمّا يقال له: أنت ما صليت العصر ولا صليت المغرب ولا صليت العشاء في جماعة، يقول: قدر الله وما شاء فعل، نفسي بيد الله جلَّ في علاه متى شاء أن يردها ردها ومتى شاء أن يقبضها قبضها. وهذا الذي احتج به النبي -صلى الله عليه وسلم- عندما كان في إحدى سفراته ومعه بلال يترقب بزوغ الفجر حتى يوقظ الذين كانوا مع النبي -صلى الله عليه وسلم- فنام هو وناموا وما أقامهم إلّا حر الشمس. فقام النبي -صلى الله عليه وسلم- يستعتب بلال ثم رد الأمر للقدر، فقال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (أرواحنا بيد الله يقبضها حيثما شاء ويردها حيثما شاء)، فما كانت معيبة، هنا للمرء أن يحتج بالقدر في هذا الموضع. حتى علي بن أبي طالب لم يرد عليه النبي -صلى الله عليه وسلم- عندما قال له: (ألم تصليا في الليل؟) ما قمتم لقيام الليل؟ لفاطمة ولعلي، فقال له علي بن أبي طالب -رضي الله عنه وأرضاه-: (أرواحنا بيد الله إن شاء أمسكها وإن شاء ردها)، ولى النبي -صلى الله عليه وسلم- يقول: ﴿وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ أَكۡثَرَ شَيۡءٖ جَدَلٗا﴾ [الكهف: ٥٤]، هذا ليس إنكاراً على علي بل هو إقراراً لعلي أن معه الحجة في ذلك لأنه ليس بمفرط، (ليس في النوم التفريط).

فلا يصح للإنسان أن يحتج بالقدر على المعايب، لكن له أن يحتج بالقدر على المصايب. وقد وجه ابن القيم توجيهاً بديعاً في مسألة الاحتجاج بالقدر على المعايب في حالة واحدة فقط، تصح في حالة ولا تصح في حالة، حتى التوجيه فيه ما فيه من النظر لكنه من القوة بمكان؛ يقول لك أن تحتج بالقدر على المعايب بشرط وقيد: أن تكون قد تبت من هذه المعيبة وقد وأنبت ورجعت إلى ربك جلَّ في علاه واستغفرت من هذا الذنب ولم تصر عليه ولم تأخذ القدر باباً لك أن تلج إلى المعاصي، إن تبت فلك ذلك. وقد استخرجها واستنبطها من حديث احتجاج آدم بموسى؛ كأن موسى لما قال له: أخرجتنا ونفسك، فقد لامه على المعصية وهي الأكل من الشجرة، ولامه على الخطيئة الناتجة عن المعصية. قال: ولكن آدم تاب، قال الله تعالى: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيۡهِۚ﴾ [البقرة: ٣٧]، فلما تاب صح له أن يحتج بالقدر لأنه لم يقف بالقدر حجر عثرة بينه وبين مسألة الطاعة. فلذلك قال: إن تاب له أن يحتج بالقدر، وهذه كما قلنا فيها ما فيها من النظر لكن هي قوية.

في الأحاديث التي جاءت نرى أن عمر بن الخطاب -رضي الله عنه وأرضاه- قد احتج بعض الناس عليه بالقدر في المعايب، عندما سرق وجاء ليقام عليه الحد فقال: مهلاً يا أمير المؤمنين! والذي نفسي بيده ما سرقت إلّا بقدر الله جلَّ في علاه، كلمة حق أريد بها باطل، فقال له أمير المؤمنين، وهذا الرد مفحم رد قاطع جازم لرجل فقيه أريب لبيب، فقال له: مهلاً أنت، والذي نفسي بيده لا نقطع يدك إلّا بقدر الله جلَّ في علاه. فلا يصح أن يضرب الشرع بالقدر، وقد بيّنا أكثر من مرة هذه القصة التي تبين ضلال هؤلاء؛ المرأة التي كان عليها رجل ليس بحليلها، ليس بزوج لها، ولّما دخل زوجها عليها وجد رجلاً عليها أراد أن يقتله، فقال له: مهلاً يا أخي ما أتيتها إلّا بقدر الله، فقام الرجل معظماً ويقول: آمنت بقدر الله وآمنت بالله. مخبول هذا، هذا ليس بعالم ولا حتى بضال، هذا مجنون حقاً، ولذلك المرأة وجدت منه هذا الجنون فتبرأت من هذا المذهب القميء البئيس، لأنه مذهب باطل.

فلا يحتج بالقدر على المعايب بحال من الأحوال، لا سيما وأن الله جلَّ وعلا خلق العبد

ثم أمره بأوامر، ثم رتب على فعل الأوامر الثواب ورتب على انتهاك هذه المحرمات بالعقاب. إذاً في الأولى لا يمكن أن يحتج بالقدر على المعايب، يحتج بالقدر على المصائب. ولذلك علّمنا النبي -صلى الله عليه وسلم- إذا مات ميت لأحد فأنت ماذا تقول له؟ (لله ما أخذ ولله ما أعطى وكل شيء عنده بقدر، فلتصبر)، وفي رواية: (لأجل مسمى) معناها بقدر، فكل شيء عند الله بقدر. فأنت تبين أنك تصبو إلى أمر آخر هو أنك تحتج بالقدر على المصائب، لذلك بيّن الله المكافأة أنه ما أصاب في الأرض ولا في أنفسكم من مصيبة وعلمتم أنها من الله قال: ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾ [التغابن: ١١]؛ يهدِ قلبه للإيمان لأنه آمن أن هذه المصيبة قدر من الله جلَّ في علاه، بلية من الله جلَّ في علاه لرفعة الدرجات، لتكفير السيئات، لمكانة لا يمكن أن يتبوأها المرء إلّا بهذه البلية. قد قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (ما أصاب المرء من وصب ولا نصب ولا هم ولا غم حتى الشوكة يشاكها إلّا كانت كفارة له)، فهي كفارة للسيئات.

الله يعلم على العبد يصيبه بهذه البلية، وهذه المصيبة لا لمعصية ولا لتفريط، لكن ليتبوأ مكانة عند الله جلَّ في علاه ما كان يمكن أن يتبوأها بعمله، فصب عليه البلاء صباً حتى يرتقي إلى هذه المنزلة. بل ممكن تكون هذه البلية هي السبب في التمكين، كما "قيل للإمام الشافعي: يا إمام أيبتلى المرء أم يمكّن؟ قال: لا يمكّن حتى يبتلى"، معبرة: للتمكين بالبلاء، فهذه أيضاً من الحكم في البلية التي لا تكون عن تفريط. فلابد أن تقف ثابتاً راسخاً كرسوخ وثبات الجبال الراسيات وتقول آمنت بالله وبما جاء عن الله قدراً وأمراً، فتؤمن بقدر الله جلَّ في علاه. فالقاعدة العريضة المضيئة: القدر يؤمن به ولا نحتج به؛ يعني لا نعطل الشرع بالقدر، وهذه من المهمات التي لا بد أن نستخرجها ونتكلم عنها الآن. يمكن أن يحتج المرء بالقدر؟ نعم بالمصائب لا في المعايب.

الفائدة الثانية التي نأخذها من حديث (خلق الله كل صانع وصنعته)، هذا فيه رد قوي على مجوس هذه الأمة، رد على القدرية الذين يقولون كل إنسان صانع فعله خالق فعله.

والله جلَّ وعلا يرد عليهم على لسان نبيه -صلى الله عليه وسلم- أنه خلق كل صانع وصنعته، هذه فيها دلالة أيضاً على أن الله قد خلق أفعال العباد، والعباد لهم فعل حقيقي وإرادة حقيقية.

خلق الله أفعال العباد؛ الدليل العام والخاص بالأثر والنظر:

أمّا بالأثر فقد قال الله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ ﴾ [الزمر: ٦٢]؛ "كل" نص في العموم، كل شيء: السماوات والأراضين والبحار والأشجار والثمار والإنسان والسيارات وكل شيء، خالق كل شيء. ومن هذا الشيء النوم واليقظة، الضحك والبكاء، الذكاء وغير الذكاء، الفطنة وغيره. هذا هو خالق كل شيء، فكل شيء مخلوق لله جلَّ في علاه. يدخل في ذلك فعل العبد، إرادة العبد، أيضاً عجز العبد، كيس العبد، ذكاء العبد، كل ذلك تحت كل شيء؛ ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيۡءٖ فَقَدَّرَهُۥ تَقۡدِيرٗا ٢﴾ [الفرقان: ٢]، هذا على العموم.

أمّا على الخصوص قد قال الله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمۡ وَمَا تَعۡمَلُونَ ٩٦ ﴾ [الصافات: ٩٦]، للعلماء في تفسير هذه الآية وجهتان:

▪ الوجهة الأولى: ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمۡ وَمَا تَعۡمَلُونَ ٩٦ ﴾ يعني الله خلقكم وخلق الناتج عن فعلكم؛ الرجل المهندس الذي صنع لنا سيارة من هذا الحديد المقطع أمام صنعته هي السيارة، قال الله: ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمۡ ﴾ خلق هذا المهندس، ما الذي عمله المهندس؟ سيارة، خلقكم وخلق هذه السيارة. السيارة هذه التي عملها المهندس صنعها المهندس من الذي خلقها؟ فمن باب أولى يكون خلق فعل المهندس. إذاً أول وجهة ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمۡ وَمَا تَعۡمَلُونَ ٩٦ ﴾ ، الناتج عن عملكم، الناتج عن فعلكم خلقه الله. إذا قلت أن هذا الأثر أثر فعلكم مخلوق لله فمن باب أولى الفعل مخلوق لله جلَّ في علاه.

▪ الوجهة الثانية: قال الله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمۡ وَمَا تَعۡمَلُونَ ٩٦ ﴾ ؛ "ما" هنا مصدرية، يعني الله خلقكم وخلق عملكم، وهذا فصل في النزاع، "ما" المصدرية أنك تأتي الفعل، ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمۡ وَمَا تَعۡمَلُونَ ٩٦ ﴾ ، "تعملون" فعل مضارع من الأفعال الخمسة، "ما" هذه

مصدرية: ما والفعل يعطوني المصدر، مصدر: يعمل فعل مضارع، عمل فعل ماضي، مصدره العمل، ما يعملون مصدره؟ عملهم. فالله جل وعلا قال: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾ يعني خلقكم وخلق عملكم، "ما" مصدرية يعني يقصد هنا خلق العمل، أي خلق الفعل؛ خلق أفعالكم، هذا فصل في النزاع. فإذاً الله جلَّ وعلا خلق أفعال العباد؟ نعم خلق أفعال العباد. قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (إن الله خلق كل صانع وصنعته)، هذا من الأثر.

ومن النظر؛ النبي -صلى الله عليه وسلم- يقول: (خلق كل صانع وصنعته)، فإذا خلق الصنعة وخلق الذي خلق الصنعة وخلق الذي فعل الصنعة، وهذا ييسر لنا تفسير قول الله تعالى: ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ [المؤمنون: ١٤]؛ يعني الذي يصنع صنعة الله هو الذي خلقها، فلذلك قيل ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾، وأمّا ﴿أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ الخلق المطلق الإيجاد من عدم هو الله جلَّ في علاه كما بينا أكثر من مرة، وأمّا التحويل من صورة إلى صورة يسمى خلقاً لكن لا يكون خلقاً لإيجاد من عدم فالله هو الخالق الأوحد سبحانه جلَّ في علاه، الذي يوجد من العدم.

إذاً أفعال العباد مخلوقة لله جلَّ في علاه لقول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (إن الله خلق كل صانع وصنعته)، وفيه رد على مجوس الأمة الذين يقولون: العبد قد خلق فعل نفسه. نقول: لا والله، خلق الله فعله بالأثر وبالنظر. إذا قلنا ذلك لا يشوش علينا أن الله هو قد خلق فعل العبد، أن للعبد فعلاً حقيقياً يفعله العبد وينسب له، والعبد يحاسب عليه أو يثاب عليه. فمعنى أن الله خلق الفعل وأوجده من عدم، وأمّا بالنسبة للعبد فله فعل حقيقي ينسب إليه كما سنبين بالدليل ونجمع بين الاثنين: أن الله خلق العبد وخلق فعله، وأيضاً العبد له فعل حقيقي مستقل بذاته.

الأدلة على أن العبد له فعل ينسب له؛ قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا ﴿١٢٢﴾﴾ [النساء: ١٢٢]، ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا ﴿٨٧﴾﴾ [النساء: ٨٧]، تصدقون ربكم؟

نأتي إلى هذه المسألة التي فيها التصديق، قال الله تعالى: ﴿جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ١٧﴾ [السجدة: ١٧] ، وقال الله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَاۚ لَهَا مَا كَسَبَتۡ وَعَلَيۡهَا مَا ٱكۡتَسَبَتۡۗ﴾ [البقرة: ٢٨٦]؛ ﴿لَهَا مَا كَسَبَتۡ﴾ نسب الكسب لها، ﴿وَعَلَيۡهَا مَا ٱكۡتَسَبَتۡۗ﴾ نسب أيضاً الكسب لها وهذه ظاهرة جداً. قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَسَبُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ جَزَآءُ سَيِّئَةٖ بِمِثۡلِهَا﴾ [يونس: ٢٧]، فبيّن الله جلَّ في علاه أن لهم كسب وفعل.

قال الله تعالى: ﴿فَمَن شَآءَ فَلۡيُؤۡمِن وَمَن شَآءَ فَلۡيَكۡفُرۡۚ﴾ [الكهف: ٢٩]، فأثبت له المشيئة وأثبت له الفعل وهو الإيمان والكفر، هذه إرادة له ومشيئة مستقلة وفعل مستقل له الإيمان والكفر. أيضاً قال الله تعالى: ﴿تِلۡكُمُ ٱلۡجَنَّةُ أُورِثۡتُمُوهَا بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ [الأعراف: ٤٣]، ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ﴾ [البقرة: ٢٦٥]، ونسب العمل له. أيضاً قد بيّن الله جلَّ وعلا الناس على صنفين: صنف مستطيع وصنف عاجز لا يستطيع؛ قال الله تعالى: ﴿وَمَن لَّمۡ يَسۡتَطِعۡ مِنكُمۡ طَوۡلًا أَن يَنكِحَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ﴾ [النساء: ٢٥]، فقسّم الناس إلى قسمين: مستطيع وهذه دلالة على انه استطاع له استطاعة وله فعل وله إرادة وله كسب كله ينسب إليه، وقسم لا يستطيع ﴿وَمَن لَّمۡ يَسۡتَطِعۡ مِنكُمۡ طَوۡلًا أَن يَنكِحَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ﴾.

وأيضاً بيّن النبي -صلى الله عليه وسلم- أن لكل عبد استطاعة؛ قال النبي -صلى الله عليه وسلم- كما في الصحيحين: (يا معشر الشباب من استطاع)، فجعل الاستطاعة لبعض عن البعض. أقول بالدلالة الواضحة على أن العبد له فعل وينسب له أن الناس قسموا إلى قسمين: قسم له استطاعة وقسم ليس له استطاعة، والله هذه دلالة واضحة جدا على أن للعبد فعل، إذا كانت المسألة بفعل الله فكل الناس سواسية، لا نقسّم مستطيع وغير مستطيع، لأن المسألة كلها برمتها بفعل الله جلَّ في علاه. لكن للعبد فعل وإرادة وكسب، فقسّم الناس إلى مستطيع وغير مستطيع، (يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج)، التقسيم الثاني (ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء)، فكل هذه أدلة واضحة جداً جلية على أن الإنسان له عمل وسيحاسب على العمل.

قال الله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾ [النحل: ٩٧]، وقد قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (اتقِ الله حيثما كنت وأتبع السيئة) بفعلك أنت وبإرادتك أنت، (وأتبع السيئة الحسنة تمحها، وخالق) خالق أنت بفعلك أنت وبإرادتك أنت (وخالق الناس بخلق حسن)، كل هذه أدلة واضحات جليات تبين لنا أن الإنسان له فعل.

فإذا كان الله جلَّ وعلا خلق فعل العبد والعبد له فعل فكيف نجمع بين الأمرين: أن يكون الله خالقا للفعل وأن العبد له هذا الفعل وينسب له؟ نقول الحمد لله الأمر هين وسهل جداً؛ ينسب لله باعتبار وينسب للعبد باعتبار، هذه الموجزة التي تنهي لك المسألة: ينسب للرب خلقاً وإيجاداً، خلق الله كل شيء، وينسب للعبد فعلاً واكتساباً.

المثال: زيد أقرض عمرو مبلغاً، فبعدما أخذ عمرو المبلغ جحده زيد، قال لعمرو: بيني وبينك الله، الثقة يعني ائتمناك، فأدِ الأمانة. فجاء في الوقت والأجل قال: ليس لك عندي من مال، فماذا فعل عمرو؟ ظلم زيد، هنا الظلم الذي وقع من عمرو، تقول عمرو ظالم أو الله ظالم؟ عمرو ظالم. لو قلت عمرو ظالم نسبت الظلم لمن؟ له لأنه جحد المال، لو قلت لا هذا ليس فعل عمرو، إذاً فعل من؟ فعل الله، لك أن تقول الله ظالم -حاشا لله-.

قل سعاد كاذبة في كلامها، ما تتكلم إلّا كذباً، فإن كان الفعل لها ستقول سعاد لا تصدق في قولها، وإن لم يكن لها ماذا ستقول؟ تنسب للرب الجليل وتقول هذا الكلام، يعني لا يصدق -حاشا لله-. فهل يصح في الأذهان أن تقول بأن هذه الأفعال من كذب وسرقة وظلم تنسبها لله جلَّ في علاه؟ ما من عاقل يمكن أن يرضى بمثل هذا بحال من الأحوال. فأنت تقول ينسب لله باعتبار وينسب للعبد باعتبار، لا تجعل الاعتبار ما ينسب لله هو عين اعتبار ما ينسب للعبد.

أنت لو قلت زيد ظالم جعلت فعل زيد منسوب له، لو قلت -أستغفر الله- الله ظالم فجعلت عين فعل زيد هو عين فعل الله. لكن يمكن أن تقول الظلم وقع من زيد، والذي

خلق زيد والذي جعل في زيد إرادة وفعل هو من؟ إذاً الله خلق زيد وخلق فيه الإرادة، وأيضاً زيد هو الذي قد ظلم. الفعل هذا تنسبه لزيد باعتبار وتنسبه لرب زيد باعتبار؛ فتنسبه لرب زيد خلقاً وإيجاداً، وتنسبه لزيد فعلاً واكتساباً. إذاً لابد أن تفرّق بين الاعتبارين حتى توفق بين الأمرين؛ خلق الله كل شيء ومن ذلك الشيء فعل العباد، والعبد له الفعل ينسب له باعتبار وينسب لله باعتبار.

أحمد من أهدى الناس ومن أتقى الناس ومن أورع الناس ومن أكثر الناس مواظبة على الصلاة، فأقول الله هدى أحمد وأحمد هو المهتدي، الله وفق أحمد للصلاة وأحمد هو المصلي. عمرو من أفسد الناس وأفسق الناس وأفجر الناس، فتقول خلق الله عمرو وعمرو هو المسيء، خلق الله عمرو وهيأ له أسباب الفسق والفجور لأنه لا يصح معه إلّا الفسق والفجور، فعمرو هو الذي فسق، عمرو هو الذي فجر عمرو، هو الذي زنا، والله خلق عمرو وهيأ له الأسباب وخلق فيه الإرادة والعلم. فإذاً النسبة إلى الله ليست نسبة مباشرة، نسبة خلق وإيجاد، والنسبة إلى العبد نسبة مباشرة؛ من الذي يباشر السرقة؟ العبد، من الذي يباشر الزنا؟ العبد، من الذي يباشر الصلاة؟ العبد ليس الله. من الذي يباشر الشراب والطعام والأكل والجماع والنكاح والمعاملة المادية؟ العبد، من الذي خلق كل هذا؟ الرب جلَّ في علاه.

فالتوفيق بين الاثنين تقول: العبد فاعل منفعل، يعني أقول لك الزنا أثر خلق الله جلَّ في علاه، ليس هذا من فعل الله، هذا من مفعولات الله، هذا أثر فعل الله، الله خلق في سين من الناس الإرادة وخلق فيه الهمة وخلق فيه القوة وخلق فيه القدرة على الجماع فذهب فزنى. فإذاً أنا أقول بأن الله جلَّ في علاه أثر فعله هو هذا من مفعولاته، من مفعولاته الزنا، من مفعولاته السرقة. ولا ينسب الشر الله أدباً وتأدباً مع الله، لكن الله خلق كل شيء، فنقول ذلك من مفعولات الله، أمّا فعل الله كله كمال وجلال. فالعبد فاعل منفعل يعني العبد فاعل حقيقةً، سارق حقيقةً محب حقيقةً، كاره حقيقةً، مصلي حقيقةً، مسافر حقيقةً، آكل حقيقةً، شارب حقيقةً، ميت حقيقةً. فالعبد فاعل حقيقة، وهو منفعل يعني كل العبد

بإراداته وعلمه وقوته وقدرته مخلوقة لله جلَّ في علاه، فأفعاله إجمالاً مخلوقة لله.

إجابة: خلق الله كل شيء، نعم خلقه سبحانه جلَّ في علاه لكن لا تنسبه لله جلَّ في علاه، لأن الظلم في الدنيا بعده خير كثير عدل ورفعة وعطاء، (وعزتي وجلالي لأنصرنك ولو بعد حين)، لكن وقوع الظلم من العبد، لا تقول من الرب. الله خلق كل شيء، وهذه حكمة من حكم الله جلَّ في علاه.

منفعل يعني مخلوق لله برمته، إرادة وقوة وهمة وفعل، كل هذا تحركات داخلية وخارجية للعبد هي منفعلة، هي أثر فعل الله، من مفعولات الله جل في علاه.

إجابة: الله أضل فرعون، الله أضل أبا لهب، الله أضل أبا جهل، الله أضل هؤلاء؛ قال الله تعالى: ﴿وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ [الجاثية: ٢٣]، لكن لا يصح لي أن أقول أضل الله فلاناً وأسكت، فتأدباً مع الله أوضح جلياً للناس، لأن الناس ممكن تأخذها على هوى وخطأ وضلال: أضل الله أبا جهل على علم، أنه يعلم أن أبا جهل ليس وعاءً للخير بل وعاءً للشر، والله جلَّ وعلا لا يجعل المسلمين كالمجرمين، لا يساوي بين الظلمات والنور ولا المحسن ولا المسيء، لابد أن أقول ذلك. لأن أضله الله على علم، يعني الله يعلم أنه وعاء للشر وليس وعاء للخير. أما رأيت أن الله يخبرنا بأن موسى عندما أتى له بالآيات الواضحات الجاليات، اعتقد واستيقن قلباً وأضمر في قلبه أن موسى على حق وأنه من الأنبياء حق وأنه جاء من عند الله حق وأن هذه الرسالة حق، لكن للسلطة وللوجاهة وللربوبية التي اعتلاها كما زعم عليه من الله ما يستحق، قال الله تعالى مبيناً ذلك: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل: ١٤]. هم استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة، جعل كرسي الربوبية الذي زعمه -إن صح التعبير- مقدماً على أن يخضع لربه الجليل سبحانه جلَّ في علاه، فلا بد أن نقول نعم أضل لكن أضل على علم ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ [الأنعام: ١٢٥]، أنا يهمني فقط إتقان هذا الباب.

إجابة: قتل زيد عمرو، قتل عمرو من فعل زيد، وهو خلق لله، لا تقول ما خلقه الله، لا تدخل بفكر المعتزلة. هي شعرة بين الإتقان وبين غيره، أنت لو قلت أن الله ما خلق هذا القتل ولا الزنا، لا، هو خلق فيه الإرادة وتركه إن شاء يفعل ذلك أو لا يفعل ذلك لن يفعل ذلك إلّا بإرادة الله وبخلق الله. العبد هو الذي فعل، لكن من الذي وفقه للفعل أو ما وفقه للفعل؟ لأن الله هو الذي خلقه وخلق إرادته وخلق همته وهيأ له الأسباب لفعله وألغى عنه الموانع، لأنك لا يمكن أن تصل إلى شيء إلّا بتوفر الشروط وانتفاء الموانع. من الذي وفر الشروط؟ الله، من الذي ألغى الموانع؟ الله. الله خلقه وهو وعاء للشر، وإن قلت خلقه وعاء للشر الله يملكه، يخلق ما يشاء ويفعل خ ما يشاء، ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الأنبياء: ٢٣]، قال الله تعالى: ﴿فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ [الكهف: ٢٩]، كيف يؤمن وكيف يكفر؟ يأتيه طريق الهدى وبينات الهدى الواضحات الجاليات وأدلة الهدى، ويأتيه طريق الضلالة وبينات الضلالة والآيات الواضحات على الضلالة، والآن الخيار لك. فماذا أراد فرعون؟ الكفر، هو الذي أراد ذلك، كيف ذلك؟ قال: أنا ربكم الأعلى، قال: وهذه الأنهار تجري من تحتي، وأيضاً يبيّن لك أنه كان يعلم يقيناً أن الله هو الحق وأن الدين هو الحق والجنة حق والنار حق.

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَـٰتٍۭ بَيِّنَـٰتٍ فَسْـَٔلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِذْ جَآءَهُمْ فَقَالَ لَهُۥ فِرْعَوْنُ إِنِّى لَأَظُنُّكَ يَـٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا ﴿١٠١﴾﴾ [الإسراء: ١٠١]، ماذا قال موسى لفرعون؟ ﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَـٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ﴾ [الإسراء: ١٠٢] ظاهرة جلية كالشمس عندك، ﴿وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَـٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴿١٠٢﴾﴾ [الإسراء: ١٠٢] هالكاً لأنك جحدت بهذه الآيات الواضحات التي جاءتك وأردت هذا الكفر.

بهذه نكون قد بيّنا الفرق بين القدرية والجبرية، وبيّنا أن القدر لا يحتج به إلّا في مواضع وباقي المواضع لا يحتج به، وأن القدر يؤمن به لا يحتج به على المعاصي ولا المعايب، ثم بيّنا خلق الله لأفعال العباد، وأيضاً الأفعال للعباد ثابتة. وإن كانت أفعال العباد ثابتة وإن كانت إرادة العباد ثابتة، يستلزم لنا أن نوضح أمراً جلياً إرادة العبد وفعل العبد تحت

مشيئة الرب جل في علاه. يعني لا يكون مستقلا هو ليس بمستقل بفعله وليس مستقل بإرادته، حتى نقطع الحبال التي تأتي للإخوة. يقول الله خلقه وهو الذي يظلم، الله خلقه هو الذي يزني، لا، أفعال العباد كلها تتعلق تحت مشيئة الرب جلَّ في علاه. قال الله تعالى: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [التكوير: ٢٩]، هذه دلالة واضحة جداً أن هذه المشيئة تحت مشيئة الله جلَّ في علاه، وهذه الإرادة تحت إرادة الله جلَّ في علاه، وهذا الفعل أيضاً لا يكون إلّا خاضعاً عن فعل الله جلَّ في علاه لأنه لا يكون في هذا الكون إلَّا ما أراده الله جلَّ في علاه.

إجابة: لابد أن نقول ذلك لزاماً: كل كافر سيدخل النار ويعذّب بها، قد استيقن الحق من الباطل وقد علم أن مآله للنار وقد علم أن جحوده سيوصله إلى الخلود في النار، ومع ذلك قدم الفاني على الباقي، هذا لابد أن تقول ذلك.

تم تخريج جميع أحاديث الباب بصفحة ٢٤ بأختلافات يسيره جداً كما تم ذكرها ٢٣٨

(باب في العزل وما أراد الله كونه كوّنه)

- باب الدعاء من سوء القدر وغيره

قد بيّنا فيما سبق أن العلم أشرف ما يمكن أن يقدمه المرء عبادة لله جلَّ في علاه واتقان العلم أو بوابة العلم العقيدة، واتقان العقيدة في ركنها الركين ألا وهو القدر، كما صح عن ابن عباس بسند صحيح أنه قال: القدر نظام التوحيد فمن كذب بالقدر انتقض توحيده أو تكذيبه بالقدر انقض توحيده لله جلَّ في علاه أو زعمه في توحيد الله جل في علاه. والقدر سر من أسرار الله جلَّ في علاه في الغيوب، لم يطّلع عليه ملك مقرب ولا نبي مرسل. وقد تكلمنا في أسابيع شتى كل ذلك في أبواب القدر، وفي الطوائف التي اختلفت في القدر ما بين غلو وجفو، بين من غالى في إثبات القدر وبين من رد القدر كليةً، وبيّنا أن أهل السنة والجماعة -بفضل الله علينا ونسأل الله أن نسلك سبيلهم ونسير على دربهم- أنهم دائماً في الوسط بين الغلو وبين الجفو، فهم أهل وسط؛ هم يؤمنون بالقدر ويسمعون ويطيعون لله جلَّ في علاه في الشرع، امتثالاً لأمر الله شرعاً وإيماناً بقدر الله جلَّ في علاه. وتكلمنا عن الجبرية والقدرية، ثم بيّنا بعض الشبهات التي طرحوها علينا، ونحن اليوم أيضاً تأكيداً لمّا دار في الأسابيع الماضية حتى يلتئم الشمل ونتقن هذا الباب، الذي هو سر العقيدة وهو قلب العقيدة وركنها الركين.

تكلمنا الأسبوع الماضي على الكلام على القدر بالنسبة للجبرية والقدرية، واليوم إن شاء الله نكمل مسائل القدر، وآخر هذه المسائل الكلام على الشر: هل ينسب لله الشر؟ هل خلق الله الشر؟ هل أوجد الله الشر؟ ما الفرق بين أن اقول قد خلق الله الشر وأراده؟ هل كل ما خلقه الله يريده الله أم لا؟ أم التفريق عند أهل السنة والجماعة بين الإرادة وبين الخلق؟ الإرادة عند أهل السنة والجماعة إرادتان: إرادة كونية وإرادة شرعية، يفرقون بين الكون وبين المحبة؛ فكل ما خلقه الله جلَّ في علاه أراده كوناً، وليس كل ما أراده كوناً قد أحبه جلَّ في علاه. قاعدة ثانية: وكل ما أحبه الله قد شرعه، إذاً لا يشرع الله ما لا يحبه

بحال من الأحوال، لكن يخلق ما لا يحبه؟ نعم يخلق الله ما لا يحبه لحكمة عظيمة بليغة ستتبع وتأتي أثراً نتيجة لوجود مثل هذا الذي لا يحبه الله في الكون، وهذا على مشارف الكلام على مسألة الشر. ينسب الشر لله جلَّ في علاه؟ خلق الله الشر وأوجده، إذا قررنا ذلك فلِمَ أوجده؟ ولِمَ خلقه؟ وإذا قلنا خلقه وقرره وأوجده هل ننسبه لله جلَّ في علاه بمحضية الشر أم لا؟ هذا الذي نفصله الآن بإذن الله.

بسم الله الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله -صلى الله عليه وسلم-:

باب في العزل وما أراد الله كونه كوّنه

عن أبي هريرة -رضي الله عنه- قال: (قيل للنبي -صلى الله عليه وسلم- إن اليهود تقول إن العزل هي الموءودة الصغرى، فقال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: كذبت يهود مرتين، لو أراد الله خلقها لم يستطع عزلها)، حديث صحيح، (لم يستطع عزلها) الضمير عائد على العازل.

وعن أبي سعيد الخدري -رضي الله عنه- قال: (لما أصبنا سبي بني المصطلق من النساء عزلنا عنهن، قال: ثم إني وافقت جارية في السوق تباع، قال: فمر بي رجل من اليهود فقال ما هذه الجارية يا أبا سعيد؟ قال: قلت جارية لي أبيعها، قال: فهل كنت تصيبها؟ قلت: نعم، قال: فلعلك تبيعها وفي بطنها منك سخلة، قال: قد كنت أعزل عنها، قال، تلك الموءودة الصغرى. قال: فجئت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فذكرت له ذلك فقال: كذبت يهود، كذبت يهود)، حديث صحيح. وعنه -رضي الله عنه- قال: عن النبي -صلى الله عليه وسلم-: (لو أراد الله أن يخلقه لم نستطع أن نصرفه)، وسنده صحيح. وعنه -رضي الله عنه- يحدث كما حدث أبو سلمة وأبو أمامة -رضي الله عنهم- أن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: (كذبت يهود)، وقال في آخر الحديث: (وما عليكم ألا تفعلوا، فقد قدر الله ما هو خالق من خلقه إلى يوم القيامة).

وعن جابر بن عبدالله -رضي الله عنهما- قال: (أتى النبي -صلى الله عليه وسلم- رجل فقال إن لي خادماً يسقي على ناضح لي، وأنا أعزل عنها فجاءت بولد، فقال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ما قدر الله لنفس بخلقها إلّا هي كائنة)، إسناده صحيح.

وعن جرير بن عبد الله -رضي الله عنه- قال: (جاء رجل إلى النبي -صلى الله عليه وسلم- فقال: يا رسول الله ما خلصت من المشركين إلّا بقينة وأنا أعزل عنها أريد بها السوق، فقال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: جاءها ما قدر).

وعن أبي سعيد الخدري -رضي الله عنه- قال: (سألنا رسول الله -صلى الله عليه وسلم- عن العزل عن نساء أصبناهن، فقال: افعلوا ما بدا لكم فإن الله يقضي ما أحب وإن كرهتم).

وعن أنس بن مالك -رضي الله عنه- قال: (إن رجلاً جاء سأل رسول الله -صلى الله عليه وسلم- عن العزل، فقال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: لو أن الماء الذي يكون منه الولد أهرق على صخرة لأخرج الله منها الولد، وليخلقن الله نفساً هو خالقها).

عن أبي سعيد الأنصاري -رضي الله عنه-: (إن رجلاً من أشجع سأل رسول الله -صلى الله عليه وسلم- عن العزل، فقال له النبي -صلى الله عليه وسلم-: ما قدر من الرحمن سيكون). وعن أبي سعيد الخدري -رضي الله عنه- قال: (أتى رجل رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فقال: يا رسول الله إن لي جارية وأنا أشتهي ما يشتهي الرجال وأنا أعزل عنها أكره أن تحمل، وإن اليهود تزعم أن العزل هي الموءودة الصغرى، فقال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: كذبت يهود، كذبت يهود، لو أراد الله أن يخلقه لم تستطع أن تصرفه).

وعن أبي سعيد الخدري -رضي الله عنه- أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: (أنت خلقته أنت ترزقه، أقره مقره فإنما هو القدر)، حديث ضعيف. الذي سبق من الأحاديث ممكن أن يكون شاهداً له وأيضاً الآيات، لكن المعنى على كل حال فيه صحة،

وأتت أدلة صحيحة تثبت هذا المعنى.

قبل أن ندخل في الباب المهم في باب القدر نتكلم عن هذه المسألة بمرور الكرام لأن هذه المسألة فصلنا القول فيها في صحيح مسلم.

معنى العزل أن يجامع الرجل امرأته أو ما ملكت يمينه، لأن الرجل لا يباح له جماع أحد من النساء إلّا امرأة تزوجها وأمهرها، أو امرأة ملك يمينها يعني كانت من السبي، فإذا جامع الرجل زوجته أو ما ملكت يمينه وأراد أو اقترب من القذف فإنه يعزل، يعني يقذف في الخارج لا يقذف في الداخل. أولاً لا يجوز للرجل أن يفعل ذلك مع امرأته التي هي زوجة له، لأنه بذلك سيخالف تصريحاً مقصود النكاح، ومقصود النكاح كثرة الولد، (تناسلوا تكاثروا فإني مباه بكم الناس يوم القيامة)، وقد جاء من أكثر من طريق، فالمقصود الأسمى من النكاح تكثير سواد المسلمين. فعزل المؤمن عن زوجته عن الحرة لا يجوز بحال من الأحوال، وقد اتفقت كلمة الفقهاء أنه لا يجوز أن يعزل عنها إلّا بعد إذنها، ولا يكون المقصود عنده هو التقليل من مسألة النسل لأن هذا لا يجوز، مصادم لكتاب الله جلَّ في علاه.

أمّا العزل عن الإماء أو ملك اليمين فهذا كان يجوز لهم، أو كان ممنوعا وقد أباحه النبي -صلى الله عليه وسلم- كما في الصحيح أن جابر قال: (كنا نعزل والقرآن ينزل)، يعني لم ينسخ، والأصل الإباحة، فكانوا يعزلون لعلة، لأن الراجح الصحيح أن ام الولد لا تباع. امرأة بملك يمين يستطيع أن يبيعها ويشتري فيها، يعني يربح مالاً إذا باعها واشتراها، وهذا مجاله التفصيل الفقهي كما بيّناه قبل ذلك. فهو يخشى أن تلد، فإذا ولدت ربطت لا يستطيع أن يربح مالاً بعدها، يمكن أن يتمتع بها ولا يستطيع أن يبيع هذه المرأة لأنها تعتق عليه بعد الموت، طالما هي أصبحت أم ولده. والتفصيل الفقهي الدقيق في هذه المسألة أنه لا يجوز البيع إذا فرق بينها وبين ولدها، لكن لو بيعت بالولد يصح، ولسنا بصدد التفصيل الفقهي في ذلك.

الغرض المقصود؛ الصحابة أرادوا العزل عن الإماء حتى يستفيد منهم الإنسان بالورق عند البيع، فلمّا سألوا النبي -صلى الله عليه وسلم- عن العزل ويعلم النبي -صلى الله عليه وسلم- أنهم يعزلون من أجل أنهم لا يريدون أن تحمل المرأة، بيّن لهم: أخذتم بالسبب وإن لم تأخذوا بالسبب فإن القدر سيكون سيكون، فهذا إقرار وتقرير من النبي -صلى الله عليه وسلم- أن ما كتب لابد أن يظهر على الواقع ويظهر على الساحة، حتى ولو اجتهدت اجتهاداً كاملاً في الأخذ بالأسباب لمنع هذا الولد سيأتي الولد إن كتبه الله جلَّ في علاه. وهذا بالضبط تقرير لميزان القضاء والقدر، لأنه قال: (إن لم تؤمن بهذا فأنت في النار)، إن لم يؤمن بماذا؟ يؤمن أنه قال له: (اعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك وما أخطأك لم يكن ليصيبك) بحال من الأحوال، حتى لو اجتهدت في السبب قدر الله نافذ نافذ، وأنت مأمور أن تأخذ السبب. ولذلك قال النبي -صلى الله عليه وسلم- أيضاً: (ولو اجتمعت الأمة على أن ينفعوك)، هذا أخذ بالأسباب لكن يغاير ما كتب، (ولو اجتمعت الأمة على ان ينفعوك بشيء لن ينفعوك إلّا بشيء قد كتبه الله لك، ولو اجتمعت الأمة على أن يضروك بشيء لن يضروك إلّا بشيء قد كتبه الله عليك، قد جفت الأقلام ورفعت الصحف).

هنا النبي -صلى الله عليه وسلم- يبين ذلك ويؤكده ويعضده بتصريح بليغ، وفيها نوع من المبالغة إن صح التعبير أنه قال: (ولو أهرق الماء) يعني ماء المني (على صخرة لأخرج الله منها الولد)، إن كان قد كتب من هذا المني الولد. هذه المسألة صراحة إذا تكلمنا بها هذه فقط تبيين وتوضيح للأمة بأسرها أن الله إذا أراد شيئاً قال له كن فيكون، فليس ببعيد عن قدرة الله جلَّ في علاه أن تنفلق الصخرة عن ولد كما انفلقت الصخرة عن ناقة، فقدرة الله جلَّ في علاه ظاهرة جلية إذا أراد شيئاً قال له كن فيكون. وإذا سألت نفسك وهل يحدث هذا؟ اقول لك لا يحدث لأن الله قد قدر ذلك وكتب أن الرجل لا يأتي له الولد إلّا بتخصيب المني بالبويضة، إلّا إذا كانت معجزة أو نبوة يريد الله بها الرسالة والتحدي كما حدث لعيسى ابن مريم -عليه السلام-، أمّا الآن فلأن الله ربط الأسباب وبيّن لنا أنه خلق الإنسان من ماء مهين.

معنى هذا الكلام بوضوح وتدقيق، كأن النبي -صلى الله عليه وسلم- يقول: ولو اجتهدت أمرك على أن تقذف في الخارج وقد قدر الله تخصيب البويضة سيحدث، لأنك إذا أردت أن تنزع لا تستطيع حتى تقذف ثم تنزع ويحدث تخصيب البويضة، أو تنزع وبعدما تنزع تأتي الأمة أو الزوجة تستدخل المني، وهي تعلم أنها لو أصبحت أم ولد أنها لا تباع وتعتق بعدما تموت، أنت تقذف في الخارج تعزل وتقذف في الخارج، فتستدخل المني والمني يخصب البويضة. هذا معنى قول النبي -صلى الله عليه وسلم- يؤكد عليك ما قدر سيكون وما قدره الله سيكون، ولو اجتهدت أمرك واجتمعت مع من اجتمعت ولم يكن الله قد قدر ما تريد، لا يكون إلّا ما يريد سبحانه جلَّ في علاه، فهذه فيها وضوح جلي لبيان (أن ما أصابك لم يكن ليخطئك وما أخطأك لم يكن ليصيبك). وأيضاً تنفع طالب العلم أنه في أمور الأسباب ولو اجتهد أمره وأخذ بالأسباب وغايرت النتائج يعلم أن هذا من قدر الله ولن يغير بحال من الأحوال، فيؤمن أن هذا من قدر الله فيهدي الله له قلبه، لأن ميزان تدقيق الصدق في الإيمان هو التسليم التام لربوبية الله جلَّ في علاه، (إذا أحب الله قوماً ابتلاهم، فمن رضي فله الرضا ومن سخط فعليه السخط)، فهذا مجال الكلام على هذه الأحاديث.

فيها فوائد مستنبطة:

١- الفائدة الأولى: قول النبي -صلى الله عليه وسلم-[1]: (كذبت يهود) صراحة هذه لابد أن ننظر فيها، لأنه قد صح عن نبينا أنه قال في العزل: (الموءودة الصغرى)، ولذلك ابن حزم يحتج بهذا الحديث على أنه لا يجوز إسقاط ولا تضييع، إذا خصب كثير من النساء تقول لابد من الإجهاض بعد شهر بعد شهرين، أنا عندي مساحة إلى أربعة أشهر مئة وعشرين يوم. فابن حزم يقول لو أسبوع بعد الجماع، يوم بعد الجماع لا يجوز الإسقاط،

(١) الراوي : عائشة أم المؤمنين | المحدث : مسلم | المصدر : صحيح مسلم | الصفحة أو الرقم : ٤٨٧ | خلاصة حكم المحدث : [صحيح].

ويستدل على أن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال في بعض التصريحات كما في صحيح مسلم: (إن العزل موءودة صغرى). والأحناف يقولون لو بأسبوع لا يجوز، كله نتاج لقول النبي -صلى الله عليه وسلم- (إن العزل موءودة صغرى). هذه لابد أن نقف عندها لأنه قال: (كذبت اليهود)، وهي تقول الموءودة الصغرى، أقر النبي -صلى الله عليه وسلم- بأنها الموءودة الصغرى وبعد ذلك (كذب اليهود).

المخرج مختلف، أقر أنها الموءودة صغرى بهذا الكلام أنه يريد ذلك، أمّا المخرج الثاني في اليهود أن اليهود عندما قالت هي الموءودة الصغرى يعني النسل ينقطع، يقصدون بأن المرء لو اعتاد العزل نسله ينقطع لا ينجب بعد ذلك بحال، فهذا الذي أكذبهم فيه النبي -صلى الله عليه وسلم-، يعني قال كذبتم، بل حتى لو عزل ثم بعد ذلك جامع ولم يعزل ينجب، بل في العزل يمكن أن تستدخل المرأة المني أو عند العزل يحدث القذف أولاً ثم العزل ويحدث التخصيب للبويضة. فتكذيب اليهود هنا في أنهم يدعون ويزعمون أن من اعتاد على العزل عن زوجته يعاقب بأنه ينقطع نسله، وهذا كلام كما قلنا كلام ليس بصحيح ولذلك أكذبهم النبي -صلى الله عليه وسلم-.

٢- من هذه الأحاديث العظيمة إشارة قوية جداً على أن مقصود النكاح هو النسل، وأنه لا يجوز للإنسان أن يقول أنا أمنع النسل. الآن لا تقول لي هذه تزيين الشيطان، تقول أنا أريد أن أرتاح سنة وسنة، أو تقول المرأة انا أريد تربية راقية لأولادي لأنهم كلما قلوا كلما استطعت تهذيب الأنفس والأخلاقيات والترتيب. كل ذلك مخالف لدين الله جلَّ في علاه، أن المقصود الأسمى عند الناس ويخفون ذلك هو الورق هو الدراهم والدنانير، ولذلك قال وهذا هو الصحيح: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ۚ﴾ [الإسراء: ٣١]، وفي الآية الأخرى: ﴿نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ۖ﴾ [الأنعام: ١٥١]، ولذلك قال النبي -

صلى الله عليه وسلم-[1]: (أنت خلقته أنت ترزقه، أقره مقره فإنما هو القدر)؛ أنت لا ترزقه، إن الله جلَّ وعلا خلقه ولا ينساه، إن الله الذي كفى الناس بنملة ترفع يديها لله جلَّ في علاه يكفي البشر من الرزق.

وكما قلنا هذا الحديث صححه بعض العلماء من المحدثين؛ (إن سليمان -عليه السلام- لما قام يبتهل يتضرع ويتذلل لله جلَّ في علاه للمطر حتى يزول هذا الجدب، وجد نملة تقف على قوائمها تسأل الله الرزق تسأل الله المطر، فقال لهم سليمان -عليه السلام-: ارجعوا فقد كفيتم بغيركم)، فهنا أنت لا يجوز لك أن تمنع هذا الولد. ولذلك في هذه الأحاديث دلالة واضحة على إثم وحرمة من حدد النسل ومن نظم النسل ومن امتنع على ذلك بدون سبب وجيه، إلّا إذا قالت الطبيبة أو طبيب ثقة بأن المرأة الإجهاد يعييها وأن هذا فيه مضرة صحية عليها فعليها أن تقف، حتى يقال لا مضرة عليها، فترجع إلى المقصود الأسمى من النكاح وهو تكثير النسل.

(١) لراوي : عائشة أم المؤمنين | المحدث : الألباني | المصدر : صحيح النسائي | الصفحة أو الرقم : ٢٥١ | خلاصة حكم المحدث : صحيحي : [عبدالرحمن بن عبدالله بن مسعود] | المحدث : الألباني | المصدر : السلسلة الصحيحة | الصفحة أو الرقم : ٥/ ٤٢٠ | خلاصة حكم المحدث : إسناده صحيح.

باب الدعاء من سوء القدر وغيره

عن عائشة -رضي الله عنها- قالت: (كان من دعاء النبي -صلى الله عليه وسلم-: اللهم إني أعوذ بك من شر ما عملت وشر ما لم أعمل بعد).

عن عبد الله بن عمر -رضي الله عنهما- قال: (كان رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يدعو بواقية كواقية الوليد)، إسناده ضعيف جداً.

وعن خالد بن الوليد -رضي الله عنه- أن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال له: (قل أعوذ بكلمات الله التامات التي لا يجاوزهن بر ولا فاجر من شر ما ينزل من السماء وشر ما يعرج فيها، ومن شر ما ذرأ في الأرض وما يخرج منها، ومن شر فتن الليل والنهار وطوارق الليل والنهار إلّا طارقا يطرق بخير يا رحمن)، إسناده ضعيف.

وعن سالم بن حزم قال: رآني عبدالله بن عمر -رضي الله عنه- أصلي فلمّا انصرفت قال لي: ممن أنت؟ فقلت: من أهل الشام، فقال: إنكم أهل الشام تطيلون الصلاة وتكثرون الدعاء وإنني لم أصلِّ خلف أحد أخف صلاة في تمام من رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وكانت دعوة يدعو بها رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أن يقول: (اللهم وفقني لما تحب وترضى من القول والعمل والنية والهدى إنك على كل شيء قدير)، إسناده ضعيف.

عن الحسن بن علي -رضي الله عنهما- قال: (علمني جدي -صلى الله عليه وسلم- كلمات أقولها في قنوت الوتر: اللهم عافني فيمن عافيت وتولني فيمن توليت واهدني فيمن هديت وبارك لي فيما أعطيت وقني شر ما قضيت إنك تقضي ولا يقضى عليك، إنه لا يذل من واليت، تباركت ربنا وتعاليت)، حديث صحيح. وعنه -رضي الله عنه- قال: (علمني رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فذكره وقال: اهدني فيمن هديت وقني شر ما قضيت إنك تقضي ولا يقضى عليك).

والمقصود الأسمى من هذا الباب قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (وقني شر ما قضيت)، وأيضاً أنه قال: (من شر ما عملت)، هذه أحاديث أخرى لكن المقصود الأسمى في هذا الحديث لأنه صدّر الباب به الدعاء من سوء القدر، يعني الاستعاذة من سوء القدر. وهل للقدر سوء أم لا؟ هذا الذي لابد أن نقف عنده. وحديث عن النبي -صلى الله عليه وسلم- أنه كان يتعوذ من سوء القضاء، كان يقول: (اللهم إني أعوذ بك من درك الشقاء وسوء القضاء وشماتة الأعداء)، وهنا (وقني شر ما قضيت)، وهل ما قضاه الله جلَّ وعلا فيه شر؟ وهل خلق الله الشر؟ وهل أوجد الله الشر؟ الظلم السرقة الاغتصاب كل ذلك الذي نراه هل هذا من خلق الله؟ هل ينسب لله خلقاً وإيجاداً أم لا؟ هذا الذي سنفسره.

لابد من أصلين عظيمين نؤصلهما، من ضبط هذين الأصلين الموضوع برمته قد وقف عنده:

أول ذلك قل: المحكم لا يزول بالمحتمل؛ هذه مقدمة للأصلين، أمّا المحكم فهو قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (والشر ليس إليك)، فهنا أحكم النبي -صلى الله عليه وسلم- المسألة وقطعها وقطع كل احتمال، قال: (والشر ليس إليك) لا ينسب إليك الشر، هذا محكم هل فيه اي احتمال؟ لا احتمال فيه، فقد نفى أن ينسب لله جلَّ وعلا أدنى شر. إذاً كل ما يأتيك من أدلة فيها نسبة الشر لفعل الله أو لقضاء الله وجب تأويلها، لأن عندي محكم ظاهر جداً لا احتمال فيه؛ قال: (والشر ليس إليك)، عندما كان يدعو يقول: (والخير كله بيديك والشر ليس إليك)، تفسير هذا القول هو الأصل الذي سيأتيك.

الشر ليس إلى الله جلَّ في علاه الشر، ليس في أفعال الله، لأن الشر نقص والله له الكمال المطلق والجلال التام سبحانه جلَّ في علاه. الشر ليس في أفعال الله، الشر ليس في صفات الله، الشر ليس في أسماء الله جلَّ في علاه، بل لله الأسماء الحسنى، بل لله الكمال المطلق، بل لله الجمال والجلال التام. قال الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [الأعراف: ١٨٠]، وحسن

الأسماء أنها تدل دلالة مطابقة على الذات المقدسة وتتضمن صفات كمال وتستلزم صفات كمال أخرى على هذا الكمال، وقد بيّن الله جلَّ في علاه وله المثل الأعلى في السماوات والأرض بأن الله في غير ما آية أظهر أن له المثل الأعلى، الكمال المطلق والجلال المطلق التام لله جلَّ في علاه.

وكان النبي -صلى الله عليه وسلم- ينزه ربه ويسبح ربه عن كل نقص وعن كل شر وعن كل ما يوهم بالنقص والشر، قال النبي -صلى الله عليه وسلم- في كثير من دعائه، في السجود كان كثيراً ما يقول[1] (سبوح قدوس رب الملائكة والروح)؛ سبوح: تنزيه تام عن النقائص، تنزيه تام لربه الجليل عن النقائص. وقد علّم أصحابه أن ينزهوا ربهم دائماً يرددوا هذا التنزيه ليقر أو يستقر في قلوبهم الكمال المطلق لله، الجمال المطلق لله، الجلال المطلق لله، لا نقص ولا عيب ولا شر ينسب لله جلَّ في علاه. كان يعلّمهم إذا ارتقوا أن يكبروا الله أكبر من كل شيء، الله أكبر من كل ما يأتي في الذهن، الله أكبر من كل نقص وشر. وكان إذا نزلوا يعلّمهم أن يقولوا سبحان الله، تنزيهاً لله جلَّ في علاه عن كل نزول، تنزيهاً لله جلَّ في علاه عن كل نقص وشر.

وأيضاً كان إذا تعجب من شيء سبح، وكان إذا استغرب من شيء سبح؛ (عندما دخلت عليه المرأة فسألته عن التطهر من الحيض إذا انقطع دم المرأة ماذا تفعل؟[2] فقال لها النبي -صلى الله عليه وسلم-: إذا انقطع دمك فتطهري، فقالت: يا رسول الله كيف أتطهر؟ فقال لها: تطهري، فتجرأت أكثر وقالت: يا رسول الله وكيف أتطهر؟ فقال النبي -صلى الله عليه وسلم- مستحياً متعجباً: سبحان الله تطهري، فجذبتها عائشة -رضي الله

(١) الراوي: عائشة أم المؤمنين | المحدث: مسلم | المصدر: صحيح مسلم | الصفحة أو الرقم: ٤٨٧ | خلاصة حكم المحدث: [صحيح].

(٢) الراوي عائشة أم المؤمنين | المحدث: الألباني | المصدر: صحيح النسائي | الصفحة أو الرقم: ٢٥١ | خلاصة حكم المحدث: صحيحي: [عبدالرحمن بن عبدالله بن مسعود] | المحدث: الألباني | المصدر: السلسلة الصحيحة | الصفحة أو الرقم: ٥/ ٤٢٠ | خلاصة حكم المحدث: إسناده صحيح.

عنها وأرضاها- فقالت لها: تتبعي أثر الدم بقطنة ممسكة أو بقطنة فيها مسك أو طيب).

فهنا دلالة واضحة جدا على أن النبي -صلى الله عليه وسلم- يسبح الله في مواقف شتى ليبيّن لك وتتذكر وتتعلم وتعبد الله بأن له الكمال المطلق والجلال المطلق، لا نقص لا شر ينسب لله جلَّ في علاه. هذا الأصل الأول الأصيل الذي ينبثق من قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (والشر ليس إليك). ويدلك على ذلك قد حرم الله على نفسه الظلم، لأن الظلم نقص والظلم شر، والله جلَّ وعلا لا يرضى على نفسه أن يوصف بذلك، (يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرماً)، ﴿ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾ [فصلت: ٤٦]، فقد نفى عن نفسه الظلم لأن الظلم نقص والنقص منزه عنه الرحمن جلَّ في علاه.

الأصل الثاني؛ إذا قلت بأن لله الكمال المطلق، بأن لله الجمال المطلق، بأن لله الجلال المطلق، فما من فعل وما من صفة وما من خبر عن أفعال الله جلَّ في علاه إلّا وهي نابعة كمال ونابعة عن حكمة وعدل وعلم سبحانه جلَّ في علاه؛ فهو الحكيم العليم، فهو الخبير، فهو الحكيم الخبير. من حكمة الله ما خلق الخلق سدى، من حكمة الله أن يضع الشيء في موضعه؛ ترى أن الله جلَّ وعلا من حكمته لا يساوي بين المختلفين، لا يسوي بين الصالح والطالح ولا بين البر والفاجر ولا بين المؤمن التقي ولا المنافق الخبيث، لا يسوي الله جلَّ في علاه بين المختلفين بحال من الأحوال، لا الظلمات ولا النور ولا الأعمى ولا البصير، هذا من تمام حكمة الله جل في علاه.

عندك أصلان ينبثقان من تأصيل محكم عن النبي -صلى الله عليه وسلم-: (والشر ليس إليك):

♦ الأصل الأول الكمال المطلق لله، إذاً كل ما ينسب لله ان كان يوهم من النقص فما عليك إلّا الرفض التام والرد التام، وترد وتقول: لربي الكمال المطلق، لربي الجلال المطلق التام.

♦ والأصل الثاني: أنه ما من فعل فعله الله إلّا وله حكمة؛ سترد علي بسؤال: الشيطان

أليس به الشر وكل الشرور من الشيطان؟ أقول لك نعم، تقول: ولِمَ خلقه الله؟ لحكمة بليغة. السرقة الغصب القتل أليس شراً؟ نعم شر خلقه الله لحكمة وستظهر هذه الحكمة.

فأصلان مهمان، إذا ضبطت هذين الأصلين انتهى الأمر عندك في مسألة الشر؛ أن الله جل وعلا له الكمال المطلق والجلال المطلق والجمال مطلق، وأن الله جلَّ وعلا لا ينسب له الشر بحال من الأحوال لكماله المطلق، وأن الله حكيم يضع الشيء في موضعه. فإن عز عليك الأمر؛ خلق الشر خلق النقائض خلق الزنا؟! قل خلق كل ذلك بحكمة، وهذه بالنسبة لله خير، أمّا بالنسبة للبشر إضافية ففيها الشر كما سنبين.

فهذان الأصلان ينبثق عنهما حكم مهم: الخير ينسب لله بأسره؛ إذا تكلمت عن الخير فكل أفعال الله خير، والشر لا ينسب لله بحال. وتقسيم القدر لخير وشر، هذا بالنسبة للبشر، بالنسبة للمحل الذي يقع عليه القضاء؛ فإذاً الشر في المفعولات وليست في الأفعال، فعل الله كامل لأن الكمال المطلق لله، فالكمال لا يخرج إلّا من صاحب الكمال، والنقص لا يمكن أن يكون من صاحب الكمال. أعتقد أن ربي له الكمال فكل فعل هو كمال، أعتقد لربي الجلال فكل فعل جلال، لا نقص فيه بحال من الأحوال. فإذاً تقسيم الخير والشر في القضاء هذا بالنسبة للمحل، بالنسبة للبشر نسبي إضافي، فإذا ضبطنا هذه المسألة فنحن نقول إن أفعال الله كلها خير، والشر الذي يقع على الناس شر في المفعولات وليست في أفعال الله جلَّ في علاه، وحتى هذه المفعولات نضبطها لم تكن شراً محضاً، لم يخلق الله جلَّ في علاه شراً محضاً، بل هذا الشر يستجلب الخير من وجوه كثيرة، بل في الشر خير -كما سنبين- وهذا من حكمة الباري.

فإنك إذا نظرت إلى البلايا، إذا نظرت إلى المصائب، إذا نظرت إلى الشرور التي توجد في هذه الدنيا، إذا دققت النظر لا تقول بأن هذه فيها الشر المحض، لا والله، فإن فيها الخير في داخلها وتستلزم الخير. انظر مثلاً إلى القتل، إلى السرقة، إلى الزنا؛ شرور أم ليست شرور؟ شرور وتستجلب شرور، القتل لابد لها من قصاص والقصاص فيه القتل وهو

شر للمقتول، وأيضاً الزاني إذا كان ثيباً فالرجم إلى الموت وهذا شر للزاني، وإن كان بكرا فله التغريب العام بعد الجلد مئة وهذا أيضاً شر له، السارق فيه القطع قطع اليد وقطع اليد شر له.

فنقول هذا الشر بالضابط الذي ضبطناه ليس شراً محضاً لأنه لا يخرج من الله جلَّ في علاه إلّا الكمال وإلّا الحكم، فهذا الشر سيستجلب لخير أكبر منه. قل لي كيف؟ أقول لك قد قال الله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [البقرة: ١٧٩]؛ الخير موجود في القصاص، زيد قتل عمرو فحكم عليه بالقتل، فالشر يكون شراً بالنسبة لزيد والخير يكون للأمة بعد زيد، لقول الله تعالى: (وَلَكُمْ) أيتها الأمة الغراء، ولكم أيها الناس، ولكم أيها المسلمون، (وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ)، قتل زيد، وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ) هذا هو الخير. كيف تكون الحياة بعد الموت؟ نقول نعم، لأن كل قاتل أو كل من هم بالقتل يقول أنا أقتل هذا الذي لا يساوي فلساً وأُقتَل به!! حياتي أغلى من حياته فيحافظ على حياته بعدم القتل وعدم التجرأ على القتل، الأول يفعل ذلك والثاني يفعل ذلك والثالث يفعل ذلك يكف الناس عن الدماء ولا يتجرأون على الدماء، فيحيا الناس حياة طيبة ويوافق هذا قول الله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾.

الزاني الذي قد استعف بامرأته وزنا فيرجم حتى الموت، فإن كل زاني إذا نظر إلى هذا المرجوم بالحجارة وأنه سيموت ومآله إلى الموت وإلى الفضيحة أمام الناس ماذا سيحدث؟ سيقول لهذه النزعة أو هذه الشهوة التي لا تأخذ دقائق تنفذ حياتي لهذه الدقائق، أضيع قتيلاً أفضح على رؤوس الخلائق!! لا والله، أعف بصري وأحفظ فرجي وامرأتي عندي ولا أتجرأ على أعراض الناس، فهذا فيه خير أن كل الزناة سيكفون عن الزنا. وأيضاً البكر سيقول ولِمَ أغرب وأجلد وأفضح بين الناس؟ لا والله، أتزوج أو آخذ بنصيحة النبي -صلى الله عليه وسلم-: (يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج فإنه أغض للبصر وأحفظ للفرج، فمن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء)، سيلجأ إلى القناة

الشرعية التي يكف نفسه عن الشرور التي أداها للناس، فهذا فيه خير للبشر.

الثالث القطع للسارق؛ سرق أربعة دراهم أودت بيده الشريفة الكريمة إلى القطع، ينظر إلى يديه ويقول أربعة دراهم تقطع فيها يدي؟ لا والله، لو مئة ألف دينار، لو دفعوا لي ألف دينار ومئة ألف دينار لا أفقد يدي، ويكف عن السرقة ويقول أموت جوعاً خير لي من أن تقطع يدي. حفظنا أموال الناس، هذا فيه الخير الكبير. خذ الأقوى من ذلك، هذا خير متعدي للبشر، وهذه حكمة خفية، خذ الأحكم من ذلك والأفضل من ذلك، بل هو خير لمن كان فيه الشر، بل هو خير لمن بلغه الشر؛ القطع شر للمقطوع، القتل شر للمقتول، الرجم شر للمرجوم، وفيه الخير. المحن تتضمن المنح، إن الحدود كفارات، إذا قتل هذا وجاء يوم القيامة هل سيسأله الله عن هذا القتل وهذا الذنب؟ لا، بل سيكفيه المؤونة، بل سيرضي المقتول عنه. القاطع نفس الأمر، السارق نفس الأمر، المرجوم نفس الأمر. الحدود كفارات كما في الصحيحين عن عبادة بن الصامت أنه قال: بايعنا رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، وفي ضمن الحديث أنه قال: (ومن أتى منكم حدا فأقيم عليه فهو كفارته). فالحدود كفارات فهذا فيه الخير كل الخير، وإن الإنسان إذا أقيم عليه الحد رجع وتاب وأناب وآب إلى ربه جلَّ في علاه.

أرأيتم هذا الشر ليس شراً محضاً، بل فيه الخير لمن وقع عليه هذا الشر، وفيه الخير بعد ذلك للأمة، وهذه حكمة بليغة تظهر لنا بأن الله جلَّ وعلا لمّا أوجد الشر ولا يحبه؛ لا يحب الله الزنا، ولا يحب الله الفحشاء، ولا يحب القتل، ولا يحب السرقة، لكن خلق هذا وأوجده؟ نعم خلقه وأوجده لحكمة بليغة، ما بيّناه سابقاً.

أيضاً قل الشيطان خلقه الله جلَّ في علاه، كل الشرور في الشيطان، خلقه الله للإغراء والغواية والإغواء، فهو من هو في الغواية والوسوسة ما ترك أحداً إلّا وسلبه إيمانه أو سلبه دينه أو سلبه عفته أو سلبه حياؤه، ما من مرة قام المرء بدينه واستقام عليه وفاز على الشيطان إلّا في مرة أخرى حدثت له السقطات والهنات والزلات، فوجود الشيطان شر

لأي ما شر. وحتى هذا الشر الخير فيه والخير به والخير عليه، كيف ذلك؟ إبليس فيه خير عليه خير به خير؟ نعم والله، أمّا به خير فإن الله جلَّ وعلا يمايز بين المسلمين والمجرمين، يمايز بين المؤمن التقي وبين الفاسق الفاجر، يمايز بين الصادق والكاذب، ﴿فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ [العنكبوت: ٣]، بوسوسة الشيطان. فالصادق يأتيه الشيطان يغويه ويزين له الشهوات والشبهات، بيع الدين من أجل دراهم معدودة مثلاً، فهو لو كان صادقاً لله جلَّ في علاه سيظهر صدقه ويباين الشيطان ويخالف الشيطان في الغواية وفي الوسوسة، وإن كان كاذباً سيسر مع الشيطان ويزين له عمله، فهذه فضيلة ليست بعدها فضيلة.

أيضاً من الخير الذي تراه في وجود الشيطان أن تعلم قدرة الرب البارئ القدرة الباهرة للعقول، أن الله جلَّ وعلا خلق المتقابلات المتضادات، أن الله خلق أخبث نفس على أرض البسيطة، أخبث نفس في الدنيا هو الشيطان، ومع ذلك من قدرته الباهرة خلق أطهر النفوس، خلق جبريل كما أنه خلق إبليس، خلق جبريل لتبهر العقول ولتعلم أن الله جلَّ وعلا قادر على أن يخلق هذا ويخلق ضده، أن يخلق شر ويخلق الخير، وليس بعاجز عن ذلك بحال من الأحوال، فهذه أيضاً فيها بيان ودلالة واضحة على قدرة الله جلَّ في علاه. أيضاً فيها ما فيها من إظهار الصادقين الورعين الأتقياء الأخفياء الذين يرتقون المنازل العلا عند الله جلَّ في علاه، الذين يتنافسون على الخيرات؛ إن المرء إذا زنا، أذا سرق، إذا وقع في الحرام فإنه لعله يسير فيسمع كلام الله جلَّ في علاه: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ﴾ [الفرقان: ٧٠]، فيبكي تضرعاً وتذللاً ورجوعاً وأوبة إلى الله جلَّ في علاه فيرتقي المنازل العلا.

لا زلنا ليل نهار كل قصاص إذا أراد أن يصدّر الباب بقصة ترقق القلوب أتى بقصة التزام الفضيل بن عياض ورجوع الفضيل بن عياض إلى الله جلَّ في علاه، كيف رجع؟ كان سارقاً، كان قاطعاً للطريق، ماذا حدث له؟ إن قلبه قد رق ولمّا رق قلبه آب وعاد

ورجع إلى الله جلَّ في علاه. انظر فهذه من مخالفة الشيطان، دلالة على تمييز الله بين الصادقين وبين الصالحين. إن الله جلَّ وعلا بيّن أن الشيطان ليس له سلطان على بني آدم، ولكن أن الله خلقه وأوجده ليعلم من يتبع الشيطان ممن يسلك سبيل الرحمن، فهذا شر وخلقه الله لهذه الحكمة العظيمة وبه وجد الخير.

بإبليس وجد آدم -عليه السلام-؛ إبليس عصى الله، وآدم عصى الله، ولولا وجود إبليس ما تمايز آدم وأخذ هذه المكانة وتبوأها عند الله جلَّ في علاه، لأن إبليس انصاع له ولغوايته آدم وأكل من الشجرة، لكنه لمّا تاب اجتباه الله واصطفاه وارتقى منازل علا عند الله جلَّ في علاه، وإبليس عتى وعاند بل طعن في حكمة الله جلَّ في علاه، ﴿قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٢﴾﴾ [الإسراء: ٦٢]. إبليس لو ما ظهر آدم لأصبح وصار إلى اليوم طاوس الملائكة، أما قالوا عنه ذلك، كان يشتد ويجتهد في العبادة، وكان طاوس الملائكة. كيف ظهر أنه من الملعونين؟ لمّا اختبره الله جلَّ في علاه وابتلاه بالسجود لآدم -عليه السلام-.

فهذه دلالة واضحة جداً على أن الله لمّا خلق الشر لم يخلقه شراً محضاً، بل سيستجلب به الخيرات ويكون سبباً في فتح أبواب الخيرات، البليات والمصائب التي تنزل تتراً على المؤمنين فيها الخير وبها الخير ومعها الخير، إنما المنح داخل المحن، وإن الله جلَّ في علاه لا يبتلي العباد ليضيعهم ليهلكهم، لا والله، ما ابتلى الله العباد بالمصائب إلّا ليرفعهم إلا ليرحمهم رحمةً منه جلَّ في علاه، (ما أصاب المؤمن من نصب ولا وصب ولا هم ولا غم، حتى الشوكة يشاكها إلّا كانت كفارة له)، هذا فيه خير. المصيبة التي نزلت بموت الولد أو بسرقة المال أو بترك العمل أو بأي مصيبة وبلية جاءت عليك، هذه المصيبة وإن كانت في حد ذاتها مصيبة ستستجلب لك الخير بأسره؛ الخير أولاً أن تصبر على هذه المصيبة وهذه البلية فترتقي عند ربك جلَّ في علاه، دلالة على أن الله يحبك (إذا أحب الله قوماً ابتلاهم، فمن رضي فله الرضا ومن سخط فعليه السخط). وأيضاً أنت إذا رجعت وأنبت إلى ربك جلَّ في علاه فهذا فيه الخير، وهذا الخير كيف ظهر عليك؟ بسبب هذه البلية وبسبب هذه

المصيبة، هنا دلالة واضحة جداً أن الله لم يخلق شراً محضاً، بل بهذا الشر قد أتى بخير وأيما خير.

يجلي لك هذه المسألة قول النبي -صلى الله عليه وسلم- فيما يرويه عن ربه، أن الله جلَّ وعلا قال: (كنت يده التي يبطش بها) إلى أن قال: (ولئن سألني لأعطينه ولئن استعاذني لأعيذنه، وما ترددت في شيء أنا فاعله ترددي في قبض روح المؤمن يكره الموت)؛ بلية نزلت ولكنها الخير، بعدها خير ليس بعده خير، مرافقة الأنبياء وعيش السعداء ورؤية المليك المقتدر سبحانه جلَّ في علاه، قال: (وما ترددت بشيء أنا فاعله ترددي في قبض روح المؤمن يكره الموت) مصيبة وبلية تنزل عليه، (يكره الموت وأكره إساءته) لكن رجح الله الموت لأن الخير سيعقبه، لأن الخلود سيعقبه الذبح للموت، ثم يقال: (يا أهل الجنة خلود) في النعيم، خلود في السعادة، في الحبور في السرور في الفرح. (يا أهل الجنة خلود بلا موت)، نعوذ بالله من الخذلان (يا أهل النار خلود بلا موت).

إذاً لم يخلق الله شراً محضاً، هذا كله ينبثق عن الأصلين السابقين اللذين قد أصلناهما، إذا ضبط طالب العلم هذين الأصلين المنبثقان عن قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (والشر ليس إليك) ضبط مسألة الشر. هل في خلق الله من شر؟ لا والله، نقول فعل الله كله خير والشر في مفعولات الله جلَّ في علاه. إذا فهمنا ذلك وأتقنا هذا نطبق هذا الكلام على قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (وقني شر ما قضيت)؛ تحتمل شر قضاءك، تحتمل شر فعلك -حاشا لله-؟! وتحتمل شر المقضي البلية التي وقعت أو المصيبة التي وقعت؟! فهل كان النبي -صلى الله عليه وسلم- يستعيذ من أفعال الله ويستعيذ من صفات الله أم يستعيذ من آثار أفعال الله جلَّ في علاه؟

بالأصلين ينتج لنا أن استعاذة النبي -صلى الله عليه وسلم- كانت استعاذة من المقضي من آثار الفعل ليس من فعل الله، لأن فعل الله كله خير وكمال وجلال. فإذاً الاستعاذة استعاذة من المقضي، استعاذة من أثر الفعل لا من فعل الله، الاستعاذة من المفعولات لا من

فعل الله جلَّ في علاه. قال لي قائل دلل على ما تقول؟ قلت أدلل أولاً أن عائشة نسبت الشر لعملها، قالت في أول الحديث: (أعوذ بك من شر ما عملت)، ما قالت من شر ما خلقت فيّ من عمل. وأيضاً في الحديث الثاني وإن كان إسناده ضعيف لكن بعض الروايات الأخرى يمكن أن تعضده، قال فيها النبي -صلى الله عليه وسلم-: (من شر ما ينزل من السماء)، نسب الشر بالسبب، (من شر ما ذرأ في الأرض وما يخرج منها، من شر فتن الليل والنهار)، ما قال من شر فعله -حاشا لله-.

فتوجيه قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (وأعوذ بك من شر ما قضيت) يعني من شر المقضي من شر المفعولات، ولذلك ترى أن النبي -صلى الله عليه وسلم- تأدب مع ربه وقال: (والشر ليس إليك). فإذا بيّنا ذلك وعلمنا أن الشر والشرور في المفعولات ليست في أفعال الله، إذا نسبنا الفعل لله فكله خير، أمّا إذا نسبنا للبشر ففيه الخير وفيه الشر؛ الزنا بالنسبة للرجل الذي زنا شر منه. لكن إذا قلت خلقكم الله وما تعملون، فإذاً خلق الله كله خير لأن أفعال الله كلها كمال، إذا وصلنا إلى هذا فلابد أن نقرر خاتمة لهذا الباب، إذا قلت وأقررت بأن الله خلق كل شيء وضمن هذا الشيء الشر فكيف ننسبه لله؟ وإن لم يكن في أفعال الله شر لكن في مفعولات الله شر.

وهذا الشر تقرر معنا أنه ليس بمحض، لكن هل ننسبه لله مطلقاً أم كيف ننسبه لله؟ نقول التعبد لله في هذه المسائل، وإن قررنا بأن أفعال الله كلها كمال وأن الله جلَّ وعلا كل فعل نابع عن حكمة، وأن الله جلَّ وعلا لم يخلق شراً محضاً، وحتى المفعولات التي فيها الشر لا تكون شراً محضاً، نسبتها لله نسبة إضافية لا تكون نسبة مطلقة، لابد أن تكون نسبة مقيدة ليست مطلقة تأدباً مع الله جلَّ في علاه. ولك خيار بحال من الأحوال الثلاثة:

▪ إذا نسبت الشر لله أدرجه تحت عموم الأشياء، لا تقول أن الله خلق الشر، خلق الزنا، خلق الشتم، خلق السب، خلق القتل، خلق وخلق. هذا سوء أدب مع الله، ولا يجوز أن تتكلم عن الله جلَّ وعلا بهذه الطريقة، أنت في الصفات كلها قاعدة واحدة: إذا قلت بأن

الله جلَّ وعلا ليس وجهه كوجه البشر، أن الله جل وعلا يده ليست كيد القرد أو الأسد أو الخنزير، أو قلت رب الخنزير ورب الكلاب ورب كذا، هذا سوء أدب مع الله. أنت لو دخلت إلى ملك من ملوك الدنيا فقلت له أنت لست بسارق، أنت لست بزاني، ماذا سيقول؟ لابد أن يحكم بقتلك لأنك سيء الأدب معه. لكن لو أنت ذهب إليه قلت له: لا ينسب لك من النقص شيئاً أنت كريم، أنت جواد، أنت رؤوف، أنت رحيم، أنت ذكي، أنت فطن، فستذهب مكبلاً بالعطايا لأنك أحسنت القول. فأنت مع ربك أيضاً تتأدب؛ إذا أردت أن تنسب الشر الذي هو في المفعولات فانسبه لله إدراجاً تحت العموم، قال الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖۖ﴾ [الزمر: ٦٢]؛ "شيء" يدخل تحته الشر والخير في المفعولات، تقسيم القدر لخير وشر بالنسبة للبشر بالنسبة للمحل، ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖۖ﴾ [الزمر: ٦٢] فينزل الشر تحته عموماً، ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمۡ وَمَا تَعۡمَلُونَ ٩٦﴾ [الصافات: ٩٦]، ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيۡءٖ فَقَدَّرَهُۥ تَقۡدِيرٗا ٢﴾ [الفرقان: ٢]. فممكن أن تنزل الشر وأنت متأدباً مع ربك تحت العموم، ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖۖ﴾ [الزمر: ٦٢]ومن ذلك قد تدخل الشر الذي هو في المفعولات.

▪ الخيار الثاني أن تنسبه للسبب، للفعل، للخلق؛ كما قال الله تعالى معلماً نبيه أن يتأدب ويستعيذ: ﴿قُلۡ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلۡفَلَقِ ١ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ٢﴾ [الفلق: ١ – ٢]، ما قال من شر فعل الله. ﴿مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ٢﴾ ؛ من شر زيد، من شر عبيد، من شر الشيطان، من شر الفاجر، من شر المنافق، من شر الكافر، نسب الشر للسبب. ﴿قُلۡ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلۡفَلَقِ ١ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ٢ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ٣ وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِي ٱلۡعُقَدِ ٤ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ٥﴾ [الفلق: ١ – ٥]، فهذه النسبة للشر. وكما في الحديث قال: (من شر ما ذرأ، من شر ما برأ في السماء ومن شر ما ينزل من الأرض ومن شر فتن الليل والنهار، من شر طوارق الليل)، نسبة للسبب.

▪ الخيار الثالث بالتأدب أن تنسبه لما لم يسمَّ فاعله، أدب جم نتعلمه من الجن قبل الإنس؛ الجن أفقه منا في باب القدر، زلت الأقدام والأفهام في باب القدر، والجن أفقه منا

في باب القدر، عندما قالوا: ﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِيٓ أَشَرٌّ﴾ [الجن: ١٠]، هل نسبوا الشر لله؟ لا، بأدب وفقه جم ﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِيٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [الجن: ١٠]، وعندما ذكر خير ماذا قالوا؟ ﴿أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾ [الجن: ١٠]، لمّا ذكروا الرشد ذكروها صريحة نسبوها لله جلَّ في علاه، والشر لم يسمَّ فاعله ﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِيٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴿١٠﴾﴾ [الجن: ١٠]. وإبراهيم علّمنا ذلك -عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة وأزكى السلام- قال: ﴿ٱلَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَٱلَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾﴾ [الشعراء: ٧٨ – ٧٩]، ذكر الله عند الخلق لأنه كمال وجلال، قال: ﴿ٱلَّذِي خَلَقَنِي﴾، وعند الهداية: ﴿فَهُوَ يَهْدِينِ﴾، أيضاً نسب الهداية لله، كمال خير ينسب لله تصريحاً. ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾﴾ [الشعراء: ٨٠]، ما قال أمرضني مع أن الله هو الذي خلق الشفاء والمرض، ما الدليل؟ ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الزمر: ٦٢]، من الأحاديث: (ما أنزل الله من داء إلّا وأنزل له دواء). إن الله الذي أنزل الداء؟ ومع ذلك يتأدب إبراهيم مع ربه يقول: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ﴾، نسب المرض لنفسه، للسبب كما قلت.

وأيضاً تقول في سورة الكهف دلالة واضحة جداً؛ لما ركب السفينة واستغرب موسى وأنكر عليه قال: ﴿أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِي ٱلْبَحْرِ﴾ [الكهف: ٧٩]، ماذا قال؟ (فَأَرَدتُّ)، هنا لمّا جاء الخرق في السفينة الذي فيه شر نسب الأمر للسبب، نسب الأمر لنفسه قال: ﴿أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِي ٱلْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا﴾ [الكهف: ٧٩]، مع أنه قال: ﴿وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِيۚ﴾ [الكهف: ٨٢]. ولمّا جاء في الخير وفي الرشد قال: ﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَۚ﴾ [الكهف: ٨٢]. فالخير بأسره يذكر لله جلَّ في علاه وينسب لله جلَّ في علاه، أمّا الشر فلا.

فالتعبد لله جلَّ في علاه في مسألة الشر بعدما اعتقدنا اعتقاداً جازماً أن الله خالق كل شيء: إذا نسبناه لله جل في علاه نتأدب مع الله ونعلم أن الله ما خلقه إلّا لخير، سيعقبه إلّا لخير، فيه المنح ضمن المحن. وكما بيّنا في الأمثلة التي ضربناها فتنسبه لله جلَّ في علاه تحت العموم لا على التفصيل، إجمالاً لا على التفصيل، وتحت العموم لا على التخصيص. ﴿ٱللَّهُ

خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ ﴾ [الزمر: ٦٢]، ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمۡ وَمَا تَعۡمَلُونَ ﴿٩٦﴾ ﴾ ، (إن الله خلق كل صانع وصنعته). وفي الحالة الثانية أن تنسبه للسبب؛ ﴿ قُلۡ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلۡفَلَقِ ﴿١﴾ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ﴿٢﴾ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ﴿٣﴾ وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِي ٱلۡعُقَدِ ﴿٤﴾ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ﴿٥﴾ ﴾ [الفلق: ١ – ٥]، (من شر ما ذرء وبرأ). والثالثة؛ أن تتأدب مع الله بأن تبنيها لما لا ينسب فاعله.

الفوائد المستنبطة:

١ – في هذه الأبواب الرد على الجبرية: عندما قرأ أحدهم الآية ﴿ مَا مَنَعَكَ أَن تَسۡجُدَ لِمَا خَلَقۡتُ بِيَدَيَّۖ ﴾ [ص: ٧٥]، ماذا قالوا؟ قالوا هو، يعني يقولون الله من فعل، قالوا هو الذي منعه وهو يعاقبه على منعه نعوذ بالله من الخذلان. الشاهد: (من شر ما عملت)، نسبت العمل لنفسها، دلالة على أن لها إرادة ولها مشيئة ولها عمل، لكن هذه الإرادة والمشيئة تابعة لمشيئة الله جلَّ في علاه. أيضاً شاهد آخر للرد على الجبرية في الباب الذي قبله: (اصنعوا ما شئتم)، فجعل الفعل لهم، فهذه فيها دلالة واضحة جداً على أن لهم عمل.

٢ – الرد على القدرية؛ (لو أراد خلقها)، هذه الآية فيها دلالة على أن الشر ليس شراً محضاً: ﴿ ظَهَرَ ٱلۡفَسَادُ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ بِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِي ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعۡضَ ٱلَّذِي عَمِلُواْ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ﴿٤١﴾ ﴾ [الروم: ٤١]؛ ﴿ ظَهَرَ ٱلۡفَسَادُ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ ﴾ مصائب جاءت تتراً، الخير فيها ﴿ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ﴾، يؤوبون يتوبون إلى الله جلَّ في علاه. القدرية يقولون إنه إذا فعل خيراً فمنه وإذا فعل شراً فمنه؛ قال: (اهدني فيمن هديت)، العبد زيد وعمرو وفلان وعلان هذا هو محل الضلال، لكن محل الخير أن تقول الهداية والإضلال بيد الله جلَّ في علاه. (ما قدر من الرحمن)، نسب القدر للرحمن، والقدرية ماذا يقولون؟ لا قدر.

٣ – إثبات الكلام لله جلَّ في علاه، (أعوذ بكلمات الله) فنسب الكلام لله جلَّ في علاه. والمضاف للرحمن مضافان:

- مضاف عين قائمة بذاتها، ومعنى العين القائمة بذاتها كالكعبة، كالناقة، كعيسى. فإذا اضيفت إلى الرحمن "عيسى روح الله"، فالإضافة هنا إضافة مخلوق إلى خالق، والنسبة نسبة تشريف. "الكعبة بيت الله"، (نَاقَةَ اللهِّ وَسُقْيَاهَا) [الشمس:١٣]، فالعين القائمة بذاتها التي تمشي أمام الناس ويرونها أضيفت إضافة مخلوق للخالق، ونسبتها نسبة شرف.

- وأمّا الإضافة الثانية: إضافة معنى، الكلام معنى، فإذا كانت فعنى فهي إضافة صفة للموصوف؛ كلام الله يعني صفة الله جلَّ في علاه. فإن الله يتكلم؟ نعم يتكلم، ثبتت الصفة بالكتاب والسنة وإجماع أهل السنة؛ قال الله تعالى: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا﴾ [النساء: ١٦٤]، مفعول مطلق يؤكد، وإن الله جلّ وعلا يتكلم بحرف وبصوت يسمع، والدلالة على ذلك: (ألم) تكلم بحرف، وبصوت يسمع ﴿وَإِذۡ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئۡتِ ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ١٠﴾ [الشعراء: ١٠] والنداء لا يكون إلّا بصوت مسموع وقد سمع ذلك موسى -عليه السلام-.

٤- إثبات الهداية والإضلال بيد الله جلَّ في علاه، بقول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (اهدني فيمن هديت).

﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝٨﴾

باب في قوله -عليه السلام-: ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝٨﴾

عن أبي هريرة -رضي الله عنه- أنه سمع النبي -صلى الله عليه وسلم- يقول: ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝٨﴾ [الشمس: ٨]، قال: (اللهم ائت نفسي تقواها، زكها أنت خير من زكاها، أنت وليها ومولاها).

وعن زيد بن أرقم -رضي الله عنه- قال: كان النبي -صلى الله عليه وسلم- يقول: (آتِ نفسي تقواها، زكها أنت خير من زكاها).

هنا نرى أن النبي -صلى الله عليه وسلم- يعلمنا ائتساءً، وأن الله جلَّ في علاه أمرنا أمراً جزماً جازماً فيه بأن نجعل النبي -صلى الله عليه وسلم- قدوة حسنة لنا، ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب: ٢١]، وإن النبي -صلى الله عليه وسلم- يعمل الأعمال لتأتسي الأمة به، ويفعل الأفعال لتقتفي أثره الأمة، ويستنهض همم الأمة دائماً ونواي الأمة وأعمال الأمة حتى تصل إلى جنات ونهر في مقعد صدق عند مليك مقتدر. النبي -صلى الله عليه وسلم- يعلمنا كيف التسليم التام لله جلَّ في علاه، والتفويض الكامل لتدبير الله جلَّ في علاه، فإنه لا مدبر إلّا الله جلَّ في علاه، ولا خالق إلّا الله جلَّ في علاه، ولا متحكم في هذا الكون إلا الله جلَّ في علاه. فهنا الدعوات الطيبات الصالحات من النبي -صلى الله عليه وسلم- لربنا جلَّ في علاه تؤيد لنا حسن الظن في الله واليقين في الله، مع التسليم التام والتفويض الكامل لتدبير الله جلَّ في علاه.

لا غرو ولا عجب، فإن الإنسان يعتقد اعتقاداً جازماً أنه ما من خير يأتيه إلّا هو بتوفيق من الله جلَّ في علاه، بل هو محض فضل وإحسان وجود وكرم من رب الأرض والسماوات، وما من سيئة يبتلى بها المرء ويصاب بها إلّا من نفسه ومن الشيطان ومن

الهوى؛ قال الله تعالى: ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾ [النساء: ٧٩]، وهذا يعني إطلاق لا دخول فيه لشيء البتة إلّا بفعل الله جلَّ في علاه، ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ﴾ [النساء: ٧٩] صغيرة أو كبيرة ودقيقة أو جليلة، ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ﴾ [النساء: ٧٩]. وقد قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْا۟ مِنكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا۟﴾ [آل عمران: ١٥٥]، وقال الله تعالى: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ﴾ [الروم: ٤١]، وهذا من تقدير الله جلَّ في علاه ليشير إليك أن المسألة بيد الله جلَّ في علاه قدراً، والمتسبب في ذلك فعل العبد ومشيئة العبد وإرادة العبد وتعدي العبد لحدود الله جلَّ في علاه.

وفي الحديث الذي في الصحيحين، الحديث القدسي أن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: (قال الله تعالى: يا عباد كلكم ضال إلّا من هديته)، وأيضاً قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (فمن وجد خيراً فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلّا نفسه). فهنا التسليم التام لله جلَّ في علاه، مع الاعتقاد الجازم بأن التدبير كل التدبير بيد الله جلَّ في علاه وأن ما شاءه الله كان وما لم يشأ لم يكن من النبي -صلى الله عليه وسلم- يظهر جلياً في هذا الدعاء الذي جمع أصل الأصول والركن الركين في أبواب القدر كما سنبينه؛ (اللهم) أصلها يا الله، وعوِّض عن الياء بالميم، "الله" هو اسم الله الأعظم على الراجح الصحيح، الذي إذا سئل به أعطى، وإذا دعي به أجاب.

انظر فيتوسل النبي -صلى الله عليه وسلم- يتقدم بين يدي دعائي، وهذه الآداب التي تخلى عنها كثير أو قل جهل كثير من الذين يدعون الله جلَّ في علاه، يستسرعون الإجابة وهم يجهلون كيف يستسرعون هذه الإجابة من أجل الآداب التي لابد أن يتخذها المرء لاستجابة دعائه، بل لسرعة استجابة الدعاء حسن التوسل وحسن التقدم بين يدي دعائه. فهنا النبي -صلى الله عليه وسلم- يتوسل إلى الله جلَّ في علاه باسم من أسماء الله، بل باسم الله الأعظم وهو الله (اللهم)، الذي إذا سئل به أعطى وإذا دعي به أجاب. الله الذي إذا ذكر في كثير برّكه، يعني جعل فيه البركة العظيمة، وإذا ذكر في قليل كثّره، اسم الله الأعظم

تستجلب به الحسنات والطاعات والطيبات وتدفع بذلك البليات والسيئات. (اللهم آتِ نفسي تقواها)؛ والتقوى مطلب شرعي مرغب فيه، قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ١٠٢﴾ [آل عمران: ١٠٢]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم﴾ [النساء: ١]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ٧٠﴾ [الأحزاب: ٧٠]، فهي مطلب شرعي ومع ذلك يطلبها النبي -صلى الله عليه وسلم- من الله، فكيف نجمع بين الاثنين؟ الله يطلبها من العبد والنبي يطلبها من الله جلَّ في علاه؟

نقول هي مطلوبة من العبد شرعاً لكنها لا تكون إلّا بالله كوناً، فإن الله هو الذي يملك مجامع القلب ويملك مجامع النفوس، طرق التقوى والوسائل إلى التقوى هذه تكون من الله جلَّ في علاه بالتوفيق والتسديد والتأييد، وإن ترك الله العبد لنفسه ووكله لنفسه فإلى عار وشنار وإلى خسارة وإلى ويل وثبور، لذلك كان النبي -صلى الله عليه وسلم- يعلمنا بفقه دقيق: (اللهم آتِ نفسي تقواها). وتقوى النفس كما قال بعض العلماء: هو العمل بالتنزيل، أن تقف بنفسك عند حدود لا تتعدى هذه الحدود، لا تقدّم عقلاً ولا وجداً ولا عاطفةً ولا تقدّم رأياً ولا هوى ولا فقيهاً ولا أحد. التقوى الوقوف عند التنزيل، العمل بالتنزيل، يعني تقول:

قال الله قال رسوله قال الصحابة ليس بالتمويه
ما العلم نصبك للخلاف سفاهةً بين الرسول وبين قول فقيه

العمل بالتنزيل يعني بما جاء من كتاب الله وسنة النبي -صلى الله عليه وسلم-، والخوف من الجليل، كما قال ابن مسعود -رضي الله عنه وأرضاه-: إنما العلم الخشية. وما منا من أحد إلّا وله الهنات والسقطات، لكن المسألة على الغالب إذا بلغ الماء قلتين لم يحمل الخبث. وقال بعضهم: بل هي فعل المأمورات وترك المنكرات أو ترك المحظورات. وهذه مجامع الإيمان لا الإحسان؛ إذ الإحسان يجمع بين المأمورات المستحبات وترك المحرمات المكروهات، وهذه لا يقدر عليها إلّا من قدّره الله جلَّ في علاه، وجوامع ذلك باسره

قولهم: هو العمل بطاعة الله على نور من الله.

العمل بطاعة الله، والطاعة محبوبة إلى ربنا جلَّ في علاه، فإن الله يحب من العبد الطاعة. كلنا يعلم ما أحبه الله جلَّ في علاه، كيف يعرف أن هذه الطاعة يحبها الله؟ بالتنزيل وبالوحي. إذاً العمل بطاعة الله على نور من الله؛ الثانية فسرت الأولى، العمل بطاعة الله: كأن سائلاً يقف ويقول: اصبر "الطاعة التي يحبها الله" كيف أعرفها؟ أقول الإجابة تأتي بعدها على نور من الله، يعني على بصيرة، ﴿قُلْ هَٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ﴾ [يوسف: ١٠٨]، أي على علم؛ أن تعلم ما يحبه الله، أن تعلم طاعة الله وكيف تتقرب إلى الله بهذه الطاعة. العمل بطاعة الله على نور من الله؛ على بصيرة وعلم، على نور من الله ترجو ثواب الله؛ إخلاص، توفر الشرطان يقبل العمل:

- صواب "بنور من الله"، علم بالكتاب والسنة.
- ترجو ثواب الله، يعني بإخلاص.

فالعمل إن كان صواباً إخلاصاً يقبل عند الله جلَّ في علاه، العمل بطاعة الله على نور من الله يرجو ثواب الله. وترك معاصي الله على نور من الله أيضاً، على بيّنة مخافة عقاب الله جلَّ في علاه، فلذلك جمع النبي -صلى الله عليه وسلم- بين كل الخيرات للنفس: (اللهم آتِ نفسي تقواها).

(وزكها أنت خير من زكاها)؛ التزكية هي أقوى وأرقى وأسمى ما يصبو إليه المرء، فإن المرء إذا زكّاه الله جلَّ في فمن يخذله؟ فمن يذمه؟ إن الممدوح بحق من مدحه الله، إن المزكّى بحق من زكّاه الله جلَّ في علاه. وهو مطلوب شرعا أيضاً، كل إنسان مطلوب منه همةً وإرادةً وفعلاً أن يصل إلى التزكية، أن يصل إلى معالي الأمور، قال الله تعالى: ﴿فَلَا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَىٰ ۝٣٢﴾ [النجم: ٣٢]. والإنسان -كما قلت- لابد أن يصل إلى التزكية، وهذه التزكية لها ركنان: الركن الأول التخلية، والركن الثاني التحلية، لا يصل المرء إلى تزكية نفسه وأرقاها وأسماها إلّا بتمكين الركنين فيها.

▪ الركن الأول هو التخلية؛ التخلية من كل الرذائل: من البخل، من الشح، من الحقد، من الحسد، من الغش، من الكذب، من التعريض، من غير ذلك من الرذائل.

▪ الركن الثاني التحلية بالفضائل؛ والتحلية لا تأتي إلّا بعد التخلية، أنت لو أتيت بكأس وكوب فيه شوك ووضعت عليه اللبن أو وضعت عليه ماء، وهذا الماء أبيض ما يكون تراه اسود ما يكون، أو تراه مشوباً بما يكدّره. فأنت لابد أن تخلّي نفسك من الرذائل، ثم تتحلى بالفضائل، ولذلك بيّن النبي -صلى الله عليه وسلم- مجامع هذه المسألة التزكية: (وزكها أنت خير من زكاها)، يعني ائتني بأحسن الأخلاق لا يأتيني بها إلّا أنت، حتى أزيل مساوئ الأخلاق وأتحلى بمحاسن الأخلاق.

(وزكها أنت خير من زكاها)؛ وانظر أخي الكريم كيف أن من يصل إلى جنة الله جلَّ في علاه هو الذي زكاه الله جلَّ في علاه، ولذلك قد استنهض الله همم ناس، وقد استحث الناس على الائتساء بالأنبياء الذين زكاهم الله في كتابه. وأنت دائماً هذه جبلة؛ جبل المرء عندما يسمع عن الأخيار، عندما يسمع عن المزكى، لو واحد أمامك مدح أحداً بشدة إتقانه في الطلب أو بطاعته أو بتقواه ترى في نفسك همة إن كنت رجلاً تصبو إلى الخير وصاحب همة عالية، تراه يقول لِمَ لا أكون مثله؟ لم لا أسير على سيره؟ لِمَ لا أسير على دربه؟ فلذلك بيّن الله يستنهض الهمم العالية الراقية، يخاطب الأحرار فقط أن يأتسوا بمثل هؤلاء.

قال الله تعالى: ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِبۡرَٰهِيمَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقٗا نَّبِيًّا ٤١﴾ [مريم: ٤١]، وهذه تزكية من أرقى التزكيات من رب الأرض والسماوات، قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا ٱعۡتَزَلَهُمۡ وَمَا يَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبۡنَا لَهُۥٓ إِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَۖ وَكُلّٗا جَعَلۡنَا نَبِيّٗا ٤٩ وَوَهَبۡنَا لَهُم مِّن رَّحۡمَتِنَا وَجَعَلۡنَا لَهُمۡ لِسَانَ صِدۡقٍ عَلِيّٗا ٥٠﴾ [مريم: ٤٩ - ٥٠]. وقال: ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مُوسَىٰٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ مُخۡلَصٗا وَكَانَ رَسُولٗا نَّبِيّٗا ٥١﴾ [مريم: ٥١]، هذه أرقى التزكيات لموسى -عليه السلام-. وأيضاً قال الله تعالى: ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِسۡمَٰعِيلَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلۡوَعۡدِ وَكَانَ رَسُولٗا نَّبِيّٗا ٥٤﴾ [مريم: ٥٤]، ﴿وَٱذۡكُرۡ

فِي ٱلْكِتَٰبِ إِدْرِيسَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٥٦﴾ وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴿٥٧﴾﴾ [مريم: ٥٦ – ٥٧]. وقد زكّى الله جلَّ وعلا داوود: ﴿نِعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ [ص: ٣٠]، وزكّى الله جلَّ وعلا زكريا وأهل البيت عندما قال: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ﴾ [الأنبياء: ٩٠].

ورسول الله -صلى الله عليه وسلم- هو أحق الناس بهذه التزكية، لذلك فان الله جلَّ وعلا زكّاه في كل شيء؛ زكّاه في الرسالة وفي الخلق وفي العمل وفي الطاعة وفي كل شيء، ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾﴾ [القلم: ٤]. وإن الله ما أقسم بعمر أحد إلّا بعمر النبي -صلى الله عليه وسلم-، وهذه من أعظم التزكيات السماوية من رب الأرض والسماوات لنبينا أنه قال: (لَعَمْرُكَ)؛ وحياتك يا محمد، هذه تزكية ليست بعدها تزكية، أن الله يقسم بحياة النبي -صلى الله عليه وسلم-، ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٢﴾﴾ [الحجر: ٧٢]. وقد زكّى الله جلَّ في علاه أصحابه الكرام، وما زكّى قوما مثلما زكى هؤلاء الأخيار، حيث يقول رب الأرض والسماوات: ﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ وَكَانُوٓا۟﴾ [الفتح: ٢٦]، هذه هي التزكية ﴿وَكَانُوٓا۟ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ۚ﴾ [الفتح: ٢٦].

فعلى الإنسان أن يستثير همته، وعلى الإنسان أن يغار من المتقدمين، يغار من السرعين المهرولين إلى الله جلَّ في علاه، فينافس هؤلاء فيما تنافسوا فيه علّه يصل كما وصلوا ﴿وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [المطففين: ٢٦].

(اللهم آتِ نفسي تقواها، وزكها أنت خير من زكاها، أنت وليها ومولاها)؛ جامع الأمور أن الله ولي العبد، ومن كان الله وليه فمن عليه؟ من كان الله معه فمن عليه؟ فمن تولى شؤونه الله جلَّ في علاه، من دبر أمره الله جلَّ في علاه، من توكل على الله حق التوكل، من أحسن الظن بالله أمتن وأقوى وأحسن الظن بالله جلَّ في علاه يكون الله عند حسن ظنه، وإذا وكّل الله لنفسه فإنه قد وكله إلى ضعف وعجز ووهن وويل وثبور نعوذ بالله من الخذلان. لذلك جمع كل هذا الدعاء الذي يجمع بين أصلين في العقيدة، النبي -صلى الله

عليه وسلم-: (أنت وليها ومولاها)؛ إذ نقول بأن النبي -صلى الله عليه وسلم- يقول فوضت أمري كله لك ولم أفعل شيئاً ولا حول لي ولا قوة، ولذلك صباح مساء كان يقول: (يا حي يا قيوم برحمتك أستغيث، أصلح لي شأني كله ولا تكلني إلى نفسي طرفة عين). أنت وليي، أنت مولاي، أتدبر أمري بأن تدبر أنت شؤوني وتدبر أمري بأسره، ولذلك كان دائماً يتذكر ويذكر نفسه: (لا ومقلِّب القلوب)، (اللهم يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك، ويا مصرِّف القلوب صرف قلبي على طاعتك).

هذا الدعاء الذي استجمع الخير بأسره جمع أصلين عظيمين جليلين في باب العقيدة أو باب القدر بالذات، هذان الأصلان وهما أن النبي -صلى الله عليه وسلم- يبيّن أن الهداية بأسرها والإضلال بأسره بيد الله، كله بيد الله جلَّ في علاه ولا مدخل لأحد في ذلك بحال من الأحوال. وهذا الذي لابد أن نطلع عليه الآن وهو أن نقول: أصل أصيل لابد أن يعتقده المرء اعتقاداً جازماً وسطاً بين أهل البدعة والضلال من غلو وجفو؛ الهداية والضلال بيد الله جلَّ في علاه، من أراد الله أن يهديه الله جلَّ في علاه لا أحد يستطيع أن يضله، ومن أراد الله إضلاله فلا أحد بحال من الأحوال ولا رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يستطيع هدايته، (إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ). أحب الناس الى النبي -صلى الله عليه وسلم- هو عم النبي -صلى الله عليه وسلم-، وما استطاع إلى هدايته سبيلاً، ﴿إِنَّكَ لَا تَهۡدِي مَنۡ أَحۡبَبۡتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ﴾ [القصص: ٥٦]. قال الله تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهۡدِيَهُۥ يَشۡرَحۡ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِۖ وَمَن يُرِدۡ أَن يُضِلَّهُۥ يَجۡعَلۡ صَدۡرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي ٱلسَّمَآءِۚ﴾ [الأنعام: ١٢٥]، وقال الله تعالى: ﴿مَن يَهۡدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلۡمُهۡتَدِۖ وَمَن يُضۡلِلۡ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيّٗا مُّرۡشِدٗا ١٧﴾ [الكهف: ١٧]، وقال الله تعالى: ﴿وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٍ ٣٣﴾ [الزمر: ٢٣].

انظر كيف أن خليل الرحمن يبيّن لنا أن الأمر بيد الله جلَّ في علاه، التوحيد الإيمان اليقين حسن الظن بالله كله بيد الله جلَّ في علاه، ﴿رَبَّنَا وَٱجۡعَلۡنَا مُسۡلِمَيۡنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ

أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ ﴾ [البقرة: ١٢٨] ؛ الجعل من الله جلَّ في علاه، بيد الله الهداية وبيد الله الإضلال. وأيضاً يقول: ﴿رَبِّ ٱجْعَلْنِى مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِى ﴾ [إبراهيم: ٤٠]، وقال الله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ ﴾ [الأنبياء: ٧٣]، كل هذه الآيات تنصب في أمر واحد: الهداية والإضلال بيد الله. لا تحسبن أن الشيطان يضل أحد أو النفس والهوى تضل أحد، لا والله، الأمر برمته بأسره بيد الله جلَّ في علاه. في الإضلال؛ قال الله تعالى أنه جعل فرعون ومن معه أئمة في الضلال: ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ﴾ [القصص: ٤١].

(١)النبي -صلى الله عليه وسلم- دخل عليه رجل فوجده يقبّل الحسن أو يقبّل طفلاً من الأطفال كان بجانب النبي -صلى الله عليه وسلم-، فقال: تقبله؟! لي عشرة من الأولاد ما قبلت أحداً، قال النبي -صلى الله عليه وسلم-[1]: (وماذا أفعل لك؟)، الشاهد الذي سيأتيكم: (إن نزع الله الرحمة من قلبك)، من الذي يجعل الرحمة في القلب أو ينزعها من القلب؟ هو الله جلَّ في علاه. فالأمر كله بيد الله جلَّ في علاه ولذلك تبرأ النبي -صلى الله عليه وسلم- من كل حول ومن كل قوة، قال: ﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ﴾ [الأعراف: ١٨٨]، مشيئة الله هي النافذة، فالمسألة بيد الله جلَّ في علاه.

نوح -عليه السلام- مكث تسعمائة وخمسين عاماً مع قومه يدعوهم إلى الله جلَّ في علاه وما امتلك أن يهدي ابنه، ولذلك قال: ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٤٥﴾ ﴾ [هود: ٤٥]، ماذا قال له الله جلَّ في علاه؟ ﴿قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ ﴾ [هود: ٤٦]، وفي القراءة الأخرى: ﴿ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ ﴾ ، فالغرض المقصود لا يملك له. بل أوضح من ذلك وأجلى من ذلك عن نوح آية توضح ما نحن فيه قوية جداً في الدلالة، أين الآية التي تثبت أن الهداية والإضلال بيد

---

(١) الراوي : أبو هريرة | المحدث : شعيب الأرناؤوط | المصدر : تخريج المسند لشعيب | الصفحة أو الرقم: ١٠٦٧٣ | خلاصة حكم المحدث : صحيح | التخريج : أخرجه البخاري (٥٩٩٧)، ومسلم (٢٣١٨)، وأبو داود (٥٢١٨)، والترمذي (١٩١١)، وأحمد (١٠٦٧٣) واللفظ له.

الله جلَّ في علاه؟ عن قوم نوح على لسان نوح قال: ﴿وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِيٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ ۚ هُوَ رَبُّكُمْ﴾ [هود: ٣٤]، وأتى بالربوبية ليثبت أن هذه قدرة وعزة وجبروت، إن أراد الله أن يغويكم فلا هادي لكم ولو مكثت فيكم فوق هذه السنين أضعاف مضاعفة، إن الأمر بيد الله. قال: ﴿وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِيٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ ۚ هُوَ رَبُّكُمْ﴾ [هود: ٣٤]، ختمها بذلك على أن يبين أن القدرة والعزة والجبروت بيد الله جلَّ في علاه، يسلب الإيمان ممن يشاء ويوفق الإيمان ويضع الإيمان في قلب من يشاء، نعوذ بالله من الخذلان.

قال الله تعالى: ﴿فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ ۚ﴾ [النحل: ٣٦]، فإن الله هو الذي أضلهم وإن الله أضلهم على علمه، كما قال الله تعالى:﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ [الجاثية: ٢٣]، بيّن فعله وعمله وإرادته لكنها تابعة لإرادة الله، وهذه الجزئية الثانية التي سنبينها بإذن الله لأن هذا هو عصب القدر. قال: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾، من الذي أضله؟ الله، (وَأَضَلَّهُ اللهُ عَلَىٰ عِلْمٍ) يعني الله يعلم أن هذا محل للضلال لا محل للهداية كما سنبين.

هذا الأصل الأصيل الأول الذي ينبثق عنه الهداية الثانية، أو الأصل الثاني بأن الله هدى الناس أجمعين؛ هدى الله أجمعين وهناك من يعبد البقر والصنم؟ نعم هدى الناس أجمعين هداية إرشاد وبيان، ما تكون فيه الحجة أو تقوم به الحجة إلّا وأتى الله بها للعباد، يبيّن للعباد طريق الخير وطريق الشر، طريق السعادة وطريق الندامة، يبيّن لهم كيف يسيرون إلى مرضاة الله، كيف أنهم يسيرون إلى غضب الله وسخط الله أو في غضب الله وسخط الله، كيف أنهم لابد أن يحيدوا عن هذا الطريق وأن هذا الطريق بالشياطين، كيف أنهم يسيرون على هذا الطريق وفيه الملائكة وفيه توفيق الله جلَّ في علاه. بيّن الله أتم البيان لجميع البشر، بل لجميع الخلائق، بل للجن والإنس بالذات لأنهما خلقا لعبادة الله جلَّ في علاه، ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [الذاريات: ٥٦]، بيّن الله لهم الطريقين.

وهذه هي الهداية الثانية وهي هداية البيان، هداية الدلالة، هداية الإرشاد، التي قال فيها الله جلَّ في علاه: ﴿ وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ﴿١٠﴾ ﴾ [البلد: ١٠]؛ أي الطريقين: طريق الخير وطريق الشر. وإن الله جلَّ وعلا ركب فيهم آلات فهم هذه الحجة وآلات معرفة هذه الحجة، فركّب فيهم السمع والبصر والعقل والقلب الفؤاد، ركّب فيهم كل الآلات التي إذا استخدموها استخداماً صحيحاً وصلوا إلى طريق ربهم جلَّ في علاه. بل جبلهم على حبه وعلى مرضاته وعلى توحيده سبحانه جلَّ في علاه، حيث قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (قال الله تعالى: خلقت عبادي حنفاء) يعني يميلون إليّ ويميلون للتوحيد، (ولكن جاءت الشياطين فاجتالتهم عن دينهم)، وأيضاً قال النبي -صلى الله عليه وسلم: (كل مولود يولد على الفطرة)، وقال الله تعالى تصريحاً: ﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ﴾ [فصلت: ١٧]؛ فهو هداهم لكنهم في العمى والتيه والتخبط.

إذاً هذه الهداية ليست هداية توفيق القلوب، بل هداية الإرشاد والبيان، وهذه كما قلت عامة في الخلائق، ﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ﴾ [فصلت: ١٧]. وأيضاً بيّن الله جلَّ في علاه أنه قال: ﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ ﴿١﴾ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ﴿٢﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ﴿٣﴾ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ﴿٤﴾ ﴾ [الرحمن: ١ - ٤]، بيّن له الطريقين، قال الله جلَّ وعلا: ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾ كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ﴿٦﴾ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ﴿٧﴾ ﴾ [العلق: ١ - ٧]، بيّن لك طريق الخير وطريق الشر، بيّن لك كيف تصل إلى ربك، كيف تصل إلى الشيطان؟ كيف تكون وليّاً للرحمن، كيف تكون وليّاً للشيطان. وهذه الهداية العامة، هداية البيان والدلالة والإرشاد.

وقد جمع الله بين الهدايتين: [هداية القلوب والتسديد والتأييد، وهداية البيان] في آية واحدة، آية واحدة جمعت لنا بين الأصلين العظيمين الجليلين. أولاً هداية القلوب بيد الله فقط، والدليل: ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ﴾ [القصص: ٥٦]، هذا فصل في النزاع لأن كل هداية أحد هي بيد الله جلَّ في علاه. (إِنَّكَ)؛ أنت أحب وأكرم الخلق على الخالق، ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ﴾ [القصص: ٥٦].

وجمع الله بين الهدايتين في آية واحدة: ﴿وَٱللَّهُ يَدۡعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ٢٥﴾ [يونس: ٢٥]، هذه تجمع من الهدايتين، أين وجه الشاهد ووجه الدلالة من الآية أنها جمعت بين الهدايتين؟ جمعت بين الهدايتين هداية التوفيق وهداية البيان، قال الله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَدۡعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ﴾ ؛ يدعوكم إلى الجنة، طريق الجنة كذا، الوصول إلى الله كذا، رضا الله كذا، مرضاة الله كذا، طاعة الله. يدعو، يبيّن، يدلل، هذا الذي نقول فيه هداية البيان والإرشاد. الثانية ﴿وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُ﴾ لماذا قلت هذه الهداية الكونية؟ لأنه خيّر الآن، قال: ﴿مَن يَشَآءُ﴾ أي ليس الكل يهدي، الأولى عامة لكن الثانية خاصة. الفارق بين هداية الدلالة وهداية التوفيق العموم والخصوص، قال الله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَدۡعُوٓاْ﴾ ، يدعو من؟ المفعول به هنا محذوف، والقاعدة عند العلماء: حذف المعمول يؤذن بالعموم. ما قال يدعو محمداً ولا يدعو زيداً ولا يدعو إبليس، يدعو الشياطين والجن ويدعو المسلمين والكفار، يدعو كل الخلق، ﴿وَٱللَّهُ يَدۡعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ﴾ ، فهذه الدعوة عممت ثم خصص في الهداية، إذ التخصيص في الهداية يدل على أن الله يصطفي من يهديه ويهدي قلبه ويسدده ويلهمه الطاعة، فقال الله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَدۡعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُ﴾ ؛ تخصيص، "من" هنا تبعيضية، يعني من يرى الله فيه أنه يستحق هذه الهداية ووعاء للهداية هداه الله جلَّ وعلا جلَّ وعلا، ﴿وَٱللَّهُ يَدۡعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ٢٥﴾.

إذاً هذا الأصل الأصيل والركن الركين، قلب القدر أن تعلم أن الهداية والإضلال بيد الله جلَّ في علاه، وتعلم كيف أنت فقير إلى الله جلَّ في علاه. لكن لابد مع تبيين هذا الأصل نبيّن أمراً آخر حتى لا تزل الأقدام ولا تتخبط الأفهام، كما قال بعض المعتزلة عندما سمع قول الله تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن﴾، وأيضاً الآيات التي تثبت الإضلال والهداية ردها، قال إذا أضلني وأراد أن يعاقبني على إضلالي فقد أساء. نعوذ بالله من غضب الله، نعوذ بالله من غضب الله. وهذه جاءت مناظرة صريحة حتى نأتي بها بين عبد الجبار -عليه من الله ما يستحق- المعتزل المبتدع الضال وبين إمام علم من أعلام أهل السنة الإمام أبي إسحاق الإسفراييني؛ عندما قال له: تنزه الله عن الشر، تنزه الله عن الشر،

تنزه الله عن كل القبائح. لكن أبو إسحاق كان رجلًا ذكياً قال له: نعم، كلمة حق أريد بها باطل.

هو يقول: تنزه الله عن القبائح، يعني لم يخلق الزنا، لم يخلق الكذب، لم يرد الشر أبداً. لا يمكن أن نقول إن الله أراد أن يزني الرجل بالمرأة، فهو يقول تنزه الله عن القبائح. فقال له: نعم، كلمة حق أريد بها باطل. ثم قال: ما في الكون من شيء إلّا بإرادته أو تحته مشيئته، يعني سواء هذا أو ذاك كله تحت مشيئة الله. فرد عليه رداً غليظاً قال له: يخلق الإضلال فيّ ثم يعاقبني عليه؟ أتراه يفعل ذلك؟ قد أساء أم أحسن؟ فقال له برد جازم وهو كان لبيباً أريباً: إن منعك ما في ملكك فقد أساء، وإن منعك ما في ملكه هو ما يملكه هو، ربوبيته هو، هو الذي يملك كل شيء، فقد أحسن، فإن أعطاك فبفضل منه ورحمة. (لا يدخل الجنة أحدكم بعمله، قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: ولا أنا إلّا أن يتغمدني الله برحمته). قال: فإن أعطاك الهداية فبفضل منه ورحمة، ولذلك قال الله تعالى: ﴿فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ﴾ بفضله ورحمته، ﴿وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ﴾ [النحل: ٣٦]، قال: فإن أعطاك فبفضل منه ورحمة، وإن منعك فبعدل منه. فما استطاع أن يرد على أبي إسحاق الإسفراييني.

وأعجب من ذلك وأروع من ذلك أعرابي، وتعرفون الأعراب، لا يفقهون ولا يتعلمون، لكن فطر سليمة مركبة، إذا تبدلت ضاعت، لكن هو بفطرة بفطرته السليمة مع اللبن ومع النوق ومع ذلك فطرته تميل إلى الله جلَّ في علاه. سرقت منه ناقة فجاء إلى رجل اسمه عمرو بن عبيد، وهذا كان معتزل الفكر ممن يقول بأن الله جلَّ وعلا لا يتحكم في أفعال العباد، هم يتحكمون في أفعال أنفسهم، والله المنزه عن السرقة وعن غيرها. وجده وقوراً ملتزماً قال له: يا شيخ ادعُ الله لي أن يرد علي ناقتي، فرفع الرجل متذللاً خاضعاً، لكن انظر حتى ولو كان يبكي ليل نهار طالما جاهل لا يقبله الله جلَّ في علاه، وتدلك على أن الجهل ظلم في كل شيء حتى في العبادات. فرفع يديه يبكي ويدعو: اللهم رد عليه ناقته فإنها سرقت وأنت لا تريد ذلك، يعني كأنها رغم عن الله. فنظر إليه الأعرابي محتقراً إياه

فقال: يا هذا كف عنك هذا الدعاء، ما أريد النقص، إن كانت سرقت وهو لا يريد، فهو يريد أن يرجعها ويردها فلا يستطيع. ما استطاع وقد سرقت في غير استطاعته، فإن أراد أن يردها ما يستطيع، فهو قال له: كف عنك هذا الهراء. انظر هذا غباء وعدم فهم عن الله جلَّ في علاه.

فالأصل الأصيل أن تعلم أن الهداية والإضلال بيد الله جلَّ في علاه؛ يعني الزنا وهذه السرقة والكذب والكفر والإلحاد كل ذلك بقدر الله؟ والله كل ذلك بقدر الله، ولا يرضى الله عنه. فارق بعيد بين أن يقدّره ويحبه ويرضاه، هو ما يحب ويرضى إلّا الدين الصالح والطاعة، ولكن يقدّر الشر؟ نعم يقدر الشر لحكمة عظيمة بليغة، هذا الذي سنبينه.

حتى لا نصل إلى أمثال هؤلاء البلهاء الذين قدحوا في رب الأرض والسماوات ونزعوا عنه ربوبيته ونزعوا عنه علمه السابق سبحانه جلَّ في علاه، لابد حتى ترتاح القلوب والأذهان والأبدان أن نقول بيده الهداية والإضلال. يعني الذي لا يصلي، الله هو الذي جعله لا يصلي؟ نعم، الله جعله لا يصلي. كيف أفهم ذلك؟ هو الذي خلقه ويدخله النار، أليس ظلماً؟ هذا الذي يختلج في صدور الناس.

أقول عليك بالأصل الذي سيأتيك، هذا الأصل الأصيل: إن ربك الجليل سبحانه جلَّ في علاه حكم عدل ليس بظلّام للعبيد، ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾﴾ [آل عمران: ١٨]، قال: ﴿قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ﴾ [آل عمران: ١٨]بالعدل سبحانه، حكم عدل وحكيم عليم، حكم عدل يعطي كل ذي حق حقه ولا يبخس أحداً حقه، وحكيم عليم يضع الشيء في موضعه، لأن من الظلم أن تضع الشيء في غير موضعه. قال الله تعالى: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ﴿١١٢﴾﴾ [طه: ١١٢]؛ الفرق بين الظلم والهضم كما قال بعض العلماء: الهضم أن يهضم من حسناته، يعني يعمل حسنات كالجبال يأتي يراها كالذر، إن الله لا يهضمك حقك، والظلم أن يزيد على سيئاتك من سيئات الآخرين.

قال الله تعالى: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾﴾ [النجم: ٣٩]، قال الله تعالى: ﴿مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٢٩﴾﴾ [ق: ٢٩]؛ إشكال: ما قال بظالم، قال: (بِظَلامٍ) هذه صيغة مبالغة، هل يصح أن نقول نفى عن نفسه صيغة المبالغة ولم ينفِ عن نفسه الأقل؟ المسألة ليست مسألة صيغة المبالغة، المسألة على النسبة، فهو يلغي هذه النسبة لا سيما وأن الله جلَّ وعلا في غير ما آية قال وبيّن أنه لا يظلم مثقال ذرة، وإن كان مثقال ذرة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا﴾ [النساء: ٤٠]. وفي الحديث القدسي الصريح قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (قال الله تعالى: يا عبادي إني حرّمت الظلم)، عموم: دقيق وجلَّيل، صغير وكبير، (إني حرّمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرماً). ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩]، فإن الله لا يظلم أحداً ولا يخلق أحداً لنارٍ وهو لا يستحق النار بحال من الأحوال، لأن الله حكم العدل.

فأول ما تعتقد اعتقاداً جازماً هو أن الله حكم عدل، وأن الله لا يظلم الناس شيئاً ولا يبخس الناس شيئاً، وأن الله ليس بظلام للعبيد. إذا اعتقدت هذا الاعتقاد الجازم وعلمت أن ربك حكيم عليم وأنه حكم عدل، وجب عليك أن تحسن الظن بالله. قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (لا يموتن أحد منكم إلّا وأحسن الظن بالله)، وأيضاً (أنا عند ظن عبدي بي). فأنت إذا علمت أنه لا يظلمك، فإن رأيت نفسك في التيه والتخبط وفي المعاصي وفي الفجور فاعلم أنه من نفسك وأن الله لم يظلمك شيئاً بحال من الأحوال. ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ [الروم: ٤١]بسبب، باء السببية ﴿بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ﴾ [الروم: ٤١]، ليس من الله جلَّ في علاه، أحسن الظن بربك جلَّ في علاه أنه لا يظلمك.

ولذلك دائما أنصح نفسي وانصح إخواني، إذا حدث التفريط، إذا حدث التعدي، إذا حدثت المعصية راجع نفسك بسيئة قد أصبتها. أما اغتبت أحداً من العلماء، أما نافقت أو غششت، أما تعديت حداً من حدود الله، ففتح الله عليك باب المعصية من أجل ذلك، لأن المعصية تنادي على أختها، فهو تفريط فرطت أنت فيه، لأن الله جلَّ وعلا لا يظلم الناس شيئاً.

إذاً تعتقد اعتقاداً جازماً أن الهداية بيد الله، وأن الإضلال بيد الله، ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ﴾ [الأنفال: ٢٤]، كما قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (القلوب بين أصبعين من أصابع الرحمن يقلبها كيف يشاء)، وتحسن مع ذلك الظن بربك جلَّ في علاه. فإن وجدت الله وضعك وسط الصالحين وسار بك سير الصالحين، فاعلم أن الله جلَّ وعلا يسددك ويوفقك ووجد أنك محلاً للخير، فلا يرى الله منك شراً بعد ذلك، بل يرى الله منك الخير على الديمومة حتى تموت على ذلك، نسأل الله جلَّ وعلا أن يثبتنا وإياكم على الحق.

الفوائد المستنبطة:

١- فقر العبد الشديد لربه الجليل؛ أترى النبي -صلى الله عليه وسلم- يظهر فقره لله: (اللهم آتِ نفسي تقواها)، لا أحد يتقي إلّا بك، (اللهم آتِ نفسي تقواها، زكها أنت خير من زكاها). فاعلم أخي الكريم أنك أفقر وأحوج ما تكون إلى الله جلَّ في علاه، إن أردت التوبة فلا تكون إلّا من الله تاب عليهم ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓاْ﴾ [التوبة: ١١٨]، إن أردت التوفيق والتسديد هو من الله ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾ [النحل: ٥٣]، إن أردت الهداية فهي من الله جلَّ في علاه، إن أردت تجنب صراط الجحيم فهو من الله، (فمن وجد خيراً فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلّا نفسه). فتذكر أنك أفقر وأذل ما تكون لربك جلَّ في علاه، ولابد أن تظهر هذا الفقر لربك، لا تعتقد فقط، اعتقد أنك فقير إلى الله جلَّ في علاه، والله يحب أن تظهر له فقرك ومسكنتك، لذلك يحب منك أن تقوم في الأيام الخوالي والليالي وأنت تتضرع لربك بمسكنة وبفقر وذل، حتى يتقبل الله منك.

٢- علو العبد في تزكية النفس؛ من أين نأخذ هذه؟ الذي طلب التزكية النبي -صلى الله عليه وسلم-، والنبي -صلى الله عليه وسلم- لا يطلب إلّا معالي الأمور، والنبي -صلى الله عليه وسلم- لا يطلب إلّا السامي الراقي، والنبي -صلى الله عليه وسلم- لا يطلب إلّا ما يرقيه المنازل عند الله جلَّ في علاه، فعلمنا أن التزكية فيها علو العبد لأنه مطلب من

مطالب النبي -صلى الله عليه وسلم-.

٣- لابد أن يخلع المرء نفسه من كل حول وقوة ويتبرأ من كل حول وقوة إلّا حول الله وقوة الله جلَّ في علاه، هذا الذي قاله النبي -صلى الله عليه وسلم- ختاماً لهذا الدعاء العظيم: (أنت وليها ومولاها)، أي تولى شؤوني وتدبير أموري في أسرها..

(باب ما ذكر من النبي في المكذبين بقدر الله)

باب ما ذكر عن النبي -صلى الله عليه وسلم- في المكذبين بقدر الله وما لهم في الآخرة وما أمر به فيهم:

عن أبي الدرداء -رضي الله عنه- عن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: (لا يدخل الجنة عاق ولا مكذب بقدر ولا مدمن خمر).

وعن يحيى بن القاسم عن أبيه عن جده عبدالله بن عمرو -رضي الله عنهما- أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: (ما هلكت أمة إلّا بالشرك بالله، وما كان بدء شركها إلّا التكذيب بالقدر)، وإسناده ضعيف.

وعن أبي أمامة رضي الله عنه قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: (ثلاثة لا يقبل الله لهم صرفاً ولا عدلاً: عاق ومنّان ومكذّب بالقدر).

وعن جابر بن سمرة قال: سمعت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يقول: (أخوف ما أخاف على أمتي ثلاث: الاستسقاء بالأنواء وحيف السلطان والتكذيب بالقدر).

وعن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: (ما بعث الله تعالى نبياً قط إلّا وفي أمته قدرية ومرجئة، إن الله لعن القدرية والمرجئة على لسان سبعين نبياً)، وإسناده ضعيف.

وعن ابن عباس -رضي الله عنهما- قال: سمعت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يقول: (هلاك أمتي في العصبية والقدرية والرواية من غير ثبت)، وإسناده ضعيف جداً. وعن ثابت البناني قال: سمعت ابن عمر -رضي الله عنهما- يقول: سمعت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يقول: (يكون مكذبون بالقدر، ألا إنهم مجوس هذه الأمة، وما هلكت أمة بعد نبيها إلّا بشركها، ولا كان بدء شركها بعد إيمانها إلّا التكذيب بالقدر)،

وإسناده ضعيف.

باب قول النبي -صلى الله عليه وسلم-
(إن المكذبين بالقدر مجوس هذه الامة)

عن جابر رضي الله عنه قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: (إن مجوس هذه الأمة المكذبون بأقدار الله تعالى، إن مرضوا فلا تعودوهم وإن لقيتموهم فلا تسلموا عليهم، وإن ماتوا فلا تصلوا عليهم).

وعن حذيفة -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: (إن لكل أمة مجوساً، وإنما مجوس هذه الأمة الذين يزعمون أن لا قدر، فإن مرضوا فلا تعودوهم وإن ماتوا فلا تشهدوهم، هم شيعة الدجال)، وإسناده ضعيف.

سنكمل هذه الأبواب بإذن الله في الكلام على القدرية والفوائد المستنبطة من هذه الأحاديث التي تليت علينا، وأيضاً الأحاديث الأخرى التي ضمت مع القدرية الجبرية، لكن حري بنا الآن بإيجاز أن نبين أقسام الناس في الكلام على القدر أو في الاعتقاد في القدر. كما بينا القدر هو قدرة الله جلَّ في علاه، وهو من لوازم ربوبية الله جلَّ في علاه، وهو سر أقصاه الله عن الخلق أجمعين، لا يعلمه نبي مرسل ولا ملك مقرب. الناس انقسموا إلى أربعة أقسام أو صنوف أربعة بالنسبة للقدر:

- أشر الناس على الإطلاق الذين يقولون بالقدر حين المعصية وحين التعدي أو حين المعايب من المصائب وحين المعايب، وعند النعائم وعند الطاعات وعند الحسنات ينسبون ذلك لأنفسهم. فهم ينظرون إلى القدر احتجاجاً بما يقعون فيه من المخالفات، وعندما يطيعون الله جلَّ في علاه ينسبون ذلك لأنفسهم. فهم قوم بخسوا الله حقه، إن صح هذا التعبير، وما قدروا الله حق قدره، ونظروا إلى أنفسهم كالذي قال في كل شيء جاءه من خير: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ [القصص: ٧٨]، وإن زلت الأقدام قالوا هذا من فعل الله جلَّ في علاه.

هؤلاء هم شرار الخلق على الإطلاق؛ إن أصابوا قالوا هذا منا ومن تقوانا ومن ورعنا ومن عملنا ومن طاعتنا، وإن كان الجزاء الجنة قالوا هذا من الحسنات التي قدمناها، وإن كانت الأخرى قالوا هذا من فعل الله، وهذه مخالفة صريحة لنص كلام الله جلَّ في علاه بأن الله بيّن أن الحسنات منه وأن السيئات من أنفسنا، قال الله تعالى ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ۚ﴾ [النساء: ٧٩]، وقال الله جلَّ في علاه: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ﴾ [الروم: ٤١]، وقال جلَّ في علاه: ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا ۖ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ ۗ﴾ [آل عمران: ١٦٥]، وفي الحديث الصحيح عن النبي -صلى الله عليه وسلم- أنه قال: (قال الله تعالى: فمن وجد خيراً فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلّا نفسه). فهؤلاء هم شرار الخلق على الإطلاق، نسبوا الخير لأنفسهم وعكسوا الآية ونسبوا الشر للخالق سبحانه جلَّ في علاه، تعالى علواً كبيراً عن قول الظالمين الذين يقولون على الله بهتاناً وزوراً.

- إذا قلنا بضدها تتبين الأشياء؛ وأعدل الناس على الإطلاق هم الذين سددهم الله جلَّ في علاه ووفقهم إلى قول الحق وإلى طريق الحق وإلى الطريق المستقيم وإلى المنهج القويم، هؤلاء الذين ينسبون الفضل والخير لله جلَّ في علا وينسبون التقصير لأنفسهم، يأتسون في ذلك بأبي الأنبياء ثم بعد ذلك بالأنبياء جميعاً؛ أبو الأنبياء آدم -عليه السلام- عندما أكل من الشجرة نسب ذلك لنفسه، ثم بعد ذلك حمد الله على المغفرة، ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣]. يأتسون بالنبي -صلى الله عليه وسلم- وهو يقول: (اللهم إن تغفر تغفر جما وأي عبد لك لا ألما)، (يا حي يا قيوم برحمتك أستغيث، أصلح لي شأني كله ولا تكلني إلى نفسي طرفة عين). هؤلاء هم العدول، هم الأخيار، هم أصحاب المنهج القويم المستقيم، هؤلاء أهل السنة والجماعة يعلمون أن الخير من الله وأن الشر من النفس، يقولون قد قال الله تعالى في كتابه: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ﴾ [النحل: ٥٣].

هؤلاء هم أعدل الناس، لهم عينان: عين قدر وعين شرع، لا يضربون الشرع ولا يعطلونه بالنظر إلى القدر، ولا ينسون القدر، عندنا أوامر الشرع. فعند القدر يقولون آمنا بالله وبما جاء عن الله وعلى مراد الله، وآمنا برسول الله وبما جاء عن رسول الله وعلى مراد رسول الله. إذا أصابتهم المصيبة قالوا قدّر الله وما شاء فعل، ولا يفتحوا باباً للشيطان، وهم إمّا على صبر على أقدار الله جلَّ في علاه المؤلمة، وإمّا على رضا أرقى من الصبر. وعند الطاعات وعند الأمر والنهي [عين الشرع] يقولون سمعنا وأطعنا، في الأمر نأتمر وفي النهي ننتهي ولا نفعل ما يغضب ربنا جلَّ في علاه، فهؤلاء هم أخير الناس وأعدل الناس، الطائفة الثانية أو الصنف الثاني من الذين ينظرون إلى القدر.

- والصنف الثالث أيضاً شر كله، هؤلاء هم مجوس هذه الأمة، القدرية الذين ينفون القدر، ونسبوا إلى ذلك لأنهم يقولون الأمر أنف وأن الله جلَّ وعلا جلَّ وعلا لم يخلق أفعال العباد، وأن الله لا يعلم أعمال العباد حتى يعملوا بها، ونفوا علم الله وجحدوا به، ونفوا قدرة الله على الإضلال وعلى الهداية. وهؤلاء مجوس الأمة لأنهم جعلوا الإنسان خالقاً مع الله جلَّ في علاه، كل إنسان أصبح خالقاً مع الله جلَّ في علاه. وجه الشبه بين القدرية وبين المجوس؛ أن المجوس يقولون للكون خالقان: خالق للظلمة وخالق للنور، خالق للخير وخالق للشر. وهؤلاء يقولون إن الله جلَّ وعلا لم يخلق أفعال العباد، العباد يخلقون أفعال أنفسهم، فجعلوهم يخلقون مع الله جلَّا في علاه.

هؤلاء لهم طامات كبر، ولهم عطب شديد في منهجهم وردهم لقدر الله جلَّ في علاه. أثبتوا وغالوا في إثبات الشرع، فهم يتعبدون، وهذه الحسنى لهم؛ يتعبدون لله بالأمر والنهي، وهم يتقربون إلى الله بالصالحات ويجتنبون الطالحات، ومع ذلك يقولون هذا منا، فإذا كانت الجنة فبأفعالنا وإن كانت الأخرى فأيضاً بأفعالهم، ينسبون ذلك للإنسان فلا يلومن إلّا نفسه.

وكما قلت ترى منهم الطامات في هذا الاعتقاد الخرب منهم، وقلنا هناك مناظرة

حدثت بين أبي إسحاق الإسفراييني مع عبد الجبار المعتزلي الذي يقول بلا قدر وأن الأمر أنف؛ عندما قال: سبحان الذي تنزه عن الفحشاء، هو يقصد بذلك أن الزنا والسرقة والكذب والسب والشتم لا لم يكن من خلق الله جلَّ وعلا جلَّ في علاه، ما خلق الله ذلك، العباد هم الذين ابتدأوا ذلك. فهو يقولها وهي كلمة حق لكن أراد بها باطل؛ قال أبو إسحاق: كلمة حق أريد بها باطل، سبحان الذي لا يكون في كونه إلّا ما شاء؛ سواء زنا أو سرقة أو شتم أو سب، خلق لحكمة، لأن القاعدة عند أهل السنة والجماعة التي تزيل عنا غبش هذا الكلام: إن الله لم يخلق شراً محضاً. إن الله إذا خلق شراً، لكن الشر نسبي إضافي، خلقه لحكمة بعدها، لخير سيجر هذا الشر ومصالح تأتي بعد الشر. خلق الله إبليس -لعنة الله على إبليس-، إن الله ما خلق إبليس ليضل الناس، لا والله لمصلحة فوق خلق إبليس، أن الله لا يساوي بين المختلفين، ﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ۝٣٥ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ۝٣٦﴾ [القلم: ٣٥ – ٣٦]، يأخذ كل صاحب نصيب نصيبه ويؤتي كل ذي فضل فضله. فإن الله لم يخلق شراً محضاً، حتى لو قلت إن الفحشاء شر، الزنا شر، الشتم شر، لكن هذا ليس شراً محضاً، لأنه سيأتي بعده الخير الكثير. القتل شر، وفيه الخير الكثير عندما صرح الله بذلك: ﴿وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ﴾ [البقرة: ١٧٩]، القتل حياة؟ نعم القتل يأتي بالحياة بعد ذلك، لم يخلق الله شراً محضاً.

الغرض المقصود؛ قال: سبحان الذي تنزه عن الفحشاء، فقال: سبحان الذي لا يقع في ملكه إلّا ما يشاء، قال: أتراه يدعوني إلى الهدى ثم يحكم علي بالردى؟ أساء أم أحسن؟ الإجابة حتى لا نقف عند هذا الكلام الباطل، فقال له: إن منعك حقاً لك فقد أساء، وإن كان حقاً له فقد أحسن. إن أعطاك فبفضل منه بالفضل، وإن منعك فبالعدل. أول الأمر قال: أتراه يدعوني للهدى؟ كيف يدعو إلى الهدى؟ إن الله أرسل الرسل لدعوة الناس جميعاً، البشر أجمعين، بل الثقلين للدخول في دين الله أفواجاً، رحمة للعالمين ودعوة للعالمين؛ ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦﴾ [الذاريات: ٥٦]، ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ﴾ [فصلت: ١٧]، الهداية هنا هداية إرشاد وبيان وإن الله نشر الدعوة، يدعون على لسان رسل، ثم في

القضاء بعد كونه. ويحكم علي بالردى، بالهلاك، يحكم أن يقدر كوناً بقدره عليّ بالردى. لا يمكن، كيف يدعوني ثم بعد ذلك هو قد قضى علي الردى؟ فلذلك قال له: أساء أم أحسن؟

التفصيل الذي قاله هو التفصيل الصحيح، قال: إن منعك حقاً لك فقد أساء؛ يعني لو حقاً لك أنت على الله جلَّ في علاه أنك تقدم عملاً تأخذ عليه ثواب وهذا حق إجباري على الله جلَّ في علاه فقد أساء. والكون كله كون من؟ والملك كله ملك من؟ والخلق كله خلق من؟ والله إذا أراد شيئاً يقول له كن فيكون، وقد بيّن النبي -صلى الله عليه وسلم- لو عذب أهل السماوات والأرض ما كان ظالماً لهم، لأنه حكم عدل سبحانه جلَّ في علاه. فقال: إن منعك حقاً لك فقد أساء؛ لكن مطلق الحق لمن؟ لله جلَّ في علاه. فلمّا قال له هذه الإجابة ألقمه حجراً وما استطاع أن يتكلم وسط الناس.

وقلنا من طامات هؤلاء الذين غالوا في القدر عمرو بن عبيد، كان من المعتزلة الذين ينفون القدر، جاءه أعرابي لا يعرف شيئاً، جاءه أعرابي قال: سرق بعيري ادعُ الله أن يرد عليّ البعير، فقام يبتهل لله متمسكناً ويقول: اللهم رد عليه البعير فإنك لم ترد سرقته، فقال: كف عني هراءك، هذا كف عني لا حاجة لي في دعائك، إن كان البعير قد سرق على رغم إرادة الله جلَّ في علاه فلعله يريد إرجاع هذه البعير ولا يستطيع. طالما ما استطاع منع السارق من السرقة، يمكن ما يستطيع أن يرد علي هذه الناقة. وهذا كما قلنا من الضلال المحض لهؤلاء الذين ينفون قدر الله لنا في علاه، ويجحدون بعلم الله جلَّ في علاه.

- الطائفة أو الصنف الرابع هم الجبرية الذين غالوا في إثبات القدر، هؤلاء أشر من هؤلاء، يقولون الدنيا بأسرها محبوبة لله، مرادة لله، كل ما في الكون مراده، يعني يقول كل شيء مراد بالله جلَّ في علاه. هؤلاء غالوا في إثبات القدر، وقالوا الإنسان حركته كحركة المرتعش، كالريشة في مهب الريح، يقولون ألقاه في اليم مكتوفاً وقال له إياك إياك أن تبتل بالماء. ولذلك ظهر عنهم طامات، هؤلاء يقولون بأن كل شيء بقدر والإنسان لا يفعل

شيئاً وليس له إرادة وليس له قدرة وليس له تأثير، الكل من فعل الله، الكل من خلق الله؛ يعني زنا، سرقة، فحشاء، كل ذلك ينسبون ذلك لله -حاشا لله-.

ولذلك ترى الطامات لمّا جلس بعضهم إلى بعض فتذكروا قول الله تعالى على لسان سليمان لمّا سأل عن الهدهد، فجاءه الهدهد وقص عليه القصة، ثم قال: ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ فَصَدَّهُمۡ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ [النمل: ٢٤]، فقام أحدهم وقال: في هذه الآية العلم الجم الغفير، الهدهد كان قدرياً. لِمْ؟ لأنه نسب التزيين للشيطان ونسب الأعمال لهؤلاء الذين سجدوا للشمس. الجبرية ماذا قالوا؟ قالوا كل شيء في الكون فعل الله. كل شيء مراد لمن؟ لله. فلذلك لما الهدهد قال: ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾ ، قالوا الهدهد مخطئ، الشيطان ما زين، التزين هذا فعل لله -حاشا لله-. لمّا قال: ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾ فنسب الأعمال للبشر، فقالوا: لا، ليست أعمالهم هذه أعمال من؟

أنا قلت لكم والله هذا أتقن ما يكون، قلت لكم بوابة العلم العقيدة، وهذه فرض عين، هذا فرض عين على كل إنسان؛ كل إنسان فرض عين أن يوحد الله التوحيد الصحيح دون أن يشوبه أدنى شرك، هذا الذي أدين الله به، يعني فرض عين على كل إنسان أن يتقن باب العقيدة. فالجبرية يقولون كل شيء في الكون مراد الله، طالما هو مراد الله فهو من فعل الله جلَّ في علاه، ولذلك قالوا الهدهد قدري.

وجاء بعضهم قال: كيف تعصي الله؟ قال: إن عصيت أوامره فقد أطعت في مراده، إن عصيت في أوامره فقد أطعته في مراده. ما معنى هذا الكلام؟ يعني هذا من مراد الله جلَّ في علاه، هو الذي أجبرني عليه، ما أنا الذي فعلت هذا. ينفون الفعل أو إرادة العبد، يجعلون العبد كالميت بيد المغسل، فيقولون إن كنت قد عصيته في أوامره فقد أطعت في مراده. وقرأ بعضهم قول الله تعالى لإبليس: ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسۡجُدَ لِمَا خَلَقۡتُ بِيَدَيَّۖ﴾ [ص: ٧٥]، قال الحجة لإبليس -استغفر الله- ليست لله، حاشا لله. هذا كفر مبين والله؛ قال الحجة لإبليس ولو كنت مكانه، عندما قال: ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسۡجُدَ لِمَا خَلَقۡتُ بِيَدَيَّۖ﴾، قال: قلت أنت. سبحانك

ربي جلَّ شأنك، سبحان الله، قال: لقلت أنت الذي فعلت ذلك. يحتج لإبليس، خير أعوان، هم أشر منهم، فهم يقولون الحجة لإبليس على الله جلَّ في علاه، لأن الله الذي أجبر إبليس على عدم السجود.

وطبعا من الأمور الطريفة المضحكة المبكية، قلتها أكثر مرة؛ أن رجلاً من هؤلاء الذين يتبنون هذا المذهب الذي كله ضلال، دخل فوجد امرأته تزني برجل فأخذ السيف وأراد أن يطيح برأس هذا الزاني، فقالت له: مهلاً يا رجل اتقِ الله، والله ما زنا بي إلّا بقدر الله، قال: آمنت بالله فتركها وتركها يزني بها. هذا المذهب الضال ضلال مبين. فهذه من أيضا من الطوام الكثيرة التي تقع في مثل هذا المذهب الضال.

فالطائفة الرابعة الضالة هي طائفة الجبرية، هي التي غالت، بعضهم حتى قال الأشاعرة يقعون في مثل هذا، ونفى ذلك كثير من أهل العلم، لكن المسألة قيد بحث. فهؤلاء الجبرية ينفون قدر الله، ينفون الشرع، يبطلون الشرع وينظرون بعين واحدة عوراء، ينظرون للقدر ويغالون في إثبات القدر حتى انهم نفوا فعل العبد وإرادة العبد لهذا الفعل.

حكم الشرع في الطائفتين: أولاً نقول نمايز بين الطائفتين:

- الطائفة الأولى طائفة قدرية، قالوا الأمر انف.
- والطائفة الثانية قالوا: لا، القدر كل شيء في الكون من فعل الله جلَّ في علاه.

من أشر ممن؟ من أنزل درجة ممن؟ نقول بالمشابهة تظهر المحاكمة؛ شبّه النبي -صلى الله عليه وسلم- القدرية بالمجوس، قال: (القدرية مجوس هذه الأمة)، والمجوس قال فيهم النبي -صلى الله عليه وسلم-: (سنوا بهم سنة أهل الكتاب)، فشابه المجوس بأهل الكتاب؛ وأهل الكتاب كثير من أهل العلم بل بالاتفاق خلافاً لما نظر من خلاف ابن عمر، أنه يجوز الزواج منهم وحلال ذبائحهم. فلذلك لما قال النبي -صلى الله عليه وسلم: (سنوا بهم سنة أهل الكتاب)، عمموا الحكم وقالوا بجواز الزواج من نسائهم وأيضاً ذبائحهم حلال، والجماهير على أن قول -صلى الله عليه وسلم- (سنوا بهم سنة أهل

الكتاب) عام مخصوص بالجزية فقط. الغرض المقصود أن بعض العلماء جعلوا المجوس في ركاب أهل الكتاب، وأهل الكتاب أفضل من المشركين.

التشبيه الثاني: شبه الله جلَّ في علاه هذه الجبرية الذين يقولون الأمر أنف وأن الأمر بيد الله والفعل فعل الله والإرادة إرادة الله ليس بإرادة العبد، شبههم بالمشركين عندما قال الله تعالى حاكياً عن المشركين: ﴿ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍ ﴾ [الأنعام: ١٤٨] ، فهؤلاء المشركون بالاتفاق عند العلماء أو نقول بالاتفاق عند الجمهور الشافعية والحنابلة أنهم لا يأخذون منهم الجزية؛ إمّا الإسلام وإمّا القتل، خلافاً للمالكية، واتفقوا بالاتفاق وبالإجماع أن ذبائحهم تحرم وأن نسائهم تحرم.

فمن أشر الآن؟ الذين تحل الذبائح وتحل النساء وأيضاً نسن بهم سنة أهل الكتاب أم هؤلاء الذين لا تحل ذبائحهم ولا يجوز الزواج من نسائهم؟ فالمشركون أشر وأعظم خطراً من أهل الكتاب، ولذلك ترى النبي -صلى الله عليه وسلم- كان يفرح كثيراً عندما يغلب الروم الفرس، لأن الروم أهل الكتاب، هم أقرب إلى النبي -صلى الله عليه وسلم- وأقرب إلى المسلمين من الفرس الذين كانوا يعبدون النار. فإذاً المجوس أهون خطراً من الجبرية، فالجبرية أعظم خطراً.

حكم هاتين الطائفتين: فهذا الحكم فيه تفصيل سأوجز فيه الآن وأنجز بمجموع ما قاله العلماء، بأننا إذا حكمنا على القدرية بحكم فيكون من باب أولى أن يحكم على الجبرية بهذا الحكم.

أقوال أهل العلم في القدرية:

أولاً أذكر بقاعدة مهمة جداً: إذا قلنا إن هذا كفر، فإننا نفرق بين النوع وبينه العين، نقول القول قول كفر والفعل فعل كفر، والقائل ليس بكافر والفاعل ليس بكافر حتى تقام الحجة وتزال الشبهة. هذا التأصيل الذي لابد من استحضاره.

- قال إبراهيم بن طهمان: الجهمية كفار والقدرية كفار؛ وهذا تصريح، لأنهم أثبتوا خالقاً مع الله جلَّ في علاه.

- قال عبدالله بن أحمد: سألت أبي: أنصلي خلف القدري [القدري الذي يقول إن الأمر أنف، يعني الأمر لم يكتب قبل هذا الوقت الذي فعل فيه]؟ قال: لا يصلى خلفه، ومن صلى القدري فليعد.

- قال عمر بن عبد العزيز: القدرية كفار.

- وأيضاً قال الإمام ابن عون في أصحاب القدر: يستتابون، فإن تابوا وإلّا نفوهم من دار المسلمين. هذا كلام وسط، لأنه لو كان مرتد حقاً عنده لابد أن يقتل، لكن هذه أقوال أهل العلم في القدرية أنهم حكموا بكفرهم.

- الشافعي قال: خاصموهم في العلم، فإن أقروا فقد خصموا وإن جحدوا فقد كفروا؛ القدرية يقولون لا قدر، يعني الله لا يعلم ما يحدث، الله يعلم الأمر عندما يفعل لكن لا يعلم ما يحدث. فقال: خاصموهم في العلم، فإن قالوا يعلم فقد خصموا، إذاً الله يعلم وأخبرنا الذي يعلم أنه كتب ما يعلم وخلق ما يعلم سبحانه جلَّ في علاه. وإن جحدوا أي إن نفوا العلم فقد نفوا صفة من صفات الله الثابتة له بالكتاب والسنة وهي صفة العلم، فقد كفروا بذلك.

فهذه أقوال أهل العلم في القدرية، وأشر منهم الجبرية. ولذلك شيخ الإسلام ابن تيمية جمع قولاً جامعاً في هذه المسألة، قال: غلاة القدرية كفرة، وغلاة الجبرية كفرة، أو قال: علماؤهم كفرة والعوام ليسوا بكفرة، لأن العلماء قد أقيمت عليهم الحجة أمّا العوام يقولون كلام لا يفقهونه ولا يعلمونه ويهرفون بما لا يعرفون. يقولون أنف، يقولون لا قدر، يقولون هو كالريح، ولا يدرون ما يقولون. فالعوام ليسوا بكفرة، لكن العلماء كفرة، هذا حكمهم.

وكما قلت لابد أن نفرق بين كفر النوع وكفر العين، بإذن الله قدر الإمكان ندخل في

بحر المسألة على أن الناس يدورون بين غلو وجفو، وأن القدرية والجبرية أفراخ لليهود وللنصارى، مصداقاً لنبوءة النبي -صلى الله عليه وسلم- أنه قال: (لتتبعن سنن الذين من قبلكم شبراً بشبر وذراعاً بذراع، حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه)، في رواية قال: (حذو القذة بالقذة)، وفي رواية قال: (لو نكح أحد منهم أمه وجد في أمتي من يفعل ذلك، فقالوا: يا رسول الله اليهود والنصارى؟ قال: فمن؟) يعني اليهود والنصارى. فاليهود فيهم هذا الفكر والنصارى فيهم هذا الفكر؛ أمّا الجفو فعند اليهود، وأمّا الغلو فعند النصارى، والوسط من نجّاه الله جلَّ في علاه. وهذا الذي سنبينه من مشابهة القدرية والجبرية باليهود والنصارى، ثم الفوائد المستنبطة من كلام الله وسمع الله وبصر الله جلَّ في علاه التي ذكرت في هذه الأحاديث.

الناس انقسموا إلى أصناف أربعة:

- أشر الناس هم الذين ينسبون الخير لهم والشر لله جلَّ في علاه،

- وأخف منهم شراً القدرية الذين قالوا لا ينسب لله لا خير ولا شر، الخير والشر ينسب للمرء،

- والطائفة الثالثة هي الطائفة الجبرية الذين نسبوا كل شيء لله جلَّ في علاه.

فالفرق بين بين الثالث والأول: الأول قال الخير لي والشر لله، والثالث قال الخير والشر لله، هذا الفرق بينهم أن هذا جعل الجميع لله جلَّ في علاه. والثانية قالوا الخير والشر للعبد ليس لله.

- أهل السنة والجماعة، يقولون الخير خلق الله الخير مطلقاً، والشر خلقه الله جلَّ في علاه لكن ينسب لله خلقاً وإيجاداً، ثم تقول وينسب للعبد فعلاً وإرادة واكتساباً. اعتقاد أهل السنة والجماعة وسط بين هؤلاء وهؤلاء؛ قالوا الخير والشر كل الخلق لله، لكن لابد من تكملة مهمة جداً، الشر لله ينسب خلقاً وإيجاداً، فإن كان خلقاً وإيجاداً ففعل الله كله

خير، لأن هذا الشر الظاهر أمامنا وخلفه خيرات كثيرة. أما رأيت قول الله تعالى: (وما ترددت في شيء أنا فاعله ترددي في قبض روح المؤمن، يكره الموت وأكره إساءته)، شر هنا، الموت الذي يأتي للإنسان شر وإساءة للإنسان، لكن وجد لأن بعدها خير عظيم، فهنا فعل الله كله خير، بالنظر لوجه الله الكريم. فلابد أن تقول هو ينسب لله خلقاً وإيجاداً وهذا فيه الخير، لأن الله جلَّ وعلا جعل بعده الخير، وينسب للعبد فعلاً واكتساباً وإرادةً، فقد أثبتنا الفعل والإرادة والاكتساب للعبد كما أثبتنا المشيئة لله جلَّ في علاه، فمشيئة العبد غير مستقلة/ مشيئة العبد تابعة لمشيئة الرب جلَّ في علاه.

فاعتقاد أهل السنة والجماعة يلملمون شمل هذه الأقوال، لأن القدرية معهم حق هو أن العبد له فعل وله إرادة، لكنهم قالوا إرادة محضة وفعل محض. قلنا لا، بعض الحق سنأخذ به، هو عنده إرادة وعنده فعل. والجبرية قالوا لا إرادة ولا فعل، قلنا عندكم بعض الحق، لأن إرادة العبد ليست إرادة محضة لكنها تحت إرادة الله، ومشيئة تحت مشيئة الله، فأخذنا بالقولين. والذين قالوا الخير لنا والشر لله، قلنا لكم اعكسوا تصيبون، الخير كله من الله والشر من أنفسنا. هذا اعتقاد أهل السنة والجماعة.

نقول بإيجاز الطوائف الأربعة، الطائفة على الحق الذين قالوا الخلق كله لله لكن الشر لا ينسب إلى الله جلَّ في علاه أدباً، مع أنه خلقه خلقاً وإيجاداً، وفعله العبد فعلاً وإرادةً واكتساباً. وأمّا الطائفة الضالة نسبوا الخير لأنفسهم والشر لله جلَّ في علاه، وهذا سوء أدب مع الله. وأمّا الطائفة الأخرى قالوا الخير والشر للعباد، ونفوا عن الله العلم والقدرة، لا يضل أحداً ولا يهدي أحداً. والطائفة الأضل منهم نسب الظلم لله جلَّ علاه، قالوا قد دعاه للهدى وقدر عليه الردى وأهلكه وعذبه وهو ظالم له، نعوذ بالله من الخذلان.

الراوي: عبدالله بن عمر | المحدث: الألباني | المصدر: تخريج كتاب السنة | الصفحة أو الرقم : ٣٣٩ | خلاصة حكم المحدث : حسن | التخريج : أخرجه أبو داود (٤٦٩١)، وأحمد (٥٥٨٤) باختلاف يسير

ونختم هذا الباب العظيم باب القدر بهذا الحديث العظيم

(اعملوا فكلٌ ميسر لما خلق له)

وبإذن الله وحوله وقوته ننطلق من الكلام عن القدر الى ذم الهوى

وابطال كل ذي صاحب هوى جرّته البدعة الى حيث لا يدري

ونسأل الله لنا ولهم الهداية..

باب قوله صلِّ الله عليه وسلّم (اعملوا فكل ميّسر لما خُلق له)

عن أبي بن كعب في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ﴾ [الأحزاب: ٧]، قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: (أولهم نوح ثم الأول فالأول).

وعن أبي مريم قال: (أقبل أعرابي حتى أتى رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فقال: أي شيء كان أول أمر نبوتك؟ قال: أخذ الله مني الميثاق كما أخذ من النبيين ميثاقهم، قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ﴾ [الأحزاب: ٧]، ثم ذكر الحديث.

عن العرباض بن سارية قال: سمعت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يقول: (إني عبد الله في أم الكتاب وإن آدم لمنجدل في طينته).

عن عمران بن حصين -رضي الله عنه- قال: (قال رجل: يا رسول، الله أعلم أهل الجنة من أهل النار؟ قال: نعم، قال: ففيمَ يعمل العاملون؟ قال: اعملوا فكلٌ ميسر).

عن عائشة قالت: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: (قال الله عز وجلّ: وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددي عن موته، فإنه يكره الموت وأنا أكره مساءته).

عن أبي وائل عن عبدالله قال: (كنا عند النبي -صلى الله عليه وسلم- فأقبل راكب حتى أناخ بالنبي -صلى الله عليه وسلم- فقال: يا رسول الله إني أتيتك من مسيرة سبع، أنفقت بدني وأسهرت ليلي وأظمأت نهاري وأنصبت راحلتي لأسألك عن خصلتين

أسهرتاني، فقال له النبي -صلى الله عليه وسلم-: ما اسمك؟ قال: زيد الخيل، قال: أنت زيد الخير، سل فرب معضلة قد سئل عنها، فقال: أسألك عن علامة الله تعالى في من يريد علامته في من لا يريد؟ قال فقال النبي -صلى الله عليه وسلم-: كيف أصبحت؟ قال: أصبحت أحب الخير ومن يعمل به وإن عملت به أيقنت ثوابه وإن فاتني منه شيء حننت إليه، فقال له النبي -صلى الله عليه وسلم-: هيه هذه علامة الله فيمن يريد، وعلامته في من لا يريد أن لو أرادك للآخرين لهيأك لها ثم لا يبالي بأي وادٍ هلكت).

هنا نرى هذه الأبواب أيضاً كلها أبواب تتكلم عن القدر، وتتكلم عن المرتبة الثانية من مراتب القدر وهي الكتابة وهذه طبعاً فيها رد على من يزعم أن آدم لّما نظر في الجنة ووجد "أشهد أن لا إله إلّا الله وأن محمداً رسول الله"، وقيل بعد ما سأل آدم عن هذا النبي، فقال: ما خلقتك إلّا من أجله؛ وكل هذه الترهات البواطيل المواضيع الأكاذيب على رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، يبيّن لنا أن الأصل في ذلك أن النبي -صلى الله عليه وسلم- قد كُتِب نبياً في اللوح المحفوظ، وأن آدم -عليه السلام- بين الروح والجسد، وهذه علاقة هذا الباب بالقدر. أيضاً علاقة هذا الباب بالقدر هو بيان حكمة الله جلَّ في علاه، وبيان عدل الله جلَّ في علاه، وبيان أن الله خلق الأسباب والمسببات، وأن الله ربط المسبب بالسبب، وأن الله جلَّ في علاه من عدله لا يعذّب أحداً بعلمه السابق فيه، بل لابد أن يخرج علمه في هذا المرء الذي يستحق العذاب.

وقد قلت أبواب القدر مهمة جداً، ورب السماوات، أطال النفس المصنف للتأكيد والتكرار للاستقرار في القلوب في هذه المسائل ولإتقان هذا الباب، لأن إتقان العقيدة مرهون بإتقان أبواب القدر. تكلمنا عن الكون والشرع والإرادة الكونية والإرادة الشرعية، هذه أبواب لابد أن نتقنها، منها قلنا الفرق بين الكون والشرع، وأيضاً العلاقة بين الكون والشرع. أنا وهمت في باب تكلمنا عن آيتين:

- الآية الأولى لّما قلنا قول الله تعالى: ﴿وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا فَحَقَّ

عَلَيۡهَا ٱلۡقَوۡلُ فَدَمَّرۡنَٰهَا تَدۡمِيرٗا ﴿١٦﴾ ﴾ [الإسراء: ١٦]، قلنا هذه كوني وشرعي، كيف كوني وشرعي؟ على القراءتين: قراءة (أَمَرْنَا)، وقراءة (أَمَّرْنَا)؛

- أمّا قراءة (أَمَرْنَا) هذا امر شرعي، بمعنى الآية: وإذا أردنا أن نهلك قرية امرناهم بالخير وأمرناهم بالطاعة وأمرناهم بالانصياع والاستسلام لله جلَّ في علاه، (أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا) أي فردوا أمر الله جلَّ في علاه، فإذا رد أمر الله فلابد أن تقول هذا الأمر أمر شرعي لأنه قد يقع وقد لا يقع، فلمّا ردوا أمر الله جلَّ في علاه استحقوا العذاب على ذلك، فكانت أمراً شرعيا.

- كيف تكون على الكون؟ نقول بالقراءة الثانية: ﴿وَإِذَآ أَرَدۡنَآ أَن نُّهۡلِكَ قَرۡيَةً أَمَرۡنَا مُتۡرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيۡهَا ٱلۡقَوۡلُ فَدَمَّرۡنَٰهَا تَدۡمِيرٗا ﴿١٦﴾ ﴾ [الإسراء: ١٦]، يعني هيأنا لها الأسباب للهلكة، وقد أهلكناها.

• وأيضاً في الآية الأخرى: ﴿وَلَا يُشۡرِكُ فِي حُكۡمِهِۦٓ أَحَدٗا ﴾ [الكهف: ٢٦] قلنا كوني، فيها قراءة أخرى: ﴿ وَلَا يُشۡرِكُ ﴾ أصبحت شرعية لأن كثير من الناس طرحوا كتاب الله خلفهم. قال الله تعالى مبيناً: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزۡعُمُونَ أَنَّهُمۡ ءَامَنُواْ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدۡ أُمِرُوٓاْ أَن يَكۡفُرُواْ بِهِۦ ﴾ [النساء: ٦٠]، فتركوا حكم الله جلَّ في علاه، فلمّا رُدّ علمنا أنه شرعي لأن الشرعي قد يقع وقد لا يقع. لكن لمّا نقول: ﴿ وَلَا يُشۡرِكُ فِي حُكۡمِهِۦٓ أَحَدٗا ﴾ [الكهف: ٢٦]، هذه فيها دلالة أنه لا أحد حاكم مع الله جلَّ في علاه ولا أحد مشرع مع الله جلَّ في علاه، ﴿أَلَا لَهُ ٱلۡخَلۡقُ وَٱلۡأَمۡرُ ﴾ [الأعراف: ٥٤]، فأصبحت كونية سالمة من أي إدخالات في هذا الباب. أمّا لو جئنا للتطبيق، فالتطبيق فيه مسألة الشرع ومسألة الكون.

بالنسبة للكون والشرع أيضاً جملة نحتاجها، يعني هناك أصناف من الناس: منهم من يوافق الكون والشرع، ومنهم من يخالف الكون والشرع، ومنهم من يوافق الشرع دون الكون، ومنهم من يوافق الكون دون الشرع. ما هو الكون والشرع؟ يعني الإرادة الكونية

والإرادة الشرعية.

- إيمان المؤمن يوافق الإرادة الكونية والارادة الشرعية، كيف ذلك؟ إن الله يرضى لعباده الإيمان ويحب لعباده الإيمان من أجل ذلك أرسل الرسل، ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ [النساء: ١٦٥]، قال الله تعالى: ﴿وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ ۖ وَإِن تَشْكُرُوا۟ يَرْضَهُ لَكُمْ ۗ﴾ [الزمر: ٧]، كما بيّن في نفس الآية، فإذاً الشرع: يحب الله جلَّ في علاه إيمان المؤمن وإيمان الناس، فإيمان المؤمن وافق الشرع. ووافق الكون لأنه لا يمكن أن يؤمن ولا يمكن أن يهتدي إلّا بإرادة الله، ما أراد الله كان وما لم يرد لا يمكن أن يكون، قال الله تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ﴾ [الأنعام: ١٢٥]، قال الله تعالى: ﴿فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ ۚ﴾ [النحل: ٣٦]، وفي الحديث القدسي عن النبي - صلى الله عليه وسلم- أنه في مؤخرة الحديث قال: (فمن وجد خيراً فليحمد الله). إذاً وافق الشرع ووافق الكون، إيمان المؤمن.

- كفر المؤمن خالف الشرع وخالف الكون، خالف الإرادة الشرعية وخالف الإرادة الكونية، لو المؤمن مات على الكفر؛ يعني لو أتينا مثلاً بصحابي جليل وقلنا كفر خالد - حاشا لله-، الحمد لله مات على الإسلام وهو من أفضل صحابة رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، كفر عمّار -حاشا لله- مات على الإسلام، لكن نقول كفر عمار هذا خالف الشرع والكون، خالف الإرادة الشرعية لأن الله يحب الإيمان حتى لأبي لهب، فخالف الإرادة الشرعية لو قلنا بكفره. وكوناً؛ هو مات على الإيمان فخالف الإرادة الكونية. محمد رجل صالح تقي نقي يقيم الصلوات ويحضر مجالس العلم ويتصدق ويدعو الله ليل نهار، مات وصلى عليه المسلمون، هنا لنفرض نقول كفر محمد، وقع؟ لم يقع، فكفر محمد الذي مات على الإسلام حاله بالنسبة للإرادة الشرعية تخالف، أي كفر تجده في الإرادة الشرعية قل تخالف لأن الله يحب إيمان أبي جهل، إيمان إبليس، لأن الله يحب الإيمان لكل البشر. لأن الله جلَّ وعلا قال وهذا للجميع: ﴿وَإِن تَشْكُرُوا۟ يَرْضَهُ لَكُمْ ۗ﴾. ننظر في الكونية الآن؛ محمد كفر أم مات مسلماً؟ مات مسلماً، فكفره مخالف للإرادة الكونية لأن الله أراد أن يختم له

بالصالحات والإيمان، فإذاً كفر المؤمن خالف الإرادة الشرعية والإرادة الكونية.

- إيمان الكافر؛ وافق الشرع وخالف الكون إيمان ابي لهب هذا يحبه الله فتوافق الإرادة الشرعية، لكنها خالفت الإرادة الكونية لأن أبا لهب مات كافراً.

- كفر الكافر؛ يخالف الشرع لكنه يوافق الكون، أبو لهب كفره يخالف الشرع لكنه وافق الكون.

هنا ذكر الله جلَّ في علاه: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ﴾ [الأحزاب: ٧]، فذكر المواثيق وهذه مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بالقدر، وأن هذا كله مكتوب عند الله جلَّ في علاه. والمواثيق التي تثبت لك القدر أنه في القدر، بالمواثيق حدث الفصل بين أهل الجنة وأهل النيران، وهذه المواثيق قد أخذ بنوع من التفصيل قد أخذ الله من البشر أربعة: مواثيق ثلاثة عامة في كل البشر، وواحدة خاصة بالأنبياء والمرسلين، بل هي خاصة بنبينا محمد -صلى الله عليه وسلم- تشريفاً وتعظيماً وتكريماً له:

▪ أمّا الميثاق الأول فهو ميثاق الذر، عندما خلق الله آدم -عليه السلام- مسح على ظهره وأخرج كل ذرية آدم وأشهدهم على أنفسهم: ألست بربكم؟ قالوا: بلى، وهذا الذي قال فيه الله جلَّ في علاه: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ﴾ [الأعراف: ١٧٢]، وقد جاء الحديث عن ابن عباس موقوفاً ومرفوعاً والمرفوع صحيح؛ أن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: (مسح الله على ظهر آدم فأخرج كل ذرية آدم)، كل الذرية أراد الله خلقها، إذاً ما أخرج إلّا ما أراد أن يخلقها، أخرج كل ذرية أراد خلقها (وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم؟ فشهدوا جميعاً)، قال ابن عباس: أمّا المؤمن فقد شهد طواعية وأمّا الكافر فكانت كراهية، فلمّا جاءه وقت الانسلاخ انسلخ، اتبع الشهوات والشبهات، لمّا جاء إلى الدنيا تناسى هذا الميثاق، وهذا الميثاق كما قلنا هو ميثاق الذر.

بعض المعتزلة أو بعض المتأثرين من أهل السنة من فكر المعتزلة قالوا بأن هذا الميثاق

يحاسب الله عليه العبد، يعني حتى لو لم يأتِ محمد، لم يأتِ إبراهيم، لم يأتِ نوح، من الرسل من البشر لزاماً عليهم أن يعبدوا الله ويوحدوا الله ولا يشركوا به. لا غرو ولا عجب أن نقول لا يتعبّدوا، لكن وجب عليهم أن لا يشركوا بالله شيئاً، ولو أشركوا يدخلون النار. ولا يعد هؤلاء من أهل الفترة لأن الله أخذ عليهم الميثاق وأشهدهم بالربوبية وأن الله هو الخالق الرازق المدبر، وشهدوا على ذلك، واستدلوا على ما قالوا بحديث في الصحيحين عن النبي -صلى الله عليه وسلم-: (يقال للرجل من أهل النار يوم القيامة: أرأيت لو كان لك ما على الأرض من شيء أكنت مفتدياً به؟ قال: فيقول نعم، قال: فيقول قد أردت منك أهون من ذلك، قد أخذت عليك في ظهر آدم أن لا تشرك بي شيئاً فأبيت إلّا أن تشرك بي)؛ قالوا فقد أخذه بشركه ولم يوصل إليه رسول ولم يذكّره بالرسول الذي أُرسل إليه، فميثاق الذر ميثاق حجة على البشر. وهذا الكلام كلام ضعيف جداً لأن الحديث يحتمل الحديث، ودائماً دأب أهل البدعة والضلالة يذهبون إلى المتشابهات كما قال الله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ﴾ [آل عمران: ٧] وأمّا أهل السنة والجماعة وأمّا الذين هم وسط بين الطائفتين يردون المتشابه للمحكم، فتأتي النتيجة.

انظر إلى المحكمات في كتاب الله جلَّ في علاه، قال الله تعالى جازماً بآيات محكمات غير محتملات: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿١٥﴾﴾ [الإسراء: ١٥]؛ حتى غائية، هذا جزم لا احتمال فيه. قال الله تعالى: ﴿تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ ۖ كُلَّمَآ أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴿٨﴾ قَالُوا۟ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا﴾ [الملك: ٨ - ٩]، أيضاً قال الله تعالى: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُوا۟ بَلَىٰ﴾ [الزمر: ٧١]، فهذه فيها دلالة واضحة جداً لا احتمال فيها، إن الله لم يعذب أحداً حتى يقرره بأنه قد أرسل إليه رسل؛

﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ [النساء: ١٦٥]، (وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ) [النحل:٣٦]، هذه محكمات.

نأتي إلى المحتمل؛ قالوا: وحديثنا؟ قلنا يحتمل حديث بأن الحديث فيه إضمار، ما هو الإضمار؟ يقول الله جلَّ في علاه: قد طلبت منك وأنت في صلب آدم ما هو أهون من ذلك أن تعبدني ولا تشرك بي شيئاً، فلما نسيت أرسلت إليك رسلي فذكّروك بما طلبته منك، فأبيت إلّا الشرك؛ لأن الله جلَّ وعلا بين في المحكمات أنه أرسل الرسول، وجاء الرسول بشير ونذير وبيّن لهم طريق الهدى وطريق العمى فاستحبوا العمى على الهدى. فهنا وجب الإضمار في الحديث بالمحكمات من الآيات، أن تعالى الله قال: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبۡعَثَ رَسُولٗا ١٥﴾ [الإسراء: ١٥].

إذاً الميثاق الأول "ميثاق الذر"؛ مسح الله على ظهر آدم وأخرج كل الذرية ثم أشهدهم على أنفسهم. عمر بن الخطاب -رضي الله عنه وأرضاه- بحديث صحيح قال: (مسح الله على ظهر آدم بيده اليمنى فأخرج الذرية بيض [وصفهم بالبياض]، وقال هؤلاء للجنة ولا أبالي، وباليد الأخرى [في رواية قال: بالشمال، وصححها بعض العلماء وهذا فيه خلاف بين أهل العقائد هل يوصف الله بالشمال أم لا؟ ولسنا بصدد التفصيل في هذا الباب]، فمسح بيده الأخرى وأخرج الذرية وقال هؤلاء إلى النار ولا أبالي). فإذاً الميثاق الأول من المواثيق الأربعة ميثاق الذر، ذلك الميثاق الذي مسح الله جلَّ وعلا على ظهر آدم وأخرج كل ذرية له.

▪ الميثاق الثاني هو ميثاق الفطرة، ما من عبد وما من مولود إلّا جبله الله جلَّ في علاه على توحيده وعلى الإقرار بربوبيته وعلى الإقرار بأنه الرب الخالق الرازق المدبر سبحانه جلَّ في علاه، ولذلك قال الله تعالى: ﴿فِطۡرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيۡهَاۚ لَا تَبۡدِيلَ لِخَلۡقِ ٱللَّهِۚ﴾ [الروم: ٣٠]، فطر الله الناس وجبل الله الناس، فالقلوب تميل إلى ربوبية الله جلَّ في علاه. في الضوائق في الأمور الحالكة ترى كل إنسان قلبه معلق بمن فوق العرش، حتى أهل الكفر والإلحاد عندما تنزل بهم النوازل ترى أن أفضل أحوال هؤلاء يرفعون اليد للرب جلَّ في علاه ليرفع عنهم هذه البليات، والقرآن آياته كثيرة تثبت لنا ذلك؛ لمّا ضاق

عليهم الأمر وجاءتهم الريح من كل مكان وظنوا أنهم قد أحيط بهم ماذا قال الله وصفاً عن هؤلاء الكفرة؟ ماذا قالوا؟ ﴿دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [العنكبوت: ٦٥]، دلالة على أن القلوب جبلت وفطرت على الميل بإقرار الله جلَّ وعلا وإقرار توحيد الله جلَّ في علاه. ولذلك في الصحيحين عن أبي هريرة -رضي الله عنه وأرضاه- عن النبي -صلى الله عليه وسلم- أنه قال: (كل مولود يولد على الفطرة وأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه)، وما قال يسلمانه لأنه قد ولد على فطرة الإسلام. فإذاً هذا الميثاق ميثاق الفطرة وهو كسابقه لا يعتبر حجة مستقلة، هو حجة عندما يذكِّر به الرسل، لكن لا تكون حجة مستقلة، خلافاً للمعتزلة لأن المعتزلة يحتجون بهذا على أنه حجة مستقلة ويحاسب المرء عليه.

▪ الميثاق الثالث هو ميثاق الرسل؛ إن الله جلَّ وعلا أخذ ميثاق النبيين الذي أخذه والذي دلت عليه الأحاديث هذه، إن الله إخذ ميثاق نوح وإبراهيم وموسى، كل الأنبياء، ومحمد -صلى الله عليه وسلم-، أنه أخذ عليهم الميثاق أن يعبّدوا الناس لله جلَّ في علاه وأن ينشروا التوحيد بين الناس. ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤۡتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحُكۡمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُواْ عِبَادٗا لِّي مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن كُونُواْ رَبَّٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمۡ تُعَلِّمُونَ ٱلۡكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمۡ تَدۡرُسُونَ ٧٩﴾ [آل عمران: ٧٩]، ﴿وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَۖ﴾ [النحل: ٣٦]، قال الله تعالى: ﴿وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ﴾ [النور: ٥٤]، ﴿فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ١٢﴾ [التغابن: ١٢]. فالميثاق الذي أخذه الله على الرسل أن يبلّغوا الدنيا بأسرها، يبلّغوا كل البشر بأنه لا رب إلّا الله جلَّ في علاه، وأن يعبّدوا الناس لله وحده لا شريك له.

وهذا الميثاق هو الحجة على البشر لأن الله جلَّ وعلا قال: ﴿رُّسُلٗا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعۡدَ ٱلرُّسُلِۚ﴾ [النساء: ١٦٥]؛ فهذا واضح جداً في الآيات قال: ﴿رُّسُلٗا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ [النساء: ١٦٥] وظيفة، (لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ)، لو لم يأتِ الرسل المبشرين والمنذرين كان للناس على الله حجة، وهذا الراجح الصحيح في أهل الفترة لأن أهل الفترة سيقومون بين يدي الله جلَّ في علاه

يقولون ما جاءنا رسولك، والآيات كثيرة في كتاب الله جلَّ في علاه: ﴿رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ﴾ [طه: ١٣٤]. هذا الميثاق هو ميثاق الحجة، ميثاق الرسل، أن الله أرسل الرسل حتى يقطع الحجة على الناس، وبابه في القدر هو أن الله يعذب البشر بإخراج علمه السابق في البشر بإخراج الرسل؛ الله يعلم أن فرعون كان من أكفر أهل الأرض، لكن ما أراد الله جلَّ وعلا أن يعذبه بعلمه السابق فيه حتى أرسل إليه رسولاً فأخرج علمه السابق فيه، جاءه موسى وتكلم معه بلين الكلام فرده وكفر وألحد وقال: أنا ربكم الأعلى، فلذلك أخرج الله علمه السابق فيه واقعاً بإرسال الرسول. فوظيفة الرسل البشارة والنذارة، وأهم وظائف الرسل إقامة الحجة على البشر، (لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ)، وقال الله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿١٥﴾﴾ [الإسراء: ١٥].

▪ والميثاق الرابع خاص بنبينا -صلى الله عليه وسلم- تكريماً وتشريفاً وتعظيماً لمكانته؛ أخذ الله ميثاق النبيين بأسرهم من أول آدم إلى عيسى -عليه السلام- أنهم إذا خرج فيهم محمد -صلى الله عليه وسلم- لابد من اتباعه والإيمان به، كما قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨١﴾﴾ [آل عمران: ٨١]. فهذا الميثاق الواضح الجلي فيه أنه أخذ من أجل اتباع النبي -صلى الله عليه وسلم-، ولذلك استدل العلماء بهذا الميثاق على أن الخضر لابد أن يكون قد مات خلافاً لمن يقول أن الخضر إلى اليوم حي، كيف يستدلون بهذا الميثاق على موت الخضر؟

الميثاق الرابع ميثاق النبيين اتباعاً لنبينا -صلى الله عليه وسلم-، هذا ميثاق أخذه الله على كل الأنبياء والمرسلين أن يتبعوا رسول الله -صلى الله عليه وسلم- والإيمان به والتصديق به، ولذلك لما دخل النبي -صلى الله عليه وسلم- على عمر بن الخطاب وهو

يقرأ في التوراة قال: (أمتهوكون فيها يا ابن الخطاب؟ والذي نفسي بيده لو كان موسى حيا ما وسعه إلّا أن يتبعني). استدل العلماء بهذا الميثاق على أن الخضر قد مات، لو كان الخضر حياً في عصر النبي -صلى الله عليه وسلم- ما وسعه إلّا أن يتبع رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، وقلنا هو الراجح أن الخضر رسول وليس بولي، ﴿وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ۚ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾ [الكهف: ٨٢]، الراجح الصحيح هو نبي من الأنبياء أخذ الله عليه الميثاق فوجب عليه اتباع النبي -صلى الله عليه وسلم-، ولم ندرِ من التاريخ أنه نزل تحت لواء النبي -صلى الله عليه وسلم-، دل ذلك على أنه كان من الأموات في هذا العصر.

فإذاً هذه المواثيق وارتباطها كما قلنا بالقدر هو إخراج علم الله السابق في البشر، حتى إذا عذبوا أو نعموا لا يكون لهم الحجة على الله جلَّ في علاه.

المسألة الثانية من الأحاديث التي جاءت؛ قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (اعملوا فكلٌ ميسر لما خلق له)، هذه مسألة مهمة جداً وهي مسألة هل الإيمان بالقدر، أن نعلم أن الله قد كتب كل شيء وأن الله قد فرغ من العباد وأن الله قد كتب أهل الجنة وأهل النار. هل العلم بذلك يوزع في القلوب أن يتكاسل المرء أو أن يتوانى المرء أو أن يقف عن العمل والمسارعة في الخيرات ما دام أهل الجنة قد عرفوا وما دام أهل النار قد عرفوا كما بحديث عبدالله بن عمرو بن العاص: (أن النبي -صلى الله عليه وسلم- خرج عليهم ومعه كتابان قال: هذا كتاب أهل الجنة بأسمائهم وأسماء آبائهم وختم على ذلك لا يزاد ولا ينقص، وهذا كتاب أهل النار بأسمائهم وأسماء آبائهم وختم على ذلك لا يزاد فيهم ولا ينقص)؟ فإذا كان علم أهل الجنة وأهل النار فنقف عند هذا الكتاب، ففيمَ العمل؟ هنا قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (اعملوا فكل ميسر لما خلق له).

ضابط هذه المسألة هل الإيمان بالقدر يجعل الإنسان يتقاعس ويقول أرتكز على الكتاب وأتكل على الكتاب؟ نقول الآن الإيمان بالقدر إيمان بربوبية الله، وأنت مطالب في هذه الدنيا أن تؤمن بالله بربوبية الله وإلاهية الله، الإيمان بالقدر جزء واحد من العقيدة، هو

جزء من الإيمان بربوبية الله جلَّ في علاه لأن القدر هو قدرة الله القدر، علم الله السابق بالغيبيات، علم ما كان وما يكون وما لم يكن لو كان كيف سيكون، هذه من لوازم الربوبية. العلم بالقدر علم بقدرة الله جلَّ في علاه، أن كتب الله كل أهل الجنة وكل أهل النار، أو الإيمان بالقدر أن تؤمن بأن الله جلَّ وعلا من لوازم الربوبية أنه يهدي من يشاء ويضل من يشاء ومن يستحق الضلال، فمنهم من هدى الله برحمته ومنهم من حقت عليه الضلالة.

فإذاً الإيمان بالقدر إيمان بالربوبية، والإيمان بالربوبية معه الأسماء والصفات، فلابد حتى تُكتب عند ربك مؤمناً أن تؤمن بالإلهية، والإيمان بالإلهية هو امتثال الشرع. فأنت بين دائرتين:

- دائرة قدر وهذه سماوية فوق وأنت لا تراها ولا تعلمها، هي فقط في قلبك اعتقاداً، ولذلك محّص الله الناس بما في قلوبهم من عقيدة، فهذا سماوي فوق.

- وتحت عند الأرض الإيمان بالإلهية. ولذلك العلماء قالوا عن توحيد الإلهية من ضمن التعريفات: هو توحيد الله بأفعال العباد؛ توحيد الله بعبادات العباد، فأنت الآن في الدائرة الأولى قد آمنت بالغيب، الثاني الشرع.

عين القدر الآن "ربوبية"، والشرع الأمر والنهي والزواجر والروادع الثواب والعقاب المترتب على الأعمال "إلهية". فأنت لا يستقيم إيمانك حتى تؤمن بالرب أنه رب، وتؤمن بالإله أنه إله واحد يُصرف له العبادات، فإذاً ضابط المسألة في القدر قد آمنت بالقدر وعليك بالامتثال بالشرع.

وعندنا طائفتان: طائفة غالوا في إثبات القدر فعطلوا الشرع وهؤلاء أضل الطوائف، وطائفة غالوا في النزول إلى الأرض والنظر للأوامر والنواهي فقط فعطلوا القدر فضلوا أيضاً وأضلوا. فالأولون اتهموا الله بالظلم واتهموا الله بعدم الحكمة، كأنه يُدخل هذا الجنة بلا حكمة ويُدخل هذا النار بلا حكمة. والوسط ينظرون للنظر الصحيح، يقولون الله

يُدخل هذا الجنة لأنه كان صالحاً ويُدخل هذا النار لأنه كان طالحاً، هذه من الحكمة، وأن الله جل في علاه عليم حكيم يضع الشيء في موضعه.

فمن قال بأن الله جلَّ وعلا سيدخل هذا النار وهذا الجنة بدون عمل وبدون صلاح وطلاح فالله ظالم، وهذا قول الجبرية الذين نظروا فقط إلى السماء، أخذوا بالربوبية ولم يأخذوا بالإلهية.

أمّا الآخرون فأخذوا بالإلهية، قالوا نعمل ولابد أن نجد ونجتهد، من طلب شيئاً وجده، من طلب العلا سهر الليالي، ولا يدخل الجنة أحد إلّا جزاء بما كانوا يعملون. لكن هؤلاء قالوا لا دخل للقدر في هذه المسألة، الله لا يهدي من يشاء ولا يضل من يشاء، فكذبوا هذه الآيات وجعلوا الناس خالقين مع الله جلَّ في علاه

والوسط أن تقول أنا أنظر بعينين: العين الأولى مع القدر والعين الثانية مع الشرع، فأنا أؤمن بأن الله قادر على كل شيء وأن الله خلقني وخلق فيّ إرادة وخلق فيّ مشيئة، وأن الله إذا وفقني وفقت وإذا سددني سددت وإن لم يفعل ذلك لا يمكن من التوفيق ولا التسديد يكون لي، ومع ذلك أنا عندما يأتيني الأمر (يا أيها الذين آمنوا)، أقول سمعت وأطعت؛ فأنا عند الشرع أمتثل وأقول سمعت وأطعت عبادةً للإلهية، وعند القدر الغيبيات أقول آمنت بالله جلَّ في علاه.

فإذاً القدر الإيمان به كما قال بعض الصحابة الأفاضل: (والله ما ازددت اجتهاداً إلّا بعد ما تعلمت القدر)، لأنه علم أنه بالإيمان القلبي مع العمل بالجوارح بإيمان الالهية يزداد قرباً من الله جلَّ في علاه. ويفسّر ذلك أن النبي -صلى الله عليه وسلم- أمر بذلك قال: (اعملوا فكل ميسر لما خلق له)، وفي الحديث الآخر قال: (احرص على ما ينفعك) بالسعي، ﴿فَٱسْعَوْاْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [الجمعة: ٩]، قال: (احرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجز) إلى آخر الحديث؛ (احرص) يعني اعمل، لابد من الأخذ بالأسباب. والصحابة لمّا قالوا بأننا ما ازددنا اجتهاداً إلّا بعد الإيمان بالقدر، لأنهم علموا أن النبي -

صلى الله عليه وسلم- قال: (اعملوا فكلٌ ميسر لما خلق له، ثم قرأ قول الله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ۝٧﴾ [الليل: ٥-٧].

فمن وجد نفسه يقيم الليل، فمن وجد نفسه لا ينشغل إلّا بالقرآن، لا ينشغل إلّا بالحديث، لا ينشغل إلّا بالصدقة. إن نظرت فيه فوجدته يتصدق، إن نظرت في أوقاته يجلس بمجالس العلم، إن نظرت في ليله يقيم الليل، إن نظرت في نهاره يصوم النهار، فهذا يستبشر خيراً بعاجل البشرى من الله جلَّ في علاه بهذا الحديث (اعملوا فكلٌ). فأنت كأنك يسر الله لك عمل الصالحين، فأنت من الصالحين هذه بشارة؛ فالصحابة لّما وجدوا أنفسهم في حيز الصالحين من قيام وصيام وجهاد وصدقة قالوا هذا الذي يسر الله لنا، (فكلٌ ميسر لما خلق له). ولذلك جاءت ترجمة حقيقية لهذا الكلام أن عمر بن الخطاب في حديث يرفعه للنبي -صلى الله عليه وسلم-: (إن الله عز وجلّ إذا خلق العبد للجنة استعمله بعمل أهل الجنة حتى يموت على عمل من أعمال أهل الجنة فيدخله به الجنة، وإذا خلق العبد للنار استعمله بعمل أهل النار حتى يموت على عمل من أعمال أهل النار فيدخله النار).

(فكلٌ ميسر لما خلق له)؛ لذلك يستبشر خيراً من وفق وسدد للخير أن يستمر فيه ويزيد، يقول إذاً أنا يسر لي هذه الطاعة فلا بد أن أكون من أهل الطاعة، ولعل الله يؤمِّل خيراً يختم الله له بعمل أهل الطاعة. والدلالة على ذلك أيضاً فعل النبي -صلى الله عليه وسلم- كيف كان ينظر بالعينين؟ النبي -صلى الله عليه وسلم- عندما ييسر الله له طاعة يتشبث بها ما يتركها قط، ولذلك يحزن وحسرة قلب وألم يتبتر البدن بسبب ضياع طاعة لا ترجع للمرء مرة ثانية كأنه ليس من أهلها. انظر هذا فعل النبي -صلى الله عليه وسلم- تطبيقاً للقدر والشرع، إذا يسر عليه طاعة مسك فيها، أخذ بها بتلابيبها وما تركها قط بحال من الأحوال وما ضيعها، وهذا الدلالة جاءت من حديث عائشة -رضي الله عنها وأرضاها- قالت: (كان عمل النبي -صلى الله عليه وسلم- ديمة وكان يقول: إن أحب

الأعمال إلى الله أدومه وإن قل). ولذلك عمر بن الخطاب -رضي الله عنه وأرضاه- فقه هذه المسألة وقال: (من بورك له في عمل فليعض عليه بالنواجذ)، لا يضيع منه لعله من أهله فاستعمله الله لهذا العمل فسيختم عليه بهذا العمل. ولذلك النبي -صلى الله عليه وسلم- لمّا ضاعت منه سنة الظهر ما تركها ذهب فقضاها بعد العصر، فلمّا قضاها قال هذا باب خير، فوقف عليه فصلاها إلى الممات، يعني كان يصلي سنة الظهر في وقتها ويصلي بعد العصر وثبت على ذلك إلى الممات، لأن النبي -صلى الله عليه وسلم- كما قلت لكم ينظر بالعينين، فكأن الله إذا يسر له طاعة أخذ بها، إلّا -بالنسبة لكم أنتم- إذا جاءت المناهج الشرعية.

(كلٌ ميسر لما خلق له)؛ فلينظر المرء في نفسه فإن وجد نفسه قد استعمله الله لدينه ولنصرة دينه ولنشر دعوته فليعلم وليستبشر خيراً، كأن الله خلقه لذلك وسييسر عليه ذلك، فليبتهل ليل نهار وليعض بالنواجذ على ما هو عليه. ومن وجد نفسه يعوج في كل طريق، يسير تارة في طريق الله وتارة في طريق الشيطان، فليخشى على نفسه وليحاول قدر إمكانه أن يرجع ويبكي كما بكى عمر ويطوف ويقول: (اللهم إن كنت قد كتبتني في بطن أمي شقياً فامحها واكتبني عندك سعيداً)، ﴿يَمْحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ ۖ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ ﴿٣٩﴾﴾ [الرعد: ٣٩].

فهذا معنى قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (فكلٌ ميسر لما خلق له)، ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ﴿٦﴾ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٧﴾﴾ [الليل: ٥-٧]. فهنيئاً وبشرى ثم بشرى لمن وفر الله له الأوقات ووفر الله له المجالس أنه في طاعة الله، قائماً في طاعة الله، نائماً في طاعة الله، يحتسب القومة والنومة، لا يخلو قلبه من ذكر الله جلَّ في علاه ولا لسانه، وأفعاله كلها يحتسب فيها عند الله جلَّ في علاه، فكأن الله بيّن له قد خلقتك لذلك فاثبت على ما أنت عليه. (فكلٌ ميسر لما خلق له)، ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ﴿٦﴾ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ ﴿٩﴾ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ ﴿١٠﴾﴾ [الليل: ٥ – ١٠].

إذا بيّنا أن هذا هو القدر وكلّ ميسر لما خلق له؛ يأتي رجل يقول أنا صليت السنة سنة كاملة، أصلي سنة الظهر، وفي بعض الأيام ما صليت وما استطعت أن أصلي وبقيت على ذلك شهر، كأن الله لم يخلقني لذلك؟ أقول: لا أنت جاهل بأبواب القدر، إن كان الله جلَّ وعلا ثبت لك هذه المسألة فعليك أن تأخذ بالسبب وتأخذ بالتيسير وتدافع هذا القدر الآخر، القدر المضاد الله يختبرك فيه. الله جلَّ وعلا يغلق عليك باب الطاعة بعض الشيء حتى تعلم فضل هذه الطاعة وقيمة هذه الطاعة، قربك من الله جلَّ في علا، رفعتك عند الله جلَّ في علاه. فإذا أغلق عليك بعض الطاعة، قل هذا القدر وجب عليّ أن أدفعه، لا ترضى به، لأن الله قد بيّن لي أنه يسر لي الطاعة، فلمّا يفتح علي باب المعصية لابد أن أغلقه. كيف تغلقه؟ دفع الأقدار بالأقدار، إذا وقعت المعصية عليك دفعها بالتوبة والأوبة ولا ترضى بها واسلك سبيل الصالحين واترك سبيل الطالحين، هذه هو دفع الأقدار بالأقدار؛ فإذا وقعت في زنا العين أو اللسان أو الغيبة أو النميمة عليك بالرجوع والتوبة والأوبة، وقل أدفع القدر بالقدر وأبقى مع القدر الأول إحساناً للظن بالله جلَّ في علاه، فكلٌ ميسر لما خلق له.

الفوائد المستنبطة:

١- فضل أولي العزم من الرسل وفضل الرسول -صلى الله عليه وسلم- عليهم، هذا يؤخذ من قول الله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ﴾ [الأحزاب: ٧]؛ هذه الآية فيها فضائل ثلاثة: أولاً فضل النبيين، ثم فضل أولي العزم على النبيين، ثم فضل النبي على النبيين.

♦ أولاً فضل النبيين عامة؛ قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمْ﴾ [الأحزاب: ٧]، هذه فيها دلالة على فضل هؤلاء لأن الله اختصهم من دون البشر بأن أخذ عليهم الميثاق، بشارة ونذارة للبشر.

♦ ثم خصص بعد العموم، وعلماؤنا أهل الأصول يقولون: ذكر الخاص بعد العام

يفيد التبجيل والتأكيد والتخصيص. فقال الله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمْ﴾ [الأحزاب: ٧]، "النبيين" عامة، ألف ولام للعموم، ثم قال: ﴿وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ﴾ وذكر خمسة، والخمسة هؤلاء هم أولوا العزم. فذكر هؤلاء الخمسة بعد النبيين، وذكر الخاص بعد العام يدل على الفضيلة، فضل أولو العزم أنه خصهم بالذكر بعد ما عمم كل الأنبياء، أتى بتخصيص الذكر في النبيين.

♦ فضل نبينا على أولي العزم من الرسل، أولي العزم كم؟ خمسة: نوح وإبراهيم وموسى وعيسى أربعة ومحمد -صلى الله عليه وسلم-، أين الدلالة على فضل محمد على أولي العزم من الرسل في هذه الآية؟ هو تقديم ذكر النبي -صلى الله عليه وسلم- يدل على فضل النبي -صلى الله عليه وسلم-، والأمر الثاني أن بعض العلماء يرى أن الواو العاطفة ترتيبية، والشافعي يقول بأن الواو ترتيبية. لكن الإشكال هنا هل نوح أفضل من إبراهيم؟ هناك خلاف بين العلماء مع أن الراجح هو إبراهيم أفضل، لكن نحن عندنا حتى نسلم من المعارضة قدّم ذكر النبي لفضل النبي على أولي العزم من الرسل، فتقديم ذكر النبي -صلى الله عليه وسلم- يبين أن النبي -صلى الله عليه وسلم- أفضل من أولي العزم من الرسل. وهذه اللفتة الأخرى في الآية قال: (مِنْكَ)، ثم رجع إلى الالتفات بأن جمعهم معه فأفرده بالذكر، دلالة على تكريم مكانة نبينا -صلى الله عليه وسلم- وأنه بعثه آخر الأنبياء وقدّمه في الذكر في الآية.

٢- الرد على من يزعم أن الله خلق الخلق من أجل الرسول، ناس كثير يقولون بذلك بأن الله خلق الخلق من أجل الرسول، قال لآدم: (ما خلقتك إلّا لأجله). كلام باطل مبتور هالك، قد خلق الله الخلق لحكمة عظيمة، قال: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦﴾ [الذاريات: ٥٦]، ما قال للرسول، بل خلق محمداً للعبادة وخلق آدم للعبادة والدليل على ذلك أنه قال: (كتبت نبياً وآدم بين الروح والجسد).

٣- صفة التردد لله جلَّ في علاه، وهذه صفة فعل؛ ما الفرق بين صفة الفعل وصفة

الذات والصفة الخبرية؟

▪ الصفات الذاتية: هي الصفات التي يتصف الله بها أولاً وآخراً، أزلية أبدية لا تنفك عن الله جلَّ في علاه، كالعزة ﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الصافات: ١٨٠].

▪ الصفات الخبرية: صفة الوجه، صفة اليدين، هي خبرية لأننا لا يمكن أن نصف الله بها إلّا بالخبر، بالسمع فقط.

▪ الصفات الفعلية: هي الصفة التي تتعلق بمشيئة الله، إن شاء فعل وإن شاء لم يفعل. صفة التردد صفة فعل، صفة جلال وكمال لله جلَّ في علاه، ولا تنتاب الدهشة أحداً فإن هذه الصفة لله جلَّ في علاه غير صفة التردد للبشر، البشر يترددون بين أمرين يجهل أي الأمرين خير، وتراه يذهب لسين وصاد ونون وعين حتى يعلم أيهما خير لأنه يجهل، أمّا الله جلَّ في علاه يعلم الأمرين ومفاد الأمرين. أمّا تردد الله جلَّ في علاه قد فسرها الحديث قال: (يكره الموت وأكره)، تردد الله جلَّ في علاه لعظم قدر المؤمن وشرف المؤمن عند الله، يتردد الله في إساءته بقبض روحه لأنه يسيئه الموت، فلذلك قال: (يكره الموت وأكره إساءته). هذه دلالة واضحة جلية كيف أن المؤمن الموحد قريب من الله جلَّ في علاه، كيف أنه عظيم القدر عند الله جل في علاه.

لا غرو ولا عجب؛ إن النبي -صلى الله عليه وسلم- مر على خيله أو على بعيره فنظر إلى الكعبة قال: (قد عظّمك الله وشرفك) أنتِ عظيمة عند الله، (وعظمة المؤمن عند الله أعظم منك)، لكِ واحدة وله ثلاثة؛ أنتِ معظمة فقط لأجل الطواف وغير ذلك، أمّا المؤمن معظم عند الله جلَّ في علاه في دمه وماله وأن يُظنَّ به ظنَّ السَّوء، فبيّن النبي -صلى الله عليه وسلم- كيف عظم قدر المؤمن عند الله جلَّ في علاه. ولذلك صح عن نبينا -صلى الله عليه وسلم- أنه قال: (لو أن أهل السماء وأهل الأرض اشتركوا في دم مؤمن لأكبهم الله في النار)، لعظم قدر المؤمن.

فانظروا لعظم قدر المؤمن عند الله يتردد أن يقبض روح المؤمن، هذه فيها دلالة أيضاً

على أن وجود المؤمن في الدنيا نفع عظيم لأنه يسير ليلاً ونهاراً يوحّد الله جلَّ في علاه، الحجر والشجر معه يسبحون، إذا لبى يلبي الحجر معه والشجر، إذا سار يسبح سبح الحصى معه، إذا قام يسجد ذلاً لله الأرض ساجدة ذلاً لله جلَّ في علاه، ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء: ٤٤].

٤- فضل التفاؤل؛ هذه من ديننا، الخير كل الخير أن تتفاءل؛ أن تذهب إلى تجارة فتسمع رجل يقول يا رابح يقول الحمد لله بإذن الله سأربح في هذه التجارة، يمشي يتلمس هو يذهب للاختبار فيسمع رجل يقول النجاح فيقول بإذن الله سأنجح، أن الله يعطيني البشارات هذا التفاؤل حسن ظن بالله جلَّ في علاه، لكن من أين هذه الفائدة؟ قال: (أنا زيد الخيل، قال: لا، أنت زيد الخير)، غيّره للتفاؤل هو يقول الخيل، قال لا الأفضل من ذلك الخير. ولو تركها في مكانها لقلنا فيها الفأل أيضاً؛ (الخيل معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة)، لكن هذا توضيحاً لكل العامة، أنت زيد الخير كما سمّي طلحة "طلحة الخير"، فهذا فيها فضيلة التفاؤل. لمّا جاء رجل لعمر بن الخطاب قال له: ما اسمك؟ قال: جمرة بن شعلة بن نار، فقال: اذهب فقد احترق بيتك؛ يعني هو اسمه مسلسل بالاحتراق فقال: ارجع فقد احترق بيتك، ذهب وجد بيته قد احترق. فهو من السنة إذا وجد رجل اسمه لا ينبئ بفأل يغيره، من السنة أن يغيره إلى ما يتفاءل به حتى لا يصل التشاؤم على أحد بسبب اسمه.

٥- الإيمان بالقدر يحمل المرء على اليقين والطمأنينة، فلا يذل لأحد ويبقى قلبه معلق يتعلق بمن فوق العرش. من أين نأخذ هذا؟ قال: (وإن الرزق يسعى خلف المرء كالأجل)، هذا الحديث من أفضل ما تقول في باب القدر، الرزق يسعى خلفك كما أن الموت يسعى خلفك. فهذا يوزع في قلب الإنسان الطمأنينة فلا يذل لأحد ويعلم أن رزقه بيد الرب الجليل، كما قال الله تعالى: ﴿وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ۝٢٢﴾ [الذاريات: ٢٢]. ولذلك كان كثير من العلماء يقولون في باب الرزق: لو آمن المرء حق الإيمان بالقدر ما خشي على رزقه من شيء، لأن الرزق بيد الله جلَّ في علاه وقد كُتب وقُسّم كالآجال التي

قُسمت، هل الأجل ممكن يحيد عن أحد؟ لا والله، فالرزق لا يحيد عن أحد، ولذلك قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (نفث في روعي الروح الأمين أنه لن تموت نفس حتى تستوفي رزقها وأجلها، فاتقوا الله وأجملوا الطلب).

يتفاوت الناس بعدما علموا هذا الحديث، وكل إنسان يعلم أن ﴿وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزۡقُكُمۡ وَمَا تُوعَدُونَ ٢٢﴾ [الذاريات: ٢٢]، بعض الناس يخشى على رزقه وبعض الناس أراه فوقه في اليقين، أقول هذا من أدب التعامل مع الله؛ أمّا الأول فكان ضعيف اليقين في الله جلَّ في علاه، وأمّا الآخر فكان قوي اليقين في الله جلَّ في علاه. وسبب مهالك الناس هو ضعف يقينهم في الله جلَّ في علاه وسوء الأدب مع الله جلَّ في علاه واختبار الله، الناس يختبرون ربهم وربك ليس بمحل اختبار، إذا اختبرت ربك ضعت وضيعت، أمّا إذا استيقنت في ربك جلَّ في علاه وعاملت ربك باليقين كان الله أسرع لك بالخير مما تتصور، فإن الله جلَّ في علاه من تصرف بحوله وقوته ألان له الحديد.

٦- على المرء إذا بورك له في أمر من الطاعات فليستبشر خيراً أولاً، وليحمد الله وليعض على ذلك بالنواجذ، كما قال عمر: (من بورك له في عمل فليعض عليه بالنواجذ)، لِمَ؟ (كلٌ ميسر لما خلق له)؛ كأنه يستبشر خيراً إن وجد نفسه في الطاعات، إذا وجد نفسه ينتظر الصلاة بعد الصلاة، إذا وجد نفسه يسعى في الخيرات للناس، يشفع شفاعة حسنة، يتصدق على هذا، يسلم على هذا، يُعلّم هذا، فليعض على ذلك بالنواجذ فقد استعمله الله في الخير، (إذا أحب الله عبداً عسله، قالوا: وما عسله يا رسول الله؟ قال: استعمله في الخير ثم ختم عليه بعمل الخير فدخل الجنة).

٧- حسن خلق النبي -صلى الله عليه وسلم-؛ عندما جاء الرجل يسأل النبي -صلى الله عليه وسلم- عن علامات من هيأه الله جلَّ في علاه دلالة على أن الله إذا أراد شيئاً هيأ له أسبابه، قال له النبي -صلى الله عليه وسلم- بحسن خلق يتألفه ويتلطف به ويقربه منه: ما اسمك؟ أنت لو دخلت على وزير أو أمير وأنت تدخل لك حاجة، فانظر إذا جاءك

الأمير وتقرب منك فقال: ما اسمك؟ كأنك تعني عنده شيئاً، تقترب منه، وهذا يملأ قلبك فرحة وسروراً بل ورفعة. انظر إلى رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، فإن رسول الله لّما دخل عليه الرجل ليسأل قال -صلى الله عليه وسلم- تلطفاً وتقرباً له: (ما اسمك؟ فقال: زيد الخيل)، فتقرب أكثر وألطف وأجود وأعذب قال له: (لا، أنت زيد الخير)، يعني أنت تأتي بالخير وفيك الخير فأنت زيد الخير.

٨- عند الجهل بالمسائل لابد من الرجوع إلى أهل العلم، وهذه أيضاً تؤخذ من الرجل الذي أراد أن يتعلم، كأن القدر في رأسه فقال كيف أن الله جلَّ وعلا إذا أراد بعبد خيراً ماذا يفعل به؟ فذهب إلى أهل العلم، ذهب إلى رسول الله فبيّن له رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أنه إذا أراد الله بعبد خيراً هيأ له أسباب الخيرات..

١-الراوي: عبدالله بن حنظلة | المحدث: الألباني | المصدر: صحيح الترغيب | الصفحة أو الرقم : ١٨٥٥ | خلاصة حكم المحدث : صحيح | التخريج : أخرجه أحمد (٢٢٠٠٧)، والبزار (٣٣٨١) واللفظ لهما، وابن أبي عاصم في ((الآحاد والمثاني)) (٢٧٥٩) باختلاف يسير.

٢-الراوي: ثوبان مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم | المحدث: الألباني | المصدر: صحيح ابن ماجه | الصفحة أو الرقم: ٧٣ | خلاصة حكم المحدث: حسن

.....

وختاماً

نسأل الله تبارك وتعالى ان ينفع بهذا الكتاب العظيم الأمة الاسلامية وان يجعل النفع به في المشارق والمغارب،

باب العقيدة باب عظيم وخاصة ان تعلم معنى القدر بين الاستسلام ومن يفهم القدر فهما خاطأ وقد بيّنا ذلك ولله الحمد والمنة

وهذا بإذن الله في الطبعة القادمه من الجزء الثاني من شرح هذا الكتاب الماتع، كتاب السنة لابن ابي عاصم، وسيكون منوطَهُ حول ذم اهل الاهواء وابطال البدعة واهلها..

جزى الله شيخنا الاستاذ الدكتور محمد حسن عبدالغفار خير الجزاء وأفضله واجمله على ما يقدمه للامة الاسلامية من شروحات ماتعه ودروس قيّمه.

•• ونُنوّه على ان الشيخ الدكتور محمد حسن عبدالغفار حفظه الله له شروحات كثيره وطُبع منها الكثير وبعون الله سيكون كل ما شرحه شيخنا بين يديكم قريبا بإذن الله.

قد تم ذكر ما تم شرحه في ترجمته حفظه الله.

منها لمعة الاعتقاد للامام الحافظ بن قدامة المقدسي وقد طُبع ولله الحمد.

كما تم شرح المهذب وطُبع منه كتاب الطهارة والصلاة والصيام والحج.

ونختم بخاتمة المسك الذي فاح عطره وانتشر ذكره بين العالمين.

كتاب صحيح البخاري، فلقد شرحه شيخنا المُبجّل الدكتور محمد حسن عبدالغفار حفظه الله شرحا ماتعاً مميّزاً.

وبفضل الله وقوته وحوله ومدده وعطائه الكتاب بشرحه الماتع تحت الطباعة الان.

نسأل الله ان يجزي شيخنا خير الجزاء وأفضله واجمله وان ينفع بعلمه في جنبات الارض..

وختاماً سيكون بين يديكم قريبا بإذن الله كتاب قطوف العواصم شرح السنة لأبن ابي عاصم الجزء الثاني منه، وهو يتكلم عن ذم الهوى وابطال البدعة واهلها

مَا الفَخْرُ إلا لأَهلِ العِلمِ إنَّهُمُ.. على الهُدَى لِمَن اسْتَهْدَى أَدِلاَّءُ وقَدْرُ كُلِّ امرِئٍ مَا كان يُحْسِنُهُ.. والجَاهِلُون لأَهلِ العِلمِ اعداءُ

الفهرس

الإهداء ..... ERROR! BOOKMARK NOT DEFINED.

مقدمة الكتاب ٥

ترجمة الشيخ ٨

ترجمة فضيلة الشيخ الدكتور: محمد حسن عبد الغفار ٨

[١] مولده: ٨

[٢] طلبه للعلم: ٨

[٣] حاصل على: ٩

[٤] أساتذته ومشايخه -رحم الله ميتهم، وحفظ حيهم-: ١٠

[٥] الإجازات العامة: ١٠

[٦] إجازة المشايخ عامة: ١١

[٧] مصنفاته، وتحقيقاته، وتخريجاته: ١١

[٨] ثناء العلماء عليه: ١٢

[٩] الكتب المشروحة: ١٣

تَرَاجِمُ، وَفَضَائِلُ، وَآدَابٌ، وَرَقَائِقُ: ١٧

اللُّغَةُ: ١٨

الْحَدِيثُ: ١٨

أُصُولُ وَقَوَاعِدُ الْفِقْهِ: ٢٠

فِقْهُ الْكُتُبِ وَالْمُتُونِ الْفِقْهِيَّةِ: ٢٢

[الْمَذْهَبُ الشَّافِعِيِّ] ٢٣

[الْمَذْهَبُ الْحَنْبَلِيُّ] ٢٤

[الْمَذْهَبُ الْمَالِكِيِّ] ٢٤

[الْفِقْهُ الْمُقَارَنُ] ٢٤

بَرَامِجُ الْمُرْئِيَّاتِ: ٢٤

فِقْهُ الْمُنَاسَبَاتِ وَالسَّلَاسِلُ الْفِقْهِيَّةُ: ٢٦
أَحَادِيثُ الْأَحْكَامِ: ٢٧
[جَامِعُ شُرُوحَاتِ كُتُبِ السُّنَّةِ]: ٢٧
التَّفْسِيرُ وَعُلُومُهُ: ٢٨
قَائِمَةُ الدَّوْرَاتِ الْعِلْمِيَّةِ: ٢٩
الدُّرُوسِ الْمُسْتَمِرَّةِ: ٢٩
□[قِسْمُ الْحَدِيثِ]..... ٢٩
[قِسْمُ الْفِقْهِ]..... ٣٠
[قِسْمُ أُصُولُ الْفِقْهِ] ٣٠
[قِسْمُ الْعَقِيدَةِ] ٣١
[قِسْمُ مُحَاضَرَاتِ الْجَامِعَةِ]..... ٣٢
[قِسْمُ حَلَقَاتِ الْمُرْئِيَّاتِ (تلفزيون)]: ٣٢
[قِسْمُ تَرَاجِمُ، وَفَضَائِلُ، وَآدَابٌ، وَرَقَائِقُ]: ٣٢
[قِسْمُ التَّفْسِيرِ وَعُلُومِهِ]: ٣٢
[قِسْمُ فَتَاوَىٰ ابْنِ عَبْدِ الْغَفَّارِ]: ٣٣
[قِسْمُ الدَّوْرَاتِ الْعِلْمِيَّةِ]: ٣٣
[جَامِعُ شُرُوحَاتِ كُتُبِ السُّنَّةِ]: ٣٣
قطوف العواصم شرح السنة ٣٧
لابن أبي عاصم ٣٧
افتتاح الكتاب ٣٧
أهمية كتاب السنة لأبن ابي عاصم، وترجمته رحمه الله ٣٧
باب الكلام عن الايمان بالقدر خيره وشره وذم الهوى ٣٧
ترجمةً عن المؤلف -رحمه الله- ٤٠
أولاً: صحة الحديث إسناداً ومتناً: ٤٨

النقطة الثانية: أصول الفرقة: ٤٩
أصول الفرق الذين اختلفوا في هذه المسائل المهمة ستة: ٤٩
اللطائف الإسنادية في هذا الحديث: ٥٧
مقدمة في باب القدر ٥٩
باب ذكر قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (عليكم هدياً قاصداً) ٥٩
باب ذكر القلم أنه أول ما خلق الله تعالى وما جرى به القلم ٦٠
عليكم هدياً قاصداً ٦٦
الفوائد المستنبطة: ٨٥
باب ذكر القلم ٨٨
باب ذكر القلم أنه أول ما خلق الله تعالى وما جرى به القلم ٨٨
الفوائد المستنبطة: ٩٨
باب ما يطبع المؤمن عليه ١٠٣
باب ذكر الرضا بالقدر ١١٨
باب ذكر احتجاج موسى وآدم عليهما السلام ١٣٥
أقول أربع احتمالات فيهم ضعف وفيهم قوة؟ ١٤١
حالات الاحتجاج بالقدر حالتان: ١٤٤
الفوائد المستنبطة: ١٤٨
إنما تعملون في أمر قد فرغ منه ١٥٥
الفوائد المستنبطة: ١٦٩
باب الطبع والجبل والخير ١٧٥
الفوائد المستنبطة: ١٨٤
باب ذكر أخذ ربنا الميثاق من عباده ١٨٩
باب ذكر أخذ ربنا الميثاق من عباده ١٩٠
الفوائد المستنبطة: ٢٠٤

الطير تجري بقدر ٢٠٨
ما حكم الطيرة؟ أقول الطيرة لها أحوال: ٢١٣
التوجيه ثلاث توجيهات: ٢١٤
العلاقة بين الطيرة وبين الفأل الحسن: هما في دائرة واحدة يتفقان ويفترقان: ٢١٦
باب قول النبي -صلى الله عليه وسلم- ٢١٩
(لا عدوى)، وقوله: (من أعدى الأول) ٢١٩
الأحاديث التي جعلت العلماء يسألون هذا السؤال: ٢٢٢
الفوائد المستنبطة: ٢٢٨
مراجعة على ما سبق حول مفهوم الايمان بالقدر ٢٣٠
باب قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (سألت ربي ثلاثاً) ٢٤٦
الفوائد المستنبطة: ٢٦١
باب (كل يوم هو في شأن) ٢٦٦
الفوائد المستنبطة: ٢٨٢
(وآخرون منهم لما يلحقوا بهم وهو العزيز الحكيم) ٢٨٥
باب في ذكر قوله عليه السلام: (العين تسبق القدر) ٢٨٥
إن النذر لا يقرّب شيئاً لابن آدم ٣٠٣
باب في قوله -عليه السلام-: (إن النذر لا يقرّب شيئاً لابن آدم): ٣٠٣
الفوائد المستنبطة: ٣١٣
باب قوله صلِّ الله عليه وسلّم (احفظ الله يحفظك) ٣١٥
تتمة الكلام في القدر ٣٣٩
باب نهي النبي -صلى الله عليه وسلم- عن مجالسة أهل القدر ٣٤٠
باب في قوله: (اتقوا القدر فإنه شعبة من النصرانية) ٣٤١
باب من قال القدرية في المنسأ تحت قدم الرحمن ٣٤١
باب (إذا كان يوم القيامة نادى منادٍ: ليقم خصماء الله تعالى) ٣٤٢

باب (سبعة لعنتهم) ٣٤٢
باب (صنفان من أمتي ليس لهم في الإسلام سهم) ٣٤٢
خلق الله أفعال العباد؛ الدليل العام والخاص بالأثر والنظر: ٣٤٨
(باب في العزل وما أراد الله كونه كوّنه) ٣٥٦
– باب الدعاء من سوء القدر وغيره ٣٥٦
باب في العزل وما أراد الله كونه كوّنه ٣٥٧
فيها فوائد مستنبطة: ٣٦١
باب الدعاء من سوء القدر وغيره ٣٦٤
الفوائد المستنبطة: ٣٧٧
(فألهمها فجورها وتقواها) ..... **Error! Bookmark not defined.**
باب في قوله –عليه السلام–: (فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا) ٣٧٩
الفوائد المستنبطة: ٣٩٣
(باب ما ذكر من النبي في المكذبين بقدر الله) ٣٩٥
أقوال أهل العلم في القدرية: ٤٠٣
(اعملوا فكلٌ ميسر لما خلق له) ٤٠٧
الفوائد المستنبطة: ٤٢١
وختاماً ٤٢٧
الفهرس ٤٣٠

مُقدّمة الجزء الثاني

في ذم الهوى

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، الرحمن الرحيم ، مالك يوم الدين ، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين ، نبينا محمد ، عبد الله ورسوله ، وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين .

أما بعد..

لا يخفى على كل ذي لب ما للهوى من مفسدات على قلب المرء ودينه، لذا تضافرت النصوص الشرعية والآثار السلفية في ذمه والتحذير من اتباعه.

ومن ذلك ما قاله الله في حق نبيه محمد صلى الله عليه وسلم: " ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ " [الجاثية: 18] وقال: " وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ " [البقرة: 145] وقال تعالى: " قُلْ لَا أَتَّبِعُ أَهْوَاءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ " [الأنعام: 56].

ولقد خاطب الله عباده المؤمنين وحذرهم من اتباع الهوى، فقال: " فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَى أَنْ تَعْدِلُوا " [النساء: 135]، وأخبر جل في علاه أنه لا أحد أضل ممن يتبع هواه بغير هدى ولا علم كما قال – تعالى – " وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنَ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ " [القصص: 50] وقال تعالى: " وَإِنَّ كَثِيرًا لَيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ " [الأنعام: 119]، وكل ذلك تحذيرًا وتشنيعًا للهوى وأهله.

والحق أنّ المتأمل في أحوال أهل الأهواء وما أوصلهم إليه – اتباعهم لأهوائهم – من مهلكات طامات ليعلم علم اليقين كلام الصادق المصدوق: «ثلاث منجيات: خشية الله تعالى في السر والعلانية، والعدل في الرضا

والغضب، والقصد في الفقر والغنى، وثلاث مهلكات: هوى متبع، وشح مطاع، وإعجاب المرء بنفسه» (الحديث حسنه المحدث الألبانى انظر صحيح الجامع الصغير).

ولأجل ذلك فقد جعل رسول الله صلى الله عليه وسلم مجاهدة الرجل لهواه أفضل الجهاد فقال: «أفضل الجهاد أن يجاهد الرجل نفسه
وهواه» (الحديث صححه المحدث الألباني انظر صحيح الجامع الصغير).

ولقد كان السلف – رحمهم الله – يحذرون من الهوى واتباعه، ورهبوا من مجالسة أهله وأصحابه، ومن ذلك ما ذكر عن علي بن أبي طالب – رضي الله عنه – قال: «إن أخوف ما أخاف عليكم اثنتان: طول الأمل واتباع الهوى، فأما طول الأمل فينسي الآخرة، وأما اتباع الهوى فيصد عن الحق» (رواه الإمام أحمد في الزهد).

ولما قال رجل لابن عباس – رضي الله عنهما -: «الحمد لله الذي جعل هوانا على هواكم» قال ابن عباس: «الهوى كله ضلالة» (رواه ابن بطة في الإبانة).

وقال ابن عباس – أيضًا -: «لا تجالسوا أصحاب الهوى فإنهم يمرضون القلوب» (رواه ابن بطة في الإبانة).

وعن الحسن أنه كان يقول: «اتهموا أهواءكم ورأيكم على دين الله وانتصحوا كتاب الله على أنفسكم»(رواه ابن بطة في الإبانة).

وقال أبو قلابة: «لا تجالسوا أهل الأهواء ولا تجادلوهم فإني لا آمن أن يغمسوكم في ضلالتهم، أو يلبسوا عليكم ما كنتم تعرفون» (رواه الدارمى، وابن بطة في الإبانة).

ولقد كان علماؤنا من السلف يولون هذا الباب أهمية عظيمة في التصنيف والتأليف، نصيحة لله ورسوله، وتحذيرا للأمة من مضلات تودي بها إلى الهاوية وتمكن منها سيوف أعدائها.

ومن هذه التصانيف المفيدة، والتي هي من أعظم كتب السلف نفعا في هذا المضمار "السنة لابن أبي عاصم"، فلقد أفرد به المصنف أبوابا للتحذير من الهوى، وساق في ذلك الآثار العظيمة التي توجب اتباع السنن والآثار، وتحذر من مخالفة الهدى باتباع سبل الهوى والضلال، فكان كتابه نافعا، وتصنيفه بليغا، وآثاره نورا لمن اهتدى وحجة على من هوى.

ولقد منّ الله عليّ بشرح جل كتب السلف في الاعتقاد، ومنها هذا الكتاب العظيم المبارك، فبيّنت -إن شاء الله- منهج الحق وأهله، وأوضحت المعاني وسُقت الفوائد، وحاولت أن يكون الشرح -بالرغم من ثقل وزن الكتاب وأبوابه- حاولت أن أقدمه بطريقة سلسة مؤصلة تنفع المنتهي، وتأخذ بيد المبتدي، وترشد الضال، وتهدي الحائر، وتقيم الحجة وتقوم الاعوجاج، وما توفيقي في ما أصبت إلا بالله، فعليه توكلي، وإليه مئابي، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

كتبه: د.محمد حسن عبد الغفار -حفظه الله –

ترجمة فضيلة الشيخ الدكتور: محمد حسن عبد الغفار

---

[١] مولده:

ولد بالإسكندرية في ٢٩ من ربيع أول سنة ١٣٨٦ هجرية الموافق ١٧ يوليو ١٩٦٦ م

[٢] طلبه للعلم:

بدأت شرارة طلبه للعلم عندما ذهب مع صديق له إلى مكتبة لشراء الكتب، فهنالك تلاحا شخصان في صحة حديث، ثم تعالت الأصوات، فأوزع الله في قلبه أن يطلب العلم حتى يهدم هذا التنازع بالعلم، فثَمَّ بدأت الرحلة؛ حيث طلّق الدنيا طلاقًا باتًّا، ثم اشتعلت عزائمه في تحضيل العلم، فكان يدور مع كل مشايخ في اليوم الواحد -ولا يترك أحدا-، وكل ذلك والله يدبر له ترتيب مواعيد المشايخ، وكل مكان يبعد عن الآخر كيلوات من الأمتار، فرزقه الله قوة يدور بها على المشايخ سائرا على قدميه.

من سماته أنه كان لا يلتفت كثيرا بل لا ينظر سوى لرب العالمين باكيا متضرعا أن يعلمه الله، فقد كان ينعزل عن البشر يحاول أن يجاهد قلبه ألا يلتفت إلا لله وحده -سبحانه-، فيحضر المجالس فإذا انتهى المجلس يخرج في هدوء، وفي مرة كان العالم النبيل الدكتور: محمد إسماعيل المقدم -حفظه الله- يقود سيارته، فوجده يسير على جنبات الطريق، فقال له: (اركب). فركب في صمت تام، وانتبه أن شيخه يقرأ في كتاب الله -الذي كان لا يتركه-، فصمت؛ كي لا يشغله عن كتاب الله، فلما وصلوا إلى مكان الدرس، نزل وشكر الشيخ ثم ذهب.

كان طلاب العالم النبيل يكتظون حوله سائلين فكان يبتعد -مع إنه يريد أن يسأل- ولا يلتف بل يجلس متأدبا، فأتى الله له بالعالم النبيل حيث ناداه قائلا: (هل عندك أسئلة؟).

كان ارتباطه بربه ارتباطا يعجب منه كل من رآه، فما رآه أحدا إلا وفهم معنى الصدق مع الله، فإذا امتحنهم المشايخ يذهب كي يحل الامتحان ثم يذهب دون كتابة اسمه، فإذا نادى الشيخ متسائلا عن صاحب الورقة -ليشكره على مجهوده-، فيصمت.

وكان منعزلا عن الناس، ولكنهم كانوا يحبون الجلوس معه؛ حيث يفهمون مسألة، أو يمزحون مخففين على أنفسهم.

كان أكبر إخوته، وبعد موت الأب والأم رحمهما الله صار هو ولي الأمر لإخوته، فترك ذلك يدبرها الله، متوكلا على ربه: أنه ترك الدنيا كلها ثم أقبل على الله بكلية قلبه لا يريد أن يلتفت عن الله، فكان لله كما يريد، فجعل الله له فوق ما يريد؛ حيث كان لا يترك الكتاب، بل دائما بيده يقرأه حاملا حقيبته حيثما ذهب. ومن العجائب أنه كان يذهب إلى المدرسة بالقميص الأبيض القصير والقلنسوة، فلما رآه المدير وبخه، فما كان منه إلا أن أوقفه عند حده بقوة، فأراد المدير أن يعزله عن عمله، فرد عليه بقوة قائلا: (أنت لا تملك، بل خزائن السموات والأرض بيد الله، فاصنع ما تريد)، ثم تركه وذهب ناظرا إلى السماء، فما هو إلا وقت يسير حتى جاءته ورقة يعتذر له المدير، ويسأله الدعاء. وذات مرة قال له فضيلة الشيخ: أحمد السيسي - حفظه الله-: تخصص، فمستحيل أن تستوعب كل شيء. فقال له: الممكن والصعب والمستحيل عند الله شيء واحد. ففتح فضيلة الشيخ أحمد السيسي له مكتبة المسجد خاصة له. ثم سافر إلى الإمارات مع إنه كان يريد أن يذهب إلى طلب العلم في السعودية، ولكن جعل الله له الخير في علماء الإمارات، بل وأتى له بعلماء من مصر كالمحدث أبي إسحاق الحويني - حفظه الله- وغيرهم.

[٣] حاصل على:

- بكالوريوس علوم وتربية (جامعة الإسكندرية).

- بكالوريوس في الشريعة.

- ماجستير في الشريعة.

- عمل مدرس للعلوم الشرعية منذ سنة ١٩٩٨ م.

- حاصل على شهادة الدكتوراة في الشريعة الإسلامية بتقدير عام مرتبة الشرف الأولى، وعنوان الرسالة: (الليث بن سعد وأثره في الفقه الإسلامي).

- حاصل على شهادة الدكتوراة في الشريعة، وعنوان الرسالة: (مراسيل الحسن البصري عن عائشة).

- يدرس في الجامعة الإسلامية (مينيسوتا) وارتقى فيها إلى (بروفيسور).

[٤] أساتذته ومشايخه -رحم الله ميتهم، وحفظ حيهم-:

١- فضيلة الشيخ الدكتور/ محمد إسماعيل.

٢- فضيلة الشيخ الدكتور/ ياسر برهامي.

٣- فضيلة الشيخ الدكتور/ احمد فريد.

٤- فضيلة الشيخ/ أبو إسحاق الحويني.

٥- فضيلة الدكتور/ مسفر بن غرم الله الدمينى.

٦- فضيلة الشيخ الدكتور/ عبد الله الزايدى.

٧- فضيلة الشيخ الدكتور/ عبد القيوم شفيع.

٨- فضيلة الشيخ/ محمود عطية.

٩- فضيلة الشيخ الدكتور/ محفوظ الرحمن.

١٠- فضيلة الشيخ/ القاضي حسين المهلاوي.

١١- حضر مجالس لفضيلة العالم ابن عثيمين.

[٥] الإجازات العامة:

- القرآن بإسناد لحفص.

- إجازة في مصطلح الحديث كتاب (إرشاد طلاب الحقائق).

- إجازة في مسند البزار.

- إجازة في الكتب الستة.

- إجازة في كتاب نخبة الفكر.

[٦] إجازة المشايخ عامة:

- فضيلة الشيخ الدكتور: محمد إسماعيل المقدم.
- فضيلة الشيخ: محمود عطية.

[٧] مصنفاته، وتحقيقاته، وتخريجاته:

- أشراط الساعة منتقي من كتاب ابن كثير (تصنيف).
- جامع باب العلم وفضله لابن البر (تخريج).
- كتب في التوحيد (تخريج).
- السترة وبيانات أحكامها.
- رسالة لكل امرأة.
- تيسير أحكام الحيض.
- مسائل في البيوع مهمة تهم الأمة.
- تيسير فقه الطلاق.
-التبصرة بالاعتقادات الباطلة.
- فقه المعاملات من سورة البقرة (رسالة ماجستير).
- مراسيل الحسن البصري عن عائشة (رسالة دكتوراه في الحديث).
- الليث بن سعد وأثره في الفقه الإسلامي (رسالة دكتوراه في الفقه).

[٨] ثناء العلماء عليه:

(١) المحدث أبو إسحاق الحويني:

١- سيصير شأنه في الأمة كبيرا إن لم يصبه الغرور.

٢- إنما هي شمس تغرب، وشمس تشرق، وقد أشرقت شمسك، فاغتنمها.

(٢) فضيلة العالم النبيل محمد إسماعيل المقدم:

إنه الشيخ الموسوعي، إذا تكلم في علم ظننت أنه لا يتقن غيره.

(٣) فضيلة العالم عبد المحسن العباد البدر لما علم بانتهائه من شرح كتاب المهذب قال:

هذا عندي أوثق أهل مصر.

(٤) فضيلة للشيخ صالح العصيمي لما علم بمحاربة أهل البدع له، فأبلغه السلام ثم قال:

اصبر؛ فإن الطريق هكذا، والحرب على السنة وأهلها قائمة.

(٥) دكتور بدران العياري -أستاذ الحديث وعلومه بجامعة الأزهر-:

ما أراه إلا ابن تيمية العصر.

(٦) الدكتور محمد الزحيلي -عميد كلية الشريعة والدراسات الإسلامية بجامعة الشارقة-:

إن من نوادر الفقهاء في هذا الزمان الدكتور محمد حسن عبد الغفار.

(٧) فضيلة الشيخ مشهور بن حسن آل سلمان:
أنت نادر الوجود في أيامنا، اثبت، وثبّت مَن حولك.

[٩] الكتب المشروحة:

الْعَقِيدَةُ:

---

[١] مَتْنُ لُمْعَةِ الْاعْتِقَادِ || ابْنُ قُدَامَةَ الْمَقْدِسِيُّ.

[٢] مَتْنُ الْأُصُولِ السِّتَّةِ || مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الْوَهَّابِ.

[٣] مَتْنُ أُصُولِ السُّنَّةِ || أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ.

[٤] مَتْنُ أُصُولِ السُّنَّةِ || الْحُمَيْدِيُّ.

[٥] مَتْنُ صَرِيحِ السُّنَّةِ || الطَّبَرِيُّ.

[٦] مَتْنُ تَجْرِيدِ التَّوْحِيدِ الْمُفِيدِ || الْمَقْرِيزِيُّ.

[٧] الدُّرَرُ النَّضِيدُ || الشَّوْكَانِيُّ.

[٨] أَفْعَالُ الرَّسُولِ ﷺ || مُحَمَّدُ الْأَشْقَرُ.

[٩] الشِّرْكُ فِي الْقَدِيمِ وَالْحَدِيثِ || مُحَمَّدُ زَكَرِيَّا.

[١٠] كِتَابُ التَّوْحِيدِ || مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الْوَهَّابِ.

[١١] قَاعِدَةٌ عَظِيمَةٌ || ابْنُ تَيْمِيَةَ.

[١٢] الْقَصِيدَةُ اللَّامِيَّةُ || ابْنُ تَيْمِيَةَ.

[١٣] مَتْنُ عَقِيدَةِ الرَّازِيَيْنِ.

[١٤] مَعَارِجُ الْقَبُولِ || حَافِظُ الْحَكَمِيُّ.

[١٥] الْإِيمَانُ || ابْنُ مَنْدَه.

[١٦] اعْتِقَادُ أَئِمَّةِ أَهْلِ الْحَدِيثِ || الْإِسْمَاعِيلِيُّ.

[١٧] التَّوْحِيدُ || ابْنُ خُزَيْمَةَ.

[١٨] الْعَقِيدَةُ الْوَاسِطِيَّةُ || ابْنُ تَيْمِيَةَ.

[١٩] الْاعْتِقَادُ || ابْنُ أَبِي يَعْلَىٰ.

[٢٠] أُصُولُ الْاعْتِقَادِ || اللَّالَكَائِيُّ.

[٢١] شَرْحُ السُّنَّةِ [الشَّرْحُ الْأَوَّلُ] || الْمُزَنِيُّ.

[٢٢] شَرْحُ السُّنَّةِ [الشَّرْحُ الثَّانِي] || الْمُزَنِيُّ.

[٢٣] نَوَاقِضُ الْإِسْلَامِ [الثَّانِي] || مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الْوَهَّابِ.

[٢٤] الْأُصُولُ الْفَارِقَةُ [أَهْلُ السُّنَّةِ || الْأَشَاعِرَةِ].

[٢٥] الْأُصُولُ الْفَارِقَةُ [أَهْلُ السُّنَّةِ || الصُّوفِيَّةِ].

[٢٦] الْأُصُولُ الْفَارِقَةُ [أَهْلُ السُّنَّةِ || الشِّيعَةِ].

[٢٧] الْأُصُولُ الْفَارِقَةُ [أَهْلُ السُّنَّةِ || الْخَوَارِجِ].

[٢٨] الْأُصُولُ الْفَارِقَةُ [أَهْلُ السُّنَّةِ || الْمُعْتَزِلَةِ].

[٢٩] صِفَاتُ اللهِ وَآثَارُهَا فِي إِيمَانِ الْعَبْدِ.

[٣٠] الْفَتْوَى الْحَمَوِيَّةُ الْكُبْرَىٰ || ابْنُ تَيْمِيَةَ.

[٣١] مُخْتَصَرُ الصَّارِمِ الْمَسْلُولِ || ابْنُ اللَّحَّامِ.

[٣٢] الْإِبَانَةُ الْكُبْرَىٰ || ابْنُ بَطَّةَ.

[٣٣] السُّنَّةُ || ابْنُ أَبِي عَاصِمٍ.

[٣٤] الْعَقِيدَةُ السَّفَّارِينِيَّةُ || السَّفَّارِينِيُّ.

[٣٥] قَاعِدَةٌ جَلِيلَةٌ فِي التَّوَسُّلِ || ابْنُ تَيْمِيَةَ.

[٣٦] الرِّسَالَةُ التَّدْمُرِيَّةُ || ابْنُ تَيْمِيَةَ.

[٣٧] كَشْفُ الشُّبُهَاتِ || مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الْوَهَّابِ.

[٣٨] الشَّرِيعَةُ || الْآجُرِّيُّ.

[٣٩] عَقِيدَةُ السَّلَفِ || الصَّابُونِيُّ.

[٤٠] رِسَالَةُ ابْنِ أَبِي زَيْدٍ الْقَيْرَوَانِيِّ.

[٤١] الْمَنْظُومَةُ الْحَائِيَّةُ || ابْنُ أَبِي دَاوُدَ.

[٤٢] الرَّدُّ عَلَى كِتَابِ الْبَيَانِ الْقَوِيمِ || عَلِي جُمُعَة.

[٤٣] دَفْعُ إِيهَامِ التَّشْبِيهِ عَنْ أَحَادِيثِ الصِّفَاتِ.

[٤٤] مَسَائِلُ الْجَاهِلِيَّةِ || مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الْوَهَّابِ.

[٤٥] ضَوَابِطُ التَّكْفِيرِ عِنْدَ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ.

[٤٦] مُهِمَّاتٌ فِي الْقَضَاءِ وَالْقَدَرِ || سِلْسِلَةٌ.

[٤٧] فَصْلُ الْخِطَابِ فِي مَسْأَلَةِ الْعُذْرِ بِالْجَهْلِ.

[٤٨] الْقَوَاعِدُ الْمُثْلَىٰ || ابْنُ الْعُثَيْمِينَ.

[٤٩] دَلَائِلُ النُّبُوَّةِ || ابْنُ تَيْمِيَةَ.

[٥٠] رَدُّ تَقْسِيمِ الْبِدْعَةِ وَشُبُهَاتِ الْمُبْتَدِعَةِ.

[٥١] الْإِبَانَةِ الصُّغْرَىٰ || ابْنُ بَطَّةَ.

[٥٢] النُونِيَّةُ [الْكَافِيَةُ الشَّافِيَةُ] || ابْنُ الْقَيِّمِ.

[٥٣] شُعَبُ الْإِيمَانِ || الْبَيْهَقِيُّ.

[٥٤] أُصُولُ الْإِيمَانِ || مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الْوَهَّابِ.

[٥٥] الْعَقِيدَةُ الطَّحَاوِيَّةُ || الطَّحَاوِيُّ.

[٥٦] أُصُولُ السَّلَفِ وَأُصُولُ الْخَلَفِ || سِلْسِلَةٌ.

[٥٧] رِسَالَةُ الْعُبُودِيَّةِ || ابْنُ تَيْمِيَةَ.

[٥٨] شَرْحُ أَسْمَاءِ اللهِ الْحُسْنَىٰ || سِلْسِلَةٌ.

[٥٩] قَوَاعِدُ فِي الرَّدِّ عَلَى مَنْ يُكَفِّرُونَ النَّاسَ.

[٦٠] الْاحْتِجَاجُ بِالْقَدَرِ || ابْنُ تَيْمِيَةَ.

[٦١] كِتَابُ التَّوْحِيدِ || الْبُخَارِيُّ.

[٦٢] نَوَاقِضُ الْإِسْلَامِ [الْقَدِيمُ] || مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الْوَهَّابِ.

[٦٣] مُنَاظَرَةُ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ || صَالُونُ السُّكَّرِيِّ.

[٦٤] شَرْحُ أَسْمَاءِ اللهِ الْحُسْنَىٰ || جَامِعُ التِّرْمِذِيِّ.

[٦٥] ثَلَاثَةُ الْأُصُولِ وَأَدِلَّتُهَا || مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الْوَهَّابِ.

[٦٦] شُبُهَاتُ الْمُبْتَدِعَةِ || عَبْدُ اللَّهِ الْهُذَيْلِ.

[٦٧] مُخْتَصَرُ مِنْهَاجِ السُّنَّةِ || ابْنُ تَيْمِيَةَ.

[٦٨] دَرْءُ التَّعَارُضِ الْعَقْلِ وَالنَّقْلِ || ابْنُ تَيْمِيَةَ.

[٦٩] رَدُّ شُبُهَاتِ الصُّوفِيَّةِ الْقُبُورِيَّةِ.

[٧٠] نَحْنُ أَوْلَىٰ بِالشَّافِعِيِّ مِنْكُمْ.

[٧١] حَرْبُ بْنُ إِسْمَاعِيلَ الْكِرْمَانِيُّ.

[٧٢] اعْتِقَادُ الْإِمَامِ الْمُنَبَّلِ أَحْمَدَ بْنِ حَنْبَلٍ

[٧٣] تَطْهِيرُ الْاعْتِقَادِ عَنْ أَدْرَانِ الْإِلْحَادِ.

[٧٤] الْبِدْعَةُ وَالْمَصْلَحَةُ الْمُرْسَلَةُ.

[٧٥] الدِّفَاعُ عَنِ الْإِمَامِ أَبِي حَنِيفَةَ.

[٧٦] السُّنَّةُ || أَبُو بَكْرِ بْنِ الْخَلَّالِ.

[٧٧] شُبُهَاتِ الرَّوَافِضِ حَوْلَ عَائِشَةَ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا-

[٧٨] سُلَّمُ الْوُصُولِ || حَافِظُ الْحَكَمِيُّ.

[٧٨] الْعَقِيدَةُ الْإِسْلَامِيَّةُ.

[٧٩] ذَمُّ الكَلَامِ وَأَهْلِهِ || أَبُو إِسْمَاعِيلَ الْهَرَوِيُّ.

تَرَاجِمُ، وَفَضَائِلُ، وَآدَابٌ، وَرَقَائِقٌ:

(أ) آدَابٌ:

---

[١] حِلْيَةُ طَالِبِ الْعِلْمِ.

[٢] سُنَنُ الصَّالِحِينَ || الْبَاجِيُّ.

[٣] آدَابُ طَالِبِ الْحَدِيثِ.

[٤] الْأَدَبُ مَعَ الْعُلَمَاءِ || ابْنُ عَبْدِ الْغَفَّارِ.

[٥] آدَابُ طَالِبِ الْعِلْمِ || أكَادِيمِيَّةُ الرَّشِيدُ الْعَالَمِيَّةُ.

[٦] الْأَدَبُ الْمُفْرَدُ || الْبُخَارِيُّ - رَحِمَهُ اللَّهُ -.

(ب) رَقَائِقُ:

---

[١] رَقَائِقُ مِنْ كِتَابِ مَعَارِجِ الْقَبُولِ.

[٢] بَرْنَامَجُ: قُلُوبٌ أَثْمَرَتْ - النَّدَىٰ -.

[٣] بَرْنَامَجُ: فِقْهُ التَّعَامُلِ مَعَ اللهِ - الرَّحْمَةُ -.

[٤] الْمَعَانِي الْإِيمَانِيَّةُ || أكَادِيمِيَّةُ الرَّشِيدُ الْعَالَمِيَّةُ.

(ج) فَضَائِلُ:

---

[١] فَضَائِلُ الصَّحَابَةِ.

(د) تَرَاجِمُ:

_____

[١] تَرَاجِمُ فُقَهَاءِ الْمُحَدِّثِينَ.

[٢] مِنْ أَعْلَامِ السَّلَفِ.

[٣] بِيُوتُ النَّبِيِّ ﷺ - الْحَافِظُ -.

[٤] صِفَاتُ الْعَالِمِ الَّذِي يُرْجَعُ إِلَيْهِ فِي عُضَلِ الْمَسَائِلِ.

[٥] فَضْلَ عِلْمِ السَّلَفِ || ابْنُ رَجَبٍ الْحَنْبَلِيُّ.

اللُّغَةُ:

_____

[١] مَتْنُ الْآجُرُّومِيَّةِ || ابْنُ آجُرُّومِ.

[٢] كِتَابُ التَّطْبِيقِ النَّحْوِيِّ || عَبْدُهُ الرَّاجِحِيُّ.

[٣] الْفُرُوقُ الدَّلَالِيَّةُ || مُحَمَّدُ دَاوُد.

الْحَدِيثُ:

---

[١] مَتْنُ الْبَيْقُونِيَّةِ || الْبَيْقُونِيُّ.

[٢] الْمُوقِظَةُ || الذَّهَبِيُّ.

[٣] الْبَاعِثُ الْحَثِيثُ || ابْنُ كَثِيرٍ.

[٤] عُلُومُ الْحَدِيثِ || مُقَدِّمَةُ ابْنِ الصَّلَاحِ.

[٥] تَرَاجِمُ فُقَهَاءِ الْمُحَدِّثِينَ.

[٦] التَّدْلِيسُ فِي الْحَدِيثِ || مُسْفِرُ الدُّمِينِيُّ.

[٧] التَّطْبِيقَاتُ الْعَمَلِيَّةُ عَلَى أَسَانِيدِ مُسْلِمٍ.

[٨] الْعِلَلُ || الدَّارَقُطْنِيُّ.

[٩] التَّنْكِيلُ || الْمُعَلِّمِي الْيَمَانِيُّ.

[١٠] مَنْهَجُ ابْنِ حَزْمٍ فِي تَعْلِيلِ الْأَخْبَارِ.

[١١] لَفَتَاتٌ فِي عِلْمِ الْجَرْحِ وَالتَّعْدِيلِ.

[١٢] التَّأْصِيلُ فِي عِلْمِ الْجَرْحِ وَالتَّعْدِيلِ.

[١٣] ضَوَابِطُ نَقْدُ مُتُونِ السُّنَّةِ عِنْدَ الْنُّبَلَاءِ.

[١٤] مَنْهَجُ الْإِمَامِ أَحْمَدَ فِي التَّعْلِيلِ.

[١٥] مَعْنَى "إِذَا صَحَّ الحِدِيثُ فَهُوَ مَذْهَبِي".

[١٦] آدَابُ طَالِبِ الْحَدِيثِ.

[١٧] تَأْوِيلُ مُخْتَلَفِ الْحَدِيثِ || ابْنُ قُتَيْبَةَ.

[١٨] الرِّجَالُ الْمُتَكَلَّمُ فِيهِمْ وَرَوَى عَنْهُمُ الْبُخَارِيُّ.

[١٩] النَّظَرُ فِيمَا عَلَّقَ الشَّافِعِيُّ الْقَوْلَ بِهِ.

[٢٠] قَوَاعِدُ التَّحْدِيثِ مِنْ فُنُونِ مُصْطَلَحِ الْحَدِيثِ.

[٢١] الرَّدُّ عَلَى كِتَابِ التَّعْرِيفِ.

[٢٢] التَّطْبِيقُ الْعَمَلِيُّ لِكِتَابِ التَّعْرِيفِ بِأَوْهَامِ مَنْ قَسَّمَ السُّنَنِ إِلَى صَحِيحٍ وَضَعِيفٍ.

[٢٣] الْعِلَلُ || ابْنُ المَدِينِيِّ.

[٢٤] دِرَاسَةٌ تَطْبِيقِيَّةٌ فِي كُتُبِ الْعِلَلِ. [الْجَامِعَةِ]

[٢٥] الشَّمَائِلُ الْمُحَمَّدِيَّةُ || التِّرْمِذِيُّ.

[٢٦] رِوَايَةُ الْمُدَلِّسِينَ فِي الْبُخَارِيِّ.

[٢٧] التَّطْبِيقَاتُ الْعَمَلِيَّةُ عَلَى قَوَاعِدِ الْجَرْحِ وَالتَّعْدِيلِ.

[٢٨] نُزْهَةُ النَّظَرِ || ابْنُ حَجَرٍ الْعَسْقَلَانِيُّ.

[٢٩] أَصْحَابُ الْكُتُبِ الصِّحَاحِ فِي الْحَدِيثِ.

[٣٠] شَرْحُ عِلَلِ الْحَدِيثِ || ابْنُ رَجَبٍ الْحَنْبَلِيُّ.

[٣١] تَأْوِيلُ مُخْتَلَفِ الْحَدِيثِ.

[٣٢] مُتُونٌ وَأَسَانِيدُ.

[٣٣] الْمُخْتَلَفُ فِيهِمْ لِابْنِ شَاهِينَ.

[٣٤] مِيزَانُ الْاعْتِدَالِ فِي نَقْدِ الرِّجَالِ.

أُصُولُ وَقَوَاعِدُ الْفِقْهِ:

---

[١] تَسْهِيلُ التَّعْلِيقَاتِ عَلَى مَتْنِ الْوَرَقَاتِ.

[٢] مَتْنُ الْوَرَقَاتِ || الْجُوَيْنِيُّ [الشَّرْحُ الْمَوسَّعُ].

[٣] تَيْسِيرُ أُصُولِ الْفِقْهِ لِلْمُبْتَدِئِينَ.

[٤] أَثَرُ الْاخْتِلَافِ فِي الْقَوَاعِدِ الْأُصُولِيَّةِ || [الْجَامِعَةِ]

[٥] قَوَاعِدُ الْاتِّفَاقِ وَالْاخْتِلَافِ || [الْجَامِعَةِ]

[٦] أَدِلَّةُ الْقَوَاعِدِ الْأُصُولِيَّةِ مِنَ السُّنَّةِ النَّبَوِيَّةِ.

[٧] تَيْسِيرُ الْوُصُولِ || الْبَيْضَاوِيُّ.

[٨] قَوَاعِدُ الْأُصُولِ وَمَعَاقِدُ الْفُصُولِ.

[٩] رَفْعُ الْمَلَامِ عَنْ أَئِمَّةِ الْأَعْلَامِ || ابْنُ تَيْمِيَةَ.

[١٠] جَمْعُ الْجَوَامِعِ || السُّبْكِيُّ.

[١١] الْقَوَاعِدُ || الْعِزُّ ابْنِ عَبْدِ السَّلَامِ.

[١٢] التَّعَارُضُ وَالتَّرْجِيحُ || [الْجَامِعَةِ]

[١٣] الْقَوَاعِدُ الْأُصُولِيَّةُ وَأَثَرُهَا || [الْجَامِعَةِ]

[١٤] تَيْسِيرُ الْوُصُولِ إِلَى قَوَاعِدُ الْأُصُولِ || [الْجَامِعَةِ]

[١٥] التَّمِهِيدُ الْوَاضِحُ || مُصْطَفَىٰ مَخْدُوم.

[١٦] مَبَاحِثُ فِي الْعَامِ وَالْخَاصِ.

[١٧] قَاعِدَةٌ أُصُولِيَّةٌ بَيْنَ الْحَاظِرِ وَالْمُبِيحِ.

[١٨] سَدُّ الذَّرَائِعِ عِنْدِ ابْنِ تَيْمِيَةَ.

[١٩] إِرْشَادُ الْفُحُولِ || الشَّوْكَانِيُّ.

[٢٠] الْاجْتِهَادُ بَيْنَ مُسَوّغَاتِ الْانْقِطَاعِ
وَضَوَابِطِ الْاسْتِمْرَارِ.

[٢١] الرِّسَالَةُ || الشَّافِعِيُّ [الشَّرْحُ الْأَوَّلُ].

[٢٢] الرِّسَالَةُ || الشَّافِعِيُّ [الشَّرْحُ الثَّانِي].

[٢٣] الْقَوَاعِدُ الْفِقْهِيَّةُ || مُحَمَّدُ بَكْر إِسْمَاعِيل.

[٢٤] مَقَاصِدُ الشَّرِيعَةِ وَتَيْسِيرُ الْفَتْوَىٰ.

[٢٥] الْمُوَافَقَاتُ [مُتَوَقِّفٌ] || أَبُو إِسْحَاقَ الشَّاطِبِيُّ.

[٢٦] الْقَوَاطِعُ فِي أُصُولِ الْفِقْهِ || أَبُو الْمُظَفَّرِ السَّمْعَانِيُّ.

[٢٧] شَرْحُ أُصُولِ الْفِقْهِ || مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الْوَهَّابِ.

[٢٨] دِرَاسَاتٌ فِي الْتُرَاثَيْنِ الْفِقْهِيّ وَالْأُصُولِيّ.

[٢٩] مَنَاهِجُ الْاسْتِنْبَاطِ عِنْدَ الْفُقَهَاءِ.

[٣٠] الْقَوَاعِدُ وَالضَّوَابِطُ الْفِقْهِيَّةُ.

[٣١] الْقَوَاعِدُ الْفِقْهِيَّةُ.

[٣٢] مَقَاصِدُ الشَّرِيعَةِ.

[٣٣] الِاجْتِهَادُ وَالتَّقْلِيدُ.

[٢٤] قَوَاعِدُ فَتَاوَىٰ ابْنِ تَيْمِيَةَ.

فِقْهُ الْكُتُبِ وَالْمُتُونِ الْفِقْهِيَّةِ:

---

[١] قَانُونُ الْأَسْوَاقِ الْمَالِيَّةِ. [الْجَامِعَةِ]

[٢] الْقَضَاءُ وَالْفَتْوَى. [الْجَامِعَةِ]

[٣] الْانْفِرَادَاتُ وَالْاخْتِيَارَاتُ الْفِقْهِيَّةُ. [الْجَامِعَةِ]

[٤] فِقْهُ الْمُعَامَلَاتِ الْمَالِيَّةِ. [الْجَامِعَةِ]

[٥] نَظَرِيَّةُ الْعَقْدِ فِي الشَّرِيعَةِ وَالْقَانُونِ. [الْجَامِعَةِ]

[٦] مَعَايِيرُ الْاقْتِصَادِ الْإِسْلَامِيِّ.

[٧] الطُّرُقُ الْحُكْمِيَّةُ فِي السِّيَاسَةِ الشَّرْعِيَّةِ.

[٨] مَدْخَلٌ لِلْمُعَامَلَاتِ الْمَصْرِفِيَّةِ.

[٩] أَقْيِسَةُ الصَّحَابَةِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ.

[١٠] الْفُرُوقُ الْفِقْهِيَّةُ.(ج١) [الْجَامِعَةِ]

[١١] الْفُرُوقُ الْفِقْهِيَّةُ.(ج٢) [الْجَامِعَةِ]

[١٢] السِّيرَةُ النَّبَوِيَّةُ.

[١٣] تَخْرِيجُ الْفُرُوعِ عَلَى الْأُصُولِ. [الْجَامِعَةُ]

[١٤] تَخْرِيجُ الْفُرُوعِ عَلَى الْأُصُولِ. [الزَّنْجَانِيُّ]

[١٥] فِقْهُ الْمُعَامَلَاتِ فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ. [الْجَامِعَةُ].

[١٦] النَّظَرِيَّاتُ الْعَامَّةُ فِي الْفِقْهِ الْإِسْلَامِيِّ (شرحان).

[١٧] التَّمْوِيلُ وَالْمَصَارِفُ الْإِسْلَامِيَّةُ.

[١٨] الْعُقُودُ الشَّرْعِيَّةِ.

[الْمَذْهَبُ الشَّافِعِيّ]

[١٩] مَتْنُ أَبِي شُجَاعٍ (شرحان: الشَّرْحُ الْقَدِيمُ - الشَّرْحُ الْجَدِيدُ).

[٢٠] التَّنْبِيهُ || الشِّيرَازِيُّ.

[٢١] كَفَايَةُ الْأَخْيَارِ || [الْجَامِعَةِ]

[٢٢] مَتْنُ مِنْهَاجِ الطَّالِبِينَ.

[٢٣] أُصُولُ الشَّافِعِيَّةِ || [مُتَوَقِّفٌ]

[٢٤] الْمُقَدِّمَةُ الْحَضْرَمِيَّةُ || مَعْهَدُ السُّنَّةِ.

[الْمَذْهَبُ الْحَنْبَلِيُّ]

[٢٥] الْعُدَّةُ شَرْحُ الْعُمْدَةِ.

[الْمَذْهَبُ الْمَالِكِيّ]

[٢٦] أُصُولُ الْمَذْهَبِ الْمَالِكِيّ.

[الْفِقْهُ الْمُقَارَنُ]

[٢٧] الْإِفْصَاحُ عَنْ مَعَانِي الصِّحَاحِ.

[٢٨] الْمُهَذَّبُ فِي فِقْهِ الْإِمَامِ الشَّافِعِيّ.

[٢٩] الْمُغْنِي شَرْحُ مُخْتَصَرِ الْخِرَقِيّ.

[٣٠] بِدَايَةُ الْمُجْتَهِدِ وَنِهَايَةُ الْمُقْتَصِدِ.

[٣١] الْمَذَاهِبُ الْفِقْهِيَّةُ || مَعْهَدُ السُّنَّةِ.

[٣٢] أُصُولُ التَّشْرِيعِ.

[٣٣] مَوَاقِفُ النَّبِيِّ ﷺ مَعَ الصَّحَابَةِ.

بَرَامِجُ الْمَرْئِيّاتِ:

---

[١] فِقْهُ التَّعَامُلِ مَعَ اللهِ || الرَّحْمَةُ.

[٢] خَطَرُ الْانْحِرَافِ الْعَقَدِيّ || الصَّفَا.

[٣] الْوَفَاءُ || الْحِكْمَةُ.

[٤] عَقِيدَةُ الصَّحَابَةِ || الصَّفَا.

[٥] عَلَامَاتُ الْمَحَبَّةِ || النَّدَىٰ.

[٦] وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ || الرَّحْمَةُ.

[٧] هَذِهِ سَبِيلِي || النَّدَىٰ.

[٨] الْجِيلُ الْفَرِيدُ || النَّدَىٰ.

[٩] مَجْلِسُ الْفِقْهِ || النَّدَىٰ. [الْفِقْهُ الْمُيَسَّرُ]

[١٠] قُلُوبٌ أَثْمَرَتْ || النَّدَىٰ.

[١١] فِقْهُ الصِّيَامِ || السَّلَامُ.

[١٢] سِرُّ الْإِخَاءِ || السَّلَامُ.

[١٣] وَصَايَا حَجَّةِ الْوَدَاعِ || السَّلَامُ.

[١٤] عَقِيدَةُ السَّلَفِ نَجَاةٌ || الْمَحَبَّةُ.

[١٥] سَبِيلُ النَّجَاةِ || الرَّحْمَةُ.

[١٦] ستوديو صَفَا || الصَّفَا.

[١٧] بَيْتُ النُّبُوَّةِ || الْحَافِظُ.

[١٨] فَتَاوَىٰ السَّلَامِ || السَّلَامُ.

[١٩] حَجُّ النَّبِيِّ ﷺ || الرَّحْمَةُ.

[٢٠] اللَّيْثُ بْنُ سَعْدٍ || السَّلَامُ.

[٢١] فِقْهُ الْمَرْأَةِ || النَّدَىٰ.

[٢٢] أُمَّهَاتُ الْمُؤْمِنِينَ || مَوَدَّةٌ.

[٢٣] صَبَاحُ النَّدَىٰ || النَّدَىٰ.

[٢٤] السَّابِقُونَ الْأَوَّلُون || [النَّدَىٰ].

فِقْهُ الْمُنَاسَبَاتِ وَالسَّلَاسِلُ الْفِقْهِيَّةُ:

---

[١] تَسْهِيلُ أَحْكَامِ الْحَيْضِ لِلنِّسَاءِ.

[٢] أَحْكَامٌ انْفَرَدَتْ بِهَا النِّسَاءُ عَنِ الرِّجَالِ.

[٣] فَتَاوَى الْحَجِّ وَالْعُمْرَةِ.

[٤] فَتَاوَى النِّسَاءِ.

[٥] فَتَاوَى الصِّيَامِ.

[٦] فَتَاوَى الْأُضْحِيَةِ.

[٧] حَجُّ النَّبِيِّ ﷺ || الرَّحْمَةُ.

[٨] مُخَالَفَاتٌ تَقَعُ فِيهَا النِّسَاءُ.

[٩] فِقْهُ الْمَرْأَةِ فِي رَمَضَانَ.

[١٠] الْمُنْتَقَى مِنَ الْقَضَايَا الْفِقْهِيَّةِ الْمُعَاصِرَةِ.

[١١] الضَّرُورَةُ الشَّرْعِيَّةُ || [الْجَامِعَةُ].

[١٢] بَيْنَ الْأَلْبَانِيِّ وَالْفُقَهَاءِ.

[١٣] تَيْسِيرُ الْعَلَّامِ فِي أَحْكَامِ الصِّيَامِ.

[١٤] صِفَاتُ الْعَالِمِ الَّذِي يُرْجَعُ إِلَيْهِ فِي عُضَلِ الْمَسَائِلِ.

[١٥] مَنَاسِكُ الْحَجِّ || دُرُوسُ النِّسَاءِ.

[١٦] فِقْهُ الْبُيُوعِ || ابْنُ عَبْدِ الْغَفَّارِ.

[١٧] الْأَدِلَّةُ الْمَرْوِيَّةُ عَلَىٰ الْقَوَاعِدِ الْأُصُولِيَّةِ.

أَحَادِيثُ الْأَحْكَامِ:

---

[١] الْمُبْتَدِئُ:

- الْأَرْبَعُونَ فَي مَبَانِي الْإِسْلَامِ وَقَوَاعِدِ الْأَحْكَامِ || النَّوَوِيُّ.

[٢] الْمُتَوَسِّطُ:

- عُمْدَةُ الْأَحْكَامِ مِنْ كَلَامِ خَيْرِ الْأَنَامِ || ابْنُ قُدَامَةَ.

[٣] الْمُتَقَدِّمُ:

- بُلُوغُ الْمَرَامِ مِنْ أَدِلَّةِ الْأَحْكَامِ || ابْنُ حَجَرٍ. (شرحان)

[٤] الْمُتَوَسِّعُ:

- نَيْلُ الْأَوْطَارِ شَرْحُ مُنْتَقَىٰ الْأَخْبَارِ || الشَّوْكَانِيُّ.

[جَامِعُ شُرُوحَاتِ كُتُبِ السُّنَّةِ]:

- صَحِيحُ الْإِمَامِ الْبُخَارِيِّ - رَحِمَهُ اللَّهُ -.
- صَحِيحُ الْإِمَامِ مُسْلِمٍ – رَحِمَهُ اللَّهُ -.
- جَامِعُ الْإِمَامِ التِّرْمِذِيِّ - رَحِمَهُ اللَّهُ -.
- سُنَنُ الْإِمَامِ أَبِي دَاوُدَ - رَحِمَهُ اللَّهُ -.
- سُنَنُ الْإِمَامِ النَّسَائِيِّ - رَحِمَهُ اللَّهُ -.
- سُنَنُ الْإِمَامِ ابْنِ مَاجَه - رَحِمَهُ اللَّهُ -.
- مُوَطَّأُ الْإِمَامِ مَالِكٍ – رَحِمَهُ اللَّهُ -.
- مُسْنَدُ الْإِمَامِ أَحْمَدِ بنِ حَنْبَلٍ - رَحِمَهُ اللَّهُ -.
- مُصَنَّفُ الْإِمَامِ عَبْدِ الرَّزَّاقِ - رَحِمَهُ اللَّهُ -.

📖 سُنَنُ الدَّارِمِيُّ.

📖 مُسْنَدُ الْإِمَامِ الشَّافِعِيِّ - رَحِمَهُ اللَّهُ -.

التَّفْسِيرُ وَعُلُومُهُ:

---

[١] مُحَاضَرَاتٌ فِي عُلُومِ الْقُرْآنِ || [الشَّرْحُ الْأَوَّلُ]

[٢] مُحَاضَرَاتٌ فِي عُلُومِ الْقُرْآنِ || [الشَّرْحُ الثَّانِي]

[٣] مُحَاضَرَاتٌ فِي عُلُومِ الْقُرْآنِ || [الشَّرْحُ الثَّالِثُ]

[٤] مَبَاحِثٌ فِي عُلُومِ الْقُرْآنِ || مَنَّاعُ الْقَطَّانُ.

[٥] مَنَاهِجُ الْمُسْتَشْرِقِينَ || الْجَامِعَةِ.

[٦] الدَّخِيلُ فِي التَّفْسِيرِ || سِلْسِلَةٌ.

[٧] مُقَدِّمَةُ أُصُولِ التَّفْسِيرِ || ابْنُ تَيْمِيَةَ.

[٨] مُقَدِّمَةُ تَفْسِيرِ ابْنِ كَثِيرٍ || ابْنُ كَثِيرٍ.

[٩] تَفْسِيرُ آيَاتِ الْأَحْكَامِ || [التَّفْسِيرُ]

[١٠] مَشْرُوعُ تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ || تَفْسِيرُ الْقُرْآنِ.

[١١] دَفْعُ إِيهَامِ الْاضْطِّرَابِ عَنْ آيَاتِ الْكِتَابِ || الشِّنْقِيطِيُّ.

[١٢] الْفُرُوقُ الدَّلَالِيَّةُ || مُحَمَّدُ دَاوُد.

[١٣] آيَاتٌ أُشْكِلَتْ || ابْنُ تَيْمِيَةَ.

[١٤] أُصُولُ التَّفْسِيرِ || مَعْهَدُ الْهِدَايَةِ.

📄 قَائِمَةُ الدَّوْرَاتِ الْعِلْمِيَّةِ:

---

[١] الدَّوْرَةُ الْعِلْمِيَّةُ الْأُولَى.

[٢] الدَّوْرَةُ الْعِلْمِيَّةُ الثَّانِيَةُ.

[٣] الدَّوْرَةُ الْعِلْمِيَّةُ الثَّالِثَةُ.

[٤] الدَّوْرَةُ الْعِلْمِيَّةُ الرَّابِعَةُ.

[٥] الدَّوْرَةُ الْعِلْمِيَّةُ الْخَامِسَةُ.

[٦] الدَّوْرَةُ الْعِلْمِيَّةُ السَّادِسَةُ.

[٧] الدَّوْرَةُ الْعِلْمِيَّةُ السَّابِعَةُ.

[٨] الدَّوْرَةُ الْعِلْمِيَّةُ الْثَّامِنَةُ.

[٩] الدَّوْرَةُ الْعِلْمِيَّةُ الْتَّاسِعَةُ.

[١٠] الدَّوْرَةُ الْعِلْمِيَّةُ الْعَاشِرَةُ.

[١١] دَوْرَاتُ الْيَوْمِ الْوَاحِدِ.

الدُّرُوسِ الْمُسْتَمِرَّةِ:

📒 [قِسْمُ الْحَدِيثِ]

[١] بُلُوغُ الْمَرَامِ || ابْنُ حَجَرٍ الْعَسْقَلَانِيُّ.

[٢] الْمُصَنَّفُ || عَبْدُ الرَّزَّاقِ الصَّنْعَانِيُّ.

[٣] التَّمْهِيدُ لِابْنِ عَبْدِ الْبَرّ.

[٤] تَأْوِيلُ مُخْتَلَفِ الْحَدِيثِ.

[٥] مَجْمُوعُ الرَّسَائِلِ الحَدِيثِيَّةِ.

📖 [قِسْمُ الْفِقْهِ]

---

[٧] الْمُغْنِي || ابْنُ قُدَامَةَ.

[٨] الْإِفْصَاحُ || ابْنُ هُبَيْرَةَ.

[٩] بِدَايَةُ الْمُجْتَهِدِ || ابْنُ رُشْدٍ.

[١٠] مَتْنُ أَبِي شُجَاعٍ [الشَّرْحُ الثَّانِي] || ابْنُ عَبْدِ الْغَفَّارِ.

[١١] أُصُولُ الْحَنَفِيَّةِ || ابْنُ عَبْدِ الْغَفَّارِ.

[١٢] أُصُولُ الشَّافِعِيَّةِ || ابْنُ عَبْدِ الْغَفَّارِ [مُتَوَقِّفٌ]

[١٣] التَّنْبِيهُ.

[١٤] الْمُقَدِّمَةُ الْحَضْرَمِيَّةُ || مَعْهَدُ السُّنَّةِ.

[١٥] مَوَاقِفُ النَّبِيِّ ﷺ مَعَ الصَّحَابَةِ.

📖 [قِسْمُ أُصُولُ الْفِقْهِ]

---

[١٦] الْقَوَاعِدُ || ابْنُ عَبْدِ السَّلَام.

[١٧] الرِّسَالَةُ [الشَّرْحُ الثَّانِي] || الشَّافِعِيُّ.

[١٨] الْقَوَاطِعُ فِي أُصُولِ الْفِقْهِ || أَبُو الْمُظَفَّرِ السَّمْعَانِيُّ.

[١٩] الْمُوَافَقَاتُ || أَبُو إِسْحَاقَ الشَّاطِبِيُّ. [مُتَوَقِّفٌ]

[٢٠] قَوَاعِدٌ وَضَوَابِطٌ فِقْهِيَّةٌ.

[٢١] قَوَاعِدُ فَتَاوَىٰ ابْنِ تَيْمِيَةَ.

[٢٢] الِاجْتِهَادُ وَالتَّقْلِيدُ.

[٢٣] مَقَاصِدُ الشَّرِيعَةِ.

[٢٤] قَوَاعِدُ فَتَاوَىٰ ابْنِ تَيْمِيَةَ.

📖 [قِسْمُ الْعَقِيدَةِ]

---

[٢١] النُّونِيَّةُ || ابْنُ الْقَيِّمِ.

[٢٢] شُعَبُ الْإِيمَانِ || الْبَيْهَقِيُّ.

[٢٥] شُبُهَاتِ الْمُبْتَدِعُةُ || عَبْدُ اللَّهِ الْهُذَيْلِ.

[٢٦] ثَلَاثَةُ الْأُصُولِ وَأَدِلَّتُهَا || مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الْوَهَّابِ.

[٢٧] مُخْتَصَرُ مِنْهَاجِ السُّنَّةِ || ابْنُ تَيْمِيَةَ.

[٢٨] دَرْءُ تَعَارُضِ الْعَقْلِ وَالنَّقْلِ || ابْنُ تَيْمِيَةَ.

[٢٩] رَدُّ شُبُهَاتِ الصُّوفِيَّةِ الْقُبُورِيَّةِ.

[٣٠] نَحْنُ أَوْلَىٰ بِالشَّافِعِيِّ مِنْكُمْ.

[٣١] حَرْبُ بْنُ إِسْمَاعِيلَ الْكِرْمَانِيُّ.

[٣٢] اعْتِقَادُ الْإِمَامِ الْمُنَبَّلِ أَحْمَدَ بْنِ حَنْبَلٍ.

[٣٣] الْبِدْعَةُ وَالْمَصْلَحَةُ الْمُرْسَلَةُ.

[٣٤] الدِّفَاعُ عَنِ الْإِمَامِ أَبِي حَنِيفَةَ.

[٣٥] شُبُهَاتِ الرَّوَافِضِ حَوْلَ عَائِشَةَ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا-

[٣٦] سُلَّمُ الْوُصُولِ.

[٣٧] الْعَقِيدَةُ الْإِسْلَامِيَّةُ.

[٣٩] ذَمُّ الكَلَامِ وَأَهْلِهِ || أَبُو إِسْمَاعِيلَ الْهَرَوِيُّ.

📖 [قِسْمُ مُحَاضَرَاتِ الْجَامِعَةِ]

[٣٨] الْمُسْنَدُ || أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ.

[٣٩] مُتُونٌ وَأَسَانِيدُ.

📖 [قِسْمُ حَلَقَاتِ الْمَرْئِيَّاتِ (تلفزيون)]:

---

[٤٠] فَتَاوَىٰ السَّلَامِ || [السَّلَامُ].

[٤١] أُولُو الْعِلْمِ || [صَفَا].

[٤٢] ستوديو صَفَا || [صَفَا].

[٤٣] صَبَاحُ النَّدَىٰ || [النَّدَىٰ].

[٤٤] السَّابِقُونَ الْأَوَّلُون || [النَّدَىٰ].

📖 [قِسْمُ تَرَاجِمُ، وَفَضَائِلُ، وَآدَابٌ، وَرَقَائِقُ]:

---

[٤٥] آدَابُ طَالِبِ الْعِلْمِ || أَكَادِيمِيَّةُ الرَّشِيدُ الْعَالَمِيَّةُ.

📖 [قِسْمُ التَّفْسِيرِ وَعُلُومِهِ]:

[٤٦] آيَاتٌ أُشْكِلَتْ || ابْنُ تَيْمِيَةَ.

[٤٧] أُصُولُ التَّفْسِيرِ || مَعْهَدُ الْهِدَايَةِ.

📖 [قِسْمُ فَتَاوَىٰ ابْنِ عَبْدِ الْغَفَّارِ]:

[٤٨] فَتَاوَىٰ [طَرِيقُ التَّوْبَةِ].

[٤٩] فَتَاوَىٰ الصَّفْحَةِ الرَّسْمِيَّةِ.

📖 [قِسْمُ الدَّوْرَاتِ الْعِلْمِيَّةِ]:

[٥٠] دَوْرَةُ فِقْهِ الدَّلِيلِ. [مُتَوَقِّفُ]

[٥١] دَوْرَةُ بِنَاءِ الْمُعَلِّمَةِ الشَّرْعِيَّةِ.

📖 [جَامِعُ شُرُوحَاتِ كُتُبِ السُّنَّةِ]:

[٥٢] مُوَطَّأُ الْإِمَامِ مَالِكٍ.

[٥٣] سُنَنُ الدَّارِمِيُّ.

[٥٤] مُسْنَدُ الْإِمَامِ الشَّافِعِيِّ – رَحِمَهُ اللَّهُ -.

تم بحمد الله تعالى

باب: ذكر الأهواء المذمومة (1)

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهدِ الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله،

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ) [آل عمران:102]،

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا) [النساء:1]،

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا) [الأحزاب: 70-71]، أمّا بعد:

فإن أصدق الحديث كتاب الله، وأحسن الهدي هدي محمدٍ -صلى الله عليه وسلم-، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثةٍ بدعة، وكل بدعةٍ ضلالة، وكل ضلالة في النار، ثم أّما بعد إخوتي الكرام:

بفضلٍ من ربنا ونعمةٍ وكرمٍ نبتدئ ونستهل كتاباً مباركاً أيضاً في باب العقائد، التي لا بد للإنسان أن يعض عليها بالنواجذ، لأنه لا نجاة عند الله في الآخرة إلّا بالعقيدة السليمة السديدة، لأنك ستُسأل يوم القيامة أمام ربك عن هذه العقيدة هل هي عقيدة محمد -صلى الله عليه وسلم-؟ عقيدة صحابة محمد -صلى الله عليه وسلم- رضوان الله عليهم أم لا؟

وأمّا الذين تركوا العقائد أو قالوا ما لنا إلّا ربنا، نحن بنوايانا الطيبة وبما نعلم عن ربنا نقابل ربنا، هؤلاء وإن كان فيهم الخير فهم في ذيل القائمة، وإن الله جل في علاه يحب علو الهمة ويحب معالي الأمور.

هذا الكتاب من أجلّ الكتب في العقائد، جمع فيه كل شتات مسائل العقيدة: من الغيبيات وغير الغيبيات، والقدر، والإيمان بالأسماء وبالصفات، وتوحيد الإلهية. ما كان من شتات أمور التوحيد كله موجود هنا، والتمسك بالعقائد السديدة الصحيحة.

يبدأ ويستهل كتابه بأمرٍ جد خطير، ألا هو ذم الأهواء، والبدع، وأهل الآراء لا أهل الآثار، وهذا الذي نتكلم عنه اليوم إن شاء الله

•باب ذكر الاهواء المذمومة

قال المصنف -رحمه الله تعالى-: وعن معاوية بن أبي سفيان -رضي الله تعالى عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: (يكون أقوامٌ تتجارى بهم تلك الأهواء كما يتجارى الكلب بصاحبه، فلا يبقى منه مفصل إلّا دخله)(١)

الفوائد الحديثية في كل حديث سيكون بعد الحديث إن شاء الله، يعني بعد الحديث وبعد شرحه سنتكلم. كفانا الشيخ -رحمه الله-، جبل التحديث ومحدث الشام ومفخرة أهل الشام "الشيخ الألباني"، في كتاب التحقيق في ظلال الجنة على هذا الكتاب، يعني أكثر من نصف قد أنهانا وكفانا الشيخ بذلك. لكن سنتكلم حديثياً في المسائل المهمة التي فيها الخلاف وفيها النزاع؛ هل هذا حديث صحيح؟ أم هذا حديث ضعيف؟ مثل حديث: (افترقت الأمة على ثلاثة وسبعين فرقة). لأن هذا فيه حروب طاحنة سنبينها الآن، وكيف أن كثير من المتكلمين في هذه العصور ردوا الحديث وضعفوه تضعيفاً وتوهيناً إمّا إسناداً أو متناً.

وعن أبي عامرٍ الهوازني أنه حج مع معاوية بن أبي سفيان -رضي الله تعالى عنهما- فسمعه يقول: قام فينا رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يوماً فذكر: (إن أهل الكتاب قبلكم تفرّقوا على اثنتين وسبعين فرقة في الأهواء، ألا وأن هذه الأمة ستفترق على ثلاثٍ وسبعين فرقةً في الأهواء كلها في النار إلّا واحدة وهي الجماعة، ألا وأنه يخرج في أمتي قومٌ يهوون هوى، يتجارى بهم ذلك الهوى كما يتجار الكلب بصاحبه، فلا يدع منه عرقاً ولا مفصلاً إلّا دخله)(٢)

وعن أبي أمامه -رضي الله تعالى عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: (ما تحت ظل السماء إلهٌ يعبد من دون الله أعظم عند الله من هوىً متبع).

كل شيءٍ سوى الكتاب والسنة والأثر وفعل الصحابة فهو هوى، الهوى خطرٌ عظيم، داءٌ عضال مفسدة ليس بعدها مفسدة، دحض مزلة. الأهواء لعبت بكثير من الناس، بل بأكثر الناس، بل بأغلب الناس، وأودت بهم إلى الردى والهلاك. هذه الأهواء التي عظّموها وقدّموها على كتاب ربهم وعلى سنة نبيهم -صلى الله عليه وسلم-. الهوى إلهٌ يعبد من دون الله، هذا قول ابن عباس حبر الأمة، قال: الهوى إلهٌ يعبد من دون الله. من الآلهة التي تعبد من دون الله، صنم يعبد من دون الله جلَّ في علاه، ونعوذ بالله من هذه الأوثان ومن هذه الشركيات. قال: الهوى إلهٌ يعبد من دون الله؛ قال الله تعالى: (أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا) [الفرقان:43]، الله جلَّ وعلا يصرّح أنه أخذ الهوى إلهاً.

والهوى -كما قلت- دحض مزلة، والهوى يضلك عن سبيل الله. الهوى وكتاب الله وسنة النبي طريقان مفترقان متضادان لا يجتمعان بحال من الأحوال، أناط الله الضلال بالهوى، وأناط الهدى بالكتاب والسنة؛ قال الله تعالى: (دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ)، النتيجة: (فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ) [ص:26]، أناط الضلال في اتباع الهوى. والله جلَّ في علاه بين أن أكثر من ضل في هذه الأراضي هو باتباع الهوى.

الهوى أكثر أهله أصحاب الكلام، الذين تركوا السنن والآثار وأخذوا بالآراء والأهواء هم أهل الهوى. قال فيهم الشافعي كما ورد عنه بسندٍ صحيح: حكمي في أهل الكلام أن يضربوا بالجريد والنعال ويطاف عليهم في المدائن فيقال: هذا جزاء من ترك الكتاب والسنة واتبع الهوى. وقال أيضاً الإمام مالك: أهل الهوى هم قوم سوء لا يسلّم عليهم. وقال الشافعي: لو لقي العبد ربه بجميع الآثام والمعاصي خلا الشرك (إلّا الهوى) رجوت له الخير؛ إن قابل الله بزنا وشرب خمر وسرقة ولو زنا بمحارم، خلا الشرك ما عدا الهوى فإن الهوى يتردى صاحبه. ولذلك قال الشافعي أيضاً:

ما ارتدى عبدٌ علم الكلام إلّا أنه قد خاب وما أفلح، وقال أيضاً الإمام مالك: هم قوم سوء لابد من أن يهجرهم المرء ولا يسلّم عليهم.

أهل الهوى -كما قلت- لا بد أن يحاربوا دين الله جلَّ في علاه، ولا بد أن يحاربوا كتاب الله وسنة النبي. تجرأ صاحب الهوى على كتاب الله فيمزقه في قلبه، ثم يمزقه عياناً أمام الناس.

انظروا وتعجبوا لما يفعل أهل الهوى عندما يعارضوا بالسنن والآثار؛ هذا الجهمي الخبيث يقرأ قول الله تعالى: (وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا) [النساء:164]، وهذه آية صريحة في الكتاب، تقرأ كيف؟ بالرفع (اللَّهُ)، الله المتكلم، الله الفاعل.

يأتي هذا الجهمي الخبيث فيأخذ في الكتاب ويقول: وَكَلَّمَ اللَّهَ مُوسَى تَكْلِيمًا؛ لأنه ممكن يؤولها ويقول موسى فاعل، فالفاعل مرفوع الضمة المقدرة، ما العلة؟ هناك علتان تقدر فيها بعلامات الرفع: واحدة الثقل وواحدة التعذر. هذه تعذر، حرف العلة الأخير الألف يكون معه التعذر، الصحيح أن الضمة أصالةً مقدرة للتعذر. فهو يقول للذي لا يعلم أمامه: وَكَلَّمَ اللَّهَ مُوسَى تَكْلِيمًا.

لكن كان السني الأثري كان فقيهاً عالماً فقال: دعنا من الشبهات والخلاف، وهذا أصل ما فعله إبراهيم -عليه السلام- عندما ناظر النمرود وقال: (رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ) [البقرة:258]؛ سأميت هذا وآمر بقتل هذا وأحيي هذا. كأن إبراهيم يقول دعنا من الشبهات وسآتيك بأمر أسطع من شمس النهار، (قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ) [البقرة:258].

نفس الأمر السني قال لهذا الجهمي الخبيث: قد قال الله تعالى: (وَلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ) [الأعراف:143]. فما استطاع إلى ذلك سبيلاً فأخذ الآية وقال: أردت أن أحكها من المصحف، أراد أن يقطعها ويمزقها من المصحف تعظيماً لهواه، وكان أحرى به أن يقول أرجع إلى الحق، ولأن أكون ذنباً في الحق خيرٌ لي من أن أكون رأساً في الباطل، لكنه أراد أن يحك المصحف للهوى والتعصب للهوى والمذهبية.

وكثير من الناس حدّث ولا حرج، الذين قدموا الأهواء والآراء على الآثار وعلى السنن فعلوا ذلك.

هذا الكوثري الخبيث يعلم الله به كيف سب أبا هريرة علناً من أجل المذهب الحنفي، لأن أبا هريرة أحاديثٌ كثيرة هو أروى الناس عن النبي -صلى الله عليه وسلم-، روى أحاديث خالف فيها المذهب الحنفي، بيّن ضعف المذهب الحنفي بهذه الأحاديث، فجاء فقال: وهذا رجل ليس بفقيه ولا يعقل ما يروي -والعياذ بالله-. هذا الكلام صريح في أبي هريرة -رضي الله عنه وأرضاه-؟!! ما حمله على هذا إلّا الأهواء، إلّا الآراء، إلّا تعظيم المذاهب أو البشر دون تعظيم سنن النبي -صلى الله عليه وسلم-.

والآخر الذي يركب الموجة، يرى أن الناس الآن يتلسنون، ويرون أن النساء في مقام الرجال، والنساء يتقدمن على الرجال، والنساء سارعات في الخيرات، والنساء والنساء. فذهب بعدما ركب الموجة وقال: إن كانت الموجة في السنن نركب هذه الموجة وإن كانت في الآراء معهم. فلمّا استضافوه وتكلموا معه في حديث النبي -صلى الله عليه وسلم-: (ما رأيت من ناقصات عقلٍ ودين)، فسألته المرأة كأنها تكشر عن أنيابها: ناقصات عقل ودين؟ قال: لا، النساء لسن بناقصات عقل ودين، النبي -صلى الله عليه وسلم- كان يمزح مع النساء وهذا الدليل العلل هنا والفقه. أن الدليل على ذلك أن هذا كان يوم عيد، ويوم العيد النبي -صلى الله عليه وسلم- يوسّع على الرجال وعلى النساء، فأراد المزح مع النساء، فنزل ببلال وذهب إليهن يمازحهن. خبت وخاب كلامك إن كنت تعتقد هذا وترد على النبي -صلى الله عليه وسلم- حديثه بهذه الطريقة.

فقال كان النبي -صلى الله عليه وسلم- يذهب إلى النساء يمازحهن ويقول: (ما رأيت من ناقصات عقلٍ ودين)، وقال: وإلّا لو رأينا في عصورنا هذه كم تقدم النساء في مواطن ما استطاع الرجال أن يتقدموا أو يتخذوا إلى ذلك سبيلاً. قلنا له دعك من المتشابه رداً عليك بما فعل السني الفقيه، نقول لك: دعك من ناقصات عقلٍ ودين ودعك من مسألة المزاح، وخذ منا حديثاً واحداً عن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: (كمل من الرجال كثير، ولم يكمل من النساء إلّا أربع)، كيف تفعل بحديث النبي -صلى الله عليه وسلم-

هذا؟ هل تقول هذا مزح أيضاً؟ يمازح النبي -صلى الله عليه وسلم- النساء في هذه؟ لا والله، يقر القاعدة. والله جلَّ في علاه يقول: (وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ) [النساء:32]، هذه دلالة، لكن الأهواء كما قلت له تدفع بها السنن والآثار فيضيع الدين ويضمحل.

وكثير من أشباه هؤلاء أيضاً؛ لمّا سمعوا قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (إني رأيت أكثر أهل النار من النساء فتصدقن)، فقال الرجل أيضاً هذه كانت من الملاطفة البديعة من النبي -صلى الله عليه وسلم-. بل انظروا إلى الآراء وتقديم العقول على الأحاديث والآثار، قال: بل أكثر أهل الجنة هم النساء. كيف ذلك؟ قال: إن لكل رجلٍ في الجنة زوجتان من الحور العين، فمن الأكثر الرجال أم النساء؟ هذا يدل على أن النساء أكثر أهل الجنة ويضارب بذلك حديث النبي -صلى الله عليه وسلم-.

الغرض المقصود أهل الأهواء في ضياع، وأهل الأهواء ورب السماوات تسمع منهم الآهات والحسرات عند السكرات -كما سنبيّن-. فإن النبي -صلى الله عليه وسلم- في الحديث الأول صوّر لنا تصويراً بديعاً، وشبّه لنا تشبيها بليغاً، أوجز ما يكون تنفيراً من الأهواء والآراء وحضاً وتحضيضاً للأمة إلى اتباع الآفاق واقتفاء أثر أصحاب رسول الله -صلى الله عليه وسلم-. قال: صاحب الآراء وصاحب الأهواء مريض، وهذا المرض دب في كل جسده، وشبّه ذلك بمرض الكلب.

ومرض كلب: هو مرض يصيب الكلب -بإذن الله-، هذا المرض الذي يصيب الكلب يشبه الجنون للكلب، فإذا الكلب أحداً أصابه هذا المرض -بإذن الله-. وأنا أقيّد "بإذن الله" لِمَ؟ نرجّح "لا عدوى ولا طيرة". فلذلك قلنا إذا عض الكلب البشر أصابه المرض -بإذن الله-، فإذا أصابه المرض قال العلماء: يمتنع عن الطعام والشراب طواعيةً حتى يموت عطشاً.

انظروا كيف يصوّر النبي -صلى الله عليه وسلم- لنا أن الهوى إذا دخل القلب وأشربه القلب، ضخ القلب الأمر كله والدماء الأهواء هذه على كل العروق وعلى كل العظام وعلى كل المفاصل، ما ترك مفصلاً إلّا دخله هذا الداء العضال، ثم بعد ذلك أشربه القلب وتشبّع البدن به، أحبه، وبعدما

أحبه ناضل من أجله وناصر من أجله؛ أحب لهواه، وأبغض لهواه، وأعطى لهواه، ومنع لهواه، وناصر لهواه، وقاتل من أجل هذا الهوى ومن أجل هذه البدعة.

رحم الله الثوري ما أدق نظره، ما أفقه ما يقول وهو يقول: البدعة أحب إلى الشيطان من المعصية. لِمَ يا ثوري؟ فقال: إن المعصية (ولو كانت كبيرة: زنا شرب خمر سرقة) يتوب منها الإنسان، وإن البدعة يناضل عليها صاحبها. يقاتل من أجلها، والواقع شاهد بذلك؛ تراه يقاتل مقاتلة شرسة من أجل تأصيل هذه البدعة، ينافح عليها وينافح من أجلها.

فانظروا كيف النبي -صلى الله عليه وسلم- يصوّر لنا هذا التصوير البديع؛ دخلت البدعة والأهواء في القلب، فضخ القلب هذه البدعة إلى كل العروق والمفاصل، فتشبع البدن بها، فقاتل من أجلها صاحبها، ولمّا قاتل من أجلها قابل ربه أفي حسراتٍ وندم، وسيندم لا ينفعه الندم.

الحديث الثاني حديثٌ عظيمٌ جليل، نتكلم عنه في أمور، هو حديث: (افترقت هذه الأمة على ثلاث وسبعين فرقة):

- أولاً صحة الحديث إسناداً ومتناً
- الثاني الافتراق وأصول افتراق هذه الأمة
- الثالث من الناجي من هذه الأمة
- الرابع الإشكال الذي من أجله قد ضعّف العلماء هذا الحديث.

طبعاً هذا الحديث كثير من الذين يتبنون مذهب الآراء ويقدّمون العقل على النقل، وهذا مذهب المعتزلة. لا بد أن تعلموا ذلك، يضعّفون الحديث في العقل، يقولون -كما سأبين الشبه الكثيرة-: افترقت هذه الأمة ثلاثة وسبعين فرقة، نحن خير أم اليهود؟ المسلمون خير أم اليهود؟ المسلمون. المسلمون خير أم النصارى؟ المسلمون. عندكم دليل في ذلك؟ الآن ترون أنكم خير من اليهود والنصارى، عندكم ما يعضد ما تقولون أم هو ادعاء كاذب؟

آية (كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ) [آل عمران:110]، فالصحيح الراجح بذلك أن نقول بأن الخيرية ربطت بهذه الأمة، فكيف تفترق أمة الخيرية على ثلاثة وسبعين فرقة؟ واليهود والنصارى المغضوب عليهم والضالين

هؤلاء يفترقون على اثنتين والأخرى تفرق على واحد وسبعين؟!! هذا كلام عظيم وهو الذي أشكل على الناس، فلذلك قالوا: هذا الحديث ضعيف.
والذي ضعّفه أكثر عندما قال: (كلها في النار)، وسنبين.

◆ أولاً: صحة الحديث إسناداً ومتناً

سنداً هذا الحديث ورد بدون زيادة (كلها في النار) من رواية أبي هريرة -رضي الله عنه وأرضاه-، وهذا صحيح كالشمس، ما أحد يستطيع أن يتكلم عنه. صححه الترمذي وغيره، والحاكم، ووافقه الذهبي والحافظ ابن حجر والحافظ العراقي، يعني ثلة من أهل الحديث صححوا الحديث، فلا مدخل لأحد ان يتكلم فيه. الرواية الثانية رواية أنس أو رواية معاوية هي التي فيها هذه الزيادة التي أشكلت علينا، وهي زيادة: (كلها في النار إلّا واحدة)، فضعّفوها:

- منهم من ضعّفه إسناداً وهذا كلام ابن حزم، وكلام ابن حزم إذا خولف من عظماء أهل الشأن فلا عبرة بكلامه، ومع أنه محدّث فحل، لكن هؤلاء هم أهل الشأن وأهل الصنعة.

- ومنهم من ضعّفه للمتن وقالوا: عندنا إشكال؛ الأمة مرحومة، والأمة وسط، والأمة خيرية، فكيف هذه الأمة تفترق هذه الفرق وهذه الطوائف؟ وأيضاً كيف تكون كل هذه الفرق في النار؟ وهذا إشكال أعظم لأن النبي -صلى الله عليه وسلم- ورد عنه أنه لمّا قال: (تكونون ربع الجنة)، فكبّروا؛ ثلث، نصف، شطر أهل الجنة، فكبروا. بل قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (والله يحثو بكفه ثلاث حثيات)، فكبروا تكبيراً عظيماً. 1وقد قال النبي -صلى الله عليه وسلم- يصف هذه الأمة المرحومة: (أنكم في الناس كالشعرة السوداء في الثور الأبيض)، وأيضاً قال: (كالشعرة البيضاء في الثور الأسود)، فجميع هؤلاء هم الذين في النار وهذه الأمة هي

المرحومة، فكيف يقول كلها في النار؟ سنبيّن هذا الإشكال فيه بالنسبة للمتن في النقطة الثالثة.

◆ النقطة الثانية أصول الفرقة

أولاً الأمة مختلفة مختلفة، (ولا يزالون مختلفين)، هذا قدر كوني كتبه الله جلَّ في علاه. لكن الخلاف على نوعين، والخلاف على قسمين: خلافٌ في الأصول وخلافٌ في الفروع. والشيء بالشيء يذكر؛ لا يصح أن نقول الدين فيه أصول وفروع، الدين كل متكامل.

لكن هنا عندما نفرّق، نفرِّق الخلاف في الأصول، يعني الخلاف في أمهات المسائل: في الإلهيات، في الغيبيات، في النبوات، يعني في العقائد. وخلاف في الفروع، أمّا الخلاف في الفروع هذا غير معتبر، ولا شيء فيه، وأيضاً هو بعيد عن هذا الحديث.

إذاً أول نقطة لا بد أن تدقق فيها حديث: (تفترق أمتي) هذا يعنى به العقائد فقط، لا الكلام على الخلاف في الفروع الفقهية؛ أن تصلي وتكبر، أن تقرأ الفاتحة أو ما تقرأ الفاتحة، أن تسبح أو ما تسبح، واجب أم سنة. هذا لا يُعنى به هذا الحديث، الحديث يُعنى بمسألة العقائد. إذاً أصل الخلاف في أمهات المسائل في النبوات، في الإلهيات، في الغيبيات في العقائد.

أصول الفرق الذين اختلفوا في هذه المسائل المهمة ستة:

1 - الخوارج: الذين يكفِّرون بالمعصية، ما تركوا أحداً إلّا كفّروه، كفّروا أنفسهم بعد ذلك. الذين يخرجون على ولاة الأمور، يسفكون الدماء دون حرمة لأي شيء، هؤلاء الخوارج الذين يرون الإيمان كل متكامل، جزئية ضاعت من هذا الإيمان ضاع كل الإيمان وهدم على صاحبه، هذه فرقة ضالة.

2 - والفرقة الثانية نقيض هذه الفرقة؛ المرجئة: هؤلاء أخف ضرراً، لكنهم أيضاً من البدعة بمكان. هؤلاء الذين يرون إيمان جبريل كإيمان آحاد هذه الأمة، لا يزيد ولا ينقص، ولذلك عطّلوا قول الله تعالى: (وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ) [آل عمران:133]، (وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ) [المطففين:26]. وأيضاً ردوا بهذا المذهب الضال حديث النبي -صلى الله عليه وسلم-: (أن الأمة تتفاوت في الدرجات، الدرجة الدنيا وما فوقها من الدرجات في الجنة كما بين السماء والأرض)، وهذه بالأعمال لكنهم لم يثبتوا ذلك.

3 - الفرقة الثالثة القدرية: هؤلاء الذين يجهّلون الله -حاشا لله تقدست أسمائه سبحانه وتعالى-، يتهمون الله بالجهل، يقولون لا يعلم شيئاً مما يُفعل حتى يفعله المرء. فينفون

القدر، يقولون هو أنف، ما كتب شيء، ما علم الله شيء حتى يفعل من العباد فتكتبه الملائكة فيعلمه الله. هذه القدرية أيضاً أصل ومنشأ من أصول البدع والضلالة.

4 - نقيض هؤلاء الجبرية: هؤلاء الذين يتهمون الله بالنقائص، يقولون هو ظالم، أن الله جلَّ في علاه ظلم عباده فأجبرهم على الكفر. ولذلك قالوا كلمتهم المشهورة:

ألقاه في اليم مكتوف اليد *** وقال إياك إياك أن تبتل بالماء

ثم سووا بظلمٍ منهم وعتوٍ سووا بين جبريل وإبليس، قالوا هما سواء. كيف؟ قالوا جبريل تحت إرادة الله، هو ينزل وهو ينزل وحياً، هو بإرادة الله جلَّ في علاه، وإبليس ما عصى ولم يسجد وأغوى الناس أيضاً بإرادة الله، فكلٌ تحت إرادة الله جلَّ في علاه، فهم سواء. فسووا بين جبريل وبين إبليس. أرأيتم مثل هذا الضلال؟ هؤلاء الجبرية.

الخوارج نقيض المرجئة، القدرية نقيض الجبرية.

5 - الرافضة: هؤلاء الذين يتعبدون لله بسب أولياء الله جلَّ في علاه، بخير البشر أجمعين بعد رسوله -صلى الله عليه وسلم-. يقولون اللهم العن صنمي قريش، اللهم العن أبا بكر، اللهم العن عمر، ويتهمون عائشة -رضي الله عنها وأرضاها- بالزنا التي برأها الله من فوق سبع سماوات. هؤلاء الرافضة الخبثاء، علماؤهم أيضاً. هذه أيضاً فرقة من الفرق الذين يحسبون أنهم يحسنون صنعاً، يتعبدون لله بسب خيار البشر.

6 - الفرقة المتممة الجهمية: هؤلاء الذين يعبدون العدم، يعبدون عدماً، لا يثبتون لله ذاتاً ولا يثبتون لله صفاتاً؛ يقولون لا سميع ولا سمع، ولا كريم ولا كرم، ولا قدير ولا قدرة. يعبدون هواءً، يعبدون عدماً.

هذه الفرق الستة تفرّع منها فرق أخرى، كل فرقة من هذه الفرق، كل أصل من هذه الأصول أنبتت لنا اثنتي عشرة فرقة. فصار المجموع اثنتين وسبعين فرقة.

ثم الفرقة الأخيرة وهي فرقة أهل السنة والجماعة. إذاً الفرق الستة أنبتت لنا كل فرقة اثنتي عشرة فرقة، أي اثنين وسبعين، هذه المجموع. والأخيرة ثلاثة وسبعين هي أهل السنة والجماعة.

هؤلاء الثلاثة وسبعين يقرأون هذا الحديث ويندهشون، فيرون النبي -صلى الله عليه وسلم- يقول: (كلهم في النار)، ويستثني واحدة (إلّا واحدة). فيقوم المعتزلي، ويقوم الجهمي ويقول: أنا فرقتي هي الناجية. ثم يقوم الآخر: ولِمَ أنت؟ يقول الرافضي: أنا، أنا الذي أناصر آل بيت النبي -صلى الله عليه وسلم-، أنا الفرقة الناجية. وما من أحدٍ إلّا ويقول أنا الفرقة الناجية.

اطلع النبي -صلى الله عليه وسلم- على حجب الغيب كما أطلعه الله في ذلك، فعلم أن الأمة ستخوض وكلٌ منهم يدّعي وصلاً بليلى وليلى لا تقر لهم بذلك. فقال: أنا أكفيكم هذا، فكفانا النبي. فكيف يا رسول الله كفيتنا هذا؟ قال: سأجمل لكم. يعلم اللبيب الأريب الفقيه الوصف الذي سأذكره، أن الفرقة الناجية يكون لها سمةً ووصفاً معلوم مشتهر. ما هذا الوسم أو ما

هذه الصفة؟ ما هذا الذي وسمه به النبي -صلى الله عليه وسلم- لهذه الفرقة؟ قال: (هم الجماعة). كلٌ سيقول نحن جماعة، انظر إلينا كلنا جماعة.

أصبح الأمر مجمل، فعلم النبي -صلى الله عليه وسلم- أن الأمر المجمل لا يحل إشكالاً ففسره لنا بتفسيرٍ آخر في روايةٍ أخرى قال: (هم الناجون من النار)، فقالوا نحن أيضاً الناجون من النار، فأصبح إجمالاً آخر.

ففسره النبي -صلى الله عليه وسلم- تفسيراً بديعاً لا تفسير بعده؛ قال: (ما أنا عليه وأصحابي). إذاً هذا ضابط، خذه إشعاراً لك واحفره على صدرك بماء الذهب، واختبر كل إنسان بهذا الوصف الذي وصفه النبي -صلى الله عليه وسلم-، واعلم هذا الناجي أو ليس بناجٍ. لأن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال الفرقة الناجية واحدة، ما هي؟ ما وصفها يا رسول الله؟ قال: (ما أنا عليه). والنبي -صلى الله عليه وسلم- على طريق الهدى، على الطريق المستقيم، هو على الوحيين الكتاب والسنة؛ (وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى) [النجم:3-4]، (وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ) [الأحزاب:34]؛ وقال الشافعي: آيات الله الكتاب، والحكمة هي السنة.

فهذا هو الوصف الأول الذي وصفه النبي -صلى الله عليه وسلم- للفرقة الناجية، هذا الوصف الأول؛ مخِّص كل إنسان ودعه، إذا قال لك بمسألة أو رأيته يفتي بمسألة أو رأيته يعمل بعبادة فسله: أين الدليل من الكتاب؟ أين الدليل من السنة؟ هذه هي النجاة لأن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: (ما أنا عليه)، (وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى) [النجم:3-4].

ثم قال: (وأصحابي)؛ أي ما عليه أصحابي، كما قال النبي -صلى الله عليه وسلم- في المسند بسندٍ صحيح: (اقتدوا بالذَين بعدي: أبي بكرٍ وعمر).2 وقال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي، عضوا عليها بالنواجذ). ولذلك قال الأوزاعي: عليكم بالرعيل الأول، كفاكم ما كفاهم، وسعكم ما وسعهم؛ خذوا ما تبنوه، اعملوا بما عملوا، يسعكم ما وسعهم.

وما أبدع ما قاله ابن مسعود، قال: عليكم بصحابة رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، قومٌ اصطفاهم الله لصحبة نبيه -صلى الله عليه وسلم-، واختارهم لنصرة دينه ولنشر دعوته، أعمق الناس علماً (ضالٌ مضل من يرى نفسه أعلم من الصحابة)، أبر الناس قلوباً، أحسن الناس خلقاً. هذه الصفات ما اجتمعت في أحدٍ إلّا وارتقى المعالي مع رسول الله -صلى الله عليه وسلم- في الفردوس الأعلى، ولذلك ابن مسعود يستحث الأمة ويستنهض الأمة على التمسك بما كان عليه صحابة رسول الله، لأنهم أعمق الناس علماً، أبر الناس قلوباً، أحسن الناس خلقاً.

وكفى بتعديل الله لهم تعديلاً: (وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَىٰ وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا) 3[الفتح:26]، وأيضاً كفى بتعديل النبي -صلى الله عليه وسلم- لهم تعديلاً: (أصحابي، أصحابي. لا تسبوا أصحابي، لو أنفق أحدكم مثل جبل أحد ما بلغ مُدّ أحدهم ولا نصيفه).

وأجمع ما قيل في التمسك بما كان عليه سلف الأمة قول الله تعالى: (وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ) الجزئية الأولى (ما أنا عليه)، (وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ)، من؟ الصحابة الكرام هذا المقصود به والمعني به الثانية: (وأصحابي). (وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا) [النساء:115]. إذاً قد وسم النبي -صلى الله عليه وسلم- ووصف النبي -صلى الله عليه وسلم- وصفاً بديعاً موجزاً لهذه الفرقة الناجية، التي تنجو من هذه الفرق الثلاثة وسبعين؛ قال: (ما أنا عليه وأصحابي)(٣)

فمن أسعد الناس بهذه النجاة، ومن أسعد الناس باقتفاء آثار النبي -صلى الله عليه وسلم- وآثار الصحابة، ومن أسعد الناس بالقرب من الله الذين تمسكوا وعضوا بالنواجذ على سنة النبي وعلى سنة صحابة رسول الله -صلى الله عليه وسلم-.

◆ الثالثة -وهذه مهمة جداً-؛ قالوا هذا الحديث ضعيف؛ تعلقتم بها وقلتم: (ما أنا عليه وأصحابي) وبدعتم الناس وخرجتم الناس من والفرق هذه خرجت، إذاً كل الأمة ستكون في النار.

نقول هذا الإشكال حله هين بإذن الله:

أولاً ظاهره الاختلاف نعم ظاهرة؛ الاختلاف: الأمة مرحومة، الأمة وسط، الأمة خيار، الأمة كلها بالنسبة للذين يبعثون بعث أهل النار واحد من ألف، (يا آدم ابعث بعث النار)، واحد من ألف فقط. فلذلك نقول هناك تعارض ظاهري أن هذه المرحومة كلها، بعد ما تفترق هذه الفرقة كلها في النار إلّا واحدة، ونحن نقول لا بد أن يكون كلها. الصحيح في الآية كلها في الجنة إلّا واحدة، فكيف يأتي العكس؟ هذا هو الخلاف الظاهر.

نقول بإذن الله لا خلاف في ذلك، من محّص النظر وغاص في المعاني ودقق النظر، جعل الله الصعب سهلاً له، وجعل الله المختلف مؤتلف عنده. فكيف نؤلف بين هذا الخلاف الظاهري؟

أقول الناس قسمان لا ثالث لهما: خواص وعوام.

- أمّا الخواص: فهم خاصة الناس، أفاضل الناس، هم الأماجد الأكارم، هم العلماء وطلبة العلم. إذاً القسم الأول خواص وهؤلاء نقاوة الناس، أفاضل الناس، الأكارم الأماجد العلماء وطلبة العلم.
- وعوام: هؤلاء هم عوام الناس الذين لا يدرون عن دين الله شيء، أولهم كآخرهم، لا تستطيع أن تقول هذا مبتدع أو هذا ضال أو هذا يضلل الناس.

أمّا الخاصة ففي الرعيل الأول؛ (ثُلَّةٌ مِّنَ الْأَوَّلِينَ) [الواقعة:13]، صحابة ما بعدهم ومن بعدهم، (ثُلَّةٌ مِّنَ الْأَوَّلِينَ * وَقَلِيلٌ مِّنَ الْآخِرِينَ) [الواقعة:13-14]. وأمّا العوام فثلةٌ من الأولين وثلةٌ من الآخرين. ننظر في القسمين وننظر في الحديث؛ هذا الحديث يُعنى بالخواص أم بالعوام؟ إن كان يُعنى بالعوام ضعنا وضيعنا، وحقاً علينا أن نرد هذا الحديث، لأننا الآن قلنا القسمين: قسمٌ خاص وقسمٌ عام. من الأكثر؟ الأكثرية الكاثرة العوام، فهل

العوام يعنون بهذا الحديث أم لا؟ الصحيح الراجح -كما قلنا- العوام لا يعنون بهذا الحديث، خرجوا، أولهم كآخرهم.

ولذلك ترى المحققين من العلماء عندما يتكلمون عن الرافضة مثلاً الذين يسبون النبي -صلى الله عليه وسلم- أو يسبون أبا بكرٍ وعمر أو عائشة، ماذا يقولون؟ يقولون هناك فرق بين العامة وبين العلماء، يفرّقون لأن العامة لا يؤاخذون بجريدة العلماء، الكلام منصب على الذين يؤصِّلون هذه البدعة وينافحون من أجلها ويقاتلون من أجلها.

إذاً العوام خرجوا، فلمّا خرجوا ارتحنا، لأن الكثرة الكاثرة خرجت من الحديث الذي قال فيه النبي -صلى الله عليه وسلم-: (كلهم في النار). ويبقى الخواص، من هؤلاء الخواص؟ الفرق. إذاً العوام الذين هم الأكثرية الكاثرة في الأولين والآخرين، هم الأكثرية الكاثرة خرجوا من الحديث. يبقى الخواص، ننظر في الخواص؛ الخواص (ثُلَّةٌ مِّنَ الْأَوَّلِينَ)، يعني الأكثر من الأولين، هل يضمهم هذا الوعيد؟ الله جلَّ وعلا يقول: (وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ) [التوبة:100]، فهؤلاء السابقون ثلةٌ، هؤلاء الثلة من الأولين هؤلاء الناجون أيضاً.

يبقى الثلة الآخرين؛ هذه الثلة انقسمت إلى ست فرق، إلى الفرق الكثيرة الاثنين وسبعين، يبقى منها واحدة، هؤلاء قلة بالنسبة للأكثرية الكاثرة العامة، وبالنسبة للأكثرية الكاثرة في الثلة من الأولين الخاصة. فمعنى حيز جزء من ألف من ألف جزء. الذين عنى بهم قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (كلهم في النار)، "كلهم" من القليل الآخرين هم الذين عنى بهم كلام النبي -صلى الله عليه وسلم- وقال: (كلهم في النار).

فيخرج من ذلك الثلة من الأولين الذين عدّلهم الله وعدّلهم النبي -صلى الله عليه وسلم، وتبقى القلة التي جاءت بعد هذه الأزمنة الخيرية، هذه القلة يمحِّص فيها أصول لهذه الفرق.

ثم نقول الفرقة التي وصفها النبي -صلى الله عليه وسلم-: (ما أنا عليه وأصحابي)، هؤلاء الناجون، وبعد ذلك هم الذين يعني بهم حديث النبي -

صلى الله عليه وسلم-: (كلهم في النار إلّا واحدة)، ويحل بذلك الإشكال ويبقى الحديث ساطعاً في سمائنا، نقول هذا حديثٌ صحيح مرعب يخوف كل إنسان يحيد عن كتاب الله ويحيد عن سنة النبي -صلى الله عليه وسلم-، يحيد عن صحابة رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، بقول النبي -صلى الله عليه وسلم-☹ما أنا عليه وأصحابي).

يبقى لنا ختاماً لهذا الباب قول الآهات والحسرات لأهل الأهواء، هذه هي العاقبة، العاقبة دائماً لأهل الأهواء الحسرات والضياع ونيران تلظى. فإن الغزالي كان من أمتن الناس في علم الكلام، بكى في آخر عمره، ثم على سرير الموت أخذ البخاري واحتضنه وقال: ولجت في بحر الظلمات. ما بحر الظلمات؟ علم الكلام الذي لا ينفعك ولا يضرك، إن لم يضرك لا ينفعك بشيء.

وأيضاً الجويني؛ الجويني والد إمام الحرمين، عند موته بكى بكاءً شديداً، وحذّر الناس أيّما تحذير من أهل الأهواء والآراء الذين يقدّمون عقولهم على سنة النبي -صلى الله عليه وسلم-. ثم بكى وقال: ها أنا ما انتفعت بهذا العلم، ما انتفعت بشيء؛ يعني دخل خضم عظيم ما خرج منه بشيء. قال: ما انتفعت بشيء، وما أموت إلّا على عقيدة عجائز نيسابور. انظروا إلى هذا الكلام!! يتندم ندماً شديداً، يعض أنامل الندم على ما فرّط في التمسك بكتاب الله وسنة النبي -صلى الله عليه وسلم-، ويقول: أموت على عقائد عجائز نيسابور.

والفخر الرازي؛ معروف كيف لام على أهل الكلام، فرجع ثم تكلم على الاستواء وغير الاستواء -على ما نفصّله-، بأنه نحى نحو أهل السنة والجماعة. وأشهر الكتب التي عنيت بذلك كتب أو كتاب أبي موسى الأشعري "الإبانة"، الذي رجع فيه بعدما كان معتزلاً ثم أشعرياً أو العكس، ثم بعد ذلك مات على سنة النبي -صلى الله عليه وسلم-، بالتمسك بمذهب إمام أهل السنة والجماعة الإمام أحمد ابن حنبل.

إذاً أهل الأهواء أهل حسرات وآهات في الدنيا وفي الآخرة، لأن العاقبة هذه في الدنيا ظهر الندم، وظهر عاقبة السوء، أمّا في الآخرة فالفضل كل

الفضل للذين كانوا سعداء بقول -صلى الله عليه وسلم-: (ما أنا عليه وأصحابي). والحسرات كل الحسرات على هؤلاء أهل الأهواء، عندما ينزعون من يد النبي -صلى الله عليه وسلم- وهو يسقيهم ويحتاجون إلى شربة ماء هنية من ظمأٍ شديد، فيقال: (يا محمد لا تدري ما أحدثوا بعدك، فيقول النبي -صلى الله عليه وسلم-: سحقاً سحقاً لمن بدّل بعدي، بعداً بعداً لمن بدّل بعدي).

اللطائف الإسنادية في هذا الحديث:

- الحديث الأول فيه إسماعيل بن عياش، هو ثقة ثبت في أهل بلده.

- الثاني بقية؛ بقية يقولون فيه ضعف، والصحيح أن بقية ثقة ثبت، لكن بقية يدلس تدليس تسوية، فأيّما حديث وجدت بقية قال: "عن"، قالوا: فكن من أحاديثه على تقية، لأن أحاديث بقية ليست نقية، لأنه مدلس، فإذاً "عنعن" لا تأخذ لأنه ممكن يسقط شيخ الشيخ، فإذا أسقط شيخ الشيخ وسوّى، ويجود الإسناد فلا تأخذ به. وهنا قد صرّح بالتحديث في رواية أبي داوود -رحمه الله-.

- والثالثة الحديث: (ما تحت ظل السماء إلهٌ يعبد من دون الله)؛ هذا حديث موضوع، حديث لا يصح. طبعاً هو الكلام كلام الهيثمي، أن فيه الحسن بن قيس هذا كلام جيد لكن فيه تأصيل، إذ بالتتبع فيه -كما قال الشيخ رحمه الله- ثلاثة من المتروكين، فالحديث يعني أقرب ما يكون إلى الوضع منه أن هو يكون له أصل.

- هنا نستنبط فائدة حديثية مهمة جداً ألا وهي: إذا شهد الكتاب لنص حديثي وكان الحديث ضعيف الإسناد فإنه لا يصح الحديث؛ بمعنى الكلام لا تقوى الأحاديث في الشواهد من الكتاب. كيف ذلك؟ أين هذه الفائدة؟ من أين أخذنا هذه الفائدة؟ قال الله تعالى: (أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ) [الجاثية:23]، فجعل الإله هوى، وابن عباس قال: إلهٌ يعبد من دون الله هو الهوى، والحديث بالأثر قال: (ما تحت ظل السماء إلهٌ يعبد من دون الله أعظم عند الله من هوى متبع)، فسمّاه إله، ومع ذلك لم يصحح.

في مثل ممكن يضرب لهذا؟ نظير بنظير؟ مثل مشهور جداً يشهد له القرآن ولم يصحح أيضاً بشهادة القرآن له: ما روي عن النبي -صلى الله عليه وسلم-: (إذا رأيتم الرجل يعتاد المساجد فاشهدوا له بالإيمان)، له شاهد من الكتاب ما هو؟ (إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ) [التتوبة:18]، لا يتقوّى الحديث بها، الحديث ضعيف.

فهذه قاعدة حديثية ووظيفة حديثية عند علمائنا المحدثين المحققين، يرون أن الشواهد القرآنية لا تقوّي الأحاديث. تقوية الاحاديث بالأسانيد والمتابعات والشواهد، وهذا لها باب آخر. وهذه اللطائف التي نختم بها هذا الباب، وبإذن الله الإسبوع القادم نكمل هذا الكتاب البديع الذي يضعنا على البيضاء النقية التي فيها النجاة. ونسأل الله جلَّ في علاه أن يجعلنا مما كان عليه هو وأصحابه، ويجعلنا من الناجين من نار جهنم.

---

1 اخرجه البخاري في صحيحه (6528) ومسلم (221) باختلاف يسير

2أخرجه مطولاً أبو داود (4607)، والترمذي (2676)، وابن ماجه (44)، وأحمد (17144) باختلاف يسير، وابن عبدالبر في ((جامع بيان العلم وفضله)) (2305) واللفظ له

3اخرجه البخاري في صحيحه 3673) ومسلم (2541) وابن ماجة (132)

باب ذكر الأهواء المذمومة (2)

عن عمر بن الخطاب -رضي الله تعالى عنه-: أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال لعائشة: (يا عائشة، إن الذين فارقوا دينهم وكانوا شيعاً، إنهم أصحاب البدعة والأهواء وأصحاب الضلالة من هذه الأمة. يا عائشة، إن لكل صاحب ذنبٍ توبة غير أصحاب الأهواء والبدع ليس لهم توبة، أنا منهم بريء وهم مني براء).

الشيخ يضعّف الإسناد، كان فيه علل، هو بيّن العلة؛ فيه مجالد وبقية:

◆ صراحةً بقية ليس علة في الحديث، الصحيح الراجح في بقية بن الوليد أنه ثقة، كما قال الذهبي في الكاشف: هو ثقة، تحدّث عن الثقات وصرّح بالسماع. فبقية ليس بعلة، علة بقية هو التدليس (العنعنة) فقط؛ إذا لم يصرّح بالتحديث فهذه هي العلة التي يؤخذ بها. لذلك قالوا: أحاديث بقية ليست نقية، فكن منها على تقية؛ لأنه إذا لم يحدّث وعنعن دلّس، ومن أشر التدليس "تدليس التسوية".

الغرض المقصود أن الشيخ جعل علل ضعف الحديث هو مجالد وأيضاً بقية.

◆ أمّا مجالد فإسناده إسناد مقارب (مجالد بن سعيد)؛ النسائي وثّقه وضعّفه، جاءت رواية على التضعيف ورواية بالتوثيق، وهو يصلح للاعتبارات، وسنبيّن أن هذا الحديث الذي سنشرع في شرحه، له شواهد وله آثار تعضّده وتبيّن أن الله جلَّ وعلا حجب التوبة ولم يسدد ولم يوفق صاحب البدعة للتوبة، حجب عنه التوبة جزاءً وفاقاً وأجراً طباقاً، هذه في الدنيا، ليلقى بها الله جلَّ في علا في الآخرة كما سنبيّن.

وعن عائشة -رضي الله تعالى عنها-: أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- تلا هذه الآية: (هُوَ الَّذِي أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ ۖ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ)

[آل عمران:7]، حتى فرغ منها. قال: (قد سمّاهم الله تبارك وتعالى، فإذا رأيتموهم فاحذروهم).

وعن أبي بكرٍ -رضي الله تعالى عنه-: روي عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أنه قال: (عليكم بلا إله إلّا الله والاستغفار، فأكثروا منهما، فإن إبليس قال: أهلكتهم بالذنوب وأهلكوني بالاستغفار، فلمّا رأيت ذلك منهم أهلكتهم بالأهواء، وهم يحسبون أنهم مهتدون فلا يستغفرون) (١)

طبعا هذه آثار وردت تقوّي هذا المعنى، لكنها كلها إمّا موقوفات وإمّا مقطوعات؛ موقوفات على بعض الصحابة، والأكثر منها مقطوعات كما ورد عن أيوب السختياني وغيره: أنه بيّن أن الشيطان لبّس على صاحب الهوى فرأى عمله السيء حسناً.

فعن جابر بن عبد الله -رضي الله تعالى عنه-: عن النبي -صلى الله عليه وسلم- أنه قال: (إن الشيطان قد يئس أن يعبده المصلون، ولكن بالتحريش بينهم)(٢)

هنا النبي -صلى الله عليه وسلم- يبيّن لعائشة -رضي الله عنها وأرضاها- من صفات أهل البدع كما في الحديث الثاني، أنهم شيعاً متفرقين أوزاعاً أو أوباشاً أو أشواباً أخلاطاً، ليسوا على قلب رجلٍ واحد، كما وصفهم الله ووصفهم رسوله -صلى الله عليه وسلم-: (تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ) [الحشر:14]. وقبل أن ندخل في الكلام على درر من مسائل في هذا الحديث العظيم وهو حجب التوبة عن المبتدع، أيضاً الكلام على براءة النبي -صلى الله عليه وسلم- منهم، لا بد علينا أن نعرف أولاً البدعة ومكانة البدعة من الدين.

- البدعة لغةً: هي الطريقة المستحدثة على غير مثال سابق، البدعة كمّا عرفها كثير من أهل اللغة وفي اللسان لابن منظور: هي كل محدثة أيّدها بعضهم على غير مثال سابق. واستدلوا على ذلك بقول الله تعالى: (بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ) [البقرة:117]، يعني فاطر، يعني خالق السماوات والأرض على غير مثال سابق.

- أمّا في الشرع هي لها تعاريف كثيرة جداً؛ للعز بن عبد السلام، النووي، الشاطبي، وابن تيمية وغيرهم من أهل السنة والجماعة. كل عملٍ ليس على مثل عمل عهد رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فهو بدعة، هذا قول النووي وقول العز بن عبد السلام. قول شيخ الإسلام ابن تيمية: كل ما خالف الكتاب والسنة وإجماع أهل السنة والجماعة فهذا من البدع في الدين. فأجمع التعاريف أن نقول:

البدعة: هي طريقة في الدين مخترعة، يضاهى بها الشرعية، يقصد بالسلوك عليها المبالغة في التقرب إلى الله جلَّ في علاه.

"هي طريقة في الدين مخترعة"؛ يعني ليست على مثال سابق، ما كانت على عهد رسول الله، ما كانت على عهد صحابة رسول الله -صلى الله عليه وسلم-.

"يضاهى بها الشرعية"؛ يعني تشابه الشرع، صلاة كصلاة، صيام كصيام، طواف كطواف، فيضاهى بها الشرع.

"يقصد بالسلوك عليها"؛ المتعبد بها الذي يقول أنا أفعل ذلك لله جلَّ في علاه، أفعل ذلك أريد الخير يرد عليه، وكم من مريدٍ للخير لم يبلغه.

"يقصد بالسلوك عليها زيادة والمبالغة في التقرب الى الله جلَّ في علاه"؛ وصدق ربي حين يقول: (وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا) [الحديد:27].

والبدعة ضلالة، والبدعة مذمومة مآلاً وعاجلاً، في الدنيا وفي الآخرة، وصاحبها مأزور غير مأجور. قال النبي -صلى الله عليه وسلم- كما في مسند أحمد بسندٍ صحيحٍ عن العرباض بن سارية، أنه قال -صلى الله عليه وسلم-: (وإياكم ومحدثات الأمور، فإن كل محدثةٍ بدعة). وأيضاً قال في رواية في النسائي: (كل بدعةٍ ضلالة)، وزاد: (وكل ضلالة في النار)، والعياذ بالله.

وقال النبي -صلى الله عليه وسلم- في الصحيحين عن عائشة: (من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد)، وفي رواية قال: (من أحدث في ديننا هذا ما ليس منه فهو رد). وأيضاً في صحيح عن علي بن أبي طالب -رضي الله عنه وأرضاه-: (لعن الله من غير منار الأرض، لعن الله من لعن والديه، لعن الله من آوى محدثاً)، والعياذ بالله.

وورد في السنة أيضاً عن عبدالله بن عمرو بن العاص: أن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: (فمن رغب عن سنتي فليس مني) هذا محل الحديث، والشاهد له: (فإني منهم براء) يعني البراءة منهم. وأيضاً في الصحيح عن عبدالله بن مسعود عندما قال عن حوض النبي -صلى الله عليه وسلم-: (لأذودنَّ عن حوضي الناس، وليختلجنَّ من على الحوض أناس، فأقول: أصحابي، أصحابي. فيقال: يا محمد، لا تدري ما أحدثوا بعدك، فأقول: سحقاً سحقاً، بعداً بعداً، لمن بدّل بعدي)

وفي سنن الدارمي وفي غيره من السنن سنن أبي منصور والمصنفات، فيها كثير من هذه السنن بأسانيد صحيحة؛ عن ابن مسعود -رضي الله عنه وأرضاه- أنه قال: كل محدثةٍ بدعة، وعليكم بالأمر الأول. وقال أيضاً: عضوا على العلم بالنواجذ، أو قال: سارعوا إلى أهل العلم قبل أن يُقبض العلم، فإن العلم لا يُقبض إلّا بقبض العلماء، وعليكم بالأمر الأول، أو قال: وعليكم بالأمر العتيق.

وقال ابن عمر أيضاً بسندٍ صحيح: كل محدثةٍ بدعة، أو قال: كل بدعةٍ ضلالة ولو رآها الناس حسنة؛ يعني لو رآها سائر الناس أنها حسنة وزادت في الخير خيرات، لا، هذه ضلالة لأنها مخالفة لما كان عليه الرسول -صلى الله عليه وسلم- وما كان عليه صحابة رسول الله -صلى الله عليه وسلم-.

وأيضاً عن ابن مسعود -رضي الله عنه وأرضاه- قال: اتبعوا ولا تبتدعوا فقد كُفيتم. وفي سندٍ صحيح عن ابن عباس؛ جاءه رجل يسأل عن الاستقامة أو قال: أوصني، فقال له ابن عباس: عليك بالاستقامة، عليك بتقوى الله والسمع والطاعة، وإياك ومحدثات الأمور. فكل هذه تنفّر من المحدثات،

من البدع الضلال. وقد قال الإمام مالك -رحمة الله عليه-: إذا قبض العلم ظهر الجفا، وإذا ظهر الجفا ظهر أهل الأهواء، وإذا ظهر أهل الأهواء لزوماً لا بد أن تظهر البدع والضلالات؛ فكل بدعة مذمومة وصاحبها مأزور غير مأجور.

عقوبة أهل البدع عقوبة دنيوية وعقوبة أخروية، وإن كان الله جلَّ في علاه يزيّن لهم سوء هذه الأعمال ويعطي لهم من الدنيا، لأن في بعض الآثار وإن كانت ضعيفة: (إن الله يعطي الدنيا لمن يحب ومن لا يحب، أمّا الدين لا يعطيه الله جلَّ في علاه إلّا لمن أحب)؛ يخصه الله جلَّ في علاه لمن أحب. فيمكن أن يفرش الله لهم من أمور الدنيا، لكن المآل وخيم عند الممات، كما قال الإمام أحمد: بيننا وبين أهل البدع الجنازات. الفرق عند الممات؛ عند الممات لا يوفق إلى لا إله إلّا الله، لا يوفق إلى خاتمة حسنة، وأيضاً في المآل عند رب السموات سبحانه جلَّ في علاه.

١- أولاً من هذه العقوبات حجب التوبة هذا الذي صرّح فيه النبي -صلى الله عليه وسلم- في حديث عائشة، حجب التوبة عن صاحب البدعة. والروايات التي تعضد هذه الرواية أن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: (حجب الله التوبة عن كل صاحب بدعة ما لم يدع بدعته)، أو في رواية قال: (حجب الله التوبة عن كل صاحب بدعة حتى يدع بدعته). انظروا إلى هذه العقوبة الشديدة الأليمة الجسيمة من الله جلَّ في علاه يحجب التوبة مع أنه يحب التوابين ويحب المتطهرين.

وهنا يظهر لنا إشكال عظيم جداً؛ الله جلَّ في علاه يحب التوابين ويحب المتطهرين، وفي الصحيحين عن النبي -صلى الله عليه وسلم-: (فالله أشد فرحاً بتوبة عبده من هذا الذي ضاعت عنه راحلته وانتظر الموت)، هذا الذي ينتظر الموت بعد ما جاءت الراحلة ماذا قال؟ قال: اللهم أنت عبدي وأنا ربك. يقول لله جلَّ في علاه من شدة الفرح برجوع ماء الحياة له، هذه الفرحة التي يفرحها الله جلَّ في علاه، ومع ذلك يحجب التوبة عن عبدٍ من عباده. هذا إشكال عظيم جداً، لا يمكن التوافق، كيف نوفق بينهم؟ كيف الله جلَّ في علاه الذي يحب التوبة من عباده ويمهّد لهم الطرق للتوبة يحجب التوبة عن صاحب البدعة؟

أولاً نستنبط أن صاحب البدعة مبغوض عند ربه جلَّ في علاه، مطرود من رحمته، ملعون كما قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (لعن الله من آوى محدثاً)، فإنه عند ربه جلَّ في علاه غير مرضي.

فنقول: الله جلَّ في علاه حجب التوبة عن هؤلاء لبغضه لهم، لكنه يحب التوبة، فكيف نوفق بين هذه الأحاديث؟ يحب التوبة وهو أشد فرحاً من فرح هذا الرجل الذي أخطأ وقال: اللهم أنت عبدي وأنا ربك، ومع ذلك يحجب التوبة عن عباده؟ هذا إشكال عظيم؟

لنعلم عظم العقوبة، هذه العقوبة ليست بالهينة، أن الله يحجب عن امرئٍ التوبة ويختم له بهذا العمل السيء، فإن الأعمال بالخواتيم، وهذه فيها دلالة على أن المبتدع عند ربه لا بد أن يعاقب وعقوبته ليست بالهينة. كثير من أهل البدع منهم على كفر كما بيّنا، طبعاً لا نتجرأ على هذه المسألة، لكن نقول البدعة كما فصّلها العلماء: بدعة مكفرة وبدع مفسقة، وسيأتي إن شاء الله تفصيلها. لكن الغرض المقصود العقوبة وخيمة، ليست بالهينة، أن الله سيختم عليه في الدنيا بالسيئات، لأنه حجب عنه التوبة.

ننظر لِمَ حجب الله التوبة مع أنه يحب التوبة؟

المسألة في الإرادة الكونية والإرادة الشرعية؛ يعني أن الإرادة الكونية أبت على هؤلاء التوبة، والإرادة الشرعية تفتح لهم أبواب التوبة على مصراعيه. يضم لك هذا لتفهمه قول الله تعالى: (إِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ ۖ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ ۖ وَإِن تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ) [الزمر:7]، إذاً الله جلَّ وعلا يرضى بالإرادة الشرعية؛ التوبة والإسلام والإنابة والسجود والركوع لله جلَّ في علاه. والإرادة الكونية أبت لحكمة، لأن الله جلَّ في علاه يغار أن يضع الشيء في غير موضعه.

نرجع لكلام الإخوة هنا عندما نقول: فإن صاحب البدعة قد ألّه نفسه مع الله، وطعن في الرسول -صلى الله عليه وسلم- ضمناً، لأن النبي -صلى الله

عليه وسلم- لم يأتِ بهذه العبادة وأتى هو بها، فطعن في بيان النبي -صلى الله عليه وسلم- وطعن في تبليغِ النبي -صلى الله عليه وسلم-، إذاً هو دخل في باب الإلهية ودخل في باب الرسالة:

 أمّا في باب الإلهية فإن الله جلَّ في علاه يقول: (أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُم مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَن بِهِ اللَّهُ) [الشورى:21]، وقال الله تعالى: (لا لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ) [الأعراف:54]، التشريع كله لله جلَّ في علاه، فكيف تنصب نفسك مع الله إلهاً تشرّع تشريعاً لم يأتِ به الله جلَّ في علاه ولم ينزّل الله به من سلطان؟

الطعن الثاني في الرسالة أنهم بلسان الحال؛ طبعاً هذا لازم قولهم، واضبطوا هذه المسألة لازم القول ليس بقول، لا أحد يذهب لواحد ويقول له: أنت إله مع الله نصّبت نفسك إله، لا، هذا لازم القول، نحن نحلل المسألة علمياً.

أيضاً ضمناً يطعنون في تبليغ النبي -صلى الله عليه وسلم-؛ قال الله تعالى: (يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ) [المائدة:67]، وهم يقولون لم يبلغ تمام البلاغ. والله جلَّ وعلا يقول: (وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ) [النحل:44]، ويقولون لا لم يبيّن، لأنهم بيّنوا بعده بهذه العبادات التي أتوا بها محدثةً مبتدعة، فإذاً هم طعنوا في باب الإلهية، دخلوا فيه وطعنوا في باب الرسالة.

فكان الله جلَّ وعلا من غيرته ألّا يضع هذه التوبة، التي هي من أحب ما تكون له في قومٍ لا يعقلون هذا ولا يريدون هذا، هذا الباب الأول.

٢- الباب الثاني أن الله جلَّ في علاه قال: (فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ) [النحل:36]، فهم أحق الناس بأن يحجب عليهم التوبة لما علم الله من قلوبهم بالتكبر والإصرار، ويؤيد ذلك قول الله تعالى: (وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ)، ارتعبوا فزعوا قلوبهم ارتجفت، (ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا) [آل عمران:135]، هنا الإصرار دلالة على الكبر.

كما دخل النبي -صلى الله عليه وسلم- على الرجل وهو يأكل بالشمال، لا يعلم فأعلمه النبي -صلى الله عليه وسلم-، فقال له: كُلْ بيمينك؛ يعني أقول لك أنت لا تعلم أن الأكل بالشمال لا يصح، أعلمك الآن (النبي -صلى الله عليه وسلم- المعلم) كُلْ بيمينك. فنظر إلى النبي -صلى الله عليه وسلم- كأنه يقول: من هذا الذي يعلمني؟ فقال له: لا أستطيع، ما منعه إلّا الكبر. فقال النبي -صلى الله عليه وسلم-: لا استطعت، فشلت يده، قال: (ما منعه إلّا الكبر).

فهؤلاء أصروا على ما فعلوا، بعدما أظهر الله لهم الدلالات الباهرات فلم يأخذوا بها واتبعوا هواهم، استحبوا العمى على الهدى كما قال الله تعالى: (وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ) [فصلت:17]. فلمّا هؤلاء استحبوا البدعة على السنة، وآثروها على السنة للأهواء والمكانات والأبواق التي خلفهم والأضواء التي تسلط عليهم، قالوا: نترك هذا؟! لا، نحن على ما نحن فيه، وهذا هو الدين.

٣- فالله جلَّ في علاه عاقبهم العقوبة الثالثة المستلزمة الاستدراج.

انظروا العقوبة الأولى الحجب، الثانية الإصرار، الله جلَّ في علا يختم لهم بالسيئات في الدنيا. الثالثة الاستدراج؛ وهذا الاستدراج هو أصعب ما يكون، العقوبة الوخيمة حجب التوبة، والأوخم منها والأشد إعظاماً هو أن الله جلَّ في علاه يزيّن لهم أعمالهم ويدخل في قلوبهم أنهم على الحق المبين، وغيرهم على الضلال المبين.

ولذلك قال الله تعالى: (أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ كَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُم) [محمد:14]. فالله جلَّ في علاه جعل هؤلاء مزيّنة لهم هذه الأعمال حتى لا يتوبوا منها، لِمَ؟ ليختم لهم بالسيئات -والعياذ بالله-، والمرء يبعث على ما يختم عليه من الأعمال.

فهذه العقوبة من الله جلَّ في علاه لهؤلاء المبتدعة؛ حجب التوبة مع الاستدراج العظيم، مع بيان أمرهم بأن تفتح لهم أمور الدنيا، هذه في الدنيا. وتختم لهم بالسيئات تأتي العقوبة الأخروية، وهو الحجب عن رسول الله -

صلى الله عليه وسلم-؛ أحوج ما يكونوا إلى القرب منه عندما تقترب الشمس من الرؤوس قدر ميل أو قدر شبر، ويحتاج كل امرئٍ من العطش الشديد الذي يصيبهم إلى شربة ماء تبل هذا العطش الشديد؛ إن الله كما استدرجهم في الدنيا فزيّن لهم سوء أعمالهم، استدرجهم في الآخرة على أنهم امتلكوا الحوض وسيشربون منه ثم ينزعون، كما قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (وإني لأذودنَّ عن حوضي، ثم ليختلجنَّ أناس).

وقفوا هم مع رسول الله، هم من أحباب رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، يأخذون بالكيزان ليشربوا، ثم تأتي الملائكة فتخطف هؤلاء من بين يدي رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، فيتألم لهم ألماً شديداً ويقول: (ربي أصحابي أصحابي. فيقال: يا محمد لا تدري ما أحدثوا بعدك)، فماذا يحدث يدعو عليهم النبي -صلى الله عليه وسلم-؟ أحوج ما يكونوا للشفاعة، يدعو عليهم الرسول -صلى الله عليه وسلم-، ويمنعوا الشفاعة ويمنعوا الدعاء، فيقول: (سحقاً سحقاً لمن بدّل بعدي، بعداً بعداً لمن بدّل بعدي).

هذه الواسطة بين الدنيا والآخرة، خاتمتها أن النبي -صلى الله عليه وسلم- تبرأ منهم. ولا يتبرأ منهم إلّا سني، ولا يجاملهم ولا يقف معهم إلّا مبتدع ضال؛ فإن النبي -صلى الله عليه وسلم- قد تبرأ، ونحن براء مما تبرأ منه رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، عندما ختمها وقال: (هم مني براء وأنا منهم براء).

وهنا نقول لا بد من التفصيل؛ تبرأ منهم النبي -صلى الله عليه وسلم-، إذاً هم على الكفر؟! لا والله، ولا يستطيع أحد أن يتجرأ على هذا، لكن تبرأ النبي -صلى الله عليه وسلم- من أعمالهم، ومن تبرأ النبي -صلى الله عليه وسلم- من أعمالهم وجب علينا أن نقول العقوبة الرابعة.

٤- لا تقبل هذه الأعمال؛ إذا تبرأ النبي -صلى الله عليه وسلم- من العمل فإنه لازم ذلك ألّا تقبل الأعمال.

أولاً نفسر؛ البراءة براءتان: براءة من العمل وبراءة من الشخص نفسه

أما البراءة من العمل فدلالتها كثيرة جداً؛ أما في الكتاب فقد قال الله تعالى في سورة الشعراء: (فإن عصوك) العصيان هذا لا يقبل، (فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ) [الشعراء:216]، فهذه براءة من العمل.

روى أصحاب السير أن خالد بن الوليد -رضي الله عنه وأرضاه- قتل الأسارى بعدما أسلموا، قالوا: صبأنا صبأنا، فقتلهم، فبلغ ذلك النبي -صلى الله عليه وسلم-. فماذا قال؟ قال: (اللهم إني أبرأ إليكَ مما فعل خالد)، ما قال إني أبرأ من خالد، فهذه براءة من العمل.

تستوجب إذا قلت: "براءة من العمل ليست براءة من الشخص"، أن يكون لهذا الشخص حق عليك وهو أن تدعوه إلى السنة، أن تبيّن له هذه البدعة بالرفق واللين، تدعو له أن تنظر إليه بعين القدر وعين الشرع؛ عين الشرع: تبغض ما هو فيه وتهجر ما هو فيه. عين القدر: تبكي ألماً انه في ضياع وفي تيه، بل وتحمد ربك أنك لم تكن مثله، وتبعث إليه بالرسائل أو تكلّمه بالرفق واللين تبيّن له الدلالات على السنة حتى يرجع إلى حوض السنة.

براءة من الشخص نفسه، وهذه براءة الكفر ليس هذا محل الكلام عنها.

إذاً البراءة من العمل لازمها رد العمل؛ كل مبتدع ما ازداد اجتهاداً في عبادةٍ إلّا وازداد الله له بغضاً، فهو يكثر من السجود والله عليه غاضب، وهو يكثر من الصدقات إن كان مبتدعاً على سبيل المثال والله عليه غاضب. فإن أيوب السختياني قال: ما ازداد صاحب بدعةٍ اجتهاداً إلّا وقد ازداد من الله بعداً. ولذلك قال ابن مسعود: فقد كُفيتم، وسعكم ما وسع هؤلاء؛ دخل عليهم وهم يسبحون سبحوا مئة، كبروا مئة، هللوا مئة. فقال لهم وهو ملثم: ألا تعرفوني من أنا؟ يبيّن نفسه وعظمته ومكانته، هو صاحب رسول الله. قالوا: لا، قال: أنا أبو عبد الرحمن، أو قال: أنا ابن مسعود عبدالله بن مسعود. ما الّذي أنتم عليه؟ والله إنّكم على ملّةٍ هي أهدى من ملّة رسول الله أو ما أفتتحوا باب ضلالة، قالوا: يا أبا عبد الرحمن والله ما أردنا إلّا الخير، فقال: وكم من مريدٍ للخير لم يبلغه.

إذاً العمل مردود، والدليل على ذلك قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (من أحدث في ديننا هذا ما ليس منه فهو رد)، فهو باطل وإن اجتهد فيه، وإن طال صيامه، وإن طال قيامه، وإن اجتهد كل الاجتهاد. يؤجر على نيته الصالحة إن كان صالح النية، هذه عند ربه، لكن عمله مردود مأزور غير مأجور في هذا العمل.

إذاً هذا مفاد الحديث الأول الحديث العظيم المرعب لكل مبتدع ولكل مفتتح باب ضلالة.

الثاني؛ انظروا إلى السياق العظيم والجليل من هذا المصنف، يبيّن لنا بعد ما تكلم على العواقب الوخيمة للمبتدع، كأن سائلا يقول: يا رسول الله ما صفات هؤلاء المبتدعة حتى نحذر منهم؟ حتى لا يشتبه علينا أمرهم؟ حتى لا نتبعهم؟

فيقول النبي -صلى الله عليه وسلم-: كل مبتدع له سمات، من أهم هذه السمات البغض العظيم لأهل السنة والجماعة، البغض العظيم لمن تمسّك بسنة النبي -صلى الله عليه وسلم-.

ثم العلامة التي ذكرها النبي -صلى الله عليه وسلم- علامة عظيمة جداً، أنهم يلبسون على الناس أمر دينهم؛ يأخذون بالمتشابه يستدلون به ليلبسوا على الناس أمر الدين. لن ترَ مبتدعاً بحق إلّا ومعه الدليل، ويقول عمدتي كتاب الله، مصحفي في جيبي، هو في قلبي وفي صدري، ويحتج أمام الناس بهذه الأدلة، يلبّس ويعمّي على الناس. كما قال الله تعالى يبيّن لنا أنهم يلبسون على الناس أمر دينهم، وكما بيّن النبي -صلى الله عليه وسلم-؛ أنهم يتبعون ما تشابه من الكتاب، يلبّسون على الناس، يأتون بالآيات ويقولون هذه الآية حجة قاطعة لنا فيما نستدل به. إذاً علامة أهل البدعة أنهم يلبّسوا على الناس أمر الدين بكتاب الله جلَّ في علاه.

وقد قال علماؤنا: القرآن حمّال، فإذا خاصمت أهل البدعة فعليك بالسنة. وهذا الذي قاله عمر بن الخطاب -رضي الله عنه وأرضاه-: إن جاءك أهل البدعة يحاجوك بكتاب الله فحجهم بالسنن، فإن أهل السنن أعرف الناس بكتاب الله جلَّ في علاه. وعلي بن أبي طالب -رضي الله عنه وأرضاه- لمّا

قام عليه الخوارج -كما سنبيّن-، ماذا حدث؟ قال لابن عباس: اذهب فناظرهم، ولا تناظرهم بكتاب الله جلَّ في علاه، اذهب فإن السنة الأصل لأن كتاب الله حمّال فيه محكم وفيه متشابه. وسأسأل الآن لِمَ؟ أراد الله أن يلبس على الناس؟ حاشا لله. لِمَ يجعل في الكتاب محكم ومتشابه؟

المهم علي بن أبي طالب قال لابن عباس: اذهب إلى هؤلاء الخوارج، اذهب إليهم وناظرهم بالسنة ولا تناظرهم بكتاب الله. وسمع وأطاع. ابن عباس، فذهب فناظرهم بالسنة فرجع أكثر هؤلاء مع علي -رضي الله عنه وأرضاه-، إلّا الذين تصلبوا على البدعة والضلالة والخروج على الحاكم.

نقول الآن الله جلَّ في علاه جعل المحكم والمتشابه، لِمَ؟ مع أن التدليل لا يأتي إلّا بهذا؟

- ليميز الخبيث من الطيب؛ يمحّص الله جلَّ في علاه.

- والثانية ليرتقي أهل الاجتهاد وأهل العلم، لأن أهل الاجتهاد وأهل العلم كما قال مجاهد وغيره: إذا ردوا المتشابه للمحكم ظهرت الدلالات.

الغرض المقصود هم الذين يحتجون بالمتشابه، يجرنا ذلك بشرح الحديث أن نعرّف أولاً المحكم والمتشابه.

المحكم: كل ما ظهرت دلالته ووضحت معانيه؛ ما يحتاج لأحد يفسره، مفسّر.

والمتشابه: كل ما احتمل معاني لا دليل على رجحان واحد فيهم، أو نقول كل ما لم تظهر دلالته ولم تتضح معانيه. المشابه له أكثر من وجه، ممكن يقول واحد هذا دليل لي، والآخر يقول لا هذا دليل لي، محتملات.
فالمحتملات يحتج بها دائماً أهل البدعة، لا يحتجون بالقواطع الظاهرات.

أمثلة ذلك كثيرة تبيّن لك أن أهل البدعة والضلالة وأصول البدعة التي ذكرناها:

منهم الخوارج الذين يخرجون على ولاة الأمور ويكفِّرون الناس في المعاصي، هؤلاء الذين تشبثوا في الشبهات أو بالمتشابهات ولبّسوا على

الناس أمر الدين، كما بيّن معجزة للنبي -صلى الله عليه وسلم-. قد قال الخوارج: كفر علي، -أعوذ بالله- علي بن أبي طالب ختن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-؟ علي بن أبي طالب ابن عم رسول الله -صلى الله عليه وسلم-؟ علي بن أبي طالب أسد الله وأسد رسوله وأسد السنة؟ علي بن أبي طالب زوج فاطمة؟ كفر علي؟ نعم كفر علي.

هؤلاء الخوارج؛ هذه بدعة من أنفق ما تكون، كفّروا البشر وخرجوا عليهم وقتلوا من قتلوا بزعمهم أنهم يتقربوا إلى الله بما يفعلون، هؤلاء خرجوا وكفّروا علي، قالوا كافر وعندنا الدليل. هؤلاء ما عندهم أدلة، ليست أهواء ولا ظن. ائتوا بالدليل، قالوا: قد قال الله تعالى: (وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ) [المائدة:44]، وقد حكم

علي الرجال في كتاب الله، كفر بذلك حكم أبا موسى الأشعري وغيره. فانظروا إلى هذا العته العظيم، انظروا إلى هذا الجحود في آيات الله جلَّ في علاه.

أقول هؤلاء ابتدائهم وأول انطلاقة لهم كانت في غزوة حنين، عندما جلس رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يقسّم الغنائم فدخل عليه هذا المارق ذو الخويصرة، فقال له: يا محمد، بسوء أدب مع رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، دائماً دأبهم هذا. يا محمد اعدل، فإن هذه القسمة لا يراد بها وجه الله. فقال خالد (وفي رواية قال عمر) دعني أضرب عنق هذا المنافق،(٣)

عَلِم أنه منافق لأنه يقدح في عدالة النبي -صلى الله عليه وسلم-. فقال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: (ألا تأمنوني وأنا أمين من في السماء)، او قال: (ويحك، من يعدل إن لم أعدل أنا)، ثم قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (يخرج من ضئضئ هذا (أو يخرج من صلب هذا الرجل) أقوام)، انظروا إلى الصفات، هم أهل دين؛ ليل نهار قيام صيام، مع تعبد تحتقر عبادتك مع عبادتهم. فقال: (أقوام يقرأون القرآن لا يجاوز حناجرهم، تحقرون عبادتكم لعبادتهم)، أو قال: (تحقرون قراءتكم مع قراءتهم) (٤)

ولذلك لمّا سألوا علي بن أبي طالب، قالوا: الخوارج كفرة؟ انظروا العدل والإنصاف، هم كفّروه لأنهم جهّال، قال: لا من الكفر فروا، قالوا: ماذا

تقول عنهم؟ قال: أقول: قومٌ اجتهدوا فعموا وصموا. أصابتهم فتنة فعموا وصموا، فتنهم الله جلَّ في علاه فلم يعلموا عن دين الله شيئاً فكفروا، وكانوا حرباً على أهل الإسلام، سلماً لأهل الكفر والطغيان والعياذ بالله.

الغرض المقصود هذه أول انطلاقة لأهل الكفر، بعد ما انطلقوا وقال النبي -صلى الله عليه وسلم- بمعجزة باهرة نبأ بأنهم سيخرجون على أهل الإسلام، وقال: (هم كلاب أهل النار، لو أدركتهم لقتلتهم قتل عاد وإرم). بعد ما قاموا وظهروا، قاموا على علي ابن أبي طالب وقالوا: كافر، وقالوا: حكم الرجال. هنا قد احتجوا بالمتشابه، وهل هذه الآية من المتشابه (وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ)؟

نقول الآية ليست من المتشابه؛ الآية تُحمل على أكثر من معنى، ولذلك ابن عباس قال: كفر دون كفر، وغيره قال: إذا كانت الشهوة، وبعضهم قال: هي على إطلاقها إن جحد أو قدّم غير حكم الله جلَّ في علاه، الغرض المقصود لها تُحمل على أكثر من معنى. فهم ضيقوا المسألة وقالوا حكم الرجال، كفر بذلك. وكانت المسألة أن علي بن أبي طالب لمّا سمع ذلك قال: حقٌ أريد به باطل؛ لأنه أخذ أبا موسى الأشعري ليطبق حكم الله، لا لأن يحكم على كتاب الله، ليطبّق حكم الله. ولذلك أظهر لهم علي بن أبي طالب قال: قال الله تعالى: (فَابْعَثُوا حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَا) [النساء:35]، يعني لو حدث التشاجر بين الزوج والزوجة، ما الذي يفصل بينهما؟ كتاب الله وسنة النبي. لكن من الذي سيطبّق هذا؟ الرجال هم الذين سيطبّقون كتاب الله وسنةً النبي -صلى الله عليه وسلم-، فلذلك قال: حقٌ أريد به باطل، إنما قال الله تعالى: (فَابْعَثُوا حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَا). إذاً زالت هذه الشبهة، لكنهم تعلقوا بها للمتشابه ليلبسوا على الناس أمر دينهم.

أيضاً أفراخهم المعتزلة الذين هم أذناب للخوارج، يعضون بالنواجذ على المتشابه، بل ويستدلون به ليلبّسوا على الناس أمر دينهم. قد لبّسوا على الناس أمر الدين، وفتنوا الناس عامةً، قالوا بخلق القرآن كما ظهر ابن أبي دؤاد والمحنة المشهورة، وقالوا بخلق القرآن، قالوا القرآن مخلوق، القرآن

كالسماء كالأرض كالبحار كالأشجار كالأنهار، واستدلوا على ذلك بكتاب الله.

ما من مبتدعٍ إلّا وترى له الدليل؛ فقال: قال الله تعالى: (إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا) [الزخرف:3]، قالوا: والجعل معناه الخلق، والدليل على ذلك من كلام الله جلَّ في علاه. قال الله تعالى: (الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ) [الأنعام:1]، يعني خلق الظلمات والنور، قالوا: إذاً القرآن مخلوق، هكذا تعلقوا بآية من كتاب الله لأنه حمّال. والإمام أحمد بن حنبل فتن هذه الفتنة وهذه المحنة بخلق القرآن بالكتاب، فكل مبتدع يستدل بالكتاب.

لكن كيف نجيب عن هذه البدعة؟ هذا مثل نضربه لأهل الزيغ والضلال وأهل البدعة أنهم يستدلون بكتاب الله على بدعتهم، للتلبيس على الناس والتدليس، ما هي الأدلة التي تثبت ما تقول؟ الآية التي ممكن أن تأتي بغير معنى الخلق؟ (وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَٰنِ إِنَاثًا) [الزخرف:19]؛ يعني صيّروهم إناثاً، وهذه في لغة العرب. الثانية: (الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ) [ق:26]؛ "جعل" في اللغة بمعنى اتخذ.

إذاً أصلاً "جعل" في اللغة:

- تأتي بمعنى اتخذ، (الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ) يعني اتخذ مع الله إلهاً آخر.
- و"جعل" أيضاً تأتي في لغة العرب بمعنى صيّر، (وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَٰنِ إِنَاثًا)، يعني صيّروهم إناث لله جلَّ في علاه.
- وتأتي بمعنى الخلق. فهم تركوا كل الاحتمالات وتشبثوا على الخلق فقط، قالوا: (إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا)، يعني خلقناه قرآناً عربياً.

ولمّا قاموا بهذه الآية على أحمد بن حنبل، أجابهم إجابة وجيزة في الكتاب، قالوا إنا الآن أشكل عليكم أيضاً بالكتاب، فقال للأمير: يا أمير فإن الله جلَّ في علاه يقول: (أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ * أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ * وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ* تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ * فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ) [الفيل:1-5]، ما يقول قائل: فجعلهم كعصف

مأكول يعني خلقهم، هو خلقهم بشراً أمامكم من طين، فلا يقول قائل: بأن (فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ) خلقهم كعصفٌ مأكول. لا، (فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ) يعني صيّرهم كعصفٍ مأكول. فلمّا حجّهم بهذه الآية، بُهتوا من ذلك.

فإذاً أهل البدعة والضلالة يلبسون على الناس أمر الدين بالمتشابه من القرآن.

٣- أعجب من ذلك الجهمية، وهي أيضاً من أصول أهل البدع، يلبسون على الناس أمر الدين؛ يقولون: الله في كل مكان، الله ليس في السماء، من قال: الله في السماء وأشار بأصبعه اقطع يده أو اقطع إصبعه، الله في كل مكان.

قلنا لهم: الله في كل مكان؟ تقولون الله في كل مكان؟ في وفيك؟ وفي الحمامات وغيرها؟ قالوا: الله في كل مكان، وعندنا الآيات التي تثبت على ذلك. قلنا: هاتوا الآيات. قالوا: قال الله تعالى: (وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَٰهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَٰهٌ) [الزخرف:84]، قالوا: أيضاً قول الله تعالى: (وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ ۖ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ) [الأنعام:3].

انظروا أهل البدعة يستدلون بالآيات، عندهم آيات يستدلون بها على أن الله في كل مكان، يلبسون على الناس أمر الدين، يقولون: معنا كتاب الله جلَّ في علاه حجة لنا باهرة. هذه من دأب أهل البدع.

والرد عليهم سهل ويسير بفضل الله:

◆ أمّا الآية الأولى: (وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَٰهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَٰهٌ)؛ من وجوه

□ الوجه الأول: أن الإله هو المألوه الذي تألهه القلوب وتحبه وتعبده، فإذاً (وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَٰهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَٰهٌ)؛ في الأرض هناك الفسق والفجور، الكفر، القتل. مع ذلك قال الله جلَّ في علاه، مع كل هذا الفساد هناك من يعبد الله ويتذلل لله ويتمسكن لله جلَّ في علاه. (وَفِي الْأَرْضِ إِلَٰهٌ) يعني معبود يعبد في الأرض، ما زال الناس يؤذنون ويصلون ويحجون

ويعبدون ربهم جلَّ في علاه. إذاً معنى الآية: أولاً هو في الأرض إله يُعبد كما أنه في السماء إلهٌ يُعبد، لأن الملائكة يلهمون التسبيح والذكر والعبادة لله جلَّ في علاه، هذا الوجه الأول.

الوجه الثاني: كما قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (أنت ربنا في السماء وأمرك في الأرض)، يعني شرعك وأمرك وحكمك في الأرض. فإذاً (وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَٰهٌ) يعني ذاته، يعني هو على العرش، فوق العرش كما قال جلَّ في علاه: (الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى) [طه:5]. (وَفِي الْأَرْضِ إِلَٰهٌ)، يعني أمر الله في الأرض. هذا التقدير بحديث النبي -صلى الله عليه وسلم-: (ربنا الذي في السماء وأمرك في الأرض)، هذا الرد عليهم من هذه الفتنة.

◆ الثاني قولهم (وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ)، الرد عليهم أيضاً من وجوه:

الوجه الأول: (وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ)؛ قف، وقفاً لازماً عند بعض القراء. هذه قراءة، وقفاً لازماً أن تقف، تقول: (وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ)، إذاً الله جلَّ وعلا فوق السماوات.

(وَفِي الْأَرْضِ)؛ الواو هنا ليست عاطفة، بل استئناف. (وَفِي الْأَرْضِ ۖ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ)؛ إذاً هو في الأرض معكم بعلمه، وهو فوق العرش. وهذا مصداقاً لحديث ابن مسعود -رضي الله عنه وأرضاه- أنه قال: (ما بين الأرض والسماء خمسين ألف عام، وما بين السماء والسماء خمسين ألف عام)، ثم قال: (والعرش فوق ذلك والله فوق العرش ويعلم ما أنتم عليه). فهذا رد عليهم من المشابه الذي استدلوا به ولبّسوا على الناس أمر الدين.

إذاً وصف وسمة أهل البدعة والضلالة أنهم لا يأتوننا من غير دليل، بل يأتوننا بالأدلة لكن المتشابهة، ولذلك قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (هؤلاء الذين سمّاهم الله تبارك وتعالى، فاحذروهم).

وعصمنا الله جلَّ في علاه بحديث النبي -صلى الله عليه وسلم: (إن كتاب الله لا يكذِّب بعضه بعضاً، فما علمتم منه فاعملوا به)؛ الأحكام المحكمة

اعمل بها، (فما علمتم منه فاعملوا به، وما لم تعلموا فقفوا) قف عنده، قل: (وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا) [آل عمران:7].

الحديث الثالث وهو ختام هذه الجلسة: (إن الشيطان يئس أن يعبد في جزيرة العرب)، وهذا حديث مشكل، يحتج به أهل البدعة والضلالة على أن الشرك لن يدب في هذه الأمة، الأمة لن تشرك مرةً ثانية. سبحان الله هذا كلام عجيب!!

أولاً أقول: قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (أنه يئس أن يعبده المصلون) ثم قال: (ولكن بالتحريش)، لم ييأس بالتحريش. وهذا الذي فعل، قد أقسم على نفسه أنه سيحرش بأهل الإيمان، وهو الذي حدث مع الصحابة. وقد قال النبي -صلى الله عليه وسلم- في التحريش هذا: (لا تحاسدوا، لا تباغضوا، لا تدابروا)، (لا يبع أحدكم على بيع أخيه، لا يسم أحدكم على سوم أخيه، لا يخطب أحدكم على خطبة أخيه)، وقد قال -صلى الله عليه وسلم- كما صح عنه: (فساد ذات البين هي الحالقة، ولا أقول تحلق الشعر، ولكن أقول تحلق الدين).

ولذلك كان فساد ذات البين من الصحابة بعد موت النبي -صلى الله عليه وسلم-، وبعد موت الأفاضل من صحابة الرسول -صلى الله عليه وسلم-. الفتنة المستطيرة التي لم تخمد حتى الآن بعد مقتل عثمان بن عفان -رضي الله عنه وأرضاه-، وكما قال حذيفة، وقلنا ذلك مراراً أنه قال: لو كان في قتل عثمان بن عفان خيراً لحلبوا بعده لبناً، ولو كان في قتله شراً لحلبوا بعده دماً، وقد حلبوا بعده دماً عبيطاً. ما كف القتل عن أمة محمد -صلى الله عليه وسلم-، فحدث النزاع بين أكابر الصحابة بين معاوية -رضي الله عنه وأرضاه- وبين علي -رضي الله عنه وأرضاه-.

فالصحابة كلهم سواء رضي الله عنهم وأرضاهم، بل الذي حدث ليس من الصحابة، هو من البطانات التي كانت تريد أن تشعل فتيل الخلاف والتشاحن بينهم. لكن حدث ما حدث تحريشاً من الشيطان ووقع ما وقع، نسأل الله جلَّ في علاه أن يغفر للمجتهد المخطئ منهم وأن يثيب المجتهد المصيب الأجرين جزاءً وفاقاً يوم القيامة.

إذاً التحريش حدث، وهذه معجزة باهرة للنبي -صلى الله عليه وسلم-، لكن إمّا أن نقول أنه حديث ضعيف بما في أوله أو هو متضارب. قال: (يئس الشيطان أن يعبده المصلون)، مع أن الحديث عارضه في ظاهره حديث أبي هريرة -رضي الله عنه وأرضاه- قال: (مات رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، وكفر من كفر من العرب)، في رواية ثانية: (وارتد من ارتد من العرب)؛ عبدوا الشيطان، عبدوا الأصنام، رجعوا إلى عبادة الشيطان.

وفي حديث في الصحيح: (لن تقوم الساعة حتى تضطرب أليات نساء دوس على ذي الخلصة)؛ صنم يعبد من دون الله، يمكن هذا يؤول أن يقول: في آخر الزمان، ليس في زمان الإيمان والإسلام. نقول: حديث أبي هريرة -رضي الله عنه وأرضاه-: (وكفر من كفر من العرب)؟ إذاً لابد من التأويل أو نقول بالتعارض، والتعارض ليس موجود هنا أبداً في أي حديث من أحاديث النبي -صلى الله عليه وسلم-.

◆ الوجه الأول: أمّا التأويل فنقول معنى قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (قد يئس أن يعبده المصلون)، أي خاصةً صحابة رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، وصحابة رسول الله الذين عدّلهم الله في كتابه رداً على الرافضة الذين قالوا: هم كفروا إلّا ثلاثة عشر نفر. فنقول هي خاصة في صحابة رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، أنهم لن يرتدوا عن دين الله جلَّ في علاه، وهذا فيه ضمنٌ تعديل لهم من رسول الله -صلى الله عليه وسلم-.

◆ الوجه الثاني: أن نقول هذه مؤولة؛ قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (يئس أن يعبده) يعني يعبده المؤمن مع عبادته لله يعبد الشيطان، يعني يجمع بين العبادتين، يعبد الله ويعبد الشيطان، وهما طريقان متضادان لا يجتمعان بحال من الأحوال، (يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ ۖ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا) [مريم:44]. لا يجتمعان بحال من الأحوال كما قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (كل الناس يغدو، فبائعٌ لنفسه، فمعتقها أو موبقها)؛ التفسير: من باعها للرحمن فقد أعتقها، ومن باعها للشيطان فقد أهلكها، لا يمكن أن يجتمع بحال من الأحوال.

إذاً التأويل لا يمكن أن ترى رجلٌ عبد الله جلَّ في علاه على حق، وعلم أن دين الله هو الحق وعبد معه الشيطان، وإلّا ففي عصورنا عبدة الشيطان قد ظهر. إذاً التأويل الثاني هو الاقتران بعبادة الله مع عبادة الشيطان، أمّا إفراد العبادة للشيطان وللأصنام وجد في عصرنا، في مصر انتشرت عبادة تسمى عبادة الشيطان، عبدة الشيطان طائفة ظهرت وعبدت الشيطان عياناً بياناً.

فإذاً الحديث إمّا مخصوص تعديلاً لصحابة رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، أو مؤول بالاقتران لعبادة الشيطان مع عبادة الرحمن، لأنه لا يمكن أن يرتد أحد عبد الله على حق كما قال هرقل لأبي سفيان: أرجع أو ارتد أحدٌ منهم عن دينه سخطاً في الدين أو عتباً على هذا الدين؟ قال: لا. فمن تذوق حلاوة الإيمان لا يمكن أن يرتد عن دينه لعبادة الشيطان.

أمّا الذين يحتجون به لأنه لا شرك، قلنا الواقع يكذِّب ذلك لأنه قد كفر من كفر من العرب في عصر الرسول -صلى الله عليه وسلم-، وفي واقعنا المشاهد كثير من الناس الآن يتجرؤون على الله وعلى رسول الله ويشركون بالله عياناً بياناً، ومنهم من ظاهر في التصريح دون التلميح أنه يعبد الشيطان ويقتل من يسب الشيطان. فهذا رد واقعي على من يحتج بهذا الحديث، أن الشرك قد انتفى من هذه الأمة، هذا آخر ما يمكن للكلام عليه في هذه الأحاديث.

الفوائد المستنبطة:

- تفرُّق أهل البدعة والضلالة وعدم اجتماعهم على كلمةٍ واحدة، قال: (وفارقوا دينهم وتفرقوا).

-الثاني؛ لا توبة لصاحب بدعة. لِمَ؟ استدراجاً من الله جلَّ في علاه لأنه زيّن له عمله فرآه حسناً.

- الثالثة؛ البراءة براءتان: براءة من العمل، وبراءة من الشخص أو براءة من الدين. هذه تبيّن لك وتوضح لك مشكلات كثيرة تكون في الأحاديث؛ كقول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (برئت ذمت الله ممن جلس بين أظهر المشركين)، وقول النبي -صلى الله عليه وسلم-:

(من غشنا فليس منا)، فكل هذه براءات دنيا ليست براءات عظمى، براءة من العمل لا براءة من الشخص..

١_الراوي : أبو بكر الصديق | المحدث : الألباني | المصدر : ضعيف الترغيب

الصفحة أو الرقم : 41 | خلاصة حكم

٢_ الراوي. جابر بن عبدالله | المحدث : مسلم | المصدر : صحيح مسلم

الصفحة أو الرقم: 2812 | خلاصة حكم المحدث : [صحيح]

٣_الراوي : أبو سعيد الخدري | المحدث : مسلم | المصدر : صحيح مسلم | الصفحة أو الرقم : 1064 | خلاصة حكم المحدث : [صحيح] | التخريج : أخرجه البخاري (7432)، ومسلم (١٠٦٤)

باب: بئس العبد عبد هواه يضله

عن نعيم بن هبّار الغطفاني قال: سمعت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يقول: (بئس العبد عبدٌ هواه يضله، بئس العبد عبدٌ رغبٌ يذله)(١)

وعن أسماء بنت عميسٍ الخثعمية قالت: سمعت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يقول: (بئس العبد عبدٌ هواه يضله)

باب قوله -صلى الله عليه وسلم-: (إن الرجل إذا رضي هدي الرجل وعمله فإنه مثله)

وعن عقبة بن عامرٍ -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: (إن الرجل إذا رضي هدي الرجل وعمله فهو مثله)، وعنه أيضاً قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: (إن الرجل إذا رضي هدي الرجل وعمله فإنه مثله)

بالنسبة للحديث الأول والإسناد كما بيّنا أن الشيخ رحمه الله قد (*)، لكن الكلام فقط على بعض كلام أهل الحديث على بعض الرواة: طلحة، زيد. والشيخ قال: إسناده ضعيف جداً، وطلحة كما قال الذهبي وغيره: أنه كان يضع الحديث. وكان من باب أولى أن يقال أن الحديث موضوع. الذي يجعله ذلك أنه في سنن الترمذي بإسنادٍ آخر وهذا الإسناد فيه ضعف، فيه جهالة فقط زيد الخثعمي، هذه الجهالة التي ضعّفت الإسناد.

أقول هذا الحديث: (بئس العبد)؛ بئس: هذا أسلوب ذم، "وبئس" هي كما قال علماؤنا مجامع الذم كل الذم في بئس، كما أن العكس مجامع المدح في "نِعْمَ".

(بئس العبد)؛ لِمَ استحق هذا العبد الذم؟ وكيف يستحق الذم وقد قال له بصفة العبودية والعبودية هي أرقى المنازل؟ هذا عجيب!! فإن الله جل في علاه لمّا شرف نبيه -صلى الله عليه وسلم- شرّفه بأرقى المنازل في هذه الدنيا التي يمكن أن يرتقي إليها أمروٌ، ألا وهي منزلة العبودية: فإن في

مقام المعجزة قال الله تعالى: (سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى) [الإسراء:1]، وفي مقام التحدي: (وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا) [البقرة:23]، فالعبودية هي أشرف المنازل التي يمكن أن ينزلها عبد، حتى في مقام الدعوة: (وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ) [الجن:19]، فهي أفضل المنازل.

فهو يأتي هنا بهذه الصفة صفة العبودية ثم يلصق بها الذم، هذا شيءٌ عجيب!! لكن نقول الجمل والسياق، كما قال علماؤنا السياق من المفسرات ومن المقيدات. إذا أتممت القراءة رأيت أن النبي -صلى الله عليه وسلم- بيّن فيما روي عنه "جزئية الذم"، أن هذا العبد اتبع هواه فاستحق الذم، وهذه كما بيّنا كثيراً الأسبوع الماضي وقبل الماضي بأن الأهواء هي أعظم الأدواء للقلوب وأشد الأمراض الفتاكة بدين العبد؛ قدّم هواه على أوامر الله وأوامر رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فاستحق الذم.

والعبودية تناقض ذلك، فإن العبد لا يكون عبداً لله جل في علاه إلّا بشرطين اثنين: ١- أولهما وأولاهما الاستسلام التام لله جلَّ في علاه، والاستسلام التام لرسول -صلى الله عليه وسلم-. وهذا من باب الإيمان يسمى الإيمان، أي باب الاستسلام لله، الإسلام هو الإيمان لله يعني الاستسلام لأوامر الله جلَّ في علاه. أمّا الإيمان بالله: هو إثبات وجود الله جلَّ في علاه والاعتراف بربوبية الله وإلهية الله كما بيّنا، فأول هذه الدرجات الاستسلام لله جلَّ في علاه.

قال الله تعالى: (إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ) [البقرة:131]، وقال الله تعالى: (فَلَهُ أَسْلِمُوا ۗ وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ) [الحج:34]، (فَبَشِّرْ عِبَادِ * الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ) [الزمر:17-18].

فهذا الاستسلام التام هو تاج العابد لله جلَّ في علاه؛ ألم يأتكم نبأ استسلام إبراهيم -عليه السلام- لتمام العبودية في قلبه لله بعدما عاش دهراً أمداً بعيداً ينتظر الولد، فلمّا أقر الله عينه بالولد أوحى الله ما أمره، أوحى الله إليه أن اذبح هذا الولد بعد ما بلغ معه السعي. فهذا عجيب! فاستسلم لأمر الله وأخذ ابنه ليذبحه، وأعجب من هذا الاستسلام استسلام إسماعيل -عليه السلام-

عندما استسلم لأمر الله وأخذ رقبته ليذبحه إبراهيم، هذا الاستسلام التام لأوامر الله.

واستسلام تام لأوامر رسول الله -صلى الله عليه وسلم- تدل وتنبئ على عبودية هذا العبد.

أيضاً رسولنا -صلى الله عليه وسلم- بيّن لنا أروع الأمثلة في الاستسلام التام لله جلَّ في علاه التي هي تاج العبودية؛ رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أحب البقاع إليه هي مكة، ومع ذلك أمره الله جلَّ في علاه أن يهاجر من مكة وهي أحب البقاع إليه، ولمّا خرج منها قال: (والله إن الله يعلم أنك أحب البقاء إليّ، ولولا أن قومك أخرجوني ما خرجت). وهو أصالةً بأمر الله جلَّ في علاه أن يهاجر من مكة ولا يستوطنها بعد ذلك، فاستسلم لأوامر الله. وفي صلح الحديبية أيضاً عندما كانت به القوة وكانت به المنعة ومعه الآلاف المؤلفة، واستسلم لأمر الله ألّا يقاتل، وألّا يحجّ بالبيت، ألّا يطوف بالبيت ويرجع، فاستسلم واستسلم أبو بكر معه.

الصحابة الكرام ضربوا لنا أروع الأمثلة حتى يقال فيهم: نعم العبد، لا يقال فيهم بئس العبد؛ لمّا حرّم الله عليهم الخمر ما قدّموا أهواءهم، مع أنّهم كانوا يشربون الخمر أنهاراً. هنا لمّا تتكلم مع أحد في مسألة الربا أو مسألة الدخان أو مسألة الخمر، يقول والله ما أستطيع، نفسي أفعل ذلك لكن لا أستطيع. وإذا تكلمت معه في الربا، قال: يا أخي حديث النبي -صلى الله عليه وسلم- يعني (في آخر الزمان من لم يأكل من الربا ناله من غباره)، فيقول هذه لا بد أن ننل من الغبار.

فالغرض المقصود هم ما فعلوا ذلك مع أنهم كانوا يشربون الخمر أنهاراً، عندما قال الله تعالى: (إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ) [المائدة:91]، ماذا قالوا؟ في الصحيح قال أنس -رضي الله عنه وأرضاه-: دخلت على كعب بن معاذ ومن معه والكؤوس تدور على الرؤوس ملأت خمراً. وأنتم تعلمون القصة المشهورة قبل أن يُنزل الله جلَّ وعلا في كتابه تحريم الخمر ماذا حدث من حمزة -رضي الله عنه وأرضاه-، كان يشرب

الخمر أنهاراً حتى أنه أخذ الغنيمة التي كاد يقدمها علي بن أبي طالب مهراً لفاطمة، وقتل بعيره. الغرض المقصود أنه بعدما اشتد سكره نظر إلى النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: من أنت؟ وقال لعلي: من أنت؟ ما أنتم إلّا عبيد لآبائي، من شدة السكر.

فالغرض المقصود قبل أن ينزّل الله جلَّ في علاه تحريم الخمر كانوا يشربون الخمر أنهاراً، وما احتجوا على الله ولا احتجوا على رسول الله، (يقصد ما قالوا) العادة تغلب علينا، طبائعنا لا نستطيع أن نغيرها.

جاء أنس وهو يصور لنا هذا الاستسلام التام لصحابة رسول الله -صلى الله عليه وسلم، فنعم العبد عبد صاحب رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، فقال أنس: دخلت عليهم والكؤوس تدور على الرؤوس فقلت: قد أنزل الله في الخمر قولاً، فقالوا: هاته، فقال لهم: قال الله تعالى: (إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ) إلى أن قال: (فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ)، قال: فضربوا الكؤوس وقالوا: انتهينا ربنا انتهينا ربنا. استسلام تام لأوامر الله جلَّ في علاه؛ فنعم العبد، استسلام تام لأوامر رسول الله -صلى الله عليه وسلم-.

ففي غزوة خيبر عندما غلت القدور بالحمر الأهلية، وكانوا من الجوع بمكان، صرخ الصارخ: إن الله ورسوله يحرّمان عليكم الحمر الأهلية فأكفئوا القدور، استسلاماً لله جلَّ في علاه.

فأول وأولى تاج العبودية وأن يمدح عليه المرء، الاستسلام التام لله جلَّ في علاه والرسول -صلى الله عليه وسلم-. أما رأيتم الرجل الذي لبس خاتماً من ذهب، بعدما نهى النبي -صلى الله عليه وسلم- عن لبس الخاتم الذهب على الرجال وأحلّه للنساء، رأى النبي -صلى الله عليه وسلم- الخاتم في يده فأخذه فألقاه على الأرض. فقال أصحابه: خذه تستفيد منه، تعطيه لزوجك، تبيعه تستفيد منه. فقال: لا والله، لا التقط شيئاً ألقاه رسول الله -صلى الله عليه وسلم-. محض استسلام، ولذلك استحقوا المدح.

وعندنا محض إباء، ولذلك استحققنا الذم والعياذ بالله، "بئس العبد" لأنه لم يستسلم لله جلَّ في علاه.

٢- والعلامة الثانية والخاصة الثانية هي الاتباع الكامل لله جلَّ في علاه دون تدخل الهوى، كسر الهوى من أجل رضا الله جلَّ في علاه. مخالفة ومجانبة الأهواء من أجل أوامر الله وأوامر رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، عملاً بحديث النبي -صلى الله عليه وسلم- المختلف في إسناده وإن كان الاتفاق على صحة المعنى: (لا يؤمن أحدكم (وهنا يعني لا يؤمن إيماناً كاملاً كما بيّنا في القرائن المحتفة) حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به).

ولذلك ضرب لنا الشافعي أروع الأمثلة في ذلك حين قال بسندٍ صحيح عنه كما نقل البيهقي: آمنت بالله وبما جاء عن الله وعلى مراد الله، ما في أي هوى يتدخل في ذلك أو يعاكس هذا. آمنت بالله وبما جاء عن الله وعلى مراد الله، وآمنت برسول الله وبما جاء عن رسول الله وعلى مراد رسول الله -صلى الله عليه وسلم-.

(بئس العبد يضله هواه)؛ فإن الضلال كل الضلال باتباع الهوى، وقد ضربت على ذلك أمثلة واستدللت بدليلٍ ظاهرٍ في الكتاب والسنة. وأريد من الإخوة الأفاضل أن يأتوني بالدليل على هذه القاعدة: أناط الله الضلال (كل الضلال) باتباع الهوى. أريد الدليل مع المثل؟

(يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ) [ص:26]، إذاً الفاء هنا تبين العلاقة، كأن الهوى هو الذي سيضل هذا الإنسان. فتكون الآية الثانية مفسرة على أن الله أضله على علم، يعلم الله من قلبه أنه تملك الهوى من قلبه فتسبب في إضلاله -والعياذ بالله-، فقدّم هواه على الله جلَّ في علاه. الهوى يضل هذا الحديث عجيب!! لأن في زيادة الحديث قال: (بئس العبد يختل الدنيا في الدين، بئس العبد يختل الدين في الشبهات).

(بئس العبد يختل الدنيا بالدين)؛ هذا الذي قدّم الدنيا على الآخرة، أو كما قال علماؤنا: باع آخرته بدنياه. وما أروع ما قاله ابن القيم: أظلم الناس من باع آخرته بدنياه، وأظلم منه ثم أظلم منه من باع آخرته بدنيا غيره. يبيع دينه بثمنٍ بخس دراهم معدودة، فهذا الذي يختل الدنيا بالدين؛ يأتي للجاه وللشرف وللمكانة وللمال، يطعن في الدين من أجل هذه الدنيا، يتكلم بلسان

أهل الدين لكنه يطوّع الدين ويلوي عنق الدين من أجل الدنيا وأهل الدنيا، وليس هذا الباب الذي نتكلم فيه.

(يختل الدين بالشبهات)؛ هو هذا الذي تملك الهوى في قلبه، أنه يختل الدين، يعني يفسد الدين بالشبهات. يلقي على الناس الشبهات؛ ما أتاه أمر في عقيدته يخالف هواه إلّا اتبع الزيغ والمشتبهات ليلبس على الناس أمر دينهم، وينجر ذلك في الأحكام. ما من حكمٍ تبين له الحرمة فيه إلّا وتحايل عليه وأتى بالتلبيس والتدليس والشبهات، ليلبس على الناس أمر الدين، فيحلّ ما أحلّ الله جلَّ في علاه. وسلفهم في ذلك هم اليهود كما قال إبراهيم بن أدهم: يعاملون الله كما يعاملون الطفل الصغير.

أقول والعملة الزائفة لا تروج على الله جلَّ في علاه، انظروا لمّا يتحكم الهوى في القلب يتركوا الدين خلفهم ظهريّاً؛ قال الله لهم: (وَقُولُوا حِطَّةٌ) [البقرة:58]، فقالوا: حنطة، يريدون هواهم يتقدم على أوامر الله جلَّ في علاه. ومنعهم الله ابتلاءً وامتحاناً وتمحيصاً وتمييزاً، منعهم الله من الصيد يوم السبت، فنصبوا الشباك يوم الجمعة ثم أخذوا السمك أو الصيد يوم الأحد، قالوا: ما اصطدنا يوم السبت، حيلة على الله جلَّ في علاه. هذا الذي يختل الدين بالشبهات، يتحايل على أحكام الله جلَّ في علاه.

وأيضاً لمّا حرّم الله عليهم شحوم الميتة، جملوه ثم أذابوه ثم باعوه ثم أكلوا ثمنه، قالوا: حرّم الله علينا أكل شحوم الميتة ونحن ما أكلناها، لكنهم أكلوا الثمن. ولذلك قال الرسول -صلى الله عليه وسلم-: (قاتل الله اليهود، لعن الله اليهود، حرّم الله عليهم شحوم الميتة فجملوه فأذابوه فباعوه فأكلوا ثمنه). هذا الذي يختل الدين بالشبهات بالاحتيال، بالتحايل، ليطمس الحقائق بهذه الشبهات، ليطمس الدين بهذه التأويلات وهذه المشتبهات.

(بئس العبد يختل الدين بالشبهات، وبئس العبد يختل الدنيا بالدين، بئس العبد يضله هواه)، ثم ذكر الجزئية الأخيرة أو الزيادة عليه: (بئس العبد رغبٌ يذله أو طمعٌ يذله). الذليل حقاً من ذلّ لغير الله جلَّ في علاه، والطمع هو الذي يذل الإنسان، الطمع في الدنيا والحرص عليها من شرف ومال وجاه. النبي -صلى الله عليه وسلم- يبيّن أن أفسد ما يفسد دين المرء

حرصه على الشرف وحرصه على الدنيا، ولذلك قال: (الدنيا ملعونة، ملعون ما فيها، إلّا ذكر الله وما والاه وعالماً ومتعلماً). وقال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (ما لي والدنيا)، يقلل منها من شأنها حتى لا يشتد حرص المرء عليها، لأنه سيبيع دينه من أجل هذه الدنيا.

وقد رأينا والله واقعاً شاهدته؛ رجل كان يعمل عملاً براتبٍ صغير، فجاءه عمل في مكان محرّم (بالاتفاق محرم)، وإن قال بعض المشوشين فيه خلاف، يعمل عملاً محرّماً، قلنا له: هذا العمل محرّم، هذا فيه ربا، ستقع في الربا، تأكل ربا، حرام، درهم واحد ربا أشد من ستة وثلاثين زنية. أقسم بالله!! انظروا الحرص على الدنيا وما فيها، والفارق خمسمائة درهم، هذا هو الفارق فقط، لأجل الخمسمائة درهم، قال: هذا حلال، مالكم بي شأن، حسابكم عند ربكم وحسابي عند ربي. فالحرص الشديد على الدنيا جعله يطمس الدين، ويقدّم الدنيا على الدين. (ما لي والدنيا كراكبٍ تحت شجرة ثم تركها وراح)؛ يعني نام وقت القيلولة.

وقال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (لو كانت الدنيا تعدل عند الله مثل جناح بعوضة ما سقى منها للكافر شربة ماء)، وأيضاً مثّلها تمثيلاً آخر: (مثل الدنيا كمثل أحدكم يضع إصبعه في اليم، فلينظر ماذا يخرج؟). الدنيا ليس فيها ثمة شيء، الدنيا دنية من اسمها، والدنيا عند ربنا ملعونة، فكيف يحرص المرء عليها؟ فإن حرص المرء على الدنيا لا بد أن يتذلل لغير الله جلَّ في علاه، وقمة العبودية وقمة العز هي قمة الذل لله. وهذه تنبئ للرجل ألّا يختار أحداً يتذلل له من أجل أمر الدنيا، وإذا اعوز واحتاج لا بد أن يصطفي من يميل علي حاجته، لا يميل حاجته لأحدٍ لا يعرف قدره، وهذا لن تجد منه واحد أو اثنين في الدنيا.

فالصحيح أن الإنسان لا يذل نفسه من أجل الدنيا ولا ينزل حاجته بأي أحدٍ إلّا من يعرف قدره، كما قال الشافعي: لن يحك جلدك إلّا ظفرك، وإذا سألت فسأل من يعرف قدرك. فهذا الرجل الذي طمع في الدنيا ذلل نفسه للشيطان وللهوى وللبشر العجزة الذين لا يملكون شيئاً، ولم يعتز بربه جلَّ في علاه فاستحق الذم.

ثم انتقل المصنف إلى بابٍ آخر وهو: (إن الرجل اذا رضي هدي الرجل وعمل عمله فهو مثله)، هذه الأحاديث الضعيفة تغنينا عنها آيات وأحاديث وآثار أخرى صحيحة؛ قال الله تعالى: (وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ ۚ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ) [النساء:140]، فكانت المثلية أنه جلس يستمع إلى آيات يُكفر بها فرضي، هو ما تكلم بهذه الكفريات لكنه رضي، فلمّا رضي شابههم في الفعل بل وفي العمل وفي المنزلة وفي العقوبة. وقال الله تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ) [المائدة:51].

وأيضاً يقول النبي -صلى الله عليه وسلم- كما في سنن الترمذي: (المرء على دين خليله). وأيضاً في حديثٍ آخر صرّح فيه النبي -صلى الله عليه وسلم- في نفس السنن: (الدنيا لأربعة نفر: رجلٌ آتاه الله المال والحكمة)، هذا من الأغنياء كابن حزم رجلٌ عالم وعنده المال، (رجلٌ آتاه الله المال والحكمة، فهو يسلّط الحكمة على هلكة المال في الحق)، ينظر إلى أبواب الحق فيسلّط الحكمة على هذا المال يهلكه في الحق وفي رضا الله جلَّ في علاه، فهذا بأرفع المنازل.

(ورجلٌ آتاه الله العلم ولم يؤتِه المال، فنظر إلى فعل الأول فقال: لو آتاني الله المال مثل ما أتى فلان لفعلت فيه مثل ما فعل فلان)؛ وجه الشاهد يأتي، قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: (فهما في الأجر سواء)، تماثلا مع أن الرجل لم ينفق درهماً واحداً، لكن هو ساوى الرجل الذي أنفق آلاف الدراهم للنية الصادقة الصالحة، (المرء على دين خليله). وإذا رأى الرجل هدي الرجل وفعل الرجل فارتضى به، فهو مثله في العقوبة أو الثواب.

قال: (ورجلٌ آتاه الله المال ولم يؤتِه الحكمة، فهو يسلّط بغبائه وجهله على المال فينفقه ويسلّط على هلكته في الباطل)؛ في الفسق مرة، في الزنا مرة، في شرب الخمر مرة في الربا مرة. هو يسلّط هذا المال في غير مراد الله جلَّ في علاه، قال: فهذا بأحط المنازل. والرجل الرابع؛ (رجل لم يؤتِه الله (هذا أخيب الناس) المال ولم يؤتِه الحكمة، فنظر إلى هذا الذي معه المال

ولم يؤتَ الحكمة، فنظر إليه بفسقه وفجوره، قال لو أتاني الله مثل ما أتى فلان لفعلت فيه مثل ما فعل فلان، فهما في الوزر سواء).

وهذه الأحاديث تغنينا عن الأحاديث الضعيفة، تبيّن أن الرجل إذا رضي هدي الرجل ورضي فعل الرجل واعتقد اعتقاد الرجل فهو مثل هذا الرجل.

لكن يا ترى ما مناسبة هذه الأحاديث لبابنا ولتصدير الكتاب بأن أضر الأدواء والأمراض على القلوب هي الأهواء؟ ما لنا وما لهذا الحديث بالأهواء والأدواء؟ هو يقول: (إذا رضي الرجل هدي الرجل)، مناسبة هذه الأحاديث للباب الذي نتكلم فيه؟ (بئس العبد يضله هواه)، المناسبة مع الدليل؟ الآن المصنف يصدّر الباب: أسوأ السوء أن يقدّم المرء هواه ورأيه على قال الله قال رسوله؛

ما العلم إلّا قال الله قال رسوله *** قال الصحابة ليس بالتمويه

ما العلم نصبك للخلاف سفاهةً *** بين الرسول وبين قول الفقيه

الآن يصدّر لنا المصنف باب عظيم: ضرر الأهواء على القلوب، ما لنا وما للأهواء في هذا الحديث؟ (إن الرجل إذا رضي هدي الرجل وعمله)، وما ذكرنا من الحديث الذي يغني عنه الدنيا لأربعة نفر، ما المناسبة؟

هو الكلام كله على أن النبي -صلى الله عليه وسلم- يخفي لنا التحذير الشديد والوعيد الأكيد، أنت الآن عند ربك فعلت أو لم تفعل، بما في قلبك من رضا أو إنكار، إن رأيت أهل الأهواء والبدع والضلالات ولم تفعل بفعلهم ولكنك رضيت بأفعالهم فأنت وهم سواء. فلذلك أتى بهذا الباب على أنه يقول أنا ما أحذرك من الفعل نفسه، بل أحذرك مما يختلج في قلبك، أحذرك أن تشابه بالقلب فعل أهل الأهواء وأن ترضى بأهل الأهواء وأن تؤوي أهل الأهواء.

ولذلك يبيّن لك ذلك جلياً حديث النبي -صلى الله عليه وسلم- في الصحيح: (لعن الله من غيّر منار الأرض، لعن الله من آوى محدثاً)(٢)

مع أنه لم يحدث، لم يبتدع، لكن الذي يؤوي المحدث كأنه رضي ببدعته وكأنه يريد نشر بدعته، فلمّا رضي ببدعته دخل في دائرة اللعن وكان بمثله سواء عند الله جلَّ في علاه. فهنا تحذير أكيد من النبي -صلى الله عليه وسلم- أن المرء إذا رضي بأهل الأهواء، وإن لم يتكلم بكلامهم لكن رضي بهم، فهو وهم سواء في العقوبة عند الله جلَّ في علاه.

الفوائد المستنبطة:

◆ أولاً أن الشرع لا يفرّق بين المتماثلين:

هذا الرجل الذي رضي بأهل الأهواء؛ لم يفعل بفعلهم، لم يتكلم بكلامهم، لم يحتج بحججهم، لكن الله جلَّ في علاه أنزلهم نفس المنزلة لمّا رضي بفعالهم، وهذه في العقائد.

وأيضاً في الأحكام، فإن الشرع لا يفرّق بين المتماثلات بحال من الأحوال، وهذه حجة على الأحناف في الخمر؛ أما قالوا وقصروا أن حرمة الخمر على عصير العنب فقط، قالوا الخمر المحرم هو عصير العنب. قلنا لهم: الشرع لا يفرق بين المتماثلين، أسكر عصير العنب أو عصير الشعير أو عصير التمر أو عصير أي حب غيره، أسكرت فهو مثل عصير العنب فيكون خمراً. وقد دلّ الشرع على هذه القاعدة العظيمة وهي المثلية عندما قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (ما أسكر كثيره فقليله حرام)، وفي الرواية الأخرى: (كل مسكرٍ خمر، وكل خمر حرام)، دلّ ذلك على المثلية.

◆ الصاحب ساحب:

(فلينظر أحدكم من يخالل)، وكما قال الإمام الغزالي: الطبع سراق، فإن الإنسان في بيئته مؤثر ومتأثر. فالبيئة التي يجلس بينها إمّا بيئة طلبة العلم ومجلس العلم ومجلس ذكر الله جلَّ في علاه لا يخرج إلّا عالماً أو متعلّماً على سبيل النجاة، فإن لم يكن، فهو محب لأهل العلم وقد وقع في قول ابن مسعود: كن عالماً أو متعلماً أو محباً لأهل العلم، ولا تكن الرابعة فتهلك. أمّا مجالس أهل الفسق وأهل الغيبة والنميمة ضائعٌ مثلهم.

إذاً الطبع سراق، والصاحب ساحب كما قال علماؤنا، وقد قال العرب رأينا الغراب مع الحمامة فاندهشنا. لِمَ يندهشوا؟ الصحيح أنهما لا يجتمعان، الغراب يأكل بيض الحمام، فهو أصلاً من الجوارح فلا يجتمعان، فاندهش العرب. فدققوا النظر فوجدوا الغراب، فيه عيب في رجله ونفس العيب موجود في الحمامة، هذه دلالة على أن كل شبيه لا بد أن تراه يقترن بشبيهه.

ولذلك قالوا: لا تسأل عن المرء ولكن سل عن خليله؛ هذا الذي ينبئك لأن المرء لا يتخير إلّا أمثاله، فإن وجدته يتمثل مع الصالحين مع المتقين مع العلماء هذا منهم -بإذن الله- ومثلهم أو محباً لهم، وإن كانت الأخرى فالأخرى، فالصاحب ساحب.

◆ الهوى يفسد الدين، قل أو كثر:

وهذا الهوى عام مخصوص؛ ليس كل هوى، لأن الإنسان له هوى يرضي الله جلَّ في علاه ويوافق شرع الله، وهوى يخالف شرع الله، فكل الأحاديث التي جاءت في ذم الهوى هو الهوى المخالف لشرع الله جلَّ في علاه. وهل هناك هوى يمكن أن يكون موافق لشرع الله؟ نعم، هناك عبادات يشتهيها المرء لله جلَّ في علاه، ولذلك في الحديث قال: (لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به)؛ فممكن يكون هوى المرء في العدل، هوى المرء في الصيام، هوى المرء في الصلاة، هذا الهوى ممدوح وليس بمذموم. الهوى المذموم هو الذي يخالف شرع الله جلَّ في علاه، وأذّم منه أن يتابعه المرء. إذاً العموم في الأدلة التي جاءت عن الهوى هي عامة مخصوصة يراد بها الهوى الذي يخالف شرع الله جلَّ في علاه.

ثم انتقل إلى باب آخر: باب الأهواء والالتزام بالسنن والأمر بالالتزام بالسنن هذا الذي سنبينه تفصيلا ان شاء الله تعالى في الابواب الاتية.

١_الراوي : أسماء بنت عميس | المحدث : الألباني | المصدر : ضعيف الترمذي

الصفحة أو الرقم : 2448 | خلاصة حكم المحدث : ضعيف | أحاديث مشابهة

التخريج : أخرجه الترمذي (2448) واللفظ له، والطبراني (156/24) (401)، والحاكم (7885) باختلاف يسير

٢_الراوي : علي بن أبي طالب | المحدث : ابن حزم | المصدر : المحلى | الصفحة أو الرقم : 417/7 | خلاصة حكم المحدث : احتج به ، وقال في المقدمة: (لم نحتج إلا بخبر صحيح من رواية الثقات مسند)

باب : الاستعاذة من الأهواء

بابٌ في قوله عليه السلام الاستعاذة من الأهواء:

عن زياد بن علاقة عن عمه قال: كان رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يدعو بهؤلاء الدعوات: (اللهم جنبني منكرات الأخلاق والأهواء والأدواء)

بابٌ في قوله -صلى الله عليه وسلم- في مضلات الأهواء:

عن أبي برزة الأسلمي قال: قال رسول -صلى الله عليه وسلم-: (إن مما أخشى عليكم بعدي بطونكم وفروجكم ومضلات الأهواء)(١)

هذا الكتاب العظيم المصنف من حكمته وأيضاً من دقة نظره أنه يبدأ بالقاعدة الأصيلة عند علمائنا، والقاعدة التي أخبرها النبي -صلى الله عليه وسلم- مع صحابته، ثم أصّلها الصحابة الكرام مع من بعدهم، ألا وهي القاعدة المشهورة التي تربي وتعلم: التصفية قبل التحلية.

قبل أن يبدأ لك بالعلوم والكلام على الصفات والأسماء وضوابط المسائل العقدية المهمة، ابتدأ معك بتصفية القلوب وتنقية القلوب من الشوائب، حتى قبل أن يتحلى المرء تكون القلوب والذات والشخصية نفسها أرض بيضاء نقية، فيصل إليها العلم بسهولة ويسر تتقبله، فلا ترده ولا تعارضه. وقد ورد بسندٍ صحيح في شعب الإيمان عند البيهقي عن ابن عمر -رضي الله

عنه وأرضاه- قال: تعلمنا الإيمان ثم تعلمنا القرآن؛ فتعلم الإيمان تنقيةً للقلوب بياضاً، تنقيةً للشخصية، ثم بعد ذلك يتحلى. تعلمنا الإيمان ثم تعلمنا القرآن؛ فجاء نور القرآن على نور الإيمان فازداد نوراً على نور.

ولذلك نحن نقول علماؤنا قد قيدوا لنا هذه القاعدة التي ماتت واندثرت، ونسأل الله أن نحييها ونعمل بها ألا وهي: التصفية قبل التحلية؛ التصفية من الشوائب، التصفية من الخلق السيء، ثم التحلية باتباع الأخلاق الراقية العالية.

هنا من باب ومن جانب التصفية يبيّن لنا هذا المصنف الأدواء والأهواء التي لا بد من تنقية القلوب منها، ألا وهي اتباع الهوى والشهوات وترك الآثار والسنن. النبي -صلى الله عليه وسلم- يقعِّد ذلك لنا دعوةً وأخباراً، يدعو ويقول: (اللهم جنبني منكرات الأخلاق والأهواء والأدواء).

أولاً كل ما أنكره الشرع واستقبحه فهو منكر، وكل ما استحسنه الشرع وعرفه فهو المعروف. فالمنكرات هي التي أنكرها الشرع، ضابطنا في ذلك ودائرتنا التي ندور حولها هو شرع الله؛ كتاب ربنا وسنة نبينا -صلى الله عليه وسلم-.

اللهم: أصلها يا الله، حذفت الياء وعوض عنها بالميم المشددة. ولا يجمع بينهما؛ يعني لا يصح أن تقول: يا اللهم، إما أن تقول: يا الله أو تقول: اللهم، إلّا في ضرورات الشعر وهذا له باب آخر في الكلام عليه. لكن الصحيح أن الياء تحذف ويعوض عنها بالميم المشددة، ولا يجمع بينهما.

هنا قاعدة عقدية مهمة أصّلها النبي -صلى الله عليه وسلم-في هذا الدعاء العظيم وهو باب التوسل، وباب التوسل يندرج تحت الدعاء، لأن النبي -صلى الله عليه وسلم- يدعو الآن الله جلَّ في علاه، والدعاء له آداب بيّنها النبي -صلى الله عليه وسلم- لنا في هذه الجمل الوجيزة اللطيفة؛ إن نظرنا فيها علمنا أن الدعاء أولاً هو كل العبادة، العبادة كلها دعاء؛ قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (الدعاء هو العبادة)، وقد ورد بسندٍ ضعيف: (الدعاء مخ العبادة)(٢) والصحيح أننا نستغني بالصحيح عن الضعيف، وإذا ذكرنا الضعيف بيّنا ضعفه قدر الإمكان للاستئناس به لا للاحتجاج به.

فصح عن نبينا أنه قال: (الدعاء هو العبادة)، وقد سمّاه الله جلَّ في علاه عبادة: (وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ۖ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي) [البقرة:186]، وهذه تتضمن أن الدعاء أيضاً من أبواب الإيمان. وأيضاً قال الله تعالى: (إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي) [غافر:60]؛ بعدما صدّر الباب بالأمر بالدعاء.

فالدعاء عبادة، بل هو من أجلّ العبادات لأن العبد قمة الذل مع قمة التبجيل والتعظيم تجتمع عند الابتهال والتضرع وإظهار المسكنة للرب الجليل سبحانه وتعالى، مع الإقرار بلسان الحال بتوحيد الألوهية والإقرار بلسان المقال بتوحيد الربوبية. كيف؟ رفع اليد والتوجه إلى الرب الجليل هذه عبادة، وقد صرفها لله جلَّ في علاه ففي لسان الحال قد صدّق توحيد الإلهية، أقر بتوحيد الإلهية. والإقرار بتوحيد الربوبية هو أنك تسأل وتطلب: اللهم امنحني، اللهم اغفر لي، اللهم ارزقني. الطلب هذا يستلزم إقرارك وعقد قلبك على أن القادر المقتدر الذي يملك الكون كله هو الذي يستجيب لك، ففيه بلسان المقال الإقرار بالربوبية.

هذا شأن الدعاء شأنٌ جليل شأنٌ عظيم، لذلك يحث النبي -صلى الله عليه وسلم- الأمة على التعبد لله به، ويستنهض الله الأمة على أن تتقرب لله بهذا الدعاء سواء دعاء المسألة أو دعاء الطلب، ولسنا بصدد التفصيل والتفريق بين الدعائيين.

الغرض المقصود صدّر النبي -صلى الله عليه وسلم- التصفية بالتذلل والتمسكن والدعاء لله جلَّ في علاه؛ له آداب:

أول هذه الآداب أن تتقدم بين يدي دعائك حتى يقبل عند ربك بالوسيلة الصحيحة، وهذا الأدب أدبنا به النبي -صلى الله عليه وسلم- بلسان مقاله في أول الحديث عندما قال: (اللهم)، يعني: يا الله، فتوسل إلى الله بأسماء الله الحسنى.

التوسل: معناه الوسيلة والوصيلة واحدة، السين والصاد يعني بجانب بعض. فالوسيلة هي التي يتوصل بها المرء إلى مراده من ربه جلَّ في علاه، يتقدم بها بين يدي دعائه حتى يقبل عند ربه جلَّ في علاه. فهذه من

أول الآداب التي يتأدب بها المرء بين يدي دعائه لله جلَّ في علاه: أن يتوسل بالوسيلة الصحيحة، والتوسل المشروع توسل بالله.

والتوسل بالله له فروع:

1 - التوسل بأسماء الله الحسنى: وهذا الذي بيّنه لنا النبي -صلى الله عليه وسلم- في هذا الدعاء؛ يا الله. و"الله" اسم من أسماء الله الحسنى، واسم الله الأعظم هو الله، وهذا الراجح الصحيح.

إذ كل اسم إذا اقترن باسم الله يكون صفة له، والله لا يكون صفة لأي اسم؛ تقول: الله الرحيم، فالله هو اسم علم على ذات الله والرحيم صفة لله، ولا تقول الرحيم الله، لا يصح أن يكون الله صفة للرحيم، فإذاً هذه من الأدلة على اسم الله الأعظم هو "الله".

أيضاً أكثر ما ذكر في القرآن هو اسم "الله"، وما من حديث قال فيه النبي -صلى الله عليه وسلم- ودعا باسم الله الأعظم إلّا وذكر فيه الله. كما مر الرسول -صلى الله عليه وسلم-على رجل يدعو الله: اللهم إني أسالك أنك أنت الله الواحد الأحد الفرد الصمد، قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (اسأل الله باسمه الأعظم الذي إذا سئل به أعطى وإذا دعي به أجاب)(٣)

فتقدّم النبي -صلى الله عليه وسلم- بين يدي دعائه بالوسيلة العظيمة بالأسماء، فالتوسل بالأسماء يصح، كما قال الله تعالى: (وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا) [الأعراف:180]، وقال جلَّ في علاه: (قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَٰنَ ۖ أَيًّا مَّا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ) [الأسماء:110].
وكان النبي -صلى الله عليه وسلم- كما صح عنه يقول: (اللهم إني أسألك بكل اسمٍ هو لك سميت به نفسك أو علّمته أحداً من خلقك أو أنزلته في أحد من كتبك أو استأثرت به في علم الغيب عندك أن تجعل القرآن) ... إلى آخر الدعاء.

"الله" اسم من أسماء الله، يتضمن صفة الألوهية، المألوه الذي تألهه القلوب، يعني تعبده تذللاً وخضوعاً. فقال: يا الله، توسل باسم الله جلَّ في علاه.

2 - الثاني التوسل بصفات الله جلَّ في علاه؛ ثلاث أحاديث تثبت لنا تأصيلاً سنياً التوسل بصفات الله؛ قال: (يا حي يا قيوم برحمتك استغيث أصلح لي شأني كله)، وقال: (أعوذ بوجهك الذي أشرقت له السماوات والأرض)، وقال: (أعوذ بكلمات الله التامات). هل هذه الأدلة صحيحة بأننا يمكن أن نتوسل بصفات الله؟

كما بيّنا أن الأدب بين يدي الدعاء أن نختار الاسم الذي تريد منه الدعاء؛ نقول يا رزاق ارزقني، ما أقول يا جبار ارحمني، هذا سوء أدب مع الله. مر بعضهم على رجلٍ يلحن ويقول: يا ذو الجلال والإكرام، فنظر إليه رجلٌ وقال: وكيف يجيبك وأنت تلحن؟ فهذا من سوء الأدب. ومن الآداب أن يتقدم المرء بين يدي الدعاء، أن يتخير ما يدعو به الله جلَّ في علاه، فهو يدعو بين يدي دعائه باسم يناسب هذا المقام.

(برحمتك استغيث)؛ صفة الرحمة وهي صفة ذاتية فعلية.

(أعوذ كلمات الله التامات)؛ أضاف الكلمة لله، فهنا الله يتكلم؟ نعم يتكلم. كما يتكلم المخلوق؟ حاشا لله، هذا كلام أهل البدعة والضلالة، كلامٌ يليق بجلاله وكماله جلَّ في علاه.

3 - التوسل بالأفعال: الدليل على التوسل بالأفعال دقيق: (اللهم صلِّ على محمد)، أين وجه الدلالة؟ (كما صليت). فأنا الآن أتوسل بصلاة الله على إبراهيم أن يصلي بها على محمد. أو تقول مثلاً: أنت الذي أرسلت الرياح بشراً بين يدي رحمتك ارحمني كما أرسلت الرياح أو المطر رحمةً للبشر، هذا توسل بأفعال الله جلَّ في علاه.

هنا النبي -صلى الله عليه وسلم- يُأصِّل لنا التوسل بأسماء الله، هذه القاعدة العقدية الأولى؛ قال: (اللهم جنبني منكرات الأخلاق والأهواء والأدواء).

الأخلاق حث عليها الشرع الحنيف؛ وحسن الخلق أثقل ما يكون في ميزان العبد كما ورد عن النبي -صلى الله عليه وسلم- في صحيح أبي الدرداء لما سئل: (أثقل ما يكون في ميزان العبد؟ قال: حسن الخلق)، وعن أبي هريرة -رضي الله عنه وأرضاه- قال: (أكثر ما يدخل المرء الجنة تقوى الله وحسن الخلق). وكان النبي -صلى الله عليه وسلم-عندما وسمه الله

ووصفه، وصفه بأرقى الصفات قال: (وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ) [القلم:4]، وكانت عائشة لما تسأل عن خلق النبي -صلى الله عليه وسلم- تقول: (كان خلقه القرآن)، والنبي -صلى الله عليه وسلم- يقول: (أحبكم إليّ وأقربكم مني منزلةً يوم القيامة أحاسنكم أخلاقاً، وأبغضكم إليّ وأبعدكم مني منزلةً يوم القيامة مساويكم أخلاقاً). وفي المسند بسندٍ صحيح عن عائشة -رضي الله عنها وأرضاها- قالت: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: (إن المرء ليدرك بحسن الخلق درجة الصائم القائم).

ولمّا كان حسن الخلق في المنزلة العظيمة هذه، كان النبي -صلى الله عليه وسلم- في كل دعائه يدعو الله أن ينفي عنه ضد حسن الخلق، وهو سوء الخلق. ولذلك كان يقول: (اللهم جنبني منكرات الأخلاق)؛ جمع كل المنكرات ودعا الله جلَّ في علاه أن يبعده عنها.

فهذه الكلمة الموجزة أدبٌ آخر يتقدم به النبي -صلى الله عليه وسلم- بين يدي دعائه وتوسل آخر ألا وهو من آداب الدعاء التي تستوجب أو تستلزم الإجابة: هو الاعتراف بالجميل، وأن حسن الأفعال من الله جلَّ في علاه، وأنه أسند النعمة لباريها.

إذ لا أحد يهتدي ولا أحد فيه الخير إلّا من الله جلَّ في علاه، كما قال ابن القيم: ما من أحدٍ إلّا وخلق فيه الظلم وفيه الجهل، لولا أن تدركه رحمة الله جلَّ في علاه فتنقي عنه الظلم وتنقي عنه الجهل. قال الله تعالى: (وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ) [النحل:53]، وقال النبي -صلى الله عليه وسلم- كما في الصحيحين في الحديث القدسي: (قال الله تعالى: يا عبادي كلكم (لا أحد) ضال إلّا من هديته)، ولذلك قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (إنكم لن تدخلوا الجنة بعملكم، قال: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: ولا أنا، إلّا أن يتغمدني الله برحمته).

فالأدب الثاني: أن تثني على الله ما هو أهلٌ له، والثناء على الله هنا بجميل فعاله، بأن تنسب النعمة له، وأنك لا تسدد ولا توفق ولا تهتدي إلّا به، تتضرع بذلك أمام دعائك حتى يتقبل الله منك. قال الله تعالى: (مِنْهُم مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ) [النحل:36]، فمنهم من هدى الله

تفضلاً وتكرماً ورحمةً من الله جلَّ في علاه. ولذلك يقول الله جلَّ في علاه في الحديث القدسي: (فمن وجد خيراً فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلّا نفسه). ولذلك أدّى النعمة لباريها رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، تأدباً أدباً ثانياً في الدعاء، مؤصّلاً لنا هذا الأدب حتى نأخذ به؛ أن نسدي النعمة لباريها ونبين أن الله جلَّ في علاه له الفضل والمنة والكرم علينا، "اللهم أنت الذي تملك ذلك جنبني منكرات الأخلاق".

نختار من هذه المنكرات التي هي أضر ما تكون على القلوب ألا وهي:

◆ أولاً الكذب: الكذب من منكرات الأخلاق، والكذب والإيمان لا يجتمعان، يتضادان، ينتفي الإيمان مع وجود الكذب. فإن الله جلَّ في علاه لا يحب الكاذب الفاسق الأفاك الأثيم، وإن رسول الله لا يحب الأفاك الأثيم الكذاب، وإن النبي -صلى الله عليه وسلم-عندما زجر الأمة عن خلق أشد ما زجر عن الكذب؛ حيث يقول -صلى الله عليه وسلم-كما في المسند بسندٍ صحيح: (إن الكذب يهدي إلى الفجور، وإن الفجور يهدي إلى النار، وما زال المرء يكذب ويتحرّى الكذب حتى يكتب عند الله كذّاباً)، نعوذ بالله من ذلك.

ولمّا سئل النبي -صلى الله عليه وسلم- عن الجبن عن البخل للمؤمن أقر بذلك، لكن لمّا سئل عن الكذب بيّن أنهما لا يمكن أن يجتمعا، قال: لا؛ يعني المؤمن لا يمكن أن يكذب. وجعل الكذب علامة من علامات النفاق، حيث يقول -صلى الله عليه وسلم- كما في الصحيحين: (آية المنافق ثلاث: إذا حدّث كذب).

فالكذب مذموم من الشرع كليةً، والكذب ليس من علامات المؤمنين، والكذب هو سمة من سمات وصفات المنافقين. هذا الكذب المحرم والمذموم شرعاً يستثنى منه أحوال؛ هذه الأحوال ثلاثة:

1 - الحالة الأولى: الكذب على الزوجة؛ أن يكذب المرء على زوجته حتى يتقرب ويقرب المسافات بينه وبينها، يتلطف معها ويحسن إليها، يقرب مشاعرهم وإن كانت بالنسبة له بغيضة، لكن من باب قول الله تعالى: (وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ) [النساء:19].

2 - الحالة الثانية: الكذب في الحرب؛ إذ النبي -صلى الله عليه وسلم- بيّن أن الحرب خدعة، والأولى منها التعريض، لكن لو كذب يحل ذلك. كما قال النبي -صلى الله عليه وسلم- عندما سأله فقال: (نحن من ماء)، وهل هذا كذب؟ (أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ) [المرسلات:20]، فسمّاه ماءً.

3 - الثالث: يصح إذا أراد أن يصلح بين اثنين؛ رجل يتجادل مع رجل، يسب فيه ويأتي بمساوئه ولا يأتي بأخلاقه الحميدة، تذهب أنت له وتقول: ما رأيته إلّا يثني عليك خيراً، ما رأيته إلّا يرفع مقامك ومقدارك أمام الناس، وتخبر حتى تظهر خيراً. كما قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (ليس الكذاب الذي يصلح بين الناس فينمي خيراً)، وقال النبي: (فساد ذات البين هي الحالقة، ولا أقول تحلق الشعر ولكن أقول تحلق الدين). فلذلك إصلاح ذات البين هو أفضل الأعمال، كما قال الله تعالى: (لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ) [النساء:114]، ولعظم شأن الإصلاح أباح الشرع فيها الكذب.

إذاً الكذب من مضلات الأخلاق، فنقول أقسام الكذب وأحكامها:

- الكذب على الله وعلى رسوله - الكذب في كلام الناس

نأخذ تصاعدياً بالأخف ثم الأثقل:

◆ أمّا الكذب في كلام الناس فهذه آية من آيات المنافقين، ومحدثونا كانوا يضبطون ضوابط ويجعلون سمات وصفات لمن يحدّث عنهم يقولون: من كذب بكلام الناس لا يؤخذ حديثه، ولو تاب؟ ولو تاب، شدد بعضهم، كما قال مالك وغيره. والأشد منهم والأعجب أن من كذب على حماره لا يؤخذ حديثه؛ البخاري رأى بعض المحدّثين كان ما معه طعام للحمار، وليس عنده مال يشتري له، فأراد أن يأتي بالحمار وما يأتي الحمار إلّا بالطعام، فكان يموّه عليه أن في هذه القصعة وهذه القفة الطعام، فيأتيه الحمار، فنظر البخاري فقال: ويحك أين الطعام؟ قال: أفعل معه ذلك أحياناً حتى يطاوعني.

قال: تكذب على الحمار؟ والله لا أخذ منك حديثاً. وكان قد ضرب أكباد الإبل ليأخذ هذا الحديث، فانظروا إلى التحرّي.

فالكذب في كلام الناس يسقط العدالة، ولا يكون عدلاً لا يأخذ منه فتوى ولا علماً ولا يأخذ منه حديثاً، إلّا أن يتوب إلى الله جلَّ وعلا ويؤوب، هذا الأخص.

◆ أمّا الأثقل فهو الكذب على الله والكذب على رسول الله؛ فمن كذب على رسول الله استحقّ النار، وهل يكفر بذلك أم لا يكفر؟ خلاف بين العلماء، الصّحيح الرّاجح أنّه لا يكفر، إلّا أن يكذب على الله جلَّ في علاه ويقول بأنّ الله أنزل قرآناً غير هذا القرآن أو أن هذا القرآن الذي بين أيدينا ليس بكلام الله جلَّ في علاه بل هو ثلث القرآن، هذا الذي يصل إلى الخروج من الملة.

هذا الخلق الأول الذي دعا النبي -صلى الله عليه وسلم-: (أعوذ بك من منكرات الأخلاق)(٤)

الكذب ثم الكبر؛

◆ الكبر وإن كان من الأدواء القلبية فهو من منكرات الأخلاق؛ ترى كثيراً من الناس يمشي بين الناس كالطاووس، ينظر إلى الناس كأنهم كالذر، كأناملة لا ينظر إليهم على أنهم بشر كما هو بشر، ولا يعلم قدرهم عند الله أو قدره هو عند الله. وهذا حقاً من منكرات الأخلاق؛ كفى مذمةً بالمتكبر أنه ينازع الله صفة من صفاته، فإن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: (قال الله تعالى: الكبر ردائي، والعظمة إزاري)، فمن نازع الله في صفة من صفاته عذبه الله ولا يبالي جلَّ في علاه.

والله جلَّ في علاه يقول: (إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ) [النحل:23]؛ إذا أبغض الله عبداً فمن يحبه؟ وإذا أحب الله عبداً من يبغضه؟ ما في أحد، فالله لا يحب المستكبرين. وأيضاً كفى عقاباً بالمتكبر أن النبي -صلى الله عليه وسلم-كما في الصحيحين قال: (لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر)، والعياذ بالله.

وأمّا صفة الكبر وسمة الكبر حتى تعلمها من نفسك أو من غيرك: (بطر الحق وغمط الناس)؛

- وغمط الناس: يعني احتقار الناس. فانظر للناس وأنت في علو وهم في سفول، تزدري الناس كأنك خلقت من ماء غير هذا الماء، أو خلقت من نور وهم خلقوا من طين، فهذا غمط الناس. هذه الصفة الأولى.

- والصفة الثانية بطر الحق: أي مدافعة الحق بكل ما أوتي من قوة، بكل ما أوتي من شبه حتى لا يقبل هذا الحق تكبراً، لأنه أتى هذا الحق من غير طريقه أو من غير طريق من يعتد به فيدفعه -والعياذ بالله- كبراً منه.

ثم بعد ذلك قال: (والأهواء والأدواء)؛ أقول هذا ذكر خاص بعد عام وسيأتي في الفوائد المستنبطة، لأن منكرات الأخلاق منها الأهواء أيضاً، ومنها الأدواء. الأول اسم للظاهر والباطن، والثاني اسم للباطن لأن كل الأدواء التي يدعو النبي -صلى الله عليه وسلم-لها ويستنهض الأمة أن تدعو أن تجنبها الأمة هي أدواء القلوب، وهي الأدواء أو الداء العضال الذي لا يمكن للإنسان أن يفر منه ولا يرتقي عند ربه حتى ينقّي قلبه. نعوذ بالله من منكرات الأهواء، والأدواء هي التي تصيب القلوب. ومن هذه الأدواء:

◆ الحسد: الحسد أشد الأدواء التي إذا امتلأت في القلب أحرقت صاحبها، فإن الحاسد محترق، الحاسد معترض على حكمة الله جلَّ في علاه، ليس براضٍ عن الله وليس براضٍ عن قضاء الله وعن قدر الله جلَّ في علاه.

وكما قلت الحاسد محترق والحسد هو أشد أدواء وأشد أمراض القلوب، فعلى المرء أن يعتني بقلبه وينظر مرة بعد المرة هل الحسد تعمق في قلبه أم لا؟ وأكثر ما تراه الحسد تراه بين طلبة العلم، يريدون الانفراد "الأحادية"، وهذه لا تكون إلّا لله جلَّ في علاه. وقال بعض علمائنا كما قال ابن عباس: هم كالتيوس في الحظيرة؛ كأنه ينصح بعضهم بعضا يريد الانفراد. فالحسد منتشر بين الناس، وأشد ما يكون بين طلبة العلم وبين الأقران. والحسد كما قلت داء عضال في القلب يفسد القلب، فعلى الإنسان أن ينقّي نفسه من هذا الداء العضال.

أدلة على مذمة الحسد: أولاً من كتاب الله، سورة كاملة في كتاب الله عن الحسد: (قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ) [الفلق:1]. وفي الحديث النبي -صلى الله عليه وسلم- نهى عن الحسد، قال: (لا تحاسدوا)، وهذا نهي وأصل النهي التحريم. الحسد أول معصية عُصِي بها الله جلَّ في علاه، ما الذي جعل إبليس يتكبر على أمر الله جلَّ في علاه؟ حسداً على آدم عندما قال: أنا لا أعظّم ولا يسجد لي!! وهذا الذي خلق من طين يسجد له؟!! فقال: (قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ) [الأعراف:12]، فحسد آدم فلم يسجد له، دعاه الحسد إلى التكبر فلم يرضَ بأمر الله جلَّ في علاه.

ولذلك إبليس نفسه يقرر ذلك أن أول معصية أهلكته هي حسد آدم -عليه السلام-، ولذلك ترى الأمم التي اتبعت إبليس وهي في النار إن شاء الله معه يوم القيامة، أكثر هذه الأمم هي أمة بني إسرائيل، هي التي حسدت الأمم بعدها. ولذلك قال الله تعالى في كتابه مصرحاً مبيناً أن هذه الأمة أمة حاسدة: (وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا) [البقرة:109]، الوصف أنهم حسدة يحسدونكم على ما أنتم فيه من خير. وهم يحسدون أهل الخير منهم، أن الله جلَّ في علاه لمّا جعل طالوت عليهم ملكاً ماذا قالوا؟ حسدوه وما رضوا به، (وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ) [لبقرة:247].

وأيضاً أهل مكة رفضوا رسول الله -صلى الله عليه وسلم- حسداً، (وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ) [الزخرف:31]. وأيضاً كبراء مكة حسدوا العبيد كيف يمن عليهم بهذا الخير وهم لم تفتح قلوبهم لهذا الخير، لمّا قالوا: (أَهَٰؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّن بَيْنِنَا)، قال الله تعالى: (أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ) [الأنعام:53]. فالحسد داء عضال أضاع الأمم وأضاع المتكبرين، نعوذ بالله من هذا المرض العضال.

والنبي -صلى الله عليه وسلم- قد دعا ربه جلَّ في علاه أن يجنبه ذلك، وهذا استنهاض لأنفسنا إن كان الذي وصل إلى الكمال البشري يدعو الله ويستعيذ من منكرات الأخلاق، فنحن أحرى بنا وأجدر بنا وأولى بنا أن ننقي قلوبنا وندعو الله أن يجنبنا هذه المنكرات وهذه الأهواء وهذه الأدواء.

إذاً الحقد والحسد والكبر والكذب من الأخلاقيات التي دعا النبي -صلى الله عليه وسلم- أن يتجنبها وتتجنبها الأمة.

الحديث الثاني فيه: (إن مما أخشى عليكم بعدي بطونكم وفروجكم ومضلات الأهواء)؛ أصول ضلال هذه الأمة من أصلين، أصّلهما النبي -صلى الله عليه وسلم- في هذا الحديث: أصل شهوة وأصل شبهة.

فضلال الأمة يدور على هذين الأصلين: الشهوة والشبهة؛ والذي يضل بالشهوة يرجى له الأوبة ويرجى له التوبة، والذي يضل بالشبهة لا يرجى له الأوبة إلّا من رحم الله جلَّ في علاه. الدليل على أن سبب تخبط الأمة وضلال الأمة من هذين الأصلين:

- (فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ) [مريم:59]، ممكن بإضاعة الصلاة لا تكون إلّا بالابتداع (اتباع الشبهات)، فالآية فيها الشبهات وفيها الشهوات.

- الدليل الثاني على الشبهة: (أَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ) [آل عمران:7]، أصل ضلالهم ليدحضوا به الحق.

- (وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَن تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا) [النساء:27]، جاء الشبهات والشهوات؛ (تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا) سواء كانت بالشبهة أو كانت بالشهوة، ومحصل الأمر بالشبهة أو بالشهوة انك ستزيغ وانك ستميل عن الحق وعن الطريق المستقيم.

- (فَاسْتَمْتَعْتُم بِخَلَاقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلَاقِهِمْ)، هذه شهوات فتنة المال وفتنة الجسد وفتنة الملك وفتنة الجاه، ثم قال: (وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا) [التوبة:69]، والخوض لا يكون إلّا في آيات الله جلَّ وعلا، بالشبهات، فجمع الله جلَّ وعلا بمضلات الفتن بين الأصليين الشهوة والشبهة.

ولذلك النبي -صلى الله عليه وسلم- خشي على هذه الأمة من مرضين: مرض الشهوة ومرض الشبهة؛ وهذا ترتيب تصاعدي، مرض الشهوة أقل من مرض الشبهة.

ومن أمراض الشهوة: شهوة البطن وشهوة الفرج، وهما متلازمان، أن الذي يأكل كثيراً يجامع كثيراً وينام كثيراً فيكون غبياً كثيراً، لِمَ؟ لأن الأبخرة تغطي في حيز الفكر فلا يفكر في شيء، تراه ينام كثيراً كسولاً كثيراً يجامع كثيراً.

ولذلك النبي -صلى الله عليه وسلم- كانت النصيحة الناصعة البياض التي هي أسطع من شمس النهار إذا أردت ألّا تشتهي فعليك بالصيام، عندما قال: (فمن لم يستطع فعليه بالصيام)؛ فالطعام الكثير يجر المرء إلى الشهوة شهوة الفرج فشهوة البطن متلازمة مع شهوة الفرج. والنبي -صلى الله عليه وسلم- يبيّن أن الكافر يأكل في سبعة أمعاء، والمؤمن لا يأكل إلّا في معي واحد.

ولذلك ابن القيم يبيّن لنا أن فضول الطعام هي أشد ما تكون على الإنسان؛ فضول الطعام وفضول الكلام وفضول النظر. أقول فضول الكلام وفضول النظر، كل ذلك من فضول الطعام، فأصل الضلال أو الشهوة الشديدة التي تجر الإنسان لما بعدها من شهوات شهوة البطن. ولذلك قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (بحسب امرئٍ من لقيمات يقمن صلبه؛ ثلث لطعامه وثلث لشرابه وثلث لنفسه)، فلا بد أن يجعل المرء ثلث لطعامه حتى لا يصل إلى فرجه.

فقال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (من يضمن ما بين لحييه)؛ الفم واللسان، والفم فيه الطعام.، (وما بين فخذيه أضمن له الجنة) لأن الفرج من أشد ما تكون من الشهوات.

فقد قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (ما تركت فتنة من بعدي أضر على الرجال من النساء)، ولذلك حسم الله الباب وحسم المادة وأمر بغض البصر، وأمر رسول الله بغض البصر، ومنع النساء من المساجد إلماحاً وليس تصريحاً حيث يقول: (وبيوتهن خيرٌ لهن). هذه هي الأمراض الأولى أمراض الشهوات.

ويرجى لمن كان ضلاله في الشهوة؛ طلب النظر، طلب المال، طلب الجاه. (تعس عبد الدرهم، تعس عبد الدينار، تعس عبد القطيفة، تعس عبد

الخميصة)، (تعس عبد الزوجة) في رواية من الروايات بسند صحيح. هؤلاء الذين يمتلئون حباً للمال، يمتلئون حباً للشرف والجاه، يمتلئون حباً للنساء، نقول لهم: أقوى أو أقرب ما تكونون إلى الله جلَّ في علاه توبةً وأوبة ما دام الأمر في الشهوة.

أمّا الشبهة فإن توبته بعيدة، والدليل على ذلك قد شرحناه وفصّلناه؛ هذا حديث النبي: (إن الله قد حجب التوبة عن كل صاحب بدعة). وصاحب البدعة ملعون، ولذلك فإن الملعون إذا طرد من رحمة الله أصعب ما يكون أن يرجع إلى الله جلَّ في علاه وإلى توبة الله ما دام قد طرده الله من رحمته.

إذاً هذه الجملة الأخيرة أن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: (إن مما أخشى عليكم بعدي بطونكم وفروجكم ومضلات الأهواء)، جمع بين الأصليين العظيمين: الأصل الأول شهوة، والأصل الثاني سبب الضلال شبهة. والذي في شبهة لا يرجى له التوبة، والذي في شهوة يرجى له التوبة.

الفوائد المستنبطة من البابين السابقين:

- الفائدة الأولى ذكر الخاص بعد العام يدل على الأهمية؛ دليل من الشرع على أن ذكر الخاص بعد العام يدل على التأكيد: (حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَىٰ) [البقرة:238]، إذاً ذكر الخاص لأن الصلاة الوسطى تعتبر أخص، هي صلاة من ضمن الصلوات، فلمّا يقول: (حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَىٰ)، ذكر الوسطى تخصيصاً للأهمية.
- أيضاً (إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ) [النحل:90]؛ (وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ) خاص، (الْإِحْسَانِ) يشمل إيتاء ذو القربى وغيره. فهنا ذكر إيتاء ذي القربى تخصيصاً وبياناً إلى أن صلة الأرحام وأن تعطي النفقة للرحم أولى من الغريب. ويدل على ذلك قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (أدناك ثم أدناك)، وقال النبي -صلى الله عليه وسلم- لزينب امرأة ابن مسعود لمّا سألته عن مسألة

الزكاة: تعطيها لابن مسعود؟ قال: (لكِ فيها أجران أجر الصلة وأجر الصدقة).

- (مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ) [البقرة:98]؛ كل الملائكة ثم ذكر تخصيصاً: جبريل وميكال، هذا دلالة على التأكيد والأهمية، أيضاً (اتقوا فتنة الدنيا واتقوا فتنة النساء)؛ من فتنة الدنيا النساء، ما الدليل على أن النساء من فتنة الدنيا؟ (زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا) [آل عمران:14]، فالنساء من متاع الحياة الدنيا، فلمّا ذكرها النبي -صلى الله عليه وسلم-قال: (اتقوا فتنة الدنيا واتقوا فتنة النساء)، ذكر الخاص بعد العام للأهمية.
- وهنا يبين النبي -صلى الله عليه وسلم-أن الأهواء والأدواء والبدع أهم بكثير من أي شهوة، بين إشارات كثيرة والمضلات مضلات الفتن كثيرة وأشد ما يكون مضلات الفتن بسبب الشبه والبدع.
- - الفائدة الثانية علامات النبوة؛ النبي -صلى الله عليه وسلم- من علامات نبوته كثيرة منها أنه تنبأ لهذه الأمة أنها ستتيه وتتخبط في الشبهات والشهوات؛ قال: (إن مما أخشى عليكم بعدي البطون والفروج ومضلات الأهواء)، والأمة الآن طاعنة في الشهوات وفي الشبهات ليل نهار، النساء كاسيات عاريات والمغنيات والموسيقى وكل المحرمات تراها في هذه الأمة يميناً ويساراً، شرقاً وغرباً، جنوباً وشمالاً. وأيضاً الشبهات فإن الأمة تفرقت وتمزقت، أصبحت فرقاً بسبب هذه الشبهات فكانت نبوءة النبي -صلى الله عليه وسلم-.
- - الفائدة الثالثة: أن النبي -صلى الله عليه وسلم- حصن هذه الأمة، فلمّا مات النبي أتى الأمة ما توعد كما قال نبينا -صلى الله عليه وسلم-: (النجومُ أمنَةٌ للسماءِ، فإذا ذَهَبَتِ النجومُ أتَى السماءَ ما توعَدُ، وأنا أمنَةٌ لأصحابي، فإذا مت أتى أصحابِي ما يوعدونَ). فقد أوتيت الأمة بعد موت النبي بفجيعة كبرى، قال أنس مبيناً ذلك: ما لبثنا أن دفنا رسول الله -صلى الله عليه وسلم- إلّا ورأينا تغير أو أنكرنا قلوبنا.

- بعدما مات رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أتت الفتن تتراً تتتابع على هذه الأمة، دلالة على أن الفجيعة بموت النبي ليست تدانيها فجيعة، وأن المصيبة ليست تساويها مصيبة. بموت النبي انكشفت الأمة وحلت بها الفتن، كما وصف رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فتن تجعل الحليم حيران، ونعوذ بالله من الخذلان.
- ذكرت أننا جلسنا في مجلس العلم من أهم الفوائد أن نذكر بأسمائنا وأسماء أمهاتنا عند ربنا (ما في دليل تكلمت بذلك سقط لسان)، لكن أدلة كثيرة تثبت أننا نكتب بالأسماء عند ربنا. وإلّا فإننا عندنا دليل السحابة، ذكر صاحب الأرض باسمه؛ ملك أمر عندما قال له الراوي: ما اسمك؟ قال: فلان، قال: سمعت من السماء اذهب بهذه السحابة إلى أرض فلان باسمه، فيذكرون بأسمائهم. والحديث معلوم (يكتبون ثم يقال: فلان ما جاء إلّا لحاجة (يعني ما جاء للعلم ما جاء إلّا لحاجة)، يقول الله جلَّ في علاه: هؤلاء القوم لا يشقى بهم جليسهم) فأنت تذكر باسمك عند الله جلَّ في علاه. ولذلك قلت علي بن أبي طالب كان يقول: كونوا معروفين في أهل السماء ولا تكونوا معروفين في أهل الأرض، إشارة إلى الإخلاص والعمل لله جلَّ في علاه.
- المسألة الثانية أنا قلت أن التوسل بالنبي فيه خلاف، حتى نقر بأن هناك ثمة خلاف، لكن لا بد أن يتضح للإخوة أن الخلاف بالتوسل بالنبي هو التوسل بجاه النبي، أمّا التوسل بالذوات فهو ممنوع كما بينا بالتفصيل..
- ١_ الراوي : [قتادة] | المحدث : الألباني | المصدر : صحيح الترغيب
- الصفحة أو الرقم : 589 | خلاصة حكم المحدث : صحيح
- ٢_ الراوي : النعمان بن بشير | المحدث : المنذري | المصدر : الترغيب والترهيب | الصفحة أو الرقم : 388/2 | خلاصة حكم المحدث : [إسناده صحيح أو حسن أو ما قاربهما] | التخريج : أخرجه أبو داود (1479)، والترمذي (2969)، وابن ماجة (٣٨٢٨)

-
- ٣_ الراوي : بريدة بن الحصيب الأسلمي | المحدث : الألباني | المصدر : صحيح الترمذي | الصفحة أو الرقم : 3475 | خلاصة حكم المحدث : صحيح | التخريج : أخرجه أبو داود (1493) والترمذي (3475) واللفظ له، والنسائي في ((السنن الكبرى)) (7666)، وابن ماجه (3857)، وأحمد (22965(
- ٤_الراوي : [قطبة بن مالك] | المحدث : الألباني | المصدر : صحيح الجامع | الصفحة أو الرقم : 1298 | خلاصة حكم المحدث : صحيح | التخريج : أخرجه الترمذي (3591) مختصراً، وابن حبان (960)، والطبراني (19/19) (36) باختلاف يسير

باب: ما يجب أن يكون هوى المرء تبعاً لما جاء به النبي

باب ما يجب أن يكون هو المرء تبعاً لما جاء به النبي -صلى الله عليه وسلم-:

قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: (لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به). وعن جابر بن عبدالله قال)١) (كنا جلوساً عند فخط خطاً هكذا أمامه فقال: هذا سبيل الله عز وجلّ، وخط خطاً عن يمينه وخط خطاً عن شماله وقال: هذه سبل الشيطان، ثم وضع يده في الخط الأوسط ثم تلى هذه الآية (وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ) [الأنعام:153]).

الحديث الأول والحديث فيه "نعيم بن حماد"، هذا الحديث كما قلنا هو إشارة فقط لمّا كفانا فيه الشيخ -رحمة الله عليه- (الشيخ الألباني)، إسناد هذا الحديث ضعيف. وهذا الحديث حسّنه النووي وقرر بأنه حديث حسن

صحيح، والعلماء وهّنوا التصحيح بنعيم بن حماد. والحديث له علتان صراحة، ليست هذه العلة الوحيدة.

"نعيم بن حماد"؛ الغريب أن هذا الإسناد روى له البخاري وأبو داوود والترمذي وأيضا ابن ماجه، لكن البخاري روى له مقروناً، ما هي الحكمة أن أقول مقروناً؟ إذا روى البخاري له إفراداً، فهو حجة عنده؛ أي ثقة ثبت. أمّا إذا روى له مقروناً، إذ هو فيه ضعف فيتقوّى بغيره، كالمتابعات. إذاً لمّا نقول روى له البخاري، حتى لا يؤخذ على البخاري كيف يخرج لهذا الرجل. نعيم بن حماد وفقه كثير من أهل العلم أولاً -كما قال ابن رجب-، إحساناً للظن به لأنه كان يعد على السنن بالنواجذ، ثم لمّا تتبعوا استقراءً لأحاديثه وجدوه يخالف الثقات ووجدوه يأتي بالمناكير، حتى أن أبا زرعة قال: هو يرفع الموقوفات ويصل المرسلات؛ فهذه فيها ضعف وتوهين له. أيضاً نعيم بن حماد روى له أبو داوود والترمذي وابن ماجه، وقلنا هذا الحديث الضعف فيه من نوعين.

والعلة الثانية التي ذكرها أهل العلم هو "عقبة بن أوس"؛ عقبة بن أوس يروي عن عبد الله ابن عمرو بن العاص، والصحيح أنه لم يسمع منه. إذاً في الحديث إرسال أو انقطاع؟ نقول عند المحققين يرون بأن الانقطاع غير الإرسال؛

الإرسال: هو رواية التابعي عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- بإسقاط الصحابي، وأمّا الانقطاع: هو إسقاط راوي واحد.

عقبة بن أوس لم يسع من عبد الله، فهنا الانقطاع.

إذاً له علتان: ضعف عن نعيم بن حماد، والثاني الانقطاع.

هذا الحديث حديث عظيم جداً، قال فيه العلماء المحققون: لو صح لنا أن نقول هذا الحديث هو كل الإسلام ويجمع كل فوائد الإسلام؛ لأن من عض عليه بالنواجذ وأخذ به تابعاً بالإيمان وغير الإيمان قد كمل إيمانه وارتفع الدرجات العلا، ومن تركه ترك أصله وفرعه (أي ترك الإيمان وترك ما يحوط الإيمان)، فقد كفر وخرج من دائرة الإيمان، فهو جمع الدين كله.

هذا الحديث العظيم، نرى رسولنا -صلى الله عليه وسلم- يبيّن لنا مكمن كمال الإيمان، وأن المؤمن بحق المؤمن كامل الإيمان الذي يستسلم استسلاماً تاماً محضاً لله جلَّ في علاه، لأوامر الله وأوامر رسول الله -صلى الله عليه وسلم-. ثم نرجع للتقعيد العلمي للمصنف الذي ابتدأ به، وهو التصفية قبل التحلية لنا؛ أسس وأصول للعبادة المحضة لله جل في علاه، أرقى المنازل لا تكون إلّا بالاستسلام التام لله جلَّ في علاه. لا يؤمن أحدكم الإيمان الكامل، لا يكون مؤمناً حقاً عند ربه جلَّ في علاه حتى يكون هواه تبعاً لما جاء به الله جلَّ في علاه، لسان حاله يطبّق ما قاله الشافعي: آمنت بالله وبما جاء عن الله وعلى مراد الله، وآمنت برسول الله وبما جاء عن رسول الله وعلى مراد رسول الله -صلى الله عليه وسلم-.

(لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعا لما جئت به)(٢) الهوى اثنان: هوى محمود ممدوح، وهوى مذموم صاحبه مرفوض عند ربه جلَّ في علاه. أو كما نقول أوامر الله جلَّ في علاه قسمان: أوامر هي توافق الجبلة وتوافق الهوى وتوافق الشهوة الإنسانية، وأوامر لا توافق الجبلة (تخالف).

إذاً الهوى قسمان: هوى ممدوح وهوى مذموم:

الهوى الممدوح: هو الذي يوافق مراد الله جل في علاه ويوافق مراد رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، هذا الهوى يكون هوى الإنسان أو شهوة الإنسان فيه ويؤجر فيه عند ربه جلَّ في علاه. يأتيه ويؤجر فيه؟ نعم يأتي ما يحب ويؤجر بذلك، ورأس أمر هذا قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (إن المرء مع من أحب)، كما قال أنس: ما فرحنا بشيء مثل ما فرحنا بهذا الحديث، فإني لا أفعل ما يفعله النبي -صلى الله عليه وسلم-، ولا أفعل ما يفعله أبو بكر ولا عمر، ولكني أحب رسول الله وأحب أبا بكر وأحب عمر. وقال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (المرء مع من أحب)؛ كيف نستنبط أن هوى الإنسان يدخل تحت هذا؟

نقول رجل له سمات شخصية توافق سمات شخصية هذا الإنسان وهو يحبه، لِمَ؟ الأرواح جنود مجندة، تواكبت الصفات والسمات معاً فترافقا.

متى يكون عبادة؟ عندما يكون هذا الثاني رجل من الصلاح بمكان ومن العلم بمكان ومن العبادة بمكان، وهو يحبه ويحب الاقتران به والاقتراب منه، يقول هذا الهوى تبعاً لما جاء به النبي -صلى الله عليه وسلم-، كيف ذلك؟ إذا كان العبد صالحاً ورعاً تقياً عالماً فاعلاً للخيرات، وأحبه -مع السمات الشخصية المتوافقة- لصلاحه، هنا يدخل تحت قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (هواه تبعاً لما جئت به).

أوضح من ذلك حب المرء للمرأة؛ أن الرجل يميل للمرأة جبلة والمرأة تميل الرجل جبلة، فإن الرجل يميل لامرأته جبلة، ويميل للجماع جبلة، وهو مع ذلك هذا هواه وهذه شهوته، يأتيها وله في ذلك الأجر، بل ويقرر حديث النبي -صلى الله عليه وسلم-: (تبعاً لما جئت به). قال الله تعالى: (تُرْجِي مَنْ تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَنْ تَشَاءُ) [الأحزاب:51]؛ ما شاء يأخذ وما شاء

يبيت عند هذه، ما شاء يقسم لهذه شاء لا يقسم لهذه. كما حدث لصفية أنها كانت أفضل ظهر، عندما كانت في سفر من السفرات وتعطلت السفرات بسبب ظهر صفية، زينب عندها بعير كثر فقال: أعيريها، قالت: أعير هذه اليهودية؟ فغضب النبي -صلى الله عليه وسلم- عليها. لكن صفية رأت أنها عطلت السفر وعطلت الناس في سفرهم، فرأت النبي -صلى الله عليه وسلم-نظر إليها نظر الغضب أو مغضباً، فقالت: كيف أرضيه؟ مكمن الرضا عند الرسول -صلى الله عليه وسلم-عائشة.

فذهبت إلى عائشة فقالت: ما رأيك أترك لكِ ليلتي؟ عائشة -رضي الله عنها- تسارع بالرضا، قالت: على شرط أن تربي عني رسول الله، قالت: أفعل. فذهبت فلبست خمارها وتعثرت وكشفت خباء النبي -صلى الله عليه وسلم- ودخلت، فقال: يا عائشة هذه ليست ليلتك، يعني هذا ليس لك. فقالت: ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، فدخلت تربيه عن صفية وأخذت هذه الليلة. والنبي له في ذلك أن يؤوي هذه أو يترك هذه أو يرجئ هذه، فلمّا قال الله جلَّ في علاه مخيراً يفعل ما شاء ويقرب من شاء منهن ويتزوج من شاء من الواهبات له، قالت عائشة من الغيرة (وهذا محل الشاهد): والله ما أرى

الله إلّا يسارع في هواك. ولذلك قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (حبب إليّ من دنياكم الطيب والنساء، وجعلت قرة عيني في الصلاة).

فإذاً يأتي الرجل امرأته، ويقترب من امرأة من نسائه، هوى الإنسان في ذلك وهو تبعاً لأمر النبي -صلى الله عليه وسلم- وأمر الله جلَّ في علاه. ولذلك قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (وفي بُضْعِ أحدكم صدقة)، فهو يأتي هواه ويكون في رضا الله جلَّ في علاه.

وأيضاً الذي يثبت لنا ذلك ويعضده، قول عمر بن الخطاب عندما سأل النبي -صلى الله عليه وسلم- عن أسارى بدر، فقال: يا رسول الله أرى أن تعطيني كذا بن الخطاب فأقتله إرضاءً لله جلَّ في علا، وتعطي عقيل لعلي فيقتله، وتعطي كذا لأبي بكر فيقتله، يعلم الله أنه ليس في قلوبنا أحد من المشركين هوادة. فقال أبو بكر: يا رسول الله عشيرتنا، ولعل يدخل واحد منهم في الإسلام فيقوّي شوكتنا، الفدا يا رسول الله. فقال عمر بن الخطاب: فهوى رسول الله ما قال أبو بكر؛ هذا تصريح من عمر أنه يرى أن هذا الهوى، وهذا الهوى هوى حق، هوى لما جاء به الله جلَّ في علاه.

إذاً الهوى الممدوح: وهو ما كان يرضي الله جلَّ في علاه، ما كان يرضي رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، وإن كان المرء يأتي فيه شهوته، فهو إن احتسب فقد أتى مراد الله جلَّ في علاه وسعى فيما يرضي الله جل في علاه، مطبقاً آمنت بالله وبما جاء عن الله وعلى مراد الله، وآمنت برسول الله وبما جاء عن رسول الله وعلى مراد رسول الله. فيما يهوي الإنسان وفيما يبغض وفيما لا يرضى، كما قال عمر بن عبد العزيز: أصبحت وهواي فيما قدر الله عليّ؛ مع أن الله جل وعلا يقدّر على المرء البلايا والمصائب، ويقدر عليه السراء والضراء، ومع ذلك يقول هواي في الضراء كما أن هواي في السراء، يعني تابعاً مستسلماً استسلاماً تاماً لله جلَّ في علاه.

إذاً القسم الأول الهوى الممدوح، وهو ما كان فيه محبة الإنسان، جبلة إنسان، ومع ذلك يؤجر عليه، وهذا فضل الله يؤتيه من يشاء.

الهوى المذموم: هو ما ضاد أوامر الله جلَّ في علاه، ما خالف شرع الله جلَّ في علاه. وقال علماؤنا: الهوى منبع البدع، منشأ البدع من الهوى؛ يهوى المرء كلام أحد غير كلام رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وإن ضاد كلام الرسول -صلى الله عليه وسلم-، تراه يناصر هذا الكلام على كلام رسول الله، يعطي من أجله ويمنع من أجله ويحارب من أجله ويقاتل من أجله. ورحم الله الثوري عندما قال: البدعة أحب إلى الشيطان من المعصية؛ إذ أن البدعة صاحبها يقاتل عليها وينافح عليها ويدافع عليها ويدلل عليها. هذا هو الهوى المذموم، هو ما يخالف شرع الله جلَّ في علاه. هذا إيجازاً في الحديث الأول.

الحديث الثاني قول جابر: (أن النبي -صلى الله عليه وسلم- خط خطاً وخط حوله خطوطاً، فقال: هذا سبيل الله)؛ هذا تصوير بديع من النبي -صلى الله عليه وسلم-، يبيّن أن الخط المستقيم بين النقطتين أقصر ما يكون إلى الحق أو إلى النجاة. هذا الخط المستقيم هو طريق الله القويم السديد، النهج الذي شرعه الله جلَّ في علاه، وارتضاه لهذه الأمة على لسان نبيه -صلى الله عليه وسلم-، وفي كتابه الحكيم. هذا الذي أخذ به وعض عليه بالنواجذ هو الموفق هو المسدد، والذي زاغ عنه هو الضال المبتدع الزائغ والعياذ بالله.

أول هذا الطريق جماعة الهدى والحق، ومنتهى هذا الطريق الجنة الفردوس الأعلى ورؤية الحق، اللهم ارزقنا رؤيتك يا رب العالمين في جنات ونهر في مقعد صدق عند مليك مقتدر. إذاً أول هذا الطريق: الطريق القويم الذي رسمه النبي -صلى الله عليه وسلم- جماعة الحق، الذين اجتمعوا على الحق ولا يجتمعوا على ضلالة، كما قال ابن مسعود: لا تجتمع هذه الأمة على ضلالة، بل تجتمع على الحق. ومنتهى هذا الطريق: هو جنة الفردوس ورؤية الرب الجليل جلَّ في علاه.

أمّا هذه الخطوط كما قال علماؤنا: وحّد الله السبيل فهو سبيل واحد، وهذه الخطوط الشتى المتشرذمة هي سبل استدعاها الشيطان يتردى فيها من تردّى، أوله جماعة الضلالة وآخره ناراً تلظى مع الحسرة والندامة، نعوذ بالله من الخذلان. إذاً أول هذه الطرق: كل طريق أوله جماعة من أهل

الضلال، أهل الزيغ والعدوان، أهل بدعة والضلالة، الذين ترسموا طريقاً غير طريق النبي -صلى الله عليه وسلم-.

قوام الطريق الواحد غير هذه الخطوط، قوام هذا الطريق كتاب الله وسنة النبي -صلى الله عليه وسلم-، مأخذه الأصلي: (وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا) [الحشر:7]، وأصله قول الله تعالى: (فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا) [النساء:65]، وقول الله تعالى: (وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ) [الأحزاب:36].

وأصله في السنة قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (فمن رغب عن سنتي فليس مني)، (وما أمرتكم من شيء فأتوا منه ما استطعتم، وما نهيتكم عن شيء فانتهوا) (٣) وقوله وهذا من أروع ما قاله، حديث العرباض في مسند أحمد: وعظنا رسول الله -صلى الله عليه وسلم- موعظة بليغة فقلنا: يا رسول الله كأنها موعظة مودِّع، فأوصنا. فقال النبي -صلى الله عليه وسلم- (هذه الرواية الأخرى): (تركتكم على المحجة البيضاء)؛ هذا هو الشاهد: تركتكم على طريق مستقيم قويم، من عض عليه بالنواجذ ففيه النجاة، ومن حاد عنه فبقدر الحيدة فيه الضلال والزيغ، قال: (تركتكم على المحجة البيضاء، ليلها كنهارها، لا يزيغ عنها إلّا هالك. وإنه من يعش منكم بعدي فسيرى اختلافاً كثيراً، فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي عضوا عليها بالنواجذ). وقول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدي؛ كتاب الله وسنتي).

هذا هو الطريق القويم، الطريق المستقيم. لذلك حث الله الأمة على لسان نبيها ألّا يحيدوا عن هذا الطريق؛ خط مستقيم فلا بد من السير على هذا الخط وعدم الحيد عن هذا الخط. ولذلك قال ابن عباس: رؤية صاحب السنة تذكِّر بالسنة وترفع السنة وتنهى البدعة، وهو عبادة؛ ما التفسير؟ لتعرفوا فضل أهل السنة ولا تستغربوا على أن البخاري يقول: إنهم الى قل تراحموا، الثوري يقول: لو سمعت به في المدن في مشارق الأرض أو

مغاربها ذهبت إليه؛ لأن صاحب السنة عزيز في ندرة، (لا تزال طائفة من أمتي على الحق ظاهرين، لا يضرهم من خالفهم ولا من خذلهم).

ابن عباس ينبئكم بنبأ، قال: رؤية صاحب السنة تذكِّر بالسنة وترفع السنة وتنهي البدعة، وهو عبادة؛ يذكرك بالله ويذكرك بسنة النبي -صلى الله عليه وسلم-، فصاحب السنة إذا وقفت معه لا بد أن يذكرك بالسنة قولاً أو تقريراً أو فعلاً. وهذا الذي يخرّج عليه قول أحمد عندما قالوا له: تنهانا عن الشافعي ونراك خلف بغلته، قال: اسكتوا والله إن لم يتكلم الشافعي لاستفدت من بغلته، يعني من تعامله مع البغلة لأنه سيستعمل السنة في التعامل مع البغلة.

إذاً بلسان حاله يحي السنة، وينزل تحت حديث النبي -صلى الله عليه وسلم-: (من أحيا سنتي). وتنهى البدعة؛ ما أحيا عبدٌ سنة إلّا أمات مقابلها بدعة، والعكس بالعكس صحيح: ما أحيا أحد بدعة إلّا ومات مقابلها السنة.

وهو عبادة؛ هذه فيها تفصيل، هذه أبوابها قوية، وهي النظر إليه عبادة. كيف النظر عبادة؟ المقصد هو تطبيق السنة وإحياء السنة والعمل بها ومعرفة السنة، وهذه لا تكون إلّا بالوسيلة وهو النظر لصاحب السنة؛ كيف يتعبد لله، كيف يأمر بالسنة، كيف ينهى عن البدعة، كيف يقرر السنة من باب الوسائل لها أحكام المقاصد، فيكون هنا النظر حق عبادة من هذا الباب. الفضيل بن عياض قال كلمة أشد ما تكون وهي أرعب ما تكون في القلوب: صاحب البدعة فإن الله أحبط عمله وأخرج نور الإسلام من قلبه إن أصرّ على هذه البدعة. الفضيل بن عياض يؤصّل لنا أصلاً أعظم مما يكون، وهو مستقى من حديث النبي؛ من أين استقى هذا الكلام العظيم؟

إجابات الطلبة:

- بأن الرجل إذا جلس مع صاحب بدعة تنكت في قلبه نكتة سوداء، فإذا جالسه بعد ما تنكت في قلبه النكتة السوداء تزداد حتى يعلوه الران؛ (كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ) [المطففين:14]، فيكون له هذا الجزاء جزاءً وفاقاً.

- (تُعرض الفتن على القلوب كالحصير عوداً عوداً، فأي قلب أشربها نُكت فيه نُكتة سوداء)؛ فمن جالس صاحب البدعة وأقره على ما هو عليه، نكتت في قلبه النكتة السوداء حتى تعلو القلب.

واستقى ذلك من حديث النبي -صلى الله عليه وسلم-: (إن الله حجب التوبة عن صاحب البدع حتى يرجع عن بدعته) (٤) لذلك قال الفضيل بن عياض -رضي الله عنه وأرضاه-: إن الله احبط عمل صاحب البدعة؛ لأنه يضاد الشريعة، يحاد الله ويحاد رسوله -صلى الله عليه وسلم-. فقال: إن الله احبط عمل صاحب البدعة وأخرج نور الإسلام من قلبه.

إذاً الحديث "خط رسول الله -صلى الله عليه وسلم- خطاً وخط خطوطاً"؛ وهذا الخط القويم لا بد من العض عليه بالنواجذ، والشرح سيطول في هذا الباب لأن الباب طويل جداً، فأردنا فتح الباب بهذه الكلمات.

الفوائد المستنبطة من الحديثين:

1 - الحديث الأول: (لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به)؛ "لا يؤمن" نفي الإيمان، والأصل في نفي الإيمان هو نزع الإيمان بالكلية. إذا لم يتبع المرء ولم يكن هواه تبعاً لما جاء به النبي، فقد كفر، فقد خرج من دائرة الإيمان.

والصحيح نقول القاعدة على بابها، أن النفي هو نفي أصل الإيمان، إذ "لا يؤمن": لا يكون مؤمناً، هذا هو الأصل لكنه مؤول. كيف التأويل؟ أنه على المستحل مخالفة رسول الله -صلى الله عليه وسلم-؛ بعدما يبيّن له رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يقول كذا، وهو يقول: وإن قال أنا أفعل ذلك. يحاد الله ويحاد رسوله -صلى الله عليه وسلم- بعدما يتبيّن له الحجة، تتبيّن له سنة النبي -صلى الله عليه وسلم-، وهو يضاد سنة النبي -صلى الله عليه وسلم- على بصيرة وعلى علم. هذا الذي يقال فيه: (لا يؤمن)؛ أي لا يكون في قلبه ثمة إيمان، يدخل تحت قول الله تعالى: (إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ فِي الأَذَلِّينَ) [المجادلة:20]، ولا يكون في الأذل إلّا من كفر وخرج من الملة لأنه يكون في الدرك الأسفل من النار. هذه دلالة بالتصريح على من يحاد الله ورسوله، وهذا الأصل.

الثاني نقول (لا يؤمن أحدكم) الأصل فيه نفي الأصل إلّا أن تأتي قرينة تنفي الكمال، فمعنى الحديث: لا يؤمن إيماناً كاملاً من ضاد بعض أوامر الله جل في علاه وبعض أوامر النبي شهوةً دون المحادة. والقرائن التي احتفت لتأويل هذا من نفي الأصل إلى نفي الكمال هو حديث: (من مات على "لا اله إلّا الله" دخل الجنة، فقال له أبو ذر: يا رسول الله، وإن زنى وإن سرق؟ قال: وإن زنى وإن سرق، وعلى رغم أنف أبي ذر [في القول الثالث لرسول الله -صلى الله عليه وسلم- بعد السؤال الثالث لأبي ذر]). فهذه قرينة تؤول قول النبي -صلى الله عليه وسلم- من (لا يؤمن) يعني لا يؤمن إيماناً كاملاً، وهذا عليه إجماع أهل السنة. وأيضاً لمّا أوّلوه على الإيمان الأصلي، قالوا بالاستحلال فقط، هذه الأولى.

والثانية؛ قد وردت لنا أمثلة كثيرة عن الصحابة أن هواهم مرضية وأن هواهم تبعاً لما حكم الله وحكم رسوله، ومن خالف في ذلك استحق المذمة. هناك حديث فيه بعض الضعف لكن يستأنس به: أن عمر بن الخطاب -رضي عنه وأرضاه- جاءه رجلان؛ رجل منافق ورجل يهودي، أمّا الرجل اليهودي فقد قال للمنافق بعد ما اختلف: نتحاكم إلى رسول الله، فبعدما حكم بينهما قال المنافق: لا أرضى. وهذه دلالة على أن صاحب الهوى النفاق يملأ قلبه، لا يرضى بالله حكماً ولا يرضى برسول الله -صلى الله عليه وسلم- مقسطاً حكماً. قال أبو بكر -رضي الله عنه وأرضاه- بما حكم به رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، ثم قال المنافق: والله لا أرضى، اذهب إلى عمر بن الخطاب. فذهب إلى عمر بن الخطاب، وويل ثم ويل عندما ذهب إليه، قال اليهودي تحاكمنا لرسول الله فقال: لا أرضى، فتحاكمنا إلى أبي بكر فقال: لا أرضى، قال: اذهب إلى عمر. فقال له عمر: أترضى بحكمي؟ قال: نعم أرضى، كأنه يؤمّله خيراً. قال: انتظرني ساعة أو برهة، فدخل فاستل سيفه ثم أطاح برأسه متأولاً في ذلك قول الله تعالى: (فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ) [النساء:65]، هنا النفي نفي الأصل.

وقد ضرب لنا عمر بن الخطاب -رضي الله عنه وأرضاه- أروع الأمثلة في ذلك، وقد قال: أيها الناس اتهموا الرأي في الدين فلقد رأيتني يوم

الحديبية وأنا أنازع رسول الله -صلى الله عليه وسلم-؛ هذا عقل مع نقل، [قال: يا رسول الله ألسنا على الحق؟ أليسوا على الباطل؟ ففيم نعطي الدنية في ديننا؟] قال: رأيتني وأنا أنازع رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يوم الحديبية وقد سمّاه الله نصراً، فاتهموا الرأي في الدين؛ يعني أصبح مخطئاً، مع أن العقل كان يقول نحن الأقوى فلِمَ نعطي الدنية في ديننا. لكن عمر بن الخطاب كان أوفق منه للحق أبو بكر؛ قال: الزم غرز هذا.

2 - وهذه الفائدة الثانية التي ننتقل إليها: النظر لا يصح مع الأثر؛ لا يصح بحال من الأحوال أن تضرب الأثر بالنظر، وهذه استقيناها من الحديث الثاني؛ إذاً طريق الأثر طريق واحد، وهذه الطرق طرق النظر، فإن صادمت الأثر لا يؤخذ بها.

إذاً كل نظر صادم الأثر فهو طريق وشعبة من هذه الشعب، وسبيلاً من هذه السبل، التي لا بد ألّا نأخذ بها. ولذلك قلنا علماء الأصول قالوا: كل قياس (وإن كان راجحاً) خالف نصاً فهو قياس فاسد الاعتبار.

نضرب أمثلة على ذلك منها: تزويج المرأة لنفسها، قال به الأحناف بالقياس، قال: بالنظر للمرأة البكر العاقل الرشيدة أن تزوج نفسها، وقاس على الذمة المالية؛ هي لها ذمة مالية مستقلة، لها أن تبيع وتشتري. الجامع بينهما في المعاوضة، الشراء والبيع معاوضة، والفرج أيضاً هي تعوض. ولذلك العلماء يقولون: المرأة لها ألّا تمكّن زوجها من نفسها حتى تأخذ مهرها، أو يطيب خاطرها وتقول نعم ويكون ديناً في ذمته، أو تسقطه عنه. فهنا بجامع المعاوضة قال: لها أن تزوج نفسها. وهذا القياس وإن كان قياساً فيه حظ من النظر، لكنه قياس فاسد الاعتبار لأنه خالف أثراً، خط رسول الله الأثر؛ الكتاب والسنة.

أما قلنا وقوام هذا الخط كتاب الله وسنة النبي -صلى الله عليه وسلم-، ثم قلنا: وأصله (فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين)، هذا الأصل. فلذلك نقول: إذا كان قوامه الكتاب والسنة، فكل قياس خالف الكتاب وخالف السنة فلا بد من طرحه، لا يمكن أن يؤخذ به، القياس يعتبر قياس فاسد الاعتبار لأنه قد خالف نصاً.

3 - الفائدة الأخيرة: الحق واحد لا يمكن أن يتعدد؛ وهذا رد على من يقول: خلاف أمتي رحمة، هذه التي يتغنى بها كثير من الناس حتى يتسنى لكل إنسان أن يشتهي ما يشتهي من الفتاوى ويأخذ ما شاء منها، ويقول اختلاف الأمة رحمة ويستند لحديث النبي -صلى الله عليه وسلم-: (اختلاف أمتي رحمة). وهذا الحديث لا يصح بحال من الأحوال، هو إلى الوضع أقرب منه إلى الضعف.

لكن من أين استنبطنا هذا الاستنباط؟ خط النبي -صلى الله عليه وسلم- خطاً واحداً، ليس متعدداً خطاً واحداً وخط خطوطاً حوله؛ هذا دل ذلك على أن الحق خط واحد لا أكثر من خط. لكن يشكل علينا قول النبي -صلى الله عليه وسلم- في بني قريظة عندما قال: (لا تصلوا العصر إلّا في بني قريظة)، فقال قوم نحن قد أمرنا رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ألّا نصلي العصر إلّا في بني قريظة، فقالوا: لن نصلي إلّا في بني قريظة، فصلوا في بن قريظة. ثم طائفة أخرى قالوا: لا، أراد بذلك أن نسرع الخطى حتى نصلي في العصر إلى بني قريظة، فنصلي الصلاة في وقتها ثم نذهب إلى بني قريظة. فلمّا عاد للنبي -صلى الله عليه وسلم- وافق أو أقر الطائفتين على ما فعلوا، فكيف نؤول ذلك؟ وكيف نؤول قول الفقهاء وقول العلماء: "لكل مجتهد نصيب"؟ النبي -صلى الله عليه وسلم- صوّر تصويراً بديعاً، قال: اسمعوا مني وانظروا، خط مستقيم، هذا الخط هو الحق، وخطوط أخرى كثيرة، هذه الخطوط لا يمكن أن تكون حقاً، لأن الحق في هذا الخط. فإذاً رسم لنا خطاً واحداً يبيّن لنا أن هذا هو الحق، إذاً الحق لا يتعدد. أو هذا الخط يتشعب منه شعب، فيكون الحق متعدداً.

حتى المسألة تتسع لكم، أقول: الخط هذا يصح أن يكون له فروع تصل إليه أو فروع تخرج منه. ستقول الحق له تنوع واختلافات أخرى أو طرق أخرى أو سبل أخرى، والدليل على ذلك أن النبي -صلى الله عليه وسلم- صلى الوتر: واحدة، وصلاها ثلاثاً، وصلاها خمساً، وصلاها سبعاً، وصلاها تسعاً. فأي نأخذ وأي السنة؟ أيضاً صلى الضحى ركعتين، أربعاً، وصلاها ثمانية، فبأي نأخذ؟ صلى الظهر لمّا صلى الجمعة صلى قبلها السنة أربعاً، وفي البيت صلى ركعتين، ففيما نأخذ؟ وأيضاً أوصى النبي -

صلى الله عليه وسلم- أبا هريرة -رضي الله عنه وأرضاه- ألا ينام إلّا على وتر وأن يصوم ثلاثة أيام من كل شهر، وأوصى عبدالله بن عمرو ابن العاص أن يصوم يوم ويفطر يوم، وأيضاً كان يبيّن أن أفضل الوتر يكون آخر الليل؟ فأي الحق؟

لو جاءكم رجل وقال: يا أخي الفقيه الفلاني والثاني اختلف معه، والحمد لله في ذلك سعة ورحمة، اختلاف امتي رحمة. ماذا تقولون؟ عمر بن عبد العزيز -وهذا كلام بسند صحيح عنه- قال: ما وددت أن يتفق صحابة رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، لأن في اختلافهم سعة على هذه الأمة. وعمر بن عبد العزيز هذا الرجل أثري، رجل ليس بالهين، فحل ثقة ثبت، راوي لحديث النبي -صلى الله عليه وسلم-، زاهد ورع تقي، مع خلافته للمسلمين، ويقولون هو خليفة راشد.

هذه المسألة والله أنا ما أردت أدخل في الباب لأن الباب هذا طويل جداً، لكن صراحة أعجبني جداً رسم الرسول -صلى الله عليه وسلم- للخط، وقلت لا بد أن نتمسك ونعض بالنواجذ على هذه المسألة، لأنه شاع في الأمة بأسرها بالذات النساء، النساء خفيفات لأشياء معينة؛ فيقول: اختلاف الأمة رحمة، هذا فقيه وهذا خطيب نأخذ، بهذا أو نأخذ بهذا كيف ما شئنا، هذه سعة. وطبعاً كثير من العوام يدندنون حول ذلك، كثير ترى من الذين يفتون بأن ممكن البنوك الربوية مثلاً أن تتعامل معها عند الضرورة، أو نكاح المتعة قال به بعض الناس، فيقولون اختلاف الامة رحمة. فهل نوافق أو نخالف؟

قلتم نخالف، قلنا لكم: قالوا النبي -صلى الله عليه وسلم- ذكر عنه أنه قال: (اختلاف الأمة رحمة)، وعمر بن عبد العزيز يقول: وددت ألّا يتفق الصحابة لأن فيه سعة للأمة، وأيضاً النبي -صلى الله عليه وسلم- نفسه هنا يصلي الوتر واحدة وثلاثة، ويأمر يوصي أبا هريرة بألّا ينام إلّا على وتر ويصوم ثلاثة أيام، ثم يوصي الآخر بصوم يوم، فأي الحق من هذه الأمور الكثيرة المتعددة ليفعلها الإنسان ويقول الحق واحد عند الله جلَّ في علاه؟

الحق الاختلاف نوعان: اختلاف التنوع واختلاف التضاد؛

1 - اختلاف التنوع: معناه أنه جاء عن النبي -صلى الله عليه وسلم- هذا وذاك، وترك هذا وفعل هذا. فهذا اختلاف التنوع، واختلاف التنوع الامة تقول به كله، من فعل ذلك فقد أتى بالسنة ومن فعل ذلك فقد أتى بالسنة. فمن صلى إحدى عشرة ركعة بالليل فقد أتى بالسنة، من صلى ثلاث عشرة ركعة في الليل فقد أتى بالسنة، لكن ما الدليل على هذا؟ قد ورد عن رسول الله أنه صلى إحدى عشرة وثلاث عشرة ركعة، حديث ابن عباس لمّا بات عند خالته ميمونة فقام من الليل، قرّب للنبي -صلى الله عليه وسلم-، فلمّا توضأ النبي -صلى الله عليه وسلم- قام ابن عباس يصلي على يسار النبي -صلى الله عليه وسلم-، فأخذه النبي -صلى الله عليه وسلم- من أذنه (وهذه الحركة لأجل مصلحة الصلاة) ثم جعله على يمينه. قال ابن عباس وهذا في الصحيح: (فصلى ركعتين ثم ركعتين ثم ركعتين ثم ركعتين ثم ركعتين ثم ركعتين)؛ كم؟ اثنتا عشرة، قال: (ثم ختمها بواحدة) الوتر، فصلى ثلاث عشرة ركعة.

فهذه دلالة على أن النبي -صلى الله عليه وسلم- صلى ثلاث عشرة ركعة، لكن أكثر كان يصلي إحدى عشرة ركعة. فمن صلى بهذه فقد أتى بالسنة، ومن صلى بهذه فقد أتى بالسنة. ومن أوتر قبل أن ينام فقد أتى بالسنة، ومن أوتر وسط الليل فقد أتى بالسنة، ومن أوتر في السحر أخر الليل فقد أتى بالسنة. ما الدليل؟ حديث عائشة صريح قالت: (من كل الليل أوتر)؛ أي أوتر أول الليل وأوسط الليل وأواخر الليل، فهذا اختلاف تنوع يصح للإنسان أن يأتي به.

2 - ثم النوع الثاني من الاختلاف وهو اختلاف التضاد:

والمقصود بهذا الرسم الذي رسمه النبي -صلى الله عليه وسلم- عن اختلاف التضاد، لا يمكن أن يؤخذ إلّا بالراجح منه والمرجوح. لمّا ترى الفقهاء يقولون هذا حرام وفقهاء آخرون يقولون هذا حلال، لا يمكن الاجتماع، ولا يمكن أن يقال إن اختلاف الأمة في هذه الرحمة؛ هؤلاء حرام وهذه معصية، وهؤلاء يقولون حلال وهذه تصح، وتقول الاختلاف رحمة؟ لا والله، لابد أن يكون هناك راجح

ومرجوح، لكن قل الاختلاف إن كان باستنباط واجتهاد من دليل هو اختلاف معتبر، لكن ليس برحمة بحال من الأحوال على أن الإنسان يأخذ ما يستهويه.

إذاً اختلاف التنوع: للإنسان أن يأخذ به؛ حديث بني قريظة في أي الوجهتين؟ من اختلاف التضاد، ولا يمكن أن يكون من اختلاف التنوع. مراد الرسول -صلى الله عليه وسلم- غير متعدد، النبي -صلى الله عليه وسلم- مراده واحد؛ إمّا أكيد أن يصلي الصلاة في وقتها، وإمّا أكيد يريد أن يصل وهذا هو الراجح الصحيح.

لكن النبي -صلى الله عليه وسلم- أقرهم على اجتهادهم، فيرجع هذا إلى قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (إذا اجتهد الحاكم فأصاب فله أجران، وإذا أخطأ فله أجر)؛ إذاً لكل مجتهد نصيب، يعني نصيب في الأجر وليس نصيب في الحق. قد قال الله تعالى فاصلاً في النزاع، منهياً هذه الخصومة: (فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ) [يونس:32]؛ إذاً هو حق أو ضلال، لا يمكن أن يجتمع الحق مع الضلال بحال من الأحوال.

الرد على كلام عمر بن عبد العزيز؛ يؤول قول عمر بن عبد العزيز على أن الاختلاف اختلاف تنوع، ود له أن يكون هذا متسع بين الصحابة في المتنوع، يكون عند هذا سنة وحديث والآخر سنة أخرى وحديث تكون هذه سنة وسنة وسنة وسنة، فهذه توسع على الأمة. هذا يصلي أربعاً، هذا يصلي اثنتين، هذا يصوم يوماً، هذا يصوم ثلاث أيام، هذه سنن متعددة هذه التوسعة على الأمة. فيؤول كلام عمر بن عبد العزيز على التنوع، لا على التضاد.

إذاً اختلاف الامة ليس برحمة على ما قاله الناس، على أنه يأخذ ما يأخذ ويشتهي ما يشتهي، ويذهب لمفتي معين، فإن لم يعجبه هذه ذهب إلى الآخر فأخذ وقال: اختلاف أمتي رحمة. لا، الحق واحد لا يمكن أن يتعدد؛ وهذا استنباطاً من فعل النبي -صلى الله عليه وسلم- أنه خط خطاً واحداً، دلالة على أن سبيل الله واحد، وأن السبل الأخرى متفرقة، وأن الحق عند الله واحد. والذي يجزي لنا هذه المسألة تصريح قول النبي -صلى الله عليه

وسلم-: (إذا اجتهد الحاكم فأصاب فله أجران، وإذا اجتهد فاخطأ أجر واحد)؛ لم يقل: فلم يكن مصيباً عند الله جلَّ في علاه، هو أخطأ لكن الله شكر له اجتهاده فله أجر واحد. فهذه فيها دلالة على أن الحق ليس متعدد، بل الحق واحد عند الله جلَّ في عُلاه..

١_ الراوي : عبدالله بن مسعود | المحدث : ابن باز | المصدر : مجموع فتاوى ابن باز | الصفحة أو الرقم : 1/239 | خلاصة حكم المحدث : إسناده صحيح | التخريج : أخرجه أحمد (4142)، والنسائي في ((السنن الكبرى)) (11174)، والدارمي (202) باختلاف يسير

٢_ الراوي : عبدالله بن عمرو | المحدث : ابن رجب | المصدر : جامع العلوم والحكم | الصفحة أو الرقم : 393/2 | خلاصة حكم المحدث : تصحيح هذا الحديث بعيد جداً من وجوه | توضيح حكم المحدث : إشارة إلى ضعفه | التخريج : أخرجه ابن أبي عاصم في ((السنة)) (15)، والخطيب في ((تاريخ بغداد)) (368/4) واللفظ لهما، والبيهقي في ((المدخل إلى السنن الكبرى)) (209) باختلاف يسير

٣_الراوي : أبو هريرة | المحدث : مسلم | المصدر : صحيح مسلم | الصفحة أو الرقم : 1337 | خلاصة حكم المحدث : صحيح

٤_الراوي : أنس بن مالك | المحدث : الألباني | المصدر : تخريج كتاب السنة

الصفحة أو الرقم : 37 | خلاصة حكم المحدث : صحيح

التخريج : أخرجه الطبراني في ((المعجم الأوسط)) (4202)، وابن عدي في ((الكامل في الضعفاء)) (257/6)، والبيهقي في ((شعب الإيمان)) (7238) باختلاف يسير..

باب: ذكر ما زجر النبي عن محدثات الأمور

عن جابر بن عبدالله قال: كان رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يخطب الناس، فيحمد الله ويثني عليه بما هو أهله ثم يقول: (من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وخير الحديث كتاب الله عز وجلّ، وخير الهدي هدي محمد -صلى الله عليه وسلم-، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة).

وعن عبد الله بن مسعود -رضي الله تعالى عنه-: أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: (إياكم ومحدثات الأمور، فإن شر الأمور محدثاتها، وإن كل محدثة بدعة، وإن كل بدعة ضلالة).

وعن يحيى بن أبي المطاع قال: سمعت العرباض بن سارية يقول: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: (إياكم والمحدثات فإن كل محدثة ضلالة).

وعن العرباض بن سارية أنه حدثهم: أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: (إياكم ومحدثات الأمور فإنها ضلالة). وعنه قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: (إياكم ومحدثات الأمور فإنها ضلالة). وعنه أيضاً: عن النبي -صلى الله عليه وسلم- أنه قال: (إياكم ومحدثات الأمور فإن كل بدعةٍ ضلالة). وعنه أيضاً: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: (إياكم والبدع).

هذه الأسانيد تكلم فيها الشيخ عن أبو إسحاق السبيعي على أنه مدلس، أنه اختلط، هذه فوائد الإسنادية. وإلّا فهذه الاحاديث كلها بفضل الله سبحانه وتعالى كالشمس لا تحتاج للكلام، لكن الفوائد الإسنادية حتى لا نمرر الأمر من غير فوائد إسنادية. وتكلم أيضاً بالإسناد الذي بعده عن الوليد بن مسلم وذكر أنه يدلس تدليس تسوية. فعندنا فائدتان:

1 - الفائدة الأولى: تدليس بنوعيه: تدليس مطلق وتدليس التسوية.
2 - الفائدة الثانية: الاختلاط، أبو إسحاق السبيعي اختلط في آخر عمره.

أمّا التدليس فهو: أن يأتي الراوي بصيغة توهم السماع؛ ك(عن، أن، قال)، ويكون هذا الراوي قد روى عن شيخه الذي دلّس عنه (وهذا شرط ليفرّق بين التدليس وبين الإرسال). الإرسال الخفي: إذ أن الراوي إذا روى عن شيخ معاصر له ولم يثبت له رواية وروى عنه بالعنعنة، هذا ليس بالتدليس، هذا يسمى إرسال وهو إرسال خفي. هذا الفرق بينه وبين التدليس؛ أمّا التدليس: هو رواية الراوي عن شيخه الذي سمع منه ما لم يسمع منه بصيغة توهم السماع، وهذا الذي اتهموا به أبا إسحاق السبيعي، هذا هو التدليس المطلق.

والوليد بن مسلم كان يدلّس تدليس التسوية: هو أن يأتي الراوي فيسقط ضعيف بين ثقتين؛ هو يريد أن يجوّد الإسناد ويصححه، فيسقط ضعيفاً بين ثقتين، لا يظهر ضعفه، وهذا الذي اتهم به الوليد بن مسلم. والوليد بن مسلم من رجال الصحيح وهو ثقة ثبت، لكن هو متهم بتدليس التسوية. فتدليس التسوية: هو إسقاط ضعيف بين ثقتين؛ ولذلك العلماء قالوا تدليس التسوية لا يمر حتى ولو صرّح التلميذ بالسماع من شيخه، لا يمر إلّا بشريطة مؤكدة وهي السماع لابد أن يصرّح به من أول الإسناد إلى آخر الإسناد. لأنه ممكن أصلاً يسقط شيخه، يسقط شيخ شيخه، يسقط شيخ شيخ شيخه، ويأتي بهذه الصيغة التي فيها العنعنة. أمّا الاختلاط: فالراوي الذي اختلط في آخر عمره هو الذي فحش غلطه وساء حفظه واختلط في آخر عمره، وأيضاً يدخل في التلقين هذا.

حكم رواية المدلس بيّناها: إذا صرح بالتدليس تمر، إن لم يصرح بالتدليس لا يمكن إن تمر إلّا بشروط وقيود قد بيناها في دروس المصطلح. وتدليس التسوية: شرط مرور حديث المدلّس فيه تدليس التسوية لابد أن يصرّح فيه بالسماع من كل من أول الإسناد إلى آخر الإسناد. وأمّا بالنسبة للاختلاط حكم رواية الذي اختلط لابد أن نقول: رواية المختلط على أحوال:

1 - الحالة الأولى: أن يروي عنه الراوي قبل الاختلاط، نعرف أن مثلاً سفيان أو ابن عيينة أو الثوري يرويان عنه قبل الاختلاط، فهذه أحاديث كلها مستقيمة ولا ننظر إلى الاختلاط.

2 - وراوي آخر تأكدنا أنه روى عنه بعد الاختلاط، هذا بالضعف، لا بد أن نرد الإسناد، الإسناد ليس بصحيح لأنه روى عنه في الاختلاط ولم يثبت لنا ألفاظ الحديث.

3 - هو الذي لا نعلم أروى قبل الاختلاط أم روى بعد الاختلاط، هذا حكمه التوقف، نتوقف في هذا الإسناد حتى تأتي القرائن المحتفّة لتثبت صحة الحديث أو ضعفه.

لكن ما الفرق بين الحكم الثاني والحكم الثالث؟ الحكم الثاني: روى عنه بعد الاختلاط وتأكدنا أنه راوي عنه بعد الاختلاط، هذا نقول السند ضعيف لأننا تأكدنا أنه روى عنه بعد الاختلاط، ما ضبط لنا الحديث. الحكم الثالث: راوي لم نعلم روى قبل الاختلاط أم روى بعد الاختلاط، هذا نتوقف في الإسناد. فما الفرق بين الحكمين؟ الفارق دقيق: غلّبناه في الثاني، قلنا غلبت الظن أنه ضعيف، فضعفناه ورددناه من أول مرة. أما الثالث فلم نغلّب ضعف ولم نغلّب صحة، وانتظرنا إلى قرائن (يعني شواهد) تثبت لنا هل ضبط لنا هذا الحديث، لأنه مختلط، ساعات يزل وساعات يضبط، فننظر في الشواهد هل هو ضبط لنا هذا الحديث أم لم يضبط لنا في هذا الحديث. هذه الفوائد الإسنادية في هذا الباب.

أقول أولاً أن النبي ابتدأ بالثناء على الله جلَّ في علاه، هذه تسمى آداب التخاطب وآداب الحديث؛ يبتدأ النبي -صلى الله عليه وسلم- معلما إيّانا أن كل أمر جلل على الإنسان أن يبتدئ فيه بالثناء على الله جلَّ في علاه تأدباً مع الله، ويثني بالصلاة على النبي؛ سواء في خطبة الجمعة أو أي خطبة فيها وعظ أو تذكير أو إرشاد أو بيان أو دلالة أو خطبة نكاح أو معاملة لتجارة عظيمة. كل أمر جلل يذكر ويبتدي فيه بالثناء على الله جلَّ في علاه، وهذا من السنن الفعلية التي أدبنا بها النبي -صلى الله عليه وسلم-، قدّم بين يدي كلامه الثناء على الله جلَّ في علاه. وهذا الثناء على الله جلَّ في علاه معناه أن تذكر صفات الله، صفات كمال الله جلَّ في علاه ونعوت جلال الله جلَّ في علاه. وهذه الأمور:

- أولاً: لأن الله أهل لكل ثناء، وأهل لكل مدح، وأهل لكل حمد. فإن الله جلَّ في علاه له صفات الكمال وله صفات الجلال والجمال، لذا

يستوجب ويستلزم عليك أن تثني على الله بما هو أهل له. كان النبي -صلى الله عليه وسلم- يجتهد في الثناء على الله جلَّ في علاه ويقول: (لا أحصي ثناءً عليك، أنت كما أثنيت على نفسك).

وعندنا شاهد من كتاب الله يبين لنا هذا الأدب الجمّ، الذي لا يعرفه كثير من الناس؛ قال الله تعالى: (وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُ وَلِيٌّ مِّنَ الذُّلِّ ۖ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا) [الإسراء:111]، والحمد هو الثناء الحسن على جلَّ في علاه. ثم أظهر أن هذا الثناء من أجل أن الله جلَّ في علاه له نعوت الجمال وصفات الكمال، قال الله تعالى: (وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُ وَلِيٌّ مِّنَ الذُّلِّ). وقلت أن النبي -صلى الله عليه وسلم- كان كثيراً ما يثني على الله ويقول: (لا أحصي ثناءً عليك، أنت كما أثنيت على نفسك).

- الثانية التي تستحث الأمة بالبداءة بالثناء على الله جلَّ في علاه: أن الله جلَّ في علاه يحب ذلك، فإن الثناء على الله من أجلّ العبادات التي يتعبد بها المرء لله جلَّ في علاه؛ في الصحيحين عن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: (وما أحد أحب المدح إليه من الله جلَّ في علاه) أو الثناء إليه من الله جلَّ في علاه، وأيضاً صح عن نبينا أنه قال: (إن الله يحب (أي يحب من عبده) إذا أكل أحدكم الأكلة أن يحمده عليها، وإذا شرب الشربة أن يحمده عليها). فإن الحمد لله جلَّ في علاه هو الثناء على الله، فإن الله يحب ذلك، فإذا أحب الله ذلك، دل على أن هذه من أجلّ العبادات لله جلَّ في علاه.

انظروا كيف ضيعنا هذه العبادات، وهي عبادات قولية وقلبية وتقربنا من الله جلَّ في علاه، وابتداء النبي -صلى الله عليه وسلم- بها دلالة على أهميتها.

- الثالثة وهي أيضاً من الأهمية بمكان: التبرك؛ تثني على الله ما تبدأه، ما تتبع أمراً إلّا بذكر الله تبركاً، فإن ذكر الله جلَّ في علاه يجعل القليل كثير، ويجعل الضعيف قوياً، وبه تطمئن القلوب. قال الله

تعالى: (أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ) [الرعد:28]، بلى وربي بذكر الله تطمئن القلوب، ولذلك كان النبي -صلى الله عليه وسلم- يقول: (اجعل لسانك رطباً بذكر الله)، فهذا التبرك من التبرك المشروع.

"ألّا تبتدأ كلامك إلّا بالثناء الله جلَّ في علاه"، هذا أول أدب أدبنا به قبل أن يدخل ويستهل خطبته وكلامه. قال: (من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له)؛ (من يهده الله) هذا إقرار من النبي -صلى الله عليه وسلم-، وإشارة تصريحاً لا تلميحاً، أن الهداية كل الهداية بيد الله جلَّ في علاه.
فيها:

- أولاً: أن السنة وحي كما أن القرآن وحي، من مشكاة واحدة خرجت السنة هي والقرآن، قرينة القرآن. ولأن هذا الكلام يواكب ويوافق، بل هو مستقى من كلام الله جلَّ في علاه، كما قال الله تعالى: (مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُّرْشِدًا) [الكهف:17]، وقال الله تعالى: (وَمَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِهِ ۖ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا) [الإسراء:97]. فقال الله تعالى: (مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ)، كما قال النبي -صلى الله عليه وسلم-، فخرجت من واحدة.
-
- - وهنا إقرار من النبي -صلى الله عليه وسلم- وتصريحاً بأن الهداية بيد الله جلَّ في علاه، والإضلال بيد الله جلَّ في علاه كما في مسند أحمد عن ابن عباس: أن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: (واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء، لن ينفعوك إلّا بشيء قد كتبه الله لك. واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن يضروك بشيء لن يضروك إلّا بشيء قد كتبه الله عليك). لكن ما وجه الشبه في هذا الباب؟
-
- السؤال: أولاً قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (من يهده الله)، الهداية كلها بيد الله جلَّ في علاه والإضلال بيد الله جلَّ في علاه كما بيّنا. قال الله تعالى: (مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُ

وَلِيًّا مُّرْشِدًا)، وقال الله تعالى: (وَمَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِهِ)، الهداية باسرها بيد الله، كذلك الإضلال بيد الله جلَّ في علاه. ثم ذكرت حديث النبي -صلى الله عليه وسلم- معضداً لقوله؛ قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء، لن ينفعوك إلّا بشيء قد كتبه الله لك. واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن يضروك بشيء لن يضروك إلّا بشيء قد كتبه الله عليك). فما وجه الدلالة في هذا؟ وما وجه الربط في هذا الحديث وبين هذه الكلمات التي نتكلم عنها؟

-

- لن يضلوك، وهذا مستقى من قوله النبي -صلى الله عليه وسلم- أن ينفعوك. أكثر النفع وأشد النفع وأعظم النفع هو هداية القلوب وهداية المرء إلى الطريق القويم والنهج المستقيم، فلذلك قال النبي -صلى الله عليه وسلم- أن هذه الهداية بيد الله جلَّ في علاه، ولو اجتمعت الأمة على هدايتك ولم يرضَ الله جلَّ وعلا بذلك لن يكون. وأيضاً يبيّن الله جلَّ في علاه أن أسباب الهداية بيده، وأسباب الإضلال بيده؛ قال الله تعالى: (فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ) [الأنعام:125]. لذا يستوجب علينا إذا علمنا بأن الهداية بأسرها بيد الله، والإضلال بأسره بيد الله جلَّ في علاه، أن نفصل في هذا الموضوع الشائك.

-

- أول التفصيل: تقسيم الهداية إلى هدايات:

-

- هداية الله جلَّ في علاه: هداية عامة، وهداية أخص من العامة، وهداية خاصة، ثم هداية في الآخرة. ثلاثة في الدنيا وواحدة في الآخرة.

-

- □ هداية عامة هذه الهداية التي ينتفع بها الخلق بأسرهم في معاشهم، وهذه الهداية هي إرشاد وهداية الخلق أجمعين من طير ودابة وإنسان وجن؛ إلى كيف معاشرة الذكر للأنثى، كيف استخراج الرزق من الأرض، كيف التعامل مع صعوبات الحياة. قال الله تعالى: (سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى * الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ * وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ) [الأعلى:1-3]، هذه الهداية العامة لكل المخلوقات بأسرها لما ينفعهم في معاشهم في الحياة الدنيا والتعامل مع صعوبات هذه الحياة، قال الله تعالى: (وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا) [هود:6].

-

- □ الثانية وهي أخص وهي هداية الثقلين الجن والإنس، وهي هداية البيان وهداية الإرشاد وهداية الدلالة؛ قال الله تعالى مبيناً لنا أنه يهدي البشر أجمعين هداية البيان هداية الإرشاد واستنارة الطريق: (وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ) [فصلت:17]، بيّنا لهم الطريق القويم، بيّنا لهم الصراط المستقيم بيّنا لهم كيف يصلون إلى الله جلَّ في علاه، (وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ) يعني بيّنا لهم. وأيضاً قال الله تعالى: (وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ) [التوبة:115]، يعني يبيّن لهم ويهديهم.

-

- وقد قال الله تعالى مبيناً أنه أنزل كتابه نوراً وهداية للناس: (وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ) [النحل:44]، قال الله تعالى: (وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ) [الإسراء:82]، وقال جلَّ في علاه في سورة المائدة: (قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ * يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ) [المائدة:15]. فهذه أيضاً هداية البيان وهداية الإرشاد، لأن القرآن فيه افعل ولا تفعل؛ (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا)، (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَعْتَذِرُوا الْيَوْمَ) [التحريم:7]، فيه هداية البيان وهداية الدلالة.

-

-

- وهذا تقسيمه تقسيماً بديعاً؛ من الله يكون وحياً، ومن الرسول تبليغاً وتبييناً، ومن الدعاة والعلماء يكون إرشاداً وهداية.

- إذاً هو من الله يكون وحياً؛ كما قال الله تعالى: (مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَٰكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا) [الشورى:52]، وقال الله تعالى: (وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا) [الشورى:51]، وقال الله تعالى: (وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ) [النجم:3-4]. فهو وحي من الله جلَّ في علاه هداية للناس كما قلنا، قال الله تعالى: (وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ) [النحل:44].

- الثاني من الرسول تبليغاً وتبييناً: (وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ) [النحل:44]، وقال الله تعالى: (يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ) [المائدة:67]، وقال جلَّ في علاه: (يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا * وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا) [الأحزاب:45-46]، فالرسول -صلى الله عليه وسلم- هو سراج منير يهدينا إلى الطريق السلام وطريق النجاة، قال الله تعالى: (وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) [الشورى:52].

- أمّا في الدعاة والعلماء فهو التبليغ والإرشاد؛ قال النبي -صلى الله عليه وسلم- لعلي بن أبي طالب: (لإن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك من حمر النعم)، وقال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (بلغوا عني ولو آية). وفي الصحيح أيضاً عن النبي -صلى الله عليه وسلم-: (نضر الله امرئً سمع مقالتي فوعاها فأداها كما سمعها)، فهذه أيضاً من العلماء والدعاة الذين استوظفوا وظيفة النبي -صلى الله عليه وسلم-، لهم الهداية؟ نعم يهدون الناس إلى طريق الرشاد هداية بيان وهداية دلالة.
- الثالثة هداية أخص، وهذه هداية التسديد والتوفيق، وهي هداية القلوب. وهذه لا تكون بحال من الأحوال إلّا لله جلَّ في علاه، لا يمكن أن تكون لغير الله لأن الله هو الذي يملك القلوب، قال الله

تعالى: (وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ) [الأنفال:24]. وهذه التي تتعب الناس كثيراً، وهذه التي لو تدبرها المرء علم أن قلبه بين يدي الله إن شاء أقامه وإن شاء أزاغه، ولذلك قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (القلوب بين إصبعين من أصابع الرحمن يقلبها كيف يشاء، فأيما قلب أراد الله أن يقيمه أقامه، وأيما قلب أراد الله أن يزيغه أزاغه). ولذلك النبي كان كثيراً ما يدعو ويقول: (يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك، ويا مصرف القلوب ثبت قلبي على طاعتك).

- فهداية التثبيت، هداية التوفيق ،هداية القلوب لا يملكها إلّا الله جلَّ في علاه، ولذلك قد نفاها الله عن النبي قال: (إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ) [القصص:56]؛ هذه قصة عرض الإسلام من النبي -صلى الله عليه وسلم- لعمه أبي طالب عندما قال له: (يا عم قل كلمة أحج لك بها عند الله، قل لا إله إلّا الله)، فمات على ملة عبد المطلب، فقال النبي -صلى الله عليه وسلم- له: (لأستغفرن لك ما لم أنهَ عنك)، فنهاه الله جلَّ وعلا عنه عن الاستغفار، وأنزل في كتابه هذه الآية القيّمة التي لا بد أن نتدبرها: (إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ)؛ أي لا تهدي القلوب ولا تسدد ولا توفق القلوب. وبذلك يرتفع الإشكال، لأن عندنا في الآيات هداية مثبتة وهداية منفية عن النبي -صلى الله عليه وسلم-: أمّا الهداية مثبتة: (وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) [الشورى:52]، هذه مثبتة للنبي، هداية دلالة، هداية إرشاد، هداية تبيين، هداية تبليغ. وأمّا الهداية المنفية عن النبي -صلى الله عليه وسلم- هي هداية التثبيت وهداية التوفيق. ولذلك قال النبي -صلى الله عليه وسلم- في الحديث القدسي: (قال الله: فمن وجد خيراً فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلّا نفسه)، وقال الله تعالى: (فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللَّهُ)، هو الذي يتحكم في قلبه (فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ) [النحل:36].
- فحري بالإنسان إذا علم هذه الهداية أن يفتقر كل الفقر لربه جلَّ في علاه، وأن يعلم كل العلم وأن يستيقن كل اليقين أن تمام هدايته بالله

جلَّ في علاه وأن ضلاله أيضاً بيد الله جلَّ في علاه، فليرتجف قلبه لذلك وليتقرب وليتزلف وليتذلل وليتمسكن وليتضرع بربه جلَّ في علاه أن يهدي قلبه وأن يثبت قلبه على الإيمان، ولا يزيغه ولا يفتنه قبل أن يقبضه. وهذا الذي كان يفعله فقهاء السلف عندما علموا أن قلوبهم بيد الله جلَّ في علاه، فسألوا التثبيت والتسديد والتوفيق من الله.

الهداية الرابعة مستلزمة للهداية الثالثة، الهداية الرابعة هي في الآخرة لكن هي لازمة للهداية الثالثة. إن كان التوفيق والتسديد من الله، إذا أراد بعبد خيراً سدد قلبه ووفق قلبه وخطاه، ثم بعد ذلك هداه في الآخرة جزاءً وفاقاً وأجراً طباقاً لهذه الهداية الثالثة، بأن الهداية الرابعة يعرّفه الجنة، يدخل الجنة دون حيدة ودون ألّا يعرف مكانه، ويعرف بيته في الجنة ومسكنه في الجنة كما يعرف مسكنه في الدنيا؛ قال الله تعالى: (وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ * سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ * وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ) [محمد:4-6].

هذه هي الهداية الرابعة في الآخرة، وهذه خاصة وأخص من الثانية والثالثة لأنها خاصة بالمؤمنين؛ كل مؤمن يعرف طريقه إلى الجنة، ويعرف مسكنه في الجنة أشد من معرفته بمسكنه في الدنيا.

هذه مجمل الهدايات التي بيّنها النبي -صلى الله عليه وسلم- أن كلها بيد الله جلَّ في علاه؛ سواء التبيين فهي بيد الله لأنه الذي أنزل الوحي ليبيّن للناس، وسواء هداية التسديد والتوفيق في القلوب هذه أيضاً بيد الله جلَّ في علاه، والهداية الأخيرة في الآخرة لا يملكها إلّا الله جلَّ في علاه. هذا مجمل القول في قوله -صلى الله عليه وسلم-: (ومن يهد الله فلا مضل له).

(ومن يضلل)؛ إذ الإضلال أيضاً بيد الله جلَّ في علاه، فضلال القلوب وزيغ القلوب وفتنة القلوب بيد الله جلَّ في علاه، وليست بيد أحد إلّا الله، فلا يخشَ أحد على نفسه من الإضلال ولا من الفتنة، وهذا محل قول

شيخ الإسلام لتعلموا كيف تبحر هذا الرجل في معرفة أسماء الله الحسنى وصفاته العلا، معرفة أساليب القدر وأسس القدر عندما قال: وما يفعل أعدائي بي؟! إن قتلوني فقتلي شهادة، وإن سجنوني فسجني خلوة بربي، وإن نفوني فنفيي سياحة، جنتي في قلبي؛ يعني قلبي لا يملكه إلّا ربي، يستطيع أن يقطّع جلدك؟ يستطيع، لكن ما يستطيع أن يدخل قلبك ويزيغه، لا يستطيع أن يدخل الشرك في قلبك أبداً، ولا أن يزحزح اليقين من قلبك، قال: جنتي في قلبي.

هذا مستقى من هذا الحديث: (من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له)؛ فإن الله جلَّ في علاه إذا أراد أن يزيغ قلباً لا هادي لهذا القلب، وهذا أيضاً قاله نوح إقراراً منه وقصه الله علينا؛ قول الله تعالى في سورة هود عندما قالوا له: أنزل علينا العذاب، وهو قال: الأمر إلى الله، ماذا قال؟ قال: (وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ ۚ هُوَ رَبُّكُمْ) [هود:34]؛ فهذه دلالة على أنني وأني رسول وأدعو ليل نهار لهدايتكم، لا أستطيع الهداية إذا كان الله يريد أن يغويكم. ولذلك قال الله تعالى في الإسراء على القرية التي إذا أراد أن يهلكها ويدمرها: (وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا)، وفي قراءة: (أَمَّرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا) [الإسراء:16]؛ فهذه دلالة على أن الإضلال كل الإضلال بيد الله جلَّ في علاه، (وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ) [الأنعام:125]، ولذلك قال الله تعالى: (فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ) [النحل:36].

ولنا وقفة إذا كان الإضلال بيد الله؛ هل يظلم الله عباده؟ وهل يضل الله جلَّ في علاه على غير حكمة وعلى غير اختيار؟ لا والله، إن الله جلَّ في علاه إذا أضل عبداً، فاعلم يقيناً أن هذا العبد لا يستحق بحال الهداية. قال الله عن ثمود: (وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ) [فصلت:17]، هم الذين أرادوا الإضلال.

قال الله تعالى: (وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ) [الجاثية:23]، هذه لها تفسيرات:

- التفسير الأول: أضله الله على علم من عنده، لأنه يعلم أنه ليس محلاً للخير. أيضاً لا تنبت خيراً، لا يأتيها المطر فتنبت خيراً أبداً، أرضاً لا تستحق الخير، يعلم الله أنه لا يستحق إلّا الإضلال. أضله الله على علم لأنه يعلم ـنه لا يستحق الخير والله يغار أن يضع الشيء في غير موضعه.
- التفسير الثاني: (وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ) يعني على علم من هذا الضال الذي أضله الله، كان يعلم أن دين الله هو الحق، وكان يعلم أن أمر الله هو الحق، وكان يعلم أن الإسلام هو الحق فأبى تكبراً وعناداً. كما قلنا كثيراً أن فرعون علم يقيناً أن موسى رسول، وعلم يقيناً أن دين موسى هو الدين الحق، ومع ذلك تكبر وتعنت لأمر الدنيا. وقلنا اكثر من مرة هذه الآية ظاهرة واضحة عندما قال فرعون لموسى: (إِنِّي لأَظُنُّكَ يَا مُوسَى مَسْحُورًا) [الإسراء:101]، قال موسى: (لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنزَلَ هَٰؤُلَاءِ إِلَّا) يقين هو يعلم أن الدين الحق (لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنزَلَ هَٰؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ بَصَائِرَ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُورًا) [الإسراء:102].

وقلنا قصة لطيفة (والإسرائيليات تقال، لا يثبت سندها ونقولها لا حرج)؛ أن إبليس دق الباب على فرعون فقال: من على الباب؟ قال: أو تسأل من على الباب وتدعي الربوبية أيها الجاهل الظلوم؟ يعني هو يعلم أنه ظلوم ويعلم أنه لا يعلم الغيب ولا يعلم شيئاً، ومع ذلك أضل نفسه على علم.

فإذاً الله جلَّ وعلا لا يظلم عباده، إذا أضل عبداً أضله لأنه يستحق الإضلال. وإذا هدى عبداً فهذا من محض الفضل ومحض النعمة ومحض الكرم من الله جلَّ في علاه. أضله الله على علم، فلا حجة لأحد

ولا لأحد أن يرد على الله ولا يقول أن الله جلَّ وعلا ظلمه بهذا الإضلال، الإضلال كله بيد الله.

(من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له)، ثم قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (وخير الحديث كتاب الله)؛ أضاف الكلام لله جلَّ في علاه، وبيّن إشارةً منه، بل تصريحاً أن خير المجالس ما يذكر فيها اسم الله جلَّ في علاه، ويصلى فيها على النبي -صلى الله عليه وسلم-. قد قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (ما جلس قوم مجلساً لا يذكرون فيها اسم الله جلَّ في علاه، لا يصلون على النبي -صلى الله عليه وسلم- إلّا كان حسرة عليهم يوم القيامة)، فهذه إشارة من النبي تصريحاً أن كلام الله هو خير الكلام.

ولذلك كان الصحابة يتبارون بل يتنافسون في ختم القرآن وقراءة كلام الله جلَّ في علاه، وكانوا يرون أن النفاق كل النفاق البعد عن كلام الله، وأن الإخلاص كل الإخلاص يظهر في محبة ترديد كلام الله جلَّ في علاه. وقد قال عثمان: لو طهرت قلوبنا ما شبعنا من كلام الله، وكان ابن مسعود يأخذ كتاب الله يحتضنه ويقبله ويقول: كلام ربي، كلام ربي، من أراد أن يختبر حبه لله فليعرض نفسه على كلام الله.

ثم قصر وحصر النبي -صلى الله عليه وسلم- وقال: (وخير الهدى هدى محمد -صلى الله عليه وسلم-)؛ اقتران بين كلام الله وبين هدي النبي -صلى الله عليه وسلم-، في إشارةٍ إلى أن الكتاب والسنة يتلازمان يترافقان، لا يمكن أن ينفصل واحد عن آخر. وهذا الحديث فيه دلالة على تضعف حديث: (أحكم بكتاب الله، فإن لم أجد في كتاب الله حكمت بسنة النبي -صلى الله عليه وسلم)(١)

لأنه فصل بين الكتاب وفصل بين السنة. وهنا النبي -صلى الله عليه وسلم- يبيّن أن كتاب الله وسنة النبي على التلازم والترافق، ولا يمكن الفصل بينهما؛ فإن كان خير الكلام هو كلام الله، فخير الهدي هو هدي النبي -صلى الله عليه وسلم-. فإشارة منه أن الاعوجاج عن هدي النبي -صلى الله عليه وسلم- فيه الإضلال وليس فيه الخير، ولذلك قالها

تصريحاً: (كل امتي يدخل الجنة إلّا من أبى، قالوا: ومن يأبى يا رسول الله؟ قال: من أطاعني دخل الجنة ومن عصاني فقد أبى). وأيضاً يقول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (فمن رغب عن سنتي فليس مني).

ثم انتقل تفسيراً لهذا التقسيم العظيم؛ خير الكلام كلام الله، والهدى كل الهدى في كلام الله واتباع كلام الله، والهدى كل الهدى في اتباع كلام النبي -صلى الله عليه وسلم-. ثم فسّرها بالضد، وبضدها تتبين الأشياء، قال: (وشر الأمور محدثاتها الشر)؛ كل الشر في المحدثات، الشر كل الشر في البدع فإنها ضلالات. يا ترى هذا التفسير لِمَ يبينه النبي -صلى الله عليه وسلم-؟ ولِمَ غلّفه بهذه الشرور؟ البدعة كلها شر، ولِمَ هي شرور؟ أشر ما فيها ما هو؟ سببان عظيمان جعل رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يقول بأن البدعة شر كل الشر، يفسّر بها الهدى، بضدها تتبين الأشياء.

قلت الشر كل الشر ومكمن الشر في البدعة، ولذلك صدّر به النبي -صلى الله عليه وسلم- الحصر والقصر؛ أعظم الشر وكل الشر في البدعة لأن الذي يبتدع في دين الله جلَّ في علاه لسان حاله يتهم الله، يقول أنت لا تعلم ما فيه خير للعباد وأنا أعلم ولذلك أكمل لك هذا الدين، لم تتم هذا الدين وأنا أتم هذا الدين.

- إذاً أول الشرور وأعظم الشرور فيه: اتهام لله جلَّ في علاه أنه لم ينزل الخير للعباد وفيه اتهام لرسول الله -صلى الله عليه وسلم-؛ إن كان الله أنزل هذا الخير فلم يبلغه النبي، فهذا فيه اتهام ضمني أن النبي -صلى الله عليه وسلم- قصّر في البلاغ، والله يقول له: (يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ) [المائدة:67].
- الثاني؛ هذه التي نقول بتفسيرها لِمَ قال: (وشر الأمور محدثاتها)؟ هذه تنادي على كل رجل يأخذ ممن هب ولا يعرف كيف يفرق بين السني والبدعي، هي تتجه للعظمة الإلهية مهمة جداً: هو ذريعة لأن يتخذ أرباباً من دون الله جلَّ في علاه؛ من الذي خلق؟ إذاً من الذي يشرّع؟ فإذا نصّب نفسه مشرّعاً مع الله جلَّ في علاه، فقد نصّب نفسه رباً مع الله جلَّ وعلا، فهذا ذريع للمبتدع أو للبدعة إلى تنصيب

البشر أرباباً مع الله جلَّ في علاه، إذ أن الشرع بيد الله جلَّ في علاه كما أن الخلق بيد الله جلَّ في علاه، (أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ) [الأعراف:54]، ولذلك يقول الله جلَّ وعلا: (أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُم مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَن بِهِ اللَّهُ) [الشورى:21].

(وشر الأمور)؛ هذه التي تغلّف المحدثات والبدع أنها كلها شرور، (وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة).

البدعة لغة: هي الطريقة المستحدثة على غير مثال سابق.

واصطلاحاً: هي طريقة في الدين مخترعة، يضاهى بها الشرعية، يُقصد بالسلوك عليها المبالغة في التعبد لله جلَّ في علاه.

هي طريقة في الدين مخترعة؛ مخترعة أصلاً أو إضافة:

- مخترعة أصلاً: يعني لم يأتِ بها النبي -صلى الله عليه وسلم- بحال من الأحوال، يأتي بعبادة لم يتعبد بها النبي -صلى الله عليه وسلم- لا قولاً ولا فعلاً ولا تقريراً،
- أو إضافة: يأتي بعبادة تعبد بها النبي -صلى الله عليه وسلم- لكن على هيئة غير الهيئة التي تعبد بها النبي -صلى الله عليه وسلم-، أو في زمان غير الزمان الذي تعبد به النبي -صلى الله عليه وسلم-.

إذاً طريقة مخترعة أصلاً أو إضافة؛ طريقة مخترعة أصلاً: لم يأتِ بها النبي -صلى الله عليه وسلم-، لم يأتِ بها الشرع بحال من الأحوال. أو إضافة: يعني أتى بها النبي -صلى الله عليه وسلم- لكنها ليست على نفس الهيئة أو ليست في نفس زمان وفي نفس التوقيت.

طريقة في الدين مخترعة، يضاهى بها الشرعية؛ تضاهي الشرعية يعني: توافق الشرعية، سجود كسجود، ركوع كركوع، ذكر كذكر. وإلّا فابن مسعود -رضي الله عنه وأرضاه- لمّا دخل على الجماعة الذين التفوا حول رجل ومعهم الحصى ويقول: كبروا مائة، سبحوا مائة، هللوا مائة. كانوا يذكرون الله، تضاهي ذكر الله جلَّ في علاه، ومع ذلك لمّا تلثم وخرج عليهم قال: أتعرفون من أنا؟ أنا عبدالله بن مسعود،

صاحب رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، أنتم على ملة أهدى من ملة رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أو مفتتحو باب ضلالة. مع أنها تضاهي الشرعية؛ يعني يذكر كذكر، يسجد كسجود، يصلي كصلاة، يزكي كزكاة. الغرض المقصود أنه يضاهى بها الشرعية.

يقصد صاحبها المبالغة في التعبد لله جلَّ في علاه؛ يقول زيادة الخير خيرات، وهذا الذي ذكره الرجل السائل الغافل لمالك عندما قال: ترى أنا أُحرِم قبل ما أحرم النبي -صلى الله عليه وسلم-فأحرم قبل الميقات، النبي أحرم عندما ذهب للحج من ذي الحليفة، فقال: أحرم من بيتي أو أحرم من قبل ميقات النبي -صلى الله عليه وسلم-. فقال له: لا تفعل، قال: لِمَ؟ زيادة الخير خير، فقال له ما لك: كيف تقدم على أمر ترى الرسول -صلى الله عليه وسلم- قد قصّر عنه؟ فأنت بذلك تريد المبالغة، وقد أسأت من حيث أردت الإحسان. فهو يريد المبالغة في التعبد لله جلَّ في علاه.

والبدعة مذمومة شرعاً وعقلاً وفطرةً:

- أمّا شرعاً؛ فقد قال الله تعالى ذماً فيمن ابتدع بدعةً في الدين: (وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا) [الحديد:27]، وقال الله تعالى: (وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ) [ص:26]، وقال الله تعالى: (وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ) [القصص:50]. وقال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (من أحدث في ديننا هذا ما ليس منه فهو رد)، باطل، وقال -صلى الله عليه وسلم-: (من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد) يعني فهو باطل، وقال -صلى الله عليه وسلم-: (إياكم ومحدثات الأمور فإن كل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار). كما وردت بها الآيات ورد بها الأحاديث والآثار، فهي مذمومة شرعاً.
- وأيضاً مذمومة عقلاً؛ فإن المبتدع يرى نفسه متقدم على رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، ويرى نفسه قد قدم نفسه على شرع الله جلَّ في علاه، أتم لنا الدين وأكمل لنا الدين، وأن الله لم يتم الدين ولم

يكمل الدين، احتاج هذا الدين لمثل هذا الرجل الذي أتى بهذه البدعة وهذه العبادة التي لم يشرعها رسول الله -صلى الله عليه وسلم-.

فهي مذمومة كما قلت شرعاً وعقلاً وفطرةً؛ الفطر السليمة تأوي إلى السنن، وقد بيّنا أن الرجل المسدد الموفق الذي يأوي الى سنن النبي -صلى الله عليه وسلم- وإلى هدى النبي -صلى الله عليه وسلم-.

بعدما علمنا معنى البدعة، وبيّنا ذمها شرعاً، نرى تقسيم البدعة بإيجاز أيضاً.

البدعة بدعتان: بدعة مكفّرة وبدعة مفسّقة؛

• أمّا البدعة المكفرة: فهي التي يخرج بها صاحبها من الملة؛ مثل بدعة غلاة الجهمية والمعتزلة، الذين لا يعبدون إلّا عدماً، ما يعبدون ذاتاً ولا أسماءً ولا صفات، قالوا: لا سميع ولا سمع، ولا بصير ولا بصر، ولا قادر ولا قدرة. فنفوا الأسماء والصفات، وضمناً نفوا الذات فعبدوا عدماً، هذه البدعة بدعة مكفّرة.

أيضاً من هذه البدعة الذين يقولون: لا تكليف إلّا بعد الأربعين، لا يكلّف أحد إلّا يبلغ الأربعين. وهذه بدعة مكفرة، لكن كيف ذلك؟ أولاً فيه تكذيب لكتاب الله وتكذيب لسنة النبي -صلى الله عليه وسلم-؛ فهو كذّب النبي -صلى الله عليه وسلم- عندما قال: (رفع القلم عن ثلاثة: وعن الصبي حتى يحتلم)، فإذا احتلم أصبح مكلّفاً، هم يقولون: لا، نرد هذا الحديث على النبي -صلى الله عليه وسلم-.

ومن الكتاب: (وَابْتَلُوا الْيَتَامَىٰ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ) [النساء:6]، فجعل مناط إعطائهم المال ورشدهم هو النكاح. لو قلنا هم لا ينكحوا، ولا يمكن أن يصل المرء عندهم في البلوغ إلّا الأربعين، الواقع يكذّبه.

فإذاً جعل مناط التكليف الاحتلام، وهذه واحدة من ثلاث يعرف بها البلوغ. فالكتاب قال: (حَتَّىٰ إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ) يعني الاحتلام، وأيضاً قول

النبي -صلى الله عليه وسلم-: (رفع القلم عن ثلاثة: وعن الصبي حتى يحتلم). فرد كتاب الله، ورد سنة نبي -صلى الله عليه وسلم-.

أيضاً من البدع المكفرة أن يرفع أقوامٌ رسول الله لدرجة الربوبية أو درجة الإلهية، يسألونه من دون الله جلَّ في علاه أو يدعونه من دون الله جلَّ في علاه، يجعلونه رباً مع الله، فهذا أيضاً بدعة مخرجة من الدين.

• الثانية بدعة مفسّقة: وهذه أغلبها في العبادات ليست عقائد؛ في العبادات بأن يخترع عبادة لم يأتِ بها الشرع، لم يأتِ بها الله جلَّ في علاه في كتابه، لم ينزلها في كتابه، ولم يأتِ بها الرسول -صلى الله عليه وسلم-. فهذه بدعة مفسّقة وليست مكفرة، وسيأتي تفصيلها أنها أصلية وإضافية، وقد شرحت معنى الأصل والإضافة.

وهذا إيجاز لقول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (شر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة)؛ إذاً جعل المحدثات بدعة، وكل بدعة ضلالة.

الفوائد المستنبطة:

1 - أول هذه الفوائد: إثبات الكلام لله جلَّ في علاه؛ الله يتكلم؟ نعم تكلم بالقرآن بصوت وحرف وسمع جبريل ونزل به. من هذا الحديث العظيم إثبات الكلام لله، قال: (خير الحديث كتاب الله)، فأضاف الكلام لله جلَّ في علاه.

وقد قعّدنا القاعدة المضاف إلى الله مضافان:

- أعيان قائمة بذاتها؛ كالكعبة، كالناقة، كعيسى روح الله. فالكعبة بيت الله، (نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا) [الشمس:13]. فالعين القائمة بذاتها إضافتها إلى الله إضافة تشريف؛ الكعبة بيت الله تشريف هذا البيت عن كل البيوت، (نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا) دلالة على عظمتها وأنها كانت معجزة من المعجزات، عيسى روح الله تشريفاً وتكريماً وتعظيماً لمكانة عيسى -عليه السلام-.

- والمضاف الثاني معاني: ليست عيان قائمة بذاتها، وإضافة المعاني هي إضافة صفة للموصوف؛ عزة الله، قدرة الله، كلام الله.

فأضاف النبي -صلى الله عليه وسلم- الكلام لله جلَّ في علاه إثباتاً، لأن الله يتكلم جلَّ في علاه.

2 - الرد على المعتزلة: من أين نرد على المعتزلة؟ وكيف الرد من هذا الحديث على المعتزلة؟

ترى أن شيخنا -رجل مفخرة للمصريين-، وإن كان في كلامه ليس بصحيح لكن كان يمثّل مثل عظيم جداً للناس، تستقبله العامة بقبوله بصدر رحب؛ يقولون: انظروا إلى الأستاذ ينظر إلى التلاميذ هو يختبرهم ويعرف قدرات كل تلميذ فيقول: أحمد سيأتي بالأربعين، ومحمد بتسعة وثلاثين، وهشام ثلاثة عشر، زيد بأربعة وعشرين وعبيد بخمسة وثلاثين مثلاً. فأتى بهذه الأسماء والدرجات ووضعها عنده، بعد الاختبار كانت النتيجة مطابقة لما عنده، فهذه دلالة على العلم. فهو يقول ربنا عالم بالعباد، من صاحب الجنة ومن صاحب النار، من المهتدي ومن الضال. فهذا أيضاً كلام من الخطأ بمكان، وهذا أيضاً اعتزال. هذا خطأ المثال أن يقول الله يعلم من المهتدي ومن الضال، لكن ما يقر بأن الله يهدي ويضل. هذا المثل: زيد يأخذ أربعة وعشرين، الله هو الذي يجعله يأخذ أربعة وعشرين. لكن في مثاله قال: الله يعلم أنه سيأخذ أربعة وعشرين فقط، لكن ما أتى بجانبه، ما وفّقه للأربعة والعشرين.

إذاً الرد على المعتزلة كيف؟ المعتزلة يقولون: بأن الله ليس بيده الهداية ولا الإضلال، فإن الله جلَّ في علاه لا يستطيع أن يهدي عبد ولا يستطيع أن يضل عبد، العبد يهدي نفسه ويضل نفسه. ولذلك هم أجوريين، هم يقولون: الجنة مقابل العمل، هم يعملون فلذلك يستحقون الجنة. والنبي -صلى الله عليه وسلم- عندما قال: (لن تدخلوا الجنة إلّا برحمة ربكم، قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: ولا أنا إلّا أن يتغمدني الله برحمته).

ففي الحديث العظيم رد على المعتزلة الذين نصّبوا أنفسهم خالقين مع الله جلَّ في علاه، الهداية بأيديهم والإضلال بأيديهم؛ قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له هادي له)، فالهداية والإضلال بيد الله، رداً على المعتزلة الذين يقولون: هداية المرء بنفسه، هو يبحث عن الحق ويصل إليه وله الجنة يستحقها، والإضلال أيضاً بنفسه أراد الشهوة واتبع الشهوات وترك دين جلَّ في علاه.

3 - الفائدة الثالثة: كل بدعة ضلالة؛ هذا نص من كلام رسول الله: (كل بدعة ضلالة).

"كل بدعة" نص في العموم، النبي -صلى الله عليه وسلم- نفسه يقول: (كل بدعة ضلالة)، فإذاً هذا فيه رد على من قسّم البدعة إلى بدعة حسنة وبدعة سيئة، فنقول له: أأنت أعلم أم رسول الله -صلى الله عليه وسلم-؟ أأنت أعلم أم الله؟ رسول الله من فمه قال: (كل بدعة) نص في العموم، لا يحتاج لتأويل ولا تفسير، (كل بدعة ضلالة). ولذلك رحم الله ابن عمر -وهذا سيف قاطع في المقسّمين- عندما قال: كل بدعة ضلالة ولو رآها الناس حسنة.

إذاً هذا التقسيم منفي عند نبي الله -صلى الله عليه وسلم- أنه قال: (كل)، وهذا كلام النبي -صلى الله عليه وسلم-، الحمد لله لم نأتِ من كيسنا ولم نتكلم عن أنفسنا ولا عن فهمنا. ائت برجل من الشارع وقل له يقول النبي: (كل بدعة ضلالة)، وإذ بالشافعي أو عمر أو أبو بكر -قل هذا افتراضاً، حاشا لهم أن يقولوا ذلك- قالوا: هناك بدعة حسنة وهناك بدعة سيئة.
العامي ماذا يقول؟ يقول: يخالفون النبي؟! النبي قال: (كل بدعة ضلالة)، وهم يقولون بدعة حسنة وبدعة سيئة؟ من أين أتوا بهذا التقسيم؟ من رسول الله؟ رسول الله قال: (كل بدعة ضلالة). إذاً (كل بدعة ضلالة) نص في العموم، رداً على من يقسّم البدعة إلى بدعة حسنة وبدعة سيئة.

تبقى لنا شبهة عند من يتعلقون بهذا التقسيم ويقولون بدعة حسنة وبدعة سيئة؛ قالوا عمر ابن خطاب -رضي الله عنه وأرضاه- عندما جمع الناس على أبي بن كعب يصلي بالناس في التراويح، نظر فاستنار وجهه وفرح قلبه وقال: نِعْمَت البدعة هذه. فقال إنها بدعة، فهذه من عمر ابن الخطاب تقسيم إلى حسنة وسيئة هذه الشبهة التي يتعلقون بها.

التأصيل العام من التأصيل النبوي -ليس منا-: (كل بدعة ضلالة)؛ "كل" نص في العموم، لا يمكن التقسيم لأن النبي -صلى الله عليه وسلم- قد أجهز عليه، لكن عمر الفاروق كان يقول: نِعْمَت البدعة هذه.

أقول في الرد عليه في ذلك؛ البدعة بدعة لغوية وبدعة شرعية:

ننظر أولاً لنفترض أن كلام عمر "نِعْمَت البدعة هذه" على البدعة الاصطلاحية، فننظر البدع الاصطلاحية هل هي أصلية أم إضافية؟ انظروا عمر بن الخطاب أتى بالناس وجمعهم على أبي يصلي بهم، ننظر هي أصلية أم إضافية؟ هل النبي صلى التراويح بالناس أم لم يصلِّ؟ إذاً الأصل فعله النبي -صلى الله عليه وسلم-؛ كما في الصحيحين عن عائشة -رضي الله عنها وأرضاها-: (أن النبي -صلى الله عليه وسلم- صلى الليلة الأولى بالناس التراويح، وصلى الليلة الثانية والثالثة، ثم ضج المسجد بالناس فامتنع عن النبي). إذاً أصل العبادة موجود، أصل نبوي صلى النبي -صلى الله عليه وسلم- بالناس التراويح في جماعة، فإذاً عمر لم يأتِ باختراع جديد، قد صلى النبي، وصلى أبي بالناس.

الأمر الثاني البدعة التي أتى بها عمر هي إتمام الشهر جماعة، والنبي -صلى الله عليه وسلم- لم يتم الشهر. إذاً:

- إمّا نقول قد ابتدع عمر بدعة وأتى بالناس وجمعهم على إمام وأتم الشهر في الجماعة،
- أو نقول لا هو موافق في إتمام الشهر للنبي -صلى الله عليه وسلم-.

ظاهر الأمر هو لم يوافق النبي، لأن النبي لم يتم بالناس صلاة القيام في الشهر، هل كان لها علة أم لا؟ هي أمر من أمرين:

- إمّا أن يكون عمر أتم بالناس وهذه بدعة لم يفعلها النبي -صلى الله عليه وسلم-،
- وإمّا أن يكون عمر فعلها على أساس أن النبي -صلى الله عليه وسلم- ما امتنع إلّا لعلة.

فننظر هل النبي امتنع لأنها بدعة أم امتنع لأنها علة؟

ننظر نرى النبي -صلى الله عليه وسلم- بعدما اجتمع الناس ولم يخرج لهم سألوه، فقال: (خشيت أن تفرض عليكم). إذاً النبي -صلى الله عليه وسلم- الصلاة أصّل أصلاً وصلى بالناس جماعة سنة صلاة التراويح، صلى بهم ليلة وليلتين وثلاثة، ثم امتنع، فلمّا امتنع تأنى وقلنا لِمَ امتنع النبي -صلى الله عليه وسلم-؟

سأل الصحابة لِمَ امتنع: قال بدعة؟ لا ما قال بدعة، ماذا قال؟ قال: (خشيت أن تفرض عليكم). ما معنى هذا؟ معنى هذا أن النبي -صلى الله عليه وسلم- إن لم يخشَ أن تفرض لصلى بهم جميع الشهر إماماً ومأمومين جماعة في التراويح.

فمعنى قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (خشيت أن تفرض عليكم)، "مفهوم المخالفة": إن لم يخشَ رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أن تفرض على الأمة لأكمل بهم الشهر.

فنظر عمر بدقة نظر وفقه عمر، لأن عمر هو الذي وافق الكتاب في أكثر من حال، نظر فقال: رسول الله جمع الناس وصلى بهم وقد فعلنا، لكن لم يتم الشهر، يا ترى لم يتم الشهر بهم لأنها بدعة أم لعلة قد انتفت؟ نظر عمر فوجد أن العلة خشية الفرض، قال: وهي قد انتفت. انتفت لأن وحي قد انقطع، إذاً لا فرض بحال من الأحوال، فنظر عمر قال: إذا الوحي انقطع أو إذا تأكد واستيقن رسول الله أنه لن تفرض لصلى بهم الشهر، ونحن قد تأكدنا واستيقنا أنها لن تفرض فنكمل الشهر ويكون بذلك من السنة النبوية، لأن رسول الله لو تأكد واستيقن أنها لم تفرض لصلى جميع الشهر، لأنه علل الامتناع بخشية الفرض عليه.

إذاً يتلخص لنا قول عمر "نِعْمَت البدعة" على اللغوية وليست الاصطلاحية بحال من الأحوال، لأن اصلها عند رسول الله -صلى الله عليه وسلم- صلى بهم وما أتم بهم خشية الفرض، وقد انتفت هذه العلة بانقطاع الوحي، لا يمكن أن تفرض صلاة التراويح جماعة. فإذاً الحكم يدور مع التي حيث دارت؛ لما انتفى خشية الافتراض، أتى الحكم بالجماعة وصلاة التراويح جميع الشهر، وتبقى هذه الشبهة لا قوة فيها ولا روح فيها لها، وتسلم لنا الأدلة بقول النبي: (كل بدعة ضلالة)؛ كلية البدع ضلالة.

4 - الفائدة الرابعة: خطر البدعة عظيم؛ وعظم خطر البدعة سيأتي أن صاحب البدعة لا يُقبل عند ربه جلَّ في علاه، وعمله غير مقبول، وهو لا تقبل توبته، بل لا يوفق للتوبة، صاحب البدعة لا يوفق للتوبة. ومن خطر البدعة ما بيّنه ابن سيرين، وأوجز ما أوضحه لنا ابن سيرين عندما قال: ما ظهرت بدعة إلّا ماتت سنة، وهذا هو خطر البدع.

من خطر البدعة مظلمة، ظلم عظيم، ضياع الدين، قال ابن سيرين: ما ظهرت بدعة إلّا ماتت سنة؛ فظهور البدع موت السنن، وإذا ماتت السنن انطمس الشرع، وإذا انطمس الشرع فقل على الدنيا سلام، فإن الله جل في علاه أذن لهذه الدنيا أن تفنى إذا لم يبقَ في الأرض من يقول: الله الله، على نهج رسول -صلى الله عليه وسلم-.

5 - الفائدة الخامسة: إن هذا الدين حنيف، وسماحة الدين يعرفها من يدقق في هذا الدين، من سماحة هذا الدين لا يغلق باباً إلّا أتى بأبواب مفتوحة. ولذلك نحن نقول دائماً: اعلم أخي الكريم إذا قيل لك في مسألة هذه حرام، والله الذي لا إله إلّا هو، إن تركتها لله فتح الله عليك أبواباً جساماً عظاماً كلها حلال.

إن الشرع لم يغلق باباً إلّا فتح له أبواب؛ لكن من أين نستنبط هذه؟ أغلق الباب على كل محدثة، فتح الباب على كل هدى، هدي النبي -صلى الله عليه وسلم-؛ لمّا قال: البدعة حرام، البدعة ضلالة، البدعة في

النار. قال: الهدي في الجنة، قال: (كل أمتي يدخل الجنة إلّا من أبى، قالوا: ومن يأبى يا رسول الله؟ قال: من أطاعني دخل الجنة ومن عصاني فقد أبى)، من عصى رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فقد أبى، إذاً أغلق باباً وفتح أبواباً.

مثال ذلك في الشرع كثير منها: حرّم الله الربا، فأحل البيع؛ (وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا) [البقرة:275]، حرّم الربا، فأباح البيع. الربا فيه فائدة ظاهرة تعطي عشرة وتأخذ خمسة عشر، أنت أيضً في التجارة والبيع تربح هذا الربح وأكثر، تشتري البضاعة بعشرة تبيعها بعشرين، تكسب. أغلق عليك باب الربا، فتح لك أبواب الحلال، أنواع البيع كثيرة فيها الحلال.

وهذا يظهر جلياً في قول النبي -صلى الله عليه وسلم- لبلال عندما جاءه بالتمر الجنيب الجيد قال: (أو كل تمر خيبر هكذا؟ قال: لا يا رسول الله، والله إنا نأخذ الصاع بالصاعين (نعطيه الصاعين الجمع ونأخذ الجنيب الطيب صاع) فقال: أوه عين الربا، لا تفعل)، فأغلق عليه الباب، لا ترد الصاع بالصاعين، فأغلق الباب وما تركه. وهذه أيضاً ترشد كل طالب علم ومفتي أنه إذا سئل سؤال وقال حرام، عليه أن يفتح الباب الحلال حتى لا يسد الأمر للناس، يقول هذا رجل متشدد متطرف فيه وعليه، متنطع يغلق علينا أبواب الخير. لا، إذا أغلقت الباب افتح الأبواب؛ قال له النبي -صلى الله عليه وسلم-: (أوه عين الربا، بع الجمع بالدراهم واشترِ بالدراهم جنيباً)؛ البيع والشراء حلال، أما الربا فحرام، المبادلة هذه الصاع بالصاعين هذه عين الحرام. أغلقت عليك هذا الباب، فتحت لك هذا الباب.

أيضاً حرّم الله الزنا كما جاء الشاب للنبي -صلى الله عليه وسلم- قال: أبايعك على الإسلام، لكن أبح لي الزنا، فقال له: لا، وبيّن له أنه لا يرضاه على أمه وعلى أخته، ثم بيّن الشرع أنه أغلق باب الزنا وفتح له أبواب، ما هي؟ أباح له النكاح بأربعة نسوة، وأباح له التسرّي كيفما شاء من الإماء. انظروا أغلق باباً واحداَ: أن تنظر لحرام أو تزني

بامرأة حرام، ثم أحل لك أبواباً كثيرة: وهي أبواب النكاح أربعة من النسوة أو التسري بالنساء.

أيضاً أغلق عليك أبواباً وفتح أبواباً؛ حرّم عليك لحم الخنزير وحرّم عليك لحم الميتة، وأباح لك المأكول والنباتي والمذبوح على الذبح الحلال. أيضاً حرّم عليك الغناء لأنك تزعم أن فيه طرب، وأنت لا يمكن أن ترَ الطرب في قلبك وفي روحك إلّا بسماعك لكلام الله جلَّ في علاه، ليس منا من لم يتغنَّ بالقرآن، فاستشعر حلاوة القرآن في قلبك وأنت تتدبره. أيضاً حرّم عليك كل مسكر، وأباح لك باقي المشروبات كلها لك.

هذه من حنيفية هذا الدين، فما أغلق عليك الشرع باباً إلّا وفتح لك أبواب، وهذه أيضاً تستنبط من هذا الحديث العظيم؛ حرّم الله علينا البدعة وأغلق لنا المحدثات في التعبد والمبالغة في التعبد، وفتح لنا الأبواب الكثيرة وأبواب سنن النبي -صلى الله عليه وسلم-، سنن الهدي التي فتحها لنا النبي -صلى الله عليه وسلم

١_الراوي : عبدالله بن عباس | المحدث : الألباني | المصدر : ضعيف الجامع

الصفحة أو الرقم : 2996 | خلاصة حكم المحدث : موضوع

باب: ذكر البدع وإظهارها

روي عن النبي -صلى الله عليه وسلم- أنه قال: (صنفان من أمتي لا تنالهما شفاعتي: سلطان غشوم ظالم، وغالٍ في الدين يشهد عليهم ويبرأ منهم)

باب ذكر البدع وإظهارها:

وعن حكم بن عميرٍ وكان من أصحاب النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: (الأمر المفظع والحمل المضلع والشر الذي لا ينقطع إظهار البدع)(١)

يغني عن الحديثين ما سبق وذكرنا في الباب قبله في الكلام على البدعة. أقول البدعة شرٌ مستطير وخطرٌ عظيم بها يهدم الدين، وبها تقوّض السنة، بل بها تسقط هوية المسلم وقدوته وأسوته، بل بها إهدار لأفضل حقبة من الزمان ازدهر فيها الإسلام وأهله. فإن الأمة الإسلامية قادت وسادت وكانت لها مطلق الريادة عندما عضّت على سنة النبي -صلى الله عليه وسلم- بالنواجذ، فلمّا تركوها وجعلوها خلفهم ظهريّاً، جاءتهم البليات والنكبات تتراً.

فإن البدعة -كما قلت- خطرٌ عظيم، يستلزم ظهور البدعة أو الخطر الذي يقدم مع ظهور البدعة:

1 - أولاً: تكذيب الله جلَّ في علاه وتكذيب رسول الله -صلى الله عليه وسلم-.

انظروا إلى هذا الخطر الجسيم العظيم، هذه مستلزمات ومقتضيات ظهور البدعة: أولاً تكذيب الله وتكذيب رسوله -صلى الله عليه وسلم-.

أمّا تكذيب الله فقد قال الله تعالى: (الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا) [المائدة:3]؛ وهذا الذي يخترع هذه العبادات ويبتدع هذه العبادات في الدين فقد كذّب الله ضمناً، لأن الله قال: (أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ).

وأيضاً كذب رسول الله -صلى الله عليه وسلم-؛ فإن (في محفل الحج قام النبي -صلى الله عليه وسلم- خطيباً في الناس ثم قال لهم: اللهم إني قد بلغت، قالوا: اللهم نعم، فقال وهو يشير بإصبعه إلى السماء: اللهم فاشهد، اللهم فاشهد)، وهم ضمناً يكذّبون ذلك، لأنهم إذا قالوا الدين لم

يكتمل: إمّا لم يكتمل ابتداءً، يعني من الله وحياً. وإمّا لم يكتمل بلاغاً، وهذا طعن في بلاغ النبي -صلى الله عليه وسلم-، لأن الله جلَّ في علاه يقول: (يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ) [المائدة:67].

فهذه البدعة التي أتى بها هذا المبتدع: إمّا أن يكون الله جلَّ في علاه أنقصها من دينه، ما أوحى بها لرسوله -صلى الله عليه وسلم-، وهم يرون أنها الخير كل الخير، تعبداً لله جلَّ في علاه. وإمّا أن يكون الله جلَّ في علاه قد أوحاها إلى رسوله -صلى الله عليه وسلم-، فكتمها النبي -صلى الله عليه وسلم- أو قصّر في تبليغها.

فانظروا إلى هذا الخطر العظيم الجسيم؛ ففيه تكذيب لله، وتكذيب لرسول الله -صلى الله عليه وسلم-. وأيضاً ضمناً فهي فيها طعن لصحابة رسول الله -صلى الله عليه وسلم-؛ فإمّا أن يكون الله قد أوحاها ورسول الله -صلى الله عليه وسلم- قد بلغها، وكتمها صحابته فلم يبلغونا إياها.

وإمّا أنها ليست بوحي من الله، وليست فيها تقصير بلاغ من النبي -صلى الله عليه وسلم-، ولا قصّر صحابة رسول الله -صلى الله عليه وسلم-.

٢ – فننتقل للخطر الثاني العظيم الجسيم بعد هذا الخطر: وهو أن ينصّب المبتدع نفسه مشرّعاً مع الله جلَّ في علاه.

إن الله خلق الخلق لأمرٍ عظيم جسيم، وهي مهمة من أهم المهمات التي من أجلها خلق الله الخلق؛ قال الله تعالى: (وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ) [الذاريات:56]، هذا أسلوب حصر، حصر الوظيفة أو حصر العلة والحكمة من خلق الخلق ليس إعمار الدنيا وغيرها، مع أن إعمار الدنيا لا إنكار فيه، لكن الذي أقصده أن الله جلَّ وعلا الحكمة البليغة التي من أجلها خلق الخلق قالها حصراً في هذه الآية العظيمة: (وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ).

وهم لا يعبدون الله إلّا بما يحب الله جلَّ في علاه، وما أحبه الله فقد شرعه على لسان نبيه -صلى الله عليه وسلم-. إذاً لا يعبد إلّا الله، ولا يعبد الله إلّا بما شرع على لسان رسوله -صلى الله عليه وسلم-. فالله هو الذي خلق، فهو الذي له استحقاق التشريع والتكليف، ولذلك يقول الله جلَّ في علاه: (أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ) [الأعراف:54]. التشريع لله جلَّ في علاه، هو الذي يعلم الغيب، يعلم ما كان وما يكون وما لم يكن لو كان كيف سيكون، لذلك هو الذي له الاستحقاق الكامل التام المطلق، ومطلق الاستحقاق في التشريع.

فيأتي هو فيشرّع للناس وكأنه يقول: أعلم ما لا يعلمه الله جلَّ في علاه من الخير. ولذلك ينكر الله أشد الإنكار أيّما انكار على من يفعل ذلك أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُم مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَن بِهِ اللَّهُ) [الشورى:21]، وفي سياق الذم: (وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا) [الحديد:27].

2 - الثالثة: فيها هدم السنن وإسقاط هوية المسلمين، بل وهدم الأسوة التي لا بد أن يتخذها الإنسان.

فظهور البدعة تهدم السنة كما قال علماؤنا من السلف؛ قال ابن سيرين: ما ظهرت البدعة إلّا وماتت السنة، أو ما أظهر قومٌ البدعة إلّا وأماتوا مكانها السنة. وأيضاً قال بعض السلف مثل ابن سيرين وابن المسيب وغيره من علمائنا من السلف: ما أظهر قومٌ البدعة إلّا وقد هدموا مكانها السنة. فكلما ظهرت البدعة كلما انهدمت السنة، ولذلك قال إبراهيم بن أدهم أو غيره: لإن ادخل المسجد فأجده امتلأ ناراً خيرٌ لي من أن أجد فيه بدعة واحدة. انظر إلى هذا، إذاً الفساد عظيم بالبدعة؛ يقول: أن أدخل المسجد فأجده يحترق ناراً، يهدم ما يصلى فيه، خيرٌ لي من أن أدخل وأجد فيه البدعة. لِمَ؟ لأنه لو احترق مكان يبنى بعد ذلك، أمّا لو أسست فيه البدعة هدمت السنة وهدم بعد ذلك الدين. فهذه الاستلزام الثالث الذي يبين عظم خطر ظهور البدعة وهو هدم السنة.

3 - الرابعة: الانسلاخ التام من التكليف.

ظهور البدعة يستلزم مقتضاه الانسلاخ التام من التكليف؛ هل المبتدع ممكن ينسلخ من التكليف؟ كيف ذلك وهو يقول زيادة الخير خيرات وإني أحب الله وأحب رسول الله، وأتعبد لله ليل نهار، أكثر من الذكر والتسبيح؟ يحب الله، فكيف نتهمه أنه ممكن بالبدعة هذه ينسلخ من الدين؟

هو بداية قلنا المبتدع ماذا سيفعل؟ سينظر لله جلَّ في علاه، أمر بكذا وأمر بكذا وأمر بكذا، ينظر في نفسه فيرى أن هذا قليل. كما دخلوا على رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فسألوا عن عبادته، فكأنهم تقالوها قالوا: عبدٌ غفر الله له؟! ولذلك النبي -صلى الله عليه وسلم- اشتد نكيره عليهم وقال: (هذه سنتي، فمن رغب عن سنتي فليس مني).

فهم بعد ذلك يستهوون ما ابتدعوه، ويتركون ما شرع لهم من الله جلَّ في علاه، ويرون أنهم قد اخترعوا أمراً حسناً، "والله ما أردنا إلّا الخير". ثم يعضون على ذلك بالنواجذ حتى يتركوا تشريع الله جلَّ في علاه، ثم يرتقوا إلى المنزلة الأعظم، وهي منزلة قول الله تعالى: (وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ) [الحجر:99]، يقولون قد تعبدنا لله حتى بلغنا اليقين كأننا نرى الله، يرون الله أمامهم؟! فقال: هذا مبلغ اليقين، إذاً سقط التكليف.

كيف ذلك؟ قالوا بمفهوم الآية (وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ)، "حتى" في اللغة ثلاث وجوه. بل الأنكى من ذلك عالم فحل من النحو قال سأموت وفي نفسي من حتّى شيء، يعني حتّى مصيبة ثانية. فهو يقول: الذي نريده من الآية حتّى هنا الغاية، فإذا وصل للغاية وهو اليقين، قال: استيقنت بربي حتى أني أراه. في المنام يا رجل؟ لا والله عياناً رأيت ربي، منهم من يقول ذلك. فإذا وصل إلى هذه الدرجة قال: سقط عني التكليف، وقد ورد عن بعض الناس هذا الكلام، يقولون سقط عنا التكليف.

فينسلخ تدريجياً من التكليف، يرى ما شرعه الله لا سمع ولا طاعة، أو يرى ما شرعه الله جلَّ في علاه فيه مشقة عليه وما شرعه لنفسه هو

الخير، فيتعبد لله بما شرع وهو بنفسه حتى ينسلخ من التكليف والعياذ بالله، وهذا الخطر العظيم المستلزم لظهور البدع وترك السنن.

وقد قلت قبل ذلك هذا إهدار لمدة من الزمن، شامة في جبين التاريخ أن هذه الأمة قادت وسادت وكانت لها مطلق الريادة بل الريادة المطلقة عندما عضّت بالنواجذ على سنن النبي -صلى الله عليه وسلم- وفتحت لهم كنوز كسرى وقيصر. نسأل الله جلَّ في علاه أن يبعدنا عن كل بدعه، وأن يحذِّرنا منها بالإشارة أو بالتصريح أو بالتلميح، وأن يجعلنا ممن يستن بسنة النبي -صلى الله عليه وسلم-.

١_الراوي : الحكم بن عمير الثمالي | المحدث : الألباني | المصدر : تخريج كتاب السنة

الصفحة أو الرقم : 36 | خلاصة حكم المحدث : إسناده ضعيف جداً وأخرجه ابن أبي عاصم في ((السنة)) (36)، والبغوي في ((معجم الصحابة)) (483)، والطبراني (219/3) (3194)

باب: لا يقبل الله عمل صاحب بدعة

عن أنس قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: (إن الله حجز) أو قال: (حجب التوبة عن كل صاحب بدعة).

وعن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: (أبى الله أن يقبل عمل صاحب بدعة حتى يدع بدعته)(١)

وعن عمر -رضي الله تبارك وتعالى عنه- قال: إن لكل صاحب ذنب توبة، غير أصحاب الأهواء والبدع ليس لهم توبة، أنا منهم بريء وهم مني براء.

وعن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: (الخير كثير، ومن يعمل به قليل).

كفانا الشيخ -رحمة الله عليه- محدّث الشام في أسانيد هذا الباب، لكن حديث: (أبى الله أن يقبل عمل صاحب بدعة) وإن كان ضعيفاً له شواهد تقوّيه كما سنبيّن، أو تقوّي العمل به؛ إذ قد وردت في الآثار الصحيحة، بل في الصحيحين على أن الله جلَّ في علاه يرد عمل صاحب البدعة.

أقول قد ذكرنا الأسبوع الماضي مفاسد البدعة، وبيّنا أن البدعة مُفسِدة للدين وأنها هدّامة للسنن، بل هي تصل بالمرء إلى إهدار أفضل حقبة عاشها المسلمون؛ ألا وهي التي كانت لهم فيها الريادة المطلقة والسيادة المطلقة والقيادة المطلقة، قادوا الدنيا بأسرها وسادوها مشارق الأرض ومغاربها، لأنهم عضوا على سنن النبي -صلى الله عليه وسلم- بالنواجذ، وعلموا أن الفلاح والنجاة في ذلك.

البدعة كما قلت أخطر ما يكون، بيّنا شرها وشررها، ثم تكلمنا عن لوازم باطلة يستلزمها ظهور البدع:

- بأول اللوازم الباطلة فيها تكذيب لله جلَّ في علاه، قال الله تعالى: (الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا) [المائدة:3]؛ وصاحب البدعة بلسان حاله وفعاله يقول إن الدين لم يكمل، وهو قد ابتدع هذه البدعة ليكمل بها الدين، يتقرب بها إلى الله جلَّ في علاه.
- أيضاً من اللوازم الباطلة أنها تتضمن تكذيب الرسول -صلى الله عليه وسلم- في تمام إبلاغه عندما قال: (اللهم قد بلغت، قالوا: اللهم نعم، قال: اللهم فاشهد)، وفي الصحيح عن عائشة -رضي الله عنها وأرضاها- عندما قالت لمسروق: أين أنت من ثلاث؟ وذكرت من هذه الثلاث: من حدّث أن محمداً قد كتم شيئا فقد أعظم الفرية،(٢) فإن الله جلَّ في علاه يقول آمرا لنبيه -صلى الله عليه وسلم-: (يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ) [المائدة:67].

- ومن اللوازم الباطلة أيضاً؛ فيه القدح العظيم في صحابة رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، أنهم كتموا ولم يبلغه، وأنهم لم يسارعوا إلى الله جلَّ في علاه، لم يتنافسوا ولم يعملوا بقول الله تعالى: (وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ) [المطففين:26]. حتى جاء هؤلاء فاخترعوا هذه العبادة، يقولون نتقرب بها لله جلَّ في علاه زيادة في الخير.

بل أنكر النبي -صلى الله عليه وسلم- أيما إنكار على الصحابة عندما تقالّوا عبادة رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وقالوا: عبدٌ قد غُفِر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، فقال أحدهم: إني أقوم ولا أنام، والثاني قال: لا أتزوج النساء، والثالث قال: أصوم ولا أفطر، فقال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (هذه سنتي إني أقوم وأنام، وأفطر وأصوم، وأتزوج النساء. هذه سنتي، فمن رغب عن سنتي فليس مني). أنكر النبي -صلى الله عليه وسلم- أيما إنكار على الصاحب الذي رأى أن النبي -صلى الله عليه وسلم- قد غُفِر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، فله أن يزيد عن هذه العبادة التي بيّنها النبي -صلى الله عليه وسلم- وشرعها، فقال هذه الحيدة عن هذا الضابط الذي ضبطه النبي -صلى الله عليه وسلم-، النبي -صلى الله عليه وسلم- منه براء، قال: (فمن رغب عن سنتي فليس مني)، تبرأ منه النبي -صلى الله عليه وسلم-، والبراءة هنا كما سنبيّن براءة من العمل.

فنقول هذا الذي ابتدع البدعة قد قدح بصحابة الرسول -صلى الله عليه وسلم-، بل في عدالة صحابة رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، ثم نقول له نصيحة له: وسعك ما وسع هؤلاء، لو كان الخير فيما فعلت لسبقونا إليه لتعديل الله لهم رضي الله عنهم وأرضاهم، هذه لوازم باطلة.

- ومن هذه اللوازم الباطلة أيضاً ما نراه الآن؛ تشرذم الأمة وتفرق الأمة بسبب البدعة، لأن من البدعة إفساد لذات البين. المبتدع يقاتل من أجل هذه البدعة؛ يوالي لها ويعادي عليها، يحب لها ويبغض لها، ويرى أنه يتقرب لله جلَّ في علاه بهذه البدعة. فمن تمسك بالسنن يراه متشدداً متنطعاً محجراً على الناس، وأمّا هو فموسعاً

على الناس، ويعادي أصحاب السنن، فيفسد ذات البين ويحدث التشرذم والتفتت لهذه الأمة.

فمن اللوازم الباطلة تفرق هذه الأمة، ثم تراه بعد ذلك ينادي بتوحيد الأمة. نقول له كلمة واحدة وجيزة: كلمة التوحيد قبل توحيد الكلمة، يعني يحق لنا أن نقول يلتئم الشمل تحت راية رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، تحت راية قول الله تعالى: (وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا) [الحشر:7]. فهذه لوازم باطلة مرتبطة بالمبتدع وبصاحب البدعة.

- من هذه اللوازم الباطلة أنه قد نصب نفسه مع الله جلَّ في علاه مشرِّعاً؛ إمّا أن يكون قد صرح بذلك بلسانه أو بلسان حاله، فهو إن فر من هذه لن يفر، لأننا قلنا بأن الذي له حق التشريع هو الله، فإذا شرع هو مع الله جلَّ في علاه، لابد ولزاماً أن ينزل تحت قول الله تعالى: (أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُم مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَن بِهِ اللَّهُ) [الشورى:21]. كما خلق هو الذي يشرِّع، كما خلق هو الذي يأمر؛ قال الله تعالى: (أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ) [الأعراف:54]، فالشرع لله جلَّ في علاه ولرسوله -صلى الله عليه وسلم-، وليس لأحد سواه.

هذه اللوازم الباطلة التي تلزم صاحب البدعة، نقول: ولذلك أعظم الله له العقوبة، فكانت العقوبة وخيمة، عقوبتان من أعظم العقوبات لصاحب البدعة ولمن يسير على درب صاحب البدعة:

◆ أول هذه العقوبات وأعظم هذه العقوبات: حجب التوبة عن صاحب البدعة؛ سبحان الله، إن الله يفرح بتوبة العبد أشد من فرحة الرجل الذي قارب وشارف على الهلاك، ثم وجد حياته ووجد مطعمه ومشربه وقال من شدة الفرح: اللهم أنت عبدي وأنا ربك، وغفر الله له ذلك لأنه أخطأ من شدة الفرح. الله يصف لنا شدة فرح الله جلَّ في علاه بتوبة العبد، أشد من شدة فرح هذا الرجل الذي وجد نجاته ووجد حياته. ومع ذلك فإن الله يحجب، ولم يقل "لم يقبل"، قال: (حجب التوبة).

وهذه لها مغزى لطيف ألا وهو بأنه لو تاب قبل الله منه توبته، ولو رجع قبل الله رجوعه، ومن تقرب إلى الله شبراً تقرب الله إليه ذراعاً، ومن أتاه من بعيد تقرب الله عليه من بعيد. فإن الله جلَّ في علاه يحب قرب العبد منه، فإن العبد إذا تاب، تاب الله عليه. لكن الله جلَّ في علاه جزاءً وفاقاً وأجراً طباقاً حجب وحجز التوبة عن صاحب البدعة؛ وهذا يسمى الاستدراج الخفي كما قال الله تعالى: (سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ) [الأعراف:182]، كيف ذلك؟

صاحب البدعة لسوء طويته ولفساد قلبه فإن الله يزين عمله فيراه حسناً، وإذا رآه حسناً لا يمكن أن يرجع عنه. إن الرجل إذا أذنب، إذا أخطأ، إذا تجرأ على حدود الله جلَّ في علاه وعلم أنه قد اخطأ وأنه تجرأ على حدود الله، فإن الله جلَّ في علاه يرسم له طريق التوبة ويبعث في قلبه باعث التوبة. أمّا الذي يرى أنه يتقرب إلى الله بهذه العبادات، ويرى أنها زيادة خير، لا يمكن أن يرجع، وهذا استدراج من الله جلَّ في علاه كما قال الله تعالى: (أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ كَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُم) [محمد:14]، أفمن كان على بينة من ربه على كتاب وسنة، (أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ كَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ)، لِمَ؟ لأنه ابتدع في دين الله جلَّ في علاه ويرى أنه يتقرب بهذه البدعة. (وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُم)؛ فزيّن الله أعمالهم حتى يزدادوا في غيهم وطغيانهم، ويختم على بهذه الأعمال السيئات

وأيضاً قال الله تعالى: (أَفَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا) [فاطر:8]، يرى أنه حسن، يحسب أنه يحسن صنعاً، وهذا من استدراج الله الخفي لصاحب البدعة. وهذه لا يمكن إلّا أن تكون نتيجة، لأن الله جلَّ في علاه يعلم فساد قلبه وسوء طويته. الله جلَّ وعلا قال: (وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ) [الجاثية:23]، (وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ) [الأنفال:51] أبداً والله، لكن لمّا علم الله جلَّ في علاه من أنه يعبد هواه، وأنه يرى في نفسه أنه منصّباً وله لازماً من لوازم ربوبية الله جلَّ في علاه، زاده الله في غيه وطمس على قلبه وزيّن له عمله حتى لا يرجع.

هذه لطيفة قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (حجب عنه التوبة)، ولم يقل "لم يقبل توبته". إذ لو تاب قد تاب الله عليه، لأن النبي -صلى الله عليه وسلم- بيّن في ذلك الحديث قال: (حتى يدع بدعته)، يعني لو ترك بدعته ورجع وأناب قبل الله رجوعه، لكن الله جلَّ في علاه يعلم من سوء طويته فختم على قلبه وزيّن له عمله فرآه حسناً، فلم يرجع إلى الله جلَّ في علاه.

هذه أول عقوبة وهذه أعظم العقوبات، إذ أن الله جلَّ في علاه إذا حجب التوبة عن العبد ولم يرَ له حسنة يمكن أن تثقّل موازينه أمام هذه البدعة، هذه في الدنيا بعدما يحجب عنه التوبة، حتى يحرم الحرمان الكبير في الآخرة فلا يشرب من يد النبي -صلى الله عليه وسلم- شربة هنية عندما يحتاج إليها أشد ما يحتاج إليها، كما قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (وليختلجن من على الحوض أناس فأقول: ربي، أصحابي أصحابي) أو (أتباعي أتباعي) هذا معنى صحيح. (أصحابي أصحابي، فيقال: يا محمد إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك)، نعوذ بالله من البدع. هذه أول عقوبة، وهذه أعظم العقوبات؛ حجب الله عنه التوبة، زيّن له عمله فرآه حسناً.

نعوذ بالله من الغي ومن الطغيان، ولأن أكون ذنباً في الحق خير لي من أن أكون رأساً في الباطل.

◆ أمّا العقوبة الثانية وإن كانت كما قلت الحديث فيها ضعيف، لكن يشهد لها الأحاديث التي سنبيّنها، وهي قول النبي -صلى الله عليه وسلم- : (لا يقبل الله عمل صاحب البدعة). هذه أيضاً من العقوبات الوخيمة العظيمة التي تنفّر صاحب البدعة من بدعته، وتقول له: لا حيدة، لا تحيد عن الطريق، ارجع لطريق النبي -صلى الله عليه وسلم- حتى يقبل الله عملك. فإن الله جلَّ وعلا لا يقبل عمل هذا المبتدع، لِمَ؟

نقول: قد اشترط الله ضمناً في كتابه وفي سنة النبي -صلى الله عليه وسلم- شرطين لقبول العمل؛ يتضمن الشرطين قول الله تعالى: (لِيَبْلُوَكُمْ

أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا) [الملك:2]. قال الفضيل بن عياض [في تفسير قول الله تعالى (أَحْسَنُ عَمَلًا)]: أخلصه وأصوبه، قالوا: يا أبا عبدالرحمن ما أخلصه وما أصوبه؟ قال: إذا كان العمل إخلاصاً لله جلَّ في علاه ولم يكن صواباً (يعني متبعاً فيه سنة النبي -صلى الله عليه وسلم-) لم يُقبل، وإن كان العمل صواباً (صواباً: يعني اتبع فيه سنة النبي -صلى الله عليه وسلم-) ولم يكن إخلاصاً فهو كالريح لم يقبل، اقرأوا إن شئتم قول الله تعالى: (فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلا صَالِحًا وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا) [الكهف:110]؛ (صَالِحاً) يعني: على سنة النبي -صلى الله عليه وسلم-، (وَلا يُشْرِكْ) هذا الشرط الثاني وهو الإخلاص لله جلَّ في علاه.

وهنا صاحب البدعة الذي تقرب بهذه البدعة، وإن كان مخلصاً، ولو امتلأ قلبه بالإخلاص، فإن هذا العمل لا يقبل لأنه قد اختل شرط من هذه الشروط، وهو الاتباع للنبي -صلى الله عليه وسلم-. قلت لو امتلأ قلبه إخلاصاً وتصديقاً ويقيناً في الله، فإنه قد اختل شرط مهم جداً، ألا وهو اتباع النبي -صلى الله عليه وسلم-، فيقع تحت طائلة حديث النبي -صلى الله عليه وسلم-: (من أحدث في ديننا هذا ما ليس منه فهو رد)، فهو باطل، (من عمل عملا ليس عليه أمرنا فهو رد)، يعني فهو باطل. فهذه هي الوجهة الأولى، اختل شرط من هذه الشروط فلا يقبل العمل عند الله جلَّ في علاه.

لكن لابد لنا من نظرين في هذه المسألة، نقف وقفتين:

الوقفة الأولى: قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (لا يقبل الله عمل صاحب البدعة)؛ أنا أجزم أن كثير ممن يتعبد لله جلَّ في علاه ببدعة ابتدعها، أقسم وأنا رأيت ذلك تلوح في الوجوه الإخلاص، وأرى أنهم يريدون التقرب إلى الله جلَّ في علاه. لكن دائماً نقول بقول أبي عبد الرحمن: وكم من مريد للخير لم يبلغه. حقاً فيهم الإخلاص، لكن لا يقبل العمل، لِمَ؟ مع أنهم أخلصوا لله جلَّ في علاه وعبدوا الله مخلصين له

الدين؟ لم يتبعوا سنة النبي -صلى الله عليه وسلم-، إذاً اختل الشرط فلم يقبل العمل.

لكن ما معنى قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (لا يقبل الله عمل صاحب البدعة)، هل لا يقبل على العموم أم لا يقبل على الخصوص؟ وما معنى القبول؟

أولاً: صاحب البدعة في عمله له قسمان:

1 - قسم وافق فيه الشريعة، تعبد الله جلَّ في علاه بما يوافق سنة النبي -صلى الله عليه وسلم-.
2 - وقسم آخر لم يوافق فيه الشريعة، ابتدع بدعة أصلها في الدين، إن كانت أصلية أو إضافية ابتدعها ليتقرب بها إلى الله جلَّ في علاه.

أمّا التي ابتدعها ولم نجدها في دين الله جلَّ في علاه فهي مردودة بالاتفاق، ودليل هذا الاتفاق: (من أحدث في ديننا هذا ما ليس منه فهو رد)، وقول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (من عمل عملا ليس عليه أمرنا فهو رد). هذا الأول.

أمّا القسم الثاني إن كان موافقا للسنة هل لا يقبله الله جلَّ في علاه؟ هذا هو المعترض، هذه المسألة يتجاذبها أدلة كثيرة، فهل يدخل العمل الموافق للسنة في الرد كالعمل الموافق للبدعة؟ والشرع تأصيله قوي: لا يفرّق بين متماثلين ويفرّق بين بين المختلفين؛ العبادة الأولى والعبادة الثانية: الأولى كانت بدعة في حيدة عن السنة، والثانية موافقة. إذاً مختلفين فهل الشرع يفرق بينهما أم يوفق بينهما؟ التأصيل الشرعي يأبى ذلك.

فإذاً: - إمّا أن نقول: قول النبي -صلى الله عليه وسلم- وإن كان الحديث ضعيف: (إن الله لا يقبل عمل صاحب البدعة)، هذا عام مخصوص.

- وإمّا أن نقول نبقيه على عمومه.

أقول صراحةً المسألة شائكة، لا سيما وأن عندنا أن الله لا يظلم أحداً شيئاً، كما قال الله تعالى: (إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا) [يونس:44]، (إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ) [النساء:40]. فلو أحد عمل عملاً صغيراً دقيقا فهو عند الله جلَّ وعلا مكتوب، فكيف لا يقبله الله جلَّ في علاه؟ أقول الصحيح الراجح في ذلك أنها على العموم، وأن صاحب البدعة حتى ولو عمل بما وافق السنة لا يقبل.

سأبين الآن الوجهة، ثم نرد على الإشكال؛ هذه المسألة على العموم فيها أثر وفيها نظر: أمّا الأثر أود ألّا أقوله، لكن نعرِّج عليه لأنه إلى الوضع أقرب منه إلى الضعف، وهو: (لا يقبل الله لصاحب بدعة صلاة ولا زكاة ولا صوماً ولا حجاً ولا جهاداً، ويخرج من الدين كما تخرج الشعرة من العجين). هذا الحديث إلى الوضع أقرب منه إلى الضعف، فأنا عرجت عليه حتى أيضاً لا يغتر به أحد.

لكن النظر يقوّي العموم، إذ أن صاحب البدعة إذا تعبد بما يوافق السنة فإنه يتعبد بغير امتثال، وإذا تعبد ببدعة تعبد بأن هذه هي السنة. العموم من النظر: إن المبتدع إذا تعبد بالسنة تعبد بغير امتثال، وإذا تعبد بالبدعة تعبد بأنها سنة؛ فلذلك البدعة انتهى أمرها بالاتفاق على ردها، أمّا السنة النظر فيها أنه إذا تعبد بالسنة تعبد بغير امتثال.

أقول لمّا تعبد بالسنة على غير امتثال، لابد للإنسان إذا تعبد وهو يتأسى بالنبي -صلى الله عليه وسلم- بقول الله تعالى: (وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا) [الحشر:7]، (لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ) [الأحزاب:21]. فهو يتعبد بهذه السنة، يمتثل بذلك لله تذللاً وخضوعاً، يقر بقلبه أن الله هو المشرِّع ولذلك امتثلت باتباع النبي -صلى الله عليه وسلم- لأنه أمرني باتباع النبي -صلى الله عليه وسلم-. لكنه يتعبد بهذه السنة ويقر في قلبه أنه يسعه الخروج عن شريعة النبي -صلى الله عليه وسلم-، ولذلك ابتدع هذه البدعة. الآن هو يتعبد لله جلَّ في علاه، عندما يستن هذه السنة يرى أنه يسعه الخروج عن هذه السنة، والمتعبد امتثالاً يرى أنه ليس له أن يخرج عن هذه السنة لأنه يعلم أنه

لا يتعبد لله عبادة مقبولة إلّا بما شرعه الله، وما شرعه الله أتى به على لسان النبي، وهو يرى أنه يسعه الخروج.

بالمثال يتضح المقال؛ عندهم دليل في ذلك، يعني هو يتعبد بالسنة مع أنه يقر في قلبه أنه يسعه الخروج، قالوا: وإن الخضر كان يسعه الخروج عن موسى، وقد خرج عن موسى ولم يلمه الله جلَّ في علاه على هذا الخروج. وقد ظهر ذلك جلّياً، هو يرى وعنده دليل، قال: الخضر كان ولياً من أولياء الله (يرجّح ذلك) وله ويسعه أن يخرج عن موسى -عليه السلام-، وقد خرج عن موسى، لم يتبع موسى -عليه السلام-.

أصل المسألة بأن المبتدع حتى ولو وافق السنة، يرى وهو يعمل بهذه السنة له أن يعمل بغيرها؛ معنى أن يقول له أن يعمل بغيرها خروج وحيدة عن الطريق المستقيم، (وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ)، وقال تعالى: (لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ) وقول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (فمن رغب عن سنتي فليس مني)، فهذه حيدة عن هذا الطريق. فلمّا رأى من نفسه أنه يسعه الخروج حتى ولو لم يبتدع، فقد وقع في المحذور. وعنده دليل في ذلك، ما هو الدليل؟ قال: الخضر قد خرج عن شريعة موسى -عليه السلام- وله ذلك. هل خرج الخضر أم لا؟ هل توافقون على الاستدلال؟

أنا أقول أوافق على هذا الاستدلال، فقد خرج الخضر عن موسى -عليه السلام-، بل موسى كان تابعاً للخضر. انظروا كيف أنكر موسى على الخضر بدلالة أنه خالف شرع موسى -عليه السلام-، عندما ركب السفينة وخرقها ما الذي حدث من موسى؟ (قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا) [الكهف:71]، ثم قتل طفلاً بريئاً، فقال له موسى: (قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ) [الكهف:74]، أنكر، وهذا الإنكار يدل على أنه ليس بشريعته. الثالثة عندما هدم الجدار أنكره، دلالة على أنه ليس في شريعته.

إذاً هذا الذي نقوله ونسرده، قد خرج الخضر عن شريعة موسى، ولذلك أنكر موسى، لكن الجواب عن ذلك جوابان أو ثلاثة:

• الجواب الأول: شريعة من قبلنا ليست شريعة لنا، هذا اختلاف أصولي؛ من رجّح أن شريعة من قبلنا ليست شريعة لنا، قلنا به. ومن لم يرجّح ذلك وقال: لا شريعة ما قبلنا شريعة لنا ما لم يأتِ دليل يخالفه، نقول إذاً الوجهة الثانية عند أهل الأصول، فلا ندخل في الخلاف.

نقول الجواب الأصح في ذلك والأسد جوابان:

الجواب الأول: أن الخضر لمّا خرج، خرج بدليل، ونحن إذا جاءنا الدليل خرجنا لأن القاعدة عندنا: ندور مع الشرع حيث دار. وقد خرج الخضر بدليل وبوحي، وهو قول الله تعالى: (وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ۚ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا) [الكهف:82].

الجواب الثاني: أقول بأنه شريعة موسى خاصة، شريعة موسى ليست عامة، خاصة لبني إسرائيل. فلذلك لا يدخل الخضر، ليس من بني إسرائيل. أمّا محمد شريعته فهي عامة. إذاً الجواب الثاني: شريعة موسى خاصة ويسع للخضر الخروج عنها، لأن موسى ليس مرسلاً للخضر رضي الله عنه وأرضاه إن كان ولياً، وعليه السلام إن كان نبياً، ونحن نرجح أنه نبي. الغرض المقصود شريعة موسى خاصة، وشريعة محمد عامة فلا يصح القياس.

هل شريعة محمد عامة؟ ما الدليل؟ (وكان كل نبي يبعث إلى أمته خاصة، وبعثت للناس عامة)، فهذه دلالة على أن القياس مع الفارق لا يصح. إذاً لا دليل لكم في ذلك، ونقول لا يسع أحد الخروج عن دائرة النبي -صلى الله عليه وسلم-، فإذا تعبد بالسنة لابد أن يستحضر عنده قول الله تعالى: (وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا) [الحشر:7]، ويستحضر قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (فمن رغب عن سنتي فليس مني)، ويستحضر أيضاً قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (من أحدث في ديننا هذا ما ليس منه فهو رد)(٣)

ولذلك نقول بعموم الحديث وأن صاحب البدعة لا يقبل له عمل حتى يدع هذه البدعة، فإن ترك هذه البدعة فإن الله جلَّ في علاه يقبل حسناته. عندنا حديث النبي -صلى الله عليه وسلم-: (أسلمت على ما أسلفت من خير)، والله لا يضيع مثقال ذرة، لكن دائماً نقول البدعة حاجز وحاجب له، كما حجبته عن التوبة، حجبته عن قبول هذه الحسنات وعليه أن يترك هذه البدعة. ورحم الله الثوري عندما قال: البدعة أحب إلى الشيطان من المعصية؛ المعصية يتوب ويؤوب منها صاحبها، أمّا البدعة يقاتل عنها صاحبها، يحب فيها ويبغض فيها ويوالي لها ويعادي عليها. إذاً النظر الأول في قبول العمل، لا يقبل كل العمل.

النظر الثاني: ما معنى القبول؟ إذا قلنا لا يقبل العمل نسقط عنه العمل؟ هل عدم القبول يستلزم عدم الصحة أم القبول يساوي عدم الصحة؟ إذ المبتدع إذا تعبد وقلنا له هذه العبادة لا تقبل يعني ليست صحيحة؟ هنا النظر الفقهي يأتي؛ نقول: القبول يستلزم الصحة، لأننا قلنا بأن الله لا يقبل من العمل إلّا ما كان صالحاً مخلصاً لله جلَّ في علاه، أمّا الصحة لا تستلزم القبول.

يعني إذا كان العمل صالحاً فإنه لا يستلزم القبول من وجهين:

◆ الوجه الأول: يمكن عدم الإخلاص، ويمكن أيضاً الاختلال شرط من الشروط؛ دليل ذلك من السنة حديثان:

- الحديث الأول: قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (لا يقبل الله صلاة أحدكم اذا أحدث حتى يتوضأ)، هذا دلالة على نفي الصحة والقبول أم النفي القبول فقط؟ إذاً نفي الصحة يستلزم نفي القبول. دلالة ذلك أن الذي أحدث وصلى بالحدث ولم يتطهر، قد صلى بصلاة اختل فيها شرط من شروط الصحة، فهي ليست بصحيحة، فإن كانت ليست بصحيحة لزاماً ولا بد ألّا تقبل.
- أمّا قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (من أتى عرّافاً أو كاهناً لم يقبل الله له صلاة أربعين ليلة)، هذا الحديث يدل لنا أنها وإن كانت

صحيحة وذهب إلى العرّاف فإن الله لا يقبلها. فهذا يدل على الجزئية الثانية، وهو إن كانت صحيحة فصحتها لا تستلزم القبول، لأنه سيصلي بشروط متوفرة يتطهر ويستقبل القبلة ويكبر ويركع ويسجد ويصلي صلاة مكتملة فيها الشروط، لكن لا تقبل عند الله جلَّ في علاه لأمر آخر وهو أنه أتى عرّافاً أو أتى كاهناً.

إذاً في الحديثين نستدل على أن نفي الصحة يستلزم عدم القبول، ونفي القبول لا يستلزم نفي الصحة.

نقول هنا نفي الصحة استلزم لمّا صلى بصلاة مختلة الشروط لم تصح، فلمّا لم تصح استلزم ذلك أنها لا تقبل لعلة أخرى وهو أنه أتى عرافاً أو كاهناً. إذاً نفي القبول لا يستلزم نفي الصحة، ممكن تكون صحيحة ولا يقبل.

وثمرة هذا الاستدلال أو ثمرة هذا الشرح أننا نقول: إذا اعترض علينا وقال: أنتم قلتم إن الله لا يقبل هذه الصلاة، فلا يصليها، إن الله لا يقبل هذه الزكاة، فلا يزكي. نقول: لا، لا تسقط عنه الفرائض. نقول: ونأمره بالصلاة وبالزكاة، ومع ذلك فإن الله لا يقبل هذا العمل تنفيراً له مما هو على البدعة. فيصلي ويصوم ويزكي وإن كانت غير مقبولة، لأن نفي القبول لا يستلزم نفي الصحة. هذا النظر الثاني لهذه المسألة العويصة جداً: (إن الله لا يقبل عمل صاحب البدعة).

إجمالاً:

- أولاً أن البدعة شر وشررها عظيم، وأنها تهدم الدين وتهدم السنن.
- ثانياً: لعظم خطرها عقوبتها عظيمة:

1 - حجب الله التوبة عن صاحب البدعة، وما حجبها إلّا انه زين له عمله فرأه حسناً، فلم يرجع لله جلَّ في علاه ولم يتب إلى ربه جلَّ في علاه.

2 - أن صاحب البدعة لا تقبل بدعته التي يتقرب بها الله جلَّ في علاه، ولو تفطرت قدماه لقول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (من أحدث في ديننا هذا ما ليس منه فهو رد).

3 - أن هذا يجر إلى أعظم ما هو كائن، أن عمله كله غير مقبول ومتوقف على أن يرجع عن بدعته.

الفوائد المستنبطة:

- أولاً: هذه الأحاديث فيها رد على المعتزلة، كيف ذلك؟

محل الشاهد: أن الله جلَّ وعلا هو الذي يهدي وهو الذي يضل؛ والمعتزلة يقولون: لا يهدي ولا يضل. كيف تستنبطون من الحديث حجب التوبة؟ إذاً التوفيق للتوبة من الله جلَّ في علاه (ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا) [التوبة:118]. هم لا يقولون ذلك، يقولون إن الإنسان نفسه هو الذي يجري بنفسه إلى الخيرات أو يسحب نفسه إلى المعاصي والسيئات.

الفائدة المستنبطة الثانية: إن عدم قبول التوبة وعدم قبول العمل ليس مطلقاً، بل هو مقيد، أين التقييد؟ (حتى يدع) غاية، إذا ترك البدعة فإن الله يقبل منه هذه التوبة ويرده ويقبل عمله.

- الثالثة: البراءة؛ كل مبتدع بريء منه رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، وبريء منه الصحابة، وهذه البراءة براءة من عمله. وهل هناك تفريق بين البراءة من الشخص والبراءة من العمل؟ وهذا التفريق هل عليه دليل؟ أو ما الدليل على ذلك؟

هناك براءة من العمل وبراءة من الشخص، حتى نفرّق ولا نقل مع الذين هم في غلو أهل التكفير، والعياذ بالله ولا الذين في جفو أهل الإرجاء.

(اللهم إني أبرأ إليك مما فعل خالد)، وماذا فعل خالد؟ عندما قالوا له: صبأنا صبأنا، فقتلهم، فقال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (اللهم إني أبرأ إليك مما

فعل خالد)، يعني ليست براءة من خالد، براءة من مما فعل، لا سيما وهو متأول.

الدليل الثاني: (فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ) [الشعراء:216]، إذاً من العمل.

طيب ثمرة التفريق بينهم؟ لا يستلزم التبرؤ من الجزء التبرؤ من الكل، والعكس صحيح، اذا تبرأ من الكل فقد تبرأ ضمناً من الجزء. حتى نبّينها إذا تبرأ من الجزء لا يستلزم التبرؤ من الكل لأنه تبرأ من العمل، ولا يتبرأ من الشخص كلية بل أعماله الأخرى لا يتبرأ منها، كما تبرأ من فعل خالد. لكن لو تبرأ من الكل، ضمناً قد تبرأ من الجزء. قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (أنا بريء من أبي جهل)؛ تبرأ من أبي جهل ومن أعمال أبي جهل. ودليلها الآية التي ثمرة البراءة أن الشخص كلية تعني خروجه من الملة، والبراءة من العمل لا تعني خروجه ولا تستلزم ذلك أبداً، لكن العمل يكون مردود وباقي الأعمال تكون مقبولة عند الله جلَّ في علاه.

١_الراوي : - | المحدث : السخاوي | المصدر : الأجوبة المرضية

الصفحة أو الرقم : 883/2 | خلاصة حكم المحدث : مرفوع بإسناد ضعيف

٢_الراوي : عائشة أم المؤمنين | المحدث : الألباني | المصدر : صحيح الترمذي | الصفحة أو الرقم : 3068 | خلاصة حكم المحدث : صحيح

٣_الراوي : [عائشة أم المؤمنين] | المحدث : الشوكاني | المصدر : الفتح الرباني | الصفحة أو الرقم : 1050/2 | خلاصة حكم المحدث : صحيح | التخريج : أخرجه البخاري (2697)، ومسلم (1718) بنحوه

باب حديث : تركتم على مثل البيضاء (1)

قال المصنف -رحمه الله تعالى-:

باب ذكر قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (تركتكم على مثل البيضاء)، وتحذيره إياهم أن يتغيروا عما يتركهم عليه وأمره بسنته وسنة الخلفاء الراشدين بعده:

وعن أبي الدرداء قال: خرج رسول الله -صلى الله عليه وسلم- علينا فقال: (أيم الله، لأتركنّكم على مثل البيضاء ليلها كنهارها سواء)(١) فقال أبو الدرداء: صدق الله ورسوله، فقد تركنا على مثل البيضاء.

وعن عبد الرحمن بن عمرو أنه سمع العرباض بن سارية يقول: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: (لقد تركتكم على مثل البيضاء ليلها كنهارها، لا يزيغ بعدي عنها إلّا هالك)، وعنه أيضاً قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: (إني قد تركتكم على مثل البيضاء ليلها كنهارها، لا يزيغ عنها بعدي إلّا هالك).

وعن جابر بن عبد الله: أن عمر بن الخطاب -رضي الله تعالى عنه- أتى النبي -صلى الله عليه وسلم- بكتابٍ أصابه من بعض الكتب، قال:

فغضب وقال: (أمتهوكون فيها يا ابن الخطاب؟ والذي نفسي بيده لقد جئتكم بها بيضاء نقية).

هذا باب عظيم وباب مهم جداً، النبي -صلى الله عليه وسلم- يقسم بربه (وأيم الله)؛ يعني ولعمر الله، وحياة الله صفة من صفات الله جلَّ في علاه. فهو يقسم بربه جلَّ في علاه، وهذا القسم تعليم من النبي -صلى الله عليه وسلم- لأمته بالقول أو بالفعل على القسم الصحيح وهو: أن يقسم بالله جلَّ في علاه، أو يقسم بصفة من صفات الله جلَّ في علاه، أو يقسم باسم من أسماء الله جلَّ في علاه. فإذا قال: والله، ورب السموات، ورحمة الله، وعزة الله؛ جاز ذلك. ولذلك هو قد أقسم بصفة من صفات الله جلَّ في علاه، قال: وحياة الله أو لعمر الله أو وحياة الله جلَّ في علاه.

كيف لا وقد علمنا النبي -صلى الله عليه وسلم- القسم الصحيح، والقسم الشركي؛ سمع النبي -صلى الله عليه وسلم- عمر بن الخطاب وهو على ناقته يقسم بأبيه فقال: (لا تحلفوا بآبائكم، من كان حالفاً فليحلف بالله)، وعن ابن عمر -رضي الله عنه وأرضاه- عن النبي -صلى الله عليه وسلم- أنه قال: (من حلف بغير الله فقد كفر أو أشرك)، ولمّا قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (لا تحلفوا بآبائكم، من كان حالفاً فليحلف بالله أو ليصمت)، قال عمر بن الخطاب: ما قلت ذلك لا ذاكراً ولا آثراً. فهذه أول إشارة من النبي -صلى الله عليه وسلم- يبيّن لنا من آداب وتعاليم للقسم الصحيح الذي يمكن أن نقول أنه مقبول عند الله جلَّ في علاه غير مردود، هو القسم بالله وبذات الله وبأسماء الله وصفات الله، كأن تقول: ورب الكعبة ورب العزة.

لكن القسم الذي سمعته مرة أريد البيان منكم، قال قائلهم: ورب القرآن لأفعلن كذا. هذا القسم يدخل في هذا التقسيم الذي علمنا إيّاه النبي -صلى الله عليه وسلم- أم لا؟ قال: ورب القرآن، وكثير من الناس يقسم بهذا

القسم لكنه لا يعلم. قلنا الإضافة إضافتان: إضافة صفة وإضافة مخلوق. قلنا: الكعبة بيت الله، عيسى روح الله، إضافة الخلق. أو إضافة الصفة: عزة الله، رحمة الله. وهذه الصحيح فيها بالتفصيل أن نقول:

- إن قصد بذلك رب القرآن يعني إضافة الصفة للموصوف أو الموصوف لصفته صح ذلك، لأن القرآن كلام الله وهي صفة تضاف إلى الله سبحانه وتعالى.

- وإن قصد برب القرءان يعني كرب السماء، يعني القرآن مخلوق، فهذا لا يجوز.

والأثر الذي نحك رأسنا به أن ابن عباس يصلي في جنازة فسمع رجل قال: اللهم رب القرآن افعل كذا وكذا وارحمه، ودعا للميت، فستوقفه ابن عباس وقال: مه! ماذا تقول؟ ماذا تقصد برب القرآن؟ قال: إضافة موصوف للصفة، قال: نعم. فهذه التي لا بد أن نستوقف الناس عندها ونقول: إن كانت إضافة صفة أو موصوف لصفته صح لأن القرآن كلام الله جلَّ في علاه، وأمّا إن كانت إضافة مخلوق لخالق فهذا لا يصح بحال من الأحوال لأن القرآن كلام الله غير مخلوق. وهنا النبي -صلى الله عليه وسلم- يعلمنا أنه يقسم بصفة من صفات الله جلَّ في علاه وهي حياة الله.

إذاً قسم النبي -صلى الله عليه وسلم- دون أن يستقسم، دون أن يستحلف، وهذه دلالة وإشارة من النبي -صلى الله عليه وسلم- أن الذي سيأتي أمر مهم عظيم، وحق والله إن الذي سيأتي من أهم ما يكون. قال: (تركتم على المحجة البيضاء)، وفي رواية أخرى قال: (تركت

فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدي: كتاب الله وسنتي). فهو يقول: (لأتركنكم على مثل البيضاء)، يقصد بذلك كتاب الله، وكتاب الله متفق عليه. فالكلام، كل الكلام الذي أدرجه المصنف هنا يقصد به سنة النبي -صلى الله عليه وسلم-، فهذه من العظمة بمكان ومن القوة بمكان.

ولا بد أن نسترعي انتباهنا لما استرعاه النبي -صلى الله عليه وسلم- وأقسم: (سأترككم على المحجة البيضاء)، وما هي المحجة البيضاء؟ قلنا: كتاب الله وسنة النبي -صلى الله عليه وسلم-، هذه السنة قال فيها النبي -صلى الله عليه وسلم- وصفاً هي: (ليلها كنهارها)؛ أوضح من شمس النهار، لا دخن فيها، لا إشكال، لا إجمال، بل هي تبيّن كل مجمل وتوضح كل مشكل.

ولذلك قال عمران بن حصين: إن القرآن أحوج إلى السنة من السنة إلى القرآن؛ ومقصد عمران -رضي الله عنه وأرضاه- أن في القرآن ما هو مجمل يبيّن بالسنة، أن في القرآن ما هو مشكل يوضح بالسنة، أن هناك تفصيلات لا تكون إلّا في السنة وليست في الكتاب. فهي عظيمة، السنة عظيمة والسنة شمولية، السنة تشمل كل شيء، ما من نازلة إلّا وتجدها في كتاب الله جلَّ في علاه وبيانها في سنة النبي -صلى الله عليه وسلم-. كما قال الشافعي: ما من نازلة إلّا وفي كتاب الله حلها، علمها من علمها وجهلها من جهلها، وتفسيرها وتفصيلها وإيضاحها وتبيّنها تجدها في سنة النبي -صلى الله عليه وسلم-.

شمولية السنة -كما قلنا- في حديث سلمان -رضي الله عنه وأرضاه-؛ عندما جاءه اليهودي يستعرض سنة النبي -صلى الله عليه وسلم- ويقول: ما تركم من شيء، أو قال: علّمكم كل شيء، فقال سلمان مقّراً: نعم، علّمنا كل شيء حتى قضاء الحاجة. وأيضاً عن أبي ذر -رضي الله عنه وأرضاه- قال: مات رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وما من

طائر يُقلِّب جناحيه في السماء إلّا أخبرنا منه بخبر. فما تركت السنة من شاردة ولا واردة ولا شاذة ولا فاذة إلّا أخبرت به؛ آداب الجماع كيف عندما يجامع الرجل أهله، آداب الطعام، آداب قضاء الحاجة والخلاء، آداب المشي إلى الصلاة، آداب النوم، آداب الأذكار، كل أدب من الآداب أتت به السنة الغرّاء.

هذه السنة بيّن النبي -صلى الله عليه وسلم- لشمولها ولعظمتها إن من تمسك بها وعض عليها بالنواجذ فالنجاة النجاة، وإن من حاد عنها وزاغ فالهلاك الهلاك. ولذلك قال النبي -صلى الله عليه وسلم- يستحث أمته ويستنهض أمته ويقول: (ومن يعش منكم بعدي فسيرى اختلافاً كثيراً، فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي، عضوا عليها بالنواجذ)(٢)

لِمَ؟ لشمولية السنة كما قلت وأن النجاة في السنة والتردي والهلاك في الحيدة عن السنة، وهذه التي جاءت في الجملة الثانية قال: (لا يزيغ عنها إلّا هالك).

والهلاك أنواع: هلاك مطلق وهلاك أخف من المطلق "مقيّد". هلاك مطلق وزيغ مطلق، ثم زيغ مقيّد. وأنواع الزيغ عن سنة النبي -صلى الله عليه وسلم- فيه التردي وفيه الهلاك، وهو متفاوت ممكن أن يكون هلاك كلي وممكن أن يكون جزئي.

 أمّا الهلاك الكلي بالزيغ الكلي، الذي هو الزيغ المطلق وهو الحيد عن سنة النبي كليةً؛ وهذا الذي يسمون أنفسهم بالقرآنيين يقولون: لا نأخذ بالسنة ولا نوافق عليها، ما وجدنا في كتاب الله من حلال أحللناه وما وجدنا فيه من حرام تركناه. فقال النبي -صلى الله عليه وسلم-

واصفاً مثل هؤلاء المتنطعين الذين خرجوا من الدين خروجاً بيّناً، الذين تركوا سنة النبي -صلى الله عليه وسلم- خلفهم ظهريّاً قال: (لا ألفين أحدكم شبعان على أريكته جاءه الأمر من أمري فيقول: ننظر في كتاب الله فما وجدناه في كتاب الله حلال أحللناه وما وجدناه حراماً حرّمناه)، ثم قال النبي -صلى الله عليه وسلم- منكراً عليهم: (ألا وإني قد أوتيت القرآن ومثله معه)، وفي رواية أخرى وهي الأهم قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (ألا وإنما حرّم رسول الله كما حرّم الله جلَّ في علاه).

هؤلاء كيف يجعلون السنة خلفهم ظهريّاً ويتركون سنة النبي -صلى الله عليه وسلم- ويطلبون النجاة؟ كيف عرفوا الصلاة؟ كيف عرفوا الزكاة؟ كيف حجوا إلى بيت الله جلَّ في علاه؟ كيف عرفوا عدد ركعات صلاة الظهر أو صلاة العصر أو المغرب أو العشاء؟ كيف عرفوا شروط الزكاة؟ لا بد من حولان الحول وبلوغ النصاب؟ كيف عرفوا الطواف بالبيت؟ كم شوط هو؟ كيف الوقوف على الصفا أو على المروة؟ كيف الوقوف على عرفة؟ كيف عرفوا ذلك إلّا من سنة النبي -صلى الله عليه وسلم-؟ (خذوا عني مناسككم)، (صلوا كما رأيتموني أصلي)، (إذا بلغ المال كذا النصاب فعليه الزكاة وحولان الحول) كما في حديث علي بن أبي طالب -رضي الله عنه وأرضاه-. فهذا الزيغ الكلي فيه الهلاك الكلي، وهؤلاء كما قلت القرآنيون الذين ألقوا بسنة النبي -صلى الله عليه وسلم- خلفهم ظهريّاً.

أمّا الزيغ الجزئي؛ هم الذين قالوا نقبل السنة وتركوا بعض السنة، قبلوا بعض السنة وتركوا بعض السنة، هؤلاء ألوان وأنواع شتى:

1 - النوع الأول؛ قالوا: نقبل من السنة، ولِمَ لا نقبلها وهي من عند الله؟ (وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى) [النجم:3-4]؛ فأصّلوا التأصيل الكبير أنها من عند الله وحي ولابد أن نأخذ بها، لكنهم قالوا: نشترط فيها شروطاً أو نقول شرطاً وقيداً مهماً. ما هو

الشرط؟ قالوا: إن وافق هذا القول (قول رسول الله) العقل أخذنا به، وإن لم يوافق رددناه. إذاً عرضوا الوحي على العقل، وهؤلاء الذين من أصولهم الخمسة قدّموا العقل على النقل، قالوا: العقل مقدم على النقل، والله جلَّ في علا عظّم في كتابه العقل؛ أولو الألباب، أولو الأبصار، تعظيم للعقل.

فقالوا: كل سنة وافقت العقل أخذنا بها، وكل سنة لم توافق العقل لم نأخذ بها. هؤلاء كما قلت التردي والهلاك جزئي ليس كلي، ليس خروجاً بيّناً من دين الله جلَّ في علاه، لأنهم قالوا ما نرد على النبي قوله لكن يشككون في هذه الأسانيد؛ الأسانيد والأحاديث التي لا توافق العقول عندهم، وهذه العقول ليست بسديدة ولا صحيحة.

الغرض المقصود قالوا: هذه الأحاديث إن لم توافق العقول، هذه الأحاديث فيها ضعف، أسانيدها ضعيفة. ولذلك لمّا ردوا الأحاديث، ردوها على البخاري، ردوها على مسلم، ردوها على أبي داود، ما ردوها على النبي -صلى الله عليه وسلم- ولا قالوا لا نأخذ بقول النبي لأنهم أصّلوا أنهم عباد وقالوا: (وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى)، نأخذ بكل الوحي لكن هذا الحديث لا يصح.

ولذلك ردوا حديث سحر النبي -صلى الله عليه وسلم-؛ قد سحر رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فردوه وقالوا هذا حديث مكذوب، لا يمكن، لمّا شغبوا على أهل السنة والجماعة بترهات عندهم وهنات في عقولهم قالوا: لو قلنا بسحر النبي إذاً لن يثبت لنا لا القرآن ولا السنة، ولا نثق في هذا الدين الذي نأخذه من الكتاب ولا من السنة، رجلٌ مسحور هل سيضبط الوحي؟ رجلٌ مسحور هل سيضبط السنة؟ لا يمكن أن نأخذ بهذا الحديث وردوه.

توافقون على هذا الرد؟ أنا اجزم أن من أهل السنة والجماعة من قال بذلك، وهذا الذي يثير الدهشة، والذي نفسي بيده فحول من أهل السنة والجماعة ضعّفوا هذا الحديث في البخاري وقالوا: هذا حديث ضعيف ولا يمكن القبول به، العقل لا يمكن أن يقبل أن النبي -صلى الله عليه

وسلم- قد سُحِر، كذّبوا وقالوا: المسحور لا يتزن المسحور، يغلب على عقله، فكيف نأخذ ديننا من رجلٍ قد سُحِر؟

هم يستدلون بالعموم؛ قالوا: (وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ) [المائدة:67]، وقد سُحِر، لو قلنا بأنه سُحِر ضربنا السنة بالقرآن، وإذا الوحي اختلف وأنا أقول الكل خرج من مشكاة واحدة. كم واحد يعلم بأن النبي سحر ولا يستطيع أن يرد.

أولاً: تؤمنون أنه سُحِر؟ الكل يؤمن، إذا جاء القوم وشغبوا عليكم قالوا: سُحِر؟ (وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ)؟ سُحِر وهو رسول؟ سُحِر ويأتيه جبريل؟ إذاً لا يضبط القرآن ولا يضبط السنة، والمسحور يغلب على عقله فكيف نقول بالسحر؟ حتى أبيّن لكم بقية الحديث؛ تقول عائشة: (كان يرى أنه أتى أهله ولم يأتِ أهله، يرى أنه فعل شيء ولم يفعل الشيء). انظروا إلى هذا، هم يقولون هذا عموم خصصتموه في ماذا؟ ما الدليل على التخصيص؟ هات السياق والسباق واللحاق كما شئت.

أنا الآن أقول هم يقولون (وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ) عموم، لِمَ خصصتموه في العصمة في الرسالة فقط؟ الآية: (يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ) [المائدة:67]، السياق في التبليغ، (وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ) إذاً حين البلاغ الله يعصمك من كل شيء، ستبلّغ ستبلّغ. ويؤكد ذلك دلائل باهرات كشمس النهار؛ قول الله تعالى: (إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ) [الحجر:9]، وهل السنة ذكر؟ السنة ذكر، الدليل -وهذه لمحة ولطيفة جيدة جداً- قال: (لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ) [النحل:44]. إذا قلنا معكم الذكر المقصود به القرآن، قلنا التبيين المقصود به السنة. من باب التنزّل مع الخصم، إذا قلنا لا، ما تدخل السنة تحت الذكر، نقول: (وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ)، ليبيّن بسنته، وهي وحي.

دليل الثاني؛ هم يقولون: (وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى) إذاً ليس مسحوراً، فنرد الحديث. نقول لهم: لا هو مسحور ولن نرد الحديث.

أنا أقول لكم شيء علمياً كيف نتعامل مع الخصم: أولاً نؤصّل تأصيلاً نتفق معه ويتفق منا، ثم نبيّن قوله والإشكال الذي عنده ونحل له الإشكال، ينتهي الموضوع.

نؤصّل أصل: (وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى) [النجم:3-4]، والقرآن والسنة من مشكاة واحدة، اتفقنا على ذلك، كلها وحي من الله؟ كلها وحي من الله. نقول الآن: تعال ما الإشكال عندك في سحر النبي -صلى الله عليه وسلم-؟ فيقول: الإشكال عندي لو سُحِر النبي -صلى الله عليه وسلم- غلب على عقله فلا يتزن عند البلاغ فلا يستطيع أن يبلّغ كل ما أنزل إليه، نقول: الحمد لله، نقف عند هذا الإشكال ونبيّن لك أن هذه غير مرادة بحال من الأحوال؛ يمكن أن نقول السحر له أمران أو تأثيران:

تأثير على العقل وتأثير على الوحي والبلاغ

وتأثير على الجسد، والتأثير على الجسد كالمرض.

إذاً تأثيران توافق معنا؟ لابد أن يوافق. فنقول له: ننظر في الأول هذا الأول هو الإشكال عندك، أمّا الثاني نحن نوافقك على أن النبي -صلى الله عليه وسلم- بشر من البشر، يعتريه ما يعتري البشر؛ يأكل ويشرب وينام ويضاجع ويقضي حاجته ويمرض ويوعك، بل يُقتل رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، وقد مات مقتولاً توافقون؟ نعم. ما الآية التي تدل على ذلك؟ (أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ)، فالإيذاء سيحدث للجسد سيحدث للجسد.

إذاً المعمعان كله موجود في مسألة التبليغ، فالمعركة كلها بالتبليغ، نبيّن نحن أن التبليغ لا يمكن التشويش عليه بالأدلة الصارمة القطعية منها:

- أولاً قول الله تعالى: (يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ)، وقال في النهاية حين تبلّغ: (وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ) [المائدة:67].

- سورة القيامة: (إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ * فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ * ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ) [القيامة:17-19]؛ من الذي تكفّل بذلك؟ سحر وغير

سحر المسألة انتهت، من بيده ملكوت السماوات والأرض هو الذي تكفّل بجمعه وقرآنه وبيانه، فإذا تكفّل الله بذلك انتهى الأمر، لا مدخل لأي أحد، لا شيطان أنس ولا جن، ولا أحد يمكن أن يتدخل في ذلك لأن الله هو الذي تكفّل بالجمع والقرآن والبيان.

- أيضاً قال الله تعالى عموماً: (إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ) [الحجر:9].

بطل عندكم هذا الإشكال الذي أشكلتموه علينا وشغبتم علينا، ثم نقول لكم: رسول الله كان يرى أنه يأتي أهله وما يأتي أهله، أنه يفعل الشيء وما يفعل الشيء. هذا بالضبط كمرض الصداع، كمرض الإنفلونزا، كأي مرض من الأمراض التي تصيب الجسد، لا سيما وأن النبي -صلى الله عليه وسلم- كان يعلم أنه لم يأتِ يقيناً، لكن كان يخيل له الشيء، وحين البلاغ كان الله يعصمه من ذلك. إذاً نقول لهم أنتم قدّمتم العقل على النقل، وعندنا النقل يقدّم على العقل لأنه ما هو إلّا وحي يوحى، وأن الله جلَّ وعلا لمّا تعبدنا، تعبدنا بالشرع الذي أنزله على رسوله -صلى الله عليه وسلم-. ما العلم إلّا قال الله قال رسوله، لا مدخل للعقل في هذه المسألة.

أيضاً لمّا قالوا بهذا التصعيد ردوا أحاديث أخرى عن النبي -صلى الله عليه وسلم- "حديث شق الصدر"؛ الله جلَّ وعلا أمر جبريل فشق صدره وأخرج حظ الشيطان، شق الصدر حتى إلى الأسفل إلى قبل العانة، شق صدره وأتى بطست ملئ بحكمة وبإيمان ثم أخذ حظ الشيطان منه وملئ صدره حكمة وإيمان. شق الصدر عندهم قالوا: لا يمكن، كيف يعيش؟ شُق كل صدر النبي -صلى الله عليه وسلم-، هذا لا يمكن أن نأخذ به.

قلنا يعني حتى الواقع يكذّب ما أنتم فيه، بعض الأطباء لا يفتح قلب فقط، خمسين قلب، أمامه خمسين صدر يفتح ويشق وبعد ذلك يلحم ويخرج المريض بفضل الله معافى. هذا أنتم تصدقونه على بشر

ضعيف، ولا تصدقونه على ملك طوله من السماء للأرض أعطاه الله قوة لا يمكن أن تكون في قوة البشرية.

تشغيل العقل وتقديم العقل على النقل هذا من منهج المعتزلة، وهذا الذي جر أذيالهم أن يفعلوا ذلك عندما نظروا للواقع وبعقولهم ردوا كثير من الأحاديث؛ منها أحاديث الذبابة، ومنها حديث الدجال أيضاً ردوه على قائليه، حتى ولو كان مسلم؟ حتى ولو كان مسلم، ردوا هذا الحديث على مسلم وقالوا الحديث ضعيف، لأن مكبرات الصوت ولا مكبرات الرؤية لم تُرَ أو الأقمار الصناعية لم تأتِ بالدجال، إذاً الدجال غير موجود.
وطرحوا حديث النبي -صلى الله عليه وسلم-، حديث تميم الداري، قال: (أسعدني أن حدثني تميم الداري بما حدثتكم به، وقد رأى الدجال مسلسلاً)(٣)

لكن لأن الأقمار الصناعية ما أتت بالدجال، إذاً ما في دجال، وردوا حديث النبي -صلى الله عليه وسلم-. وهذا الضعف البشري موجود، والنظريات التي تحتمل الصواب والخطأ لا يمكن أن تكون حاكمة على سنة النبي -صلى الله عليه وسلم-، هذا نوع من أنواع الضلال فيه نوع من أنواع الهلاك عقوبة له.

الآن نحن في الجملة الثانية: (لا يزيغ عنها إلّا هالك)، فنحن نبيّن الآن أنواع التردي والهلاك مع سنة النبي -صلى الله عليه وسلم-. النجاة والعصمة في التمسك والعض بالنواجذ على سنة النبي -صلى الله عليه وسلم-، والهلاك والتردي مع الحيدة والزيغ عن سنة النبي -صلى الله عليه وسلم-.

2- لون آخر وهو قبول السنة لكن ردها برد خفي؛ هؤلاء أضعف، سلاحهم ليس بقوي، فقالوا لا نقوى على أهل السنة والجماعة، يكشرون عن أنيابهم فلا نستطيع أن نواجههم لكن نضربهم من تحت، هذا أخف وطأة من الأولين. هؤلاء الذين يقولون نقبل بكل سنة صحيحة وردت بالأسانيد الصحيحة، لكن يردونها رداً جميلاً، يحرّفونها ويسمّون التحريف تأويل.

الذي يفعل ذلك الأشاعرة، الذين نصّبوا أنفسهم للتأويل بل للتحريف؛ يعني يأتون إلى قول النبي -صلى الله عليه وسلم- عندما سئل في الصحيحين: (أنرى ربنا؟ قال: أترون الشمس رابعة النهار واضحة ما فيها لا ضيم عليكم عندما ترونها؟ أترون القمر ليلة البدر؟ فقال: سترون ربكم كما ترون الشمس والقمر). فقالوا: (ترون ربكم) حديث صحيح في الصحيحين لابد أن نقبله، إسناده كالشمس لا نرده، نحن نقبل هذه الأسانيد عن النبي -صلى الله عليه وسلم-. ثم قالوا: لكن ليس هذا هو المراد، معنى (ترون ربكم) يعني تعلمون حق أن هذا هو الرب، كما أنكم تعلمون أن القمر هو القمر وأن الشمس هي الشمس تعلمون أن الرب هو الرب.

فحرّفوا الرؤية بالعلم، وهذا تحريف وليس تأويل وليس عندهم ثمة دليل. والرد عليهم بالتفصيل، رددت عليهم في أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة.

أيضاً أتوا على أحاديث النبي -صلى الله عليه وسلم-؛ يقول النبي -صلى الله عليه وسلم- كما في الصحيحين: (ينزل ربنا)، يا للروعة! إيمانيات عالية في نزول الله جلَّ في علاه، عندما تكون في السحر خالياً تبكي وأنت تعلم أن ربك في السماء يقول لك: عبدي إن تستغفر أغفر لك وإن تسأل أعطيك وإن تدعو أجيبك وإن كنت مريضاً تستشفي أشفيك. هذا روعة الإيمان، بذلك تراها وأنت خالياً في السحر. وهم يشوشون ويشغبون علينا ذلك يقولون: إن ربنا لا ينزل، ولو قلنا بالنزول لشبّهنا الخالق بالمخلوق. من ينزل؟ قالوا: الملائكة تنزل، الرحمة تنزل، الأمر ينزل. نقول لهم: لا، خالفتم الكتاب والسنة؛ أي تأويل وتحريف، قل هكذا: خالفتم الكتاب خالفتم السنة خالفتم إجماع الصحابة، في كل شيء، أي شيء يأتيك اعمل هكذا ستوقفه عند حده، لا يقدر يتكلم، وبعد ذلك دقق النظر.

هم خالفوا الكتاب وخالفوا السنة وخالفوا أيضاً إجماع الصحابة، لكن نقول لهم تعالوا إلى هذا الباطل الذي تقولونه، تنزل الملائكة؟! تنزل الرحمة؟! ينزل الأمر؟! ماذا يقال في النزول؟ (هل من سائل فأعطيه؟) الملائكة هي التي تعطي؟ أتملك لنفسها خيراً أو شرا؟ (هل من مستغفر فأغفر له) هل الملائكة تغفر؟ الملائكة هي التي تغفر؟ أعوذ بالله. (هل من داعي فأجيبه) هل الملائكة التي تجيب؟ بل الملائكة تدعو الله وتتضرع إلى الله جلَّ في علاه، ما الآية التي تثبت ذلك؟ (أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ) [الإسراء:57].

فهذا التأويل تحريف وليس بتأويل، هذا أيضاً ضلال ونوع من الضلال، وفيه نوع من الهلاك.

3 - نوع آخر من هذا الضلال المبين والزيغ أيضا والحيد عن سنة النبي -صلى الله عليه وسلم-: الغلو في أحاديث الوعد، وأيضاً الغلو أو الجفو في أحاديث الوعيد.

هؤلاء طائفة زاغوا عن السنة لكن الزيغ كان غير النوع الأول، زاغوا عن هذه السنة بأن عضوا بالنواجذ على أحاديث الوعد فخرجوا على الأمة فكفّروهم واستباحوا دماءهم ونسائهم وأموالهم، أخذوا كل أحاديث الوعيد؛ (اثنتان بأمتي هما بهم كفر: النياحة على الميت)، قالوا: من تنوح فهي كافرة. قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (من حلف بغير الله فقد أشرك، ومن حلف بالنبي فقد كفر)، قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن) الزاني كافر. فعندهم كل عاصي كافر، فغلوا وحادوا عن سنة النبي -صلى الله عليه وسلم-، وهذا نوع من الحيدة نتيجته نوع من الهلاك، وليس الهلاك الكلي.

ونحن نفرّق، فرّقنا بين القسم الأول والأقسام الثانية التي تليها؛ القسم الأول حيدة كليةً فأصبح الهلاك كلي، خروج بيّن من دين الله جلَّ في علاه لمّا طرحوا السنة خلفهم ظهريّاً.

4 - النوع الرابع الذين غلو بالعض بالنواجذ على أحاديث الوعد، وقالوا: إيمان جبريل كإيمان أبي بكر، كإيمان آحاد الأمة. أخذوا بكل الأحاديث التي تقول: (من مات على "لا إله إلّا الله" دخل الجنة) ولم يجعلوا التفاوت بين المؤمنين، هذا أيضاً نوع من أنواع الحيدة له نصيب من الهلاك لقول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (لا يزيغ عنها إلّا هالك). نعوذ بالله من الزوغان والروغان، ونعوذ بالله جلَّ في علاه من الهلاك كله أو بعضه أو دقه أو جلّه.

الفوائد المستنبطة:

- أولاً شريعة الله هي الحق، ولا حق إلّا شريعة الله.

من أين نستنبط هذه الفائدة العظيمة؟ (أمتهوكون فيها يا ابن الخطاب؟)، زجر وشدة وغلظة مع من؟ مع عمر بن الخطاب -رضي الله وأرضاه-، ثم في رواية أخرى قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (والذي نفسي بيده لو كان موسى حياً ما وسعه إلّا أن يتبعني)، كما قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (والذي نفسي بيده ما سمع بي من هذه الأمة يهودي ولا نصراني، ثم لم يؤمن بالذي جئت به إلّا كان من أصحاب النار). فهذه فيها دلالة على أن هذه الشريعة الخاتمة هي الشريعة الحق وغيرها باطل، ومن اعتنق غير دين الإسلام فهو على خطر عظيم، بل هو حقاً من الكافرين ومن الخالدين في نار جهنم والعياذ بالله.

- الفائدة الثانية: الغضب للحق لا الغضب للنفس، هذا أدب نبوي أسأل ربي جلَّ في علاه أن يجعلني أتحلى به وتتحلون به.

من أين؟ نفس الحديث، قد غضب النبي -صلى الله عليه وسلم- على عمر لمّا وجده، مع أن عمر -رضي الله عنه- ما كان يريد أن يضرب هذا بذاك. لكن النبي -صلى الله عليه وسلم- كما قالت عائشة: (كان رسول الله -صلى الله عليه وسلم- لا ينتصر لنفسه قط، إلّا إذا انتهكت محارم الله)، وهذه فيها دلالة مخفية أن هذه ذريعة، لأنها ستنتهك محارم الله. ولذلك ترى الفهم الدقيق لشيخ الإسلام ابن تيمية قال: من الخطأ

البيّن أن يطّلع أهل الإسلام على الإنجيل أو التوراة أو الأديان الأخرى، ولم يكن متقناً من دينه ومن كتاب ربه وسنة نبيه -صلى الله عليه وسلم-

وهذه من أعظم الفوائد التي تفيد أصحاب الإنترنت والشبكات، يدخلون على الغرف يناظرون النصارى وهم لا يعرفون عن دينهم، بأي شيء شبهة واحدة تضيعهم عن دين الله جلَّ في علاه، ويدخلون الغرفة الثانية يناظرون ما أعرف من المبتدعة، والغرفة الثالثة. وهم لو دخلوا في القبر هو أفضل لهم، لا يعرفون عن دينهم شيء ثم يناظرون أصحاب الأديان الأخرى. لابد أن يتقن دينه، لأن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال لعمر وهو من هو في الإسلام: (أمتهوكون فيها يا ابن الخطاب؟ والذي نفسي بيده لو كان موسى حياً ما وسعه إلّا أن يتبعني).

- الفائدة الثالثة: ما قاله رسول الله كما قال الله.

من أين هذه؟ أبو الدرداء ماذا قال؟ قال: صدق، وهو يروي عن النبي، وقال: (صدق الله وصدق رسوله). فهذه فيها دلالة أنه يرى قول النبي -صلى الله عليه وسلم- هو قول الله، لكن هذا يحتاج لتفصيل، كيف يكون هذا الحديث: (وأيم الله، لأتركنكم على المحجة البيضاء ليلها كنهارها) قول الله؟ كيف يكون هذا قولاً لله جلَّ في علاه؟ اصطلاحاً قل بأن الحديث النبوي المعنى من الله جلَّ في علاه، واللفظ من رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، ولذلك جاز أن تقول هذا قول الله لأنه معناه من الله، فلك أن تنسب ذلك لله جلَّ في علاه. وهذه الآية كلها يدخل كله تحتها (وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى) [النجم:3-4]، يعني الكل من عند الله، من مشكاة واحدة.

هذا آخر ما يكون في هذا الباب العظيم،

*ثم انتظروا بعد ذلك عمق العقيدة، سيدخل بعد ثلاث أبواب أو أربعة أبواب في مسائل القدر، هذه المسألة التي هي دحض مزلة.

١_الراوي : أبو الدرداء | المحدث : البزار | المصدر : الأحكام الشرعية الكبرى | الصفحة أو الرقم : 298/3 | خلاصة حكم المحدث : إسناده حسن

٢_الراوي : العرباض بن سارية | المحدث : محمد ابن عبد الوهاب | المصدر : الرسائل الشخصية لابن عبد الوهاب | الصفحة أو الرقم : 179 | خلاصة حكم المحدث : صحيح | التخريج : أخرجه مطولاً أبو داود (4607)، والترمذي (2676)، وابن ماجه (44)، وأحمد (17144) باختلاف يسير، وابن عبد البر في ((جامع بيان العلم وفضله)) (2305) واللفظ له

٣_ الراوي : تميم الداري | المحدث : مسلم | المصدر : صحيح مسلم | الصفحة أو الرقم : 2942 | خلاصة حكم المحدث : [صحيح]

باب : تركتم على مثل البيضاء (2)

وقبل أن نختم هذا الباب في الكلام على ذم الهوى وأهل الاهواء والحثّ على التمسّك بالسنة وبما جاء فيها من نصوص ثابته وأيات مُحكمة لا تقبل ان يتدخل العقل فيها فضلا عن يتبع المرء هواه،نستدرك بإذن الله الكلام عن المحجّة البيضاء التي تركنا الرسول صلى الله عليه وسلّم عليها، سائلين المولى جلّ وعلا ان يهدي قوم قد ضلّوا عن سواء السبيل، ونسأل الله لنا ولهم الهداية.

قال المصنف -رحمه الله تعالى-:

باب ذكر قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (تركتكم على مثل البيضاء) وتحذيره إيّاهم أن يتغيروا عمّا يتركهم عليه وأمره بسنته وسنة الخلفاء الراشدين بعده:

وعن أبي الدرداء قال: خرج رسول الله -صلى الله عليه وسلم- علينا فقال: (أيم الله، لأتركنّكم على مثل البيضاء ليلها كنهارها سواء)، فقال أبو الدرداء: صدق الله ورسوله، فقد تركنا على مثل البيضاء.

وعن عبد الرحمن بن عمرو أنه سمع العرباض بن سارية يقول: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: (لقد تركتكم على مثل البيضاء ليلها كنهارها، لا يزيغ بعدي عنها إلّا هالك)، وعنه أيضاً قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: (إني قد تركتكم على مثل البيضاء ليلها كنهارها، لا يزيغ عنها بعدي إلّا هالك).

وعن جابر بن عبد الله: أن عمر بن الخطاب -رضي الله تعالى عنه- أتى النبي -صلى الله عليه وسلم- بكتابٍ أصابه من بعض الكتب، قال: فغضب وقال: (أمتهوكون فيها يا ابن الخطاب؟ والذي نفسي بيده لقد جئتكم بها بيضاء نقية).

هذا الباب العظيم، باب العض بالنواجذ على سنة النبي -صلى الله عليه وسلم-؛ ما زال هذا المصنف في بديع ما ألّفه وصنّفه التدريج حتى يبيّن ويظهر مكانة السنة من النجاة في الدنيا وفي الآخرة، يبيّن بأن النبي -صلى الله عليه وسلم- تركنا على مثل البيضاء أو المحجّة البيضاء.

- أولاً (أيم الله)؛ هذا قسم أقسم به النبي -صلى الله عليه وسلم-.
- (أمتهوكون) يعني متحيرون، (أمتهوكون فيها يا ابن الخطاب؟)، في بعض الروايات قال: (أمتهوكون كما كانت تفعل اليهود؟) يعني تتحيرون كما تحيرت اليهود، وأقسم النبي -صلى الله عليه وسلم-: (والذي نفسي بيده لقد جئتكم بها بيضاء).

أولاً تذكيراً للأصحاب وتأسيساً للإخوة الجدد أقول: (أيم الله) قسم من النبي -صلى الله عليه وسلم-، ولم يُطلب منه القسم.

والقسم قسمان: قسم من الخالق وقسم من المخلوق:

1 - أمّا قسم الخالق فهو يقسم بذاته المقدسة وبأسمائه الحسنى وصفاته العلا، بل ويقسم بما شاء من خلقه؛ فإن الله جلَّ في علاه أقسم بربوبيته قال: (فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ) [النساء:65]. وأقسم الله جلَّ وعلا بعظيم خلقه لأن عظمة الخلق دلالة عظيمة على عظمة الخالق، فهذه هي الحكمة التي نستنبطها من أن الله أقسم ببعض خلقه؛ أقسم بالشمس وبالقمر وبالنجوم وبالليل وبالنهار، وأقسم بالضحى، بل وأقسم بالأنهار والأشجار والجبال ضمناً: (وَالطُّورِ وَكِتَابٍ مَسْطُورٍ) [الطور:1-2]، قال الله تعالى: (وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا * وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا * وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا * وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا) [الضحى:1-4]، قال الله تعالى: (وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى) [الليل:1]، وقال جلَّ في علاه: (وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ) [الطارق:1-2].

وقال الله تعالى: (لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ) [القيامة:1]، هنا ليس بقسم صحيح؟ (لَا أُقْسِمُ) نفى القسم فكيف نقول هو أقسم بيوم القيامة؟ (لَا) هنا زائدة في القرآن زيادة توكيد؛ ومعناها أقسم بيوم القيامة، فهنا يقسم الله بيوم القيامة.

وأيضاً أقسم الله جلَّ في علاه بحياة النبي -صلى الله عليه وسلم- فقال جلَّ في علاه: (لَعَمْرُكَ) يعني وحياتك، أي وحياة رسول الله -صلى الله عليه وسلم- لعظمة حياة رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، قال: (لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ) [الحجر:72]، وقسم الله بالمخلوقات دلالة على ربوبية الله جلَّ في علاه لعظمة هذا المخلوق.

2 - والقسم الثاني من القسم هو قسم المخلوق؛ والمخلوق لا يقسم إلّا بالخالق، لا يجوز له بحال من الأحوال أن يقسم إلّا بالخالق لقول النبي -صلى الله عليه وسلم- عندما سمع عمر بن الخطاب يحلف بأبيه فقال: (لا تحلفوا بآبائكم)، فقال عمر بن الخطاب -رضي الله عنه وأرضاه-: فما أقسمت به لا ذاكراً ولا آثراً.

وأيضاً النبي -صلى الله عليه وسلم- يقول: (من كان حالفاً فليحلف بالله)، وفي رواية عن ابن عمر صحيحة قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (من حلف بغير الله فقد أشرك)، وفي رواية: (من حلف بغير الله فقد كفر)، فلا يجوز للمخلوق أن يقسم بحال من الأحوال إلّا بالخالق. ويقسم بالخالق، يقسم بذاته وصفاته وأسمائه الحسنى بل وأفعاله، وهذه وردت في الكتاب ووردت في السنة كثيراً.

كثيراً ما ترى النبي -صلى الله عليه وسلم- يقسم ويقول: (لا والذي نفسي بيده)، وهذه رواية عندنا في عمر بن الخطاب -رضي الله عنه وأرضاه-، قال: (والذي نفسي بيده لقد جئتكم بها بيضاء). (والذي نفسي بيده) هذا قسم بالله جلَّ في علاه، بربوبية الله، بذات الله المقدسة.

وأيضاً كان يقسم بأفعال الله، قال: (لا ومقلب القلوب)، وهذا دأب الصحابة -رضي الله عنهم وأرضاهم-؛ فعائشة -رضي الله عنها وأرضاها- دخل عليها النبي ذات مرة فقال: (إني أعلم متى تكوني عني راضية ومتى تكوني عني غاضبة، قالت: كيف يا رسول الله؟) أقرت أولاً ثم سألت، (قالت: كيف يا رسول الله؟ قال: إن كنت عني راضية أقسمتِ وقلتِ: ورب محمد، وإن كنت عليّ غاضبة قلتِ: لا ورب إبراهيم، قالت: نعم يا رسول الله، والله ما أهجر إلّا اسمك). الغرض المقصود كانوا يقسمون بربوبية الله جلَّ في علاه، بأسماء الله الحسنى، بصفاته، بأفعاله جلَّ في علاه.

وصلّى ابن عباس الجنازة فسمع رجل يقول: اللهم رب القرآن اغفر لفلان (على الميت)، فبعد الصلاة قال له: ماذا تقصد برب القرآن؟ فقال: أقصد برب القرآن يعني الذي تكلم بالقرآن، قال: هكذا تقسم؛ يعني هو هكذا يكون قد أقسم بصفة من صفات الله جلَّ في علاه، أيضاً وأقسم بذات الله جلَّ في علاه.

وهنا النبي -صلى الله عليه وسلم- أقسم دون أن يُستقسم، وهذه عجيبة لأن الله جلَّ في علاه قال: (وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ) [المائدة:89]، فالنبي -صلى الله عليه وسلم- يقسم من غير أن يُستقسم. نقول: نعم لأن الأصل

في القسم شرعاً هو: ذكر معظّم لتوكيد كلام معين يريد توكيده؛ والنبي -صلى الله عليه وسلم- الآن كأنه يشوّق القلوب، يفتّح الأذهان، يقول: (والله)، (والذي نفسي بيده). كأن الناس يقفون الآن أقسم النبي، إذا النبي أقسم على أمر عظيم. نعم هو أمر عظيم، ففيه تشويق للنفوس وأيضاً تفتيح للأذهان حتى يستمعوا لرسول الله -صلى الله عليه وسلم- فيعوا عنه ما يقول.

(وأيم الله، لأتركنكم على مثل البيضاء)؛ يقصد النبي -صلى الله عليه وسلم- البيضاء أو المحجة البيضاء هما الأصلان المتلازمان: الكتاب والسنة، فهما أصلان متلازمان لا عدول عنهما بحال من الأحوال، ولعظم الأصليين فإن الله جلَّ في علاه؛ ذكرهما في الكتاب مجتمعين ومتفرقين:

- أمّا مجتمعين: فقد قال الله تعالى يبيّن لنا النجاة في ذلك: (وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى) [النجم:3-4]، والدلالة من ذلك أنه قال: إن ينطق ما ينطق عن هوى، ما ينطق إلّا عن وحي. والنبي -صلى الله عليه وسلم- لمّا نطق، نطق بالكتاب ونطق بالسنة، فقول الله تعالى: (وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى * إِنْ هُوَ) يعني ما ينطق به (إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى)، فكل ما يتكلم به النبي -صلى الله عليه وسلم- من كتاب أو سنة فهو وحي يوحى، هذا اجتماع. وأيضاً قول الله تعالى: (وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا) [الحشر:7]، هذا أيضاً شمول وعموم.

- وفي التفريق قال الله تعالى: (وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ) ويقصد بها الكتاب، (مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ) [الأحزاب:34] ويقصد بالحكمة السنة. ففرق بينهم مع أنهما متلازمان، لكن يبيّن بأن هذا الكتاب هو من الله وأيضاً السنة من الله، فما الفرق بينهما؟ الكتاب والسنة وحي، واحد في الأحكام، نحن نتعبد بذكر أحاديث النبي -صلى الله عليه وسلم-، والله ما تتعطر المجالس إلّا بذكر النبي -صلى الله عليه وسلم- وبأحاديث النبي -صلى الله عليه وسلم-. ما الفرق بينهما؟

السؤال: إن كانا متلازمين فبينهما فرق، هما يتفقان ويفترقان؟!

إجابات الطلبة:

- هما يتفقان بأنهما وحي من الله، والسنة المعنى من الله واللفظ من النبي -صلى الله عليه وسلم-.
- هناك عبادات لا تصح العبادة إلّا بنص الكلام الذي هو كلام الله جلَّ في علاه، (وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا) [المزمل:4]، أمّا السنة فلا.

الجواب: الصحيح يفترقان هنا: أن القرآن قطعي الدلالة قطعي الثبوت لأنه متواتر، لا يمكن أن نقبل قراءة إلّا أن تكون متواترة، فهو قطعي الدلالة قطعي ثبوت. أمّا السنة؛ فأغلب السنة ومعظم السنة ظنية الدلالة، ممكن تكون ظنية الثبوت، ممكن تكون قطعية الدلالة.

الصحيح أننا نقول لا فارق بين الكتاب والسنة؛ الغرض المقصود هما متلازمان أصلان لا يمكن العدول عنهما، فإن الله جلَّ في علاه ربط وأناط النجاة بالعض عليهما، ولذلك قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (تركتكم على مثل البيضاء)؛ فشبّه النبي -صلى الله عليه وسلم- الكتاب والسنة ليس فيها ثمّة تشويش كالبيضاء، يعني كالشمس في رابعة النهار.

وهذا وصف دقيق من النبي -صلى الله عليه وسلم- تحته أوصاف كثيرة؛ قال: (مثل البيضاء) مثل الشمس في رابعة النهار لا تشويش فيها، ولها أوصاف أخرى فرعية عن هذا الوصف العظيم الجلَّيل الذي وصفه النبي -صلى الله عليه وسلم-: العموم والشمول والكمال وأيضاً البقاء؛ هذه صفة من صفات شريعتنا الغرّاء الحنيفية، قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (مثل البيضاء) لعمومها وشمولها، (مثل البيضاء) نقية لكمالها، (مثل البيضاء) لبقائها على مر الدهور والعصور.

أمّا عموم وشمول هذه الشريعة الغراء: فهي عامة في الأحكام والآداب، وعامة وشاملة في الدعوة، وعامة وشاملة أيضاً في الأخبار.

- عامة وشاملة في الدعوة؛ فإن هذه الشريعة جاءت شريعة ناسخة لأي شريعة سابقة، وجاءت عامة لكل البشر كما قال الله تعالى: (وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا) [سبإ:28]، كافة: يعني لكل الناس. وأيضاً قال الله تعالى آمراً نبيه أن يقول: (قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا) [الأعراف:158]، فهذه العموم الرسالة.

وفي الصحيح عن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: (فُضِّلت على الأنبياء بست) وذكر منها فقال: (وكان كل نبي يُبعث لأمته خاصة، وبُعثت للناس عامة). فهذه للدعوة، لعموم البشر، بل وللثقلين، يعني يرتقي الأمر الدعوة ترتقي من الإنس إلى الجن، والله جلَّ وعلا يقول: (وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ) [الذاريات:56]، فلا بد للجن من تعليم الشرع حتى يتعبدوا لله جلَّ في علاه عبادة صحيحة تُقبل عند ربهم جلَّ في علاه. قال الله تعالى: (وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا ۖ فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ) [الأحقاف:29]، فهذه نذارة بالوساطة تبليغاً عن النبي -صلى الله عليه وسلم-. أيضاً عن ابن مسعود وغير ابن مسعود: أن النبي -صلى الله عليه وسلم- قرأ القرآن على الجن. فهذا عموم الدعوة وشمول الدعوة للثقلين: للإنس وللجن.

- أيضاً هي عامة وشمول هذه الشريعة في الأحكام؛ فأحكام العبادات ما من شيء تستقيم به العبادة إلّا بيّنه الله في كتابه إجمالاً، ووضحه النبي -صلى الله عليه وسلم- في سنته تفصيلاً، لأن السنة لها علاقة وطيدة متلازمة مع القرآن، وعلاقة السنة بالقرآن كما قال عمران بن الحصين ويقعّد لنا هذه القاعدة في العلاقة بين القرآن والسنة قال: القرآن أحوج إلى السنة من السنة إلى القرآن؛ تفسير ذلك أن القرآن معظمه وأكثر الأحكام فيه مجملة وجاءت السنة موضحة، فإن الله جلَّ في علاه قال: (وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ) [البقرة:43]، فجاءت السنة تبيّن لنا أن الصلوات خمس، وأن صلاة الفجر ركعتان وصلاة الظهر

أربع إلى آخر التفصيلات. (وَآتُوا الزَّكَاةَ) [البقرة:43]، فبيّن لنا أن الزكاة لا بد أن تبلغ النصاب ولابد من حولان الحول، إلى ما بيّن النبي -صلى الله عليه وسلم- وفسّر هذا الإجمال.

فالقرآن فيه أحكام مجملة وجاءت السنة مفسرة، عموم العبادات الأحكام جاءت إمّا في الكتاب مجملة وإمّا في السنة مُفسِّرة أو مُفسَّرة.

- وأيضاً عموم الآداب، فكل الآداب جاءت الشريعة الغراء بتبينها؛ آداب الطعام (سم الله وكل بيمينك وكل مما يليك). آداب النوم بالأدعية والأذكار التي يقولها المرء قبل أن ينام. آداب الشراب أن تشرب جالساً كما قال النبي -صلى الله عليه وسلم- بحديث أنس لمّا شرب قائماً: (تريد أن يشرب معك الهر؟ قال: لا، قال: يشرب معك من هو أشر منه، الشيطان)، وكان يأمر بأن يشرب المرء جالساً.

أيضاً آداب الجماع، ما ترك النبي -صلى الله عليه وسلم- الجماع إلّا وعلمنا آداب الجماع. آداب قضاء الحاجة كما في صحيح مسلم: عن سلمان أن اليهودي جاء يحسده ويقول: علّمكم النبي -صلى الله عليه وسلم- كل شيء، ما ترك شيء إلّا علّمكم إياه حتى قضاء الحاجة، قال: نعم حتى قضاء الحاجة ... إلى آخر الحديث. فما ترك أدباً من الآداب إلّا بينه رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، أو بيّنه الله جلَّ وعلا في كتابه مجملاً.

فعموم وشمول الأحكام، سواء أحكام عبادات أو أحكام معاملات أصّل تأصيلاً عاماً أن كل معاملة الأصل فيها الحل إلّا ما بيّن النبي -صلى الله عليه وسلم- من المعاملات المحرمة.

إذاً الأحكام عمومها آداب وأحكام عبادات وأحكام معاملات.

- وشمول وعموم الأخبار؛ فإننا في عصرنا هذا نعلم ما حدث لآدم -عليه السلام-، وأن الله أمر الملائكة أن تسجد لآدم، ولمّا أمر الله الملائكة تسجد لآدم أبى ابليس واستكبر وكان من الكافرين. وإننا

نعلم ما حدث بين نوح -عليه السلام- وبين قومه، ما حدث مع هود وقومه، مع لوط وقومه؛ قال الله تعالى: (كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ) [الشعراء:105]، وقال الله تعالى: (وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا) [الأعراف:65]. فهذه كلها قصص بيّنها النبي -صلى الله عليه وسلم- ، شمول ما حدث مع الأنبياء عندنا منه خبر بفضل الله جلَّ في علاه.

وأيضاً شمول الأخبار التي ستأتي وستحدث، الأخبار المتقدمة التي لم تحدث في عصرنا هذا، أو في عصورنا المتقدمة ستحدث أنبأنا بها الشرع، كما قال النبي -صلى الله عليه وسلم- وأنبأنا أنه سيُرفع العلم ويظهر الجهل ويفشو الزنا بل وأنه يقبض العلم بقبض العلماء، وقال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (بين يدي الساعة سنون خداعة يصدّق فيها الكاذب ويكذّب فيها الصادق ويؤتمن الخائن ويخوّن الأمين وينطق الرويبضة، قالوا: وما الرويبضة يا رسول الله؟ قال: الفاسق (أو قال: الفويسق) يتكلم في أمر العامة)، فهذا شمول للأخبار. وبيّن لنا النبي -صلى الله عليه وسلم- وبيّن الله جلَّ وعلا في كتابه في عرصات يوم القيامة ماذا سيحدث، وماذا سيحدث مع المبتدعة، بل ومع المنافقين ما الذي سيحدث معهم في عرصات يوم القيامة.

هذا عموم وشمول هذه الشريعة الغراء؛ عموم في الأحكام، عموم في الآداب، عموم أيضاً في الأخبار.

والثانية الكمال؛ (الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا) [المائدة:4]، فهذا الكمال كله في هذه الشريعة. وهذه تدلك على أن الإنسان لا يحتاج أن ينظر لشريعة غير هذه الشريعة، ولذلك اشتد نكير النبي -صلى الله عليه وسلم- على أفضل البشر بعده وبعد أبي بكر وهو عمر بن الخطاب، قال: (أمتهوكون فيها يا ابن الخطاب؟) متحيرون فيها يا ابن الخطاب؟ ليس لك أن تنظر لأي شريعة إلّا شريعة محمد أنها شريعة كاملة. (الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا) [المائدة:4].

وأيضاً البقاء؛ هذه صفة ثالثة تنبثق من قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (تركتكم على مثل بيضاء)، البقاء لهذه الشريعة على مر العصور والدهور، كانت القيادة والسيادة والريادة لهذه الأمة في العصور الأولى لمّا تمسكوا بها، ونفس الأمر في هذه الأزمنة لا تكون القيادة ولا الريادة ولا السيادة إلّا بالتمسك بهذه الشريعة الغراء التي تقودنا إلى الارتقاء إلى الله جلَّ في علاه في الدنيا وفي الآخرة. والدلالة عظيمة جداً على بقاء هذه الشريعة إلى يوم القيامة، دلالة من الكتاب ودلالة من السنة.

أي شريعة أخرى، انظر إلى التوراة أين هي الآن؟ انطمست معالمها وأحكامها انطمست معظمها لأنها تحرّفت، الإنجيل نفس الأمر، أمّا هذه الشريعة باقية ببقاء الأمة الإسلامية. دلالة على بقاء هذه الشريعة الغراء إلى يوم القيامة وبقاء الأمة التي تقوم بهذه الشريعة الغراء من الكتاب ومن السنة؛ من الكتاب: (إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ) [الحجر:9]. الكتب السماوية الأخرى؛ التوراة بعد ما نزلت والإنجيل، جعل الحفظ للأحبار والرهبان فضيّعوها وضاعوا. أمّا الله جلَّ وعلا فقد تكفل لهذه الأمة المرفوعة المرحومة التي لها البشرى بالسناء والرفعة أن الله تكفل لها بحفظ الكتاب وحفظ السنة، الآية التي تثبت ذلك: (إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ) هذا وجه الشاهد (بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِن كِتَابِ اللَّهِ) [المائدة:44]، فهذه الشريعة الغراء حفظها الله جلَّ في علاه.

والسنة حديثان: حديث في صحيح مسلم وحديث في السنن؛ هو معاوية بن أبي سفيان خطب الناس فقال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: (من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين، أنا قاسم والله يعطي، ولا تزال طائفة من هذه الأمة قائمة على أمر الله لا يضرهم من خذلهم أو خالفهم)، وأيضاً قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (لا تزال طائفة من أمتي على الحق

ظاهرين)، وهذه دلالة على أنه إلى يوم القيامة تكون طائفة متمسكة على كتاب الله وسنة النبي -صلى الله عليه وسلم-.

إذاً صفات هذه الشريعة الغراء منبثقة من هذه الصفة التي وصفها النبي -صلى الله عليه وسلم- مثل البيضاء هي: عموم وشمول هذه الشريعة الغراء للأحكام وللآداب وأيضاً للأخبار، وكمال هذه الشريعة، والصفة الأخيرة هي البقاء. قال: (تركتكم على مثل البيضاء ليلها كنهارها)، دلالة على -كما قال الشافعي-: أنها لا تنزل نازلة إلّا وفي كتاب الله حلها علمها من علمها وجهلها من جهلها، وكما قال أبو ذر: مات رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وما من طائر يطير أو يقلب جناحيه في السماء إلّا أخبرنا منه الخبر.

ثم قال النبي -صلى الله عليه وسلم- في الجزئية الثانية: (لا يزيغ بعدي عنها إلّا هالك)، وهذه فصّلنا فيها الشرح على ما رأيت من الكتاب أن الزيغ قسمان، زيادة لكم على هذا الكلام نقول: والهلاك: هلاك دنيوي وهلاك أخروي؛

- أمّا الهلاك الدنيوي الجزئي فهو عدم التسديد والتوفيق، وهذا ظاهر جداً عدم التسديد والتوفيق إمّا لإصابة الحق أو لنشر العلم، ومنها عدم البركة في العلم. وهذا تراه جيداً في بعض الطوائف الذين ابتدعوا في دين الله بدعاً لم يأتِ بها النبي -صلى الله عليه وسلم- فلا ترى لهم بركة في العلم، لا ترى أحد يحمل عنهم هذا العلم وينشره، وحتى بعد تلميعهم فضائياً، هذه في المساجد انظر إلى مساجدهم واذهب إليهم وانظر إلى مجالسهم لا ترى بركة في هذه المجالس، وانظر إلى تلميع هؤلاء الطوائف فضائياً ما تجد الناس ينتفعون بهم ولا تجد أن الله جلَّ وعلا يكتب لهم حسنات لمن يتبعهم بعد ذلك، هذا أيضاً نوع من أنواع الهلاك.
- والهلاك الأخروي معلوم؛ بأن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال إن الله منع عنهم التوبة في الدنيا ليزداد العذاب في الآخرة، وأنهم في العطش الشديد يمنعوا من حوض النبي -صلى الله عليه وسلم- إلى ما لهم من المآل إلى نار تلظى، والعياذ بالله.

الأخير؛ قال النبي -صلى الله عليه وسلم- في الحديث: (أمتهوكون فيها يا ابن الخطاب؟ والذي نفسي بيده لقد جئتكم بها بيضاء) نقية في بعض الروايات، قال فيها النبي -صلى الله عليه وسلم-: (والذي نفسي بيده لو كان موسى حياً ما وسعه إلّا أن يتبعني). أقول قد علم ذلك الدرس صحابة رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، منهم عمر الذي قال فيه النبي -صلى الله عليه وسلم-، فعض بالنواجذ على سنة النبي فكان يطوف بالكعبة ويقول: (والذي نفسي بيده إني أعلم أنك حجر لا تنفع ولا تضر، ولولا أني رأيت رسول الله) يبيّن أن الاتباع فيه النجاة والعصمة بالسنة فيها النجاة، يقول: (ولولا أني رأيت رسول الله -صلى الله عليه وسلم -يقبلك ما قبلتك)، وفعل ذلك ابن عباس، وفعل ذلك ابن عمر، وفعل ذلك سالم. وقد فصّلنا هذا القول كثيراً في التمسك بسنة النبي -صلى الله عليه وسلم-.

الفوائد المستنبطة:

1 - من هذه الفوائد مفهوم المخالفة لا يُعمل به إذا كان المنطوق صفة كاشفة، وهذه تعرف بزيادة الرواية (أمتهوكون فيها يا ابن الخطاب؟)، لأنه قال: (والذي نفسي بيده لو كان موسى حياً ما وسعه إلّا أن يتبعني)، ثم قال: (جئتكم بها بيضاء نقية).

في رواية أن عمر بن الخطاب كان يمسك بيده التوراة، بمعنى ذلك مفهوم المخالفة: إن كانت شريعة النبي -صلى الله عليه وسلم- التي أتى بها بيضاء نقية فشريعة موسى ليست بيضاء نقية، هذا مفهوم المخالفة. ونحن نقول المفهوم هنا غير معمول به، لأن المنطوق صفة كاشفة، كأن النبي -صلى الله عليه وسلم- يعلّم عمر بن الخطاب يقول: انت لا تحتاج لصحيفة موسى حتى ولو كانت من قبل أن تحرّف، صحيفة موسى وإن كانت بيضاء نقية فإن هذه أشد بياضاً ونقاءً لأنها غالبة عليها ولأنها ناسخة. فهذه صفة كاشفة، كأن النبي -صلى الله عليه وسلم- يقول: الشريعة التي بين يديك شريعة غالبة على كل الشرائع السابقة.

فمفهوم المخالفة يُعطّل ولا يُعمل به إذا كان المنطوق صفة كاشفة، وأيضاً من هذه أمثلة كثيرة جداً في الكتاب على هذه القاعدة:

- منها قول الله تعالى: (وَرَبَائِبُكُمُ اللَّاتِي فِي حُجُورِكُم مِّن نِّسَائِكُمُ اللَّاتِي دَخَلْتُم بِهِنَّ) [النساء:23]؛ "ربائبكم اللاتي في حجوركم" هذه صفة كاشفة، يعني كأن الله يقول: والربيبة بنت الزوجة على الواقع أنها دائماً تكون في حجر الرجل الذي تزوج أمها، فلا يجوز أن يتزوجها. ونقول (يعني من النادر): لو كانت بغير حجره وفي غير حجر أمها هل له أن يتزوجها؟ لا، لأن هذا المنطوق صفة كاشفة للواقع.
- (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُّضَاعَفَةً) [آل عمران:130]، هل يمكن لنا أن نقول كلوا الربا لكن قليل؟ لا، هي صفة كاشفة كأن الله يقول: إن أهل الجاهلية كانوا يأكلون الربا أضعافاً مضاعفة.

2 - أيضاً من هذه الفوائد؛ موت الخضر من أين هذا؟ بعض الطوائف يرون أن الخضر حي حتى الآن بل يدعونه لمجالسهم. أقول هذا الحديث أو هذه الرواية فيها دلالة على موت الخضر، هذا ما استنبطه كثير من العلماء، قالوا: لو كان الخضر حياً لذهب للنبي -صلى الله عليه وسلم- ولنصره ولبايع رسول الله -صلى الله عليه وسلم- على نصرته وعلى الدفاع عن النبي -صلى الله عليه وسلم-، لأن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: (والذي نفسي بيده لو كان موسى حياً ما وسعه إلّا أن يتبعني)، وهذا أيضا منبثق من آية في كتاب الله وهي: (وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ ۚ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي ۖ قَالُوا أَقْرَرْنَا) [آل عمران:81].

3 - الفائدة الثالثة: صاحب الحق له أن يبيّن هذا الحق ولا يكون هذا من باب الرياء ولا من باب الكبر ولا من باب العجب، من أين نأخذ هذه الفائدة؟ (تركتكم على مثل البيضاء ليلها كنهارها). ما في

شريعة توافق هذه الشريعة ولا تداني هذه الشريعة، يبيّن عظم شريعة هذا الدين، وهذا حق فأظهره النبي -صلى الله عليه وسلم-.

النبي صلى الله عليه وسلم يقوم ويقول: (أنا سيد ولد آدم)، ويقول: (تركتكم على مثل البيضاء)، حق أراد أن يظهره وهذا ليس فيه عجب ولا رياء، فمن علم أنه على الحق ويرى أن العلم عنده له أن يقول انا أعلم الناس بهذه المسألة فلا تسألوا غيري، وأن تذهبوا لي كما قالت عائشة -رضي الله عنها وأرضاها- لمّا سألوها: إذا التقى الختانان هل يجب الغسل؟ أما قالت: على الخبير سقطت. فللعالم أن يقول، وهذا علم. أمّا قرأتم مقدمات كتب، ما رأيتم أنه يقول وأنت لن تجد في مثل هذا الباب إلّا هنا؟ في كتاب الأذكار ما رأيتم العلماء يمدحون كتبهم؟ فمن أين أتوا بهذا؟

أولاً من قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (تركتكم على مثل البيضاء)، هناك آية أوضح من شمس النهار في هذه المسألة: (اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ) [يوسف:55]. ولذلك العلماء قالوا: له أن يمدح نفسه، مع أن الله قال: (فَلَا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ) [النجم:32] لكن إن كان إظهاراً لحق وتمييلاً للناس حتى يأتوا إلى هذا الحق يأخذون وينهلون منه فله أن يفعل ذلك، ولذلك النبي صلى الله عليه وسلم قال: (تركتكم على مثل البيضاء). وكثير من الصحابة كانوا يفعلون ذلك، -كما قلت- أبو هريرة وغير أبي هريرة، وعائشة -رضي الله عنها وأرضاها- كانت تقول: على الخبير سقطت.

وعن ابن عباس لمّا سألوه عن مسألة يبيّن أنه أعلم الناس في هذه المسألة، لما سألوه عن تفسير آية قال: ما من آية إلّا وقد علمتها، وقال ابن جبير تلميذ ابن عباس وهم يسألونه قال: ما من آية من كتاب الله جلَّ في علاه إلّا وعلمت فيما نزلت وبما نزلت ولِمَ نزلت، سألت وراجعت ابن عباس كتاب الله مرتين، كل مرة يوقفه عند الآية ويأخذ منه تفسير هذه الآية وأسباب النزول. وأيضاً ابن مسعود قال ذلك قال فيه النبي -صلى الله عليه وسلم- أولاً: (من أراد منكم أن يأخذ القرآن غضاً طرياً فعليه بابن أم عبد)، وقال

ابن مسعود: (لو علمت أحداً أعلم مني بكتاب الله لرحلت له)، طبعاً كان ابن عباس في هذه الأونات صغير، فابن مسعود -رضي الله عنه وأرضاه- يبيّن أنه أعلم الناس بكتاب الله جلَّ في علاه.

4 - الإنكار على الأفاضل، وهذه مهمة جداً، وهذه جاءت من النبي -صلى الله عليه وسلم-. وهنا نقول أن الإنكار على قسمين: إنكار من ولي الأمر، وإنكار من الرعية؛

- أمّا الإنكار من ولي الأمر؛ فلولي الأمر أن ينكر علناً وأن يهذب من يشاء ويؤدب من يشاء ويعزّر من يشاء، لأن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: (من أطاع أميري فقد أطاعني، ومن عصى أميري فقد عصاني).

وهنا نقول سيد المرسلين رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أنكر على أفضل البشر بعده وبعد أبي بكر، وأنكر عليه علناً وقال: (أمتهوكون فيها ابن الخطاب؟)؛ أولاً تأديبا لعمر ابن الخطاب، وتحفيزاً له ليتعلم أن هذه الشريعة الغراء لا شيء يدانيها، وتعليماً لمن بعده.

فهذا الإنكار من ولي الأمر له أن يفعل ذلك، لكن هناك آداب أيضا لابد لولي الأمر أن يلتمس طريقها، وقد أدّبنا بها رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: أن ذوي الهيئات لابد أن نجنبهم العثرات، وقد وردت آثار عن النبي -صلى الله عليه وسلم- في ذلك، وهذه ترجع أيضاً للمصلحة والمفسدة التي ترجع لولي الأمر.

- أمّا الإنكار على الرعية أيضاً قسمان:

◆ القسم الأول: الذي ينكر يكون أفضل من الولي مثلاً، كالصاحب، اجتمعت الأمة على أن الصحابي الجليل أفضل الأمم من بعده، وهذا الصاحب له كلمة مسموعة عند ولي الأمر وعند الرعية، هذا يمكن له أن ينكر علناً. وهذا قد حدث، وهذا الذي يجعلنا نوفق بين الأدلة حتى لا تتزاحم، لمّا فعل أبو سعيد الخدري وأبو موسى الأشعري، كل منهم أنكر على ولي الأمر إنكاراً علناً، ولمّا أشار الرجل بإصبعه لمّا كان يدعو بيده قال كما في صحيح مسلم: قبح الله هذه اليد، ما كان النبي -صلى الله عليه

وسلم- يزيد على أن يشير بإصبعه. فكان صاحباً لرسول الله -صلى الله عليه وسلم-، وكان له الجلالة والقدر عند الرعية وعند الولاة، فمن كان في مكانته فليفعل ما فعل. هل وجدنا في هذه العصور من في مكانة الصاحب؟ إذاً هذه المسألة كانت خاصة بالصحابة.

◆ القسم الثاني وهو إنكار الرعية على ولي الأمر هذا وجب شرعاً إن كان مثلاً في آداب أو نصائح دينية من الرعية لولي الأمر، تكون على السر أو على الإسرار وليس على العلن. وهذا الذي أدّبنا به ابن عباس عندما قالوا له: نراه يفعل كذا وكذا، قال: في السر انصحه، يعني هذه سنة نبيكم أن تنصح في السر، وقد بيّنت ذلك تفصيلاً.

الغرض المقصود هنا إنكار النبي علنا كان إنكاراً من ولي الأمر، فلولي الأمر أن يعزّر أو يؤدب أو ينكر علناً كيفما شاء عندما يرى المصلحة.

5 - الفائدة الأخيرة ألا وهي النجاة بالعصمة، بالتمسك بسنة النبي -صلى الله عليه وسلم- لقول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (لا يزيغ بعدي عنها إلّا هالك). فإن من تمسك بسنة النبي -صلى الله عليه وسلم- وبكتاب الله نجا، وإن من زاغ عن سنة النبي -صلى الله عليه وسلم- قد هلك.

وقد بيّن ذلك كثير من الفقهاء منهم الائمة الأربعة؛ كما قال الإمام مالك: كل يؤخذ من قوله ويرد إلّا صاحب هذا القبر، ولن تصلح هذه الأمة او آخر هذه الأمة إلا بما صلح به الأولون، بالتمسك بسنة النبي -صلى الله عليه وسلم-. وكان الشافعي لمّا سئل عن مسألة فأجاب صاحبه بسنة النبي، فقال له السائل أنه استنكر المجيب فقال له: أتقول أنت بذلك؟ قال: أرأيتني خرجت من كنيسة؟ أرأيت في وسطي زنارا؟ ما لي لا أقول بما قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-؟ وكان أيضاً أبو حنيفة يقول: إذا رأيتم قولي يعارض قول النبي -صلى الله عليه وسلم-، فخذوا بقول رسول الله واضربوا بقولي عرش الحائط.

الباب الثاني هو: (لكل عمل شره)، وأيضاً (من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو مردود)، يعني هذا الباب واسع جداً الخطوة، لا سيما وأننا سنقف وقفة

طويلة من حديث: (من عمل عملا ليس عليه أمرنا) لأن له منطوق وله مفهوم وتعلّق فيه بعض المبتدعة، يتعلق بمفهومه بعض المبتدعة.

لأن قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (من عمل عملا ليس عليه أمرنا فهو رد)؛ "مردود" يعني باطل هذا منطوق، مفهومه: من عمل عملاً عليه أمرنا فهو مقبول، فقالوا: الصلاة أمرنا فمن زاد في الصلاة زيادة في أمرنا فيصح ذلك، كذلك الصوم، الزكاة. كما سنبين على الطوائف المبتدعة الذين أخذوا بالمفهوم وفرّقوا بين المفهوم والمنطوق بإذن الله تعالى..

بعد أن بيّنّا ما عليه أهل الاثر من الانقياد وراء الدليل وعدم التبدّع وتدخل العقل في نصوص القرآن والسنّة والاستسلام لِمَ كان عليه سلف الامة رضوان الله عليهم،

سنُسلط الضوء بإذن الله تعالى في الجزء الثالث من شرح هذا الكتاب، كتاب السنة لأبن أبي عاصم، سنُبيّن فيه بإذن الله ضروريّة التمسّك بالألتفاف حول جماعة المسلمين الصادقين منهم المخُلصين لدين الله اصحاب الاثر والمُعتقد الصحيح علماء هذه الامة الربّانيين الذين هم على القاعدة الاصولية العلمية الصحيحة،التي ينبغي ان يكون الجميع عليها،

فقالوا قول الامام الذهبي رحمه الله،وأتبعوه قولا وعملا.

• العِلم قال الله قال رسولـه

قال الصحـابة ليس بالتمويه

ما العلم نصبك للخلاف سفاهة

بين الرسول وبين رأى فقيه

•وقال ابن القيم في النونية :

العِلم قال الله قال رسولـه

قال الصحابة هم أولو العرفان ما العلم نصبك للخلاف سفاهة

بين الرسول وبين رأي فلانٍ..

هذه هي جماعة المسلمين التي سنتكلم عنها بإذن الله تعالى في الجزء الثالث، من شرحنا على كتاب السنة لابن ابي عاصم

كما أننا أيضاً سنُبيّن كما بينّا الخِصال الحميده في اهمية لزوم جماعة المسلمين، سنُبيّن خطورة الفُرقة و وعدم مخالفة الجماعة، جماعة المسلمين.

نسأل الله ان يثبتنا على التوحيد وعلى كلمة التوحيد تابعين لسنة النبي العدنان صلوات ربي وسلامه عليه حتى نلقاه.

والحمد لله رب العالمين

تم تخريج احاديث هذا الباب في الباب الذي سبقه من "تركتم على البيضاء" (١) مكررة..

*وختاماً *

الله أسأل أن ينفع بهذا الكتاب العظيم الأمة الإسلامية وأن يجعل النفع به في المشارق والمغارب،

وقد عرضنا هذا الكتاب بشرحه الماتع، شرح الشيخ الدكتور محمد حسن عبدالغفار حفظه الله، قد عرضنا هذا الشرح على اكابر المشايخ والعلماء وقد أثنوا عليه خيرا

قد عرضناه على الشيخ محمود عطية حفظه الله وأطال عمره وأمدّ في عافيته، فأثنى خيرا

فقال: قد كان الشيخ محمد حسن عبدالغفار من أمّهر وأنشط الطُلّاب وكان حريص كل الحرص على أن لا تفوته كلمة ولا حرف أثناء الشرح وكان لا ينامُ كثيرا كان قليل النوم جدا وكُلّما أستيقظنا وجدناه يبحث ويدُرس ويسأل، وكان من أكثر الطلبة أسئلة لي، ونادرا ما أجِدهُ من غير كتاب في يده والقلم باليد الأخرى، كان حريص كل الحرص على تدويين كل ما ثبت في السُنةِ الصحيحة الثابتة، وما رأيت أحد يشرح كُتب الاعتقاد، أعتقاد السلف الصالح رضوان الله عليهم في عصرنا مثل الشيخ محمد حفظه الله،

وبعد إطّلاعي على شرحه في كتاب السُنّة لأبن ابي عاصم وبما جاء فيه من الحثّ على التقيّد بالأثر وأظهار تراهات وخرافات أهل البدع وقمعها، وأهل الأهواء وأصحاب الرأي وأهل الكلام وذمّ بدعتهم وبما جاؤا به من خُرافات تبعا لعقلهم الذي اضلّهم واضلّ من حولهم.

أقول أنا محمود عطية بعد أن قد بلغتُ من الكِبرِ عِتيّا، أُشهدُ الله أنني قد استفدتُ فوائد من هذا الشرح الماتع المُميّز بأمور لم أكُن قد أستفدتُ منها طوال مسيرتي في التدرييس، ونسأل الله له القبول وأن يفتح عليه أبواب كل خير ويزده بركة في العمر وقوة في البدن والمزيد من شُروحات جميع كتب السلف فهو خير خلف لخير سلف

وصلّ اللهم وسلّم وبارك على نبينا محمد والحمدلله رب العالمين...

جزى الله الشيخ الدكتور محمد حسن عبدالغفار حفظه الله تعالى، على ما يُقدّمه للامة الإسلامية من علوم وشروحات وتأصيلات مميزة وماتعه، جزاه الله عن الاسلام وأهله خيرا وجزى الله كل من ساهم في إخراج هذا الكتاب وكلُ من سعى في نشره، إعمال بقول النبي صلى الله عليه وسلم * مَنْ دَعَا إِلَى هُدًى كَانَ لَهُ مِنَ الأَجْرِ مِثْلُ أُجُورِ مَنْ تَبِعَهُ لَا يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْئًا *

يَرْفَعِ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ..

*مَا الفَخْرُ إلا لأَهلِ العِلمِ إنَّهُمُ
على الهُدَى لِمَن اسْتَهْدَى أَدِلاَّءُ
*وقَدْرُ كُلِّ امرِئٍ مَا كان يُحْسِنُهُ
والجَاهِلُون لأَهلِ العِلمِ أَعدَاءُ
*فَفُزْ بِعِلْمٍ تِعِش حَيًّا بِه أَبَدا
النَّاسُ مَوتى وأَهلُ العِلمِ أَحْيَاءُ.